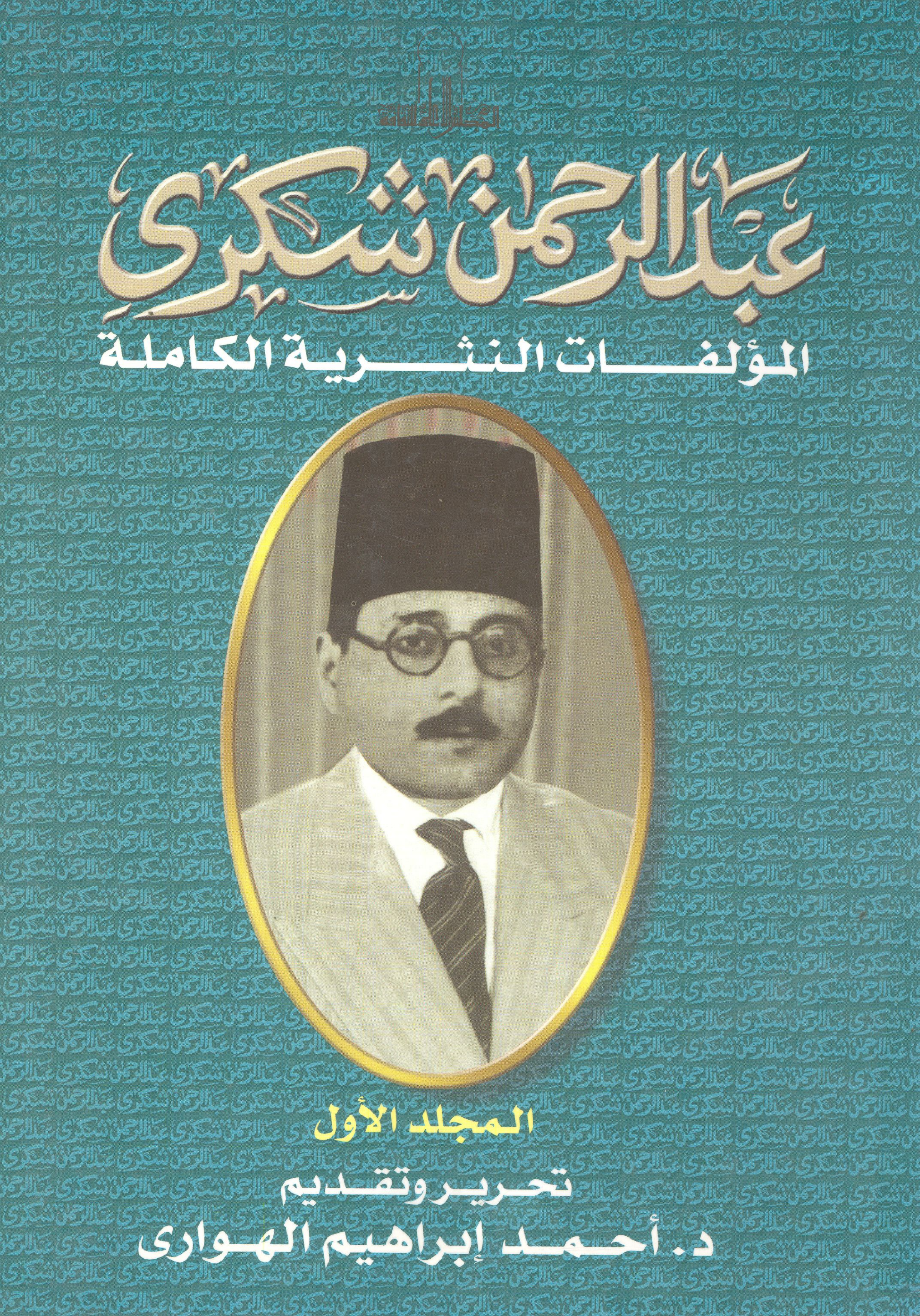


عبد الرحمن شكرى
المؤلفات النثرية الكاملة
المجلد الأول
تحرير وتقديم
د. أحمد إبراهيم الهوارى

المجلس الأعلى للثقافة

عبد الرحمن شكرى

المؤلفات النثرية الكاملة

المجلد الأول

تحرير وتقديم

د. أحمد إبراهيم الهوارى

مقدمة

عبد الرحمن شكرى
جدل الإبداع والحضارة

تثير هذه النصوص من المؤلفات النثرية الكاملة للشاعر الناقد «عبد الرحمن شكرى» (١٨٨٦-١٩٥٨) تساؤلات عن المداخل المنهجية الملائمة أو الأصول الفلسفية المنهجية التى يمكن أن تفسر فى سياقها ؛ سواء من منظور «تاريخ الأدب» أو «النقد» بحيث يفتذى منها مؤرخ الأدب ؛ ومؤرخ النقد .

إن المتأمل فى «نظرات فى النفس والحياة» يلمس ريادة «عبد الرحمن شكرى» فى الكشف عن أسرار النفس البشرية . ولانعدو الصواب حين ننظر فى تلك الشخصيات من أعلام الفكر الإنسانى بوصفها أقنعة أو «مرايا» تكشف عن مواقفه الفكرية والسياسية والاجتماعية . وقد اندمجت فى آراء تلك الشخصيات التى غاص فى عقلها ووجدانها .

ومن قضايا «تاريخ الفكر» تسطع آراء «عبد الرحمن شكرى» فى الجديد والقديم وهذه لابد، لكى نتعرف على قيمة آرائه ، من تحقيق الوقائع الخارجية المتصلة بالنصوص التى تصدّت أو أدلت بدلولها فى هذه القضية ، وملابساتها الزمانية والمكانية ، وعلاقاتها بعضها ببعض . وهنا تأتى أهمية أن يتسلح القارئ بسوسيولوجيا المعرفة، أو علم اجتماع المعرفة .

وعندما يضع القارئ الفاحص هذه النصوص من المؤلفات النثرية الكاملة للشاعر الناقد «عبد الرحمن شكرى» فى سياقها من تاريخ الأدب ؛ فإنها تثير تساؤلات حول نوع المعرفة التى تطرحها ، وقيمة هذه المعرفة ؟ كما تثير تساؤلات حول الخطوات الإجرائية أو الأدوات التى يتبعها الباحث أو المؤرخ الأدبى للإفادة من تلك النصوص ؟ والتراكم المعرفى هنا رافد يلامس فكرة رئيسة فى تاريخ الأدب، أعنى فكرة التواصل أو الاستمرار الثقافى .

على أن هذا الجهد البيليوجرافى والتوثيقى مظهر من مظاهر «الوعى» بما نملك من تراث تمهيداً لدراسته وتقويمه. وهنا تبرز أهمية التأكيد على «عقلية التدوين» على أن نفهم «عقلية التدوين» ليس على أنها اجترار عقيم كالطاحونة التى نمدها بنفس الدقيق، بل نكون على وعى أن هذه العقلية «عقلية التدوين» وصاحبة لكل صحوة فكرية أو قومية . فينبغى أن نفهم أن حاجتنا إلى «عقلية التدوين» أنها إحياء للذاكرة الحضارية للأمة. كما أنها تسهم فى إعادة النظر فى «تاريخ الأدب والنقد» .

ولاتقف هذه النظرة عند حدود أو تخوم «نقل» هذا التراث ، بل إن استراتيجيتها ترتكز على «نقد» هذا التراث ؛ ووضعه في سياقه التاريخي، بوصفه مرحلة من مراحل التطور ، كل مرحلة تسلم للمرحلة التالية. وهنا نشير إلى أن مثل هذه المشروعات الثقافية؛ أعنى التوفر على جمع وإعداد الأعمال الكاملة لرموز الفكر والإبداع، من المشروعات القومية التى تتجاوز قدرة الفرد ؛ بل هى بحاجة إلى روح الفريق للتعرف على الوجه الحضارى الموروث ؛ من خلال «الأثر» . إنها - فى إيجاز- إسهام فى صناعة الوعى وانعاش للذاكرة الحضارية للإنسان المصري والعربى .

ولاريب أن قيام حركة علمية تؤرخ للأدب والنقد؛ لابد لها من مهاد يقوم على استقراء علمى دقيق يحدد أبعاد هذا الكم من العطاء الأدبى والنقدى تمهيداً للتعرف على قيمته النوعية . فالنقد - فى جوهره- على حد تعبير «يحيى حقى» (تسجيل وتبويب ، وتقويم وتبصير يلاحق ويسبق الأعمال الفنية التى تحاول الأمة أن تعبر بها عن نفسها) «المساء : ٨ مارس ١٩٦٠) .

ومعلوم أن أى حركة أدبية عظيمة لابد أن تسندها حركة فلسفية عظيمة . وعندما نضع أمام القارئ المتلقى هذه النصوص من المؤلفات النثرية الكاملة لـ «عبد الرحمن شكرى» فإن هذه النصوص الإبداعية والنقدية والفكرية تثير قضية مقاربة تلك النصوص ، والأصول المنهجية لتلك المقاربة؟ وما دمنا قد أثرنا قضية المنهج . فنحن إذن نكون على مشارف «العلم» أو السياق الثقافى للعلم. وإذا كان العلم هو إحدى صور النشاط الإنسانى بوصفه جهداً يبذله الإنسان متميزاً عن غيره من الكائنات ، فإنه أيضا نشاط يشتبك مع سائر أنواع النشاط فى نطاق الثقافة السائدة وفى حدود المجتمع . فالثقافة السائدة هى الرحم الذى يتصل فيه العلم بأسباب الحياة. كما أن النظم الثقافية الأخرى هى الروافد الرئيسة ، أو بالأحرى هى المنابع الأصلية التى بها إما أن يتفجر نهر العلم أو تجف مياهه . ومن سمات العلم التراكم La Cumulation كما يقول «كورجانوف» Kourganoff فلايتيسر اكتشاف علمى إلا بكشوف أخرى من أجيال سابقة ، وفى مجالات أخرى، فاكتشاف «مدام كورى» لم يكن ممكنًا إلا بعد اكتشاف بكرل Becquerel للنشاط الإشعاعى لليورانيوم : فلكل كشف بمفرده شجرة أنساب . ولا مكان فى العلم للتولد التلقائى . بل إن العلم ، كما يقول سارتون Sarton هو النمو الوحيد فى الخبرة الإنسانية .

بيد أن العلم ليس تراكمًا فحسب ، لأنه لو اقتصر على ذلك لتحول تراكمه إلى نصور ذاتي لايؤدي إلى مزيد من التقدم . وقد كان ذلك القصور الذاتي التراكمي هو علة عجز علوم العصور الوسطى ووقوفها عند اجترار علوم القدماء . فالسمة الثانية إذن هي ثورية العلم ... ويتجمع من جانبي العلم التراكمي والثوري سمة أساسية للعلم، هي طابعه التقدمي ، فهو يسير بخطى متلاحقة إلى الأمام ، فتتراكم معارفه حي تصل إلى الدرجة التي تشرع وقائع جديدة في إعادة النظر في المعارف القديمة . وهكذا يرتفع معمار العلم طابقًا فوق طابق ، ويظل الأمل معقوداً في سواصلة تقدمه طالما لاتتجمد وقائعه عند مرحلة ثابتة لاتعدوها . وهو أيضا جهد جمعي يقوم على التعاون. ولايمكن لرجل علم بمفرده أن يتولى جميع الخطوات والإجراءات . ولابد أن تتكافل جهود العلماء في نطاق فريق . وهذا هو ما عبر عنه « **نيوتن** » في قوله بأنه لم يستطع أن يرى أبعد من الآخرين إلا لأنه استطاع أن يصعد على اكتاف سابقيه » كما لم تعد نتائج فروع العلم المختلفة منعزلة بعضها عن بعض ، بل أصبح كل علم معتمداً على الآخر، يلتقط منه مشكلاته أو يعثر على حلها .

(د. صلاح قنصوه : فلسفة العلم، الطبعة الثانية ١٩٨٣ ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، ص٥٦-٥٨) .

مصادر المداخلات بين القديم والجديد

قبل أن نتعرف على المداخلات بين «عبد الرحمن شكرى» و«محمد أحمد الغمراوى» حول قضية القديم والجديد ؛ لابد أن نشير إلى أبعاد القضية التي بدأت حول «الرافعي والعقاد» وقد فجر القضية . سيد قطب» بوصفه من أنصار العقاد- ممثل الجديد- في مواجهة «محمد سعيد العريان» تلميذ الرافعي ومريده - ممثل القديم- وهذا الحكم ليس على إطلاقه . وقد أشار «عبد الرحمن شكرى نفسه، بنفاذ بصيرة إلى ملكة الرافعي الإبداعية وطاقته الخلاقة ، بما يجعل النص لدى الرافعي أقرب رحما إلى التجديد منه إلى المحافظة : «انظر مثلاً إلى ايجاز الرافعي في كتاب حديث القمر) والكتب الأخرى التي كتبها ، وكأنه لم يكتبها إلا لكي يثبت أنه يستطيع أن يزيد على معاني وصور أدباء أوروبا والمذهب الجديد، وأنه أغنى منهم بمعانيه ؛ كما أنه أغنى منهم بأساليبه الفصيحة العربية ، ولكن فصاحة لغته العربية لم تخف الحقيقة الفنية ، وهي أن الرافعي صاحب (حديث القمر) و (السحاب الأحمر) أقرب إلى أدباء الرمزية الأوروبيين منه إلى الرافعي صاحب كتاب (إعجاز القرآن) . وأعنى القرب في

أسلوب التخيل وأسلوب عرض الصور الفكرية وكل صورة مستقلة غير متدخلة فى أختها . فإذا أراد إذا ناقد أن ينتقد المذهب الجديد أو الأدب الأوربى كانت الطريقة المثلى أن ينتقد ما يعيبه فيه على طريقة النقاد الفنيين فيبين الغث من الثمين ويوضح أسباب حكمه على كل قول وكل أديب. أما أن يقول إن الأدب الأوربى كأدب المذهب الجديد فاسد المعنى والخيال ينبو عنه الذوق العربى وتمجه الفصاحة العربية ، وإنه مباءة المجون والإباحية والزندقة ، فقول من لايريد أن ينقد ولا أن تقدر قيمة ما يقول قدراً صحيحاً ، ولا أعنى الأستاذ الغمراوى فإن هذه أحكام شائعة (الرسالة : ٢٢ / ٨ / ١٩٣٨) .

وقراءة المداخلات كاملة، تكشف عن البنية المنطقية التى تحكم نسج المقالات المذكورة؛ بما تكشف عن سعة أفق صاحبها ، وعمق ثقافته وشمولها . والمقتبس يشير إلى جانب مما أشرت.

ولعل من المناسب أن أشير إلى مكان القضية التى أثارها «**سيد قطب**» لكى تكون بين يدى الباحثين فى سوسيولوجيا الأدب وسوسيولوجيا المعرفة . ولنتعرف على أبعاد قضية القديم والجديد .

- بين العقاد والرافعى : الرسالة ؛ ٢٥ أبريل ١٩٣٨ ، ص ص٦٩٢-٦٩٤ .
- بين العقاد والرافعى : الرسالة ؛ ٢ مايو ١٩٣٨ ، ص ص٧٣٢-٧٣٣ .
- مصطفى صادق الرافعى : الرسالة ٩ مايو ١٩٣٨ ، ص ص٧٦١-٧٦٢ .
- بين العقاد والرافعى : الرسالة ؛ ٩ مايو ١٩٣٨ ، ص ص٧٨١-٧٨٣ .
- مصطفى صادق والرافعى : الرسالة ؛ ١٦ مايو ١٩٣٨ ، ص ص٨٠١-٨٠٢ .
- بين العقاد والرافعى : الرسالة ؛ ١٦ مايو ١٩٣٨ ، ص٨١٣-٨١٥ .

بين الرافعى والعقاد : الرسالة ؛ ١٦ مايو ١٩٣٨ ، ص ص٨٠٨-٨١١

بين العقاد والرافعى : الرسالة ؛ ١٦ مايو ١٩٣٨ ، ص٨٣٨ .

- بين الرافعى والعقاد : الرسالة ؛ ١٦ مايو ١٩٣٨ ص ص٨٥١-٨٥٤ .
- بين العقاد والرافعى : الرسالة ؛ ١٦ مايو ١٩٣٨ ص ص٨٥٤-٨٥٧ .
- نزاهة النقد : الرسالة : ١٦ مايو ١٩٣٨ ؛ ص ص٨٥٨-٨٥٩ .
- بين الرافعى والعقاد : الرسالة ؛ ٣٠مايو ١٩٣٨ ، ص ص٩٠٢-٩٠٣ .

- بين العقاد والرافعي : الرسالة ؛ ٣٠ مايو ١٩٣٨ ، ص ص٩٠٣-٩٠٧ .

- بين الرافعي والعقاد : الرسالة ؛ ٦ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص٩٣٣-٩٣٥ .

- بين العقاد والرافعي : الرسالة ؛ ٦ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص٩٣٦-٩٣٨ .

- كلمة على الهامش : الرسالة ، ٦ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص٩٣٩-٩٤٠

- بين الرافعي والعقاد : الرسالة ؛ ٦ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص٩٥٥-٩٥٦ .

- بين العقاد والرافعي : الرسالة ؛ ١٣ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص٩٧٨-٩٨٠ .

- أهذا نقد. أهذا كلام : الرسالة ؛ ١٣ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص٩٨١-٩٨٢ .

تأملات فى الأدب والحياة : الرسالة ؛ ١٣ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص٩٦١-٩٦٧ .

- تأملات فى الأدب والحياة : الرسالة ؛ ١٣ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص١٠٠٣-١٠٠٦ .

- بين الرافعي والعقاد : الرسالة ؛ ٢٠ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص١٠١٨-١٠٢١ .

- بين الرافعي والعقاد : الرسالة ؛ ٢٠ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص١٠٢٢-١٠٢٣ .

(تعقيب)

- بين العقاد والرافعي : الرسالة ؛ ٢٧ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص١٠٥٧-١٠٥٩ .

- كلمة ثالثة على الهامش : الرسالة ؛ ٢٧ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص١٠٦٠-١٠٦١ .

- كلمة على الهامش أيضا : الرسالة ؛ ٢٧ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص١٠٦٢-١٠٦٣ .

- الكلمة الأخيرة إلى الأستاذ سيد قطب : الرسالة ؛ ٢٧ يونيو ١٩٣٨ ص ١٠٧٧ .

- إلى الأستاذ سيد قطب : الرسالة ؛ ٢٧ يونيو ١٩٣٨ ، ص١٠٧٨ .

- بين مذهبين : الرسالة ؛ ٤ يوليو ١٩٣٨ ، ص ص١٠٩٥-١٠٩٨ .

- بين العقاد والرافعي : الرسالة ؛ ٤ يوليو ١٩٣٨ ، ص ص١٠٩٨-١١٠٢ .

- على هامش المعركة : الرسالة ؛ ٤ يوليو ١٩٣٨ ، ص ص١١٠٥-١١٠٦ .

- بين العقاد والرافعي : الرسالة ؛ ١١ يوليو ١٩٣٨ ، ص ص١١٣٩-١١٤٢ .

مناقشات وشروح

- بين العقاد والرافعي : الرسالة ؛ ١٨ يوليو ١٩٣٨ ، ص ص١١٧٩ - ١١٨٣ .

- بين العقاد والرافعى : الرسالة ؛ ٢٥ يوليو ١٩٣٨ ، ص ص١٢٢٤-١٢٢٧ . .
(غزل العقاد)
- بين العقاد والرافعى : الرسالة ؛ أول أغسطس ١٩٣٨ ، ص ص١٢٦٣-١٢٦٦ .
(غزل العقاد)
- بين العقاد والرافعى : الرسالة ؛ ٨ أغسطس ١٩٣٨ ، ص ص١٢٩٤-١٢٩٧ .
(غزل العقاد)
- بين العقاد والرافعى : الرسالة ؛ ٢٢ أغسطس ١٩٣٨ ، ص ص١٣٨٠-١٣٨٣ .
(غزل العقاد)
- بين العقاد والرافعى : الرسالة ؛ ٢٩ أغسطس ١٩٣٨ ص ص١٤٢٥-١٤٢٩ .
(غزل العقاد)
- بين العقاد والرافعى : الرسالة ؛ ١٢ سبتمبر ١٩٣٨ ص ص١٥٠٦-١٥٠٩ .
(غزل العقاد)
- بين العقاد والرافعى : الرسالة ؛ ١٩ سبتمبر ١٩٣٨ ، ص ص١٥٤١-١٥٤٣ .
(غزل العقاد)
- بين العقاد والرافعى : الرسالة ؛ ٣ أكتوبر ١٩٣٨ ، ص ص١٦١٥-١٦١٧ .
(غزل العقاد)
- غزل العقاد : الرسالة ؛ ١٧ أكتوبر ١٩٣٨، ص ص١٧٠٣-١٧٠٥ .
- أسلوب العقاد : الرسالة ؛ ٣١ أكتوبر ١٩٣٨ ص ص١٧٧٧-١٧٨٠ .
- بين العقاد والرافعى : الرسالة ؛ ١٤ نوفمبر ١٩٣٨ ، ص ص١٨٦٤-١٨٦٦
بينى وبين الرافعيين

وقد اشترك فى هذه الحوارات : اسماعيل مظهر ، سعيد العريان ، سيد قطب ، عبد الجليل المحجوب ، على الطنطاوى ، محمد أحمد الغمراوى، محمد رفيق اللبابيدى ، محمود شاكر ومن العسير أن نتعرف على أبعاد هذه الآراء إلا من خلال التعرف على الأصول الاجتماعية

لهذه الآراء ولأصحابها . ولعل هذا يسوغ لنا أن نقف أمام أبعاد موضوع سوسيولوجيا المعرفة ليكون مهاداً نضع تلك القضايا فى سياقها .

واللافت للنظر أن محمد أحمد الغمراوى أطلق على عنوان المقالات : القديم والجديد ولاريب أن تقديم القديم على الجديد . يعكس الموقف الفكرى للكاتب ، والعكس صحيح بالنسبة لـ «عبد الرحمن شكرى» فقد قدّم «الجديد» على «القديم» بما يشى بالمسكوت عنه : أو المضنون به على غير أهله . وقد قمت بنشر نصوص مقالات محمد أحمد الغمراوى كاملة ثم أردفتها بمداخلات عبد الرحمن شكرى وحواراته مع محمد أحمد الغمراوى .

جدل الجديد والقديم فى ضوء سوسيولوجيا المعرفة

كتب عبد الرحمن شكرى تحت عنوان «الدين والأخلاق بين الجديد والقديم» (الرسالة : ٢٢ / ٨ / ١٩٣٨ ، ٢٩ / ٨ / ١٩٣٨ ، ٥ / ٩ / ١٩٣٨ ، ١٢ / ٩ / ١٩٣٨ ، ١٩ / ٩ / ١٩٣٨ ، ٢٦ / ٩ / ١٩٣٨ ، ٢٠ / ٢ / ١٩٣٩ ، ٢٧ / ٢ / ١٩٣٩ ، ٦ / ٣ / ١٩٣٩)

وهذه المقالات أو المداخلات جاءت ثمرة حوار فكرى بين عبد الرحمن شكرى ومحمد أحمد الغمراوى (أستاذ الكيمياء بكلية الطب) وكانت فى جوهرها تدور حول المذهب الجديد والمذهب القديم .

وهذه الحوارات بين عبد الرحمن شكرى والغمراوى تدخل فى إطار الأصول الاجتماعية لمكونات أبنية العقل العربى : الثقافية والحضارية . وهذه الحوارات دارت بين المحافظين والمجددين حول مفاهيم الثقافة والأدب، وكان من أبرز أعلامها فى جناح المحافظين أحمد زكى باشا ، ومحمد فريدى وجدى، ومصطفى صادق الرافعى، ومحمد أحمد الغمراوى، وشكيب أرسلان ورشيد رضا ، وفى جناح المجددين : العقاد ، المازنى، وزكى مبارك ، محمد حسين هيكل ، طه حسين ، وسلامة موسى ، اسماعيل أدهم .

وقد بدأت هذه المعارك منذ وقت مبكر منذ عام ١٩١٤ ، برسالة منصور فهمى التى قدمها لنيل درجة الدكتوراه في باريس عن «حالة المرأة فى التقاليد الإسلامية وتطوراتها» وكانت فاتحة اتجاه أطلق عليه من بعده تيار التغريب» سار فيه كثيرون : من بينهم طه حسين ومحمود عزمى، وسلامة موسى، وعلى عبد الرازق، واسماعيل أدهم، وعبد العزيز فهمى، ولطفى السيد ومحمد حسين هيكل..

وقد دارت هذه الحوارات أو المعارك حول مفاهيم الثقافة والفكر والحضارة والأدب بين أنصار الجديد والقديم ، على نحو ما تجلت فى الدعوة إلى العامية والفرعونية أو الفينيقية ، وقضية الشعر الجاهلى ، والجامعة الإسلامية ، ثم إزكاء النزعات القومية (أنور الجندى المعارك الأدبية فى مصر، الانجلو المصرية) .

وهنا أود أن أشير إلى أن تناول موضوع أو قضية من القضايا الفكرية ، يعكس بالضرورة، موقف الباحث فى تلك القضية ، ورؤيته لها، ومدى انعكاس هذه الرؤية ، وارتباطها بملابسات عصره .

والتعرف على موقف «عبد الرحمن شكرى» من قضية «الجديد والقديم » يتطلب أن ننظر إلى القضية فى دائرة أوسع ، بحيث إننا نتعرف على أبعادها من خلال «مسافة» تساعد على المعرفة الموضوعية (ولنتذكر أن المسافة من شروط المعرفة) .

وتثير قضية الجديد والقديم، والشرق والغرب مفهوم روح الشعب الثقافية Ethos , Cu-lutaral وهو عبارة عن الأفكار ، والقيم ، والمثل السائدة فى ثقافته أو ثقافة فرعية معينة ، بحيث تعطيها طابعًا مميزاً . والطابع الثقافى المميز Ehtnos عبارة عن السمات والمركبات التى تميز ثقافة معينة ، وتجعلها مختلفة عن الثقافات الأخرى (قاموس علم الاجتماع : تحرير ومراجعة محمد عاطف غيث ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٩ كما تثير مفهوم التراكم الثقافى Cultural accumulation وهو عبارة عن تدعيم ثقافة معينة عن طريق إضافة عناصر جديدة للقاعدة الثقافية الموجودة ، والتراكم هو ما تضيفه الأجيال أثناء نمو الثقافة إلى ما هو قائم من عناصر مثل الأدوات والمهارات ، والتصورات ، والأفكار (بما فى ذلك الأفكار المتعلقة بتنظيم المجتمع) . وقد يشير المصطلح إلى عملية نمو الثقافة التى تضاف فيها عناصر أو سمات ثقافية جديدة ، سواء عن طريق الاختراع أو الاكتشاف أو الاستعارة إلى ثقافة جديدة ، سواء عن طريق الاختراع أو الاكتشاف أو الاستعارة إلى الثقافة القائمة ، الأمر الذى يؤدى إلى زيادة المجموع الكلى للسمات أو العناصر الثقافية . وقد استخدم علماء الانثروبولوجيا هذا المصطلح لوصف الطبيعة المميزة للثقافة ، فليزلى هوايت L . A . white يقول : «إن الثقافة تتضمن الرمزية ، والاستمرار والتراكم وعمليات التقدم » المرجع نفسه

ولايمكن أن نفهم حقيقة أبعاد قضية الجديد والقديم بمعزل عن المناخ الفكرى ومقاربات المفكرين حول قضية «الشرق والغرب» ومن المسلم به أن الموقف الفكرى ، أو النص الأدبى ، عطاء فنى أو فكرى لبيئة معينة. وكما يعلمنا علم اجتماع المعرفة Socialogy of

kuowledge ولاتصدر أى أفكار أو مذاهب أو نظريات جديدة عن فراغ . ولايمكن فـهم هذه الأفكار والنظريات فهما صحيحًا إلّا بمعرفة المناخ الفكرى والسياسى الذى ساد قبل ظهورها فى مجتمع بعينه ، كما لايمكن تفسير الأفكار والنظريات الجديدة بمعزل عن الخلفية الاجتماعية والثقافية لأصحابها ، والمصالح التى يمثلونها عن وعى أو غير وعى .

المبدع بين جدل الحاضر والماضى

من الأقوال المأثورة عن شيخ الأمناء أمين الخولى » : أول التجديد قتل القديم بحثًا . وهذه المقولة تستدعى مفهوم «عبد الرحمن شكرى» عن التجديد وموقفه من القديم . فهو يرى أن البحث فى الهوية الحضارية يزدهر عند بدء نهضات الأمم « ... لأن كل خلق فى حياة الناس، يأتى قبله نقد وبحث ، يهدم ويفسح له مكانًا للبناء . والنهضات من مظاهر البناء، وكل نهضة أولها هدم وآخرها بناء (حديث إبليس : ٢) .

ويتجلى الحس التاريخى بنظرية الدورات الحضارية عند «عبدالرحمن شكرى» فى تأكيده «أن بعض الأمم مثل بعض الأفراد والآراء والمنازع الجديدة ، قد تغير حياة الأمة كل التغيير حتى تصير كأنها أمة أخرى . ولكن خير الأمة أن تحيا حياة ثانية ، وأن تتغير أحوالها من أن تنعدم وتفنى .

وإذا نظرت إلى التاريخ ، وجدت أن تلك الأمم التى فسدت أنظمتها القديمة ومرت عليها عصور مظلمة بالتعاسة والذل والضعة ، يأتى عليها عصر تكون فيه بين عوامل التجدد والحياة، فلاتخش من التغير وعوامل المحافظة على القديم ، فتجبن عن الجديد وتحجم عن تجدد حياتها باقتباس المنازع والرغائب والآراء الجديدة ، فإما أن تحيا حياة ثانية باقتباس المنازع والرغائب والآراء الجديدة ، فإمام أن تحيا حياة ثانية وإما أن تنعدم وتفنى فى شخصية غيرها من الأمم (الثمرات : ٧٥ ، ٧٦)

ومن الأهمية أن نشير إلى النظرة التاريخية التى ينبغى أن يتحلى بها المتلقى من خلال نظرته لقضية «القديم والجديد» ، و«الشرق والغرب» . والمقصود بالنظرة التاريخية إلى الماضى أو التراث عامة تلك النظرة التى تضعه فى سياقه الفعلى ، وتتأمله من منظور نسبى ، بوصفه مرحلة انتهى عهدها ، وتلاشت فى مراحل تجاوزتها بالتدريج حتى أوصلتنا إلى الحاضر. وفى مثل هذه النظرة التاريخية لايكون الماضى قوة منافسة للحاضر . ولاتثار على الإطلاق مشكلة التوفيق بين الماضى والحاضر، لأن الحاضر بطبيعته يحمل فى داخله بذور الماضى ، ولأن الماضى خلق الحاضر عن طريق تجاوزه المتدرج لذاته» (فؤاد زكريا: التخلف

الفكري وأبعاده الحضارية، بحث قدم فى ندوة أزمة التطور الحضارى فى الوطن العربى أبريل ١٩٧٤ . الطبعة الأول ، الكويت ، ١٩٧ ، ١٦٨)

وإذا كـان الواقع لايتكلم إلا من خلال المبدع الذى يسهم فى صياغة هذا الواقع ويشكله ويتجاوزه ، فإن هناك بُعداً ثالثا يكمل الدائرة الزمنية للإبداع هو البعد الماضى . والواقع أن كل لحظة حاضرة ما تلبث أن تصبح ماضيًا . والفنان المبدع يدرك هذه الحقيقة من خلال موقفه من نفسه ومن إبداعه . ومن هنا يصبح الماضى مستمراً ومتصلاً باللحظة الحاضرة .

على أن فكرة الاستمرارية هذه - على الأقل من منظور الفنان المبدع- لاتمثل فى الواقع إلا تصوراً نظريًا للماضى ؛ أما على مستوى التجربة الإبداعية فالأمر يختلف ، حيث تنصهر كل الوقائع السابقة وتصفى وتقطر لكى تصبح- من منظور التجربة الراهنة - خلاصة للماضى ، الذى يصب فى الحاضر . وهكذا تفقد وقائع الماضى فى وقت واحد تسلسلها وتعددها ، وتندغم فى كل موحد . ومرة أخرى يجد الفنان المبدع نفسه منخرطًا بالضرورة فى هذا الكل الموحد، ولكنه بحكم إبداعيته - يمارس تجربته الآنية المتفردة التى تصوغ فى الوقت نفسه ذلك الكل (الماضى) صياغة جديدة ، ما تلبث أن تصبح هى نفسها جزءاً من هذا الكل .

يقول ميخائيل متياس : إن الماضى جُمَّاع أحداث ، ولكن التجربة الآنية واقعة متعينة ومفردة . والوقائع الماضية الكثيرة تصبح واقعة واحدة ، تزداد بإضافة واحدة إليها هى الواقعة الجديدة التى هى تركيب طارئ . emerged Syhthesis للوقائع السابقة» عز الدين اسماعيل فصول، قضايا الإبداع ، الجزء الأول، المجلد العاشر ، العددان، الأول والثانى، يوليو ١٩٩١ (أغسطس ١٩٩١) ، ص١٣٨ . .

إن هذه الحقيقة تكشف لنا بوضوح عما تنطوى عليه عملية الإبداع من جدل بين الحاضر والماضى ، بين التجربة الآنية والتراث . ولأن كل تجربة آنية ما تلبث أن تصبح تراثًا فإن هذه الحقيقة الأخرى تلفتنا إلى جدل جديد ولكنه جدل متصل بالجدل الأول ومترتب عليه ، هو جدل المبدع مع نفسه ومع إبداعه ، فكل عمل إبداعى له ما يلبث أن يصبح تجربة ماضية ، أى أنه يدخل فى دائرة التراث الكل؛ وهو لذلك لايمكن أن يكرر التجربة نفسها ، التى فرغ منها، إلا إذا كانت طاقته الإبداعية قد نضبت ، ولكنه - فى حالة نشاطه الإبداعى المتصل- يجد نفسه مطالبًا بأن يتعامل مع إبداعه السابق كما يتعامل مع التراث الذى يستوعبه فى ضميره كلاً موحداً سواء بسواء (عز الدين اسماعيل المرجع نفسه) .

إن هذا الجدل بين الحاضر والماضى يندغم فى عطاء «عبد الرحمن شكرى» بوصفه مبدعًا

وناقداً فى آن . ومن هذا المنظور نتعرف على خصوصية التجربة الإبداعية وتفردها فى التراث الإبداعى لشكرى : شاعراً أو ناثراً ، ومن جانب آخر، يتألق هذا التواصل والماضى فى البنية الفكرية والنقدية التى يرتكز عليها شكرى فى رؤيته النقدية ، على نحو ما تتبدى تجلياتها فى دراسته لشعراء العصر العباسى فى ضوء القرائن الحضارية «... ثم إنك لاتكون صادق الحكم فى آداب اللغة العربية مثلاً إلا إذا درست آداب العصور التى تعاقبت عليها ، فإذا درست آداب عصر واحد ، كان رأيك أبعد ما يكون عن الصواب (الثمرات ، ط الأولي ، الاسكندرية ١١١٦ : ٣٢ .

عبد الرحمن شكرى و «الشرق والغرب»

احتلت قضية «الشرق والغرب» مساحة كبيرة فى المداخلات الفكرية بين المفكرين فى نهايات ثلاثينيات هذا القرن . وارتكزت هذه الحوارات الأدبية حول مفهوم الثقافة والعلم بين (الشرق والغرب) والخصائص العقلية التى تميز الشرق عن الغرب، والأصول العرقية . وهذه القضايا تمس فى جوهرها المنهج الأنثروبولوجى والإثنولوجى الذى صدر عنه رجال الفكر والثقافة ، وامتدت هذه النظرة لتمس نظرية الأجناس الأدبية، ومدى معرفة العرب بفن القصة ، والنظر إلى شاعرية الشعراء وفق أصولهم الإثنولوجية . وهو ما عرف فى تاريخ الفكر بالنظرية الآرية . وهذه نظرة تتسم بالتعصب السلالى Ethnocentrism (أحمد الهوارى ، اسماعيل أدهم ناقداً ، دار المعارف، ١٩٩٠ ، ص٥٨-٦٠)

وأكتفى بالإحالة إلى مظان قضية الشرق والغرب (أحمد الهوارى : المؤلفات الكاملة للدكتور اسماعيل أدهم) الجزء الثالث قضايا ومناقشات ، بين الشرق والغرب دار المعارف، ١٩٨٦ ، ١١٩-١٧٥)

على أن اللافت للنظر فى موقف عبد الرحمن شكرى «من قضية الشرق والغرب. أنه تجاوز فى مرجعيته «**المركزية الأوروبية**» و «**النظرية الآرية**»، وكشف، بفضل ما تحلى به من حس تاريخى ثاقب ، بجدلية المكان والزمان ، وبالإنسان صانع التاريخ ، عن نظرة مغايرة لما أدلى به نخبة المثقفين والمفكرين حول هذه القضية . فهو «عبد الرحمن شكرى» يرفض تقسيم العقل البشرى إلى عقل شرقى وعقل غربى، إذ يرى «أن العقل البشرى وأن النفس البشرية واحدة فى الشرق والغرب فى صفاتها الأساسية ، وأن الاختلاف بين العقول والنفوس فى الشرق والغرب لايكون أكثر من اختلاف عقول ونفوس آحاد الأفراد فى الأمة الواحدة، ففى الأمة الغربية كما فى الأمة الشرقية أناس يغلب عليهم تحكيم المنطق وأناس يغلب عليهم تغليب الوجدان وأناس

يغلب عليهم تغليب الخيال فى التفكير ، وفى الأمة الشرقية كما فى الأمة الغربية أناس يقدسون العادات ويعدونها ذات قداسة كقداسة الدين ، وفى كل منهما أناس يحاولون فى كل عصر تحوير العادات والأفكار ... (العقول بين الشرق والغرب ، مجلة الثقافة: ٢٥ / ٤ / ١٩٣٩ : ١٩)

وهو يرتكز فى مرجعيته على منظور تاريخى حضارى «والذى دعانى إلى هذه الأفكار درس التاريخ ودرس الجغرافيا ودرس الشعر والأدب فى الشرق والغرب . فالذى يقرأ تاريخ الإمبراطورية الرومانية وأثر الجواسيس فيها لايجده أقل من أثر الجواسيس فى أيام حكم السلاطين ذوى الأهواء والبطش فى الدولة العثمانية ؛ أو فى الدولة العثمانية» (نفسه)

ويرى أن العقول والنفوس في الشرق والغرب متقاربة جد التقارب متى تهيأت الأسباب والمسببات من أحوال وظروف . ويرتكز على منظومة من المعرفة بالتاريخ والأدب والفلسفة والجغرافية؛ «فالأفكار والعادات تتغير فى الشرق كما تتغير فى الغرب ، فالثقافة الإنسانية إذا كان الناس مشتغلين بالرعى تختلف عنها إذا كانوا مشتغلين بالزراعة أو بالصناعة ، والثقافة فى الأمم ذات الحكومات المطلقة تختلف عنها فى الحكومات الجمهورية ، ولكن ينبغى ألا ننسى أن أساس العقل والنفس لايتغير، وأن الأمة الواحدة تظهر فى ثقافتها آثار الأحوال الجغرافية أو السياسية التى مرت بها ، وتظهر هذه الآثار حتى فى عصر واحد فى أفكار أناس مختلفى الثقافات . وتحسن طرق المواصلات فى العصر الحديث ، أدى إلى تقارب الثقافات فى الشرق والغرب ، وإن كان أثر القرون الماضية واختلاف الأحوال فيه ظاهراً فى اختلاف الثقافات كما أن أثر اختلاف الأحوال الجغرافية والاجتماعية ظاهراً أيضًا» (نفسه) وهى نظرة - بلاشك- سابقة لعصره نبعت من الروح الديالكتيكية التى تتميز بها عقليته القادرة على الجمع بين النقائض والأضداد. ولنا أن نتصور مدى النظرة المتوازنة التى تحلى بها «عبد الرحمن شكرى» عندما نضعها فى إطار المشهد النقدى الذى يطرح السؤال الثقافى العام، والذى تألق عند مفكر فلسطينى كبير مثل إدوارد سعيد ؛ وفى إثراء ناقد مصرى كبير مثل أهاب حسن .

إن ثورة الاتصالات والقنوات الفضائية ، وتدفق المعلومات عبر شبكات الإنترنت ؛ والتقدم المذهل للإعلام :أفضى إلى العولمة والنظر إلى العالم بوصفه قرية كونية صغيرة ، كل ذلك مجتمعًا اقتلع هذه المفهومات التى تشطر العقول البشرية وفق نظرة آرية استعلائية ، لتصبح فى متحف تاريخ الفكر بوصفها «تاريخا» لا أكثر .

عبد الرحمن شكرى ونظرية الشعر

القارئ للمؤلفات الكاملة لـ «عبد الرحمن شكرى» يجد نفسه أمام منظومة من الآراء النقدية؛ ولايمكن أن يصل القارئ إلى معرفة أبعاد مفهوم «عبد الرحمن شكرى» للشعر، إلا من خلال تكامل هذه الآراء النقدية المتناثرة .

ونلحظ أن «عبد الرحمن شكرى» يعزف على أوتار المدرسة الرومانسية فى الشعر. وكثيراً ما نلمح أصداء تلك الآراء التى تكاد تتكرر، أحيانًا بلفظها ، ويشعر القارئ أن الحياة عند «عبد الرحمن شكرى» شعر يعاش : وأن الشعر عنده حياة تكتب ولعل هذا يفسر لنا هذا الإلحاح على أن يُفَرد بالشعر وقيمته ، ويتجلى لنا هذا الإلحاح فى ديوانه ، وفى كتابيه «الاعتراف» و«الثمرات» فضلا عن مقدمات دواوينه .

وتأتى آراء «عبد الرحمن شكرى» فى الشعر والشاعر، شارحة ما نظمه شعراً فى ماهية الشعر وحقيقته . صحيح أنه لم يصنع صنيع ابن عربى فى «ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق » لكن قراءة المشهد النقدى تقدم لنا صورة عامة تؤكد تكامل نظرة الشاعر الناقد، وأن حياته كانت فى الشعر .

إن القارئ لديوان عبد الرحمن شكرى يلمس حرص الشاعر / الناقد على نظم مفهومه للشعر : شعرا . ففى قصيدته «عصفور الجنة» يقول : الديوان : الجزء الثالث «أناشيد الصبا»، ص٢٦٦ .

ألا يا طائر الفردو ... س إن الشعر وجدان

وفى قصيدة «الشعر والطبيعة» يقول : نفسه ص٢٢٦ .

وما الشعر إلا القلب هاج وجيبه ... وما الشعر إلا أن يثير مثير

نرى فى سماء النفس ما فى سمائنا ... ونبصر فيها البدر وهو منير

وما النفس إلا كالطبيعة وجهها ... رياض وأضواء بها وبحور

وفى قصيدة «أغاريد شاعر» يقول فيها: الديوان : الجزء الرابع ، ص٣٤٧ .

وإنما الشعر نغمة ... كحنين المزامر

يرفع النفس سحرهُ ... عن وهاد الحقائر

يبلغ النفس أفـــقـــنهـــا	كـــجَناح الطائــــــر

يفـتح النفــــس ضــوءُهُ	مــثل ضــوء التـبــاشــر

مــثلمــا يفـتح الصــبــا	حُ زهـــى الأزاهـــر

وفي قصيدة «شكوى شاعر» الديوان : الجزء الثاني «لآلى الأفكار» ، ص١٦٥ . يدحض آراء من يسخر بمهمة الشعر ويؤكد مفهومه للشعر:

وإنما الشعر تصوير وتذكــــرة	ومنعة وخيال غير خــوان

وإنما الشعر مـــرآة لغانيــــة	هى الحياة فمن سوء وإحسان

وإنما الشعر إحساس بما خفقــت	له القلوب كأقدار وحدثـــان

إن عبد الرحمن شكرى رومانسى حتى النخاع ، فهو من «الأنا» يبدأ وإلى الأنا . يعود وعنده «... إنما الشاعر ، شاعر القلب ، فهو الذى يصف عواطف النفس وأطوارها ، فيصف عواطف الحب والجمال والجلال، والخوف والفزع والأمل ، واليأس والرحمة والكره والحقد والبخل والجود والشجاعة والجبن وغيرها من عواطف النفس وأحوالها . وهو الذى يصف أساليب الحياة التى تجول فيها هذه العواطف كل مجال ، ومظاهر الوجود التى تتعلق بها العواطف . فهو الشاعر الذى عواطفه مثل عواطف الوجود ، مثل الأمواج أو الرياح أو الضياء أو النار أو الكهرباء، فإن هذه عواطف الكون. وهو الذى يحكى قلبه الأوركستر الكثير الآلات ، الكثير الأنغام» الاعتراف ، ط . الأولى ، الإسكندرية ١٩١٦ ، ص١٩-٢٠ .

ويقدم «عبد الرحمن شكرى» فى مقدماته لدواوينه تصوراً لنظرية الشعر عند المدرسة الجديدة ، ويرسى دعائم الأسس الجمالية التى تنهض عليها ، فالجزء الخامس فى ديوانه «الخطرات» وثيقة نقدية فى الشعر والشاعر وعملية الإبداع نفسها ، وإن صاغها فى قالب شعرى زاخر بالصور على أنه لوكتبها فى أسلوب علمى خرجت نظرية متكاملة جديدة .

لقد أثار «عبد الرحمن شكرى» فى هذه المقدمة نقاطا هامة مستقاة كلها من النظرية الرومانسية فى انجلترا ، ذلك أن ظروف هذه الرومانسية شديدة الشبه بظروف الرومانسية فى مصر . وهى أقرب إليها من الرومانسية الفرنسية ، ذلك أن كلا من الرومانسية المصرية والإنجليزية لم تكن ثورة على القديم وإنما كانت ثورة على طريقة إحياء هذا القديم . فالشعر العربى القديم شعر رائع ، ولكن الذى يستحق الهدم هو التقليد الحديث لهذا القديم . كذلك

أحس شعراء الرومانسيه الإنجليزية . لقد مجدوا الشعر الكلاسى القديم ولم تكن ثورتهم إلا على شعر الكلاسية الجديدة الأقرب إلى زمانهم. وتتبنى الرومانسية المصرية فكرة تضخيم دور الشاعر إلى حدأن تجعله مسئولاً عن تغيير المجتمع كله إلى الأفضل ، لذلك فهى تطلب إلى الشاعر الكثير ، وكذلك فعل الرومانسيون الإنجليز ، فقد جعلوه نبياً مصلحًا . انظر : سهيل القلماوى : عبد الرحمن شكرى، أعلام الأدب المعاصر فى مصر، دار الكتاب المصرى اللبنانى .

أما عن الشاعر فإن أول ما نادى به شكرى فى هذه المقدمة أن « يكون عند الشاعر ما سماه بالشره العقلى الذى يجعل الشاعر راغبًا فى أن يفكر كل فكر وأن يحس كل إحساس ، وينبغى للشاعر لكى يجئ شعره عظيمًا أن يتذكر أنه لايكتب للعامة ولا لقرية ولا لأمة وإنما هو يكتب للعقل البشرى ، ونفس الإنسان أين كان . ولا هو يكتب لليوم الذى يعيش فيه ؛ وإنما يكتب لكل يوم وكل دهر». مقدمة الديوان الجزء الخامس ، الخطوات ط. الأولى ١٩١٦ ، ص٢٦ ، ٢٦١ .

وقد فرق عبد الرحمن شكرى بين التخيل والتوهم ، فالتخيل هو أن يظهر الشاعر الصلات التى بين الأشياء والحقائق ويشترط فى هذا النوع أن يعبر عن حق . والتوهم أن يتوهم الشاعر بين شيئين ليس لهما وجود. وهذا النوع الثانى يغرى الشعراء الصغار ولم يسلم منه الشعراء الكبار .

والمعرفة البينية بين الفنون تفسر مدى وعى الناقد لطبيعة الفنون وطاقاتها التعبيرية وركيزتها الجمالية على نحو ما بدت فى نظرية لسنج «لاوكون» . ويمكن أن نفهم فى سياقها الجمالى وضع الشاعر والرسام .

ينتقل «عبد الرحمن شكرى إلى التأكيد على أن كل موضوعات الشعر تستلزم قدراً من العاطفة والتفكير . ومن ثم ، ينبغى التفرقة بين شعر العاطفة وشعر العقل. وفى هذه المقدمة تتجلى السيرة الأدبية للشاعر «عبد الرحمن شكرى»: فهى تؤذن بميلاد المذهب الذى آثره : «**شعر الفكر والوجدان** » وهنا يبدو تأثير شعر الغرب وأدب الغرب فى شعر شكرى وأدبه وما عجبت من شئ عجبى من القوم الذين يريدون أن يجعلوا حداً فاصلاً بين آداب الغرب وآداب العرب، زاعمين أن هناك خيالاً غربيًا وخيالاً عربيًا » .

ويحرص «عبد الرحمن شكرى» على التأكيد على أهمية التواصل مع التراث واستيعاب تاريخ الأدب العربى، فإرهاصات التجديد تبدأ باستيعاب المشهد الإبداعى القديم. فدراسة الأدب العربى تزيد الشاعر عمقًا . وهذا العمق أو بتعبيره المتانة تستلزم درس آداب كل العصور التى مرت على اللغة العربية حتى يكون ذوق الشاعر واسعًا صحيحًا (نفسه) لامس «عبد الرحمن شكرى» قضايا التأثير بين الأديبين العربى والإنجليزى فى مقال» واجب أدبى وانتحال المعانى الأدبية» (المقتطف: يناير ١٩١٧) وهذا المقال كان إرهاصا بنذر معركة أدبية عصفت بالعلاقة بين شكرى والمازنى فتركتها صعيداً زلقا.

ويصل «عبد الرحمن شكرى» إلى لب عملية الإبداع من خلال نظرة ترى أن عمل الشاعر فيما يضطلع به عمل النحل فى قول أبى العلاء :

والنحل يجنى المر من نور الربــى　　　فيصير شهداً فى طريق رُضَـا بـه

فالعالم الماهر يخرج من الجيد جيداً، ولكن العبقرى يخرج أيضا من الردئ جيداً . ولكن بعض القراء يقئ على صفحته ما قد قرأه بدل أن يخرج من أزهار ما قرأ شهداً. وهذا هو الفرق بين العبقرى وغيره من الناس (مقدمة الديوان الجزء الخامس ، ص٣٧) .

ويثير شكرى مفهوم الأخذ أو الاتكاء على السابقين «إن المطلع بآداب لغة من اللغات لابد أن يجتنى بعض ما يقرأ من المعانى والخيالات من غير أن يشعر. وإنك إذا أدمنت قراءة المتنبئ مثلاً علقت بذهنك بعض معانيه . وأما المعيب فهو أن يأخذ الشاعر المعنى عمداً ، أما إثبات العمد فليس من الصعوبة بمكان ، فمن مظاهر تعمد السرقة النقل والأخذ لا المشابهة والتوليد . فإن المشابهة والتوليد لاتعد سرقة ، ومنها تسلسل المعانى كما فى الأصل وكثرة المتشابه وعجز الشاعر عن الابتداع والتوليد . وهو يؤكد أن الاحتذاء شئ والنقل والأخذ بالنص أو شبه النص شئ آخر . والأخير هو الذى لايرضى مطالب النفس والوجدان» (المقتطف : مايو ١٩٣٩) ومهما تكن عيوب الاحتذاء «فإنه أفادنى ومنعنى عند اطلاعى على الشعر الأوربى من الاندفاع وراء الأوهام والمغالاة والتجارب العقيمة (المقتطف يوليو ١٩٣٩) فليس ثمة حدود جامعة مانعة بين السرقة والتوليد والابتداع ، على نحو ما يشى سياق الحديث ، على أن إثارة القضية فى تلك المرحلة الباكرة من تاريخ النقد مما يحسب لشكرى .

عبد الرحمن شكرى ولعبة الفكر والكتابة

فى رسالة «عبد الرحمن شكرى» لرئيس تحرير المقتطف «فؤاد صروف» (الأبحاث، السنة ١٣ جـ٢ يونيو / حزيران ١٩٦٠ ، ص٢٢١) أشار إلى البنية العقلية التى يتميز بها : «أنا لا أعرف ألعاب الورق ؛ ولكن لعبة الفكر والنثر والشعر أصبحت عندى مثل لعبة Patience هذه أى أنى ألعب لعبة الفكر والنثر والشعر وحدى فأفكر وأكتب ثم أمزق ما أكتب ثم تستعيد الذاكرة بعضه وتنسى بعضه ... فالكون عظيم والحياة غنية . والفكر أشبه بالشرر الذى يتطاير من العجلة المولدة للكهرباء فى المعمل إذا اقترب منها أصبع . فهل يصح الندم على هذا الشرر المتطاير الذى يفنى . وأرجو أن لايسوءك قولى لعبة الفكر، فهذا تعبير لم ابتدعه، بل له مثيل فى الإنكليزية حيث يقولون The Play of thought and feeling وقد يذكرون هذه الجملة فى أثناء مدح كتاب أو مقالة .

وفى موضع آخر يؤكد أن الكتابه عنده لعب . وهذا الرأى لشكرى ، ينحدر من نظرية معروفة تربط بين النشاط الإبداعى وبين اللعب. « ... وعلى أى حال فإنى لا أدعى الشعر والنثر ولا التفكير ولا ماينبغى لها كلها وإنما هى عندى لعب » «ومن رسالة لفؤاد صروف ؛ ٢٨ يناير ١٩٤٣ ، الأبحاث، نفسه » .

وعند «عبد الرحمن شكرى» لاينفصل السؤال النقدى عن السؤال الثقافى العام. والبنية النقدية لاتنفصل عن البنية الفكرية. ويحكى لنا منابع «**التكوين**» الثقافى الذى هيأ – من بعد– أن ينهض بدوره فى التنوير والنهضة «ولعل أعظم مورد لثقافتى الأوربية كان سفرى فى البعثة العلمية إلى انكلترا ١٩٠٩ . وهذا المورد كثير الجداول والعيون فمنه الثقافة التى أدى إليها اختلاف مظاهر الطبيعة فى انكلترا عنها فى مصر، (وهو هنا يؤكد على ثقافة المكان) والثقافة التى دعت إليها دراستى جويتى الحكيم الألمانى ودراستى المعجبين به أمثال كارلايل وامرسون، والثقافة التى كنت أدرسها فى جامعة شيفلد فى التاريخ والجغرافيا والاقتصاد السياسى، وعلم السياسة ، والنظريات السياسية ، ونظم الحكم ، والثقافة التى سهّلها وجودى فى انجلترا، وهى ثقافة دراسة الشعراء الذين كانوا فى ذلك الوقت يعتبرون الشعراء الحديثى العهد مثل سونيبورن وروزينى وأوسكار وايلد وغيرهم» (المقتطف : يوليو ١٩٣٩) .

وفى سيرته الأدبية يشير إلى أنه قد تأثر « ... عند دراسة هؤلاء الأدباء والشعراء بهذه الروح ، وأعنى روح الطموح إلى العرفان وكشف خبايا الحياة، والتمست معينا على ذلك فى

كل ناحيـة من نواحى الآداب . التمسـتـه فى وصف شكسبير وبروننج للنفـوس ، وفى وصف النفوس والحياة فى قصص كبار القصصيين، وفى كلمات المفكرين .. كما التمسته فى الخيال الرومانتيكى الطليق الذى يعبر عن هذه الروح على الطريقة الخيالية الرومانتيكية. وهذا هو السبب، فى أن جانبًا من قولى يمثل الخيال ، وجانبا آخر يمثل التحليل النفسى ومظاهر النفوس فى الحياة، لا على طريقة إميل زولا والمذهب الطبيعى، فليس فى إميل زولا تحليل للنفوس ولاخبرة بحكمتها وفلسفتها ، بل على طريقة شكسبير وبروننج فى الشعراء ودكنز وثاكرى وبلزاك وأناتول فرانس وفلوبير وموبسان وتلستوى وترجينيف وغيرهم» . (المقتطف : يوليو ١٩٣٩) .

وقد تأثر عبد الرحمن شكرى بجوته ، وكان من مبادئه أن يحاول المرء أن يستفيد فائدة ثقافية من كل شئ وأمر، ومن كل إنسان يقابله، ومن كل مذهب فكرى أو مذهب فى الإحساس حتى ما لايلائم طبعه . وهذا هو فى الحقيقة مغزى قصته (ولهلم ماستر) وهذا هو سبب اختلاف نواحى الثقافة فى شعر شكرى ذلك الاختلاف .

وكان لدراسة «عبد الرحمن شكرى» للفنون الإغريقية وعبادة الإغريق للجمال أثرها فى النفس مما جعله يعد الجمال ثقافة .

وانشعاب جوانب ثقافة عبد الرحمن شكرى تركت بصماتها فى البنية الفكرية التى يتميز بها وتتمثل فى «**الاتزان الفكرى**» «قلما أعرض فى قصيدة جانبا من الإحساس أو المشاهد إلا وأعرض ما هو ضده طلبًا للاتزان الفكرى» (الشعر والثقافة ، المقتطف يوليو ١٩٣٩) كما أن دراسته لنظرات المفكرين والأدباء الفلاسفة فى النفس والحياة، تركت آثارها التى تنضح فى أسلوبه، على نحو ما بدت تجلياتها فى مقالاته التحليلية فى الطبيعة البشرية والحضارة ، فنحن نلمح روح السخرية تسرى فى أدبه، وهو هنا يتأثر بسويفت وڤولتير وأوسكار وايلد وأناتول فرانس وسومرست هوم .

وقد أضفى عبد الرحمن شكرى على فن المقالة من رائع أسلوبه ، كما أكسبها من الخيال والأدب والفكر والسخر والشدة وسخريه بحيث غدت مثل وخز سلاح المبارز. ويشعر القارئ أن كاتب المقال «عبد الرحمن شكرى» يتحلى ببصيرة نافذة، وفطنة فى فهم الطبيعة البشرية والسلوك الإنسانى ويحار المرء هل كان «عبد الرحمن شكرى» يحب الحياة والناس على نحو ما كان رابليه ؟ أم كان يكره الحياة ويحتقر الناس على نحو ما كان سويفت ؟ ولعلك لو قرأت

مقالاته في «الصفات المحسودة» ولعبة التخادع »، و«التفاؤل والتشاؤم» و«وسائل الاغتياب» ، و«عواقب النصيحة» و«مظاهر الشعور بالحقارة» و «عود إلى داء الشعور بالحقارة» لوجدت شيئا مما أشرت إليه . فآراؤه في النفس ، قد تدعو إلى احتقار النفس البشرية واليأس منها واتهامها بالأثرة والأنانية ، وهو هنا قد يكون متأثرا بمونتاني وجوته .

ويتبدى هذا التساوق الفكري symmetry في نظرة شكري التي تنهض على أن «كل حقيقة ناقصة حتى تقرن بأمثالها . ومن أجل ذلك كان في كل صواب شئ من الخطأ ، وفي كل خطأ شئ من الصواب . كل معنى ينتجه ذهنه جزء من معنى ، وكل حقيقة يقع عليها جزء من حقيقة . ومن أجل ذلك كان كل شئ في الوجود مرآة لكل شئ وتفسيراً له» (الثمرات :٤٨) .

و«عبد الرحمن شكري» ينقد من يظنون أن الشئ إذا كان صوابًا فليس به شئ من الخطأ . وسبب ذلك صلابة في الرأي خارجة عن قلة اختبارهم أمور الحياة اختبار المفكر الباحث . ومثل هؤلاء الناس يقولون إن الشئ إذا كان شراً فليس به شئ من السر. لكن أمور الحياة ليست كذلك ، وكما أن السم ، وهو شر ، جزء من الدواء ، وهو خير كذلك أمور الحياة تمزج الاضداد فيها ، هذا مفتاح الحياة ، ومن عرف الحياة كان أكبر من الحياة . فإن عرفانه الحياة يملأ صدره حزمًا وبصيرته صفاء» (الثمرات : ٥٦) ونلمح هنا أصداء الفلسفة الجدلية (بفتح الدال) تسري في البنية الفكرية لعبد الرحمن شكري .

ومن جانب آخر ، يلمس القارئ لآثار «عبد الرحمن شكري» تنوعًا في الأسلوب، وإلى قريب من هذا ما أشار إليه هو نفسه «وإذا كان في م . ن عيب من حيث هو أديب ، فهو أن أسلوبه في الوصف والتنقل من مقال إلى مقال ، مثل وميض البرق تراه يشرح لك عاطفة من العواطف، كأنه يكتبها بالنار على وجه الدجى ، أو كأن كلماته الشرر المتطاير ، ثم يتركها من غير استئذان إلى وصف غيرها » (الاعتراف : ١١٧) لكن يظل «عبد الرحمن شكري» غواص في بحار الثقافة والحياة ينشد الكلمة العذراء «إن الكلمات والقوى النادرة لاقيمة لها في نفسها ، بل قيمتها في استخراجها واستعمالها وما ينشأ عنها من المؤثرات ، كما أنه الجواهر الكريمة أو المعادن النفيسة ، لاقيمة لها ما دامت في باطن الأرض ، بل قيمتها إذا استخرجت وصادفت رغبة فيها. أما إذا لم يوجد رغبة فيها فلم تكن لها قيمة» (المؤيد : اذل يوليو ١٩١٤)

حول هذه المؤلفات الكاملة

تأتى هذه النصوص التى تطمح نحو توثيق نصوص الأدب والنقد الحديث، خطوة على طريق طوله ألف ميل، لإرساء بنية العقل النقدى العربى ؛ مؤكدة استمرارية قضايا التنوير الأدبى والنهضة .

وقد ارتكز هذا المشروع العلمى الذى يعد بمثابة حفريات فى جدار الثقافة العربية لإرساء دعائم صناعة الثقافة الثقيلة ، على كتاب «عبد الرحمن شكرى» ضمن سلسلة أعلام الأدب المعاصر فى مصر ، وهى سلسلة بيوجرافية نقدية ببليوجرافية، أعدها د. حمدى السكوت أستاذ الأدب الحديث بالجامعة الأمريكية ود. مارسدن جونز أستاذ الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية (دار الكتاب المصرى - القاهرة ، دار الكتاب اللبنانى - بيروت ، ١٩٨٠)

على أننى بذلت غاية ما فى الطاقة من جهد لجمع هذه الأعمال النثرية : إبداعًا ونقداً ، وهناك نصوص لم يتيسر لى العثور عليها منها المقالات التالية :

- جلال العظيم	الجريدة	٢٥ / ٦ / ١٩٠٨
- جمال الطبيعة	الجريدة	٢١ / ٧ / ١٩٠٨
- الشهرة	الجريدة	١ / ٨ / ١٩٠٨
- حرية المرأة	الجريدة	٥ / ٨ / ١٩٠٨
		و ٩ / ١١ / ١٩٠٨
- السوداء واليأس	الجريدة	٨ / ٨ / ١٩٠٨
- الرغبة فى الحياة	الجريدة	٢٩ / ٩ / ١٩٠٨
- شعر حافظ ابراهيم	الدستور	من ٢ / ١١ / ١٩٠٨
		إلى ٢٧ / ١١ / ١٩٠٨
- «الصور» لمحمد السباعى	الجريدة	١٧ / ١١ / ١٩٠٨
- كيف يقرأ الشعر	الجريدة	٥ / ٨ / ١٩٠٩
- العزيمة	الجريدة	٩ / ٨ / ١٩٠٩
- منظر من مناظر الشقاء	الجريدة	١٢ / ٨ / ١٩٠٩

- في الأخلاق	الجريدة	١٣ / ١٠ / ١٩١٠
- بين الرجاء واليأس	الجريدة	٢٤ / ١٠ / ١٩١٠
- عظم النفس وعظم الحياة	الجريدة	٢٦ / ٤ / ١٩١١
- الحجاب والسفور	الجريدة	٩ / ٨ / ١٩١١
- أوروبا والمصلحة	الجريدة	٢٥ / ١١ / ١٩١١
- لحن الشعراء ومستقبل الشعر العربى	الجريدة	٢٦ / ١١ / ١٩١١
- الشعر العصرى ، لحن الشعراء	الجريدة	١٣ / ١٢ / ١٩١١
- الشعر العربى وديوان المازنى	الجريدة	٢٤ / ١٢ / ١٩١٣
- مشترى الأحلام	الجريدة	٣ / ٤ / ١٩١٥
- شعر المازنى	عكاظ	٢٨ / ١١ / ١٩١٦
- خلود فى التجارب	المقتطف	٥ / ١٩١٧
- شعر المازنى	عكاظ	١٩ / ١١ / ١٩١٧
- خطوات فى الموت والحياة	عكاظ	٤ / ٤ / ١٩١٩
- كلمات فى المازنى	عكاظ	من ١٨ / ١١ / ١٩١٩ إلى ١٢ / ٤ / ١٩٢٠
- ديوان «مرآتى» لحسن فهمى المحامى	السياسة	١٨ / ٤ / ١٩٢٣
- لاكيد ولاعداء	السياسة	١٢ / ٩ / ١٩٣٤
- الشهرة والخلود	المقطم	١٤ / ٩ / ١٩٣٤
- ردیارد كبلنج	المجلة الجديدة الأسبوعية	٥ / ٢ / ١٩٣٦
- العبقرى والفن	الوادى	١٢ / ١٠ / ١٩٣٦

كما لم يتيسر لى العثور على قصص «عبد الرحمن شكرى» التالية :

١- المجنون	مجلة الـ ٢٠ قصة	١١ / ٩ / ١٩٣٧

٢- نحو الظلام	مجلة الـ ٢٠ قصة	١ / ١١ / ١٩٣٧
٣- لا لن أحب	مجلة الـ ٢٠ قصة	١٥ / ١١ / ١٩٣٧
٤- الغروب	مجلة الـ ٢٠ قصة	١ / ١٢ / ١٩٣٧
٥- أغنية الموج	مجلة الـ ٢٠ قصة	١٥ / ١٢ / ١٩٣٧
٦- هل يدوم الحب	مجلة الـ ٢٠ قصة	١ / ٢ / ١٩٣٨

وقد ذكر مؤلفا كتاب «عبد الرحمن شكرى د. حمدى السكوت ومارسدن جونز فى (ب) أعمال بالاشتراك : «مشاهير شعراء العصر فى مصر وسوريا والعراق ودمشق ، ١٩٢٢ بالاشتراك مع عباس العقاد وابراهيم المازنى وآخرين . جمع أحمد عبيد . والواقع أنها مختارات أحمد عبيد من ننتاج عبد الرحمن شكرى وليست أعمالا مشتركة .

ولم يتيسر لى العثور على ديوان الاسكندرية ، «الاسكندرية ، ١٩٣٥» بالاشتراك مع خليل شيبوب وعبد اللطيف النشار وآخرين

وقد لاحظت أن هناك قصائد لم تنشر فى قائمة القصائد وذكرت فى المقالات والدراسات (ص١٣٣) فمقال «فى الأخلاق» (الجريدة ١٣ / ١٠ / ١٩١٠) ليس لعبد الرحمن شكرى وإنما هو خلاصة المحاضرة ألقاها «حضرة محمود أفندى عزمى الطالب بإرسالية الجامعة المصرية مساء الأحد ٩ أكتوبر» فى الأعمده الأول ، الثانى ، الثالث. وفى العدد نفسه والصفحة ذاتها من الجريدة نشر «عبد الرحمن شكرى» قصيدة «وصف البحر» فى العمود الرابع. ولم يرد ذكر لهذه القصيدة فى كتاب د. حمدى السكوت .

كذلك قصيدة بين الرجاء واليأس نشرت فى الجريدة (٢٤ / ١٠ / ١٩١٠) وقدم لها شكرى بمقدمة نثرية)

وقصيدة القلق والغفلة نشرت فى الجريدة (/١١ ١٢ / ١٩١٠) قدم لها عبد الرحمن شكرى بمقدمة نثرية .

كما يلاحظ أن مقال «عبادة القوة» وقد نشر فى الجريدة - كما ذكر كتاب. السكوت فى الجريدة من ١٩ / ١٢ / ١٩١٠ إلى ١٠ / ٨ / ١٩١١ (على فترات غير منتظمة) لم أعثر إلا على مقال واحد نشر فى الجريدة ١٩ / ١٢ / ١٩١٠ ولم يذكر الكتاب أن المقال نشر ضمن كتاب «الثمرات» .

وبعد ، فهذه المؤلفات الكاملة تظهر بعد جهد قام به د. محمد رجب البيومى حيث نشر. «دراسات فى الشعر العربى» وهو مجموعة بحوث لشكرى نشرت بالرسالة والثقافة والمقتطف صدرت عن الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٤ كما نشر «نظرات فى النفس والحياة» صدرت عن الدار المصرية اللبنانية وأشير كذلك إلى أن د. عبد الفتاح الشطى قد جمع مقالات . «نظرات فى النفس والحياة» وقدم لها بمقدمة تحليلية وظهرت فى كتاب عن «الهيئة العامة للكتاب» (١٩٩٦) .

وتأتى هذه المؤلفات الكاملة لتستوعب كل ما وقعت عليه عين الباحث من آثار الشاعر الناقد «عبد الرحمن شكرى» . على أنى أشرت إلى ما لم يتيسر لى العثور عليه من أعماله.

وأود أن أشكر الصديق الناقد والمفكر الكبير الأستاذ الدكتور جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة لترحيبه بنشر هذه المؤلفات الكاملة، ومساندته ودعمه المستمر ليظهر هذا المشروع العلمى ويرى النور ، كما أشكر من ساعدنى فى العثور على مواد غابت عن يدى وأخص بالذكر الزملاء أ . د . مدحت الجيار أستاذ ورئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة الزقازيق . ود. محمد المسلمانى مدرس الأدب المقارن بكلية الآداب جامعة الزقازيق ، ود. جمال الدمرداش مدرس النحو بكلية الآداب جامعة الزقازيق ود. مصطفى الضبع الذى تجشم أعباء مراجعات تجارب «بروفات» هذه المؤلفات الكاملة ، رغم الأعباء التى كان يعانى منها .

ولا أنسى الجهد الكبير الذى نهض به الصديق المؤرخ الأديب الدكتور قاسم عبد قاسم أستاذ ورئيس قسم التاريخ ، ومستشار دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية حيث جنّد فريق عمل لإنجاز كتابة هذه المؤلفات الكاملة فى فترة قياسية ، والله المستعان .

أحمد الهوارى

جامعة الزقازيق

جامعة الإمارات العربية المتحدة

العين فى ٢٧ / ٨ / ١٩٩٧

(١)

الاعتــــراف

«وهو قصة نفس»

الطبعة الأولى: الأسكندرية ، ١٩١٦

رسالة من صاحب الاعتراف

صديقى الأعز

لقد مللت الحياة فى عالم المدنية، فرأيت أن أهيم فى مجاهل السودان، لأن صحراءها أشبه بالأبد الذى أحببته من المدن وستضيق الصحراء بنفسى ، كما ضاقت بها المدن . وقد رأيت أن أودع عندك (مذكراتى) كى تذكرك بي ، وبما كان بيننا من الود . فإذا مضت سنة ولم أراجعك فانشرها إذا وجدت فى نشرها ما يفيد .

المخلص

م - ن

مقدمة لمؤلف الاعتراف

لقد مضت سنوات لم أسمع فى خلالها شيئًا عن صديقى م . ن صاحب الاعتراف ، فجعلت أسأل عنه حتى علمت أنه صار يهيم فى فيافى السودان. حتى وصل إلى بلاد نيام فأكله أهلها رحمة الله عليه . لقد كان يحتقر الإنسانية ، فانتقمت منه بأن أكله أبناؤها . ولكنه انتقام يثبت أنه كان مصيبًا فى احتقاره إياها ، وقد زعم أناس أنه لم يمت وأنه توغل فى أواسط أفريقيا إلى مواطن الزنوج فأسرته قبيلة منهم تدعى قبيلة الشنانجة ، ولكنهم أعجبوا بسكوته وعبوسه وكسله وقلة مبالاته ما يقع حوله من أمور الحياة، فاتخذوه إلهًا، حاسبين هذه الصفات من صفات الله. فإذا صح ذلك ، كان صديقى إلهًا لايزال حيًا يرزق ، يعبده زنوج قبيلة الشنانجة فى أواسط أفريقيا ، وليت شعرى ما حاله، وما خواطره ، وهل هو سعيد بمنزلته بين أولئك الوحشيين الجهلاء .

وقد رأيت أن أجمع هذه المذكرات ، وأن أنشرها لأن فى نشرها عبرة كبيرة لمن يعتبر. وسيرى كثير من القراء نفوسهم مكبرة مرسومة فى هذه الصحائف ، لأننا فى حياتنا الاجتماعية سواسية مثل أسنان الحمار، هذا إذا صح أن أسنان الحمار سواسية ، ولاأظن ذلك، أو مثل أسنان المشط . وسبب ذلك أن العوامل الاجتماعية التى تعمل فى نفس الفرد منا، تعمل أيضًا فى نفوس سائر الأفراد. فصفات الشاب المصرى هى صفات م . ن صاحب الاعتراف ، فالشاب المصرى فى حالة أمتنا الاجتماعية الحاضرة عظيم الأمل ، ولكنه عظيم اليأس . وكل منهما فى نفسه عميق، مثل الأبد. والسبب فى ذلك ، أن حالتنا الاجتماعية تستدعى شدة الأمل، وشدة اليأس ، ومازلت أجد بين حالة الأمة الاجتماعية ، وبين نفوس أفرادها رابطة متينة والشاب المصرى يكثر من اساءة الظن، وهى صفة اشتهر بها المصريون ، والسبب فى سوء ظنه ، عصور الاستبداد الطويلة التى مرت على مصر . فانها أبقت هذا الإرث فى نفوس الأفراد ، لأن الاستبداد يبعث سوء الظن والشاب المصرى ضعيف العزيمة ، كثير الأحلام ، والأطماع والأمانى، يمضى أيامه فى الأحلام ، بدل أن يمضيها فى مزاولة الأعمال وكذلك الخوف فيه، فإن شجاعة الشاب المصرى شجاعة متقطعة مبتورة ، شجاعة تستحى من نفسها. وأما خوفه ، فهو مبدأ عام. والشاب المصرى عنده ميل شديد إلى مزاولة

الأعمال العظيمة المجيدة ، ولكن يعجز عنها ، والشاب المصرى مهيج العواطف ، ولكنه غير عظيمها. وهو كثير الغرور لأنه كثير الأحلام والأمانى . وهو ليس عنده شئ من الاعتماد على النفس ، وهو شديد الإحساس، ولكنه يبكى فى ضحكه ، ويضحك فى بكائه ، وهو كثير الشكوى، والتضجر ، قليل الصبر مثل صاحب الاعتراف ، تحز فى نفسه قيود القدر المحتوم ، فيجتهد أن يصدعها عنه فلا يقدر، فيزداد حزنًا ويأسًا ويفكر ، ولكن تفكيره غير منتظم ، وهو كثير الحيرة والشك ، بالرغم من غروره بترك ما يعنيه لما لا يعنيه . لايعرف أى أفكاره وعاداته القديمة، خرافات مضرة ولا أى أفكاره وعادته الجديدة حقائق نافعة . من أجل ذلك ، يضره القديم كما يضره الجديد، فهو من قديمه وجديده غريق بين لجتين، أو مثل كرة فى أرجل المقادير فإلى أين تقذف به تلك المقادير .

أما م . ن فإنه رحمه الله ، كان شابًا يحب القراءة والتفكير ، وكانت تلوح فى عينيه علامات السأم والحزن والتفكير ، وقد تقلصت شفته السفلى تقلص السخر. ولكن كان يلوح على وجهه، بالرغم من ذلك ، أنه كثير الحنان رقيق القلب، وأحيانًا كنت لاترى فى وجهه شيئًا من الحزن أو الألم ، وفى بعض الأحايين ، كان وجهه مثل السماء التى تراكمت سحائبها وتلبدت غيومها. وكان كثير من الناس يسيئون فهمهم وكان كثير من الناس يسيئون فهمه ، فأساء فهمهم ، كما هى الحال بين الناس قاطبة ، وكان أحيانًا شديد التواضع ، وأحيانًا شديد التكبر . كان لايعرف كيف يعاشر الناس ويداريهم، ويأخذ ما صفا ويتغاضى عما كدر . ويحتال للحياة ولاستجلاب السعادة فضاقت بنفسه الصحراء، بعد أن ضاقت بها المدن كما يقول فى رسالته .

٣٣

ذكـرى الطفـولة

إن المرء إذا جعل يتذكر أيام طفولتـه ، أحس لذة مثل لذة الرجل ، عند روءية ابنه الصغير . فاننا ننظر فى أعماق السنين إلى ذلك الطفل الذى كناه فى طفولتنا ، فنحنو عليه ونقبله بفم الذكرى ، وهو لدينا ، مثل وليد لنا رضيع . ولقد يجول بخاطر المرء، أن ذلك الطفل الصغير الذى كـانه ليس بذلك الرجل الكبير الذى يحنو عليـه، الذى يعبث بالذكرى ، ويكشف عن الطفولة حجابًا مثل حجاب الحسان ، فإن أكثر المرء مكتسب من الأيام والحوادث . ومن أجل ذلك صار يعد شخصه فى الطفولة جزءاً صغيراً منه. ولو تفهم المرء تقلبه فى أطوار عمره، لرأى أنه ينتقل من حياة إلى حياة ، وأنه يخلع كل يوم حياة ويلبس أخرى.

لست أعجب من شئ عجبى ، من أنى لاأزال أذكر حوادث من حوادث الطفولة . وأن المرء ليزهى بالمقدرة على ذلك التذكر ، كأنه قد سلب جزءاً من الخلد ، وصفة من صفاته. ولقد تمر بالمرء ساعات يتوق فيها إلى طفولته ، ويناجى شخصه الصغير الذى كان يعمرها قائلاً:-

يا بنى قد جعلت بينى وبينك الأيام سداً ، فنحن لانلتقى حتى يلتقى الأزل والأبد، أمد يدى إليك كما يمد الأعمى يده إلى قائده وأقول لك أين أنت ... فيجيب الصدى قائلاً أين أنت ؟؟

ظل الطهر

على ذكر الطفولة وأيام الصغر ، أقول تحزنني رؤية علامات الشر على أوجه الأطفال، والغلمان الصغار. فانها بالرغم من طهارة الطفولة ، تلوح على أوجه الصغار، كما تلوح على أوجه الكبار . وأما الطهارة التى تنسب إلى الطفولة ، فهى عجز الطفل عن مواقعة كثير من الشر، لأنه ليس عنده من القوة والدهاء والتفكير ، ما يعينه على ذلك . وقد تجد الطفل يتعجب من وقوع الشر من غيره، ويحزن لذلك لاسيما إذا كان الشر واقعًا به، ولكنه لايحس ما يفعله من الشر، ولا يعرف أنه شر . وهذه الخصلة، موجودة فى الرجال أيضًا فإنهم يفعلون الشر، فلاترتاع ضمائرهم . ولكن إذا فعل غيرهم الشر، اهتاجت لواعجهم، وارتاعت ضمائرهم من أجل ذلك، وهذا دليل على أن الضمائر ، آلة من آلات العواطف والرغائب تحركها كيف شاءت .

إنى أرى على أوجه الأطفال ما تكنه أخلاقهم من أوائل الجشع، والبخل ، واللؤم، والقسوة. ولكن ضعفهم وقلة مكرهم، تسدل على هذه الملامح حجابًا مضيئًا . رفرافًا كالسراب . وتبعثنى رؤية هذه الملامح ، إلى التفكير فيما يستقبل من حياة هؤلاء الأطفال الآمنين المطمئنين الضاحكين . فكأنى بأوائل شرهم صارت نهاية ، وبنضارتهم شحوبًا ، وبضعفهم الذى يلين لهم قلوبنا ، قوة ومكراً . وكأنى بذلك السراب الرقراق الذى كان يلوح لنا فى وجوههم ، سراب الطهر والعفة ، قد اختفى ولم يبق مكانه غير آثار العواطف قد ارتسمت على أسرة تلك الوجوه ، فحدود شاحبة من معاناة الأقدار ، وشفاه مقلصة من الضعف أو السخر ، والكبر ، وعيون غائرة ، يلوح فيها بريق الشهوات . وابتسامة كلها خبث ودهاء. وجبهة قد رسم الدهر بها خطوطًا . فكأنما طيات تلك الجبهة المعقدة أطلال سنى العمر الماضية .

أزهار الشباب

هل تذكر طيش الحب في أول الشباب. وما كان يغريك به من نزوات وهفوات حين أفقت من غفلة الصغر، فأحسست تلك العاطفة في قلبك . إن الحب لابأس به ، إلا إذا أغرى المرء بأعمال تزرى بعقله . ولكن من ذا الذى لم ينز به الحب فى شبابه نزوات التيوس ، أو العصافير . فإن طيش المحب مثل طيش العصافير فى حركاتها ، وإنه ليخيل له، أن الحب قد أنبت فى كتفيه أجنحة يطير بها إلى حيث يشاء . فيحسب أنه لو رمى بنفسه من نافذة منزله لم يسقط ، ولم يصبه أذى بل يطير به الحب ويخيل له أنه قادر على أن يقفز من شارع إلى شارع فوق المنازل ، من غير أن يلمسها ، ويسمع المحب أنغامًا وألحانًا غريبة ، لايسمعها غيره، وليس لها وجود ويرى أشكالاً هندسية بديعة لاتسمع عنها فى كتب الهندسة ويرى أزهاراً خيالية ، لايعرفها الباحثون فى علم النبات ويحسب أنه مركز هذا الوجود ، وأن حبه موجود من الأزل خالد إلى الأبد ، مثل جمال حبيبه . ويحسب أن هذا الوجود، لو أصابه العدم، لبقى حبه مستقلا عن الوجود ، وتراه يتصيد أصحابه ، فيخبرهم كل خبر تافه عن حبه، حتى يتضجر جليسه ، وهو لايرى شيئًا من ضجره ، بل يحسب أن جليسه مُصغ إليه كل الإصغاء، وأنه يجد لذة فى حديث حبه كأنما هو قصيدة من قصائد النسيب والغزل فيا بؤس من يجالس المحب ، ثم يفيق المرء من خلم الحب الذى يشبه أحلام معاقر الأفيون ، فيخجل من جنون أحلامه ، ويتذكر الساعات التى قضاها تحت نافذة حبيبه ، والحالات التى كانت تعتوره كلما نظر إليه حبيبه ، نظرة غضب ، أو رضا أو إدلال أو إغراء ، أو زجر ، أو أمر أو نهى، أو تشجيع ، أو تثبيط . ويتذكر رسائله إلى حبيبه ، وكلمات العشق التى كان يتلوها على سمعه ويتذكر ما كان يضل عقله من المواعيد. وكلما خاف أن يفوته ميعاد من حبيبه ، بحث عن نعله وهو لابسه ، وسأل عن عصاه وهى فى يده .

شعر الألوان والروائح

الشباب كثير الألوان ، جم الروائح فهو حديقة من حدائق الربيع، وروح من أروح الفردوس . وهو الحياة ولاحياة بعده. والألوان والروائح ، من أشد الأشياء إثارة للعواطف . وإنى لأجد لذة فى النظر إلى الألوان المختلفة ، من الحمرة ، أو الزرقة، أو البياض أو الصفرة أو البنفسج أو الخضرة . وأجد فى كل لون معنى ولحنًا من معانى العواطف وألحانها . فالألوان والروائح تبعث الذكر والأمانى . ألم تر قط لونًا بديعًا ، أو رائحة ذكية فأذكرتك حبيبًا مضى، وعهداً تقضى. أم لم توقظ ذكرى الساعات اللذيذة والأمانى والأحلام الحلوة، التى هى جمال الحياة، حتى كأنك تسمع تغريد العصافير فى صدرك ، وتجد لذة ليس بعدها لذة ، فى النظر إلى الأشياء حتى كأن الله قد كسا وجوه الحياة بنور من نوره. ولقد تنقلب الألوان فى أيام الشقاء والتعاسة، فتصير جمرات مختلفة الألوان فتحس لهيبها فى العين والقلب . وكذلك فى الروائح لذة وألم. فإنى أحيانًا أشم الروائح العطرية بعنف ، كما يلتهم الجوعان طعامه ، ولكنى تؤلمنى الرائحة الكريهة، مهما خفيت وأتاذى بها كما أتاذى بالخطب الجلل، وأتمنى أحيانًا ، لو تكون الحياة فى يدى خرقة أريق عليها ما أشاء من الروائح العطرية . آه ما أجمل الحياة ، التى يشم صاحبها منها رائحة الفل أو الياسمين أو البنفسج .

إن لذات الحس، قد تبلغ بالمرء جنون اللذة ، ولكنها تبلغ به أيضًا جنون الألم . ومن كان كذلك ، لم ترج له سعادة فإن السعادة أن لايكون إحساسك شديداً.

آه ليتنى أمد يدى إلى السماء فاختطف بها الضوء، وأخط به على القرطاس خدوداً مثل خدود الحسان، وعيونًا مثل عيون الملاح. تلك العيون التى تضئ وجه النهار، وتلك الخدود التى تنير وجه الحياة.

سماء الأمل

إن الأمانى والأطماع ، من أسباب الشقاوة ولكنها أيضًا عن مصادر السعادة. وهى بنات الخيال المستفز . ويخيل لى أحيانًا أنها تملأ هذا الهواء الذى أنشقه . وقد يخيل لى أنى إذا نظرت فى المنظار المكبر، رأيت جراثيمها فى الفضاء ، كالذباب الكثير الألوان الذى يتهافت على الرمم. ومن أجل ذلك ؛ صرت كأنى مريض بالأمانى . وكانت الأطماع تحوم حولى من صغرى ، وتطن فى أذنى طنين الذباب وتارة تسمعنى ألحان البلابل، وتليح لى بضياء يملأ السماء ، فكأنها قد فتحت أبوابها وخرج منها ذلك الضوء الذى يعشى البصر . وكأن هذا الضوء سلم ممدود بينى وبينها فأحب أن أتعلق به ، وأبلغ به طبقاتها العالية ، وإنى لأذكر فرحى بقوس قزح وأنا غلام صغير إذ كنت أصفق وأرقص طربًا برؤيته وأتمنى لو كنت مثله أزين السماء بتلك الألوان الرائقة . وكلما كبرت، تمكنت من قلبى تلك الأمنية ، فأتمنى لو أعيش كالشمس أشرق كشروقها ، وأغرب كغروبها ، وأملأ السماء ضياء وأنشد قول الأحوص.

إنى إذا خفى الرجال وجدتنى
كالشمس لاتخفى بكل مكان

هكذا خلقت كثير الأمانى والأطماع . ومن أجل ذلك، كنت أيضا كثير البأس ، لأن من سما بع الأمل إلى سمائه ؛ لابد أن ينزل به البأس إلى حضيضه . ولقد كنت وأنا غلام صغير ، أصعد إلى سطح المنزل بالليل ، وأسهر الساعات الطوال ، كى أرى ليلة القدر ؛ ثم أحدث نفسى قائلاً : ماذا أطلب من الله ؟ أطلب الغنى ، أم الصحة والعافية، أم السعادة أم التقوى، أم القوة أم كبر العقل ورجاحة الفضل؟ فتدركنى الحيرة وأخشى أن نظهر ليلة القدر وتنقضى وأنا فى تلك الحيرة، لم أختر بعد الشئ الذى أطلبه ، وعند ذلك أطلب من الله أن يؤخر ظهورها قليلاً، ثم أرى أن أطلب كل شئ وصارت هذه الأطماع تعظم كلما كبرت ، فصرت أقضى الساعات فى أحلام الأمانى، فتارة أحلم أنى زوس سيد الآلهة ورئيسها أو هرقلة إله القوة أو مارس إله الحرب . وتارة أحلم أنى أفلاطون الفيلسوف أو باكون، وتارة أحلم أنى

شكسبير أو ملتون أو وردزورث أو جيتى أو ابن الرومى أو المتنبى . وتارة أحلم أنى نابليون أو اسكندر الأكبر أو بوليوس قيصر أو كريستوف كولومب ، وتارة أحلم أنى جمس وات أو فاراداى أو أركميدس . وتارة أحلم أنى جمعت كل هؤلاء فى شخص واحد، فكأنى لبست كل أزياء العظمة ، وكتبت كل شئ جليل فى الشعر والأدب والعلوم والفلسفه واخترعت كل مخترع وغزوت العالم، وفتحت السماء والأرض . ثم أصحو من هذا الحلم، فأسمع توبيخى المدرس الذى يطلب منى أن التفت إلى الدرس . فأتعجب من جرأة هذا المدرس على توبيخى بعد أن عملت هذه الأعمال العظيمة .

هكذا كنت ، ولكن رياح الحوادث قد أطفأت نور هذه الأطماع ، فلا أستضىء الآن إلا بنار اليأس .

أحـلام الأدبـاء

إن كل أديب أو شاعـر أوفيلسوف فى أول أمره، أى فى شبـابه ، يحسب أنه مركز هذا الوجـود. وأن كل شئ فيـه، من أجرام أو علوم أو آداب أو أنظمـة أو آراء أو عـواطف ، تدور حوله ، منجذبة إليه . فيظهر الشاعـر، وفيـه من الكبر والغرور ، ما لو وزع على الناس لملأ نفوسهم . فيرى أن أشعاره هى الشعر وليس غيرها شعراً ، وينظم القصيدة فكأنه قد تمخض عن وليد ويحسب أنه لو وضع شعره فى كفة ميزان ، ووضع الوجود فى كفـة أخرى، لرجح شعره، ويرى أن الذكاء مقصور على الشعراء ، ويحسب أن كل حسناء تنشد قول شوقى «أنتم الناس أيها الشعراء» فإذا نشرت له قصيدة فى الجرائد، حسب أن قد قرأها جميع الناس فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأنها قد سارت بها الركبان وأن ليس للناس حديث غيرها، وأن الملائكة تتغنى بها وتحدو بها الأفلاك فى دورتها، وأن أهل الجنة يتخاطفون الجريدة التى نشرت فيها، وأنهم يتسابقون إلى قراءتها، وأنها تلهيهم عن الرحيق ، وعن غير ذلك ، من ملذات الجنة. وأن الحور والولدان ترقص فى الجنة على نغمها وأنهم أرسلوا إليه وفداً يهنئه بها ويشكره عليها.

ما أشد الدافع الذى يدفع المرء إلى ما تتهيأ له نفسه وما يميل إليه قلبه من الأعمال ، حتى ولو كان رزقه فى غيرها. إنه ليلهى المرء عن معاشه ومورد كسبه ورزقه وإنه ليلهيه عن كل ما تطيب به الحياة من الجاه، والمنزلة العالية. إنى لأذكر يوم نشرت لى أول قصيدة وقد اشتريت الجريدة التى نشرت فيها، وصرت اقرأ القصيدة مرات عديدة . وكان يخيل لى أن الحروف ترقص على الجريدة وصرت أخبط خبط الضال فى الطرق والأزقة . وكلما نظر إلى أحد حسبته قد قرأ القصيدة وأعجب بها، وكان يخيل لى أنها أحدثت ثراً باقيًا فى نفوس الناس ، وأنها أصلحت من عواطفهم وقوتها وزادت فى عظم نفوسهم وأنها ستحدث تغييراً كبيراً فى سنن الوجود وأنظمته ، وخيل لى أن الهواء الذى كنت أنشقه فى ذلك اليوم غير الهواء الذى انشقه كل يوم . بل ذاك كان أرق وأحلى. ولايعدل مقدار هذا السرور شئ غير الحزن والغيظ الذى نالنى حين قرأت نقداً لها فى إحدى الجرائد فخيل لى عند قراءته أن هناك مؤامرة فى هذا الوجود ، يراد بها ضرى والإساءة إلى. ولكن بعد ذلك ، ألفت المدح والذم وألف المدح والذم ، يفيد فى

الحياة. أليس يغيظك أن يمدحك رجل ثم يغضب إذا لم تشكره على مدحه ، فإن هذا المادح إنما مدحك كى تغتبط بمدحه وهو يحسب أنه لو ذمك لحزنت لذمه . هذا ولاشك غرور منه وعدوان . أى رغبته فى أن تعلق فرحك وحزنك بحسن رأيه أو سوء رأيه فيك . ولا أكتمك أنى أحتقر رأى الجماهير، فإن ذوق الجماهير فى الآداب والفنون فاسد فى كل مكان . فهم يحسبون أن من أجاد التهانى والمدح والمراثى والأهاجى ، وأوصاف الحوادث اليومية الحقيرة، كان من الصنف الأول من الشعراء . وأنا لاأعد هذا من الصنف العاشر. هذا شاعر الحقائر، شاعر المظاهر الكاذبة والقلوب الكاذبة . وإنما الشاعر: شاعر القلب، فهو الذى يصف عواطف النفس وأطوارها . فيصف عواطف الحب والجمال والجلال، والخوف والفزع والأمل، واليأس والرحمة والكره والحقد والبخل والجود والشجاعة والجبن وغيرها من عواطف النفس وأحوالها. وهو الذى يصف أساليب الحياة التى تجول فيها هذه العواطف كل مجال ، ومظاهر الوجود التى تتعلق بها العواطف . فهو الشاعر الذى عواطفه مثل عواطف الوجود، مثل الأمواج أو الرياح أو الضياء أو النار أو الكهرباء . فإن هذه عواطف الكون. وهو الذى يحكى قلبه الأركستر الكثير الآلات ، الكثير الانغام. ولكن ينبغى لمن يحس فى نفسه عظمة الفكر وجلاله وقوة العواطف ، أن لايغتر بها فإن الناس يهمهم اسم الأديب أو العالم ، ويحفلون به أكثر مما تهمهم مؤلفاته حتى بعد موته، أليس الناس تهمهم أسماء شكسبير وفكتور هيجو وجبتى وأفلاطون وأرسطاليس أكثر مما تهمهم مؤلفاتهم .

أطوار العقيدة

لقد كنت فى صغرى كثير الاعتقاد بالخرافات ، وكنت ألتمس العجائز من النساء ، أسمع قصصهن الخرافية ، حتى صارت هذه القصص تملأ كل ناحية من نواحي عقلى ، وحتى صارت عالمًا كبيراً ، ملؤه السحر ، والعفاريت ، وحتى صارت العفاريت حولى، تحل حيث أكون . وأذكر أنى رأيت مرة عفريتًا على سطح منزلنا ، وكان أسود الجسم ، شخصه مَثل شخص الإنسان، ولكن جسمه يعلوه الشعر الكثيف . ولا أدرى أكان عفريتًا ؛ أم كان من مخلوقات الخيال؟ أم من ظلال الثياب التى كانت معلقة على الحبال لتجف . ولما حدثت العجائز بأمر هذا العفريت ، جعلن يعلقن على جسمى التمائم، ويرقيننى بالرقا.

ثم أتى على بعد ذلك دور التعبد ، إذ كنت كثير الصلوات كثير الأوراد ، أكثر من قراءة كتب المتعبدين ، فكنت اقرأ فيها عن العبد الصالح ، والعبد الفاسق ، وعن عقاب الله الفظيع وكانت هذه الكتب تشرح لى عقاب الله بالغًا من الفظاعة حداً لايطاق . فكنت أقوم من النوم مذعوراً حينما كنت أحلم بذلك العقاب . وكنت أقرأ فى تلك الكتب عن كرامات الأولياء من إحياء الموتى وإماتة الأحياء ، ومن إزالة العمى عن أعين أهل العمى، وإزالة البصر عن أعين أهل البصر. ولم يمنعنى هذا التعبد الشديد من مواقعة الشهوات، بل كانت كثرة مواقعة الشهوات بقدر شدة التعبد. فلم يمنعنى تخويف تلك الكتب وإرهابها من اللذات . بل كان يفزعنى من عواقبها فى الآخرة. وقد كنت أحسب من فزعى أن كل كلمة أقولها ، وكل عمل أعمله ، جريمة كبيرة ، فكنت أبكى وانتحب خشية عقاب الله. حتى إذا قضيت حاجة أعصابى المهيجة من البكاء والانتحاب ، رجعت إلى مواقعة الشهوات ، من غير أن يعوقنى عنها ذلك الفزع وذلك البكاء ، لأن الفزع نتيجة قراءة تلك الكتب والبكاء ، حاجة يسلزمها هياج الأعصاب .

كما أن للشهوات حوائج أخرى فلما يعوق عنها الفزع من عواقبها ، وقد بلغ بى الفزع من عقاب الله أنى كنت يخيل لى وأنا نائم، أن فوق الفراشَ عقارب وثعابين . بعثها الله لعقابى وأحيانا يخيل لى أن الفراش كله من جمرات نار فأنتبه مذعوراً صارخًا.

ثم تركت بعد ذلك قراءة كتب التعبد ، وجعلت أقرأ كتب الشعر والأدب ، ففطنت إلى جمال الحياة وقللت مطالعتها من ذلك الفزع الذى كان باعثه الدين . ثم أتى على دور الشك والبحث والشك إذا ابحته العنان جرى بك فى كل مكان حتى يريد أن ينزل الله عن عرشه وأن يعزله عن ملكه ، وما يزال الشك بالمرء حتى يدفعه إلى الإنكار والجحود .

نحن الآن فى عصر لانرقى معه إلا إذا خلصنا من رق الأوهام والخرافات التى هى كالأغلال والقيود . ومن أجل ذلك ، صرت أتعصب للإنكار والجحود بقدر ما يتعصب غيرى للإيمان . غير أن هذا الإنكار يخيفنى ولايرضى ذهنى ، فلايفسر لى شيئًا . لايفسر لى من أنا ولماذا خلقت وإلى أين أذهب ؟ فنفسى من النفوس التى لاتقنع بالإنكار لأن لها حاجات دينية ليس لها غنى عنها. ومن أجل ذلك : كان الإنكار يورثنى اليأس والحزن ، فكنت أهيم فى شوارع المدينة ليلا؛ لأن الليل أشبه بما كنت فيه من اليأس والحزن . وكنت أنظر إلى النجوم وهى تنظر إلى بحزن وإشفاق وإسالها عن الحياة والموت، عن البقاء والفناء، عن الله والإنسان، عن الدنيا والآخرة: فتنظر إلى بحزن وإشفاق . ويخفق سهيل كأنما يهز رأسه قائلا لا أعرف عنها شيئًا فتصير الحياة أثقل من الكابوس أو كأنها حلم فظيع يروع ويقلق ولايبعث الطمأنينة والسكينة.

فأعيد النظر إلى النجوم وأقول هل فيك من كوكب كريم يضحى نفسه خدمة للناس فيصادم كوكبنا الذى نسميه الأرض فيهشمه ويتهشم ، ويستريح جميعًا من عبث الحياة وامرصها ومصائبها وبؤسها وشقائها وجرئمها وحماقتها ، وذلك الجهل العظيم الذى يضغط علينا كالكابوس . اللهم ارسل كوكبًا نشيطًا من عندك يقوم بهذا الأمر، فتومض النجوم كأنما وميضها وميض أسنانها حين تفتح أفواهها قائلة آمين... آمين .

وقد رجعت إلى الإيمان لأستفيد منه شيئًا جديداً ، فعلمنى الإيمان أن للوجود روحًا كبيرة لها حياة وشخصية ، وأن هذه الروح توحى إلى أرواح الأفراد بما تريد ولها من المقادير جنود ولكنى على شدة إنكارى لمعتقدات العامة ، تمر بى حالات أعتقد فيها كل شئ حتى السحر، وحتى ما يخرق سنن الطبيعة ويعلقها عن العمل كما يقول النحويون.

أما السحر فإنى أفسره بتغليب إرادة على إرادة ، وأنه نوع من التنويم المغنطيسى ، أما السنن الطبيعية فإنى أبغضها لأنها تعوقنى عن أطماعى وآمالى. ومن أجل ذلك لا أرى بأسا فى خرقها ، وأكثر ما أكون إيمانًا عند المصيبة أو المرض ، فإن أمثال ذلك يذل قلب المرء ويخيفه ويوهن عزمه . وفى بعض الأحايين أخاف خوفًا شديداً أن يظهر لى ابليس ، وأن

يخدعنى كما خدع فوست فأتلفت كى أثق أنه لم يظهر بعد . وفى بعض الأحايين أعتقد وجود العافريت والجن ، كما كنت أعتقد فى أيام صغرى .

لقد سمعت البارحة القطط تعوى وتصرخ، مثل عواء المجانين أو عواء الأرواح الحائرة المعذبة، التى تتخذ الليل جلبابًا ، ثم تفرغ فى ذلك العواء ما تقاسيه من العذاب . فلما سمعت عواء القطط كأنها الخرس ، إذا حاولت الكلام لم أشك فى أنها عفاريت من الجن وأصابتنى رعدة شديدة، ومما زاد الطين بلة ، كما يقولون ، أن النافذة كانت مفتوحة ، وكان يصيبنى منها تيار بارد من الهواء فحسبت رعدة البرد من فعل العفاريت .

وقد سمعت مرة عواء الخنازير كأنه عواء جنية أصابها الموت فى ولدها . إن النفوس تتأثر بالأصوات تأثراً غريبًا ، لاسيما عند هياج العواطف. انظر مثلاً إلى صوت فرع الباب فى قصة ماكبيث ، أو إلى صوت لبومة الذى يسمعه الخائف فى المكان الخراب الموحش ، أو إلى صوت الغراب الذى يسمعه المتشائم ، أو إلى صوت الرعد الذى يسمعه القاتل .

لذات الحياة

نرى فى الناس الضاحك الجذل الذى يزل الخوف عن صفحات قلبه زلول الماء عن صفحات جلده. ونرى فيهم الحزين الباكى الذى يبكى على الحياة والناس والدنيا ، والذى يرى النعيم والشقاء كبلين من كبول الحياة ، الذى يرى أن الأرض قبر الأحياء، وأن السماء غطاء ذلك القبر . ولكنى وجدت نفسى تارة أقرن مع الأول وتارة الز* مع الثانى فإنى أرغب فى لذات الحياة حتى لو اختبأت منى لذة تحت قدم نملة ما فإننى أرى فى الضياء لذة، وفى الظلام لذة ، لذة فى النعيم ولذة فى الشقاء . لذة فى الألم وألما فى اللذة . أرى لذة فى استنشاق الهواء حتى ولو كان كله جراثيم . أرى فى النشاط لذة، وفى الكسل لذة وفى الاستضاءة بالقمر لذة ولذة فى الإستضاءة بالشمس ولذة فى الاستضاءة بالفتيلة . أرى لذة فى الاضطجاع على الأرائك . ولذة فى القعود على الأرض . لذة فى الطعام الفاخر واللباس الفاخر ، ولذة فى المش والفجل، والثياب ، الثياب الخلقة، أرى لذة فى حرارة الشمس، ولذة فى برودة الهواء . لذة فى المطر والغيم، ولذة فى الصحو. أرى لذة فى الصباح وحسن مرآة . ولذة فى الظهيرة المكسال. لذة فى المساء ووقاره ، ولذة فى الليل وسواده ونجومه ونسيمه. أرى لذة فى الماء، ولذة فى النبيذ وغير ذلك من الأشربة ولكنى، بالرغم من ذلك ، كثير التفكير فيما أعانيه ويعانيه الناس ، وما قد عانيناه وما سنعانيه من آلام الحياة ومصائبها . وأدوائها. وأرى كأن الحياة حمل ثقيل ، وحلم يروع ففى بعض الأحايين أحسب أن شقائى فى الحياة أعظم من لذتى فيها. ولكنى أراجع نفسى ، فأحسب أن لذاتى فى الحياة أعظم من شقائى . ولاعجب فى ذلك الشك، فإن من كانت لذاته عظيمة ، كانت شقاوته عظيمة . حتى أنه ليشك ، فلايعرف أى الجانبين أرجح . نعم قد شربت كأس الشقاء حتى لم أدع فيها بقية ، ولكنى جرعت أيضًا كأس اللذات حتى لم يبق فيها سؤر. وحتى امتصصت ما علق بالكأس من حلاوة الحياة، وكنت وأنا أنعم بالحياة ، كأنى قد استعرت من الوجود عظمه وعواطفه ، فكنت لا أبالى فى حب الحياة كل رادع أو زاجر أو مانع أو لوم أو أمر أو نهى . كنت أحس أن نفسى غير مقيدة بقيود

---

* غير واضحة فى الأصل

العادات والحزم كنت أحسن أن نفسى إله أعظم له أن يفعل ما يشاء . وكنت أتمنى أن أقطف أزهار الحياة كلها، وأن أخرج من الحياة عطرها ، فإن للحياة عطراً كما أن للزهر عطراً . كنت أتمنى أن أمتع نفسى بكل شئ فى هذا الوجود، وفى كل وجود تتصوره وتتوق إليه النفس . كنت أتمنى أن أعانق الوجود ، وأن أقبله قبلة أمتص بها كل ما فى روحه من الجمال والجلال ، فأتذكر عند هذا التمنى قول الشاعر:

وكنت إذا أرسلت طرفك رائداً

لقلبك يوماً أتعبتك المناظر

رأيت الذى لاكله أنت قادر

عليه ولاعن بعضه أنت صابر

عشق أصحاب الفنون

إن ألذ شئ فى الحياة ، هو قدرة المرء على أن يجعل إرادته غالبة لإرادة مخلوق جميل. وبواسطة ذلك التغليب، يبحث عن روح ذلك المخلوق الجميل، ويعطيها من آرائه وعواطفه وخيالاته . فحينئذ يكون كأنه أعطى لآرائه وعواطفه ، جسمًا جميلاً هو جسم ذلك المخلوق الجميل . ويكون مثله مثل صانع التماثيل ؛ الذى يودع آراءه وعواطفه فى ذلك الرخام الذى يصنع منه حسان الدمى. ولكن الشاعر المحب أجل صنعة ؛ لأنه يودع عواطفه وآراءه فى روح حية ، وجسم جميل حى. وينظر الشاعر المحب إلى جسم حبيبه، كأنه ينظر إلى تمثال آرائه وخيالاته وعواطفه . آه ما ألذ تلك الساعة التى تشعر فيها أن حبيبك يجد لذة وسعادة فى حبك إياه. إن حب الشاعر أو غيره من أصحاب الفنون الجميلة، غير حب الفرد من أفراد جمهور الناس، لأن حب الأول وسيلة ؛ ولكن حب الثانى غاية يسعى إليها. أما حب أصحاب الفنون الجميلة ، فإنه وسيلة يريدون أن يوقظوا بها قواهم وملكاتهم الكامنة ، ويشعلوا بها التخيل ويهيجوا بها العواطف ، ويجعلوا حبيبهم تمثالاً لما ينشدونه فى فنونهم من الجمال.

لقد مضى على زمن كنت أعد الجمال فيه عقيدة . ولكنى الآن أكاد أعد هذه العقيدة خرافة ، مثل غيرها من الخرافات ؛ التى كنت أحسبها عقائد، لأنى صرت أشك فى الفنون وقيمتها فى الحياة.

الإحساس والحياة

ليس الشاعر من يملأ أذهان قومه بالمعانى الجديدة والآراء الجليلة؛ وإنما الشاعر الذى يملأ قلوبهم بالرغائب الجديدة؛ والذى يقوّى عواطفهم ، لأن العواطف هى القوة المحركة فى الحياة* والأديب العظيم؛ هو من كانت كلماته كهرباء النفوس ؛ هو الذى يُحرّك النفس ؛ كما يحرك العواد عوده ؛ فيوقّع عليها من الألحان ما تهتاج له قوى النفس فى أعماقها . هو الذى يجعل لكل عاطفة من عواطف النفس ؛ روحًا وحياة وشخصية . لأن النفوس يعلوها صدأ مثل صدأ المادة، ولايجلو عنها هذا الصدأ إلا ما يحرك أعماقها فى النفس ؛ كالماء الراكد الذى تعلوه المواد العطنة . وكما أن هذا الماء الراكد لايجدده غير تيار جديد. كذلك الروح ينبغى أن تكون معرضة للتيارات الروحية . وليست حياة الأديب إلا تياراً من تلك التيارات التى تحرك النفس. لقد كنت فى أول الأمر أحسب أن الأديب حلية لقومه، وأن الأدب زينة فكنت أقضى الأيام فى تصيد الألفاظ، واختلاس الأساليب اللفظية . ولكنى ضجرت من هذه المنزلة الحقيرة، وقلت: إن كان الأدب فى تصيد الألفاظ ، فلاخير فى الأدب. ثم فطنت بعد ذلك ، إلى الحياة وأساليبها، وإلى الروح وعواطفها . وعلمت أن الشاعر ، هو الذى يعبر عن أساليب الحياة، وعواطف النفس ، ولايستقيم له ذلك إلا إذا تقلب فى أساليب الحياة، وكانت عواطفة مثل البحر الزاخر، بل كانت كل عاطفة فيه، عاصفة تبعث الخوف والجلال. ومن أجل ذلك ، صرت أجد لذة وألما فى هياج العواطف . وكنت أبحث فى عواطفى ، وهى هائجة ، كأنى أنظر إلى الرياح الهوج العمر*، أو الحريق المتلف. وأجد فى تلك العواطف ما أجده فى قوى الطبيعة . وكنت أبحث فى قلبى بعد سكون هذه العواطف ، فكأنى أنظر إلى مكان خراب دمرته العواصف ، أو إلى ميدان الحرب بعد الحرب، كله أشلاء وأطلال . ولكن الضرر الذى يحدثه هياج عواطفى ؛ أقل من الضرر الذى يحدثه خمودها وسكونها . لأن روحى لاحياة لها إلا إذا اشتعلت فهى تحيا بأن تحترق وتفنى نفسها .

فإذا خمدت عواطفى أحسست كأن هذا الوجود كله يضغط على قلبى ، فأحس كأنى أكاد أختنق . وفى مثل هذه الحال، يخيل لى أن لو وضع هذا الوجود كله فى كفة ميزان ، ووضع

---

* هكذا فى الأصل ؛ ولعل الصواب «العباب الغمر» كما يقتضى السياق. «المحرر»

ضجرى ومللى من الحياة فى كفة ، لرجح مللى وضجرى ومن أجل ذلك ، أجتهد دائمًا أن أهيج عواطفى فراراً من ذلك اليأس الذى يأتى به جمودها. ولقد بلغت بى تلك الحاجة إلى تهييج العواطف ، أنى أحيانًا أطل على الأماكن المنخفضة من الصخور، أو البيوت العالية ؛ فأحس دواراً غريبًا . وكأن نفسى أعمق من الأبد . وكأن فكرى يهوى فى عمقها الذى لانهاية له، ثم أرمى بنفسى إلى الوراء لأنى أحس اندفاعًا إلى ذلك المكان المنخفض . وأحيانًا أقف على شاطئ البحر، وكأن عينى زجاج آلة التصوير فينطبع هياج الأمواج فى نفسى ، وفى عواطفى وأحيانًا أحس كأنى سهم قذف به فى الفضاء ، فهو إلى الأبد يخترق ذلك الفضاء الذى لانهاية له .

أذكر أنى رأيت مرة حريقًا هائلا فى جنح من الليل؛ فهيج فى قلبى عواطفه ، ولم يهيج سطح العاطفة ، بل هيج أعماقها وجعلت أشعر بالجلال ، جلال ذلك المنظر الهائل ، وبرقت عيناى حتى كدت أرى بريقها ، وصارت النار تأكل المنازل فتتهدم ، وتنهال وتتصاعد ألسنة النار، والدخان يعلوها والظلام حولنا، وعلى أوجهنا نور يزيدها شحوبا . فكأنما نحن فى الأحلام وكأننا لانرى حريقًا ، بل قطعة من الجحيم . وكنت أحس لفح تلك النار فى خيالى وذهنى. وأذكر أنى رأيت هياج الأمواج فى المحيط ، فأحسست ضعف الإنسان وقوته؛ ضعفه أمام قوى الطبيعة ؛ وقوته التى فى خياله وقلبه ، والتى تمكنه من أن يجد لذة حتى فى مظاهر الطبيعة التى تهيج خوفه وتبعث فى قلبه الإحساس بالجلال .

هذه هى المناظر التى التذها ، ومن الغريب أنى يخيل لى أن هذه المناظر ، وما تبعثه من الإحساس تعين المرء على تفهم معانى الحياة ومعرفة سرها ولكن كيف ... هذا لغز أشد غموضًا من لغز الحياة نفسها . استغفر الله أنا لا أعتقد أن للحياة لغزاً ، لأن هذا الاعتقاد يكون إحسان ظن بالحياة ، وهل من العقل أن نحسن الظن بالحياة إلى هذا الحد ؟ ليست الحياة لغزاً، بل هى نكتة باردة لامعنى لها- استغفر الله- لقد حرت فى أمرى ، فلا أعرف هل الحياة لغز عجيب جليل، أم هى نكتة باردة .

أكبر ظنى أن الخيال ، هو الذى يجعل الحياة لغزاً لأنه يعطيها قيمة أكبر من قيمتها، وهو الذى يجعلها نكتة باردة لأن المغالاة بقيمتها تؤدى إلى اليأس منها .

الغـرور

إنى إذا قلت كلمة أو فعلت فعلاً يبعث سخر الناس، أعانى من توبيخ الضمير من أجله؛ أكثر مما أعانى إذا أتيت جريمة. فإن المرء مهما عظم احتقاره الناس ؛ يتألم من سخر الناس، أكثر مما يتألم لهم إذا أصابهم بسوء . فليس الذى يصيبه بشر أعز عليه من نفسه ، حتى يتألم له . ولو كان تألم المرء إذا أتى جريمة ، لمن وقعت عليه الجريمة، لما تألم كثير من الناس من جرائمهم. وإنما تألم المرء إذا أتى جريمة ، أن اتيانها يفسد أعصابه ، مثل إدمان الزنى أو إدمان معاقرة الخمر فهذا التألم ، ناشئ من تأثير الجريمة فى أعصابه ونفسه .

فاذا سخر الناس من رجل من أجل كلمة قالها ، أو فعل فعله ، عانى هذا الرجل من ضميره تأنيبًا على ما قال، أو فعل . لاسيما إذا كان كثير الإحساس ، فإن المرء ليس عنده شئ أعز عليه من نفسه . فاعجاب المرء بنفسه ؛ أعز عليه من فضائله ومن رذائله وبعض الرذائل ، عزيز ومن حسناته ومن سيئاته . فإعجاب كل امرئ بنفسه جزء من حياته ، لاتستقيم الحياة إلا به . والناس أشباه سواسية فى هذا الأعجاب ، سواء الأمير وسائق الحمير. فإن كل الناس مغرور ؛ ولكن على حسب طبائعهم تختلف أنواع غرورهم . والغرور من أسباب سوء الظن ، فإن من كان مغروراً ، خشى أن يهينه أو يؤلمه الناس . وهذا الخوف ، قد يزداد بالمرء حتى يجعل إحساسه مثل جلد اللديغ الذى إذا احتك به الحرير آلمه .

وما يدر بنى ؛ ربما كانت معائب الإنسان فى الإنسان مثل الملح فى الطعام . أليس غرور الناس من التوابل التى تسيغ بها الناس . ولا أنكر أن التوابل والأملاح ؛ إذا أكثرت منها أتلفت عليك الطعام . وكذلك الغرور ، إذا أكثرت منه، لم تسغك الناس . ولكن هذا الإكثار لايقلل من فضل التوابل ولا من مزايا الغرور . والغرور شئ يصح أن تصرف به الضمائر ، فتقول أنا مغرور ، وأنت مغرور إلى آخر ما ذكر النحويون من الضمائر.

استعرض على خيالك جماعة من الناس ، ليس عندهم شئ من الغرور. إنك لتكلف نفسك شططًا ، لأن المرء إذا لم يكن فيه نوع من الغرور، فإنما سبب ذلك ، أن فيه نوعًا آخر من أنواعه . فالضاحك مغرور، والباكى مغرور ، والفقير مثل الغنى، مغرور بما يجده فى العيش من اللذات والآلام . فهو فى ذلك ، مثل الغنى حذوك النعل بالنعل، لايختلفان إلا بمقدار ما تختلف القدم اليمنى والقدم اليسرى . والجواد مغرور بماله مثل البخيل والغبى مغرور بعقله مثل غرور صاحب الذكاء بذكائه، وصاحب التقوى مغرور بتقواه، مثل غرور صاحب العهر بعهره.

الخوف والعى

إن الرجل الذى يخشى إيلام الناس إياه، مثل النبات الذى لايعيش إلا فى بيوت الزجاج . فإن خوف المرء أن يؤلمه مؤلم، يضعف عزيمته ويمنعه من العمل ، والسعى إلى ما فيه منفعته . ويعوده اليأس من الناس، ويورثه العى ، ويغطى على فصاحته ، ويلبسه ثوب الغباوة ، فيخفى ذكاءه خشية أن يكون فى كل قول يقوله ؛ أو عمل يعمله ؛ ما يبعث إهانة الناس إياه، أو سخرهم به ، ومن أجل ذلك ؛ تقف الكلمة فى حلقة خشية أن يصيبه من جراها ما يؤلمه ، فيتردد فى إخراجها؛ فيكون كالأخرس إذا حاول الكلام ، فتسقط الفرص من يديه ، كما يسقط الماء من ثقوب الغربال .

ومن أجل هذه الصفة التى أعالجها وأعانيها ، صار من لايعرفنى إذا سألنى سؤالا وترددت فى رجابته ولم أحسن الكلام، يحكم على بالعى والغباء. ولو تفرس فى وجهى فى تلك الساعة، وكان أكثر الناس معرفة بالفراسة ؛ لقال هذا ملك الأغبياء. والسبب فى ذلك أن كل عصبى المزاج ؛ مهيج العواطف تختلف هيئات وجهه حسب ما فى نفسه وذهنه . وقد لاحظت ذلك بالنظر إلى أوجه الناس . فإن الوجه يختلف حسب أطوار النفس، وأحوالها، حتى كأن للمرء أوجهًا كثيرة . ومن أجل ذلك، تختلف صور الرجل العصبى الفوتوغرافية ، حسب ما يجيش فى صدره من العواطف .

إنى فى خلوتى بنفسى ، أعد الكلام البليغ والحجج الراجحة ، والكلمات البليغة، وأتخيل محادثات تجرى بينى وبين الناس، تكون كل كلمة من كلماتى فيها آية من آيات البلاغة . ولكنى إذا لقيت هؤلاء وحادثتهم ؛ لم أجد فى كلامى هذه الآيات البينات . ثم إذا خلوت بنفسى بعد ذلك؛ أقول كان ينبغى أن أقول لهم كذا وكذا فينطلق لسانى بالكلام الفصيح البليغ ، ولكن أى مزية فى أن يكون المرء عيياً فى المجالس ، فصيحا فى الخلوات . وهذا سبب من أسباب انفرادى ووحدتى . ويرى الناس سكوتى ووحدتى ، فيحسبون حياتى هادئة مطمئنة، وتغرهم مظاهر سكوتى، كما يغر مجاور البركان الذى لايعرف متى يثور مظاهر سكوته وخموده . فإن سكون المرء يخفى عواطف نفسه، إلا ما بدا للناس منها فى عينه وأسرة وجهه . ويحسب الناس أنى سعيد وما أنا بسعيد .

إن العواطف سبب شقاء الناس وعظمتهم ، وسبب سعادتهم وتعاستهم ؛ وسبب مصائبهم ومحامدهم وهى سبب لذاتهم والآمهم إنها تملأ الحياة ناراً ولكنها أيضا تملأ الحياة نورا فما أقبح الحياة. والحياة وابزدها* وأغثها لولا جمال العواطف، وما أجمل العواطف لولا مصائبها والآمها. آه يا صديقى أبعد تمرسى بالحياة والنظر فيها؛ تطلب منى أن أومن بها وبمال الناس فيها، ولو كان ذلك موكولاً إلىَّ لآمنت بها. ولكن للنفس أطواراً وأحوالا يستحيل فيها الإيمان بالحياة .

---

* هكذا فى الأصل

وسائل النجاح

من العيوب التى حالت بينى وبين النجاح فى كثير من أمور الحياة أنى أحتقر الأشياء الصغيرة ، فلا أتطلب معرفتها. وإنما وجه العيب فى ذلك ، أن الحياة مكونة من هذه الأشياء الصغيرة ، انظر إلى الساعة من ساعات العمر، تجدها مملوءة من الحوادث الصغيرة والأشياء الحقيرة الدقيقة التى لايحويها إلا التفصيل. ومن أجل ذلك، كان الرجل الذى تمرس بأسباب النجاح لا يهمل شيئًا مهما صغر، ولايحتقر شيئًا مهما كان دقيقًا. فلا تعرض عليه شيئًا من الأمور اليومية ، وحوادث الساعات إلا فصله وشرح لك كنهه ومصدره وقيمته ، وقد حدثنى رجل من أهل النجاح مازحا قال، قد يكون النجاح فى الحياة رهينًا بإجادة مشية خاصة ؛ أو بأن نعرف أن فى دكان فلان يباع الشئ الفلانى ؛ أو بأن تعرف أن فلان بك الذى أنت صنيعته يعرف فلان باشا، وأن فلان باشا يحب كذا من أنواع المأكولات ، وكذا من أنواع النساء ، أو بأن تذكر دائمًا أن فلان بك يكره من يذم أمامه الكذب ، وأن الشيخ فلان يبغض من يمدح أمامه الأمانة . هذه أشياء صغيرة ، ولكن العمل بها ، قد يكون سببًا من أسباب النجاح . كما أن إهمالها قد يكون سببًا من أسباب الفشل- هذا ولاشك مزح ولكنه مزح ترقص فيه الحكمة رقص العربيد . وأنا من الناس الذين لايعرفون الفرق بين الخروف والدجاجة ولا أيهما أحلا فى حلق فلان بك ؛ ولايهمنى أن فلان بك يحب رأيه أكثر من حبه الحق والصواب ، وأنه مفتون بمكانته مغرور بجاهه . ثم إنى أجهل أثمان الأشياء وأستحى من شرائها ، ومن أجل ذلك ، أود لو أمد يدى فآخذ كل ما أريد من الهواء ، ومما زادنى رغبة فى هذه الأمنية؛ الكسل وحب الغريب المعجز ومن أجل حب المعجز أتمنى لو أملك خاتم سليمان الذى يسخر لى الإنس والجن آه ما ألذ المعجز ؛ وما أجل المستحيل ، وما أحلا أن يستحيل المستحل على غيرى من الناس وأن لايستحيل علىَّ .

لو يستحيل المستحيل على الورى
وأنال من أحلامه ما أطلب

لجننت جنة قادر متحكم
يرضى على هذا الأنام ويغضب

وأخذت من هذى الحياة لبانتى
وشربت من أكوابها ما يشرب[١]

١- راجع قصيدة مشترى الاحلام فى الجزء الثالث من ديوان المؤلف.

إن الوراثة والبيئة والتربية رأس مال السعيد ، وإنك ليخيل لك، أن فى الناس من تسعدهم هذه العوامل حتى أنهم لو تطلبوا الشقاء لما وجدوا إليه سبيلا . هنيئًا لهؤلاء ؛ فإنهم أبناء هابيل الذين يحبهم الله . وإن فى الناس من تشقيهم هذه العوامل حتى يأنسوا إلى الشقاء يابؤس هؤلاء ، فإنهم أبناء قابيل الذين يبغضهم الله هؤلاء الذين رأس مالهم القمل والذل والمسكنة والجهل والالآم والمصائب ، وهم الذين أراد الله أن يخلقهم بهائم لاتحس ، ولكنه رأى أن يعذبهم فى الحياة الدنيا ، فخلقهم من البشر ، هؤلاء هم أهل الفشل .

إن النجاح فى الحياة يستلزم طبائع لايستقيم إلا بها؛ وإنه ليخيل لى أحيانا أن ليس عندى هذه الطبائع ، مثل التمليق والرياء والنفاق والضعة والاهتمام بالأشياء الدقيقة الحقيرة والمكر والتطفل وارتقاب الفرص الوضيعة ، واتخاذ كل وسيلة مهما كانت دنيئة ؛ لاكتساب ثقة الناس والإلحاح فى طلب المنافع منهم؛ وإظهار الحاجة إليهم والتذلل لهم، والتهافت عليهم وإخفاء مقابحهم مهما عظمت، أو إظهارها فى مظاهر المحامد والفضائل، وأن أكسر لهم سلسلة ظهرى الفقرية احترامًا وتبجيلاً ، وأن أضحك أو أهش أو أقهقه ، إذا تبسط أحدهم بالفكاهة الغثة الباردة . وأن أضعهم فى منزلة أفلاطون وسقراط إذا اجتهدوا أن يجدوا بالحكمة العالية، وأن ابتسم إذا ابتسموا وأن أعبس إذا عبسوا ؛ وأن أجعل عرضى لهم خرقة أمسح بها أعراضهم النجسة . كل هذه الصفات ليس عندى منها إلا القليل النادر (هذا ما أظن) ؛ وافتقادها هو سبب من أسباب فشلى فى كثير من المساعى . ولا أكتمك أنى أحاول التخلق بها فلايقربنى ذلك التخلق من رغائبى شبراً ؛ كأنما هذه الصفات مثل كلمات السحر التى تؤذى من يفوه بها، إلا إذا كان قد أجاد معرفتها . فأى ساحر كريم يعلمنى كلمات السحر التى افتح بها باب النجاح ، فقد طرقت الباب حتى كل ذراعى ، وناديت بأعلا الصوت، افتح يا سمسم فما فتح سمسم ولاصنوبر[١].

ومن أسباب الفشل فى المهن : أن رئيسك أبداً يحاول أن تكون لك أربعة أرجل ضعة وذلا، وأنت تأبى إلا أن يكون لك رجلان ويدان، فإن بعض الرؤساء يجد شهوة فى تنفيذ أوامره . ويلتذ تعذيب مرؤسه كما يلتذ أهل نيام الزنوج شى لحوم أسراهم من البشر . إن رئاسة هؤلاء الرؤساء من حجج أهل الفوضى ، ومن بواعث التذمر فى صدور أهل التذمر .

١- افتح يا سمسم من كلمات السحر المستعملة فى قصة من قصص ألف ليلة .

الحياء والوحشة

إن الحياء من أكبر أسباب الفشل فى الحياة . وهذا الحياء؛ يعتادنى إذا جالسنى أو حادثنى من لا أعرفه . وإذا كنت فى رفقة كلهم لى صديق ؛ غير واحد ، صاروا كأنهم كلهم أجانب لاأعرفهم . ومن أجل ذلك ، صرت أستر هذا الحياء بالكبر والاحتجاز والتصلب واعتزال الناس، كى لايزرى بى ويخفض من شأنى . فإن الحياء ينزل الرجل منزلة الصبيان الصغار ، ويغطى على فضله وأدبه وعلمه ، ولو شئت سردت لك من نوادر الحياء ما يوضح ذلك؛ ولكن ليس فريضة على صاحب الاعتراف ، أن يذكر كل نقائصه . هل فعل ذلك روسو أو جيتى أو شاتوبريان ؟ كلا إن النفس لاتسخو بذلك ، ولاتطيب ؛ فانها لاتقدر أن تنزع عنها غطاءها كل النزع ، ومهما عظم نصيب صاحب الاعتراف من الصراحة ، فلابد أن يكون عنده من الجبن والحزم واحترام النفس، ما يغريه باخفاء كثير من نقائصه ومعائبه .

لعلك أيها القارئ قد رأيت أو سمعت بغلام صغير إذا نظرت إليه خجل ؛ وإذا كلمته خجل؛ وإذا دعوته خجل ؛ إنى ما رأيت غلامًا كهذا إلا أشفقت عليه مما يستقبل من حياته . لأن هذا الخجل الشديد، هو رأس المصائب فلاينتفع المرء معه بحياته . وإنه لفرض على الآباء والمعلمين ، محو هذا الخجل ؛ وأن يعودوا الغلام الجرأة . فان الوقاحة أقل شراً من الحياء . ولايعرف قدر المصائب التى يأتى بها هذا الخجل، إلا من عالجه وعاناه. وهو أكبر عيوب التربية المنزلية عندنا.

لقد كنت في صغرى كثير الحياء، وكنت أنظر إلى جرأة أترابى من الغلمان ، وحسن لهجتهم ، وأعجب بها وأتمنى أن أكون مثلهم . ولكنى لم أعود ما عودوه من الاعتماد على أنفسهم . أذكر أن أبى زار بى صديقًا له من الفرنسيين، وكنت صغير السن، وكان لصاحب البيت ابن فى عمرى ، فجاء الغلام وصافحنا وحيانا بفصاحة وطلاقة ورشاقة أعجب بها الحاضرون ، وصاروا ينظرون إلى ويضحكون من خجلى . ثم جاء الغلام ومد ذراعه إلى كى نذهب فنلعب ، ولكنى انزويت وراء أبى، فلم أخرج إليه إلا بعد القيل والقال. وهذه قصة توضح الفرق العظيم بين تربيتنا وتربيتهم ؛ وكنت أخجل فى صغرى من الزائرين والزائرات وأستحى من النظر إليهم أو إليهن ، وبقيت متصفا بهذا الحياء ، حتى بعد أن عاشرت الكثير

من الناس، وليس سببه الهيبة والاحترام أو الخوف ، فانى لم أجد عند الناس من كبر العقل ورجاحة النفس، ما يسوغ أن أخجل منهم. وليس إعجاب المرء بنفسه ولا إحساسه أنه يفضل الناس ذكاء وعلماً بمانعه من الخجل منهم، إذا صارت هذه الصفة طبيعة فيه .

ومن أجل هذا الحياء ، صرت لا أأنس بالناس ؛ وأحس قلقًا شديداً عند رؤيتهم ؛ فيه شئ من المقت والاحتقار . فلا أحضر مجالس الناس، ولا أتخذ صاحبًا جديداً إلا فى القليل النادر . ومن أجل ذلك ، وصرت أعوذ بنفسى أن أجالس أهل الجاه والثراء ، والذين لايبالون عواطف جلسائهم وصرت أحب الوحدة فأتجول منفرداً فى الأماكن الخالية . وصرت لا أحب الأماكن التى يزدحم فيها الناس ، بل أبغضها كل البغض . ولاتحسب أنى أجد لذة فى الوحدة ، بل إنى أحس فيها وحشة وغربة . فأحس كأن قلبى صحراء مقفرة ، ليس بها أنيس ولارفيق. ولاتحسب أنى استميحك الشفقة بوصف هذه الوحشة والغربة . فان رحمة الناس تقلل من احترام المرء نفسه ومن احترامهم اياه .

الحياة والرحمة

ولكن أى الناس فى غنى عن الرحمة . إنها مصدر قوة لمن أحسها؛ ولمن وقعت عليه. فإنها تزيد المرء ثقة بنوع الإنسان، وتعده لاستئناف مكافحة الحوادث ومناجزتها . وليس القوى العظيم، ولا الملك صاحب الجند والحرس، ولاالمصارع الجليد؛ ولا السرى المنعم؛ ولا الوارث المترف ؛ ولا صاحب الدهاء والقدرة ؛ بأقل حاجة إليها من الأرمل المريضة، أو الطفل الرضيع ، أو الشيخ الضعيف . وهى أساس كثير من أنواع الحب . وقد يصدر عنها من الأعمال ما يدل على أنها مظهر من مظاهر القوة. والناس فى حاجة إلى الرحمة حتى ولو كانت رحمة عاقر، لايصدر عنها عمل جليل. فإن إحساسها يولد التفاهم ؛ الذى يوقظ قوى النفس ، وينعشها . يقول نيتشه . إن الرحمة تضر نوع الإنسان .. إلا أنه لأحوج الناس إلى الرحمة . وأى الناس يقدر أن يمحو من قلبه عاطفة الرحمة؛ إذا زار مستشفى ورأى الأمراض والأدواء ، وكأن المرضى تماثيلها . أليست هذه الدنيا أيضًا مستشفى كبير ونحن فيه تماثيل الأمراض والمعائب والنقائض والحماقات والخرافات والجرائم. وإن من كانوا كذلك لخليقون بالرحمة .

ضعف العزيمة

إن ضعف العزيمة له مظاهر كثيرة، من مظاهرها عند المفكر، أنه يفكر فى ألغاز الحياة التى يود أن يوفق إلى حلها؛ وهى ليست لها حل . وإنى أحيانًا أسلى نفسى بالتفكير فيها؛ وأتتبع ما يصدر عن الناس من أقوال وأعمال . وأجتهد أن أجد فيها حلاً لهذه الألغاز . وأحيانًا أتعب نفسى وأجلب لها الهم : بهذا التتبع والاجتهاد فى حل ما ليس له حل . والسبب فى ذلك ، ضعف عزيمة المفكر ، فلولا ضعف عزيمته، لما خطر بباله أن يجتهد فى حل ما ليس له حل من ألغاز الحياة؛ ولوجد فى الحياة والعمل، من اللذات ما يلهيه عن هذا التفكير ويغنيه عنه. وضعف العزيمة صفة فينا ، تلحقنا من طريق الوراثة ؛ كما تلحقنا من التربية المدرسية والمنزلية، فينبغى أن تعود التربية المرء الاعتماد على نفسه، ذلك الاعتماد الذى يبعث فى المرء نشاطًا وثقة بنفسه .

والتفكير إذا تملك المرء، وكان الصفة الغالبة عليه؛ يفقده الإقدام والنشاط وغير ذلك من مميزات الرجل الذى طبعه يميل إلى العمل؛ وكل شئ عملى من أمور الحياة . وليس معنى هذا القول إن التفكير ينفى قوة العزم، ولكن الصفتين لاتجتمعان إلا فى القليل النادر من الفحول . وفى بعض الأحايين أقول لو كان لى عقل أفلاطون ، لبعته بذهن من الأذهان التى يعيش بها الجماهير من الناس؛ وعزيمة كبيرة . فإن التفكير يغرى بالتفكير ؛ وهذا التفكير يغرى بغيره ؛ فتضيع الفرص قبل انتهاء المفكر من تفكيره وابتدائه فى عمله .

ومثل هذا التفكير المطرد المتسع؛ مثل الدائرة التى يصنعها الصخر إذا قذف به فى الماء فإنها ما تزال تكبر وتتسع حتى تفنى . ولكنى لا أجهل لذات التفكير ، وإن كنت لا أحمد آلامه . فإنه المعين على الحياة ، يكبح من جماح الخيال والعواطف ؛ وما تغرى به العواطف من الأعمال . نعم إن صاحب الخيال والعواطف ، يحس لذات الحياة أكثر مما يحسها غيره، ولكنه يحس متاعبها أكثر مما يحسها غيره من البشر. ومن أجل ذلك ، كان فى كل يوم من أيام حياته : من الحزن والسرور؛ ومن النعيم والشقاء : ما ليس فى السنة من سنى غيره. وماذا تفيده عظم لذاته، إذا كانت شقاوته عظيمة، بقدر عظم لذاته . وماذا تفيده تلك العواطف التى تتضارب فى صدره .

ولقد يخيل لى أحيانًا : أن تلك العواطف شياطين تجذب أعصابى : وتجرى مع الدم فى العروق ، وتريق فيه السم. وماذا يفيدنى أن فى تلك العواطف شيئًا من اتساع الأبد. فهى

لاحد لها ولانهاية . هذا هو الشقاء الذى ليس بعده شقاء . فإن المرء مقيد بقيود الضرورة ومحدود بحدود القدر . حولى أسنة المقادير وسيوفها ، تشير إلى، فإذا سعيت إلى يسارى وخزت جانبى الأيسر ؛ وإذا سعيت إلى يمينى وخزت جانبى الأيمن . وإذا سعيت إلى أمامى أو إلى ورائى أحسست وخزها . وإذا هممت أن أطير ، وجدت سيوف المقادير معلقة فوق رأسى . وقد تمر بى ساعات تهبط فيها السماء وتضيق فيها الأرض ، حتى أحسب الحياة أضيق من تنور عبد الملك بن الزيات[1] . وفى تلك الحال أحس كما يحس المجنون المقيد الذى يريد أن يفك عنه سلاسله ، وأن يهيم على وجهه لا يقر فى مكان .

ولكن إلى أين يفر أسير الحياة؟ إلى أين يفر من عواطفه وآماله وأفكاره وذكره ومن الزمن الذى يعيش فيه ؟ فالإنسان لايقدر أن يفر من كل ذلك إلا إلى الموت. فلو كان للإنسان أن يهيم فى فيافى الأزمان ، كما يهيم فى فيافى الأرض فيفر إلى الزمن الماضى، أو إلى الزمن الآتى آه لو أمكن ذلك ؛ كأنى بك أيها القارئ تعجب من هذا التمنى ، وتراه ضرباً من الجنون . هبه كذلك ؛ فما ألذ الجنون ؛ ألم تجن قط ، ألم يخطر ببالك أن هذه الأرض ، إنما هى مارستان كبير وأن هذه الأعمال التى تعملها والمساعى التى نسعى إليها ، إنما هى جزء من الدواء ؛ جزء من طريقة العلاج . وأن هذه النجوم والأفلاك التى فى السماء ، إنما هى لعب معلقه فوق رؤوس المجانين . وأنها أيضًا جزء من العلاج ، وأن هذه العلوم والفضائل التى نفاخر فيها ، هى الأكاذيب والقصص والخرافات التى يقصها الممرض أو الطبيب على المجانين وأنها أيضًا جزء من العلاج .

إنى لا أريد منك أن يكون هذا رأيك فى الحياة؛ وإنما أريد أن أبسط لك أسباب الشقاء . فليح* لك احيانًا بالجحيم الذى يخلقه الخيال والذى تؤجحه العواطف . فاذا كان هذا الجحيم الذى يخيفك ويفزعك ، فاطو هذا الاعتراف ، واقرأ قصة من القصص، التى أعمق عاطفة يشرحها الكاتب فيها، لايبلغ عمقها سنتيمتراً واحداً . فأنت من الناس الذين يريدون أن يكون الشعر والأدب بمنزلة التثاؤب والتمطى .

١- تنور عبد الملك بن الزيات الوزير صنعه لتعذيب العمال الذين وضعوا يدهم فى أموال الدولة . وكان يقول الرحمة خور فى الطبيعة كما يقول نيتشه فلما نكبه المتوكل ادخله فى هذا التنور فقال ارحمنى قال له الم تقل الرحمة خور فى الطبيعة .

* هكذا فى الأصل ؛ ولعل الصواب «فيلخ» «المحرر»

سلطان القضاء

لايعرف سلطان القضاء ولايفهم سطوته؛ ولايحس قيوده ، إلا من خذله القضاء وعالج شدته . أما السعيد ، فإنه يحسب أن القضاء خادم بيته وصنيعة أبيه وعبد من عبيده. فإن السعادة هى الغفلة ؛ وأكثر الناس يعيشون غافلين . وبقدر غفلتهم ، يكون نصيبهم من السعادة . ولكن الرجل الذى تعود التفكير ، يبحث فى نفسه فيرى أنه يعجز عن أشياء كثيرة يريد كل الإرادة أن يأتيها ، ولكن تقصر إرادته وقوته عنها؛ ويسكن إلى أشياء يود كل الودادة أن ينأى عنها، فلا يقدر على تركها . ألم تر رجلا يريد إتيان الفضل والخير فيعجز ؛ واجتناب الرذيلة والشر فيعجز . فيحس قيود القدر تحز فى نفسه ، ويعرف عند ذاك حقارة الإنسان وضآلته ، فينسل عنه غروره الذى هو رداء كل نفس . ويرى نفسه عريانه من ثوب النفاق والغرور الذى كان يزينها ، فيرى فيها العجز والضعف .

وإذا نظرت فى حجج المفكرين الذين يقولون إن المرء مخير، وجدتها مغالطات . فإن حججهم المشهورة أن الله خلق للإنسان عقلا يهتدى به، وخلق له روحًا ، وأودع فيه عوامل الخير والشر. فإذا اختار الشر؛ كان جانيًا على نفسه باختيار الشر. انظر إلى هذه المغالطة السخيفة ، وكيف أن قائلها لايثبت شيئًا لأنه فرض الشئ الذى يريد إثباته . ولو أنه قال فإذا اختار الشر ، كان الله قد أودع فى نفسه من ذلك الشر أكثر مما أودع فيه من نقيضه ، لصح قوله . فإن المرء لم يخلق عوامل الخير والشر التى فى نفسه ، حتى تزعم أنه جعل الشر فى نفسه غالبًا للخير، أو أنه خلق ميولها إلى الشر. ولو كان الإنسان هو الذى خلق نفسه ؛ لصح أن يقال إنه خلق فسادها الناشئ من تغليب قوى الشر فيها، على قوى الخير. ولكن الأغبياء ينسبون إلى المرء خلق الفساد؛ كأن خلق الشر أسهل من خلق الخير. والصواب أن المرء يعجز عن الخلق ، سواء كان ذلك خلقًا للشر أو للخير.

وإذا تأمل المفكر ؛ وجد أن المرء لايكون مختاراً إلا إذا كان مستقلا فى أموره عن الله والكون ؛ وإلا إذا كان هو الذى خلق نفسه . أليس كل شئ فى الوجود يتبع سننًا وأحكامًا لا يقدر أن يخرقها . والإنسان تحكمه عوامل الوراثة والتربية والبيئة؛ فهو لايقدر أن يتعدى حكمها.

إن الإنسان محكوم حتى بطعامه وشرابه وملبسه ؛ وحرارة الهواء أو برودته ؛ وبالضياء والهواء والمطر ، وبغير ذلك من أعضاء الوجود . وقواه فى آرائه وعواطفه وأخلاقه وعاداته،

ومن أجل ذلك ، قد يرى المرء ما فيه ضره، فلايقدر أن يتجنبه . ويرى ما فيه خيره ؛ فلايقدر أن يأتيه على أنه ليس بينه وبين ما فيه خيره حاجز يمنعه عنه، غير تلك العوامل النفسية التى لم يخلقها ولم يردها . بل هو يبغضها ويريد أن يصدع عنه قيودها . ولو كان مخيراً لما اختارها . وفى مثل هذا المعنى، يقول بشار بن برد :

طبعت على ما فى غير مخيـر

هــواى ولو خيــرت كنت المهذبــا

أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد

وقصــر علمــى أن أنــال المغيبــا

فأصرف عن قصدى وعلى مقصراً

وأمسى ومــا أعقبـت إلا التعجبــا

حدثنى رجل من الجهلاء المعممين قال : أنت مخير لأنك إذا أردت أن ترفع يدك لم يمنعك مانع . قلت : لقد كنت تكون مخيراً لو أصابك الله بشلل فى يدك ، فأنكرت أن يصيبك شئ لم ترده ، ورفعت يدك بالرغم من شللها الذى أنكرته ؛ لأنك لم تخلقه ولم ترده . فإذا كنت لم تخلق الشلل فى يدك؛ ولا الخبل فى عقلك ؛ ولا الجنة فى نفسك ؛ فكيف تنسب إليها فسادها وميلها إلى الشر ؛ وهذه أشباه سواسية .

خواطر الانتحار

يرى المرء ما فيه خيره؛ فلايقدر أن يدركه . ويرى ما فيه ضره فلايقدر أن يتجنبه . ويريد أن يكسر قيود القضاء ؛ وأن يكون مخيراً فلايقدر . ويوجعه عض تلك القيود التى هى كالذئاب المفترسة ، ويؤلمه نهشها حتى يصرخ صرخات تجرح الحلق وتخرج بالدم؛ وكأنى به قد جرى مع الصبا سلس العنان ، فأحيى الليل وأمات النهار، وفعل ما يفعل المرء فى شبابه ، من تصيد اللذات؛ يفعل ذلك فى أول الأمر خلسة حتى يصير عادة محبوبة . ويبلغ من حب الخمر واللذات الجنون ، فيصدق فيه قول حسان بن ثابت :

إن شرخ الشباب والشعر الأسـ   ود ما لم يعاص كان جنونا

فما يزال يزاول هذا الجنون حتى يتقصاه ناحية ناحية ومعنى معنى وعاطفة عاطفة ؛ يرجع إلى بيته فى أواخر الليل وقد قضى منه ما قضى . فيرتمى على فراشه حتى يقوم فى الظهيرة منتفخ العينين ؛ موجع الأعصاب يحس كأنه قد انفق فى تلك الليلة خمسين سنة من سنى عمره، وهو يحسب أن الشباب كنز لايفنى ، فيعذل نفسه ويسمعها تقريعا مراً ويلطم وجهه ؛ ويضرب ناحية قلبه بيده ، ويبكى بكاء شديداً ثم يعزم كل العزم على هجر ما فيه ضره. فما هو إلا أن يجيئ الليل وينسى آلام الصباح ؛ ويرتدى ثيابه ثم يحس كأن شيطانًا قد أفاق فى نفسه ، وتمطى فيها فيعيد فى الليلة ما فعله فى ليلة أمس . ثم يقوم بين الصبيحة والظهيرة مر الحلق، مر الفم موجع القلب والعظم . فيقول أين عزم الصباح أين ما أردته وأين ما يزعمون من التخيير أين معين على ما لا أقدر عليه من نفسى . كم عزمت وكم أردت وكم خادعت نفسى، وزعمت أنى قادر. وكم حاولت أن أكون قادراً ولكن القدرة ليست فى يدى ، أصرفها كيف أشاء . أصحيح ما يزعم اللائم من تقصيرى فى إرادة ما فيه خيرى، واجتناب ما فيه ضرى . كلا فقد أردت كل الإرادة وعزمت كل العزم، حتى صرت أود لو يظهر لى ذلك الشئ الذى يمنعنى من اجتناب ذلك الضر، أو بلوغ ذلك الخير فأقتله حتى ولو كان فى قتله العقاب ، وعندئذ يحس المرء ضعفه أمام القضاء ، حتى يخيل له كأن القضاء يبرز له وجهه فى الفضاء ، ويسخر منه ويهزأ به ضاحكا فيكاد المرء من غيظه يلقمه الحجر ثم يعاود نفسه، فيقول ينبغى لى أن أتشجع وأن لا أياس وأن أعزم عزمًا أعظم من العزم الأول، فيعزم ويريد ولكن شيطانا يفيق فى نفسه؛ ويتثاءب ويتمطى فيها، ثم يرقص فيه رقص المجنون أو رقص الزنوج . فيرى

المرء نفسه غريقًا فى تيار المقادير ؛ الذى يقذف به إلى الشقاء ثم يخطر له خاطر الانتحار ، فيقول الانتحار سلاح أحارب به القضاء؛ وأمنعه به من أن ينال مأربه عندى. ولكن قدرة المرء على التخلص من الحياة، تسليه عن كثير من همومها ؛ وتساعده على تحملها . فإنه يقول لنفسه تشجعى يا نفس فاذا اشتدت بك الهموم أطلقتك من إسارك؛ فإذا اشتدت به الهموم، ناجى نفسه قائلا قد اشتدت بك الهموم ؛ ولكن بعد العسر يسراً ، والحياة حلوة والموت مر مجهول . فلابأس من تحمل الهموم ؛ ما دامت للحياة حلاوة . ولكن إذا اشتدت بك الهموم بعد اليوم ، أطلقتك من إسارك . هكذا يخادع المرء نفسه ، ويعللها طول حياته ، كى لاتتأذى بمرارتها . فإن المرء لايقدر على الانتحار متى شاء . فإنه قد يريد الانتحار ، ولكنه يعجز عنه بالرغم من شدة همومه وآلامه ، ثم إنك تجد أناسًا ينتحرون لأسباب تافهة ، مثل وجع الضرس أو فشل فى أمر يحاوله أو موت قريب أو ضياع شئ عزيز ، ولكنك إذا تأملت ، علمت أن هذه الأسباب ؛ ليست أساس انتحارهم ؛ وإنما هى حوادث يقع فيها الانتحار . أما سبب انتحارهم؛ فهو تغلب رغبتهم فى الموت ؛ على رغبتهم فى الحياة . وكره الحياة الذى يدعو إلى الانتحار ؛ ليس مما يتهيأ لكل إنسان ولايكون نصيب المرء منه على قدر مصائبه ، بل هو دافع لايملك المرء له دافعًا حتى ولو كانت تظلله غصون النعيم وثماره وأزهاره . وليس من سبب لبغض المنتحرين وانتقاصهم إلا حب الأحياء أنفسهم ، وخوفهم من الموت .

لقد حاولت مرات أن أنتحر فراراً من سلطان القضاء، فأخذت سكينًا وأدنيتها من صدرى ، ثم قدرت مكان القلب وقلت هنا ينبغى أن أضرب نفسى الضربة القاضية ، فلم تهن على نفسى ، فقلت الليلة الآتية أفعل ذلك . ولما أتت تلك الليلة أرجأت الانتحار إلى ليلة أخرى؛ حتى أفكر فى طرق الانتحار ، وأختار منها واحدة ، وكلما حزت بنفسى قيود الأقدار، وحاولت أمراً فيه خيرى تمنعنى عنه الأقدار وتدفعنى عنه إلى ما فيه ضرى ، عاودنى خاطر الانتحار ، ثم أتناساه بالملاهى والغفلة والتغابى والتبلد. ويل للإنسان يخضع لسلطان القضاء حتى فى رغبته فى التخلص من الحياة .

إن الحياة حلوة بالرغم من مرارتها ، نعم إن حلاوتها لا تنسى المرء مرارتها ، ولكن مرارتها أيضًا لاتنسيه حلاوتها . على أن المرارة تغطى على الحلاوة وتفسدها ، وتمر طعمها ولكن الحلاوة لاتصلح طعم المرارة، وإن كانت تكسر من غضاضتها .

العجب واليأس

لاتطلب من الناس الكمال فتيأس منهم، وتضيع ثقتك بهم. وتَملّ من أجل ذلك الحياة ، فإن طلبك الكمال من الناس؛ ضرب من الغرور ، وحب النفس والعجب . فإنما تطلب منهم ذلك الكمال لتنتفع به.

لقد كنت فى صغرى كثير الثقة بالناس، كثير المودة لهم. ولربما كان ذلك سبب قلة ثقتى بهم الآن. كنت آتى إليهم وأظهر لهم الثقة بهم فيظهرون الحذر منى كنت أدور على بيوتهم استجدى قليلاً من الإخاء فلا أجده لديهم . كنت دون كيشوت صغيراً يطلب من الناس الكمال، ولكنى لم يكن عندى صبر دون كيشوت وأمله وعزمه. ولاغرابة في جزعى حين رأيت أن الناس ليسوا عندما ظننت فيهم من الكمال ، فإن من أعمته ثقته بالناس عن عيوبهم ؛ لابد أن تعميه التجارب عن حسناتهم . ومن أجل ذلك ، صرت إذا رأيت من إخوانى مللا حسبته غاية الغدر. وإذا رأيت منهم خدعة : حسبتها غاية النفاق واللؤم . وإذا رأيت منهم جفوة ، حسبتها غاية البغض. ومما زاد امتعاضى منهم أنى لم أفطن إلى ما فى نفسى من الغرور ، والأنانية . ولم أعرف أن فى غرورى وأنانيتى عذراً للناس على ما فى نفوسهم من أمثال هذه الصفات .

إن إعجاب المرء بنفسه لابأس به إذا أغراه بالمحامد وزجره عن المقابح . ولكنه إذا عظم واشتد كان سبب شقائه : لأنه يريد أن يحمل الناس على أن يكون في كل كلمة يقولونها أو عمل يعملونه : ما يرضى إعجابه بنفسه . وهذا لايستقيم له فيحزن وييأس ، ولاينتفع به طول حياته ولاينتفع هو بحياته .

الكذب

ينبغي لك أن توطن نفسك على أن كل الناس كاذب، من الأمير إلى سائق الحمير. فاتخذ لنفسك عدة تنفي بها ما قد يجلبه لك كذبهم من الشر. ولاتنس أن المرء مهما كان، واسع الجاه؛ معظما أو كثير التقوى والصلاح ؛ لايأنف من استخدام الكذب في مآربه . لأن الكذب سهل المخرج ، يخرج من الفم كالبصاق ، ولولا ما يخشاه المرء من عاقبة الفضيحة إذا ظهر كذبه ، لكانت حياته كلها كذبة كبيرة مستطيلة . والحياة عند كثير من الناس مثل هذه الكذبة . وبعض الناس يشوب كذبه بشئ من الصدق ، ليكون أسير في الأفواه ، وهذا أخبث الكذب وأشده إيلامًا وأوسعه ضرراً . ثم يحسب أنه صنع الخير والإحسان والبر بأن لم يكذب الكذب كله وهو يعلم أن شوب الكذب بشيء من الصدق أبلغ في الكذب . والكذب هو الطعام الذي يتغذى به الإنسان ، والشراب الذي يروى به ظمأه ، والهواء الذي ينشقه ، والسماء التي تظله والأرض التي تحمله . فليس له غنى عنه في كل لحظة من حياته . فالإنسان حيوان كاذب ثرثار . والناس يزينون كلامهم بشئ من الكذب إما بثلث أو بربع أو بثمن والحق الذي بالباطل أسْيَر من الحق المحض . والصدق المشوب بالكذب . كالدنانير التي يشاب معدنها النفيس بمعدن خسيس، كي لايبريها لمس الأيدي. وكلما كانت الأمة أقرب عهداً بالجهل والظلم وأوفر منهما نصيبًا ، كانت أوفر نصيبًا من الكذب. فالجاهل كثير الكذب ، لأنه لايعرف أن مقادير الكلام نعين قيمته من صدق أو كذب . والمغلوب على أمره يكثر من الكذب، كي يتجنب بوادر المستبد .

يكذب الناس أحيانًا وهم يعرفون أنهم كاذبون . وأحيانًا يكذبون وهم لايعرفون أنهم كاذبون، والمغالاة باب إلى الكذب. أعرف رجلا يتعمد الكذب، ثم يخادع نفسه حتى يعتقد أن كذبه صدق لاشك فيه. وأكثر الناس مثل هذا الرجل ؛ ولكنهم لايشعرون .

إني قليل الكذب ، لأن الكذب يوقفني مواقف تخجلني وتؤلمني . فإن ذا الشعور الشديد يكره أن يأتي الكذب خشية الفضيحة . فيصير ضحكة إذا عرف كذبه ، فتهتاج لو اعجه من سخر الناس وضحكهم . ولقد كذبت مرة كذبة بَغّضت إلى الكذب، حتى صرت لا أستخدمه الآن إلا بقدر اللازم منه، ولا أرى هذا اللازم كثيراً.

أما قصة هذه الكذبة فهى أنى كنت مرة أجالس جماعة من الناس ، فجعلنا نتكلم فى تقتير بعض الأغنياء ، فقال صديق إنى رأيت فلان باشا مراراً قاعداً فى عربة الدرجة الثالثة من الترام. ثم مضت أيام وجلسنا مجلسًا آخر نتذاكر بخل الأغنياء فقلت إنى رأيت فلان باشا مراراً قاعداً فى عربة الدرجة الثالثة من الترام. ومن الغريب أنى وجهت كلامى إلى الصديق الذى قال هذه الكلمة فى مجلسنا السابق فتبسم، وخجلت خجلا شديداً . وأكره الغش أيضًا وأبغض إتيانه لأن انكشافه مؤلم . أذكر أنى مرة حاولت الغش فى امتحان مدرستى فوضعت المذكرة فى ثيابى ثم أردت أن أخرجها وقت الامتحان، ولكن خجلت حينما وضعت يدى فى ثوبى لإخراجها ؛ واحمر وجهى حتى صار كالجمرة ، وخفت أن يرى المراقب خجلى فيعرف سببه، فتركت المذكرة فى ثيابى ولم أستخدمها.

الخوف والوهم

إن للخيال تأثيراً كبيراً فى الحياة سواء النوم واليقظة. فالإنسان محكوم بخياله فى آرائه وخواطر باله ومساعيه وآماله . وما يزعم من الحقائق وفى معاملته الناس. ومن أجل ذلك ، كنت أتهم رأيى فيعود اتهامه بالوبال. إذ يدعو إلى التردد والإحجام عن المضى فيما يحاول الإنسان عمله. والخيال يشرك المرء فى عواطف الناس وحالاتهم؛ مما يدعو إلى التعاطف والتفاهم. ولكنه يخلق من الصغيرة كبيرة ومن الكبيرة صغيرة . والخيال جنة الأحلام وجحيمها ؛ ألسنا نمضى الحياة بين أحلام النوم وأحلام اليقظة . بين أزاهير الأحلام وأشواكها ، وبين ملائكة الأحلام وشياطينها . فتارة أحس كأنى نقلت إلى وجود غير هذا الوجود . إلى حيث الهواء شذى والماء عطر ، والناس من الحسن والفضل فى الكمال فيخيل لى كأنى :

أكاد أرى الفردوس خضرا غصونه

فليت مقامًا فى الجنان مقامى[1]

وأبصر فيها الضوء لاضوء مثله

له بهجة في زهرها المتسامى

واسمع منها الطير تشدو فأنثنى

وقلبى من ذكرى الفرادس دامى

فيا حلم الفردوس حبك ذكره

لأيام عيش فى الجنان سام

ففى بعض الأحايين أرى فى اليقظة أحلاما لا أقدر على وصفها من فرط جمالها . ولكنى فى بعض الأحايين أرى أحلامًا سوداء من أحلام اليأس والأسى ، فأخشى كل مصائب الحياة التى يمكن أن يصورها الخيال فى صحائفه ذات الألوان الكثيرة المختلفة، وأتوقعها وأحسها وأتألم منها مثل ما اتألم منها لو أنها وقعت بى . فأخشى الكهرباء فى السحاب وفى عرباتها

١- من قصيدة (حلم بالفردوس) من شعر المؤلف .

وما ركبت عربة منها إلا خشيت انكسارها ، وأخشى أخطار السكك الحديديه فى الأسفار، وأخشى الحريق كل ليلة أو نهار، وأخشى وقوع المنازل أو سقوط شئ من نوافذها إذا كنت بين المارة؛ وأخشى الكلب الكلب، وأخشى الحشرات مثل الثعابين والعقارب ، وأخشى الفيران والصراصير ، وأخشى البرق أن يصيب حينى بأذى ، وأخشى اللصوص على عدمى. وأخشى الحاجة والفقر المترب، وأخشى العمى. وأخشى الجنون وأخشى الأوجاع والأمراض . وأخشى الموت ولاسيما الموت المؤلم. وأخشى الحياة وما قد تأتى به من الأحزان والمصائب. وأخشى البرص . وأخشى الطاعون، وأتوقع كل المصائب والأضرار وأتألم منها كأنها قد حلت بى جميعها . وهذا التألم من جنون الخوف الذى سببه الخيال . ومن أجل ذلك ، كان من رحمة الله أن الخيال فى الجمهور من الناس ؛ كالنسر الحبيس لايبلغ الشمس ولايفترس الطير.

سوء الظن

إنى أسئ الظن بكل شئ سواء الحميد والذميم فلا غرو إذا رأيت فى الضياء ظلامًا ورأيت فى سواده ما يخلقه سوء الظن من الأوهام التى هى كخيالات الشياطين فى ظلام الليل. ومن بلغ به سوء الظن هذا المبلغ، يسمع همس شياطينه فى أذنه، فإذا تلفت إلى يمينه وجد سوء الظن يهمس فى أذنه اليمنى، وإذا تلفت إلى تلفت إلى يساره وجد سوء الظن يهمس فى أذنه اليسرى . ومن العجيب أن هذه الشياطين التى يخلقها سوء الظن لاتخفى قبحها لتخدعنا ، بل تظهر قبحها فى حركات وجهها وجسمها . هذه الشياطين هى الخواطر التى يهيجها سوء الظن، تمرح فى ظلامه كما يمرح الوطواط فى الظلام، وتؤدى بالمرء إلى الجنون. نعم فإنى قد عانيت من أجلها الجنون، وجرعت كأسه المرة وبلغت أعماقه ، ولاأعنى جنون من لايحس جنونه، بل أعنى جنون من يحس جنونه ، ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائجه . ذلك الجنون الذى لاينسى المرء الذكر والأمانى.

على أنى لا أقول إن سوء الظن كاذب أبداً إذا كان فى الكون حق. فالحق ما يسئ ظنك بالناس ، فإنهم خليقون بأن تسئ بهم الظن، ولكن ينبغى أن تسئ ظنك بنفسك ، كما تسئ الظن بالناس . أليست نفسك من نفوس الناس، ومن أجل ذلك ، كنت أحيانًا أسئ ظنى ببعض الناس ، ثم أسئ ظنى بنفسى ، وأتهمها فى ظنها ، ثم أسئ ظنى بالشئ الذى جعلنى أتهمها بسوء الظن وهكذا ، لاحد ولانهاية لسوء الظن .

إنى أسئ الظن بالناس ؛ لأن فى كل عمل يعملونه من الأعمال ، حتى الحميد منها شيئًا من اللؤم والدناءة . وقد بلغ بى سوء ظنى أنى ما رأيت اثنين يتساران إلا ظننت أنهما يذكرانى بسوء فأنا من الذين يصدق فيهم قول بشار بن برد

يروعه السرار بكل شئ مخافة أن يكون به السرار

وكذلك ما رأيت أحداً ينظر إلى إلا حسبت أنه يحدث نفسه عنى بسوء. وإنى لأسئ ظنى الآن بمن سيقرأ هذا الكتاب ، وأزعم أنه سيحدث نفسه قائلا لو لم يكن مظنة السوء، لما خيل له أن الناس تسئ به الظن . ولكن هذا القول ليس من المنطق فى شئ ، وإن كان معقولا جائزاً

ولكن يصح أيضًا أن يكون باعث المرء إلى سوء الظن ، لؤم الناس قاطبة ، وليس لؤم نفسه إلا جزأ صغيراً من لؤم الناس . وما رأيت أحداً ينظر فى ثيابى إلا حسبته رأى فيها شيئًا خفى عنى . وما رأيت أحداً ينظر فى وجهى إلا حسبته رأى فيه شيئًا قذراً . وما رأيت أحداً عابسًا إلا حسبته يعبس من أجلى بغضًا أو حقداً. وما رأيت أحداً باسمًا إلا حسبته يسخر منى ويهزأ بى. وما سمعت ضحكا لم أعرف سببه إلا خجلت خجلا شديداً، وحسبتنى غرضًا لذلك الضحك أرمى به . ومن أجل ذلك ، صرت أعبس فى وجه كل من يبسم فى وجهى من الناس: إلا من عرفت سبب ابتسامه، وأحيانًا اعرف سبب ابتسامه لا يمنعنى ذلك من إساءة الظن به . فأحسب أنه يظهر غير ما يخفى من سبب ضحكه، وأنه إنما يفعل ذلك مكراً وسخراً وإنى اعتمد كثيراً على حسن رأى الناس فىّ بالرغم من سوء ظنى . وأنا أعرف أن سوء ظن الناس بى: مثل سوء ظنى بهم. ولكن معرفتى ذلك: لايمنعنى من الاعتماد على حسن رأيهم . فلا أبرر أعمالى لديهم اعتماداً على حسن ظنهم ، ورغبتهم فى تبرير أعمال الناس.

وإذا أتيت زلة لم اعتذر ؛ اعتماداً على كرم الناس وميلهم إلى غفران الزلات. وأنا أعرف أنهم ليس عندهم شئ من كرم النفس . والناس تعد هذا الاعتماد على حسن ظنهم وكرم نفسهم، وقاحة وكبراً كأن صاحب الزلة لايعبأ بهم. وهذا يزيد نفورهم منه ولست ألومهم فى ذلك . فإنى مثلهم فويل لمن يعتمد على حسن ظنى به.

على أنى فى بعض الأحايين ، أكره من الصديق أن لا يعتمد على حسن ظنى به، ولاريب فى أن هذه مناقضة لتلك ولكن النفس كلها تناقض .

الفزع من التهم

الفزع من التهم ، ضرب من سوء الظن والجبن . لقد رأيت فى الحلم البارحة، أنى اتهمت كذبًا بإتيان جريمة . ولم يكن عندى ما أدفع به التهمة ، من الأدلة والشواهد . وصرت أصيح أمام القاضى وأقول أنا برئ ؛ والقاضى يهز رأسه ولايصدقنى ، والشاهد الكاذب يبتسم ابتسامًا خبيثًا . ثم رأيت بعد ذلك، أنى أساق للسجن والإعدام . إنه لحلم يفزع ذكره فلا أقدر أن أصفه . غير أنى قد استفدت منه أنى أحسست ما يكون عليه المتهم، البرئ المحكوم عليه بالإعدام من اليأس . فيرى أن العدل حلم يغر ويخدع ؛ وأنه خيال جميل تلتمسه اليد فلا تناله، وأحيانًا أحس فى اليقظة أيضًا ما يحسه المتهم البرئ ؛ فأحسب أن العدل حلم يغر ، وأن الفضيلة خيال جميل .

أى الناس لم يتهم وهو برئ فى زمن من أزمان الحياة. إنى لأذكر أنى اتهمت زوراً وبهتانًا، فى أيام صغرى، بسرقة علبة من علب الحلوى. ولا أزال أذكر ما نالنى من الفزع ؛ أن تكون الحياة كلها تهم باطلة ، ثم سهرت ليلى أبكى وأنتحب من كذب الناس وتهمهم . ألم تتهم أيها القارئ (باطلاً) فى أيام صغرك ؛ بسرقة قطعة من السكر ، أو بكسر إناء زخرف أو بأمثال ذلك من التهم. إذا فكيف تتقى أن تتهم غداً باطلاً بإتيان أفظع الجرائم وأعظمها .

على أنه من جنون اليأس والفزع والجبن ، توقع ما لم يحدث بعد، من المصائب وقتل النفس بهذا التوقع. فكن كأنك قد ألفت من الناس الكذب والاتهام بالباطل ، فلاتعبأ به إذا استطعت إلى ذلك سبيلا ، واجعل لك من صبرك جنة تتقى بها الناس . وخذ بقول ابن الرومى:

طامن حشاك فإن دهرك موقــع

بك ما تخـاف من الأمـور وتحـذر

فإن قلة الصبر وكثرة الضجر ، تنأى بالمرء عن كثير من عظائم الأمور وجليلاتها . لأن المطلب الجليل والحياة العظيمة تستلزم الصبر. وليس الصبر أن يجهل المرء ما هو فيه أو ما يتوقعه من الضر ، وأن لايحسه . بل الصبر أن يعرفه ويحسه ، ثم يجد من عظم نفسه ورجولته ما يغريه بالطمأنينة والسكينة ، فما أحقر من لاصبر له وما أذله .

قال صديق عرفت حلاقًا بطيئًا ، فكنت أذهب إليه إذا طال شعرى كى أتعلم على يديه الصبر ولكنى وجدت أنه يزيدنى من قلة الصبر.

إنه لمن سخر القضاء أن يعرف المرء الداء ، ولكن لايجد إلى الدواء سبيلا .

الحذر

الحذر أساس الحزم . والحزم من لوازم الحياة الهادئة المطمئنة ، ولكنه إذا عظم أتلف طعم الحياة.

إن الحذر مقرون بسوء الظن؛ وبقدر إساءة ظنى يكون حذرى . إنى ما ركبت عربة ولادخلت دكانًا لأشترى منه شيئًا ، ولاجلست فى حانة ، إلا وضعت يدى على صرة الدراهم ، مخافة أن تكون قد سرقت منى فلا أجدها عند الحاجة .

إن شدة الحذر ، قد بَغَّضَت إلى القدر اللازم منه. لأن من كان شديد الحذر ، كثر خوفه وجبنه. فكأنما قلبه جناح طائر، من كثرة الخفقان . ومن أجل ذلك ، أطفر الطفرة أحيانًا ؛ هربًا من الحذر ؛ فأوقع فى ضده فى التعرض للخطر.

كما أنى أَمَلُّ الحياء الشديد وأبغضه ، فأجتهد أن أتخلص منه، فأقع فى ضده فى الوقاحة. ومن أجل ذلك ، صار بعض من يرانى فى تلك الحالات النادرة ، يحسب أنى كثير التعرض للخطر قليل الحياء، وهذا خلاف الصواب . وهذا الحذر الشديد الذى أعانيه ، جعلنى أحس اندفاعًا إلى الأخطار . كما أن من يطل على الحضيض الأوهد من المكان العالى، يحس اندفاعًا إلى الحضيض . وأحيانًا أنظر إلى الأخطار، كما ينظر الجرذ الكثير الخوف إلى عين القط ، فيبلده الخوف، فلايتحرك ، ثم يجمد دمه، ويسكن خفقان قلبه فيموت .

على أن للخوف مزية ، فإنه يثير القوى الكامنة فى نفس المرء ، حتى كأنه يخلق له روحًا جديدة . أذكر أنى خرجت مرة من المدرسة ، وأنا تلميذ صغير مع رفقة من التلاميذ ، فمررنا برجل من أهل الصعيد ضخم طويل ، مفتول الذراع عليه مظاهر القوة، فرأيناه قاعداً لحاجة فأخذ أحدنا حجراً ورماه به، فأصابه فى أسفل ظهره ، فقام الرجل يعوى، وأخذ عصاه الغليظة، وصار يعدو وراءنا ونحن نعدو أمامه هربًا . وكان صحابى كلهم خفاف الأجسام ، معروفين بالحركة والعدو ، ولم يكن خوفهم إلا علىّ ، لأنى كنت معروفًا ببطء الحركة ، ولكنى صرت أعدو لا أتلفت إلى أحد، حتى قطعت نصف المدينة عدواً ، ثم نظرت إلى ما ورائى فعلمت أنى سبقت إخوانى كلهم، ورأيتهم ورائي فى تعب ، وهم يعدون ، والصعيدى وراءهم يعدو رافعًا عصاه . فوالله ما استرحت من العدو حتى بلغت منزلى . ومن ذلك اليوم، صرت معروفًا عند التلاميذ بسرعة العدو، حتى أن الواحد منهم كان يخشى أن يجارينى فأسبقه .

الخوف والرحمة

إنى لأستحى أن أجود بشئ أمام الناس . ولا أعرف لذلك الخجل من الفضيلة سببًا ، هل هو خشية أن ينسب الناس الجود إلى الرياء ، أو الضعف أو الجبن أو لكبر . وما يدرينى ربما كانت الخصلة نوعًا من البخل .

أذكر أنىَ مررت مرة برجل مقعد ضعيف أبرص يستجدى . فكاد قلبى يتقطع من الإشفاق والرحمة ، وأردت أن أبر الرجل بشئ ، ولكن الحياء الكاذب ؛ وضعف العزيمة حالا بينى وبين ما أردت . .فلما رأى الرجل ميلى إلى أن أجود له بشئ جعل يلح علىَّ فى السؤال ؛ وأنا بين دافع الرحمة، ودافع الخوف ؛ أن يلحقنى مثل سوء حاله يومًا؛ فقلت للرجل أف لك يا تعس ؛ ماذا رأيت فى الحياة حتى رضيت بها وغبنت نفسك ، وماذا ترجى من الحياة وأنت مقعد أبرص، ينتهرك الناس ، كما ينتهرون الكلاب ، ماذا تخشى من الموت؟ هلا أبقَتَ من هذه الحياة . أليس الانتحار خيراً لك وأبر بك؟ أليس خوفك من الموت وتعلقك بالحياة مما يجعلك أهلا للشقاء والانتهار. فلما سمع الرجل منى تلك الكلمة القاسية ، نظر إلى نظرة حادة لم أفهم معناها ، ثم تركنى وأبقى فى قلبى حسرة ، ولم يفه بكلمة . وبودى لو فسر لى معنى تلك النظرة فقد كان يكون تفسيره بحثًا فى النفس ودرسًا من دروس الحياة.

وأذكر أنى مررت مرة بعجوز يرتعش جسمها من الضعف ، فأردت أن أجود لها بشئ ؛ ولكن لا أعرف ما الذى منعنى من البر، فتركتها وأنا أقول ما أهون قيمة الحياة وأبخسها ، وما ألئم الإنسان . وكم فى الوجود مثل هذه المرأة، من البؤساء والبائسين ومن هم أتعس منها ، إذا صح أن تكون أعظم من تعاستها تعاسة ، ثم كاد قلبى يتمزق، وجعلت أضرب رأسى بيدى فلما اشتد بى ذلك جعلت أبحث عن العجوز حتى وجدتها وأعطيتها ... نصف قرش ولاتعجب أيها القارئ من صغر العطاء ، فإن الناس يمحون توبيخ ضمائرهم بأقل من ذلك بمليم، أو بكلمة طيبة أو ابتسامة . أليس بر اكثر الناس ، تخديراً لضمائرهم وتسكينًا لوخزها . فليس جودهم إلا خوف عاقبة ما يدر منهم من الشر. وليست رحمتهم إلا خوفًا أن يصيبهم ما يصيب المسكين الذى يرونه من السوء . ومن أجل ذلك ، كنت لا أجد فيما أحسن من الرحمة فخراً ،

فإن الرحمة ناشئة من خوف المرء وقع الشر. والجود من المنعشات التى تزيل عنه حمى الندم والحزن ، وأتهام النفس، وتعده لاستئناف الحياة وشرورها ، من دناءة وقسوة وغدر ونفاق .

هيهـات لايرحم المسكين ذو تـرف

منعم البـال لايؤذيـه حدثـــان[١]

لـولا المصائـب والآلام قاطبـــة

ما كان فى الناس اشفاق وإحسان

١- من شعر المؤلف .

داء الضمير

إن توزيع الضمائر بين الناس ، فيه غبن وظلم ، مثل توزيع المال. فلو كان نصيب المرء من وخز الضمير على قدر نصيبه من الآثام ، لهان الأمر قليلا ، ولكن نصيب المرء من وخز الضمير ، يكون على قدر رقة شعوره وأعصابه ، لا على قدر ذنوبه . وقد يشتد وخز الضمير حتى يصير داء ، وحتى يؤنب المرء على ما لم يجنه. وقد يليح له بمحامده كأنها رذائل ، ثم يؤنبه عليها ، وقد يؤنبه على ما جناه غيره من الناس . وأنا من الناس الذين أصيبوا بداء الضمير . فأحيانًا أحس وخزه في الرأس والقلب ، فتخور قواى وتخدر أعصابى ، وأحس يأسًا لا حد له . وأرى الدنيا مظلمة فأود لو أتخلص من ذلك العدو الذى ينهش قلبى . ولكن أذكر قول العباس بن الأحنف :

كيف خلاصى من عدوى إذا

كان عدوى بين أضلاعى

وكما أن الضمير قد يشتد وخزه حتى يصير داء . كذلك الرحمة، قد تشتد حتى تصير داء. ومن العجيب أن المرء فى هذه الحال، لايقدر أن يعين من تقع عليهم رحمته بل يحس انقباضًا إذا رآهم فيه شئ من المقت . ولقد كنت أعجب من هذا الشعور ، ولكنى أظن أن باعثه هو أن تألم المرء من رؤية آثار الشقاء ، أكثر من تألمه لمن أصابهم الشقاء فيحسب هذا التألم من آثار الشقاء فضيلة ، وما هو بفضيلة ، ويراه ضربًا من الجود والبر وما هو بر . بل هو مثل تألم المرء من شم الرائحة الكريهة ، أو رؤية الشئ القبيح .

كنت وفئة من أصدقائى فى مكان: نأكل ونشرب ونضحك ، وعندنا غناء وجمال ، وبينا أقهقه من السكر، تلفت فرأيت فتاة تستجدى: قد نال منها السل وأنهكتها الحمى ولها منظر تنقبض منه النفس . فلم أقدر أن أتم الضحك ، بل وقف الهواء فى حلقى ، كأنه الغصة واشتد خفقان قلبى. ثم صرخت قائلا أمن القدر المحتوم أن لاننال ما نحن فيه من اللذة إلا ممزوجًا بالتألم لما نراه من بؤس هذه الفتاة وشقائها ، ثم جرعت كأسًا من الخمر كى أغرق فيها الأمى ، وصرت اتأوه بصوت عال. وكيف تغرق الخمر الآلام ، وهى خميرة الآلام . ثم قمت أسير كالمجنون وأصابتنى من الآلام والتعاسة أضعاف ما أصبت من لذة الخمر . وربما كان هذا التألم الشديد من رؤية آثار الشقاء غاية الجبن أو جنون الجبن .

المجرمون والأبرياء

يحسب كثير ممن لم يتعود التفكير ، أن الناس منقسمون بفطرتهم إلى قسمين : فهم إما مجرمون وإما أبرياء . وهذا نظر فاسد ، فإن فى نفس القديس جرثومة الإجرام ، كما أن فى نفس الشرير بذور الطهارة والجلال . فإن فى روح المرء شراً لا حد له ، وخيراً لا حد له .

وكما أن الروح معبد يحله الله وينيره بنوره ؛ فهى أيضًا مغارة إبليس التى ينيرها بناره. أى الناس لم تخطر بباله خواطر الإجرام، ولم يفزع مما يتحرك فى نفسه من حشرات الشر، ونحن نعرف استحالة براءة النفس اللهم إلا من كان متغافلا عن نفسه ، فلايفهم هواجسها ولايقدر أن يحكم على أعماله ، وأن يعرف كنهها. لقد مرت بى ساعات كنت أحس فيها تلك اللذة التى تدفع المرء إلى الشر ، فإن الجريمة مثل السراب اللامع ، والحياة كالصحراء القاتلة الحرارة، والمرء فيها كالمصحر الظمأن يليح له سراب الشر بضيائه ، فيريد أن يروى ظمأه ، وينقع غلته ولكن لايزيده السراب إلا عطشا . وكنت أرتعد ، كلما قادنى التفكير إلى معرفة محتملات الحياة وأطوارها، والروح وتقلباتها وأحوالها . فإن الروح البشرية تخيف المفكر وتفزعه .

أنا اليوم برئ، ولكن ما يدرينى ، ربما كنت فى غد مجرمًا. وربما تحركت عوامل الشر التى فى نفسى . إن قلبى يكاد يتقطع كلما فكرت فى أمر هذه النفس ، فتسيل الدموع حزنًا وفزعًا، فيصيب يدى من بلل الدموع، وأضعها أمام عينى كى أرى ما بها من ذلك البلل ، فتعرونى الحيرة والدهشة ، وأقول ما أخس الإنسان ، وما الأم الحياة .

وكنت أشفق على المجرمين وأملأ لهم قلبى رحمة، حتى لو أصابنى أحدهم بسوء لما اشفقت على نفسى ، أكثر من إشفاقى عليهم فى تلك الساعة. فإنه لا يحزننى فى الحياة شئ مثل رؤية آثار التعاسة التى يجلبها الإجرام للمجرمين ، ويعود بها الشر على الأشرار . لقد رأيت فى الحلم مرة أنى أتيت جريمة القتل ، ثم وقفت أمام جثة المقتول ، وقد أحسست دواراً وصار العرق يتصبب على جسمى ، وكنت أحس جريه كأنه دبيب الحشرات . وقد جمد الدم فى عروقى واسودت الدنيا فى عينى . وكلما أردت أن أتنفس، أحسست شيئًا يسد مجرى النفس . وكنت أحس صوتًا كأنه صوت أعصابى تتقطع ، فيحكى صوت تقطع أوتار العود أو كأنه صوت سقوط نقط الماء من علٍ . وكنت يخيل لى كأن يداً من جليد قد وضعت على ظهرى .

هذه هى الأحلام التى تمكن الأديب أن يعدم شخصه فى أشخاص غيره، وأن يلج إلى أرواح الناس وعواطفهم ، وأن يرحم المجرم كما يرحم التعيس . لأن تخيل عاقبة الإجرام فى الحلم ، يجلب من الآلام والتعاسة ما قرأت وصفه ، فكيف يكون مبلغ تعاسة المجرم وشقائه ؟

أمواج النفس

إنى لأجد من نفسى فى بعض الأحايين ارتياحًا إلى السكوت التام ، فيزعجنى الكلام مهما قلّ ، سواء منى أو من جليس . ومن أجل نوبات السكوت التى تعتادنى أكره مجالسة الناس، لأنهم يريدون منى أن أتكلم متى شاءوا ، فاذا خالفت مشيئتهم: عد ذلك ذنبًا لديهم. ولكن فى النفس مداً وجزراً. ومن أجل ذلك ، أجد ذهنى فى بعض الأحايين يجود بالمعانى ، كما تجود الأشجار بأزهارها وثمارها . وأحيانًا يكون كالشجرة العاقر التى ليس لها ثمر ولا زهر ، أو كالبئر التى نضب ماؤها، أو كالصحراء المجدبة . فطوراً يرقى بى إلى منزلة الآلهة ، وطوراً ينزل بى إلى منزلة البهم.

ولا غرابة فى ذلك ؛ فإن المرء لابد أن يعدل فى عمره ساعات الإلهام النادرة الثمينة ، بأيام طويلة من أيام البلادة والغباء . فإن محامد المرء ومواهبه محسوبة عليه فى حياته . ومن أجل هذا المد والجزر الذى أراه فى النفس ، يخيل لى أن روح الإنسان ، آلة تمر عليها من الطبيعة روح تحركها فتجود تلك الآلة بأنغام المعانى، ثم تركد هذه الروح فتبقى الآلة خرساء لاتجود بالنغم ، كذلك الأغصان، تهب عليها الرياح فتئن فيها أنينها، وتطلق فيها من أنغام الحفيف ما يستهوى السمع . فإذا ركدت الريح بقيت الغصون خرساء ليس بها من نغم .

الأبد في دقيقة

آه لو أمكن أن أعيش الأبد فى دقيقة واحدة ، فأحس كل إحساس ، وأفكر كل تفكير ، وتخطر على ذهنى كل الخواطر وأجتبى كل المعانى ، وألتذ كل اللذات ، وأتالم كل الآلام ، وأحب كل الحب ، وأحسو كؤوس العواطف ، فلا أترك بها سؤراً. وأتخيل كل تخيل ، وأجنى ثمار الحياة فى دقيقة واحدة تكون أجلّ من الأبد ، وأعظم من الخلد . لا أحسب أن نفسى ترضى بلذة غير هذه اللذة ، التى تجمع بين لذات الأبد وآلامه فى دقيقة واحدة .

إن نفسى لتحس قيود الضرورة وتتألم منها كما يتألم الأسد المكبل ، وتريد أن تصدع عنها أغلالها وأن تعيش حرة، ولكنها بالرغم من ذلك، تعرف أن ذلك أمر لا يكون فإنه لايصدع عن النفس قيود الطبيعة إلا الموت .

ما أروع أن تكون حياة المرء عاصفة تجتلى فيها لذات التفكير والتخيل . عاصفة تهيج ساعة ملؤها اللذة والجنون. ساعة ينال المرء فيها كل ما خطر بباله ، أو حن إليه قلبه أو جن به لبه ، ساعة تكبر فيها النفس حتى تملأ الفضاء ، ساعة تفنى فيها النفس لذات هذا الوجود ثم لاتشبع فتخلس لذات كل وجود ، إن كان هناك وجود غير هذا الوجود . ثم لاتشبع فتخلس لذات كل وجود يمكن وجوده فيما يستقبل من الزمن ، ثم لايشبعها ما تناله فتخلس لذات الفردوس ، وكل فردوس يتصوره الخيال. ساعة تعظم فيها النفس حتى تملأ الأبد، ساعة لايبالى فيها المرء الأقدار والأخطار ، ولا الموت والفناء، ساعة تصعد فيها النفس حتى تسامر الأفلاك، ساعة يعظم فيها المرء حتى يكاد يلمس النجوم قاعداً.

جنون الأماني

آه من لى بساعة اقف فيها بين الحياة والموت، بين البقاء والفناء تكتنفنى الاقدار والخطوب وانا قوى العضد، قوى القلب، قوى النفس، قوى الإيمان بنفسى، لا أبالى الاقدار والاخطار . من لى بساعة ألهو فيها بالفناء والموت، وأسخر فيها من الحوادث والمصائب واهزأ فيها بالسماء والأرض وما بينهما ، من لى بساعة احمل فيها روحى فى يدى، كالرمح أرمى بها كل مرمى، واطعن بها كل مطعن. من لى بساعة اصافح فيها الحياة بيد، والحمام بيد ، وانا قوى مثل الحياة قوى مثل الممات، مستقل عن الحياة والممات، اهزأ بالحياة واهزأ بالممات .. آه هذه امانى مجنون .

الضاحك الباكي

إن الحياة عندي ضحكة وبكاء . فأنا كثير الضحك ، كثير البكاء : فتارة أضحك وأنا أبكي . وتارة أبكي وأنا أضحك ، تارة أضحك وأنا حزين ، يكاد ينفطر قلبي من الجوى، وتارة أبكي وأنا جذلان مسرور. تارة أحس قلبي يتقطع من الحزن ، فأذكر قصة مضحكة أو فكاهة لطيفة ، فأضحك حتي أقهقه . فإذا فرغت من القهقهة ، رجعت إلى ما كنت فيه من الحزن والبكاء ، وتارة أكاد أطير وأرقص من الجذل والفرح ، فأذكر حادثًا مؤلمًا، أو قصة محزنة أو منظراً من مناظر الشقاء، فأبكي بكاء مراً.

إني لأبكي عند رؤية غروب الشمس ، وعند شروقها، وعند رؤية الجمال المفرط . وأبكي عند قراءة قصيدة مؤثرة ، وعند رؤية الرسم الجميل والألحان الرقيقة، وأبكي عند الغضب وأبكي عند الرضى، وأبكي عند الفرح ، وأبكي عند الحزن، وأبكي عند سماع قصة مؤثرة، أو رؤية منظر من مناظر الشقاء، أو منظر من مناظر الجلال والروعة .

غير أني أجتهد أن أخفي دموعي بالضحك، أو السخر أو الهزل والفكاهة. إني بي شيئًا كثيراً من الحزن الطبيعي، لحقني من طريق الوراثة، وزادته القراءة والتفكير . وإنه ليخيل لي أن كل أمة لها روح ذات إحساس ، مثل أرواح الأفراد . وإن روح الأمة تلج إلى أرواح الأفراد وتبث فيها أطوارها وأحوالها ، فإذا صح هذا التخيل ، لم يكن غريبًا أن في نفسي شيئًا كثيراً من القلق وغيره من الصفات التي نكتسبها أرواح الأمم ، في حالة التغير والانتقال من أخلاق إلى أخلاق ، ومن صفات إلى صفات .

عبث الفكر

إن بعض التفكير داء عياء ، ففى بعض الأحايين أفكر فى كل شئ وفى غير شئ فأفكر فى الطعام الذى آكله، وفيما تقع عينى عليه من الأشياء، وفى الأرض التى أمشى عليها، وفى السماء التى تظللنى ، وفى الهواء الذى أنشقه ، وفى الناس الذين أراهم ، وفى غير ذلك من أمور الحياة .

وكلما فكرت فى شئ قادنى التفكير فيه إلى التفكير فى شئ غيره، حتى إذا أردت بالليل عند النوم أن أوقف تيار هذا التفكير الذى ليس له جدوى ما قدرت ، فيخيل لى كأن عقلى آلة فسد تركيبها ، وأسمع ضجيج روافعها وعجلاتها . ثم أريد أن أضع يدى على الرافعة التى توقف حركتها فلا أجدها فأتركها ، حتى تقف من نفسها بعد عذاب شديد . ومن أجل ذلك، أحس أحيانًا كأن عقلى طائر يهم بالطيران فأرتاع ارتياعًا شديداً ، وأحيانًا أحس كأنه طاحون تدور ولكن ليس بها طحين.

إن فى عقلى شرهًا إلى التفكير ، مثل شره الإنسان إلى الطعام ، فأتمنى أن أجتنى كل معنى ، وأن أتخيل كل خيال، وأن أفكر كل فكر ، وأن أعرف كل شئ ، وأن أقرأ كل كتاب فى العلوم والآداب . ولاتحسب أن هذا الشره يعين على الاطلاع ، إنه يعوق لأن الحيرة تتملكنى ، فلا أعرف بأى الكتب أبدأ ومن أجل هذا الشره، اسرع فى قراءة ما اقرأه حتى يألم ذهنى . وفى بعض الأحايين أعد كل تفكير عبثًا وباطلاً، وأتمنى أن تكون الحياه مثل خواطر الشعراء ، وما يتخيلونه من الصور البديعة .

طعم الذل

لايعرف المرء طعم الذل ، ولايذوق مرارته حتى يهينه من هو أقوى منه، فلا يقدر أن يمحو إهانتـه. وفى مـثل تلك الحـال، يصيـر المرء عند نفسـه فى منزلة الإله المعزول الذى بال عليه الثعلب . فإن فى كل نفس شيئًا تجله وتعبده، وتتخذه إلهًا. ونفس المرء بخير ما دامت واثقة من ذلك المعبود الذى فيها، وهو شرفها وعزتها. وعندما تفقد النفس عزتها، تكون مثل الفكر الحزين ، الذى يحزنه أنه صار لايؤمن بمعبوده الذى كان يعبده، وأن ثقته به قد فنيت فيفقد ثقته بنفسه من أجل ذلك. وكذلك النفس، إذا فقدت عزتها أحزنها أنها فقدت ثقتها وإيمانها بمعبودها.

وإنى لا زال أذكر ذلك اليوم النحس الذى لطمنى فيـه شقى، لم يكن يدرى مبلغ إساءته إلىّ، فرفعت يدى لألطمه كما لطمنى ، ولكن الجبن وأخاه الحزم ، همسا فى أذنى قائلين : إنك إذا لطمته لطمك مرة ثانية، وهو أقوى منك فلاتصيبه إلا ببعض ما يصيبك . فخير لك أن تتحمل اللطمة الأولى، أن تنجو سليما ، فوقعت يدى إلى جانبى وأحسست أن روحى قد سلبت أجل شئ فيها. فنظرت إلى ما بين قدمى لأرى ما سقط منها، من العزة والأنفة والشجاعة . ثم أحسست كأن عظامى قد احترقت ، ولم يبق إلا رمادها وخارت قواى، وعرتنى حيرة وشككت فى الحياة، فجعلت عدو من الغيظ وقد اسودت الدنيا فى عينى . وجعلت أنظر إلى المارين وهم ينظرون إلى فأرميهم بلحاظ المقت والكره لأنى كنت أحسبهم يسخرون بى ويعرفون ما حدث لى، ويفهمون سر روحى التى قد اهينت ، ولم تعد تصلح للحياة. ثم وقفت على غدير وهممت أن أرمى بنفسى فيه، لكننى هزئت بنفسى وسخرت منها . تلك النفس التى تفر من اللطام إلى الحمام ، ثم ذهبت إلى البيت وأنا أرتعد، وقد جحظت عيناى وملأ الغل قلبى ، فارتميت على الفراش، وجعلت أتلوى وأتقلب وخطر لى أن أتابط سكينا أو مسدسا وأن أنتقم من ذلك الشقى الذى أهاننى فأقتله، ولكن الحزم والجبن، وهما سميراى ونصيحاى ألاحا لى بالقضاء والمحاكم ، فجعلت أقرض أسنانى من الغيظ ، حتى تكسر بعضها . وكنت فى حالة من حالات الجنون ، وما زلت كذلك ، حتى أنهكتنى الغيظ والغل ، فنمت إلى الصباح ، ثم قمت متثاقلا قيام المخمور من خماره ، ولم يزل بى أثر من نشوة الغيظ والحقد.

وهذا الجبن من تأثير التربية والوسط الذى نعيش فيه، فقد ثبت فى نفوسنا أن الحزم والجبن

خير من الإقدام والخطر. ألم يكن أصلح لنفسى أن آخذ بتلابيب ذلك الرجل وأن ألاطمه . وماذا علىّ لو أوجعنى ضربه أكثر مما أوجعه ضربى. أكان يؤلمنى أكثر من ألم الذل . أليست الآلام مع العزة، خير من الدعه والحزم والصبر والتوقى والجبن والذل . إن التربية تجنى على أكثرنا وتعودنا الجبن والذل والاستكانة . وكان ينبغى أن تعودنا أن لاتبالى الأخطار ، وأن نهزأ بها وأن نضع عزة النفس فوق كل ذلك.

لقد جرى بينى وبين رجل من الناس خلاف بعد حدوث هذه القصة ، فأردت أن أطبق هذه الفكرة الجديدة، فكرة الاعتزاز بعزة النفس . فلمّا احتد الجدال بيننا وخفت أن يبدأ اللطام ، بدأته به كما تفعل الأمم المتحاربة . فإن المبادرة نصف الظفر . فبادرته بلطمة بين عينيه ، وكنت أريد أن يخر مغشيًا عليه منها. ولكنى خفت أن أفقأ عينه أو أن أصيب أحد أعضاء وجهه بتلف دائم، أو أن تكون ضربتى هى الضربة القاضية عليه، التى تودى بحياته فتعود بالطامة وبالعقاب الشديد. كل هذه الخواطر جالت بذهنى عندما مددت يدى لألطمه . ومن أجل ذلك، لم يكن وقع اللطمة عليه شديداً ، فمد إلى يده باللطام . ولكن يخيل لى أنه لم يخش ما خشيت من العقاب ، وإنما استنتجت ذلك من وقع لطماته ، فانصرفت بأنف مهشم وعين سوداء حمراء زرقاء كأنها قوس قزح .على أنى بالرغم من شدة المقت والكره الذى أعالجه، إذا أساء إلى مسئ لا أقدر أن أحمل الحقد مدة طويلة ، لأنه يورثنى التعب الشديد . ومن أجل ذلك ، صرت قليل الانتقام لنفسى من إساءة نالنى بها مسئ . وربما كان سبب ذلك، ضعف الإرادة فإنى لا أنسى إساءة مهما مرّ عليها من الزمن، ولكنى أذكرها إذا أذكرنيها شئ ، فاذا تناسيتها لا أمقت من نالنى بها حتى يذكرنيها شئ آخر . وفى أثناء ذلك ، قد يكون ذلك المسئ عزيزاً لدى ، فاذا ذكرتها تألمت منها مهما قدم عهدها ، ووددت لو أعاقب عليها من نالنى بها حتى أخشى عليه بوادر غضبى وفتكى، ولكنى أسخر من نفسى وأنشدها قول جرير:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعًا   أبشر بطول سلامة يا مربع

ثم أرجع إلى نفسى فأقول وأى نفع يرجى من الانتقام العجز عن إن الانتقام من صفات صاحب العقل الكبير ، والنفس العظيمة ، فأجد نعلة وسلوانًا فى هذه الكلمة . غير أن الشك قد يعتورنى أحيانًا فأقول إن صاحب العقل الكبير ، والنفس العظيمة يربأ بنفسه عن الانتقام. وليس كل عجز عن الانتقام دليلاً على كبر العقل، وسعة النفس . فإنى أعرف من الحمقى والمجانين ، وأهل البله والغباء ، من لايقدر على ذرة من الانتقام .

سخر القضاء

ما أعجب هذه الحياة، وما أعجب تعجبى منها . على أن التعجب منها خير ، لأنى إذا لم أقدر على ذلك أكون قد يئست منها، فأرى أنها لاتستحق أن يعالجها المرء.

ومن العجيب أنى عوقبت كثيراً فى الحياة على ما لم أجن من الذنوب . وكوفئت بالخير على ما جنيت منها. أحيانًا أفعل الشر فيخفى عن الناس ، ويحسبون أنى فعلت من الخير نقيض ذلك فيخفى عن الناس، ويحسبون أنى فعلت من الخير نقيض ذلك الشر. وأحيانًا أجد فى عمل الخير، فيحسب الناس أنى أسعى إلى الشر . وقد جلب لى فعل الخير من بغض أهل الخير، وإتهامهم إياى قدر ما جلب لى من بغض أهل الشر. ولست أعجب من شئ عجبى ممن يثق من نفسه ، أنه يفعل الخير الذى يبغض المسئ أكثر من بغضه إساءته ، ولايعلم أن المرء قد يفعل الشر وهو يحسب أنه خير، ويفعل الخير وهو يحسب أنه شر.

ما أعوص لغز الضمائر وأعمقه وأبعده عن المتناول . وما أذل الناس للتهم الكاذبة ، والمصادر الخداعة والحوادث التى تغر، أليس كل ذلك مما يجعلنا نعتقد أن الإنسان كرة فى أرجل المقادير ، إذا عظم كانت عظمته منها ، وإذا حقر كانت حقارته منها. وهل يمنع أهل السعى والجد ، والعمل اعتقادهم بسلطان القضاء عن السعى والجد والعمل؟ أم هل يزرع أهل الإرادة الضعيفة ، والكسل والذل نكرانهم سلطان القضاء عن ضعف إرادتهم كسلهم وذلهم؟ كلا فهذا أسلوب من أساليب سخر القضاء .

الإنسان والكون

ما أحقر حياة الفرد من البشر فى هذا الوجود الذى ليس له حد ولانهاية . انظر إلى هذه الأرض التى تحملنا ، أليست هى فلكا صغيراً من أفلاك كثيرة ، لاتعد ولاتحصى. وهذا النظام الشمسى ، أليس هو جزءاً صغيراً من الوجود . أليس هو نظامًا واحداً من أنظمة فلكية كثيرة.

إنى كلما فكرت فى ذلك، أحسست ضآلة الإنسان وحقارته ، فيصغر الناس فى عينى ، حتى يصيروا فى حجم النمل أو أقل ، فهب أن نملة تشكت وقع الأقدام . أليس ذلك مثل تشكى الإنسان ظلم الأقدار وامتعاضه منها. وماذا يهم الكون أنه يتألم ويشقى. ألسنا نهزأ ونسخر من شكاية النمل. وكأنى بروح الوجود تهزأ بشكايتنا ، وكأنى بقوى الوجود تسخر منا. كلما فكرت فى ذلك، تملكنى اليأس والملل ، وصغر عندى كل عظيم جليل من الناس، أو من امور الحياة ، أو من العلوم والآراء والآداب وأرى أن الحياة عبث ، وأنها فكاهة غثة ، فأود لو أريح نفسى من الاهتمام بما تستلزمه من الأشياء الحقيرة ، والأعمال الحقيرة والمساعى الحقيرة ، والقيام والقعود، والكلام والسكوت ، والنوم واليقظة ، واليأس والأمل . فقد تمر بى ساعات أمقت فيها هذه الأشياء كلها، وغيرها من أمور الحياة مقتًا شديداً . وسبب ذلك كله، أني أحس الحياة إحساسًا شديداً وأحس الأبد ، فتصغر ، لدى الحياة ، وأحس الأطماع الكبيرة، فأحتقر لها الحياة وأرى أن المرء ينبغي أن يسعى وراء المطلب الأجل الأكبر ، فأجد كل مطالب الحياة ، صغيرة حقيرة . هذه تعاسة كل من فكر فيما شابه الأبد من عظيم الآمال والمطالب والأعمال والمساعى .

وقد تمر بى ساعات ، أحسب فيها أن رأسى مثل خلايا النحل، وأحس لذع الآراء والخواطر، وأحس كأنى أحمل بذور الشقاء فى صدرى ، وأن له شجرات مرة الثمرات ، تنبت فى القلب . وكأنى أحس نموها فيه وأحس كأن الشقاء كلب يعدو ورائي ، فأتحفز للعدو هربًا منه وأتلفت ورائى لأرى مسافة ما بينى وبينه .

هب أن للوجود روحًا تسعى به إلى الخير، أليس سعيها إلى الخير أبطأ من سعى السلحفاة. فأن هذه الروح تسير بالكون إلى الخير من الأزل إلى الأبد .

بقاء النوع وتعاسة الفرد *

ما أتعس الإنسان . إنه يمضى أكثر أوقاته فى السعى وراء قوته، وحاجات عيشه . ويضطر فى هذا السعى إلى إذلال قلبه . وقد لايحصل على تلك الحاجات وما تستلزمه المعيشة . فإن أكثر الناس يعيش عيشة البهائم، يعمل طول نهاره لأجل لقيمات ، يسد بها سغبه. أليس هو فى ذلك مثل الحمار الذى يتعب طول النهار، فيكون نصيبه من الحياة قليلا من البرسيم . وما نتيجة هذه المساعى ، وهذا الاحتيال وراء المكسب ، وهذا الشقاء وهذه الدناءة ؟ هل نتيجة ذلك حفظ حياة النوع البشرى ؟ وماذا يهمنى ويهم كل فرد مثلى من حياة النوع ، إذا كنا تعساء ؟ أليس الناس ما عاشوا، عبيد الشقاء والتعاسة ؟

ما يدرينى لعل أصدق الناس نظراً ، هم الفلاسفة القدماء الذين قالوا بقتل الشعور والعواطف ومحاكاة الإنسان الجماد فى فقدان الشعور. قد تكون شدة الإحساس ، من لوازم الشعر. ولكن إذا كانت نتيجته تعاسة صاحبه، فلاخير فى الشعر . وما يدرينى ربما كان الشاعر التعيس خير من المتسول البليد السعيد . لقد جاء فى المثل إله تعيس خير من حمار سعيد ، وما يدرينى لعل الحمار السعيد خير من الإله التعيس .

هذا من الهراء فى الصميم . أليس من غرور الإنسان أنه يشتكى محاكاته سائر الحيوانات، وأنه يمضى أكثر وقته فى طلب ما تستلزمه المعيشة من القوت . ومن هو الإنسان حتى يشتكى ذلك . أليس هو حيواناً مثل سائر بنى جنسه من الحيوانات .

لاتقل إن سعادة كل الأفراد لاتستقيم . ولاتقل إنه ينبغى للمرء تحمل شرور الحياة من أجل حفظ حياة النوع . فهذه حجة يستخدمها الأغنياء المنعمون والسعداء، من أجل إخضاع الفقراء والتعساء ، والبله والأغبياء، والجهلاء والمجانين . وإنما سعادة الأفراد فكرة كبيرة يتم تحقيقها، إذا جن بها عدد كبير من الناس . ولكن الذى يجعل تحقيقها بعيداً ؛ أن الجماهير من الناس يعيشون فى جهل، مثل ظلام الليل، ويتبعون خطة مطروقة وسبيلاً ممهداً ، ويخشون الجديد من الآراء ، ويجبنون عن تحقيقه . ولكن الذين قاموا بالنهضات الكبيرة وجعلوا آراءهم حقائق ووقائع مقضية ، هم الذين قابلهم الجماهير فى أول الأمر بالأذى، ورموهم بالجنون . وهم كما زعم الناس، مجانين لأنهم أغرموا بالأفكار البعيدة ، الجليلة . وقد يندم هؤلاء المجانين على

---

* فى الفهرس «بقاء النوع وسعادة الفرد» «المحرر»

عاقبة جنونهم ، ولكنهم مسوقون إلى ذلك الجنون، مكرهون عليه . وكل رأى كبير لابد أن يؤدى إلى نهضة كبيرة بين الناس . وأن يكون له أثر باق إذا جن به عدد عظيم من الناس . هكذا قامت الأديان والنهضات الكبيرة العلمية والاجتماعية.

وفى قديم الزمان ، كان الطاغية إذا أراد أن يلهى قومه عن طغيانه وظلمه ، أوقعهم فى حرب مع قوم آخرين . يريد طاغيتهم أيضًا أن يلهيهم عن ظمله ،وطغيانه فعمت الحروب. وكان الطاغية يفعل ذلك سواء كان عارفًا ما يحبب إليه الحرب أو كان غير عارفه . فان المرء قد يكون مدفوعًا إلى الشئ بدافع من نفسه ، لايعرفه تمام العرفان، ولايفهمه تمام الفهم. ويعين الطاغية على عزمه ما أودع فى الناس من التذاذ القسوة ، فإن كل امرىء له نصيب من القوة يلتذه .

وكذلك ترى الطبقات الطاغية السعيدة فى ممالك هذا العصر، تريد أن تلفت الطبقات التعيسة من الجماهير عن سوء حالها، وتشغلها عن حل مسائل الحياة بالحروب . مثل مسألة الشقاء والأمراض والجرائم ، ولو بطلت الحروب بين الأمم لاشتدت الحروب بين الطبقات السعيدة، والطبقات التعيسة فى الأمة الواحدة ، تلك الحروب التى تؤدى إلى حل مسائل الحياة. ولكن ويل للأمةج التى يتفرغ فيها طبقات أفرادها إلى حل مسائل الحياة، فإنها تصير طعمة للأمة التى لاتريد فيها طبقاتها حل تلك المسائل، لأن الشقاق فى الأولى يكون نهزة تنتهزها الثانية .

وفى الناس من يقول إن مسائل الفقر والتعاسة والجهل والجوع والأمراض وغيرها من مسائل الحياة لاتحل. وأكبر ظنى أن الطبقات السعيدة ، هى التى تنشر هذا الرأى وتؤيده . ولكن ما يدرينى ربما كانوا مصيبين فى زعمهم . على أنه لو صح زعمهم، وكانت هذه المسائل لاتحل ، فلاخير فى الحياة ، فإنما يتحمل المفكر شقاوة الحياة إذا كان له إيمان بالحياة يعينه مثل أن يرى الحياة جهاداً فى سبيل تحقيق سعادة أفراد الناس .

ولقد يقول قائل ولكن كيف تهمنى سعادة أفراد الناس فى الأجيال القادمة؟ هذا من الذين يعيشون فى دائرة لاتتسع لغير مآربهم، ولايهمهم فى الحياة شئ، غير سلامة لحمهم وجلدهم وشهوة بطونهم وفروجهم وترفيه ذهنهم ، كأن التفكير فى الحياة ترفيه الذهن بعد التفرغ من كسب الرزق ، وكأنما ليس له لذع مثل لسع الظنابير . وكأن فروض الإيمان ، فقاقيع ثغر الأطفال وكأن الكون خلق للفرد من الناس لا أن الفرد خلق للكون.

ظل الموت

يخيل لى فى بعض الأحايين ، أن قد قرب أجلى وحان حينى ، فأخشى أن يمنعنى الموت من بلوغ آمالى وأطماعى ، ولكنى أرجع إلى نفسى ، فأرجو أن أجد فى الموت ، ما لم أجده فى الحياة من الطمأنينة والسكينة . وماذا على إذا عاجلنى الموت دون وطر لم أصبه ، ومطمح للنفس لم تبلغه ، وعرفان لم أعرفه؟ وماذا على إذا لم تجد الديدان إذا بحثت فى رأسى معنى ما اجتنبيته أو علمًا مما درسته ؟ وما قيمة الأطماع ، والأوطار والعلوم والفنون والآداب لدى الموت ؟ أليس الموت حقيقة الحقائق ؟

غير أن هذا التفكير لايمنعنى من الحزن ، إذا خيل لى أنى سأموت ولا أترك أثراً بعدى، خالداً كالخلد وباقيا كالأبد . وفى بعض الأحايين، أنظر إلى أطماعى وآمالى ، وهى ماثلة لدى، نظرة الوداع ، وأحزن عليها كما أحزن على صديق عزيز، تفيض روحه . ثم أرجع إلى نفسى فأقول أليس من الغرور أن أحزن على ضياع أطماع وآمال يحول دونها الموت . وأى الآمال أهل لمثل هذا الحزن؟ على أن الشك فى قيمتها، لايقلل من الحزن والأسف عليها.

جعلت أسير يومًا عند شاطئ البحر ، وأخط فى الترب رسومًا وأشكالاً . ورأيت كأن البحر يحاول أن يمحوها فما زالت أمواجه تغدو وتروح، حتى طغت موجة كبيرة عليها فمحتها . فذكرنى ذلك حياة المرء ، فإن الدهر كالبحر لايزال بالمرء حتى تطغى عليه موجة من أمواجه ، فتمحوه كما محت أمواج البحر تلك الرسوم ، فالناس أيضًا رسوم تمحوها أمواج الدهر . والذى يعيش فى آثاره بعد موته عامًا كالذى يعيش فيها الف عام . والذى تمتد شهرته الف عام كالذى يعيش شهرته مليون عام . ولاتغبط هوميروس اوشكسبير على شهرته، فإن شهرة الأول قد امتدت بضع آلاف من السنين ، وشهرة الثانى بضع مئات، وهذا شئ حقير إذا قيس بالأبد. فلو كان المرء بعد موته يملأ اسمه الوجود ويبقى خالداً إلى الأبد، لجاز تمنى مثل هذا الخلد . على أن أمثال هذا التمنى غرور وعبث باطل ، فإن الذى يعيش باسمه إلى الأبد كالذى يعيش باسمه بعد موته بضع سنين .

وإنما الناس وسائل من وسائل القضاء ، لايهم القضاء سعدوا أم تعسوا . وإنما يهمه أن يعطيه كل امرىء نصيبه من الحياة والقوة والعمل والسعى ... فالإنسان فى الحياة مثل !![1].

١- هذه الورقة وجدت ممزقة هنا فى الأصل .

الخاتمة

كلمة للمؤلف فى نقد المعترف

يرى القارئ الجملة الأخيرة من هذه المذكرات غير تامة ، وقد تركتها كما وجدتها ، كى تكون عنوانًا للحياة ونعتًا لها، واشارة إليها. ألسنا نحيا حياة ناقصة مغتصبة ، نحاول أن نبلغ تمامها وكمالها، بالأحلام والأطماع والآمال والأوطار. فالحياة ، كالراقصة التى تدعوك بحركات رقصها ، ثم تفلت منك كالسراب الراقص الخداع . وأحيانًا ترى الآمال على باب الحياة، كالملائكة على باب الجنة ، يفتحون منه ناحية فيخرج منه نسيم الجنة ونورها . وتسمع منه ألحانها وتبصر منه جمالها ، ثم تغلق دونك أبواب الحياة ، كما تغلق أبواب الفردوس دون المحروم .

هذه كلمتى التى أريد أن أقولها فى هذه المذكرات كى يعرف القارئ ، ما أراه فيها، وفى صاحبها فلايتهمنى بالمغالاة فى تقريظه ، والتشيع له ولآرائه . ويحسب أن الود الذى كان بينى وبينه قد أعمانى عن خطأه .

أقول إنى اخالف صديقى م . ن فى بعض آرائه كما أوافقه فى بعضها ، فقد وجدته فى هذه المذكرات ينسب إلى نفسه صفات مذمومة قد كانت خافية عنا.

نعم إن بين الفلاسفة من يزعم أن هذه الصفات كامنة فى جميع النفوس ، وأنها منازل وطبقات ، وهى لم تكن فى نفسه من الشده مثل ما يصف ، فبينما كان يصف نفسه كان أيضًا يستملى من خياله ، صنع الأديب المؤلف . فهذه المذكرات ليست اعترافات عريانة من ثوب الخيال . تراه ينسب إلى نفسه الخوف والجبن وسوء الظن والكسل ، وضعف الإرادة والكذب . وأنه حاول الغش وأنه حاول الانتحار ، وأنه قليل الصبر، كثير الضجر ، وأنه كثير البكاء . وأن فى نفسه خواطر الشر والإجرام ، وأنه كثير الغرور والعجب كثير الأطماع ، بالرغم من اطماعه ، وأنه شره البطن والعقل، وأنه كثير الإنكار والجحود وأنه بالرغم من ذلك يعتقد الخرافات إلى آخر ما وصف من صفات السوء .

وأنتم أيها القراء لاتجدون شيئًا من هذه الصفات فى نفوسكم (ولاشك فى ذلك) معاذ الله أن تجدوا فى نفوسكم هذه المعائب . ومعاذ الله أن أتهمكم ، أو أن أتهم نفسى بها . إنى

وإياكم أبرياء منها، هنيئًا لأنفسنا ، إنها بريئة منها ... كأنى بكم تهنئون أنفسكم ببراءتها وطهارتها . من هذه النقائض . وكأنى بكم تقولون إن م . ن لايستحق إلا الرحمة والاحتقار . أما أنتم فإنكم أهل للإجلال والإكبار، والإعظام، والهيبة ،والتوقير، والاحترام، والتبجيل، والتقريظ، والحمد، والثناء... نعم إن بين الفلاسفة من يقول بأن صفات الشر والخير موجودة فى كل نفس . وأن النفوس لا تتفاضل إلا بمقدار تمكن صفات الخير، وقلة تمكن صفات الشر منها. فإذا كان بين الفلاسفة من يقول بهذا الرأى، فهو فيلسوف مجنون ، لايعتد برأيه، والدليل على بطلان زعمه أنى وإياكم أبرياء من صفات الشر، مطهرون من السوء الذى يزعم أنه فى كل نفس ، فاضحكوا معى من هذا الفيلسوف الأبله، الذى وجد نفسه بؤرة النقائض ، فظن أن كل نفس مثل نفسه .. هذا الفيلسوف لايستحق أن يعيش ، بل ينبغى أن يشنق جزاء قذفه النفوس وافترائه عليها ما ليس فيها .

ولكن ما يدرينا؟ ربما كان فى قوله شئ من الصدق . ثم إن . م . ن يعزو إلى نفسه من المحامد، قدر ما عزا إليها من المقابح . فتراه يعزو إليها الفطنة والذكاء والعبقرية والخيال، وكبر العواطف ، وسعة الذهن ، والرحمة والكرم ، وحياة الضمير ، وحب الجمال ، وحب الخير وكره الشر. وأنه يربأ بنفسه عن مظان الدناءة ، وأنه يكره التمليق والرياء والنفاق والذل . وأنه كثير الود والحنان ، رقيق القلب ، وبعض هذه المحامد التى يعزوها إلى نفسه يناقض ما قد عزا إليها من المقابح ، ولاغرابة فى ذلك فإننا نجد النقيضين فى نفس واحدة .

كأنى بكم تسخرون من صديقى م . ن . وتزعمون أن نسبة هذه المحامد إلى نفسه أعظم دليل على غروره، وأن مثله إذا ذم نفسه صدق ، وإذا مدح نفسه كذب . ولاريب أنكم تجدون فى نفوسكم هذه المحامد وإنكم يمنعكم الوقار والحياء الصادق والتعفف من تقريظ نفوسكم ، وأنكم من أجل ذلك تمقتون من يقرظ نفسه أشد المقت . لأنه يريد أن يخفض من شأنكم ، يمدح نفسه وإعلائها . ولكنه لم يرد أن يكون هذا الاعتراف صورة لنفسه ، وإنما أراد أن يصف نفسًا من النفوس ، وأن يشرح عواطفها ، وأن يذكر محامدها ومقابحها . ولاريب أن الأديب فى وصف العواطف ، يستملى من نفسه ومن نفوس الناس، كى يجيئ الوصف صادقًا . فإذا رأيتم فى مذكراتى صفاتًا من صفاته ، فلاتظنوا أن كل شئ فيها مأخوذ من نفسه ألستم ترون أن من الخطأ أن لاتميز بين هامليت وشكسبير أو بين ورتر وجيتى ؟ نعم إن شكسبير كان يرجع إلى نفسه فى تفهم العواطف وحركاتها ، ومن هذا الوجه يصح أن نقول إن فى كل فرد من

أفراد قصصه شيئًا منه لأن روح الأديب ليس بالروح الجامدة الصلبة ، بل إن فيها من المرونة ما يمكنها من التشكل بأشكال متغايرة ، والتزيى بأزياء مختلفة . فتارة تراها فى جسم هامليت ، وتارة فى جسم ماكبث، وتارة فى جسم فلستاف، وتارة فى جسم روميو أو جوليت، وتارة فى جسم شيلوك .

وإذا كان فى م . ن عيب من حيث هو أديب فهو، أن أسلوبه فى الوصف والتنقل من مقال إلى مقال ، مثل وميض البرق تراه يشرح لك عاطفة من العواطف ، كأنه يكتبها بالنار على وجه الدجى ، أو كأن كلماته الشرر المتطاير، ثم يتركها من غير استئذان إلى وصف غيرها ، ولكن مذكراته بالرغم من ذلك، ليست أوراقًا مفككة ، ليس بينها ارتباط ، فإنه لم يرد أن يكتب مقالا ، مطرد الجمل والكلمات والمعانى فى سوء الظن أو الحب أو البخل أو الضمائر أو الشعر أو ضعف الارادة أو العقائد أو حب الحياة أو الجرائم ، أو القدر ولكنه يليح لك بهذه الأشياء وبموقعها من النفس ، كالصور المتحركة ، وتراه دائمًا يحاول أن يؤجج عواطف القارئ ويحاول أن يستفز منه عاطفة الحب أو البغض أو الأمل أو اليأس أو الاحتقار ، أو الإجلال أو الرحمة أو الخوف وربما كان مغاليًا فى ذلك ، فإن من يلعب بالعواطف مثل من يلعب بالنار .

ومن صفات م . ن أنه يمزج الفكاهة بالجد مزجًا غريبًا فبينما يستأذن على قلبك بالكلام المؤثر المبكى، إذا به يقهقه فى وجهك أو يسخر من كلامه الذى أراد أن يلين قلبك به، وأخشى أن يكون كالغازل الذى ينقض بيده ما يغزله ، ولكن المزج بين الفكاهة والجد لايكون عيبًا دائمًا. وأكبر ظنى أن م . ن كان يأتى بالفكاهة فى إثر الجد المؤثر لا لينقضه ، بل ليجعل وقعه أشد حسرة فتكون الفكاهة ، مثل ضحكات الرجل الذى يبدهه خطب شديد، يجل عن البكاء فيضحك ضحك المجنون من شدته وهوله.

وقد كان بودى أن أغير بعض فصول هذا الكتاب، ولو كنت أعرف أن المعترف حى لفاتحته الرأى فى تغييره ،ولكن لاسبيل إلى ذلك ، فإن الأمانة ختام الود .

(٢)

حديـــث ابليــس

وهو كتاب خلقى جمع بين الفكاهة والجد

وهو أبحاث فى النفس والحياة

الطبعة الأولى : القاهرة : ١٩١٦

مقدمة وإيضاح

لقد وجدنا أناسًا يرون أن ارتقاء الأمم فى طلب الماديات . ولايعلمون أن الأمة الخاملة ، الضعيفة العزيمة، المفيقة من نوم طويل، مثل نوم أهل الكهف، لاتنجح فى طلب الماديات، إلا إذا حركت نفوسها واهتاجت عواطفها، وبحث أفرادها فى نفوسهم، ونفوس الناس قاطبة ، فيفهمون حقائق الحياة . وإنما طلب الماديات ، مظهر من مظاهر النفس ، وعاطفة من عواطفها. ومن أجل ذلك، يكثر البحث فى النفس، وعواملها ؛ وبواعثها؛ وعللها؛ وأمانيها؛ وصفاتها من فضائل ورذائل ، عند بدء نهضات الأمم. لأن كل خلق فى حياة الناس ، يأتى قبله نقد وبحث ، يهدم ويفسح له مكانًا للبناء . والنهضات من مظاهر البناء، وكل نهضة أولها هدم وآخرها بناء .

ومن أمثال هذا البحث النفسى الذى يأتى عند ظهور الأمم: ما كتب فى الشعر التمثيلي ؛ الذى هو بحث فى بواعث النفوس ؛ فى عهد الملكة اليزابث ؛ فى بدء نهضة انكلترة . وكذلك شعر أسكيل فى بدء نهضة انكلترة . وكذلك شعر أسكيل فى بدء نهضة أثينا وشعر جيتى وشيلر فى بدء عصر الاضمحلال . وذلك حين تلوح مظاهر الضعف ؛ فيكثر البحث النفسى . وشاهد ذلك شعر يوربيد، الذى هو بحث فى النفس ، وتساؤل وشك . وحيث إن حياة الأمم أدوار ، أمل ويأس يكونان فيها بمنزلة المد والجزر . كذلك شعر الأمة ، يعبر عن أدوار حياتها. أنظر كيف يعبر شعر شيلى، عن الآمال التى أنتجتها نهضة الثورة الفرنسية ، وكيف أن شعر بيرون[٦] يعبر عن الغضب الشديد ، والتضجر الذى كان سببه نأى تلك الآمال.

وقد بدأ يكثر فى آداب اللغة العربية ، البحث النفسى والتساؤل والتفكير والتعبير ، عن حركات النفس وبواعثها . ولكن كل ذلك ، لم يزل بعد ، قطرة لاتعرف إن كان وراءها سيل أتى .

وهذا الكتاب ، فيه شئ كثير ، من البحث النفسى ، والتساؤل والشك والسخر ، الذى هو مُحَرِك يُحَرِك النفوس ويوقظها . فهو يعبر عن تلك الدنيا التى فىَ كل نفس . ففى فصل نصيحة إبليس مثلاً ، ترى السخر المودع فى هذا الباب ، ما أرمى إليه من بيان معائب تلك النفوس الجامدة القبيحة ، التى تشبه مباول الطرق . وقد جعلت إبليس ينصح بما ينبغى الانتهاء عنه، وهذا ما يقتضيه الذوق الفنى الصحيح ، وقد لامنى فى ذلك بعض ضئال

الأفهام؛ أولى الذوق الفاسد الذين يريدون أن أجعل أقوال أبليس ، مثل أقوال الأتقياء من مشايخ الأزهر الشريف، فأجعل إبليس يحض على الأخذ بالفضيلة والإيمان. وهذا خطل فى الرأى ، فإن أقوال إبليس ينبغى أن تعبر عن نفسه ، لا عن الحقيقة المطلقة، أو عما نراه نحن حقيقة . وكذلك الأديب المسيحى الصادق فى مسيحيته ، إذا ألف كتابًا ووصف فيه ، فيمن وصف يهوذيًا ، جعل أقوال اليهوذى، تعبر عن نفسه ، لاعما يراه المسيحى حقيقة . أنظر مثلاً إلى قصة (الفردوس المفقود) ، تأليف الشاعر ملتون . وملتون من زعماء المتطهرين المسيحيين، فإنه جعل أقوال إبليس ، تعبر عن بواعث نفسه وعواطفها ، وإنما مهارة الأديب فى دقة التعبير عن تلك البواعث ، وفائدة قراءة وصف أمثال هذه البواعث، لا تنكر ، إذ أنها تنير الذهن ، وتؤدى إلى سعة فى التخيل والفهم ، وكبر العقل .

وكذلك صحة الذوق الفنى ، تقتضى أن لايكون كل ما يقوله إبليس باطلاً ؛ فإننا نجد أحيانا الشرير؛ يصيب الرأى الرجيح ؛ من حيث يخطئ صاحب الخير. بل إن صفات الشر التى فى نفسه ، قد تجعل ذلك الجانب من جوانب الحق والصواب؛ أقرب إلى ذهنه ، منه إلى ذهن صاحب الخير. ومن أجل ذلك، جعلت إبليس ، ناقد النفس ، يظهر عيوبها ، ويغرى باليأس منها بينما مُحَدِّثُهُ من الناس ، يستفيد من هذا النقد ، معرفة تلك العيوب ، والرغبة فى محوها. فإبليس إذا مزج كذبه بالصدق ، إنما يفعل ذلك، كى يكون كذبه أعظم تأثيراً . فهو يجتهد أن يضل محدثه فى (حجة إبليس) و (نصيحة إبليس) وفى (رقص الضمائر) وفى (طرق الانتحار) وفى (وصف الجحيم) وفى (دولة البغال) وفى (مؤتمر الحيوانات) وفى (اختراع التقبيل) ، ولكنه يريد أن يضله بالصدق ، كما يريد أن يضله بالكذب ، وخدع إبليس وتغريره، بمنزلة النار التى تصقل النفوس . وإنما يصفو الذهب الإبريز ، بالسكب ، ولكن بعض النفوس مثل التبن الذى تأكله البهائم ، فإذا أدخل النار احترق . فإذا أحس قارئ وهو يقرأ هذا الكتاب ، أن قراءته لم تبق من نفسه غير الرماد ، عرف أن نفسه من صنف التبن . وأما إذا رأى أن نفسه قد صقلها وهذبها تغرير التجارب، وخداع الحوادث والحياة ، كما يراه فى هذا الكتاب، مبينًا مشروحًا ؛ عرف أنها من النفوس الذهبية .

ولم يكن عفواً إنى أخرجت المحدث من تغرير إبليس ، وأريته أحلام اليقظة ، كى يزيد إيمانه بالإنسان ، وبالله والحياة والسعى فيها .

حجة ابليس *

جعلت أتنقل فى قراءة الكتب بين جحيم دانتى، وجحيم ملتون ، وجحيم المعرى، حتى أدركنى النعاس، فنمت ورأيت فى الحلم إبليس . وكان جميل المحيا ، قد توجه الجحيم بتاج من النار والنور ، عليه ثياب وضاءة ، وله نظرة تنفذ إلى صميم القلب، فتضئ له ما يضمره . فلما رآنى حيّانى ، وقال : أجئت تنظر إلى ذلك الجرئ الذى عصى ربه، ورأى أن الحرية فى الجحيم خير من الذل فى الجنة؟ فقلت على رِسْلكَ يا أبا مرة فوالله ما أنا بالرجل الذى تغويه بكلماتك ، لست ممن تستذله جهنم وعذابها ، ولاممن تزدهيه الجنة ونعيمها ، فإن فى نفسى جنة وجحيمًا ، وكفى بهما رادعًا عما تدعونى إليه من العصيان . وإنى ما أتيتك بالإعجاب ولا بالمقت . ولقد كنت أستشعر لك الرحمة ، لولا أنك ترى فى رحمة الرحيم، وإشفاق المشفق ، إهانة لك واحتقاراً . قال ابليس : هوّن عليك ، وخل الرحمة لمن هو فى حاجة إليها من البشر . هل ترى رحمة الرحيم من الناس، قد أودت بشقاء أهل النحس منهم. اذهب إلى مكانك من الأرض ، وانظر فى أكنافها ، فإنك واجد من البؤس والشقاء ما تداويه بالرحمة ، إن كنت رحيمًا . وأكبر ظنى أنك لست بفاعل.

أما أن الذل قد نال منكم منالاً، حتى مكن الرياء منكم، فصرتم تثنون على الخير وفاعليه، وللشر أحب إليكم منه إلىّ. أما أنكم لتلعنون إبليس كى تلفتوا الله عما هو فيكم من صفات الشر، وهيهات أن يستقيم ذلك ، وتسبون الشر وفاعليه كى لا يقال إنكم منهم. إنكم لتحتالون على كى أغويكم، فإذا لم أجد بداً من إغوائكم، رجعتم تستنزلون على اللعنات، أكان ذنبى إليكم يا بنى آدم أن قد دللت آدم على شجرة العرفان، وكان قبلها يعيش عيشة البهائم . أما أن الجاهل ليبغض العرفان كما تبغضوننى ، وإن الأرمد ليشكو النور، كما تشكوننى . تقولون إنى أضلكم ، فياعجبًا كل العجب! إنكم تحتالون علىَّ حتى أضلكم بالرغم منى.

لقد عانيت الليلة البارحة العناء كله، من امرأة شمطاء ، ليس فيها للهوى مطمع ، جعلت تحتال على لأغويها، وأنا أتمنع حتى لم أجد بداً من إغوائها رحمة بها. وإذا شئت ، حدثتك حديث الشيخ فلان، الذى يحتال على بدهاء قلبه ولسانه ، كى أضله ويتوصل إلى ويتضرع كل التضرع، كى أمكنه من إظهار الرذيلة فى لباس الفضيلة ، حتى لم أجد بداً من إجابته. فيا

---

* عكاظ : ١٧ من إبريل ١٩١٤ .

بنى آدم إننى لو قمت بينكم واعظًا أرشدكم إلى الخير، وأستعين بدهائى على هدايتكم ، لما تابعنى أحد منكم إلى الخير ، كما تتابعوننى الآن إلى الشر، ولقلتم قد كبر الشيخ أبو مرة وَخَرَّف ، وصار لايقوى على إغوائنا ، وطلبتم من الله أن يعزلنى عما ولانيه من غواية الناس ، وأن يجعل مكانى من هو أقدر على إغوائكم منى.

ثم إن الشهوات أيها الناس، سبيل التجارب . والتجارب سبيل الحكمة ، غير أن هذا السبيل محفوف بالمكاره ، فمن الناس من كانت شهواته جنة، ونعيما ومنهم من كانت شهواته جحيمًا . وأنا إذا أغريتكم بإرضاء شهواتكم فإنما أغريكم بمزاولتها مزاولة العاقل اللبيب ، الذى يزاولها كى يرفه عن نفسه ، وكى يستفيد مما يجده فى مزاولتها من التجارب ، وكى يفتق ذهنه بما تجده النفس فيها، من الراحة واللذة . فهل ذنبى إليكم أنكم لاتفهمون قولى، وأنكم تزاولونها مزاولة الجاهل البليد.

يا بنى آدم ، إن من يخشى النار، خليق أن لايرى النور. أليست النار مصدر النور؛ وكذلك من خاف العذاب ، أخطأه نور العرفان(انظر إلى احتيال اللعين فى ابتداع التشبيهات ومهارته فى ذلك)) يا بنى آدم ، إن الماء الراكد يرث السم والوباء، وكذلك النفس الراكدة التى لاتحركها الرغائب ومطالب الحياة، فإنما أريد أن تفتقوا بها أذهانكم ، فما حيلتى إذا كنتم تنيمون بها ضمائركم . يا بنى آدم ، إن الإيمان المضلل شر من الكفر ، انظروا إلى القدماء ، الذين كانوا يتقربون إلى الله بالضحايا البشرية . وانظروا إلى القسس ، الذين كانوا يحرقون الناس فى محاكم التفتيش ، وانظروا إلى الذين لايقنعون إلا بتقطيع الأرجل ، والأيدى وفقأ الأعين . على أنكم تخالون أن المرء لايعبد الله، إلا إذا أهان نفسه له ....

فلما رأيت أن إبليس يريد إغوائى قلت له دعنا من هذا الحديث ، فإنى ما جئت لأتعلم الدين والعبادة منك ، ولا للمحاجة التى تحاول بها أن توهم الناس أنك برئ طاهر . وإنما جئت أستطلع الغريب من أمرك ، وأرى أين تكون من الأوصاف التى تطير بها اشاعة السوء. فإن بعض أعدائك قد أشاع أنك قبيح الوجه ، وأن لك فى أسفل الكفل ذنبًا مثل ذنب الحيوان ، فقال أما الوجه فقد رأيته ، فماذا رأيت زينًا أم شيئًا ؟ قلت زينًا ولولا ذلك ما قدرت على إغراء الناس . ولكن ما يدرينى؛ لعل لك أوجها كثيرة ، فإنك تخدعنا بالجمال ؛ كما تخدعنا بالقبح، وربما كان جمالك مثل جمال السراب؛ أو جمال أصبغ العاهرات. فضحك إبليس وقال : أما الذنب فأنظر إن كنت تجده ، ثم كشف عن ظهره فوالله العلى العظيم ، ما رأيت له ذنبا ولاما يشبه الذنب، ولكن ربما كان ذنبه ، مثل تلك اللعب التى تنقبض وتنبسط والعلم لله.

نصيحة إبليس *

قال إبليس : إني مؤتيك نصحي ، فإن اتبعته سعدت ، وإن نبذته شقيت فاعلم أن الشر والخير لايفترقان ، فلولا الشر ما وجد الخير ، إذ أن الخير فى مقاومة الشر، فإذا زال الشر زال الخير أيضًا . وإذا عم الخير ومحى الشر، لم يكن الخير فضيلة . ونشر الخير وإزالة الشر حلم كاذب، ولكن لو فرضنا أنه يجوز تحقيقه ، لما كان ذلك نافعًا ، لأن الخير إذا عم بطلت مزيته ، وانتفت فضيلته فلا يهولنك الشر الذى تراه ، ولاتفزع من مظاهره ، فإن الحياة تخرج من الشر خيراً ، كما تخرج من الخير شراً . وإياك والرحمة فإنها جبن صريح . ووطن نفسك على أن الشقاء من لوازم الحياة ، فانقل شقاءك إلى كتف غيرك ، ولاتحمل شقاء أحد، ولاترع لشقاء الفقراء والبائسين : فلولاشقاوتهم ما وجدت سعادة السعداء . فإن لوازم الحياة أساسها الاستعباد ، وهؤلاء الأشقياء هم عبيد الحياة، ولاتطيب حياة السعيد إلا بهم ، فبهم تناط الأعمال الوضيعة ، ولهم المكاسب الضئيلة الحقيرة، وما دامت سنة الرقى التنافس فلامناص من الشقاء.

وإياك والتفكير فى متاعب الحياة وشرورها ، فإنه غير نافع ، بل هو مرض من الأمراض . ولاتجتهد من غرورك ، أن ترشد الناس إلى الحق ، فإن مطلب الحق شقاء لايجدى نفعًا ، وإنما تراد الحياة للذة والسعادة ، واللهو .. فاطلب منفعتك وقاتل من أجلها ، بيدك ورجلك وأظفارك وأنيابك . واحذر أن تشعر بآلام الناس وشقائهم ، يكفيك أنك تشعر بآلام نفسك .

ويخيل لى أن لك من ذكائك رادعًا عن أن تحرق قلبك بمطلب الحق، إنما تدفئ قلبك بنار خامدة من نيرانه . واعلم أن الذكاء والكياسة من آلات النصب والاحتيال الشريف ، ومطلب الحق أحبولة صيد. فاذكر أنك تريد أن تكون ذا جاه ومنزلة ، وهذا يحتاج فيه إلى الإيهام والغش أكثر من صدق السريرة . واعلم أن مطلب الحق غرور من الإنسان، فإن الحق شقاء ، وطالب الحق، الباحث عنه مثل ذبالة تضئ للناس، وهى تحترق. وأنت أعقل من أن تحسد الذبالة المحترقة لأنها تضئ للناس، ومن هم الناس؟ أليسوا كلهم حيوانات سواء الصديق والعدو؟ عش لنفسك لا للناس ، ولايغرنك الحق، فإنه عذاب لقائله ، وهو لهو ساعة لسامعه، فإذا أردت أن تقول الصدق فاستخدم الغش فيه، كما هى عادة الناس ، وادع صدق السريرة،

---

* عكاظ : ١٧ من إبريل ١٩١٤ .

ولكن إياك أن تحسها، وإياك أن تكون ذلك المسكين ، الذى يحس كل عاطفة من عواطف الحب والرحمة والحنان. فاحذر كل عاطفة من عواطف الضعف ، من أمثال هذه الصفات التى غرى الشعراء بوصفها وتزيينها، فإن هذه عواطف الضعف، التى تؤدى إلى الفشل فى معترك الحياة . وإذا رزقت ولداً، فعلمّه فلسفة حب الذات.

وكل وتثاءب طول يومك، وإياك أن تقيس طول أذنيك فى المرآة ، فإن ذلك يؤدى إلى الجنون ، واجعل مثال الكمال عندك فى الحياة ، حياة الأنانى الذى يعيش لنفسه . وعوّد نفسك أن تخرج همومك من قلبك ، فى تثاؤب طويل ، تفزع الهموم منه. وادّعِ أنك صادق العواطف كى تغر الناس، ولكن اضحك فى قفاهم، واخرج لسانك سخرا بهم، إذا أدار أحدهم لك قفاه ، كما أنهم يخرجون ألسنتهم سخرا بك ، إذا أدرت لهم قفاك . واحتفظ بالسليقة فإنها اسما ما وهبك الله، وإن بى لدافعا جهنميًا يغرينى بحثك على مطلب الحق والبحث فى الحياة ، كى أشقيك معى، فيخفف شقاؤك بعض شقائى . ولكنى أنصحك ، وأنا مخلص لك، فاجتهد أن تكون مثل تماثيل الآلهة التى لاترحم عابدها ، واجعل نفسك تمثالا ذا حياة ، يسعى ويعيش. واجعل حياتك مثالا يعبر عن هذه المبادئ الصحيحة التى أودعتها نصيحتى ، واضحك الضحك الذى يدل على خلو الفكر ، وفراغ الذهن كفراغ العقل. ولكن إياك والضحك الكثير، فإن كثير الضحك كثير البكاء والحيوانات المطمئنة ، لاتعرف الضحك. نعم إنها لاتعرف ضحك الجذل والسرور، ولكنها أيضًا لاتعرف الضحك المر الأليم ، فهى أسعد حالا من الإنسان.

وهذا يدل على أن السعادة ليست أجل ما وهب الإنسان ، ولكن ذلك لايقلل من قيمتها ، بل هو مغبون فيها. فلما انتهى إبليس من مقاله قلت : هيهات ، فإننا لعبة فى يد الطبائعُ ، بعضها يشقى وبعضها يسعد، وهى منا كالحبل فى العنق إما يقودنا وأما يشنقنا .

تنبيه إبليس - إذا علم أحد القراء أن بين أصحابه من يدين بنصيحة إبليس، فليرسل إلينا اسمه لأننا نريد أن نحصى عدد من يدين بها من البشر، وكأنى بكل قارئ قد أرسل إلى يبرئ نفسه، ويتهم صحبه . أليست تبرئة النفس واتهام الصحب من تعاليم الأستاذ إبليس .

فلسفة للبيع

حدثنى إبليس قال: لقد عانقت يومًا ربة الحكمة التى تسمعون عنها فى قصص الإغريق ، فشممت منها نسيم الحكمة الصادقة، ففطنت إلى أن معنى الحياة الذى يبحث الباحثون عنه؛ ماسة تحت أنقاض هراء الفلاسفة ، ولكنها ماسة لم تزل بعد فحمة ، لم تصقلها نار الحق والكمال، فإن معنى الحياة بسيط جد البساطة، حتى أنه من بساطته يكاد لايكون للحياة معنى. فلأى أمر تنصب فى طلب ما تجمله فى نفسك وتتقاتلون فى الألفاظ والمذاهب الفلسفية.

وإن من درس الفلسفة ورأى تناقض افلاطون؛ وأرسطاليس؛ وتلستوى؛ ونيتشه؛ وماكس نوردو؛ وهبز؛ وكانت ؛ وهجل؛ يحتقر العقل البشرى ، ويرى كأن هؤلاء الفلاسفة أطفال ، يترامون بالوحل . وإنى لأتساءل أحيانًا عن مصير أرطال الفلسفة التى يخرجها كل جيل من الأجيال . ومن العجيب أن ارتفاع الأمم وانخفاضها ، والحروب والتقلبات الكبيرة ، مظاهر تجتلى فى كل منها فكرة فلسفية ، تنبسط ثم تنطوى ، كأنها أحلام يحلم بها الزمن فى نومته الأبدية التى تشبه نومة معاقر الأفيون .

وأكبر ظنى ، أن الفلسفة هى الشجرة المحرمة التى أكل منها آدم وحواء، فعصيا الله. فخير لكم، أن تجمعوا ما عندكم من ثمار هذه الشجرة، وأن تقذفوه بالعراء ولكن كيف تستطيعون ذلك إذا كانت حياتكم فكاهة فلسفية ومغالطة منطقية ، وإن أغث الفكاهة ما صدر من الفلاسفة.

على أنى لا أنكر أن عندك من الفلسفة ، مالو بعته كفاك ثمنه مؤونة التماس الرزق. ولكن من الغريب أنكم كلما قل مالكم ، قلت فلسفتكم . وكان ينبغى أن تزيد ، كى تعينكم على فقدان المال، وتكون لكم عوضًا صالحًا منه. وقد صنف لكم العلماء الكتب العديدة ، شارحين الفلسفة التى تستعينون بها على مصائب الحياة، ولكنهم لم يشرحوا لكم الفلسفة التى تستعينون بها على تلك الفلسفة .

فها أنا أشرحها لك، وأوضح لك ما استخلصته منها من الأدوية. ولامراء أن القراء عندهم من الفلسفة قدر ما عند محدثى ، ولكن كما أن السلع تقلد صناعتها ، كذلك الفلسفة ، فلابد أن ترى العلامة التى سجلها بها العقل فى الوجود .

ثم جعل إبليس يشرح أنواع الفلسفة ، وما استخرجه منها من الأدوية فقال عندى فلسفة لتسكين آلام الضمير وتوبيخه وفلسفة لتسكين آلام الحب وآلام الضرس ، وفلسفة فيها برء من

الجوع والظمأ ألخ وهى أدوية خالية من السم قليلة الثمن ولاأريد أن أغش القارئ ، وأوهمه أنى قد استعملتها ، وأنى وجدت لها فائدة . معاذ الله ولكنى وجدت الفلاسفة قد أجمعوا على أن نفعها عميم

فإنهم قد استخلصوا مثلاً للغضب، دواء من الفلسفة ، وهو أن لايتكلم الغضبان عند الغضب . وبهذه الوسيلة يذهب غضبه ، كأنه لم يكن . انظر إلى ذكاء هذا الفيلسوف ، ولايخدعنك هراء بعض الناقدين ، فإن بعض الجهلاء يقول: إنك إذا اشتريت دواء الغضب، أى السكوت ووضعته فى وعاء لوقت الحاجة وأردت أن تستعمله عند الغضب ، لم تجده . وهذا نقد فاسد غير رجيح لأسباب بديهية لا لزوم لذكرها .

أما دواء الحب، فهو أن تتوهم أن حبيبك قبيح الوجه، وأنك لاتحبه ، فإن هذا التوهم فعله عجيب . يا رعى الله من اخترع دواء التوهم فإن فيه برأ من الآلام والأمراض . ألا تذكر أيها القارئ يوم آلمك ضرسك وجئت إلى الطبيب فعالجك ، وكلما عالجك زادت ضرسك إيلامًا. فلم تجد بدأ من الفلسفة، فتوهمت أن ضرسك لايؤلمك ، فوجدت أن هذا التوهم فيه الشفاء.

على أنه قد لايفيد من كان ضرسه عنيداً ، ولكن جزاء صاحب الضرس العنيد أن لايفيده التوهم . ويقال إن أحسن دواء للشقاء أن يرى الإنسان آثار الشقاء فى غيره ، فإنه إذا رأى حماراً فى بعض أسواق المدينة ، قد لحقه الهزال ونال منه الشقاء ، وبدت عليه آثار الخصاصة والحاجة ، رفه منظر هذا الحمار التعس عن نفسه ، لأنه يجد منه شريكًا له فى النحس والتعاسة ، فيقول لنفسه أيتها النفس ، تأساء وتعزية ، ألست ترين هذا الحمار التعس شريكك فى الحياة والجد والسعى والعمل، شريكك أيضًا فى الشقاء .

أما الفلسفة[1] التى تسكن آلام الضمير وتوبيخه فإنها خير الفلسفة ودواؤها خير دواء . فإنه لم يفلح رجل فى ميدان الحياة، ولم تفلح أمة فى مجال الاستعلاء إلا بقتل الضمير. فإن صوت الضمير عند أهل الشر بغيض ، مثل نهيق الحمار فى أذن بيتهوفن . أو مثل نعيق البوم شؤم: أو مثل نعيق الغراب عند العاشقين . وفى حياة الضمير ، موت الجد والسعى ، والنشاط والهمة . والسعيد من جعل ضميره، ألة من آلات النصب . فالمرء فى الحياة مضطر، رغم أنفه إلى كثير من الشر. فكيف تستقيم له السعادة ، إذا لم يكن ضميره من الضمائر الخرس . ولما انتهى إبليس من سخره ، ضحك ضحك زنوج نيام من اللذة التى يجدونها فى لحوم البشر.

١- ينبغى أن لايغتر القارئ بأقوال إبليس هذا الساخر الماكر ، وأن يذكر أنه عدو الإنسان.

رقص الضمائر

جعلت أماشى إبليس يومًا فى أسواق القاهرة، فرأينا حماراً عليه حمل من البرسيم ، قد عالج الهزال حتى كأنه خيال يسعى . وهو يحاول أن يأكل من البرسيم الذى يحمله ، ولكن لايستطيع ذلك ، فنظر إلينا نظرة الذل والمسكنة ، وكأنه يقول فى نظرته ، أليس من الشقاء أنى أكاد أنوء بحمل من البرسيم ، ثم أحاول أن أعالج سغبى بشئ منه فلا أستطيع . وقد مرت على ثلاثة أيام لم أذق فيها حلاوة الطعام ، وبى من الجوع والهزال ما يبدو لعينيكما . فمال إلى إبليس وقال ساخراً : إن هذا الحمار يشبه الإنسان ، وحمل البرسيم الذى على ظهره ، مثل الفلسفة التى تثقل ذهن المرء ، ثم يريد أن ينتفع بها فلا يستطيع . كما أن الحمار يريد أن يأكل من البرسيم ، فلايجد إلى الأكل منه سبيلاً . وبعد ذلك، جعلنا نمشى حتى وصلنا إلي أرض خلاء ، فرأينا بها رقصًا ، قال إبليس ذاك رقص الضمائر ، كل ضمير من ضمائر الناس يرقص على النغمة التى تشابه طبعه ، ورأينا الضمائر آتية زرافات ووحدانا ، ثم بدأت الأركستر تعزف والضمائر ترقص ، فوالله ما رأيت رقصًا أغرب من ذلك الرقص .

ومن العجيب أنى التفت إلى جانبى فلم أر إبليس . ثم نظرت إلى مكان الأركستر ، فإذا هو دليل العازفين ورئيسهم وقائدهم . وقد أخبرنى بعد ذلك أنه هو الذى وضع النغمات التى ترقص على أوزانها الضمائر . وكانت الرقصة الأولى ، رقصة الكبر والتيه ، ولكن الضمائر كانت تسميها رقصة عزة النفس والإباء . ثم بعد ذلك كانت رقصة الجبن والذل التى كانت تسميها الضمائر رقصة الحزم والتؤدة والصبر. ثم بعد ذلك كانت رقصة النفاق التى تسميها الضمائر رقصة الكياسة والذكاء . ثم رقصة الظلم والاستبداد التى كانت تسميها الضمائر رقصة العدل والحرية إلى آخر ما رأيت وسمعت من الرقص والأنغام ، فعلمت أن ضمائر الناس تدين لإبليس ، وتشرب من كأسه وتسكر من خمره ، وترقص على نغمه ، وتحسب الكبر إباء ، والتيه عزة ، والجبن حزمًا ، والذل صبراً ، والنفاق كياسة وذكاء ، والظلم عدلاً .

ورأيت ضمائر من كنت أظن فيهم الخلق الحميد ، فإذا هى سوداء قبيحة مثل أوجه القرود . ورأيت بينها ضميرى ، فوالله ما عرفته حتى نادانى وعرفنى نفسه ، وأنا أنكره وهو يتشبث بى ويقول أنا صاحبك فلاتخجل منى فأقول له : إذهب عنى فإنك لست ضميرى . إن ضميرى

نقى طاهر ، وأنت قذر فيضحك الملعون ضحك الساخر، فمن لم يرضنا من أصحابنا وصفنا له ضميره ، وبينًا مواضع قبحه فقد رأيناها موضعًا موضعًا .

وبعد ذلك مررنا بفتيان سكارى، كل ينظر إلى وجه أخيه ثم يضحك من غير سبب . فسألت إبليس عن الضحك وأصله وكيف كان اختراعه ؟ قال إبليس : إن الرجال الوحشيين الذين لايعرفون الحضارة والمدنية ، مثل رجال نيام نيام الذين يستطيبون لحم الإنسان ويأكلونه، لايضحكون ، بل عليهم من وحشيتهم وقار كثيف، حتى إذا سكروا استفزهم السكر، فيضحكون من غير ما سبب. وكذلك أجدادكم الوحشيون، فى أول الخليقة الذين كانوا يستطيبون أيضًا لحم الإنسان ويأكلوه ، فإنهم كانوا لايضحكون ولايمرحون حتى عرفوا كيف يصنعون الخمر، فعلمهم شربها الضحك . وأما أنتم فإن ضحككم عادة ورثتموها عن أجدادكم، فهو بقية من بقايا تأثير الخمر فيهم ، قلت ولكنا نجد الفرد منا يجيد الضحك وهو لايشرب الخمر. قال إبليس : إنما سبب ذلك أن أجداده الأولين كانوا يدمنون شرب الخمر، ولولا أدمان أجدادكم معاقرة الكأس ، لما استطعتم أن تضحكوا ، ثم جعل إبليس يضحك فقلت : أما والله إنك لساخر فظيع، وهذا صوت ضحكك ، مثل صوت تصادم الأفلاك. فأى شئ كان يستفز أجدادك إلى الضحك ، أعنى إذا كان لك أجداد، ولكنى أعرف أنك لست عريقًا فى النسب .

الإنسان والبهائم

حدثنى إبليس قال : إنى أرى فى الحيوانات العجم خصالا ، هى فى الإنسان ضئيلة خافية. فللكلب من الوفاء والأمانة ، ما ليس للإنسان ، وللخيل من الود والولاء ما لايبلغ بعضه الإنسان، وللبغال والحمير من الصبر والحزم ما ليس له، وللقرود من الذكاء والفطنة وحب التقليد ما ليس له. ولو فطنتم يا بنى آدم ، لرأيتم أن تزوجوا بناتكم من ذكور البغال والحمير والكلاب والقرود لكى يكتسب بالوراثة نسلهن من حميد صفات هذه الحيوانات (انظر أيها القارئ إلى سخر اللعين إبليس وأحذر أن تصدق قوله فإنه كاذب لئيم) قال إبليس: ولامراء أن هذا يرفع من شأن الإنسان ، ولاتحسب أن النساء ينزعجن من هذا الزواج ، فإنهن قد ألهمن فضائل الحيوانات ، وهذا تفسير ميلهن إلى صغار الكلاب والقرود، ولقد بلغنى أنكم فطنتم إلى ما يعود عليكم من الفوائد فتزوجتم من اناث الحيوانات العجم وزوجتم نساءكم من ذكورها. فإنك إذا مشيت فى الأسواق ورأيت أحد الناس، حكمت عليه أنه من نسل القرود ، لما يبدو لك من ذكائه وفطنته وحبه التقليد. وإذا رأيت رجلاً آخر حكمت عليه أنه من نسل الكلاب، لما يبدو لك من أمانته ووفائه ، ولقد قيل إنكم عرفتم بالذكاء والفطنة فما سبب هذا الذكاء وأين مصدره ؟ إلا أن تكونوا من نسل القرود فاكتسبتم هذا الذكاء من أجدادكم القرود.

على أنه ليس فى ذلك عار عليكم ، إذا صح ما يقوله داروين [١]. الفيلسوف الإنكليزى عن أصل الخليقة فإن قوله ، يجعلكم وغيركم سواء فى النسب ، ولكنكم تكثر فى بلادكم الجثث المحنطة التى تدعى المومياء من صنع القدماء . على أن الأحياء منكم جثث محنطة فأنتم اثنى عشرة جثة محنطة ، وهذا سبب أنك إذا رأيت مصرياً رأيت فى عينيه خيال الموت وشممت منه ريح الموت. تمر بكم الحوادث الناطقة وتعظكم ، وأنتم لاتفهمون قولها، لأنكم جثث محنطة. تدور الأفلاك دورتها وتمر بكم الساعات والأيام والسنون وأنتم فى سكون أهل الكهف، لاتوقظكم دقات الساعات ولا أجراس الأيام ، ولاطبول السنين ، حتى صرتم إذا هز

١- لم يقل دروين أن الإنسان اصله قرد ولكنها مغالطة من إبليس الخبيث .

أحدكم كتفه أو نقض ثيابه ، نزل عنها غبار القرون الذى تراكم عليكم ، والعنكبوت التى بنت عشها فى أجسامكم، وإنه ليصدق فيكم قول أبى العلاء المعرى فى الإنسان .

حق وإن كـان أخـا صـورة   فى الإنس أن يلجم أو يرسنا

وأن تسمى رجلـه حافـراً   فى واجب التشبيه أو فرسنا

وعلى ذكر غبار القرون أقول إنهم اختلفوا فيه. فبعضهم قال : إنه مثل دقيق الحنطة ، وبعضهم قال : إنه أسود مثل الكحل. ولكن هؤلاء مخطؤن فإن الذى جعل غبار القرون أسود قذارة نفوس من يتراكم عليهم من الناس، وهذا الغبار تزعمون أن له فعلاً عجيبًا ،يحسب أحدكم أنه إذا أخذ قليلاً منه وصره فى خرقة وعلقة على جسمه كالتميمة ، صار فى مأمن من الحوادث وعدواتها ، لأن فيه سراً من أسرار الحياة.

وإنى أخشى لطول ما عبد القدماء الحيوانات من عجول وكلاب، أن يكون قد صار فى نسلهم شئ من صفات هذه الحيوانات . وإنى أرى كثيراً من الناس فأحسب أنهم لو عاشوا فى زمن القدماء لعبدهم القدماء ، لأنهم يشابهون معبوداتهم . فلما وصل إبليس فى سخره إلى هذا قلت لو كان فى السخر من دواعى الحياة ما يستفز النفوس الغافلة، لاتخذت منه بوقًا استفز به نفوسنا التى لايكاد يوقظها من نومتها نفخ إسرافيل فى الصور ، ومن أجل ذلك ، ى أننا سنبعث يوم القيامة بعد بعث الناس كلهم، لأن موتنا أعمق من موتهم ، ونومة القبر عندنا أعمق من نومة القبر عندهم، وليس من العجب أن نقوم يوم القيامة نحك أعيننا وأنوفنا بأيدينا ونحن متخلفون متأخرون فنجد أن الحساب يوم الحساب قد انتهى . وذهب أهل الجنة ، وذهب أهل النار إلى النار وبقينا ليس لنا مأوى. ولكن السخر لايستفز النفوس الراكدة إلا كما يستفز الميت تقطيع جثته. ولقد جاء فى قصص اليونان، أن هناك طائرا يدعى الفينيق إذا كبر وشاخ وحرق خرج من رماده طائر جديد. ويا ليت أن نفوسنا من صنف ذلك الطائر ، فنشعل تحتها من السخر ناراً تحترق فيها ثم تخرج من رماد تلك الأنفس نفوسًا جديدة . ولكن النفوس التى ملؤها البلادة والغباء ، لايحرقها ولايصقلها السخر حتى ولو أشعلت تحتها القناطير منه واستأجرت كل ما فى الجحيم من الزبانية والأبالسة وجعلتهم يسخرون دفعة واحدة واشتريت كل ما فى جهنم من الفحم، وأشعلته تحت هذه النفوس البليدة فإنك لن تشعل فيها نار الذكاء.

ولقد سألت إبليس مرة أن يصف لى صوت الجحيم فقال: إن أصوات الجحيم مثل صراخ إله مجنون جريح من أمثال آلهة القدماء ، وسألته ما مقدار الفحم الذى يكفى لحرق الفرد من أفراد المجرمين ؟ فقال : إن المرأة الحسناء البادنة يطفئ شحمها النار. ومن أجل ذلك نشعل تحتها من الفحم أكثر مما نشعله تحت غيرها. وقد جعلنا مرة نشعل القناطير من الفحم تحت امرأة بادنة حتى نفد ما فى الجحيم من الفحم، ولم ينفد شحمها. فأرسلت أحد الزبانية ، كى يستعير مقداراً من أخشاب أشجار الجنة وحطبها . وأحسبك لاتعلم أن الزبانية يسلخون الحسان من الفتيات والغلمان المجرمين ، ويصنعون من جلودهم لباس اليد ثم يبيعونه لأهل الترف ويصنعون من شعر حسان المجرمين ، ضفائر يبيعونها لمن أصابهم القرع من المقربين إلىّ .

أيتها الانسانية ما أحلاك فى عينى . أنت كالعاهرة وفضائلك مثل تلك الصبغة الحمراء التى تصبغ بها العاهرة خديها وشفتيها، ورذائلك مثل ذلك الكحل الأسود الذى تزين به العاهرة عينيها ، وصوت ضميرك مثل صوت خلخال العاهرة الذى يطرب الفاسق ساعة الفسق، فأنت أيتها الإنسانية تزينك رذائلك كما تزينك فضائلك، وتشينك فضائلك كما تشينك رذائلك. أيتها الإنسانية أنت كالحية الرقشاء ، وفضائلك مثل جلدها الناعم المرقش ، ورذائلك مثل أنيابها اللامعة . أيتها الإنسانية ، أنت كالجثة العفنة وفضائلك مثل ذلك الذباب الكثير الألوان الذى يتهافت عليها ، ورذائلك مثل ذلك اللحم الذى تنزعه الذئاب عن العظام ، فتتغذى به كما يتغذى الناس برذائلك . فأنت أيتها الانسانية تزينك رذائلك كما تزينك فضائلك ، وتشينك فضائلك كما تشينك رذائلك .

اللهم يا خالق الأنغام والموسيق؛ إعطنى آلة من آلات أنغامك قد روضتها يدك القادرة على النغم ، وأعرنى قطعة من صوتك، ونغمة من أنغامك ، كى أوقظ بها هذه النفوس، وأسمعها لحنًا من ألحان القوة والحياة يعيننا على استئناف الحياة والتماس القوة.

الفلسفة والبطن

وضعت مرة أمامى الكرة الأرضية التى ندرس عليها دروس تقويم البلدان ، ثم جعلت أتأملها ، ووكلت بها النظر كله فصرت لا أرى غيرها وجعلت أرى فيها سراً غريبًا أرجو حله بالنظر إليها كأن فى باطن تلك الكرة سر الوجود . أليست رمزاً للأرض التى نسكنها، وعقل الإنسان يحسب دائمًا أنه يجد فى الرمز من المعنى ما يجده فى المرموز إليه . ثم خيل لى أن هذه الكرة التى رسمت عليها القارات والبحار، ليست فى الحقيقة كرة من الجص، بل كرة عن الديناميت وضعها إبليس أمامى مازحًا ثم خيل لى أن يديه مدت فى الفضاء فأخذت كرة من الديناميت ورمت بها وجه الأرض ، فتهدمت الأرض ، ولم يبق منها باقية . وعند ذلك أفقت من حلم اليقظة ، وقلت ما يمنع أن تكون الأرض كرة كبيرة من الديناميت .

أليس شر الناس ورذائلهم ونقائصهم من عنصر ذلك الديناميت ، فالإنسان إذا شئت ديناميت الشر.

حدثنى إبليس قال: بودى لو مات عالم الإنسان كله ولبث ميتًا مدة أشهر ثم يحيا ، فإنه يجد بعد عودته إلى الحياة أن الأفلاك لاتزال تضئ ، وأن البحر لايزال زاخراً ، والرياح لاتزال عاصفة ، والليل والنهار يعتوران الأرض . وأكبر ظنى أنه يزعم من غروره، أن هذه الأشياء قد هلكت ، حين هلك وأنها بعثت حين بعث.

وحدثنى إبليس قال: ولماذا صار الإنسان وهو حيوان يحدث فى هذا الوجود ضجة أعظم من ضجة غيره من الحيوانات ، فيقرع الطبول ويدق الأجراس، ويطلق المدافع ترحيبًا أو قتالاً ، محبة أو عداءً . ألم يقل العلماء إن الحيوان إذا لطفت أعصابه ورقت ، كره الأصوات الضخمة. إذاً الإنسان أغلظ أعصابًا وشعوراً من البغال والحمير، أم تراه يحب تلك الأصوات الضخمة من أجل جلالها، أم من أجل أنها تثير فيه ذكرى الوحشية والزمن القديم ، حين كان يهز ذنبه فى سيره اختيالا ، كما يهز الآن عصاه ويلويه تيها ودلالا، كما يلوى سلسلة الساعة .

ألم يجل بخاطرك أن الإنسان حيوان مفترس ، عليه من الحضارة والنفاق ثوب رقيق يلبسه كى يخفى ملمسه الخشن ، وأنيابه البارزة وأظفاره الطويلة.

وبعد ، فبأي شئ يفخر الإنسان ؟ أبعواطفه وأفكاره وآرائه وعلومه وهو يكتسبها من بطنه؟ لأن الطعام الذى تحويه معدته تستخرج منه تلك الدوافع التى يسميها عواطف ، وتلك الآراء والأفكار التى يسميها حقائق . والدليل على ذلك، أن الإنسان تختلف أطواره وميوله وأحواله، حسب اختلاف أنواع الطعام الذى يأكله ، وما يتبع ذلك، من سهولة الهضم أو صعوبته ، وقد بلغنى أن بعض الأطعمة تكسب المرء بشاشة ورقة أكثر مما يكسبه غيرها . ألم تتذكر أيها القارئ حين رقص الحب فى عروقك ، وغمز مفاصلك فحسبته وحيًا من الطبيعة وسراً من أسرارها ، وروحًا من أرواحها ، وضوءاً من أضوائها. ولو بحثت عن سبب ذلك الحب، لعلمت أنه خصيصة فى بعض الأطعمة، والأشربة . وهناك أطعمة أخرى تغرى المرء بالرحمة والكرم، ومن أمثال تلك الأطعمة البالوظه أو المهلبية ، فإنها تجعل القلب ناعمًا لينًا مثلها ، فيلين لدواعى الرحمة. وإنى لأتذكر أنى أكلتها مرة، ثم خرجت إلى الأسواق ، فلم أر فقيراً إلا أعطيته من دراهمى، فلما نفذت تصدقت بثيابى . كل هذا الكرم من فعل البالوظه، قاتلها الله. أما المخلل فإنه يعلم المرء الشراسة وقلة الأدب ، وقد يفرق بينه وبين زوجته لأنه يغريه بالغضب والسباب، ولو شئت ذكرت لك أصناف الأطعمة وأظهرت لك كيف أن جميع أخلاق الناس وآرائهم مكتسبة منها . وقد بلغنى أن بعض الشعراء لاينظم الشعر إلا إذا كان به مغص أو عسر هضم ، فلايغريه بنظم الشعر غير المغص أو عسر الهضم، قلت هذا والله لاشك فيه، فإن قراءة شعر بعض الشعراء تورث المرء، إما مغصًا وإما عسر هضم . وقد زعم بعض الفلاسفة الماديين أن المادة تفرز التفكير ، كما يفرز الجسم الأدناس. فليس من العجيب أن نسمع بعد ذلك أن المادة نفسها من أدناس الزمن .

مناظر الشقاء

قال إبليس " إذا شئت أن تعرف معنى الحياة ، فاسر معى . فسريت فى ليل غارت كواكبه وقامت نوادبه ، فجعلت أشق جيب الظلماء كالسابح فى الماء ، وأتعرف مظان العبرة لأريق العبرة فدفعت إلى بيت خرج من إهابه ، ونم عن أصحابه وجهه شاحب، ولونه غائب ، قائم فى الظلام كالأحلام ، أو كأنه شيخ ناهضه الزمان وقارعه الحدثان . إذا رميته بنظر صادق ولحظ وامق ، لمحت فيه بقية من النعيم المسلوب، كأنها الذكرى الخلوب فى الخاطر الحرب، والشمس فى ضحى شحب والزهرة فوق الرمس . ويوم صار أمس، فولجت بابه وقطعت رحابه ، حتى دفعت إلى مكان يلوح منه نور ضئيل ، كما يلوح اليقين فى ظلمة الجحود ، فنظرت وما أروع ما نظرت، امرأة عجفاء بين الصغيرة والكبيرة ذات وجه مهزول، وشعر مهدول ، ولباس كأنه قد من الظلام وخاطته الأيام ، وحسن زائل ، ولون حائل، وقدم براها الحفا وجلال كأن لم يكن، ووقار كأن لم يزل ونظرت فى الغرفة ، فرأيت أرضها مثل سمائها، خالية إلا من البرد اللاذع ، غير سرير من الخشب ليس عليه من الفراش ما يدفع سطوات القر، وجعلت المرأة تحنو على السرير فوق غلام فى السابعة ، تملكه الداء وعز الدواء ، يتلوى على سريره ، ويسأل عن نصيره وإنما نصيره الموت . ثم يقول: يا أماه قد أخذ منى الجوع مأخذه، ولو كان ما بى من الداء لصبرت ، ولكنه الداء والجوع والقز يا أماه إلام تغالبنى وأنا الضعيف ، أتطلبنى بوتر ولم أرد من الحياة موارد الآثام أماه أين ما ورثته من العيش الفينان والنعيم الوثير... لقد أودى به أبى ... أماه لشد ما عانيت من ذلك الرجل الغليظ الكبد ، أنسيت إذ أتى البارحة مع الفجر، يتمايل من خماره ، فجعل يضربنى وبى من الداء ما بى ، ثم أخذنى بيده فرمى بى ناحية من الغرفة ، أنسيت إذ عاتبته فقام إليك وجعل يضرب بك الحائط .

ثم سكت الغلام قليلاً ، ثم صرخ قائلاً أماه إن ألم الجوع لشديد أماه اطعمينى ... أو ... أو... اقتلينى . وجعلت المنكودة تذرف الدمع ، وتقول: ليس عندى يا بنى ما أقريك غير العبرات، وكأنما أجهد الكلام الغلام، ورثى له الموت فمد إليه يده .

ألح عليه السقم حتى أحاله	إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد
وظل على الأيدى تساقط نفسه	ويذوى كما يذوى القضيب من الرند
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها	وأخلفت الآمال ما كان من وعد
لقد قل بين المهد واللحد لبثه	فلم ينس عهد المهد أو ضم فى اللحد[1].

١- الشعر لابن الرومى .

يا أملاً خبا ورجاء أفل ، ونعمى مسلوبة وعبرة تأسر العبرة، وفرصة قد سرحها الحادث الجلل، وآية أودى بها الموت قبل أن تنصر اليقين . أى أخى قد جرى بك القدر فى مزلقه، والقدر مطية شموس، إذا أسلسلت أسعدت ، وإذا جمحت أهلكت. يا زهرة علها ماء الشباب. أية ريح غدرت بك، ويا قادمة النسر، أى عائق عاقك عن بلوغ شأوك إلا بعد ومرماك النائى .

حدث كل هذا والمرأة مطلقة عبراتها ، ولاملجأ للمحزون خير من البكاء ولولا أن الشقاء كان عقيدها من ليلة زفافها ، لفعلت مالم تفعل، ولاثارت الأصداء من مكامنها ولطمت ذلك الوجه الواهن الحر. ولكن الحزن يدفع الحزن ، كما أن الخط فى القرطاس يعفى على الخط... فتح الباب فجاءة ، ودخل منه رجل بادن أحمر العين، غائر الخد يتصبب العرق من وجهه وثيابه، يتمايل تمايل الغصن اللدن، تهزه الريح الهوجاء ، فلما رأته المرأة أبلدها الخوف قليلاً، ثم ارتعشت وكأنما دار بخلدها ما كان يحاوله ذلك الفاقد العقل، فوقفت أمام سرير ابنها فتقدم نحوها زوجها وقال : قولى للغلام اخل الفراش . قالت : إنه لايسمع ما أقول . قال : أنا أسمعه ولو كان ميتًا . قالت: إنه لكذلك ، قال فإني أحييه، فاخلى لى السبيل إليه. قالت: كلا لا أتنحى ما دام فى رمق ، فوثب عليها زوجها ، ولكنها تماسكت ، ودفعته عنها دفعة ألقته على الأرض ، فقام مغضبًا ووضع يده فى ثيابه ، فأخرج منها خنجراً، ثم وثب ثانية عليها وطعنها فى صدرها طعنة دانت بينها وبين الأرض ، ثم بادر نحو الفراش فأخذ الغلام بين يديه وقذف به ناحية من المكان ثم ارتقى على السرير .

أيها الموت ما أروع طلعتك وأندى كفك ، وأجزل نعمتك، إنك لتسل الضغن من الضلوع ، فإذا بطشت بالرجل بطشت بشماتته بالناس، وشماتة الناس به وبحسده للناس وحسد الناس له.

أيها الموت كم وامق لك تباعده، وكاره تدانيه يا أخا الفقر والجهل والظلام بك تم أمر هذه الثلاثة ، وازدانت دولتها . أنت مرآة حياة الناس، فيها كالنفس الرقيق. يفزع الناس منك فزع الطفل من وجه الظلام. يسعى الإنسان وأنت تسخر بسعيه وغروره فلو كنت لاتنزل إلا بمن كرثه الشقاء لتمت فيك رحمة الله.

ولما رأى إبليس منى الحزن قال هذا معنى الحياة، تجنى الأقدار على المجرم فيجنى المجرم على البرئ . فقلت : لاتغرر بى فإنك تحاول أن تخدعنا بالشقاء كما تخدعنا بالنعيم، والعاقل من لايزدهيه تغرير الحوادث .

طرق الانتحار*

وبينما نحن نمشي في أسواق المدينة، رأينا الناس مزدحمين ، فجعلنا نزاحمهم حتى وصلنا إلى وسط الحلقة ، فرأينا غلامًا ملقى على قضبان الترام، قد مرَّ الترام على ساقه فهشمها ، ولكنه لم يزل به رمق من الحياة ، فرأينا الناس يرفعون أيديهم إلى رؤوسهم ، كما ترفع الكلاب أو القردة أذنابها، فسألنا عن الغلام، فقيل لنا تلميذ سقط في الامتحان ، فحاول الانتحار ، فصاح إبليس في الناس قائلاً : يا أبناء الطين والوحل، تتركون الغلام يموت من النزيف ، وترفعون أيديكم إلى رؤوسكم كأن ذلك دواء للنزيف ، وكان خليقًا بكم أن تسرعوا إلى طبيب فتأتون به إلى الغلام قبل أن تفيض روحه ، فلما سمع الناس ذلك تعوذوا بالله ، وانصرفوا وجاء رجال الإسعاف فحملوا الغلام إلى المستشفى .

وبعد ذلك ركبنا الترام إلى الجزيرة ، وجعلنا نمشي على ضفة النيل ونظرت في الماء فرأيت صورتي فيه ولكنها صارت كلما نظرت إليها تسخر وتضحك مني . فقلت لإبليس إني لأنظر إلى صورتي في الماء كأني أنظر إلى مخلوق غيري ، بيني وبينه نافذة تطل على دنيا جديدة غير دنيانا هذه ، وكأن تلك الصورة في الماء تدعوني إليها، فقال إبليس وما يمنعك من الذهاب إليها ، هل هناك ميتة خير من ميتة في هذا النيل السعيد الذي يأتي إليكم بالخيرات والأمراض ؟ هل هناك ميتة خير من ميتة في هذا النهر المبارك الذي تستمدون منه حياتكم فهو أبوكم وإلهكم ؟ هل هناك ميتة تطهر بها نفسك في هذا النهر ، من أدران الحياة وأقذارها، من لؤم وخسة ، ودناءة وقسوة ؟ ثم ضحك إبليس قليلاً وقال على أني لا أرضى لك تلك الميتة، لأن النهر يقذف بجثتك على جانبه فيتصيدها الناس من جوانبه ، كما يتصيدون الميت من الأسماك ثم يعرضونها على الطبيب ، وهم يسدون مناخرهم من عفونتها، فيقطعها الطبيب وهو يغازل إحدى ممرضات المستشفى ، ثم يرمي بقطعة منها إلى كلبه ، وهو يمازحه فيأنف الكلب أن يأكل منها، ما أقبح تلك الميتة وسكت قليلا ثم قال ما تقول في الانتحار بالكهرباء ، إنه أحدث طريقة جمعت كل أسباب الراحة، هذا إذا كان التيار عظيم القوة وهي طريقة حسنة إلا إذا كنت تأنف أن تموت ميتة المجرمين من الأمريكان. وسكت قليلا، ثم قال : وماذا تقول في الانتحار بحمض الفنيك ؟ كلا إن الانتحار بالسم ميتة مثل ميتة الكلب الكلب، ثم إن فعل السم يشوه وجه الحسان المعشقين، ويفسد جمال من تعبدهم الأعين

* الجريدة : ٤ من يوليو ١٩١١ .

والقلوب، وسكت قليلا ثم قال : إلا أن أمثل طريقة من طرق الانتحار، هى أن تقتصد بضع جنيهات إذا كنتمن يرزقهم الله بها ، وأن تركب السفينة الذاهبة إلى الشام أو إلى أوربا حتى إذا كانت السفينة فى عرض البحر العظيم العميق، أصعد إلى ظهرها فى ليلة الظلام، والقمر فيها باعثان من بواعث الجلال، ثم انتظر حتى ينام السامرون ، وارم بنفسك فى أحضان اليم العظيم، فإنك تأمن بذلك أن يعبث الناس بجثتك بعد موتك وماذا عليك لو أكلتك الأسماك . أليست الأسماك أشرف من الدود ؟ ولئن تأكلك الأسماك خير من أن تأكلك الديدان. ثم إن فى هذه الميتة فضيلة أخرى، وهى أنك إذا كان لك فى الأرض قبر لم تسلم من الناس، ولامن وطئ أقدامهم النجسة ولامن لؤمهم. أما فى هذه الميتة ، فأنت بعيد عن الناس وقسوتهم ، وخستهم وأقدامهم وأصواتهم. فقلت لإبليس حسبك حسبك، فقد والله حببت إلى هذه الميتة ، ولو لم يكن فيها من الفضيلة إلا البعد عن الناس، لكفاها ذلك فضلا. وليس الذى يؤلمنى من الموت وقعه ، ولاما يخشى المرء أن يلاقيه بعده، وإنما يؤلمنى أن يصير المرء جثة تقلبها الأكف ويغسلونها بالماء كى يطهروها من الأدناس . وهم لو غسلوها بالمحيطات الخمسة ، لما طهروها من دنسها . وكيف يكون الميت طاهراً أو الموت مصدر الدنس . فياليت أن المرء إذا مات رفع إلى السماء أو اختفى جسمه، وصار لايرى إلا كما نرى الهواء، كى تصان جثته عن الغسل والتكفين والنواح والحمل على الأعناق ، ولو لم يكن فى الموت غير ذلك لكان الموت قبيحًا . أو ليت أن المرء يموت بضع أيام كى يجرب الموت، ويعلم ما بعده ثم يرجع إلى الحياة.

وفى أثناء هذا الحديث، كانت الشمس توجه أشعتها إلينا فتنفذ حرارتها إلى مجرى الدم فى العروق ، فالتفت إلى إبليس وقلت : انظر إلى البون العظيم الذى بين أن تسطع الشمس على الحياة والأحياء ، وأن تسطع على الموت والأموات . فهى إذا سطعت على الأحياء من الناس، بعثت فيهم حرارتها من العواطف ما تتحمل به الحياة. وإذا سطعت على الزهر ، بعثت فيه من بواعث الحياة ما تبعثه فى صدر الإنسان. فضحك إبليس ساخراً وقال : ويحك ألست ترى سطوع الشمس على الأحياء ، مثل سطوعها على الأموات ؟ أليست حرارة الشمس تولد الشهوات وغيرها من عوامل الشر، فى صدور الأحياء كما أنها تولد الديدان فى جثث الأموات، والديدان فى جثث الأموات، مثل الشهوات فى قلوب الأحياء؟

ثم رأيت طفلاً على وجهه نقاب من القذارة ، توسد الأرض ، وصار يضرب بعصاه على قطعة من الخشب ، فقلت أنقر على دفك فإن فى عمرك فسحة لمعاناة آلام الحياة والموت والتفكير فيهما ، فضحك إبليس وقال: أنا الكفيل له بذلك .

الجحيم

زرت إبليس مرة فى الجحيم وطلبت منه أن يرينى بعض أنواع العذاب فى جحيمه، فبرقت عيناه بريق القسوة وأخذ بيدى وقال : تعال انظر إلى بنى جلدتك يعذبون ، ولكنك ربما خشيت على جلدتك ما تراهم فيه من العذاب . فقلت له هون عليك، فإنى أعتقد أنك أنت وزبانيتك وجحيمك الذى آراه حلم فظيع ، وسأفيق منه يومًا ثم اهزأ به فقهقه، ثم سرنا حتى وصلنا إلى ضرام عظيم عليه قدور كبيرة ، وفى كل قدر امرأة أو رجل يعذب وقد سلخ الماء جلده وهرى لحمه ، حتى سال دمه وشحمه وبدت عظامه ، وكانت صرخاته ينفطر لهولها القلب، وعلى كل قدر عفريت فأتم يقلب الرجل بسيخ فى يده، كلما نضج جانب من جوانبه أدار جانبه الآخر . فقلت لإبليس متى ينتهى عذاب هؤلاء؟ قال : لاينتهى أبدًا ، وكلما نضجت جلودهم ولحومهم أعيدت لهم جلود ولحوم.

ثم سرنا حتى رأينا رجالاً مصلوبين على قوائم من الحديد الملتهب ، وحول كل رجل عدد من الزبانية فى يد كل عفريت منهم قضيب من الحديد الملتهب، وهم يضربون الرجال حتى تتهرى لحومهم ، فتعادلهم لحوم . ثم سرنا حتى وصلنا إلى بركة فيها النار السائلة وفيها النساء والرجال يعومون ، حتى إذا وصلوا إلى حافة البركة، ثم سرنا حتى وصلنا إلى تماثيل من النار، فيها يعذب المعذبون . ثم سرنا حتى بلغنا ساحة فيها كثير من المعذبين يقطع الزبانية من لحومهم ويطعمونهم ما يقطعون ، ويجمعون دموعهم فى أوعية ويسقونهم منها ممزوجة بماء النار. وفى مكان آخر وجدنا أناسًا فى أقفاص ضيقة من الحديد ، والزبانية يتفكهون بتعذيبهم فيطعنونهم بسيوف من نار، ويصبون عليهم ماء النار، ثم سرنا حتى وصلنا ساحة واسعة فى وسطها أناس يسقط عليهم من السماء ذر كثير نارى يغطيهم جميعًا ، فيحترقون ثم تعاد لحومهم ويفعل بهم كذلك إلى الأبد. ثم تحولنا إلى ناحية من نواحى الجحيم ، حيث يعذب المعذبون بالأمراض ، يسلط الله عليهم السل والوباء والزهرى واليرقان والسوداء والبرص والحمى وغيرها من الأمراض ، تجتمع على كل منهم حتى يتهرى لحمه . وقد رأينا هؤلاء المعذبين ، مطروحين فى أماكنهم كأنهم جثث عفنة تتصاعد منهم رائحة كريهة ، فسددت أنفى كى لا أقئ من خبث تلك الرائحة ثم سرنا إلى مكان يعذب فيه المعذبون بالحشرات ، وهو مكان

كالجب المنخفض ، وفيه العقارب والثعابين أشكالا وأنواعًا ، وفيه البق والدود والبراغيث والقمل والصراصير والخنافس والفيران ، وفيه كثير من الحشرات التى لم نسمع عنها فى الدنيا تأكل أجسام المعذبين أكلاً . وقد اختلطت هذه الحشرات بلحومهم حتى تكاد لاتميز بين المعذبين وبين الحشرات التى يعذبون بها.

ثم سرنا إلى مكان آخر يعذب فيه المعذبون بالخوازيق ، فيأتى الزبانية بالتعس المجرم ويجلسونه على خازوق حاد رفيع فينفذ منه، ويخرج من رأسه ثم تعادله الحياة والصحة ويفعلون به ذلك إلى الأبد، ثم رأينا جماعة من الناس يعذبون بآلة يوضعون فيها، وتربط بها أيديهم وأرجلهم، ثم يدير الزبانية تلك الآلة فتتفكك أعضاؤهم، وهم يصرخون صراخ المجانين من شدة الألم ثم سرنا بعد ذلك إلى مكان آخر، يعذب فيه المعذبون بالسم فيسقون سما ملتهبًا يقطع أحشاءهم ويفتك بقلوبهم وأمعائهم ورئاتهم ، فيتصبب العرق من أبدانهم وهم يتلوون من الألم كما تتلوى الديدان. ثم تركناهم وسرنا إلى مكان آخر يعذب فيه المعذبون بالجنون ، فيعطى الواحد منهم شربة يشربها فيجن ، ثم يؤتى إليه بولده المعذب مثله فيخنقه الأب المجنون ويأكل منه، ثم تعطى له شربة أخرى فيفيق من جنونه ، ويرى ما فعل بابنه فيصيح كالمجنون ويضرب رأسه بحيطان الجحيم ، وينتف شعره ويعض نفسه حتى يتهرى لحمه من العض ، ودموعه تسيل على جسمه، ثم تعاد الحياة لابنه ويسقى الإبن شربة الجنون ، فيفعل بأبيه مافعل أبوه به ، فلما رأيت هذا العذاب اشتد بى الألم والوجل، وسقم قلبى منه وكانت الزبانية كالوحوش المفترسة ، يقطعون أجسام المعذبين ، ويأكلون منها ثم يقرضون أسنانهم ، ويلحسون الدماء التى لوثت شفاههم ، ثم يضحكون ضحكة الظفر والجذل، وكأن هذا الجحيم أربعة أشياء جمعت فى مكان واحد، مارستان كبير وميدان حرب، وحريق هائل وحمام ساخن. وكان فى الجحيم أنواع كثيرة من العذاب غير ما ذكرت ، منها العذاب بالصواعق الدائمة، والعذاب بالزلازل والبراكين . إذ يرمى بالمعذبين فى جوف البركان. ومنها العذاب بالحيوانات المفترسة ، مثل الأسود وغيرها، إذ يجعل المعذبون فريسة لها. ومنها العذاب بالثلج والبرد الشديد . ومنها العذاب بالجوع والظمأ. ومنها تعذيب المعذب بأن يدفن حيًا . ومنها التعذيب بالسهام المسمومة .

ولما أظهرت لإبليس اشمئزازى وشدة امتعاضى من تفننه فى أنواع العذاب، قال: أما علمت

أن الجحيم مطهى يطبخ فيه طعام الأبالسة، فأنكرت على إبليس أن يكون ذلك صحيحًا ، فسار بى إلى تنور عظيم، ورأيت الزبانية يجيئون بفتيات وفتيات من المعذبين ، عراة وهم أنعم الناس جلداً ، وأرقهم لحمًا ، وأجملهم جسمًا. فقلت ماذا تصنعون بهؤلاء ؟ قال إننا نصنع غذاء . ثم نادى إبليس أحد الزبانية، وقال لى : هذا هو الطاهى ، ثم سأله أى أجزاء هؤلاء الحسان نستلذ أكله؟ قال: الصدر لنعومته ولينه، ونحن نصنع منه أصنافًا كثيرة . وهو غذاء المقربين من أهل النار، أما الرأس والأكارع ، فإنها غذاء الأصاغر .

فلما رأى إبليس تعجبى وإنكارى قال: لم تتعجب ؟ ألست ترى السواد الأعظم من الناس يعيشون فى الدنيا تعساء ، يعملون ويشقون نهارهم وليلهم، ثم يكاد أحدهم لايصيب الكفاف وإنما هم يسخرون كالحيوانات العجم، كى تسعد الأغنياء ، بثمار عملهم ، فكما أن الأغنياء فى الدنيا يأكلون لحوم الفقراء ، ويشربون دماءهم، كذلك فى الآخرة ، تنضج لحوم السواد الأعظم من الناس فى الجحيم ، كى يستلذ المقربون أكلها. وأنت ماذا يروعك من أنواع العذاب التى رأيتها فى الجحيم؟ إنها كلها مأخوذة من دنياكم ، وكل فرد منكم معرض لأن يعذب فى الدنيا بشئ منها . ألستم تعذبون بالسم والجنون والتقطيع والتمثيل وبالخوازيق وبالحيوانات المفترسة وبالزلازل والبراكين وبالنار والجليد وبالسهام والسيوف وبالقنابل وبالأمراض والحشرات وبالجوع والظمأ وغيرها من أنواع العذاب ؟ وليست دنياكم إلا جحيما كبيراً، فلا يعيش فى الدنيا إلا من أجرم وأفسد فى حياة قبل الحياة الدنيا، وإنما عيشته فى الدنيا تكفير عن سيئاته التى أتاها فى حياته الأولى . أما من أحسن عملا فى تلك الحياة الأولى ، فإنه يعيش فى عالم آخر غير عالمكم .

اختراع التقبيل*

يا رعى الله من اخترع التقبيل ، فإنه قصيدة من قصائد النسيب، وآلة من آلاته، ونغمة من نغماته . حدثنى فيلسوف قال : إن آدم هو أول من اخترع التقبيل. قال: زعموا أن آدم وحواء ذهبا إلى شجرة من شجر توت الجنة وجعلا يأكلان من ثمرها ، حتى سال رضابهما ، وامتزج بماء الثمر الذى أكلاه ، فأعطاه ماء الثمر من حلاوته ، فبينما يأكلان لمست شفة آدم شفة حواء عن غير قصد ، فراقتهما تلك اللمسة المعسولة بعصير الثمر، فكانا كلما أراد أن يراجعا لذتها ذهبا إلى شجرة التوت (يا ليتهما لم يذهبا بعد ذلك إلى الشجرة المحرمة) ويللا شفتيهما بعصير ثمرها، ثم حك أحدهما بشفة الآخر.

وجاءت حواء إلى آدم يومًا ، وقالت له: يا آدم إنك قد اخترعت نوعًا آخر من أنواعه قال آدم : وما هو قال : هو التقبيل بإطباق الشفاه . قال آدم أجدت يا حواء ولكن لاغرو، فأنت أم النساء . وزعموا أن الحلاوة التى نذوقها إذا قبل أحدنا عشيقته ، هى بقية جاءتنا من سبيل الوراثة من حلاوة ثمر توت الجنة الذى بلل آدم وحواء شفتيهما بعصيره .

والقبل غذاء العاشق والشاعر . فهو إذا قبل حبيبته ، كانت روحه فوق شفته وطىَّ أنفاسه ، فإذا تصافحت الشفاه، تصافحت الأنفس . إنك لتشرئب بعنقك عند التقبيل ، فتشرئب نفسك حتى تطل على حبيبك ، من عينك وفمك . فإن العين والفم بابان تطل منهما النفس على مرأى صالح ومعتنق طيب .

أيام الشباب وأيام التصابى ، من لى بتلك القبل البطيئة التى تضرم النفس وتشعل العين وتوقد الخيال. أيام الشباب وأيام التصابى لكانت تلك القبل عقداً فى جيدك ، ورونقًا غضًا فى ريعان الحياة. أيام الشباب، أنت فجر الحياة. فيك تغنى القبل بصوتها الغريد، كما تغنى الأطيار فى فجر النهار، وفيك تينع القبل فى روض الشفاه ، كما تينع الأثمار والأزهار فى الروض . أيام الشباب أنت عنوان الحياة ، فيك يقرأ القارئ آية الحب وآية العمر.

إن فى القبل من بيان المنطق وفصاحة القول، ما يعجز (برك) (وشرو) ، ومن بلاغة التعبير وشرف الخيال، ما يزرى بشكسبير وابن الرومى والمتنبى . والقبل شتى المعانى، فإن

---

* البيان : ربيع الثانى ١٣٣٠هـ (مايو ١٩١٢) .

للحب قبلة، وللشهوة وللحسد والحقد قبلة، وللإشفاق والرحمة قبلة ، وللحزن قبلة، وللذل قبلة، وللجبن قبلة ، فغلام يقبل أمه ، وعاشق يقبل عشيقته، وماجن يقبل هلوكا، وامرأة تقبل شريكتها فى بعلها ، وأخت تقبل أختًا لها قد أضر بها الحب، وزوج يقبل قبر زوجته، وذليل يقبل يد السلطان أو قدمه أو التراب الذى تحتها، وعابد من العامة يقبل أرض ضريح ولى من الأولياء .

إذا رأيت امرأة تقبل امرأة أخرى أخرى ، فاعلم أنها تحبها حبًا صادقًا أو أنها تكرهها كرهًا شديداً . ولكن من النساء من تقبل صاحباتها إذا علمت أنهن يعرفن سراً من أسرارها . والتقبيل هو لغة النساء ، فكأنها تقول لهن فى تلك القبل يا صاحباتى لقد علمتن أنى أحب فلانًا . والقبل إشارة لايعرف سرها مثل النساء ، كما لايعرف سر إشارة الماسونية مثل الماسونيين .

حدثنى إبليس قال : أتريد أن أقص عليك كيف استكشفت القبل ؟ قلت افعل قال إنى لما أغريت حواء بأن تأكل ثمر الشجرة المحرمة، جاءت بآدم وجعلت تغريه بأن يأكل من ثمرها وهو يتمنع ، فاقتربت منه وهى تكلمه فلمست شفتها شفة آدم عن غير قصد ، فوجد آدم فى شفة حواء حلاوة فقال لها ما هذه الحلاوة ؟ قالت إنها حلاوة ثمر الشجرة المحرمة ، فضم آدم حواء إليه ووضع فمه على فمها ، ثم قال ما ألذ هذه الحلاوة المحرمة . هكذا اخترع التقبيل . فلما التذ آدم حلاوة الثمر المحرم، ذهب إلى الشجرة المحرمة ، وجعل يأكل منها، فكان ذلك التقبيل سبب سقوطه وعصيانه الله، وخروجه من الجنة وشقائكم بخروج جدكم منها.

فالقبل هى عقاربى . وكلما التقى عند التقبيل فم بفم ، حدثت شرارة هى من شرار جهنم ، وإن ذلك النور الذى تشعله القبل فى عيون العاشقين، ليس من نور الجنة ولكنه من نور الجحيم. والناس تقول إن اللحاظ من أعمالها، تغليب الإرادة على الإرادة، ولكن عمل القبل أشد وهى خير سلاح تحارب به عدوك الجميل. وماذا على الأمم لو جعلت القبل سلاحها فى حروبها ، بدل المدفع والديناميت ، فيأتى الملكان المتغاضبان، ثم يقبل الواحد منهما الآخر حتى ينهزم أحدهما.

أيام الهدنة

توجد أيام يسميها الشياطين أيام الهدنة، لأنهم يتهادنون ، فليس بينهم وبين الناس عداء يجتمعون فيها، ويشرب أحدهم في صحة أخيه من الجعة فهم يفضلون الجعة على غيرها من المشروب. ولاغرابة في تفضيلهم الجعة، لأنهم يبتردون بها من حر الجحيم . فمن أجل ذلك ، لايريدون أن يجمعوا على أنفسهم حرارة الجحيم، وحرارة الوسكي أو الكنياك .

ذهبت مع إبليس مرة إلى حانة يأتي إليها الشياطين كي يشربوا الجعة ويقصون القصص والحكايات . وفي أثناء ذلك ، يتفكهون بالنوادر الهزلية، ويضحكون كأن لم تكن بينهم وبين الناس عداوة . وكانت هذه الحانة تسمى حانة إخوان الصفاء ، فلما جلسنا وجلس إلينا كثيرون من الشياطين ، جعلوا يقصون أخبار السماء والأرض، فالتفت إبليس إلى وقال : سمعت أحد الملائكة يقول لحافظ من الحافظين ، وهو الملك الذي يحصي ذنوب الناس، مالي أراك منتوف الجناحين ؟ قال الملك عافاك الله من الناس فإني استخدم ريش جناحي كما تعلم ، في كتابة ذنوبهم ، وقد تكاثرت على ذنوبهم حتى برت ريش جناحي وأتلفته، وأنا كلما تلفت ريشة من كثرة الكتابة ، نتفت من جناحي ريشة أخرى، حتى نفد ريشي ولم تنفد ذنوب الناس[1] .

فضحك إبليس وقال: إذا شاء تصدقت عليه ببضع ريشات من جناحي، فطلبت أنا من إبليس أن يعطيني ريشة من جناحه ، أدخرها وأذكره بها فأعطاني ريشة من جناحه، وهي محفوظة عندي. ومن شاء من القراء أن يرى كيف يكون ريش إبليس، فليخابرني وهي التي أكتب بها هذا الحديث .

قال إبليس : إني لأذكر أن الكواكب كانت تسمع غناء الملائكة فيطربها ويعينها على الدوران، كما أن النياق تسمع حداء الحادي فيطربها ويعينها على الأسفار ، فهي في سيرها تنصت إلى الغزل الرقيق الذي تحدوها به الملائكة، مثل غزل العباس بن الأحنف أو قيس بن الملوح أو برنز أو شلي ، ولكنها تأنف من سماع الشعر البارد الثقيل ، فقد غناها أحد الملائكة مرة بقطعة من الشعر المرذول ، فضجت الكواكب ووضعت أصابعها في آذانها! وجعلت تستغيث وتقول : إن عدتم إلى مثل هذا الشعر اختل نظام الكون.

١- كتابة الحافظ ذنوب الناس بريش جناحيه مأخوذه عن الشاعر بيرون .

وبعد أن شربنا من الجعة ما فيه الكفاية، وتركنا حانة إخوان الصفاء، وجعلنا نمشى فى الأزقة . وبينا نمشى إذ زلقت قدم أحد المارة فسقط ، فقال : وهو لايعرف أن إبليس من المارين، اخسأ اخسأ فهذه من فعلاتك يا ابليس ، فالتفت إلى إبليس ، ثم قال: إنه لا يغيظنى من المرء شئ مثل غروره وبلادته، فإذا زلقت قدم أحدكم ، حسب أن ذلك من فعلاتى ، وإذا عطس حسب أنى سددت منخره ، وإذا تثاءب حسب أنى دخلت فمه، كأنى ليس لى عمل فى هذا الوجود الضخم سوى أن أسد مناخر الناس القذرة ، أو أن أدخل إلى أفواههم النجسة، أو أن أتشبث بأقدامهم . ولو علم هذا الثقيل أنى أمد يدى إلى السماء فأغمرها فى الأثير الأعلى ، وأمد رجلى فى باطن الأرض ، فأدفئها بالنار المشبوبة عند مركز الكرة الأرضية، لما نسب إلى أفعال الصبيان .

ولقد جعلت أنا وشيطان آخر نلج بيوت الصالحين المتقين من الناس، فدخلنا منزل الشيخ فلان، وهو رجل من أهل التقوى والصلاح ، فوجدناه يتغذى مع امرأته وهى تقول له : يا حسرة وألف حسرة ماذا أجداك ورعك وزهدك وقيامك الليل، ولو بذلت من جهدك فى تكميل حياتك بلذاتها بعض ما تبذله فى الصلاة والأوراد، لكنت أحب إلى الله وأقرب إليه ، فقال اسكتى ، يا فلانة ، هل حياة خير من حياة تخدمنا فيها الملائكة ، أما والله إن تحت هذا الخوان لملائكه على رؤوسهم، فقلت والله لاتكذب العبد الصالح ، ثم قبعنا وجعلنا نمشى مثل القطط ، حتى صرنا تحت الخوان، وحملناه على رأسينا حتى دميا، ثم كشف عن رأسه فرأيت فيه دملاً فى حجم البعرة فقال : هذا من آثار خوان العبد الصالح . قص إبليس هذه القصة ثم ضحك حتى استلقى على قفاه من شدة الضحك .

ثياب الكائنات

حدثنى إبليس قال : الإنسان حيوان جليل، قيل إنه يمتاز عن غيره من الحيوانات بالضحك ولكن الباحثين قد وجدوا أن من الحيوانات ما يضحك . وقد أخبرنى صديق لا أثق بحديثه، إنه رأى بقرة تبسم له وتغمزه بطرفها ، وقيل إن الإنسان يفضل الحيوانات بشرب الخمر، ولكنهم وجدوا أن الخيل تشرب النبيذ وتستلذه ، وقيل إن الإنسان يفضل الحيوانات بلبس الثياب ، ولكنا نجد القرود يصنع لها أصحابها الثياب فتأنس بها وتعجب بها، كما يعجب المرء بثيابه وتزهى بها كما يزهى بلباسه .

على أن المرء لم يلبس الثياب إلا بعد أن أتقن النفاق ، فلبس الثياب وادعى أنه لبسها كى تقيه من الحر والبرد . والصواب أنه لبسها كى تخفى قبح جسمه . ومن أجل ذلك ، ترى المرء إذا عظم جماله خفف من ثيابه ، والدليل على ذلك ثياب النساء الرقيقة التى إنما صنعت لتظهر رقة أجسامهن، ودليل على ذلك أيضاً ما كان يفعله اسكندر المقدونى ، فإنه كان يتعرى أمام أصحابه ، كى يريهم جسمه الجميل ويوهمهم أنه من أبناء الآلهة .

إذا بحثت وجدت أن أكثر الناس ولعًا بحمامات البحر، هم الذين رزقهم الله شيئًا من الجمال. وقد تمر بالمرء ساعات يتذكر فيها أيام العرى فى أول الخليقة، أيام كان المرء عارياً من حلل الحياء الحميد ، كما كان عارياً من حلل النفاق الذميم. ويقال إن سبب اتخاذ الناس الثياب ، أن الحيوانات فى أول الخليقة لما رأت نعومة النساء صارت تتعشقها ، وتنظم فيها الغزل والنسيب ، فلما رأى الإنسان ذلك ، لبس الثياب كى يخفى عن الحيوانات جسمه ألم يجل بخاطرك أننا أيضًا ثياب للعوامل والخواطر والآراء التى تتنازعنا؟ وهذه الآراء أليست لباس الحق والباطل ؟ وهذه العوامل أليست لباس الخير والشر؟ فهل الحق والخير والباطل والشر من قماش واحد ينسجه الزمن على منسج الأيام والليالى ؟ أم هى أقمشة شتى؟ وما هو الزمن ؟ هل هو لباس أيضًا ؟ والمادة أهى لباس القوة ؟ والقوة أهى لباس أيضًا ؟ أم ما هى؟ أهذا الوجود كله ثياب تحتها ثياب وفوقها ثياب؟ ومن الذى جعل المرء قادراً على الرغبة فى رؤية الحقيقة التى فى ثياب الكائنات؟ وما هى القوة التى يحاول بها معرفة حقيقة الحقائق التى تضمرها ثياب الكائنات؟ .. هل هناك حقيقة تحت هذه الثياب ؟ أم الكائنات ثياب ليس وراءها حقيقة كالثياب التى يضعها الغلام بعضها فوق بعض كى يخيف بها أخاه الصغير؟ فاذا كان الأمر كذلك، ما الذى يلج إلى روح المرء ويجعله قادراً على تخيل حقيقة ثياب الكائنات ؟ أليست الحقيقة التى ينشدها هى التى تغريه بتلمس تلك الحقيقة ؟

دولة البغال

حدثنى إبليس قال : إن الله لما أراد أن يخلق الإنسان ، جمع الملائكة وقال لهم : إنى أريد أن أخلق حيوانًا ، وأن أهبه من العقل والذكاء أكثر من نصيب غيره من أصناف الحيوانات ، لكى أرى ما هو فاعل بعقله ، وذكائه، ثم أسلبه ذلك الذكاء. وقد بلغنى أن الله سيسلبكم عقلكم وذكاءكم ، ولاأظن أنكم تجدون فرقًا كبيراً بين حالتكم الأولى وحالتكم الثانية ، فماذا أنت فاعل فى ذلك اليوم؟ قلت هذه مسألة قد فكرت فيها قبل أن تلفتنى إليها ، فإنى أرى أنه ليس من المستحيل، أن نفيق من النوم يومًا فنرى أن عقلنا وذكاءنا قد انتقل منا إلى الحيوانات، ولم يبق لنا من العقل والذكاء شئ ولاغرابة فى ذلك ، فإن العلماء تقول : إن كل نوع من أنواع الجنس البشرى ، هو مستودع فيه مقادير من القوى، فيعلو هذا النوع ويبسط حضارته على العالم ، حتى إذا نفذت قواه سقطت دولته، وارتفع شأن غيره من أنواع الجنس البشرى ، وإذا نظرت فى التاريخ. وجدت ما يثبت ذلك . ثم إن العلماء الآن فى حيرة ويأس ، فإنهم يقولون : ماذا يكون أمر هذا الكون بعد أن تنفد القوى التى فى جميع أنواع الجنس البشرى؟ كيف يتقدم الوجود وكيف تنشر الحضارة ؟ وإنما الحضارة رهينة بارتفاع دولة نوع من أنواع الناس بسبب ما هو مودع فيه من القوى . والجواب على هذا السؤال بسيط، فبعد أن تنفد جميع القوى. المودعة فى الإنسان، ينقل الله العقل والذكاء إلى الحمير والبغال أو القرود، فتعظم دولة البغال حتى تصير الأرض مستعمرة من مستعمراتها ، فتبنى البغال الأساطيل وتعد الجيوش وتنشر الحضارة والعلوم فى أنحاء الأرض، حتى إذا نفذت القوى التى أودعها الله فى البغال ، عظمت دولة الحمير، وإذا سقطت دولة الحمير عظمت دولة القرود ، وهكذا غير ما ذكرنا من أصناف الحيونات.

ولقد رأيت فى الحلم مرة أن دولة الناس قد ذهبت، وانتقل العقل والذكاء إلى البغال ، وصارت البغال تستخدم الإنسان لحمل الأثقال وجر العربات ، ورأيت أن عدداً من أعيان الناس قد ربطوا فى مربط، وكان البغل الذى يملكهم قد وكل بهم أحد الخدم ليؤجرهم للزبائن، ويأخذ أجرة استخدامهم، ثم رأيت أن بغلاً من أعيان البغال جاء إلى المربط، وطلب أن يمتطى إنسانًا ليذهب إلى مكان عمله ، فقال الخادم : أتريد أن تمطى من الأكابر أم من الأصاغر؟ فقال : ويحك أنا لا أمتطى إلا الأعيان ، فإن منزلتى العالية لاتسمح لى أن امتطى أحقر منهم. ورأيت فى الحلم أيضًا أن إناث البغال الأغنياء ، كانت تشترى الغلمان الحسان لتلعب معهم، كما كانت نساء البشر تشترى القرود والكلاب لتلعب معها .

مؤتمر الحيوانات

حدثني إبليس قال: أبت ضمائر الحيوانات ما بينها من التنافر، فاجتمع نوابها لتوحيد حضارة الحيوانات ، فأرسلت الحمير حماراً مفكراً ينوب عنها، وأرسلت القردة قرداً لبيبًا. وكان في هذا المجمع نواب عن جميع أصناف الحيوانات حتى الإنسان ، فلما حضر النواب قام القرد اللبيب وقال : يا معشر الحيوانات إننا اجتمعنا اليوم على فرض مقدس ، وهو النظر في أمور معاشنا ، فإننا كما يشهد أخونا الإنسان الجالس على يميني ، كلنا حيوانات (تصفيق) فينبغي أن لا يكون بيننا ذلك التقاطع والتجافي، والاختلاف في منازع الحضارة التي هي أسمى ما ينشده الحيوان في حياته ، وأئتلاف نوابنا في هذا المجمع، دليل على أننا خليقون بأن نفخر على تلك النباتات الخرساء التي ليست لها حياة، (تصفيق شديد وتحبيذ) ولكني أحذر إخواني الأفاضل أن يفخر أحدهم على أخيه، فلايليق بي أن أفخر على أخي الإنسان ، كما لايليق بالإنسان أن يفخر على أخيه الحمار. (تصفيق شديد وعند ذلك هز الحمار رأسه إعجابًا بالخطيب) ولكي لا يظن بنا أخونا الإنسان الحقد عليه لكبره وادعائه ، أرى أن ننتخبه رئيسًا لهذا المجلس. فقام الثعلب وقال : إني يوافق رأيي رأي القرد، ولكن ينبغي أن نقيد في دفاتر المجلس، أن انتخابنا للإنسان لايكون إقراراً منا بأنه يفضلنا . فقام الإنسان وقال : لا أعرف أأنتم تعرفون أني أعرف إنكم تعرفون الفرق الشاسع بين الإنسان وبين غيره من أصناف الحيوانات (هنا عارضه ساخر قائلاً لاتتبجج بالعرفان) وإنما قبلت أن أكون رئيسًا لهذا المجلس، كي أرشدكم إلى الرأي الرجيح الذي خص الله به البشر (ضحك وسخر من باقي النواب) وأنا لاألومكم على ضحككم الذي كان يزري بكم لو لم تكونوا بهائم (ضحك شديد وعند سماع هذا القول استلقى القرد على قفاه من شدة الضحك حتى بدت ناجذته السوداء) ثم قام الديك وجعل يصيح ويقول : أين المساواة والعدل والإخاء ؟ لقد نقضنا كل ذلك ولم يبق بيننا غير سنة الفم وشريعة البطن ، وصار كل حيوان طعمة لمن يفضله قوة ولو دام هذا الحال خربت الأرض . فإن الأمة من الأمم إذا كثر اعتداء بعض أفرادها على بعض، فسدت حالها وركدت ريحها. فكيف تنكرون اعتداء القرد على الفرد وتعدونه نذير الخراب ؟ ثم تحسبون أن تقاتل

١- هذا القرد كانت له ناجذة سوداء أي ضرس مثل الخليفة عبدالملك بن مروان .

عناصر الحيوانات وأجناسها ذريعة إلى الحضارة ومظهر من مظاهر سنة النشوء والرقى ، وتقولون القوة أساس الحياة . ولكن أين القوى؟ إذا كان كل قوى فوقه قوى يلتهمه . من أجل ذلك، أرى أن نحرم سطو الحيوان على الحيوان ، كى يستقيم السلم وتنتفى أسباب الحروب فقام الثعلب وقال : الله يعلم أنى أبغض العداء والاعتداء ولكن أنظمة المعيشة فاسدة ، ولامناص من السطو ما بقيت هكذا . فإن تملك المرء للشئ من الأشياء يحدث حاجة وعوزاً كما قال حيوان جليل من البشر ، أعنى البحترى :

كان يحيى ميتًا من ظمأ   فضل ما أوبق ميتًا من غرق

فالتملك سرقة شريفة مشروعة . ومن أجل هذا التملك ، كان الحيوان فى حاجة إلى التحيل للكسب والرزق واستخدام الدهاء وشحذ الحيلة له. ولولا الدهاء والحيلة ما استقامت الحياة . والدهاء أجل مظاهر العقل، لأنه أكبرها نفعًا ، ولكن الحاجة تدعو إلى السطو واللؤم والشر والاسفاف . ومن أجل ذلك أرى أن نحرم التملك، وأن يكون كل شئ ملكًا مشاعًا بين الناس .

ثم التفت إلى الديك وقال : لاترع يا خليلى من عداوة الأقوياء ، فإنى حاميك وناصرك ، وقد هديتنى ببلاغتك وصياحك إلى الحق، وبغضت إلى الباطل ، وندمت على ما أتيت من الشر، ولن ترى منى إلا ما يسرك إن شاء الله تعالى .

ثم قام القط وقال : لقد صدق الثعلب ، فإنه لايأكل لحوم الدجاج ، لأنه يبغض الدجاج فهو يحب الدجاج حبًا جمًا ويحب من أجل الدجاج الدال والجيم ، وأنا لاآكل لحوم الجرذان من عداوة، ولايلتهم الأسد فريسته غلظة وقسوة وإنما هى الحاجة والحياة . (تثاءب الأسد تثاؤبًا طويلاً) .

ثم قام الأرنب وقال : لقد أثبتت الأطبة أن أكل اللحوم رأس كل شر، وأن الحيوان إذا أبطل أكل اللحوم ، كانت حياته خيراً كلها ، فإن الهضم يحول اللحم إلى دوافع الشر كما ورد فى كتب الطب الحديث ، فإن أكل اللحوم يبث فى الإنسان خصال الشر، من قسوة وغلظة وشره ودناءة وشهوة خسيسة ، فخليق بنا أن نحرم أكل اللحوم ، وأن نقنع بالحشائش . (وعند ذلك بدأ الأسد يزمجر وينظر إلى الأرنب نظرة القاتل) .

ثم قام الحمار وقال : قد نسى أعضاء المجلس النظر فى أمر ذى بال، وأعنى العمل والأجر، فإن بعضنا على عظم نفعه يبيت فى إسطبل كأنه من أقذاره ، معبد إله القذارة فى خرافات

الوثنيين ، ثم لاينال من البرسيم ما يسد سغبه ، فيمشي في الأسواق ينظر إلى أفواه غيره من الحيوانات التي منّ الله عليها بما لا حاجة لها به ، من البرسيم أو الشعير مثل نظرة فلانة التي يقول فيها الحيوان الجليل النابغة .

نظرت إليك بحاجة لم تقضها   نظر المريض إلى وجوه العُود

أما والله لولا الصبر والحياء والحلم واللطف والرقه والأدب والظرف، لطغت الحمير وأبت إلا أن تنال نصيبها من السعادة ، فقام الأسد وزمجر قليلا ثم قال: لامراء في أن فلسفة الحيوان وآراءه تختلف مناحيها باختلاف جهازه العصبي، فإن جهاز الأرنب جعله يرغب في تحريم اللحوم، كما أن جهاز الحمار الحليم الظريف جعله يطلب الإنصاف في الأجر والعمل ، وجهاز الديك فغرفاه بالصياح وطلب الإخاء والمساواة وتحريم السطو والحرب ، وكل واحد منهم مظهر خاص من مظاهر المادة، ولاريب أن جهازي العصبي هو الذي يغريني باتخاذ اللحوم عقيدة ، فأرى في أكل اللحوم صلاح الدنيا وعمرانها ورقيها .

فانظر كم نوع من أنواع الحيوان قد فني، هل كان يرى فناءه عدلاً؟ وهل ترى في حياة الناس، والحيوانات والطيور والأسماك ، والحشرات والنباتات والجماد شيئًا يستقيم بغير السطو والاعتداء ؟ فأين الحقيقة؟ وأين المصيب؟ هذا الإنسان ينكر على أخيه الحمار حقه ومطلبه ، وهذا الحمار ينكر على الإنسان اعتداءه وتسخيره إياه، وهذه الظباء تنكر على آكل لحومها، وهذه الأسماك يأكل بعضها بعضا فأين الحقيقة ؟ وأي المذاهب الفلسفية مصيب؟ إنما الفلسفة حاجة من حاجات المزاج ، وكلما كان المزاج أبعد عن المألوف المعتاد كان أحوج إلى الفلسفة . والحياة الصحيحة لايحتاج المرء في أن يعيشها إلى فلسفة أو شك أو يقين أو إنكار . وحقيقة الحقائق هي حقيقة المعدة الصحيحة ، والجسم الصحيح، وماعدا ذلك، مظهر من مظاهر الاضمحلال والانحطاط . فالشك والتساؤل من مظاهر الانحطاط ، وكذلك الإنكار الذي يكاد يغري المرء بإنكار نفسه وحياته وإنكار كل شئ . وكذلك الإحساس الشديد والاعتقاد بما وراء الطبيعة من الأسرار التي يتوهمها والخروج عن المألوف من العادات والآراء والسعي في إصلاح الوجود وكثرة القول في ذلك وإعداد الأنظمة التي تهيئ هذا الإصلاح، والإكثار من استخدام الرموز وتقديس حياة الفرد ، والرغبة في أن تنشد النفس غايتها ، والرغبة في حمل متاعب الفقراء ، والتألم لهم ومذاهب الاشتراكية التي تخفض الناس إلى

مستو واحد، والإفراط فى حب الجمال والسعى وراء الأحلام والخيالات ، من أمثال الخيال الكاذب الذى يدعى المثل الأعظم ، والتغلغل فى كشف حجب الحياة عن أدناسها وامها وجرائمها ومقابحها ، وحب الشهرة ورغبة المرء فى أن يشرك الناس فى عواطفه والتعلق بتقريظهم ، فقد لاحظ الأطبة أن هذه الصفات تكثر فى المرضى والبله والمجانين، وعدد أفاضلهم ما لاحظوه من أمثال ذلك، راجع موريل وفير ولجرين ومنيان ولمبروزو وبرجر وماكس نوردو وغيرهم .

فقام الإنسان وقال : إن كل ما قلته لايخفض من قيمة المذاهب الفلسفية ومناحى التفكير ، فليست قيمتها قيمة ذاتية ، بل قيمتها قيمة تصحيحية، فليست الحقيقة فى مذهب منها، بل كل منها به شئ من الحقيقة . قال الأسد: هذه مغالطة غير وجيهة ، فإن الحق كالجوهر كلما قسمته قلت قيمته . قال الإنسان: بل كالشجرة تأخذ من غصونها وتغرس ما أخذته فتخرج من الشجرة بستانًا . وكما أن للأشجار تلقيحًا ، كذلك للآراء والمذاهب تلقيح ، وكما تخرج نوعًا جديداً من الثمار من أنواعها القديمة، كذلك تلقيح المذاهب، يخرج مذاهب جديدة من المذاهب القديمة ، قال الأسد : هذا عمل البله والمجانين الذين اختل عقلهم، حتى لم يعد لهم شغل فى الحياة، سوى التفكير . ولما انتهى الأسد من قوله، أحس جوعًا شديداً فأعمل أنيابه فى حيوان من النواب المحترمين ، ففر النواب وانفض المجلس على غير اتفاق .

آية المسخ

حدثنى إبليس قال : غضب الله على الناس يوما فرأى أن يمسخهم فقال: أيها الناس إذا ألحت لكم بالخير وأغريتكم به، وأودعته فيكم، صنعتم الشر تتقربون به إلىّ فتعذبون من تظنون فيه الشر، وتقسون على كل من تحسبونه غير راغب فيما ظننتموه خيراً . وإذا ألحت لكم بالشر كى تتجنبوه ، وغرسته فيكم كى تعرفوه وتذوقوه وتكرهوه، ملتم إلى الشر ثم تكفرون وتلومون وتعتذرون لأنفسكم ، وتقولون : إنى أودعت فيكم الشر، وخلقت فى نفوسكم كل ضعف وفساد . وإذا جعلت الخير والشر فى نفوسكم متكافئين ، ظللتم ضعفاء الرأى والهمة والعزم، كاللعبة التى يتنازعها طفلان ، كل يجذبها إلى ناحيته حتى تتمزق. وأنتم لاتصنعون الخير حتى تقادوا إليه من آذانكم الطويلة. أنتم تتشدقون بالمثل الأعظم ، والعقائد والوحى والفضيلة ، ولكن أعمالكم أعمال الشياطين .

ثم أخذشيئًا من رماد الجحيم ، وذرّه فى وجوههم فمسخهم قروداً ، فلما رأى القرود شكلهم أنكروهم ، وذهبوا إلى فيلسوف منهم وسألوه عن أمرهم، فقال : هذا من مظاهر سنة النشوء والرقى فى البشر ، فإن نوع القرود ونوع الإنسان من أصل واحد، ولكنهما فرعان مختلفان . ولاريب أن من ترونهم كان أصلهم من البشر ، فعلمهم الدهر فيما علمهم اتخاذهم الشعر لباسًا، بعد أن كانوا يتقون شعرهم ، وعلمهم السير على أربع بعد أن كانوا لايقوون على ذلك لنقص فى خلقتهم. فذهبت القردة وقالت لكاهنهم ما قاله فيلسوفهم فغضب الكاهن وقال : كفر والله فيلسوفكم ، وصار خليقًا بالعذاب الأليم . أيجعل القرود الذين أتم الله نعمته لهم وجعلهم خير عنصر أخرج فى العالم، وعلمهم اعتلاء نواصى الأشجار وأغصانها ، مثل هؤلاء الناس الذين لايحسنون المحاكاة والتقليد، ولايجيدون تسلق الأشجار فذهبت القردة ونتفت لحية الفيلسوف ، وأرادت أن تمثل به ،لكنه اعتذر ، وقال حاشا لمثلى أن يخفض من منزلة القرود بعزو هؤلاء الناس إليهم، ولم أقل إنهم بلغوا حد الكمال من المرتبة القردية، ولن يبلغوا تلك المنزلة، فهم لايصلحون لها ، وقد قدر بقاء الصالح للحياة وفناء غير الصالح لها، ونحن الصالحون.

أما هؤلاء الذين يحاولون بلوغ المنزلة القردية فقد كتب عليهم الفناء فى معترك الحياة .
قال الكاهن: ينبغى أن تنتهى عن سنة النشوء الكاذبة التى تحاول أن تفسر بها كل شئ فليس الرأى كما ترى، وإنما هؤلاء قوم أحسنوا عملاً فرفعهم الله من حضيض عالمهم إلى سماء عالمنا، فأنكر بعض القرود أن يكون الأمر كما قال الكاهن. وزعموا أن قرود الناس يعجزون عن أن يحسنوا عملا، وإنما قرود القرود هم الذين يحسنون عملا. فقال كاهن آخر : الحق ما أقوله لكم، إن هؤلاء قوم ليسوا من القرود ، والدليل على ذلك أنى كلما جذبت ذنب أحدهم انفصل فى يدى وبقى من غير ذنب، وإنما هم قوم أرسلهم الله إلينا كى نسخرهم فى الأعمال الوضيعة النافعة، مثل بناء البيوت وفرشها . أما اعتلاء الأشجار وغيرها من الأعمال الجميلة الفنية فقد خصت بها القرود.

أما قرود البشر، فإنهم بقوا على فسادهم وسفالة نفوسهم حتى ضج منهم قرود القرود، فأراد الله أن يعاقبهم فمسخهم مرة أخرى، بأن أرجعهم من المنزلة القردية إلى المرتبة البشرية.

ثم إلتفت إلى إبليس وقال : فأنتم قد كنتم أناسًا ، ثم صرتم قروداً ثم رجعتم إلى حالتكم الأولى ، وأنتم لاتشعرون . وما يدريك ، لعل الواحد منكم يمسخ فى اليوم الواحد ألف مرة فيعيش ألف حياة ، ويعالج كل مظهر من مظاهر الحياة وأنواعها ، ثم يرجع إلى حالته الأولى فيتنبه إلى ما كان يزاوله من أمر المعيشة البشرية من غير أن يحس ما عالجه من المعايش الأخرى .

زيت الفضيلة ونار الرذيلة

حدثنى إبليس قال : إنكم تحسبون أنى لم آت خيراً وأتم واهمون ، فإنى قد عالجت من الخير قدر ما عالجت من الشر. أحيانًا تعملون العمل تريدون به الخير فأجعله شراً ، وأحيانًا أظهر لكم الشر فى مظهر الخير. ولكنى لايغيظنى شئ مثل الشر الذى أقدر أنه شر فيكون أثره الخير بالرغم منى. ولو فطنت إلى الخير والشر لرأيتهما ثعبانين ، كل منهما آخذ بذنب أخيه، يأكل منه فثعبان الخير يأكل من ثعبان الشر، وثعبان الشر يأكل من ثعبان الخير. ومن أجل أن طولهما واحد يأكل الواحد منهما بقدر ما يأكل منه أخوه ، فيزيد بقدر ما ينقص .

ولقد اجتمعت الأبالسة يومًا وأرادت محو الفضيلة ، وإلغاء الخير، فقمت بينهم وقلت: يا أبالستى أتريدون أن تقفلوا فى أوجهنا منافذ الرزق ، ألا تعلمون أنكم إن محوتم الفضيلة محوتم الرذيلة بمحو الفضيلة ؟ وإذا نفيتم الخير نفيتم الشر أيضًا ؟ قالوا : وكيف يكون ذلك ؟ قلت : ألا تعلمون أن من فائدة المجرم أن يبقى الطهر وحب الخير فى الناس، لأن حب الخير والحلم صفة إذا انتفت أسبابها ما ربح المجرم المعتدى شيئًا ، لأنه لايجد طاهراً ساذجًا حليمًا يعتدى عليه . ومن أجل ذلك ترى الوقح يكره أن يكون المظلوم وقحًا والعادى يكره أن يكون الحليم عاديًا . وترى المرء يكره سوء الأدب فى غيره ، لأنه يريد أن ينتفع بسوء أدبه. ولكن سوء أدب الفريسة يحول بين العادى والمعدو عليه. فالوقح يشتم الوقاحة ، والكذب يشتم الكذب، وكل امرئ يحض الناس على الفضيلة التى ليست فيه، لأن الفضيلة إذا انتفت أسبابها انتفت أسباب الرذيلة أيضًا . ومن أجل ذلك ، جعلنا أيامًا فى السنة سميناها أيام رذيلة الفضيلة، نحض الناس فيها على الخير، وهذا الحض على الخير ، بمنزلة إراقة زيت الفضيلة على نار الرذيلة لإشعالها به . فلو كان كل الناس من أهل الرذيلة ، ابتذلت حرفة السارق والقاتل، ودخل فى الحرفة من ليس من أهلها وصار النصب والنهب مثل تجاذب الذرات الكيماوية، وصارت يد المسروق منه فى ثياب السارق ، وبطلت صنعة المحامى والقاضى بابطال السنن والشرائع .

ما هى السعادة

سألت إبليس ما السعادة فقال :

السعادة بمنزلة البرسيم الذى تليح به للنعجة العنيدة ، فتجرى وراءك وأنت كلما قاربتك أبعدته عنها فلا تطعمها إياه .

والسعادة هى بمنزلة الأسفل من كعوب قصب السكر، فتمص أولاً زعزوعة الأيام طامعًا أن تؤدى بك الأيام إلى أحلا الكعوب ، فإذا وصلت إليها وجدت السوس قد سلك فيها مسلكه وأفسد حلاوتها .

والسعادة؛ مثل الملح الذى نسى الطاهى أن يصلح به الطعام .

والسعادة؛ هى الدرهم الذى وعدك أبوك به كى تقلل من جلبتك ، ثم لم يف بوعده .

السعادة؛ هى كل شئ قبل أن تصل يدك إليه.

والسعادة؛ هى لفائف الطباق التى يضع فيها المازح شيئًا من المفرقعات.

والسعادة؛ هى الحلوى التى يضع لك المازح فيها قطعة من الثوم أو الملح .

والسعادة؛ هى اللقمة التى لن تمضغها .

والسعادة؛ هى الماء الذى لاتجده عند الظمأ .

والسعادة؛ هى الدرهم المزيف الذى ليس فى صرتك غيره.

والسعادة؛ هى الغرفة المحرمة فى بيت الغول.

والسعادة؛ هى القطر الذى علم بمجيئك إلى المحطة فهرب منك .

والسعادة؛ هى الطعام الذى يسقط فيه الذباب قبل أن تذوقه.

قال إبليس : وهناك نوع آخر من السعادة خير من الذى ذكرته:

فالسعادة ؛ هى أن يخف ألم ضرسك فبعد أن كنت تتمنى الموت من ألم الضرس، صرت تتمنى من أجل ذلك الألم للنوم فقط .

والسعادة ؛ أن يرمى من نافذة فوقك وأنت بين المادة ماء قذر ورطل من حديد فتلوث بالماء وتنجو من الرطل الحديد.

والسعادة؛ أن يسطو عليك لص فيسرق مالك وتنجو منه نفسك .

والسعادة؛ أن تزلق قدمك فتقع فتهشم أنفك بدل أن تفقأ عينك .

والسعادة ؛ أن تجد بعد كل ألم لذة.

والسعادة: أن تجد لذة فى ألم غيرك فتلتذ أن الألم بغيرك لابك.

والسعاد: أن ينبحك كلب فيمزق ثيابك وإهابك ، ولكن لايصيبك بداء الكلب.

والسعادة: أن تكون ذا نعل أمام اللانعليين، وذا كساء أمام اللاكسائيين (اللانعليون صيغة الفكاة والصواب الذين لانعل لهم) .

والسعادة أن تعوز البقلاوى فيسعدك خبز الدره. فالسعادة كما ترى ممزوجة بالشقاء، والشقاء ممزوج بالسعادة، ومن طلب سعادة غير هذه ، كان كالمستقى من ماء السراب .

أحـلام اليقظـة

الخير والشر*

ذهبت مرة إلى مدينة من مدن القدماء لم يبق منها إلا أطلالا ونؤيا، فجعلت أنظر إلى تلك الأطلال، كأنى أنظر إلى خيالات العصور الخالية.

غربت الشمس، ثم رأيت النجوم فى السماء، كأنها أطلال الفردوس، فرأيت فى السماء أطلالا. وقد خيل لى أن هذه الأرض قبر، والسماء غطاء ذلك القبر، والناس أموات والنجوم أزهار وضعت على ذلك القبر، كما توضع الأزهار على قبور الأفراد. فاستلقيت على الأرض وجعلت أنظر إلى النجوم نظرة هوجاء، ثم رأيت فى السماء جنيان، جنى تتطاير من عينيه النار وجنى ينبعث من عينيه النور. الأول له أذنان مثل أذنى الحمار، والثانى له أذنان مثل أذنى الإنسان. ثم رأيتهما قد وضعا أيديهما حولى، فوضع أحدهما يد تحتى ووضع الآخر يد فوقى، ورفعانى بين يديهما حتى وضعانى على سحابة تشرف على الأرض. ورأيت الأرض مثل كرة القدم فى الحجم، ثم قال الجنى الذى ينبعث من عينيه النور وأشار إلى صاحبه: هذا إبليس لايغرنك منه أن أذنيه مثل، أذنى الحمار، فإنه على ذلك كثير الدهاء كثير الذكاء، ولكن لو لم يكن بينه وبين الحمار شبه ما فضل الشر على الخير. فضحك إبليس وقال: لاتضع الوقت فى المزاح، ثم التفت إلى وأشار إلى صاحبه وقال: هذا الذى أمامك هو صاحب الخير، وأنا صاحب الشر. وهذه الكرة التى أخرجناك منها هى كرة نلعب بها، فإما غلبنى وإما غلبته، قلت: ومن الحكم بينكما، قال: الله يحكم بيننا. ثم جعلا يلعبان بالكرة الأرضية، هذا يضربها برجله من ناحية، وذاك يضربها بها من ناحية أخرى، ثم نظرت إلى الجنى صاحب الخير فرأيته يكبر فى حجم جسمه، ورأيت إبليس يكبر، فسألت صاحب الخير عن ذلك فقال: أنا أكبر لأنه لانهاية للخير، وإبليس يكبر فإنه لانهاية للشر، ثم نظرت حولى فرأيت أنى نائم على الأرض، وكان الجنيّان قد خفيا عن بصرى. فقلت لنفسى: أكبر ظنى أنى كنت أحلم.

---

* البيان: جمادى الأولى ١٣٣٠هـ (يونيو ١٩١٢)

طبيعة الإنسان

ذهبت مرة فى المساء إلى شاطئ البحر لأروح عن نفس من الهم الذى يعتور المرء من التفكير فى أساليب الحياة، وما يأتيه الناس من شر ثم اضطجعت على الأرض ، وجعلت أردد لحظى بين السماء والبحر ، فصغرت لدى حياة الناس من عظم ما بين السماء والبحر، وبينما أسخر من طبيعة الإنسان وما تغرى الناس به من غدر ولؤم ودناءة وكذب وقتل وخيانة ، وقع بصرى على ملك من النور، كله جمال وفى يده مرآة ، ثم رأيته قد اقترب منى ووضع المرآة أمام عينى، ثم قال : انظر فى هذه المرآة فنظرت فرأيت جنيًا ، ملأما بين السماء والأرض، رجلاه رجلا حيوان مفترس، لها كساء من الشعر، وباقيه ملك كريم ، فنظرت إلى قدمه فرأيت أظافر مثل أنياب الفيلة ، ورأيت الدود والبق والعقارب فوق رجليه وفوق قدميه ، فأغمضت عينى من قبح ذلك المنظر، ثم سمعت صوت الملك يقول : ارفع بصرك وانظر إلى وجه الجنى فى المرآة، فرفعت بصرى، ونظرت فى وجه ذلك الجنى، فرأيت وجهها ينبعث منه النور، كله حنان ورفق وعينين لحظاتهما كلها ذكاء، وجبينًا لو صور الحق إنسانًا لكان جبين هذا الجنى جبينه ، ورأسا مكللا بالأزهار، حوله هالة من النور.

ونظرت إلى صدره فرأيته نبيلاً جليلاً، فخفق قلبى طربًا بجمال هذا المنظر وجلاله ، ثم نظرت فى يدى ذلك الجنى فرأيتها مثل يدى القرد، فراعنى ما رأيت ، وعجبت كيف يقرن ذلك الجمال الجم بذلك القبح الجم؟ فقال الملك : إن صورة هذه الجنى تمثل النفس الإنسانية ، فإن هذا الجنى رأسه فى السماء ورجله فى الأرض ، وكذلك النفس ، وإذا نظرت إلى النفس ، رأيت أعاليها كلها جلال وجمال، وأسافلها مثل بئر كله حشرات .

وهذا الجنى له يدان مثل يدى الحيوان ، فإنما هذا مثل العمل فإن الغريزة تحث المرء على العمل من خير وشر.

ثم رفع الملك مرآته من أمامى وقال : إذا أردت أن تعيش عليل النفس سقيم الأمل، ضئيل الهمة فانظر فى أسافل هذا الجنى، وردد بصرك فى الدود والبق والعقارب وغير ذلك من الحشرات التى فوق قدميه ، فإن هذه أسافل النفس، ويكون مثلك فى هذه الحال مثل من يريد أن يستحم فيرى غديراً صافيًا طاهر الماء، فيعدل عنه إلى الماء الآجن فى المستنقع الموبى. لم لاترفع بصرك إلى السماء فترى أعالى النفس ، كما رأيت أعالى هذا الجنى من لحظ كله ذكاء وجبين ، كله جلال ووجه كله ضياء . فلما قال الملك قولته هذه رفعت بصرى إليه فرأيته قد خفى عنى فرجعت إلى بيتى ، وقلت : خاب من نظر فى أسافل النفس الإنسانية ورجع بصره خاسئًا عن أعاليها.

عظم الوجود*

رأيت فى الحلم مرة أنى كنت نائمًا على الأرض فى بستان أنيق، وجعلت أنظر إلى النجوم والظلام حولى كالعباءة ، فبينما أنظر إلى السماء، رأيت عينين كبيرتين تطلان من السماء ، وكل واحدة منهما فى حجم القمر، ولكنهما كانتا مثل أعين الناس ، ورأيت النار تنقدح فيهما كأن فى كل عين منهما جحيمًا ، ثم رأيت يداً كبيرة كأنها يد جنى مدت من السماء إلى الأرض ، فقبضت على ورفعتنى فى كفها حتى صارت الأرض فى عينى إذا نظرت إلى أسفل مثل النملة، وصارت الشمس مثل التفاحة الصغيرة ، والكواكب حولها كالنمل فتملكنى الرعب حتى صرت من شدة الرعب لا أحس به، ثم نظرت إلى ما فوقى فرأيت كواكب وشموسًا غير الكواكب التى يراها الناس ، وشموسًا غير الشمس التى يراها الناس، رأيت كل هذا وأنا فى يد ذلك الجنى.

ثم رأيت عينى ذلك الجنى فى سمائي والنار تتطاير منهما فصحت قائلا : من أنت أيها المخلوق الكبير، فضحك ضحكا كاد يصم أذنى، ضحك صوته مثل صوت تصادم الكواكب وتكسر الأفلاك ، ثم قال : أنا أعظم من أن أكون مخلوقًا ، أنا روح الأبد . أتحسب أيها المخلوق الحقير، أن كل شئ مخلوق مثلك؟ أتقيس قدرة الله بما أودع فيك من المقدرة ؟ ثم قال: انظر أيها المغرور ؟ ثم رفع صوته وأمر الأفلاك من نجوم وشموس أن تتصادم ، فتصادمت وتكسرت، ثم غابت أشلاؤها فى الفضاء . قلت هل فنى الوجود ؟ فضحك ضحكا عاليًا ثم قال لا ... انظر أيها المغرور ثم رفع يده، فرفعنى فى يده ، فرأيت أفلاكًا غير الأفلاك التى رأيتها قبل . وهكذا جعل يأمر الأفلاك فتتصدع، ثم يرينى غيرها حتى كدت أموت من جلالة ذلك المنظر وهوله، فصحت قائلاً : أرنى الأبد الذى أنت روحه ، فضحك وقال: إنى ليعجبنى غرور الإنسان، فإن غروره هو نتيجة من نتائج الطموح ، والطموح دليل على الحياة وعنوان العبقرية، اعلم أيها المغرور أنك جزء حقير من الأبد، فكيف يفهم الجزء الحقير الشئ الكامل؟ قلت إذا كيف فهم الحكماء وحى الحق؟ قال: إن ضمائر الأفراد ثقوب يطلون منها على الحق ويناجونه

---

* البيان : جمادى الثانى ١٣٣٠ هـ (يوليو ١٩١٢) .

منها، ولكن مثلهم فى تلك المناجاة مثل جماعة من العميان، لمس أحدهم خرطوم الفيل فقال الفيل ، مثل الثعبان ثم لمس أحدهم جانبه فقال : الفيل مثل الحائط ، ثم لمس أحدهم ذنبه ، فقال الفيل: مثل الحبل الطويل، ولمس أحدهم رجله، فقال الفيل : مثل الدعامة المستديرة ، وكذلك الحكماء لايرون الحق إلا كما ترى النور من ثقب صغير، فكل عقيدة من عقائد الناس مكملة لأختها ومتممة لها. ولما انتهى إلى هنا، قال اذهب إلى مكانك من الأرض ، ولاتنس عظم الوجود ، فإن إحساسك بعظمته فيه معانى العبادة كلها .

حكم وأمثال

من دواوين عبد الرحمن شكرى

حياة الناس إما ماء نهر فيصلحه التدفق والمسير
وإما ماء آجنة كثير قذاه ويأجن الماء الطهور

* * *

ليس يدرى مضاضة القدر الغا لب إلا معالج البأساء

* * *

أكذب الدين ما ينيم قوى المر ء كما يخرس الرياح الركود

* * *

وما علم الغل الفتى كمصيبة دهته فلم يعطف عليه ضريب

* * *

لم يزر بالحق حب الحسن بينهم فالحق والحسن إن فكرت سيان

* * *

لاتحسب الحب بين الناس منقصة فالحب سلوة هذا العالم الفانى

* * *

والعيش سر أنت باحثه فعسى تجوب مجاهل السبل
والعيش سجف أنت رافعه عما جهلت بجد ذى حيل
والنجح ليس بخير مكتسب كم نجحة شر من الفشل
كم ظافر بأقل مطّلب خذلت يداه بمطلب جلل
ضحكات لاتعرف الخير والشر ولاتضمر الجوى واللغويا

* * *

وفى اللون آيات من النور جمة ويارب لون قد يضئ له جمر
إنما تنطق النفوس لدى كل مصيخ إصاخة المذعان
ونجى النفوس ليس الذى الـ جم فاه من رهبة أو هوان

إن وأد الأبناء أهــون خطبــًا واثامًا من وأد تلك المعانى[١]

* * *

كالمكان الخــراب يبعث فى النف س خشوعــًا ورعــدة للظنين

* * *

رب جـــان علـــم العـــا جــز وجـــه العزمـــات

* * *

هكــذا سنة الـــورى وقديـــًا هلك الليث فى زمان القرود

* * *

كل عيش سهل المساغ وإن مـــر سوى عيش يائس مصفود[٢]

* * *

فإذا شاء رأى فى الجدب خصبـًا ورأى فى الراكد الماء المعين

* * *

يمد نحـــو النجـــم كفـــًا لـــه ويحسب النجم قريب المنال

* * *

ربما اضمـــر الريـــاء حيـــاءً وبدافى الحيـــاء بعض الريــاء

* * *

وما كل ما يأتيك عفـــواً محللاً ولاكل مالا ينتحيـــه مــلام

* * *

وافــتــقــار النفـــــس للحـ ب عنيـــف لايرائـــــــى

* * *

ورب لون هاج شجو الفتـــــى وفتح الذهن بمـرأى الضيـــاء

* * *

ووالـلـــه ما أدرى أواف بعـــده أحق بإجلال الفتى أم ضمينه

١- أثامًا اسم مصدر . ٢- مر وامر بمعنى أى أنه صار مراً

ألا عللانى يا خليلى أنتمـــا

على العيش بالإحسان والصدق والندى

* * *

كلمـا اضمـــرت حبـًا لحبيـــب　　كذبت أخلاقـــه ذاك الهـوى

فى ضيـــاء الحسن وعـــد كاذب　　مثلمـا أومـض برق وخبـا

* * *

خلـق الإنسان كى يشقـى بمـــا　　يبتغى فى نيلـه برء الشقا

* * *

ولربما كـره الفتى صور الـــردى　　وهو الجرئ على الحمام المقبل

* * *

ندمنا وقد تمحو الندامة ما مضى　　ولكنها قد توس المرء فى الباقى

وتودى بعزم صادق ذى عرامـــة　　وتنحى على بال السليم باقلاق

* * *

ومن سمت نفســه لغايتهـا الـ　　قصـوى بعـزم ثبت واقـدام

يكـــرم الحـب كل تكرمـــة　　ويعظـم الحســن أى إعظـام

إنما الأرواح شتـــى فاسلكـــوا　　كل روح حيث لاتذوى مناها

* * *

وكم فى الشعـر من حلـم لذيـــذ　　يعين على حيـــاة أو حمـــام

* * *

وهل يرفع الإنسان فضل أصابـــه　　إذا كان يزجيه إلى الفضل زاجره

* * *

كفى بنفسى داء اننـــى رجـــل　　اخشى الحياة واقلى سطوة الأجل

* * *

بعـض الأمانـــى كالحيـــا　　ة إذا انقضـت ليســت تجـدد

وما هجروك من عبث ولكـــن غايات الوسائل فى الحتوف

* * *

إذا كان الحبيـب على سلـــو فلا يغنى التـودد بالعتـاب

* * *

نغمـات مثل الربيـع حسـان وغناء يحيى الهوى والتمنى

فالأزاهير كالطيور على الغصـن سكـوت والطير زهر يغنـى

* * *

ويح شمل الصحاب لو كان صدق الـ قول أن لا حياة بعد الحياة

* * *

أنا والغيب كالغلام إذا حـا ول فتحـاً لمغلـق الأبـواب

* * *

ويا حسن ما تملى الخيالات انهـا حلى على جيد من الدهر أجرب

* * *

وفى اليأس يأس يبعث المـرء بعثـة

إلى الغايـة القصـوى من السعى والجـد

* * *

إنى لاذكـر أيامـاً لنا سلفـت كما تذكر صوت اللجة الصدف

وكلمتنى الرياح الهوج فى فمها سر الطبيعة مخبوء ومنكشف

* * *

وإنما الكـون قلـب لاسكـون لـه حياته نبضات الحادث الجـلل

* * *

وما نصب المصباح إلا لضـوءه وإن كان فى احشائه الدهن فانيا

وليس الذى يحيا حياة ذليلة

خليقا بأن يدعى على العيـش باقيـا

* * *

صن بالفضيلة حسنا أنت زائنـه   ما كل حسن بعف الذيل فتان

* * *

وان الجسوم غـذاء النفـوس   وان النفـوس حيـاة لهـا

* * *

وقد يخـز الشـر روح الغبـى   كما يخز الدود أهل القبـور

* * *

فهم يمدحون الخير من خوف سامع

وهم يهجـرون الشر خوفًا من العـذل

* * *

إن الذى اتخذ الظلوم وليه   اطغى اذا عـد الطـغاة واظلـم

* * *

إن العقيدة فى الضمير مكانها   ليست بتحريك اللسان ولا الفم

لاتعد الظـن رأيـا صادقـاً   يفتح الظن مغاليـق الحمـام

* * *

هو كالأخفـش فى الحافظـه   لايرى الاشياء إلا فى الظلام

* * *

ومن شقوة الإنسان أن اقتـداره   ضئيل وما يرجو من العيش واسع

* * *

متعلق بالعيش يرجـو صفـوه   كتعلق الطفل الرضيـع بأمـه

* * *

وإنى لارجو فى اخائـك لـذة   كلذة أهل الرأى فى حسن الفكر

* * *

نعمنا بكم حيناً فلما صدفتـم   ثكلنا كم ثكل الفتاة رضيعها

* * *

كما افلتت من قانص الدر درة   وقد امنت اطماعه أن يضيعها

يحسب ان الاقدار ما خلقـــت إلا لتجـرى بنسـج سـؤدده

* * *

ان الوسائل والغايات ما اشتبهت

على امرئ فدواعى الطيش فى العمل

* * *

فقد يخطئ الإنسان ما هو طالب

ويصمى من الأشياء ما ليس يقصد

* * *

يرجو الفضيلة لكن لايعالجهـــا ويطلب الخير لم يمدد له مدداً

* * *

وما كنت الاقاذف الريح بالثـرى لوته عليه الريح والترب تارب

ألم تر أن الشر مغـــرى بربـــه يغالبه عن نفسه وهو غالـب

* * *

واحسن من شكوى الزمان وإحتقاره

إذا عدوات الدهـر غالـت خطوبهـا

* * *

لكل دهـر إمـام قائم أبـــداً يبين للناس معنى الصدق والكذب

* * *

فصبر يعين المرء فى حين بأسـه وصبر يعين المرء عند طموحه

* * *

إذا أنت أكرمـت اللئيـم اهنتـه بفعـل حميـد ناقـد لفعالـه

* * *

مهما تطاول بالنبات فروعـــه فاصوله فى الأرض ذات طرائق

وكذا اللئيم إذا ترافـــع قـــدره غالى برأى فى الفسولة صادق

* * *

يسوءك اليـوم فترجـو غـــداً ان غـداً ليس بيـوم جديــد

* * *

وقد يحمد الانسان عقبى ذنوبـه ويشقى بما لم يجنه ويصاب

* * *

ويل القوى من الضعيف اذا طغى

ويل الضعيـف من القـوى العـادى

* * *

يمشى وحيداً فى الخلاء وحولــه جيش من الآراء والعزمـات

ومن يصحب الأيام من بعد خبرة يقل لديــه تافــه وثمــين

* * *

أعز صديق فى الخفاء يكيدنــى وأصدق صحبى فى الوداد يمين

* * *

وما العيش إلا الذئب تدمى نيوبه وللعيش ناب قاتل واظافــر

ولكنه كالخمــر تحلـو لشارب وإن سُلبت منه النهى والسرائــر

* * *

ماترى الناس فى الحيـاة حيارى ضل من كان عالمًا أو جهولا

* * *

واعاد الاتام قصــة من مــــا ت فكانـوا قابيــل أو هابيــلا

فترى الخلق فى المطامــع إمــا قاتلا ظالمــًا وإمـا قتيــلا

* * *

فمن لى بعيش لا أبالى صروفـه اقول لدهرى طر بصرفك أوقع

* * *

اذا كنت فى روض فقلبى طائــر يغنى على اغصانـه ويطيــر

يُقتل المــرء على الجــرم ولا يسأل الجبار عمــا يجتــرم

نعيش بالغش ما حيينا غش عدى او أحبة

* * *

جلدة السخل بها الذئب ارتدى فاذا ما غفل الراعى هجم

* * *

اذا ظمئ الفؤاد إلى كمال رأى ضرب الخلود كقيد شبر

* * *

وكان الجهل لى عبداً فولى فيا شوقى إلى جهلات عمرى

* * *

وفى كل وجه لو فطنت اشارة تدل على ما فى الضمير من السر

* * *

بنى ادم لاتذكروا العدل ذكرة فما العدل إلا ما ترون من الأمر

* * *

ولو كان للآثام ريح خبيثة تطيّب كل الناس بالند والعطر

ولو كان سوء النفس داء بجلدهم لاصبح كل الناس يوصم بالعر

* * *

والموت اطهر من خبث الحياة وان راعت مظاهره الاجداث والظلم

* * *

ضمائركم لو تعلمون حبائل لها من اباطيل النفاق سيور

* * *

يعين على شتمى وإن هو لم يقل مقالاً وبعض الصامتين يقول

* * *

وارقص على نغم الحيا ة فما لها ابداً معيد

* * *

من لى بعيش لا أحس صروفه كالماء أو كالنار أو كالجلمد

* * *

ضحك يهد القلب وقع رعـــوده ولرب ضحك فى النعيم مغرد

* * *

وفى صروف القضـــاء عرقلـــة تقتل روح الذكـــاء بالريـــب

وتبعث اليأس والملالـــة والشـــك وتـــودى بهمـــــة الطلـــب

* * *

والقلب مثل الزهر يحييه الهـوى يومـــًا ويدركـــه الأسى بممات

* * *

وما الشعر المشبــوب فى الرأس حلية ولكن رماد للحياة يريب

* * *

عبث نسبـة الغنـــاء إلى الرو ض فليس الغـراب كالورقـــاء

* * *

ولاتحسبا ان السكوت جلادة فما كل صمت يحمد العيش صاحبه

* * *

على الدهر والدنيا على العيش والردى فرائض لاتبلى ولاتتحول

وتهلك هاتيك الشعوب وتنطوى كما يهلك المرء الضعيف المقتل

* * *

وعش مع هذا الكون كونًا معظمًا وكن فى قواه بين نــاهٍ وآمـر

* * *

فانى رأيت النفس كالافق بهوها تسير بها الآمال سير الكواكب

* * *

إن المقادير اجناد مجندة تصـول بالحـــق لاظلـــم ولاخطـــل

لارحمة عندها ترجى ولامقة ولا الشفاعة تقصيها ولا الخول

* * *

إذا ابتلى الله قومًا بالهلاك فــلا سمع لديهم ولاعزم ولاحيــل

* * *

لا الدهر غرٌّ ولا الايـــام ظالمـــة   وانما العيش فينا والردى علل

* * *

كل له أجــل يسعـــى ليبلغـــه   وليس يفلت إما جاءه الأجـل

* * *

ان من يدرس الحيـــاة طويـــلاً   لخليـق بضحكـــة الجهـــلاء

* * *

ظمأ النفس مثلـــه ظمـأ الجسم   وداء النفـــوس كـالادواء

* * *

وحسوت النعيـــم والبـــؤس حتى   لم ادع كـأس لذة او شقـــاء

* * *

واشقاك ان قيـــود المقـــــا   بح غلت عليك فلم تصدع

فاصبحت فيها كطيـــر الحبـــا   ئل رمت الخلاص فلم ترفعى

* * *

يقضى الغبى حياتـه فى غفلـــة   عن نفسه ويعد فى الأحياء

* * *

لولا طمـــاح الحالمـين وهمهـــم   بقى الورى كالتربـة الغبراء

* * *

وليست نفوس الناس إلا اسنـــة   لها كل يوم مطعـن وجـــلاد

وهب أن ما يأتى الفتى غير مقنع   أليست لذاذات الطراد تـراد

* * *

جهلنا فما ندرى على العيش ما الذى   يراد بعيش نحن فيه نقاد

سوى أن عيش المرء بالشك فاســد   وان يقينـاً فى الحياة رشـاد

يقينًا بان العيش نشوة صائـــل   له عزمات فى الحياة حـــداد

* * *

للنفس افـق مضـئ نـوره عمم وارضها النتن من رجس وادناس

* * *

نفسى كالطائـر الحبيـس فـلا مفر من جور سطـوة القـدر

* * *

تعاودنى ذكرى الربيع الذى مضى كأن حبيبًا قد طواه حمـام

لقد جف قلبى والزهـور نضيـرة وقد شاب قلبى والزمان غلام

* * *

وهون عندى الموت ما الدهر صانع فلست من الخطب العظيم اخور

فليست مساعى المرء إلا جنـازة تخب به نحو الردى وتسيـر

* * *

من ثمـار القـدرة العلـم وفى العجـز الضـلال

قيمـة المـرء مساعيـه إذا عـز المنـال

بذلـوا النفـس ليحظـوا إنمـا البـذل نـوال

* * *

فنفس الفتى فى مسلك العيش توأم لها فى الادانى توأم وحبيب

* * *

ولحظ الفتى من نفسه وخصالـه إذا طاب نفسًا فاللحاظ تطيب

* * *

وكل وداد لـو فطنت تجـارب فمنها مضئ مغدق وخلـوب

* * *

وقلت لقلبى إنما العيش خلسة من الموت لاتبلغه يا قلب صاديا

وما احسب النفس اللجوج شفاؤها من العيش ما يدنو وان كان شافيًا

حب النقيصة أثرة مذمومـة يغدو لها الخلان كالاضـداد

وهو المحاسن الفـة ومـودة وتناصر كتناصـر الأجنـاد

ظن الفتى كفعالـــه ومقالـــه وخصاله من مضمر أو بـادى

* * *

وأن هيام المرء فضـــل وفطنـــة اذا كانت الاخلاق غيـر لئام

* * *

لولا المصائب والآلام قاطبة ماكان فى الناس إشفاق واحسان

لو تشعر النار لم تعنف بلامسها او تألم النار لم تحرقك نيـران

* * *

وكيف ترجى العدل فى قول حالم تطلب دنيا حلمه فشكاهــا

* * *

ولاخير فى نيل الوداد بشافع إذا انت لم يطرب إليـك حبيـب

* * *

يا طارق الموت فيك إلا من انشده فانت ارحم من صحبى وخلانى

* * *

والكـــون آيـــة شاعـــر يأتـــى بمبتكـــراتهـــا

* * *

بخلت به بخل الشحيح بمالـــه وكان جواداً بى على كل عاتب

* * *

وكل امرءٍ فى العيش للعيش خادم يقاد الفتى فى العيش قود الجنائب

* * *

هذا جزاء امرءٍ بالناس منخـدع فالغافل الغر فينا فرصة الجانى

من ضح نفساً فلايزرى به صغـر ان الكبير كبير النفس والشـان

اعتدت من أهل دهرى كل منقصة فلا الومك فى مكر وعدوان

وما عتابيك فى طبع بليـت بـه الطبع اغلب من نصح وعرفـان

* * *

يحسب الكون اطاراً دونـــه رسم من يهوى مضيئًا كالشهـاب

اسقنى خمر المساعى والهــوى فجمال العيش فى ذاك الشراب

* * *

والنفس بيت الله أن طهـرت والنـفس إن لم تصف مثل الجحيم

* * *

تعلمنى الاقدار ان ارحم الــورى فقلبى لكل العالميـن رحيـــم

وانظر فى نفسى واعرف عذرهـم على شرهم داء النفوس قديـم

وان جميع الناس اهلى واخوتـــى وإن كان فيهم جـارم وذميـم

وليس خصيمى من يريد شقاوتـى فانا جميعا للقضاء خصـوم

* * *

وكم من نفوس ساميات اذلهــا فعادت بادناس الحياة تطيــب

ترى أن خير الكون ما هو كائن ووحى النفوس الساميات مريب

* * *

لايسعد الناس من الحرص سنتهم حتى يطهر داء الحرص بالندم

ترى السعيد شقاء النحس متهمًا

مرأى الشقاء لدى المجدود كالتهـم

* * *

وإنما ملجأ النفس التى كرهـــت عزو الأمرر إلى الاقدار والقسم

تبتغـــى عالمـــًا جديـــداً من الكـــون قد نشـــا

خارجـــًا منــــه مثلمـــا تخــرج الليلـــة الضحـــى

إذا جعل الإنسان نصب لحاظــه مآثمه هانت عليه مكارمـه

فييأس حتى يحسب الخير خدعة وينحل عنه صبره وعزائمـه

وإن جعل الإنسان نصب لحاظــه مكارمه هانت عليه مآثمـه

فيصبح مغــروراً يتيــه بخيـــره يرى أن كل الخير ما هو عالمه

ويحمــدون العقــل فى جــزره   ويكرهون العقــل فى مــده

* * *

ما حيــرة المــرء دليــلاً على   فساد هذا الكون فى عقلــه

* * *

وخفّضـت من قــدره نفســه   ورفــع الجهــال من قــدره

* * *

الفكر عدوى ما لهـا من راقــى   وليس منها حافـظ وواقــى

* * *

الفكر نــور اللــه فى الوجــود   فعمــره كخلــده المديــد

* * *

فإن ذكــراك فى فــؤادى   كالنار فى معبد المجــوس

* * *

وما العيش إلا نومة راع حلمهـا   ووقع سؤال ما عليـه جواب

* * *

فلاتحسبن الشر يمحــى بتوبــة   وإن غفر الجرم العظيم متـاب

* * *

وكم حدثت بالشر ذا الخير نفسـه   وذاك حديث ما عليه عقـاب

ولكنه فى النفـس إثـر يشوبهـا   وكل ضمير بالمغيب يشـاب

* * *

ظمئنا فخلنا الشر فى العيش منهلاً   ولكن ورد الجارمين سراب

كذلك حال الناس فالناس آجـن   مرير ومـاء النابغين نميـر

وبارقة تجلو الظلام وصاعق يشب   لهيبـًا والانــام قشــور

* * *

كان وجيع الحــز حلم إذا مضــى   وذكرى دموع البائسين غمام

ولولا الأذى ما ذقت فى العيش لذة   فكل نقيض بالنقيض يشام

ولاشر إلا فيـــه للخيـــر مألـــف كما تألف الماء الطهور مدام

* * *

فلا تحسبن الصبر فى استكانـــة فرب وعيد فى التواضع والصبر

* * *

والروح كالكون لاتبدو أسافلـــه عند اللبيب ولا تبدو اعاليـــه

كأننى منك فى ناب لمفتـــرس المرء يسعى ولغز العيش يدميه

* * *

قد ثار ثائر نفس عـــز مطلبها يطهر الكون من شر وأشـــرار

وتنثر الخير نثر البـذر يحملـــه نسم الرياح على زهر وإثمـــار

أوليتها ملك فى الجـو دولتـــه فى جحفل من جنود الريح جرار

* * *

إن النفـــوس لأسرار مخبـــأة فكل روح عن الادنين مستتر

* * *

الخلد فى وحشة كالموت تجنبـــه فكل روح إلى الأرواح مفتقر

* * *

والنفس كالركب فى الصحراء سيرتها

تمضى الشجون ويبقى بعدها الأثر

ورب نفسين حال الدهر بينهـــا كما يدين لصدع اللجة الحجر

وإن اوجع ما تمنى النفوس به صدع الزمان وسوء الظن والضجر

والدهر للنفس بحر زاخر ابداً بحر النفوس ومنها العشب والدرر

فما تآلف منها فهـــو منتظـــم وما تناكر منها فهو منتشـــر

* * *

يا ويح من حسب الحياة ذخيـــرة تنمو على الاسراف والامضاء

* * *

شهادة للكـــريم يبغضـــــه الوغد صيـــال اللئـــام بالتهـــم

* * *

قد تسفل النفس والحجى صعـــد في راجح العقل ساقط الهمم

* * *

الكذب احبولة يصاد بها القـــا نص فيها عـــدل من النقـــم

والشر قد تجتويه من ندم يدعـــو نفوســًا لاحسن الشيـــــم

لاينـــــدم المرء نفســـه خبثـــت فانكرت خبثها من السقـــم

* * *

كأن عذاب المرء للمرء ضحكة فقد اغرم الإنسان بالشر والأذى

* * *

إذا ما أراد المرء اخفاء عيبه رمى غيره بالعيب لم يعدو من رمى

* * *

وبعض دواعى العقل حرب لبعضها

فلايعرف الإنسان فى العيش من دعا

* * *

فان حياتى غلة ريها الـــردى وخير شراب المرء ما نقع الظمأ

* * *

هو الرغب مثل الريق إن ساء طعمه فإخراجه بالمرء أحرى وامثل

الحق حمل يؤدد النفس محملـــه إذا مضيت بشلو منه مقبـــور

* * *

وكن لى مثل الماء يبدى ضميره ولاتك مثل الليل والليل قاتم

* * *

يرجى غريق اليم حتى عـــــدوه ويحسب زهراً طافيًا أجبلا شما

* * *

وإن حياة الطامحين عواصـف الـ شتاء وعيش القانعين ربيــع

* * *

وتعظم نفس المرء حتى كأنهـا عوالم فيها الكائنـات تـدور

* * *

وأكثر ذل العاقليـن خديعـة واكثر ذل الجاهليـن خمـول

* * *

فلاتحسبن الحرب سهمًا ومغفـراً فان سلاح الصائلين عقـول

* * *

فصبر الجهول الفدم نومـة راقـد ولكن صبر العاقليـن مقيـل

* * *

فزرنى فى ليل الشباب كسارق ولاتنتظر يا موت ذل مشيبـى

* * *

فالحسن ثوب باللجيـن مطـرز والقبح فى ثوب المحاسن يستر

والقلب مثل البحر يفزع قاعـه أهنا قلوب الخلـق مالايسبـر

* * *

وجزعت حتى قيل ليس بصابـر وصبرت حتى قيـل لايتذكـر

* * *

ولو خوف الإنسان من شر عيره لما قاد ذاك العير منه لجـام[1]

لـو أدرك الإنسان آمالـه وصابه منها كقطـر المطـر

ولم يعد يعـرف مـا يبتغـى ولم يجد فى العيش ما ينتظر

لكان اشقي الناس فى عيشـه حتى تقول النفس اين المفـر

لاعيش إلا بطـلاب المنـى لولا المنى فى عيشـه لانتحر

* * *

١- العير الحمار

وما كل امر تستقيـــم صـدوره لمن لم يرضـه تستقيم عواقبه

* * *

إن الشتاء إذا تطـاول امـــره جاء الربيع بطيبـه وروائـــه

وكذا الشقاء إذا تمادى عهده جاء النعيم يـــذل من غلوائـــه

* * *

إن من اخطأ الرجاء يرى الدهـ ر بعين تقـــذى بغيـر قـــذاة

* * *

كل يوم يفنى من المـــرء شئ ما سمعنا عليه صوت النعاة

* * *

فانـــاس تسرهـم سيئاتـــى واناس تسوءهـم حسناتـــى

* * *

وفى السعى شئ يعوق الطمـوح فيخطى الأجل ويصمى الاقلا

* * *

إنما الآمـــال أزكـــى متجـــر لاتخف من حبسها أن تكسـدا

* * *

إن الحمية لو دبت إلى رمم ريعت قلوب الأعادى من عواديها

* * *

كيـــف أرجى منكـم رحمـة أن كان قلبـــى ليـس بالراحـــم

* * *

ولقد رأيت الدهر فى احوالـــه تخذ الامان على النفوس دليـلا

* * *

أربـــى بنفسى ان ابين سريرتـــى لمظلل قد غـــره اعلانـــى

وكيف ألوم الدهر فيما يريبنـــى واحسن شئ فى الزمان عيوبه

* * *

وهل ينكر العيـــب الا الرضـــى وهل يجحد الفضل الا الحسد

* * *

تعرض الأشيــاء فى أوطانهــا آفة الجوهــر ان لايعرفــا
كم جهول عزبت عنــه النهــى نبذ الدر ونــال الصدفــا

* * *

وكيف تنالــك الدنيــا بشــئ وانت البرء من حدث الزمان

* * *

ولولا خداع شاب طبعك لم يكـن إليك لمن يبغى الوفاء سبيـل

* * *

ومــا اخــال الحيـــاة الا كجولة الفكــر فى الضميــر

* * *

وخــل اعــان علىّ الهمــوم فكان الخداع وكنت الحذارا

* * *

ولكـــن العظيــم اذا تلظــى على مكروهة شمت الحقيــر

* * *

يقولون الصحاب ثمــار صــدق وقد نبلو المـرارة فى الثمــار

* * *

وان أك مخطئـًا بالفضـل يؤتـى من الخطأ المبين عن الصواب

* * *

ومنزلــة الرجــاء من المساعــى كمنزلة البشائــر فى الربيــع

* * *

وكم فى العــز مفســدة لقــوم وفى الارزاء أعــلاء لنــاس
تطامن للنوائب ان تمادت فلــولا الحــزن مــا عــرف السرور

* * *

فلاتثلـم ضميــرك بالدنايــا وهل شــئ أرق من الضميــر

* * *

وهل ضمن البقــاء من المعانــى سوى لمعــات خــداع خلــوب

* * *

ولولا خدعــة الأمــل المرجــى لاسلمنا النفوس إلى الحمـام
تعاف الرحمـــة الغـــراء نزلا قلوبًا قد اضــر بهـا التعالى

* * *

فان الزهـر فى القيعـان ينمــو وان الثلج فى قمـم الجبـــال

* * *

وخوف الناس من حكـم المنايـا كخوف الطفل من وجه الظلام

* * *

وان المـــوت مـــرآة ابانــت حياة المرء كالنفـس الرقيـق

* * *

إذا ما سبنى سفهاء قـوم فمـا يغنـى اهتمـامى بالعـــواء

* * *

حياتـى بين اعدائـى ممـــات وموتـى بين احبابــى حيــاة

* * *

اذا عــاث القــوى فلاتراعـــوا فان الظلـم نعـش للظلــوم

* * *

تمـــد يداً لـــو أن الحــق فيهـــا لاذوته الخصاصـة والسـؤال

* * *

بلونـــا سهمـــة الأيـــام حتـــى رأينا الشك ينبت فى اليقين

(٣)

الثمرات

الطبعة الأولى : مطبعة غرزوزى بالأسكندرية ، ١٣٣٥ هـ ، ١٩١٦

كلمة

هذه ثمرات أفانين من ثمرات الفكر والعواطف : بعضها قديم وبعضها جديد، وليست الحياة إلا ثمرات الفكر والعواطف جديدها وقديمها .

أحلام الشباب

احذر أن يكون أملك في صلاح الحب كبيراً ، فإنه بقدر أملك من صلاحه يكون يأسك من فساده ؛ وبقدر يأسك من فساده ، يكون جهلك جمال الحياة . فإذا أردت أن لايغيب عنك جمال الحياة ، فاجعل أكثر حبك حنانًا وعبادة للجمال واحذر أن تجعله غاية فليس الحب آفة ، ولكن الاغترار به آفة الشباب .

وقصة الحب الخائب تمثل زوال آمال الشباب ، فإن الشباب باب يطل على الأبد ، إذا قربه صاحب النفس الظامئة إلى الكمال شم منه ريح الخلد ، فأصابه داء الأبد فكان من مرضى الخلود . وإن إبلال المرء من ذلك الداء أشد على النفس منه ، فإذا أصيب امرؤ بذلك الداء ثم أبرأته التجارب منه ، كان برؤه أوجع في النفس منه ، لأن الحب يترك مكانه يأسًا لايمحوه شئ غير تعاقب الأيام وقد لا يمحوه تعاقبها .

كل إنسان إذا بلغ الشباب وبلغ من التهذيب مبلغًا زعم أن الحب فرض على كل مخلوق ، وأن فيه برأ لما فى هذا الوجود من الشر . ولايزال يلتمس صلاح الكون بصلاح الحب ، حتى إذا أكلت التجارب قلبه ونهشت لبه ، عاد ذلك الحب يأسًا بعد أن كان أملاً فيفيق من حلم الشباب ، وكأنه ذلك الرجل الذي رأى أنه يعانق خيال حبيبته ، فلما عانقه ذهب عن ذلك الخيال بهاؤه ورأى المسكين أنه يعانق رمة بالية .

إن عبادة الجمال تمنح المرء سعة في الذهن ، وتطلقه من رق التعصب لجانب من جوانب الحق، فإنها تُريه أن للحق جوانب كثيرة ، وأن أكثر الناس لايرون إلا جانبًا من جوانبه ، ولكن واسع الروح الذي امتلأ روحه من حب الجمال وإجلاله ، وامتلأ ذهنه من صور الجمال والملاحة ، لا يقيد رأيه بجانب واحد من جوانب الحق .

إن عبادة الجمال تطلق المرء من عقال التحيز والغباء وضيق الذهن ، وتفيض على روحه نوراً يضيء له أسرار الحياة ، وتفتح أبواب القلب لكل طارق من حسنات الطبيعة .

ورب أمة كان أفرادها يغذون أبصارهم برؤية الجمال ، ويغذون قلوبهم بعبادته ، فكان للجمال بينهم سلطان على التناسل ، فكانت تولد لهم أبناءً حسان . وقد أذكرنى هذا ما تفعله نساء الفلاحين فى مصر ، فإنهن يضعن في غرفة الحبلى صورة السفير عزيزة أو صورة خضرة

الشريفة ، ويزعمن أن الحبلى إذا أكثرت من النظر إليها أتى الوليد حسنًا ، ويقلن أن نظر الحبلى إلى الصور الجميلة ، يكسب الجنين شيئًا من الحسن .

رأيت مرة فى الحلم أني أحببت فتاة روحها واسعة كبيرة ، فهي كالغابة سمت فروعها وأشجارها حتى أضللنا أعاليها في أعماق السماء ، وإن من النفوس نفوسًا غير محدودة بحدود الفكر ، نفوسًا لا نهاية لها ، نفوسًا يضل المرء أعاليها فى أعماق الأبد . هذه النفوس، مثل نفس من أحببتها ثم صحوت من النوم فلم أر حولي غير نفوس أحقر من البق .

رأيتها مرة في الحلم ، وفي يديها نسر ميت تقص جناحيه ، فسألتها ما هذا النسر ؟ قالت: هو قلبك أقص جناحيه اللذين يسعدانه(*) على الطيران . لقد طالما سما هذا القلب إلى آمال فى الحياة بعيدة كالنجوم ، فمازال يعلو وجناحاه يساعدانه على الطموح حتى لمس بهما حاجب الشمس ، لفحته النار فاحترق ، فهوى إلى الأرض صريعًا . أيها النسر : قد كان لك عن تلك الآمال مغنى ومنأى . لقد كنت في وكرك آمنًا لفحات الحب ، فلاحت لك الشمس بحاجب مضئ فعزّك منها ما عَزَّ اليهودي من ديناره فأصابك مصرع أهل الغرور .

رأيتها مرة وفي يديها زهرة ذابلة تقطف أوراقها ، فقلت لها ما هذه الزهرة قالت : هي آمالك في الحياة قد خانها الحب كما يخون الخريف الزهور ، ضننت بها على الشتاء فقطفت أوراقها واحدة فواحدة ، تلك أوراق الربيع الفائت .

أيتها الزهرة : قد كانت لك في الربيع أيام كنا نستضيء فيها برونق منك غض ، فالآن إذ ذهب الربيع لا معتب على الدهر فيك . هذه يد إليك حبيبة ضنت بك على غير رفيق ، فنثرت أوراقك وفاءً لذلك الزمن الفائت والعهد القديم.رأيتها مرة وفي يديها عقدة تحاول حلها فقلت: ما هذه العقدة قالت: هي إيمانك بالحياة عقدة لم تعقدها العزيمة فلا غرو إذا حلها اليأس .

إن بين الحب واليأس صلة ، مثل الصلة التى بين الحب والأمل . فليس الأمل أقرب من اليأس إليه . الحب مثل الخمر . فالخمر حُلوة مرة ، وكذلك الحب . أليس للخمر نشوة ، وللحب نشوة ، أليس للنشوان صحو وللمحب صحو ، فإذا أفاق المخمور من خماره ، أحس ألمًا يذكره بسكرة أمس . وإذا أفاق المحب من خمار الحب ، بقيت في قلبه حسرة تذكره بالعهد الفائت والحب الذي مضى . الحب حيوان نصفه الأعلى حسناء كاعب ، ونصفه الأسفل ثعبان .

---

* هكذا فى الأصل والصواب يساعدانه على نحو ما يقتضى السياق . « المحرر »

رأيتها مرة في النوم كأنها نجمة الفجر تطل من سماء أحلامي ، أو كأنها قبلة لذيذة ، طويلة صارخة ذات نغمة ، مثل ضحك الحسان ، أو كأنها قطرة من قطرات الندى ، نائمة على أوراق زهرة ذابلة . أيتها القطرة الطاهرة إذا شئت كان لك من قلبي فراش ، فإن قلبي زهرة الحب الذابلة الدامية . رأيتها مرة تحوك لي كفنًا من الآلام ، وهي تنظر إليّ نظرة أسف وحزن ، وكأنها تقول لا تلزمني جناية القضاء أنا أمة القضاء ، أتبع أمره ولا أرد له حكمًا . غير أني قد أخذت طرفة من الحكمة ، فتبعت قول أولئك الحكماء الذين يزعمون أن التسليم لحكم القضاء من شيمة العبد ، فينبغي أن تكون رغبة المرء وحاجته فيما يجيء به القضاء ، فيكون هو والقضاء سيان . لا لأنه قدير كالقضاء ، ولكن لأنه جعل إرادة القضاء إرادته فقلت لها : لا معتب عليك . إني أحبك حتى ولو كنت غير فاهمة ماتقولين ، فضحكت كما تضحك الشمس فوق القبور ، وكانت قد فرغت من نسيج ذلك الكفن ، فوضعتني فيه وقبلتني قبل أن تطويه ، قبلة جمعت بين حلاوة النعيم ومرارة الشقاء ، فكانت كالحياة حلوة مرة : تركتني ياحبيبتي بين ضحكة قاسية ، ودمعة قاسية ، أردد نفسًا أعمق من الأبد ، أدفع الشكوى في نحر الهواء . لا أنيس لي غير سكون الفضاء ، وأنين الصدى ، وذلك القلب الواهن الخفوق ، الذي أذوته الحوادث العاصفة ، كما يذوي الحر أوراق الغصون . لم أنس إذ قبلتني وأنت في ساعدي فامتصصت روحي في قبلتك ، كما يمتص الرضيع اللبن من ثدي أمه ، ونظرت إليّ وقد انعقدت في وجهك ابتسامة كلها حنان ودعابة ، فوقعت لحاظك المصقولة عليّ وقوع قطرات الرحمة على النفس الصادية المجدبة ، وفي عينيك هالة يرقص الحسن فيها ، كما يرقص القمر على صفحة الماء ، ثم تزايلت في الفضاء وقد بسط الليل أجنحته السوداء وصبغ الهواء بمداده فبقيت كما قال رختر : أنا والليل ، ثم سمعت في القلب ضربات لم أدر أدقات الساعة أم نبضات قلب الدهر ، أم هي ضحكاته من غرور الإنسان ، أم هي تنعي إلى المرء نفسه أم هي تذكرة بالموت وحث على التقوى ... ياعدو الرحمة ما وقعت لحاظك علي إلا لتهيج للقلب شجواً قد وأدت الحب في ريعان شبابه ، ووقفت ترقص على قبره مرحًا ودلالا .

لا عتاب . أنت الذى أسلفتني الأمل ، وأنت الذي سلبتنيه ، والأمل كالحرباء كثير الألوان .

الذكر والأماني

الذكـر والأمـاني صنوان لزاً(*) في قرن . غير أن باعث الذكر التعلق بما مضى ، وباعث الأماني الرغبة فيما يستقبل . ومن أجل ذلك ، كانت الأماني أقرب إلى خاطر اليافع ، وأحب إليه من الذكر . لأن عيشه مقتبل ، ولم يزعجه مما تقع به الحوادث الكارثة ، ما يخفض من غلواء طموحه ، وتعلقه برغائبه . أما الشيخ الهرم ، فقد لقى من الطارقات ما تركه فقير الأماني ، غني الذكر ، والأماني إذا استثيرت كانت كالنار ، يتبع شبوبها خمودها ، وإنما يستثيرها الطموح .

إن كل أصناف النعيم الزائل تثير الذكر الغر فينبعث اللسان بالكلم الرقيق ، فهو تارة يناجي الزمان الخالي ، وينشد فيه لذاته ، وتارة يتوجع من فقدانها ، وتارة يسألها الرجوع إلى ما عهد منها ، ألا يجول بخلدك إذا قرأت قول ابن زريق :

بالله يا منزل القصـر الذي درست ... آياته وعـفت مـــذ بنت أربعـــة
هل الزمـان مـعـيـد فـيك لذتنا ... أم الليـالي التي أمـضـتـه ترجـعـه

إن تلك الليالي وذلك الزمان الذي عمرته لذاته ، قد صار جزأ من نفسه وشيئًا من حبة قلبه، فهو لا يستطيع أن يكون بمنأى عنه وليس هو براغب في ذلك ، ولكنه لو رغب ما وجد إلى رغبته سبيلا . وكيف يمل صحبته وهو خلاصة حياته . وأحق شيء منها أن يفدى من سلطان النسيان .

على أن الذكرى لاتكون إلا بعد سطوة من سطوات النسيان . فإذا كان النعيم الخالي حاضر الذكرى في ذهن المرء ، لم تكن ذكراه خليقة أن تدعى ذكرى . وفي مثل ما نعني ، يقول الشريف الرضي :

وقـال تذكـر هذا بعـد فـرقـتنا ... فـقلت مـا كنت أنسـاه لأذكـره

وهناك نوع آخر من الذكر ، لا يكون إلا إذا كان المرء في حال بينها وبين تلك الحال التي وقع له فيها النعيم الزائل صلة ، فإذا أسعده النعيم في ليلة الاثنين مثلاً ، ذكر هذه الليلة حين تعود في كل أسبوع وفي مثل ما نعني يقول ابن المعتز :

يا ليلة نسي الزمـان بهـا ... أحـداثه كـوني بلا فـجـر
باح الظـلام ببـدرها ووشت ... فـيـهـا الصـبـا بمواقع القطر
ثم انقـضت والقلب يتـبـعـهـا ... في حـيث مـا وقـعت من الـدهر

---

* جاء في تارج العروس مادة «لزّ» : اللز:الطعن كالكز . واللز : لزوم الشئ بالشئ وإلزامه به «المحرر».

(يعني بقوله وشت فيها الصبا بمواقع القطر ، أن القطر إذا وقع على الأزهار ذات الرائحة الطيبة ، أخرج تلك الرائحة ، فتأتي ريح الصبا تحملها إلى كل مكان . فكأنها تشي بالأزهار، وتبيح سرها المعطار) .

الذكر نوعان : ذكر النعيم الزائل ، وذكر الشقاء الزائل . أما ذكر النعيم الزائل ، فإنه يبعث ابتهاجًا في النفس . لأن ذلك النعيم كان من نصيبها ، ويبعث أسفًا لأنه لم يدم لها ويختلف مقدار الابتهاج ، ومقدار الأسف ، أما ذكر الشقاء الزائل ، فإنه يبعث الابتهاج للخلوص منه ، والأسف لأنه حدث والخوف من أن يعود .

الذكر أشباح وأرواح تعمر الخاطر الخرب فتثأر لذلك العهد الميت . أيها الزمان الخالي ، لشد ما نعاني من ذلك الحجاب المنوع الذي تضعه بيننا وبين لذاتنا البائدة ، وأحبابنا الألى ذهبت بهم حوادث الأيام كل مذهب . ولكنك لا تعلم أيها الغصوب أنك تحجب عنا أجزاءنا وأشياء من حنيات قلوبنا . على أننا نستعين بالذكر والأماني ، في إزاحة حجابك وهي قديرة على إسعادنا .

منى إن تكن حقًا تكن أحسن المنى ‌ ‌ ‌ ‌ وإلا فقد عشنا بها زمنًا رغداً

الطموح يثير الأماني ، وقد تثيرها الأشياء التي تذكر المرء رغبته كما قال الشاعر :

ولما نزلنا منزلا طله الندى ‌ ‌ ‌ ‌ أنيقًا وبستانًا من النور حاليا

أجد لنا طيب المكان وحسنه ‌ ‌ ‌ ‌ منى فتمنينا فكنت الأمانيا

إن الذكر تثير الأماني . والأماني تثير الذكر ، لأنك إذا ذكرت النعيم الزائل ، وددت أن تقع على مثله ، فتهيئ لنفسك أسباب الطموح والبلوغ إليه . ثم إذا كنت تناجي الأماني ، كانت تلك المناجاة عاملاً في تذكيرك بمثل أمانيك ، أي بالنعيم الزائل .

إذا عمرت الذكر والأماني نواحي الخاطر ، كان كأنه معبد مقدس يبعث الإجلال والوقار والخشوع فى النفس . أليس الذكر موصولا بالنعيم البائد ، وهو ميت ، وأي نفس لا تخفض من جماحها وخلاعتها عند ذكر الموت .

إن الإنسان إذا مات ، أقيم له تمثال يجعله متردد الحضور في الذهن ، كلما رآه الرائي . وكذلك الحادث إذا مات ، كان الذكر تمثاله الذي يستجليه من قبر النسيان .

قال الشاعر شلي (النعيم إذا مضى استحال إلى ألم) . يعني أن الذكر يبعث الحسرة على فواته ، ولكنها حسرة لذيذة رقيقة معسولة ، تتمشى في الخاطر كما يتمشى النسيم البليل على وجه التعب .

ولم أجد أحداً شعر بتلك الصلة المتينة التي بين الذكر والأماني ، مثل ما شعر بها الشاعر العربي عنترة حيث يقول :

ألا قـاتل الله الطلول البـواليـا   وقـاتل ذكـراك السنين الخـواليـا

وقـولك للشيء الذي لا تنالـه   إذا أبصـرته العين ياليت ذاليـا

لم يحمد الشاعر الطلول ؛ لأنها تذكره بمن كان يعمرها ، وبتلك الليالي والأيام التي قضاها في أحسن حال حين كان الخطب . مأمون الطروق ، مخفوض الجناح ، ولم يحمد ذكري السنين التي مضت لأنها كانت لباس لذاته أيام كان وفاء الأصحاب والأحباب يسعده . أيام كان النعيم مضروبة قبابه عليه . أيام كان الحسود متعبًا من حمل ثقل الحسد . ثم إن الشاعر لم يحمد في البيت الثاني الأماني لأنه يحسبها خدعة وعناء ، ولكن من النفوس نفوسًا تسكن إليها ، وتتخذها علالة . أما جمع الشاعر بين الذكر والأماني فسببه عرفان أن الأماني تثير الذكر ، والذكر تثير الأماني .

وقع الأقدام

وقع الأقدام هو شعْر (بكسر الشين) الأرجل . فإن فيه من بلاغة التعبير ولطف التفهيم ما في نبضات القلب . ووقع الأقدام هو للأرجل بمنزلة تلك النبضات للقلب . فتارة يخفق القلب فرحًا وتارة يأسًا أو أسفًا أو أملاً ، وكذلك الخطا ، تارة تنم عن جزع ، وتارة تنم عن فرح أو أمل أو ندم أو جبن . أليست خطا الجبان في الميدان دليلاً عليه ، أليست خطا العاشق قصيدة من قصائد النسيب ؟ أليست خطا الجازع تبين عن جزعه ؟ أرقت ليلة فجلست قرب النافذة ، وجعلت أتسمع وقعات أقدام المارة ، وكنت أجد في سماعها لذة تلهيني عن الأرق ، وكانت تحدثني أحاديث شتى عن يأس اتخذ الليل لباسًا ؛ يضرب برجليه الأرض ؛ كأنه يريد أن تسكت وقعات خطاه ضجيج اليأس فى صدره . وعن العربيد الذى تحكي وقعات أقدامه أنشودة هوجاء مثل أناشيد الريح ، وقد أمالت الأغصان . والمجنون الذي تحكي وقعات أقدامه نبضات قلب المحموم ، أو كأنها غلام أخرق يضرب بالطبل . والآمل الطموح ، الذي يكاد لا يلمس الأرض فتحكي خطاه خطا الراقص المرح . والشاعر صاحب الخيال المستفز ، يكاد يسمع صدى وقعات أقدامه في عالم الخيال ، ويخشى أن يخرج صداها قبة السماء . وصاحب الخيلاء الذي يحسب أنه يتصدق على الناس بخيلاته . والزمن الذي يسعى برجل عرجاء فلا تسبقه الريح ، والأيام التى تحكى وقعات أقدامها دقات الساعة . وخطا الغيد تتلو على سمعك لحنًا مهذبًا شجيًا كأنه أوزان الغزل والنسيب . أو ما سمعت أيها القارئ وقع أقدام الموت في دار جارك ، وقد حل به القدر المتاح فحكى لك قصيدة فى الرثاء ؟ أو أنين الريح فقل لمن يرى ظلام الموت ولا يرى جماله أن هذا الظلام الذي تراه ، هو لون أستاره ، ودون هذه الأستار الجمال الجم .

إن هذا الكون العظيم ، ليتلو على المرء في كل حادث من حوادثه الصامتة الناطقة نغمة من نغماته . هذا الكون قلب عظيم ، نبضاته وقع أقدام الحوادث . كل نبضة منها تبلغ أقصى نواحيه فتتخفق لها جوانبه . كما تخفق الضلوع . والوجود دائرة ليس لها محيط فإذا لمست أية نقطة منه كان لك أن تقول إنك لمست مركز الدائرة .

وأنت أيها القاريء ، فيك تلتقي الحوادث الماضية من قديم الزمن . فيك تلتقي الدول والأمم . فيك يلتقي الشرق والغرب . فيك تلتقي الأنظمة والآراء . فهى طرق كثيرة تؤدي

إليك . أنت أيضًا مركز دائرة الوجود ، أنت لولا الحوادث الماضية من سياسية واجتماعية وطبيعية ، لولا الحوادث التي حدثت في هذا الوجود الذي لا حد له ، لما كنت كما أنت الآن .

أما سمعت أيها القارىء خطا الغيب يطرق من وراء حجاب ، فراعك سماعها ولجأت إلى عمل ساعتك كي يلهيك عن سماع ذلك الطارق المهيب . الأقل لمحتقر الحياة الراغب عن عمل يومه ، المشرئب بعنقه ليسمع وقع أقدام الغيب ، أيها الراغب عن ساعتك ويومك وحاجة عمرك لم تتعرف ما لم يأتك به . الغيب أليس ذلك السحاب الذي وراؤه الغيب والقدر إذا قاربك كان هو الغيب والقدر ؟ لم يروعك المجهول من الحوادث . أليس المعروف منها أدعى إلى الروع من المجهول .

إني ليخيل لي في بعض أحلام اليقظة ، أن الآخرة في مكان قريب من هذه الدنيا . فأكاد أسمع ضجيج أهلها ، ووقع أقدامهم ، فأرمي الفضاء باللحظات ، كالمشوق الذي يحسب أن حبيبه على كثب . فأحسب أني أرى الآخرة بلحظاتي ، فلا أرى غير هذا(*) الناس .

ألم تنصت إلى الربيع القادم وقد بلغ الشتاء مبلغه .

أتاك الربيع الطلق يختـال ضاحكًا ... من الحسن حتى كاد أن يتكلما

فسمعت وقع أقدامه وكأنه حسناء في ساقيها الخلاخيل ، تسمع رنة أجراسها في تغريد العصافير . والصباح ألم تسمع وقع أقدامه ؟ إنما الصباح أخو الربيع الأصغر ، قد عني به الربيع فعلق في ساقيه من خلاخيله تحببًا إليه . ألم تسمع رنات أجراسها ، وقد صدحت الطيور فى الفجر ، وقد هب النائم من مضجعه، ورأى مطلع الشمس فحسب أن الكون يخلق مرة جديدة .

زرت المقابر فى ليلة من ليالى الشتاء ، فخيل لي أني أسمع أقدام الموتى . فصرت أتلفت لأرى تلك الأقدام التي أسمع وقعاتها . ثم عوى الريح فى زوايا القبور ، فحسبته أنين الموتى، فجعل الخيال المشبوب يُملي على وأنا أكتب :

ألا أن للموتى لصوتًا كأنه ... خرير المياه الجاريات على الصلد

ويحكي حفيف الغصن في لين وقعه ... وطوراً كأصداء الطبول على بعد

ويعول أحيانًا كاعوال ثاكل ... رمتها صروف الدهر فى الولد الفرد(١)

---

* هكذا فى الأصل .

١ – من قصيدة (صوت الموتى) فى الجزء الثانى من ديوان المؤلف .

إنه ليخيل لي أن الأطفال يسمعون وقع أقدام الملائكة . ألم تر طفلا يصغي إليها فحسبته يصغى إلى غير شيء .

ألم تسمع وقع أقدام الأفلاك في دوراتها ؟ هل سما بك الخيال مرة بين الشمس والقمر ، والنجوم فسمعت تلك النغمات الفضية التي تطلقها خطا الأفلاك فى دوراتها ؟ أم هل غبت مرة عن هذا الكون ، وجعلت ترخى للتفكير عنانه حتى حسبت أنك كائن فى غير هذا الكون ، وقد خيل لك الوجود الذى لا جد له ، وهو يخطو فى الفضاء فسمعت وقع أقدامه ؟ آه ما ألذ تلك السويعات التى يطلق المرء فيها من رق هذا الوجود ، فيصير وجوداً كائنًا بذاته .

كلمة
في الضحك والبكاء

قال الشاعر بيرون المرء أرجوحة بين البكاء والضحك

وإنما المرء ضحكة ودمعة . والحياة دمعتان : دمعة تراق عند البكاء ، ودمعة تراق عند الضحك . والعاقل من جعل حياته ضحكة واحدة أو دمعة يريقها عند الضحك ، ويضن بها على البكاء ، فيسكن البيت الضاحك المشمس ، ويرغب في الصديق الضاحك .

الضحك عدو الهم . وكما أن القنبلة تبعث الوجل في قلب الجيش ، كذلك الضحكات تفزع الهموم .

وأوجع البكاء بكاء الرجل . أما بكاء الغلام فقد لا يحز فى قلبه . فإنه دامع العين ضاحك القلب . حدثنى صديق قال : بكيت مرة وأنا صغير ، ولكنى كنت مشغولا عن بكائى بالتفكير فى غير شئ ، ولقد بلغ بى ذلك التفكير الطائش منزلة لم أكن أعرف فيها أنى أبكى . أما الرجل ، فإنه إذا بكت عينه ، بكت عواطفه وبكى قلبه .

كل شئ فى الوجود يضحك . فالرعد يضحك . والريح الهوجاء إذا أنّت ضحكت والخرير يضحك . والضوء يضحك . واللون يضحك . والحسن يضحك . والصديق يضحك . والزهر ضحك . والربيع يضحك . فقد قال البحترى(١):

وجاءَ الربيع الطلق يختال ضاحكًا   من الحسن حتى كاد أن يتكلما

والمشيب يضحك فقد قال دعبل :

لا تعجبى يا سلم من رجلٍ   ضحك المشيب برأسه فبكى

والأرض تضحك . فقد قال الشاعر :

(تضحك الأرض من بكاء السماء)

وإنى أكاد أقول إن الضحك بكاء ، والبكاء ضحك . ألم يضحك الإنسان فى الشقاء ؟، ألم يبك فى النعيم: أما ضحكه من الشقاء، فادعه إذا شئت الضحك المر . أو الضحك الباكى،

---

١ - جاء البيت في ديوان البحترى

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكًا   من الحسن حتى كاد أن يتكلما

انظر مقدمة المحقق حسن كامل الصيرفى لديوان البحترى ، ط . دار المعارف ١٩٦٣م ، ص ١١ . ١٢، والجزء الرابع ، ص ٢٠٩٠ . « المحرر»

أو الضحك الحزين . أو الضحك العابس . أو البكاء المتنكر . وأما بكاؤه من النعيم ، فادعه إذا شئت البكاء المشرق ، أو البكاء الضاحك ، أو البكاء العذب .

وللمعانى والأحوال ضحكات فلليأس ضحكة ، وللحقد ضحكة ، وللأمل ضحكة ، وللظفر ضحكة وللحب ضحكة . ومن العظماء من نبه ذكر ضحكته ، وذاع صيتها . فإنهم يقولون فى ضحكة الاحتقار ، ضحكة مثل ضحكة بيرون ، وفى ضحكة الأمل والاستبشار ضحكة مثل ضحكة جيتى .

الغناء ضحك والموسيقى ضحك . غير أنه ضحك موزون مهذب شجى .

وإن لأحوال الحياة ضحكات ، فالنعيم يضحك لأنه يخدعنا . والشقاء يضحك ، لأنه يشمت بنا . كذلك للحرارة ضحك ، وللبرودة ضحك . غير أن ضحك الحرارة ، مثل ضحك الشبان ، وضحك البرودة مثل ضحك الشيب . ضحك الأطفال مثل تغريد العصافير ، وضحك النساء ، مثل صوت الحلى . وضحك الرجال ، مثل صوت الرعدة فالأول ينم عما يكنه من الطهارة . والثانى ينم عما يكنه من الرقة ، واللطف والحنان . والثالث ينم عما يكنه من الثبات والعزم . الرجال يلتذون الضحك أكثر من الأطفال ، لأنهم زاولوا مصائب الحياة ، وكما أن الراحة أحسن ما تكون بعد التعب . كذلك الضحك أعذب ما يكون بعد مزاولة أمور الحياة، والرجال أقرب إلى الضحك من النساء لغلظ إحساسهم ، ورقة إحساسهن . فإن رقة الإحساس، ثغرة يهجم الهم منها على الإنسان .

الضحك العذب خير من البكاء . وكذلك الضحك المر أفضل من البكاء المر . لأن فى عنصر الأول شيئًا من احتقار المصائب ، وهذا أليق بالعزيز النفس ، وبه أبرّ . وإن فى الناس من يضحك فتحسبه يبكى . ومن يبكى فتحسبه يضحك . وهذا أشقى الناس . لأنه لا يقدر أن يخلط نفسه بنفوسهم ، وشعوره بشعورهم . وإن من الناس من يستجلب منظره لآخر الضحك ، كما قال المتنبى فى كافور :

ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة ليضحك ربّات الحداد البواكيا

ومن رحمة الله أن المرء مهما كرثه الشقاء قادر على الضحك ، فإذا تكلف الضحك ، خرج ضحكه سقيمًا فاتر الصوت ، مكذوبًا . ولكنه إذا لجَّ فى هذا الضحك المكذوب الحزين ، انقلب ضحكًا مجنونًا غالبًا ، لا سبب ولا حد له . هذا من رحمة الله بالناس .

نظرُ الشاعر إلى الطبيعة
﴿ فى النعيم والشقاء ﴾

إذا كان لك من المقدار سلطانه الذى يصول به ، لم تقدر أن تمنع الشاعر من أن يفرغ ما يثور به صدره . أتحسب أن الغريد إذا ضمته أسلاك القفص كانت ما نعة إياه الغناء العذب ، أو أن الشقاء إذا حنيت عليه أضالع الأديب أسكتته . إن البلبل إذا أطلق نغماته وهو آخذ بأطراف النعيم بين الأشجار والأنهار ، كساها الجلال جلبابه ، ونشرت حولها الطلاقة هالتها . أما إذا جاد بها وهو فى سجنه ، كانت كأنها لابسة حداداً ، أو كأنها صوت المريض المودع عواده ، فتثير عواطف الرحمة والخشوع ، ويكون جمالها فى هذه الحال مثل جمال السحب التى طرزت أطرافا أشعة الشمس الذهبية . فكأنها البرد الأسود المزركش ، الذى يجمع بين اللون العابس واللون الضاحك .

قد ضمن المتنبى فى نفسه من المرارة وسوء الظن بالناس ، ما يضمره كل من قصر عن إدراك آماله وأطماعه . ولكن تلك المرارة ، لم تكن داعية إلى إضعاف لذة التغريد . فإن من قيد البحث بنفوس الشعراء ، علم أن المرارة لا تمحو تلك اللذة ، وإنما تكسبها ألمًا لذيذاً ، ولو أننا أردنا أن نصف جمال شعر الأديب البائس ، لما وصفناه بأبلغ من قولنا الجمال الحزين ، أو البهاء العابس . فإنك إذا رأيت حسناء بلغ منها المرض مبلغًا عرفت أن ماء الحسن جائل فى أنحائها ، ولكن الألم يكسبها رقة ولطفًا غير رقتها ولطفها . كذلك نغمات الشاعر الذى تملكه الشقاء .

أليس عجيبًا أن ذلك الشاعر الأبى ذا الأمانى الضخمة الذى يقول :

وكل ما قد خلق الـ ـلـه وما لم يخلق
محتقر فى همتى كشعره فى مفرقى

يعرف كيف يتودد ويتحبب إلى الأسد حيث يقول :

أجارك يا أسد الفراديس مكرم فتسكن نفسى أم مهان فمسلم
ورائى وقدامى عداة كثيرة أحاذر من لص ومنك ومنهم

فــهـل لك فى حلفى على مــا أريده فــإنى بأســبــاب المعــيــشــة أعلم
إذاً لأتاك الرزق من كل وجـــهـــة وأثريت ممـــا تغنمين وأغنـــم

ألا يجول بخاطرك أيها القارئ أنّ قائل هذه الأبيات قد استعار براعة السياسى المدرب ، والسفير الحكيم رسول الصلح .

إذا سمع الشاعر الحزين ، غريداً يرسل النغمات العذاب التى يخفق لها القلب خفوق الثوب فى مـهب الريح ، زعم أنه ينوح من أجل شـقـائه . وإذا رأى الورد يقطر بالندى ، حسب أنه يبكى عليـه . وإذا رأى النهر يتـدفق قـال إن خريره من أنينه ، ومـاءه من بكائه . وإذا سمع الريح الهوجاء قـال : إنها خلست هياجها وقلعها من هياجه ، وقلقه . وإذا عانق النسيم أوراق الغصن الزاهى ، حسب أنه استعار حنينه . وإذا رأى السحب ترخى على السماء ستراً ، قال إنها مقدودة من همومه وأحزانه . أما القطر ، فهو من آماقه والظلام حداد الليالى عليه . والنجوم جمرات أشجانه وأشواقه . ثم لا يبقى شيئًا من أعضاء الطبيعة ، حتى يجعله من خدامه واتباعه ، مثل ذلك قول الشاعر الأندلسى :

علىّ وإلا مـــا بكـاء الغـــائم وفىّ وإلا مـــانواح الحـــمـــائم
وعني تطيـر الريح صـرخـة طالب لثـأر ويبـدى البـرق صـفـحـة صـارم

يابن آدم أكـثر أنانيـتك وإعـلاءك لشأن نفسك وإعـجابك بهـا . ومـا أكـثر غـرورك وأنت الضئيل الحقيـر . إن للطبيعة وأجزائها لشؤونًا إذا استعرضتـها لحق الهزال شأنك . تقول إن الطير يبكى على مصرعك وهو يتغنى بالغزل الرقيق . وتقول إن السحب مقدودة من همومك ، وهى تملأ وجه السماء لترضع بناتها الأزهار من لبانها . فإذا شئت رأيت أن أجزاء الطبيعة ، ملؤها الجلال والحب والحسن والرقة . فكيف ترضى لنفسك أن تكون ملؤها الدناءة والقساوة والطمع ، إذا كنت لا تستمد شرف النفس وجلالها من الطبيعة ؟ فدع هذه العروس مطمئنة فى خدرها ، ولا تفسد هواءها بأنفاسك الخبيثة ، ونظراتك اللئيمة ولا تدنس أرضها المقدسة بقدمك التى لا تسعى إلا إلى إرضاء شرهك أو بغضك أو دناءة نفسك . فأنت كالحشرات التى ترود فى جنباتها .

لقد كـان القدمـاء أصدق منا نظراً فى الأمـور ، لأنهم لم تتـملكهم الأنانيـة كما تملكتنا . فزعمنا أن الطبيعة ليس لها حياة مثلنا ، ألا يرى المرء فى كل ورقة من أوراقها من المعانى

أشياء كثيرة ؟ أليس ذلك لأن لها حياة أجل من حياتنا التى ليس فيها من المعانى سوى الإحساس بعبثها ؟ وسبب ذلك أن حياتها بالرغم من تغاير أطوارها مطمئنة . وأما حياتنا ، فهى أسيرة البغض والحسد واللؤم . انظر إلى الطبيعة ترى الأرض تعانق الضياء ، والضياء يغازل الماء ، والغصن يميل على الغصن ، والموجة تتسرب فى خلال الموجة . فهما أولى ببيت اسماعيل باشا صبرى :

كأن صديقًا فى خلال صديقه تسرب أثناء العناق وغابا

ثم انظر إلى الناس ، تر كل فرد يرمى الآخر بعين من تلك العيون التى يقول فيها أبو تمام :

يرمونني بعيون حشوها شزر نواطق عن قلوب حشوها مرض

أو التى يقول فيها البحترى :

وفى عينيك ترجمة أراها تدل على الضغائن والحقود

لقد صدق البحترى ، فإن العين لا تخفى معانيها ، فهى تارة حشوها أمل وتارة يأس ، وتارة حشوها حب ، وتارة حشوها بغض ، وغير ذلك من المعانى .

قلنا : إن القدماء كانوا أحسن منا نظراً فى الأمور ، لأنهم كانوا إذا نظروا إلى الطبيعة ، نظروا إلى حى جليل ملؤه المعانى البليغة . ومن أجل ذلك ، كانت تبعث فى نفوسهم الإجلال والخشوع ، أو الصبابة والاستعبار والحب . وكل هذه معان من معانى العبادة . فما أخلقهم بعرفان ما نجهله من أسرار العقيدة الصحيحة .

وقد اختلف الشعراء فى نظرهم إلى الطبيعة ، فكان الشاعر شلى يرى أنها وعاء للحب والعواطف الرقيقة .

أما وردز وارث فقد كان ينظر منها إلى تغير حالاتها ، واختلاف أنواعها ، حاسبًا أن ذلك صادر عن حسن تفكير . أما هومير الشاعر اليونانى ، فقد كان يرى فى جلالها ما هو جدير بالتقديس والعبادة .

وكان ولتر سكوت يرى فى حياتها استقلالاً عن حياتنا . وإنك لتجده فى شعره يلحقها بغيرها من الأشياء ذات الحياة . وقد سلك البارودى فى هذا الباب ، مسلكًا حسنًا حيث قال :

وإن مررت على الروحاء فامرلها أخلاف سارية هتانة الديم

من الغزار اللواتى فى حوالبها رى النواهل من زرع ومن نعم

١٧٣

ألا ترى أنه جمع بين الزرع والنعم جاعلاً شرب الحيوان ، مثل شرب النبات . وفى ذلك من شرف الخيال ما يستعصى على أولئك الشعراء الذين يتضاءلون أمام العظماء ، تضاؤل أعقاب لفائف التبغ فى عين الشمس .

رسول الأمل

يقول الناس : إن رغبة المرء فى الحياة تعظم إذا عظم النعيم ، وتقل إذا تضاءل . زاعمين أن النعيم هو الذى يربط المرء بالحياة ، ويرغّبه فى البقاء . ولكن هذا وهم . فإنه يربط المرء بالحياة روابط تختلف حسب اختلاف أزمان الحياة وأحوالها . ففى الصبا : يربط المرء بالحياة روابط الأمانى ، فإذا تملكه الشقاء كان غير مباليه طموحًا إلى ما يستقبل ، وانتظاراً لمؤاتاة النعيم . وفى الرجولة ، يربط المرء بالحياة روابط السعى والعمل ، وانتظار نتيجة مساعيه والتذاذها . وإن المساعى لتكاد تشغل الرجل عن لذات الحياة ، وهى التى تلتمس فى الأهل والأصحاب والشعر والجمال والغناء . فيكون حاله مثل حال الرجل الذى يسرع فى طريق ينبت على جانبيها الغرس الكريم ، والثمر الطيب ، والزهر البهى . فإن سائقًا من الأمل يعجله عن أن ينعم بها رغبة أن يصل إلى ماهو خير منها . حتى إذا بلغ من الطريق غايتها لم ير غير أرض خلاء . ولو أحسن الإنسان نظره فى أمور الحياة ، علم أن أفضل لذاتها ، ما يكتسب من الأهل ، والأصحاب ، والشعر ، والجمال والغناء ، وغير ذلك من الموارد ذات اللذات الشريفة التى تعلو بالنفس عن الفناء ، فى عبادة درن(*) الحياة .

إنى لست ناصحًا للرجل أن يهجر مساعيه ، وإنما أريد منه أن يقصر من غلواء اندفاعه فيها ، حتى يقدر أن ينعم بلذات الحياة . أما إذا بلغ المرء من حياته منزلة الشيخ ، كان التذكر هو الذى يجعل له فى الحياة رغبة ، لأن كل شئ مضى منها قد صار جزءاً من نفسه .

مثل هذه النفس مثل الطفل ذى الخلق الجامح ، لا يهدأ حتى تضع فى فمه قطعة من الحلوى . وكذلك النفس لا تروضها بأحسن من أن تغذيها بالأمل ، ولو كان ممنوعًا مصدره ، مخلوقًا أكثره . غير أن أبهى وأعظم مايكون الأمل إذا كان المرء فى حال من أحوال الشقاء فهو ، كما قال البحترى :

كالكوكب الدرى أخلص ضوءه   حلك الدجى حتى تألق وانجلى

قال الفيلسوف باكون : (الأمل يطيل الحياة إذا لم يكن مخلوقًا فى كل حادثة) . على أنه مثل الجلد إذا كنت فى حال لا يتسع لها قدره ، أمكنك أن تطيله ، وهو مثل الحبل الذى يربط السفينة إلى جانب المرفأ ، والنجم الذى يهتدى به السائح ، والأثر الذى يقفوه العربى ، والسراب الخلوب ، والدرع الحصين .

---

* الدّرن : الوَسَخ ، وقيل : تلطخ الوسخ « اللسان »   « المحرر » .

ويقول العامة : إن أولاد يعقوب لما رموا أخاهم السيد يوسف فى الجب ، بعث الله له ملكًا من الملائكة الكرام يتلقاه فى أسفل الجب ، وإنى لأحسب أن ذلك الملك هو الأمل .

لم يجتمع فى شئ من الأضداد ما اجتمع في الأمل . فهو جليل حقير ، كبير صغير ، قوى ضعيف ، قادر عاجز ، بل هو الطبيب الذى عنده لكل داء دواء . بل هو الحديقة التى تنبت أنواعًا شتى من الأزهار والفواكه . بل هو البرق فى السحاب . بل هو مقذاف فى يد الغريق . والأمل مثل حجر الفيلسوف الذى يغير عناصر الأشياء ، فإذا مس الحديد صار ذهبًا . وكذلك الأمل إذا مس الشقاء جعله نعيمًا . وهو مثل المصباح ذى الدهن المعجون بالطيب يبعث نوراً يستضئ به العقل ، وحراً تصطلى به الضلوع الباردة من اليأس ، ورائحة زكية تسرى فى أنف الناشق التعب . فكأنها أنفاس المسيح التى كان يحيى بها الموتى .

ولكن خليقًا بالمرء أن يحذر الأمل من حيث يأمنه لأنه إذا علق آماله بالمستحيل ، كان مثل الرجل الذى بنى بيتًا على أساس ضعيف ، فلما احتواه البيت تهدم فوقه فصار قبره .

على أن تأثير اليأس فى النفوس ، يختلف حسب اختلاف طبائعها . فإنه يبعث الألم والشقاء فى بعضها ، ويبعث الراحة والكسل فى بعض .

إن بعض الناس ينصب لنفسه الأمانى ، وهو يعرف أنها علالة حتى إذا أخذت بلبه خادع نفسه ، وجعل يتطلب تحقيقها ، ويذل عقله لسلطانها ، فهو فى هذه الحال مثل الوثنى الذى ينصب صنمًا من عمله ثم يعبده . أو كالأمة التى تضع فوقها ملكًا من صنعها حتى إذا استبد وطغى ، استذلت أنفسها له زاعمة أن له حق الاستبداد بها . على أنه لو لم يكن فى الأمانى إلا أنها إذا تعلل بها المرء الذى نزل به الشقاء ، خلقت لشقائه أجنحة يطير بها ، لكفاها ذلك مقرظًا لها .

إن الإنسان ليستضيف الشقاء بأن يأمل السعادة الكاملة ، لأن مساعيه المهزومة تفتح عليه أبوابًا وتجلب إليه ضروبًا من الهموم ، وإن رجاء المرء السعادة الكاملة ، مثل رجاء الغلام أن يقفز فوق ظله إذا رآه منبسطًا أمامه .

على أن سعادة الإنسان موقوفة على سياسة الإنسان للأحوال التى تحوطه قال أنطونينس (إذا أردت أن تعيش سعيداً ، فكن أكثر شبهًا بالمصارع منك بالراقص ، فإن ثبات الأول ينفعك ، من حيث تضرك خفة الثانى ، ورشاقة وقفته) ولكنى أقول : إن المرء فى حاجة إلى الوقفتين : وقفة المصارع ، ووقفة الراقص . فينبغى له أن يتعرف الحال التى هو فيها ، ثم يلتمس الوقفة التى تنصره عليها .

الإيمان بالحياة

في ليلة من ليالى الدهر اذكرها ما وقعت علىّ مثلها وعادت بذكرى ذلك الإحساس الذى جعلنى أكتب هذا . قمت من النوم فزعًا وإشفاقًا على تلك الشعلة التى يخشى خمودها ، تلك الحياة التى نجلها ولو كان ملؤها الشقاء . فكم من حزين لم يدع له الدهر نعيمًا إلا سلبه . يتعلق منها بخيط الأمانى ولو سألت رجلا جمع فى شخصه ثلاثة فكان المقعد الأصم الأعمى عما يرى فى الحياة من النعيم لقال بأن فضيلة البقاء فى البقاء . لأن فى الحياة لذة ليست من تلك اللذات التى تملأ أوقاتها ، بل هى حقيقة فى نفسها كائنة بنفسها .

سمعت فى تلك الليلة صوت النادبات عن قرب فامتلكنى الفزع ، فجعلت أرفه عنى بالتفكير ، لأن فيه حياة أحسن من الحياة بل هو الحياة . ثم تدليت من النافذة ، فأخذت وجه السماء بنظرة حائرة ، فإذا هو وجه سقيم ، مثل وجه المرآة إذا نظر إليها الحزين .

وقد يأخذ علينا هذا من يقول إن الطبيعة هى التى تطبع على المرء صورتها الحسنة أو القبيحة ، فتعين إحساسه أن يكون ابتهاجًا أو امتعاضًا . ولقد كاد يكون هذا القول حقًا فى جميع حالاته ، لولا أن الإحساس درجات ، وقد يبلغ بالمرء درجة يمتلكه فيها فيقيس به الأشياء ، ويحكم عليها بحكمه . وقد يسلك الإحساس بالمرء مسلك الحزن حتى ينتهى به إلى هذه الدرجة ، فيريه الحسن من الطبيعة قبيحًا.

من سودت نار الجوى عيشه يسود فى عينيه ضوء الضحى

وإذا سلك الإحساس بالمرء مسلك الاستبشار أراه كل شئ من الطبيعة حسنًا .

على أن جمال الطبيعة قائم بذاته ، مهما اختلفت هيئاته وتباينت صوره ، فليس الليل المقمر أو الروض الأخضر أو اليوم الأزهر بغمط على بهاء وجلال الليل الخدارى ، والدجن المستقر . وجعلت هذه الأفكار تترد فى ذهن .

كتردد الآمال فى خلد الطموح المسترى

فأحدثت عندى اندفاعًا إلى معرفة المجهول من أمر الحياة الذى هو مفتاح أسرارها ، والذى نحوم حوله ولكنا لا نصل إلى مركز الدائرة منه . ولكن أين أنا منه ، وقد اخطأه الباحثون والعلماء وسألت نفسى عن تلك الحياة الجديدة التى أحسست بها ، فعلمت أن ذلك الإحساس

هو البرء من الداء ، فإنا نقضى أكثر العمر فى غربة عن أنفسنا ، فلا نرجع إليها حتى يردنا إحساس بكارث دخل علينا أو على غيرنا . نحن نعلم أننا أحياء ولكنا لا نؤمن بالحياة . ثم إننا نخادع أنفسنا ونزعم أننا نؤمن بها لأننا نحسب أن معنى الحياة التنفس ، ولو أنصفنا الحق لعلمنا أنه الشعور بأعباء الحياة ، وما تتطلبه من القلق ، من أجل اختلال شؤونها وما يحث عليه ذلك القلق من الدأب فى إصلاحها .

إنى نظرت فى أحوال هذا الجيل الذى نعيش فيه ، فوجدت أن سالف الدهر على ما به من ظلمة الجهل ، وما تضمره من الشر ، أحب إلىّ من هذا الدهر الذى يدعونه عصر العلم والسكينة ، لأن الأولين كانوا إذا عرفوا شيئًا آمنوا به ، ولكنا نعرف ولا نعتقد . وربما قال قائل : إن العلم بالشئ هو الاعتقاد به ، ولكنا لا نقف معه فى هذا الوادى ، لأن العلم بالشئ لا يصير اعتقاداً إلا إذا امتلأ من الإحساس .

ثم إنى نظرت فى فقدان ذلك الإحساس ، فعلمت أن سببه اندفاع الأولين فى سبيله . فقد بلغ منهم الإحساس مبلغًا ، وتملكهم الاعتقاد فعظم إيمانهم بما رأوه حقًا ، وإن لم يكن كذلك ، فنازعوا البقاء من خالفهم فى عقيدتهم . فإن من سنن الحياة أن يتبع الشئ نقيضه فتلتقى الأطراف عند ابتعادها . ونحن لانريد لأنفسنا حالا مثل حالهم ، ولا نرغب فيها . ولكنا نريد أن يكون اعتقادنا بقدر ما عندنا من العلم ، ولو صح لنا ذلك ، لكنا فى حياة هى الحياة التى خلقنا الله لنسعد بها . فإذا قال قائل : إن العلم ينافى الإحساس قلنا له إن العلم لا يكون إلا إذا دخل التفكير شئ من الإحساس . فكيف ينافى الإحساس وجود العلم إذا كان العلم لا يستقيم إلا به . ونستخرج من ذلك ، أنه إذا كان القليل من الإحساس يستعين به التفكير فى إيجاد العلم ، فإن الكثير منه يمكن العلم من النفس حتى يصير اعتقاداً . وإن الذى غرر بالمعترض حتى زعم ما زعم هو أنه نظر فى حال الأولين ثم فى حالنا ، فوجد عندهم جهلاً وإحساسًا كثيراً (وإذا شئت قلت بدل الجهل قليلا من العلم) ووجد عندنا علمًا وإحساسًا قليلا (وإذا شئت قلبت بدل العلم جهلا أقل من جهلهم) .

ولو أنصف لعلم أن ذلك رد فعل حدث من اندفاعهم فى طرف ، واندفاعنا فى ضده .

إن من مناظر الحياة التى يسخر منها الساخر ، ويضحك الضاحك ، ويبكى الباكى ، ويحزن الحزين ، أن نرى فى منزلة بين الشك واليقين ، بين الإنكار والاعتقاد ، أننى أنظر فى تاريخ كل اضطراب ، كان باعثه الإيمان بالحياة فأتناسى كل ما علق به من الشر، لأن باعثه

الإيمان بالحياة . وأرى إعراض الناس عن فهم معانى الحياة سكونًا إلى المظاهر ورغبة فيها . ومن الواضح الثابت أن الإنسان إذا تنعم بالحياة ، وكثرت موارد خيراتها صعب عليه أن نؤمن بها أو يسعى في تحسينها . ولقد أعجبتنى كلمة فى هذا الباب لنابليون الأول ، وهى أن كل التعاليم القائمة تقع كالبناء المتهدم عند ذكر الإيمان ...

ثم إن الإيمان بالحياة يبعث النشاط فى قلب الأمل ، والإقدام فى قلب الجبان ، ويمهد مسالك السعى ، ويوطئ مراقى الفضل ، ويمكن الثقة بالله وبالناس من قلب الإنسان .

قد يتدفق التفكير بالحقائق التى تجعل الحياة طيبة إذا اندفع فى سبيل الإيمان بالحياة التى خلقنا لنسعد بها حسب استطاعتنا ، لكنه قد يتجهم ويمكن اليأس من القلوب إذا اندفع فى غير ذلك السبيل السوى .

كان لى منذ زمن إلى مذهب (اللاأدرية) فإن فيه راحة للبال من الوساوس التى تعتور الإنسان ، واستقراراً بعد ذلك القلق الذى يتملك الإنسان فى سبيل البحث عن أسرار الحياة ، ومعانيها وأولها وآخرها . ولكن فيه مع ذلك قتلاً للإحساس ومحواً لمبالاة ما يقع فى الحياة . على أن ذلك الإحساس وتلك المبالاة اللذين يبعثان القلق ، هما معنى الرغبة فى الحياة . فإذا قتلا ضعف أمالنا وإيماننا بالحياة ، وحسبناها خدعة فتنقبض قوانا المندفعة فى مقاومة الصعاب . وإذا صح ذلك عندنا ، صح أيضًا أن الإنسان خلق كى لا يستقر إلا على قلق ، لأن ذلك القلق هو الباعث على الحركة التى تسير بالوجود إلى منازل مختلفة (وربما كان منها ما هو من منازل الإصلاح) .

ولكن أحمد مواقف اللاأدرية ، شعور الإنسان بضعفه أمام القوة العظمى ، فإن فى ذلك الشعور معرفة لقوانا ، ولما هى قادرة عليه فيكون سعينا على علم وتبصر . ولقد قال الفيلسوف سقراط كلمة فى هذا المعنى (وأظنها وردت فى جمهورية أفلاطون) « الناس كلهم جهلاء ولكنى أمتاز عنهم بعرفاني أني جاهل وجهلهم أنهم جاهلون » .

قال إسماعيل باشا صبرى :

وإن تبك ميتًا ضمه القبر فادخر   لميت على قيد الحياة دموعًا

لكأن ذلك الميت الذى على قيد الحياة ، الرجل الذى لا يبالى شؤون هذا الوجود ، ولا يتألم من اختلالها ، فهو لا يبذل جهداً فى إصلاحها وتلك أنانية وبخل ولؤم .

١٧٩

وإذا كان الأمل أعظم ما يتملكه الإنسان فى هذه الحياة ، فلم لا نأخذ بقول إميل زولا «يجب أن نثق بالطبيعة الإنسانية ، وليست هى التى زعم جان جاك روسو أنها خالصة من الشوائب ، ولكنها هى التى يجب أن نرجى ما يستقبل من أمرها ، وأن نثق بها ، بالرغم مما يشوبها من الدناءة والقسوة والقبح ، ويجب أن نعلق آمالنا بإجهادنا لقوانا ، وما وراء ذلك من العمل ، وأن نعتقد أن سعينا موصول بغاية حميدة ولو أننا لا نعيش حتى نرى ذلك » .

الذوق

جاء فى قصة دون كيشوت للكاتب الأسبانى الشهير سرفانتس ، أن رجلاً اشترى زقًا من الخمر المعتقة ، ودعا أصحابه ليذيقهم لذاذتها ، ويسمع منهم كلمات الثناء عليها ، فلما ذاقها أحدهم صمت قليلا ثم قال : لقد كانت تلك بالغة غاية اللذاذة ، لولا أن مذاقها يشوبه مذاق الحديد ، وذاقها آخر فصمت مثل الأول ثم قال : لقد كانت تكون بالغة غاية اللذاذة لولا ما يشوب مذاقها من مذاق الجلد فجعل الحاضرون يسخرون منهما ويتهمونهما بسقمٍ فى الذوق، فلما أفرغ الزق وجدوا فيه قفلا من الحديد ربطت به قطعة من الجلد فجعلوا يعجبون من سلامة ذوقيهما ، وعرفانهما دقائق الأمور .

وإنما أوردنا هذه القصة لنضرب مثلا للأذواق ، وكيف أن الصحيح منها ما كان قديراً على تتبع الأجزاء الدقيقة . فلو عرض عليك كتاب ، وسئلت رأيك فيه ، وكنت نافذاً إلى حسناته ، كان خليقًا بك أن لا تحيد عن الرأى الرجيح . ثم إنك لاتكون صادق الحكم فى آداب اللغة العربية مثلا إلا إذا درست آداب العصور التى تعاقبت عليها ، فإذا درست آداب عصر واحد، كان رأيك أبعد ما يكون من الصواب . ومثلك مثل الحكم الذى إذا سمع شهود الإثبات أفاد من المتهم ، قبل أن يسمع شهود النفى . فإذا أردت أن لا تضل أصالة الرأى ، كان خليقًا بك أن تعرف أنحاء الأمر الذى أنت حاكم فيه . فإذا أردت أن تكون ناقداً لفن التصوير ، ولم تدرس إلا صور الأوائل ، مثل روفائيل وتشيان خفيت عنك حسنات المصورين أصحاب المذاهب المخالفة لمذاهب الأوائل .

والأذواق تتفق فى أشياء وتختلف فى أخرى ، من حيث الاستملاح والاستهجان ، فما اجتمعت عليه الأذواق فهو ذوق عام ، وما اختلفت عليه فهو ذوق خاص . ولكل امرئٍ من هذا نصيب حسب أهوائه وطبائعه وما تغذى به إحساسه ، وما وقعت عليه حواسه . ولا يجحد أحد أن فى دائرة الذوق ما يتفق عليه الكثير ، ولولا ذلك ما كان بين الناس صلات لأنها لا تكون إلا بمقدار من التعارف . والتعارف لا يكون إلا بمقدار من التشابه فى الأذواق . ولقد رأيت الناس يعرضون ما يعالجونه من المسائل العقلية على عواطفهم ، جاعلين لها سلطانًا على قوة المحاجة ، ويحكمونها فى أشياء لا تقوى على أن تحسن مناصحتهم فيها ، وتبدى لهم عن الرأى الرجيح ، ورأيتهم يهملون ملكة انتقاد النفس ، فلا يتعهدونها بما يصلح من شأنها

ويعمل فى انمائها ، حتى تضعف فتضعف قوة الحكم على الحقائق بقدر ضعفها . ورأيت أناسًا رفضوا ما تصدره عواطفهم من سنن وعادات ، وأساءوا الظن بها اتكالا على قوة المحاجة ، وما رأوا فيها من الحكمة والتدبير . ولكن فاتهم أن للعواطف مجالا في كثير من الأمور ، وما تقول فى رجل يرى زوجه فيريد أن يعرف نصيبها من الجمال فيقول فى نفسه إن طول أنفها خمسة أشبار ونصف ، وهكذا يريد أن يعرف مقدار تناسب أعضائها ، والتناسب معنى من معانى الجمال ، فكأنما هو موظف من موظفى مصلحة المساحة ، وقد أمر أن يقيس قطعة من الأرض .

فليس جمال المعانى ومعانى الجمال مما يحكم فيه قوى العقل ، غالبة للعواطف ولا هو نظرية تحل بالتفكير فيها ، حتى أنه قيل إذا لم يكن ناقد الشعر ذا عواطف مشبوبة كان خليقًا به أن يجد لنفسه مهنة أخرى .

فالعواطف هى أكثر الأشياء سلطانًا على الأذواق ، فإذا كانت العواطف سقيمة كانت الأذواق كذلك . ولا شئ يفسد العواطف مثل مزاولة المرذول ، فإن المرء لا يزال حتى يراه لأسباب الفضل جامعًا ، ولأصناف الحسن شاملاً ، وحتى لا يرى الفضل إلا فيه . فإنك لتنشد الأزهرى فى أزهره ، والشاب فى دار تمثيله ما يسمع الصم فلا يسوءك إلا أنك طربت ولم يطرب ، وعرضت بضاعة لو صادفت ذا ذوق صحيح ماردها عليك ولكن

تعرض الأشياء فى أوطانها أفة الجوهر أن لا يعرفا[1]

وإذا بالأول ينشدك من حواشيه ومتونه ما يزيده فى فتونه وإذا بالثانى يتغنى بشعر ملوء الوهن والغميزة فأنشدهما قول البحترى :

إن الخطوب طويننى ونشرننى عبث الوليد بجانب القرطاس

وقل لهما انظرا كيف جعل الخطوب لا تعرف ما هى فاعلة به كما يبعث الطفل بجانب الورقة ، فتارة يطويها وتارة ينشرها ، وأنشده قول الشريف :

ينأى ويدنو على خضراء مورقة لعب النعامى بأوراق وأغصان

(النعامى ريح) فإنه جعل مرح الإنسان فى النعيم ، مثل لعب الريح بالأغصان والأوراق، فلا تجد منه بعد ذلك إلا ازوراراً مثل ازورار التقى عن مظان الريبة .

---

١ - من الجزء الأول من ديوان المؤلف .

اجتمع أعاظم المصورين وصنع كلٌ صورة أملاها عليه ذوقه ، زعم أنها بلغت غاية الجمال ، إذا رأيتها وجدت اختلافًا عظيمًا ينبئ عن مثله فى أذواق هؤلاء المصورين ، وربما كان بين تلك الرسوم ما يستسمجه بعضهم . على أنك لو قلت لهم ما هى أصول الجمال ، لقالوا كذا وكذا واتفقوا على أشياء عامة حتى إذا عرضوا عليك ما يستملحونه من معانى الجمال ، عجبت لاختلافهم فيما يعرضونه عليك . ومن أجل ذلك قال العلامة داودهيوم : الأذواق تتفق فى الأصول العامة ، وتختلف فى الأمثلة الخاصة والأفكار . بعكس ذلك تتناكر فى النظريات العامة حتى إذا ولج بها البحث إلى الدقائق أدت بها إلى التعارف .

على أنه مهما تباينت الأذواق ، فإن لذلك التباين حداً إذا تعداه امرؤ عد سقيم الذوق . فإذا تمارى اثنان فى تفضيل ابن المعتز على البحترى ، كان أحدهما مصيبًا والآخر مخطئًا . ولكن خطأ المخطئ لا يعزى إلى سقم ذوقه . أما إذا لج امرؤ فى تفضيل ابن الفارض على البحترى ، فلا نجد له شيئًا أحسن من أن نرجو له مغفرة واسعة .

ولقد وضع أناس الأخلاق فى دائرة الذوق ، لأن الناس متفقون على أصول عامة ، مثل بغض الشر وحب الخير . ولكنك إذا أردت أن تقسم الأفعال إلى خير وشر ، وجدت اختلافًا كبيراً فى تقسيم الأمم لها . ألا ترى أن العرب لم تكن ترى حرجًا فى الإغارة وأن الإسبانى كان لا يجد حرجًا فى أن يجعل السيف سلاحه الذى يقتل به عدوه ، ولكنه يأبى أن يجعل السم سلاحه خيفة أن تنسب إليه فظاظة فى الخلق . أما العادات فهى بنات الأذواق ، فإذا كثرت العادات وقيدت المدنى نمت كثرتها وتقييدها إياه على سقم فى ذوقه ومن الذى ينعم بالحمل الثقيل .

رداء ولا رداء

إذا كنا نحمد العرى من أجل أنه يسلك الناس فى صعيد واحد غير رافع للغنى شأنًا ، ولا خافض للفقير جناحًا ، فخليق بنا أن نحمد الكساء من أجل أنه باعث الحياء فى الصدر . والحياء غذاء الضمير ، ولا خلاق لقوم لم تصح ضمائرهم . يا عجبًا للمرء، إن أجل شئ فيه مستجلب من كسائه ، ذلك الكساء الذى كان شعراً على ناقة أو ذنبًا لبعير لوث البعر ذنبه(١) . ألا قل لمن لا يرفع للمادة شأنًا ولا يقيم لها وزنًا ، لقد طوح بك الضلال . أما رأيت كيف أنها تحيى الحياء ، فتحيا بحياته الضمائر والأخلاق . ولو أنك رميتها بنظر صادق لعلمت أنها الوجود وروح الوجود ، فإذا زعمت أنها روح الوجود فقل مع (بركلى) أن ليس فى الوجود مادة . فإذا ظنوا بك الظنون فقل كل عقل تظن به الظنون .

يقسم الناس الوجود إلى مادة وقوة ، أو إلى جسم وروح ، فيخطئون فى بعض ما يعنون . لأن القوة فى المادة ، والمادة فى القوة . وهما شيئان لا يفترقان أبداً . ومن أجل ذلك أنظر إلى ما يدعوه الناس جماداً غير ذى حياة فلا أراه كذلك : تلك الفاكهة العفنة ، لولا أن فيها من القوة شيئًا ، لما قدرت أن تعفن . وذلك الغصن الذاوى كيف يذوى إذا لم يكن فيه من القوة مايذويه . فإذا فهمت ذلك ، عرفت أن كل شئ فى الوجود حى ، وأن الفناء معنى من معانى البقاء . لأنه انتقال من حياة إلى حياة ومن هيئة إلى هيئة . قال بركلى أن ليس فى الوجود مادة فصدق .(*)وقال علماء الفسيلوجيا ليس فى الوجود ما يسمى عقلا أو روحًا لم يكذبوا.

هنا يقف الضئيل موقف التعجب والإنكار . ثم يقول ضدان لايتفقان ، وقد وهم فى ذلك ، فليس بين القولين مغايرة ، فالأول ينظر إلى صفات فى أجزاءالوجود غير التى ينظر إليها الآخرون . فإذا أردت أن توفق بين القولين فقل المادة هى القوة ، والقوة هى المادة . فإذا بلغت هذا المبلغ من العرفان ، فهمت قول قاسم بك أمين « العقل ، والإدراك ، والنفس ، ألفاظ لا تدل على أشياء حقيقية ، بل وضعت للمكات كان يتوهم وجودها بالذات فى زمن كان العلم فيه قاصراً ، يستمد مادته من الخيال ، ثم استعملها علماء هذا العصر بحكم العادة ولسهولة التعبير وتقريب المعانى إلى الفهم . والحقيقة أن البحث العلمى لم يجد في الحياة الفسيلوجية إلا خلايا متنوعة ، قابلة للنمو بذاتها ومتأثرة باشتراك خلايا أخر » .

---

١ - هذا يراد به السخر لأن كل الضمير غير مكتسب من الكساء ولم تنشأ فائدته الخلقية حتى نشا الضمير .

* - تضاف إن ليستقيم المعنى والسباق . «المحرر»

كان الإنسان فى بدء وحشيته يمشى مكشوف الجسم فاقد الحياء . ولكن حب التزين كان آخذاً من لبه مأخذاً غريبًا ، فاتخذ اللباس حلية وما زال يخلع زيًا ويلبس آخر ، حتى ظهرت فطنته فاتخذ من اللباس وقاء من الحر والبرد . فكان هذا اللباس مورى الحياء فى قلبه ، فستر جسمه وغطى على ما يتخلق به من خصال السوء ، فكأنى به وقد تعلم الحياء تعلم الرياء أيضًا ، فكان أكثر أهل الحياء ، من أهل الرياء لأن الحياء المقبوح يزعهم عن ارتياد الريب أمام الناس ولا يزعهم عن مواقعة الرذيلة فى السر .

كان أقوى الناس جسمًا فى الزمن الخالى أقدرهم على جمع المال فكان أحسنهم لباسًا . والقوة معبود الناس ، فكانوا يجلون لباس القوى من أجل قوته ، فما زالت بهم الحال حتى أجلوا المرء من أجل لباسه . أليس اللباس الحسن دليلا على الغنى والمال ؟ هو العبد المطواع والرسول اللبيب إذا سرحته سعى بينك وبين الناس بأحسن ماتحب ، وهو الحجة البيضاء والرأى الرجيح .

وبارِ تميــمًـــا بالغنى إن للغنى   لســانًا به المرء الهــيــوبة ينطق

وهو مغط على عيوبك ورافع عن حسناتك الخمول وهو إذا شئت الداء العياء والسم المميت.

لقد حبب الجاه إلينا اللباس فأحببنا الزينة حبًا فى الجاه . إن الرجل إذا خلع ثياب زينته خلع فيها روحه ، فلا راجعها حتى يلبس ثيابه . ولقد صارت قيمة الرجل ما يتحلى به . وإذا كنت فى ريب من ذلك ؛ فانظر إلى المثرى يرفل فى زينته ، واطل عليه وهو فى الحمام ، تر أنه خلع عظمته ومجده حين خلع ثيابه .

قال شكسبير ثياب المرء دليل عليه . لقد صدق شكسبير إلا أنها كادت لا تكون ذلك الدليل . أما رأيت إنسانًا ضفا عليه الحرير ورف ، تحسبه من الملائكة وهو من الشياطين .

اثنان أحدهما حسن البزة والثانى رثها ، قد هم الأول أن يبصق فى وجه الثانى . غير أنه رأى ثيابهما تخفى فجأة . أتحسب أيها القارئ أنه فاعل ما هم به من البصق - كلا - إنه ليخجل أن يبصق على جسم مثل جسمه . فالعرى مُنزِل الرفيع من سمائه ورافع الوضيع من حضيضه ، فهو من هذا الوجه مثل الموت . أئت بفلاح من صميم الريف ، وقف به عند دكان أستين أمام تلك التماثيل ذات الثياب الجدد ، فإنك ترى صاحبك يكاد يحييها ، لأنه يحسب أن حياة المرء فى ثيابه . قاتل الله الثياب ، لقد كدنا نكون فى حياتنا أمواتًا وكادت ثيابنا تكون لنا فى ذلك الممات أكفانًا .

ينثر الزارع فى أرضه الحب ثم يقيم عندها قطعة من الخشب ويضع عليها ثيابًا بالية . فإذا مر بها الطير كانت له تلك الثياب البالية وازعًا عن التقاط الحب ، لكأن ذلك العصفور أعقل من المتمولين الذين يلتقطون قوت الفقير لايزعهم عنه تلك الخرق البالية التى تكاد لا تكسو جسمه . أتحسب أن الممثل يفخر بأزياء الملوك والأمراء ؟ أليست عظمة الإنسان أيضًا مستعارة من ثيابه المستعارة ؟ ترى الفقير لابسًا ثوبًا يطل عليك الفقر من كل خرق من خروقه.

هذه أبواب الحاجة تنفذ منها إلى الأبصار . أيها الغنى ؛ إنك لتحسب أن كل خرق فى ثوب الفقير جرح رغيب فى عرضه ، وإنك لواهم ، فإنه أقرب إلى طبيعة الإنسان . منك أنت تعيش فى ثيابك وهو يعيش فى نفسه .

تقديس النجاح

إن الأمة فى عصور قوتها مثل الأفراد فى سنى نجاحهم . فى الحياة تحكم على الأعمال بنتائجها لا بالدوافع التى دفعت إليها . ومن أجل ذلك ، تجد أفراد الأمة القوية يقدسون النجاح تقديسًا كثيراً . وهذا أثر من آثار عبادة القوة ، لأن العمل إذا كانت نتيجته النجاح ، كان محببًا إلى الناس . وإذا كانت نتيجته الفشل كان مبغضًا إليهم . ولا أظن أنهم مخطئون فى ذلك . نعم ينبغى للمرء أن يذكر دائمًا أن الدوافع المختلفة التى تدفع إلى الأعمال توجد اختلافًا فى قيمة الأعمال ، ولكن الذى يعين قيمة العمل هو النجاح . ولا أعنى به ذلك النجاح السريع الذى يعقبه الفشل الطويل ، والمبنى على أساس من الغش والكذب ، وإنما أعنى ذلك النجاح الذى يتخذ له الأفراد والجماعات عدته ، والمبنى على أساس صحيح متين من القوة .

فإذا نظرت إلى الأمم فى حين ضعفها ، وجدتها تحكم على الأعمال بالدوافع التى دفعت إليها لا بنتائجها . وهذا ولا شك إحساس بالعجز لأن الأفراد إذا خافوا أن يحكموا على أعمالهم بنتائجها كانت ثقتهم بأنفسهم قليلة كأنهم لا يستحقون أن تكون نتائج أعمالهم النجاح . ومن أجل ذلك ، تجد أفراد الأمة الضعيفة يكادون يقدسون الفشل فى المطلب الجليل، خصوصًا إذا كان نصيبهم . لأن كل إنسان يجل النجاح ويقدسه ، إذا كان النجاح نصيبه ، ولكن سواء كان النجاح نصيب المفكر أم كان نصيبه الفشل ، ينبغى له أن يتذكر دائمًا أن قيمة النجاح الصحيح أكبر قيمة فى الحياة ، لأنه مبنى على قوانين وقوى مثل القوانين والقوى التى بنى عليها هذا الوجود .

العامة يكثرون من ترديد هذه الكلمة (الأعمال بالنيات) وهذه حقيقة . ولكنهم يخطئون فهمها ويخطئون فى استعمالها . فليس معناها أن النية التى دفعت إلى العمل ، هى وحدها التى تعين قيمته . وليس معناها أن هذه النية ، أهم من العزيمة والصبر ، والجلد والعلم ، والخبرة والدهاء ، والاعتماد على النفس ، وغيرها من القوى التى اشتركت فى تحقيق النجاح واستجلابه .

ومن الغريب أن بعض المفكرين يتابعون العامة فى الحكم على الأعمال بالدوافع التى دفعت إليها لا بنتائجها ، والسبب فى ذلك ، إما أنهم يخطئون معنى النجاح الصحيح وما يستلزمه

من القوى الكثيرة ، وإما أنهم يرون أن بعض العاملين ينجحون بالرغم من كونهم أهملوا بعض الفضائل المدنية . نعم إن هذه الفضائل تردع عوامل الاعتداء التى فى صدر الإنسان وتعده لأن يتبع سنن الجماعات وأنظمتها ، ولكن الذى نسيه هؤلاء المفكرون ، أن النجاح أساسه القوة ، والقوة مصادرها كثيرة ، من فضائل شخصية أو مدنية . والنجاح يتطلب قوى وملكات وفضائل خاصة ولا يستقيم لأحد إلا بها .

إن أفراد الأمة القوية يتعلقون بوسائل النجاح ، ولا يحجمون عن العمل خشية الفشل . أما أفراد الأمة الضعيفة ، فإنهم يحجمون عن العمل خشية الفشل لأنهم لا يتعلقون بوسائل النجاح فيكون خوفهم من الفشل داعية الفشل . ويرجع ذلك إلى إهمال وسائل النجاح . ولقد يفشل الرجل العظيم ، وينجح الرجل الضئيل ، لكن هذا العظيم ، على عظمته ، نسى حقيقة كبيرة ، وهى أن الإنسان لابد أن يؤهل نفسه للنجاح فى الحياة ، كى ينتفع بمواهبه وينفع بها غيره. وقد تجنى على المرء تربيته ، فإنها قد تعده للفشل فى الحياة ، خصوصاً إذا كانت فى نفسه صفات من الصفات التى تجعل نجاحه مستحيلا ، مثل ضعف ثقته بنفسه ، وتوكله على غيره ، والحياء المفرط ، الذى هو فى الحقيقة ، دليل من دلائل الضعف .

وقد يتساءل العاجز عن الصفات والقوى التى يستجلب بها النجاح ، هل هى أجل ما يطمح إليه الإنسان ، وأشرف ما تتصف به النفوس ؟ أم هناك فضائل وقوى أعظم منها وأجل؟ ولو بحث هذا السائل لوجد أن الصفات والقوى والملكات التى نجلها فى نفوس الناجحين، ونعدها ثمينة نادرة مثل الذكاء أو قوة المنطق والتفكير ، أو رقة الشعور وجلال العواطف ، هى رخيصة جداً فى نفوس العاجزين أهل الفشل . وهذا ليس بغريب ، فإن المفكر الذى جرع كأس التجارب يجد أن الملكات والقوى النادرة ، لا قيمة لها فى نفسها بل قيمتها فى استخراجها واستعمالها ، وما ينشأ عنها من المؤثرات . كما أن الجواهر الكريمة أو المعادن النفيسة لا قيمة لها ، مادامت فى بطن الأرض ، بل قيمتها إذا استخرجت وصادفت رغبة فيها . أما إذا لم يوجد من يرغب فيها ، لم تكن لها قيمة . فينبغى للمرء أن لا يحتقر تلك الملكات التى تقدر النجاح فى الحياة ، فإن ذمّه إياها وهو لا يملكها ، يكون مثل ذمه عنقود العنب ، لأنه لم تصل إليه يده .

ثم إن النجاح فى الحياة تختلف مظاهره ، فقد يفشل المرء فيما يرضاه الناس له من الحياة وينجح فيما يرضاه لنفسه . إلا أن نجاح المرء فى الحياة ، يقاس بمقدار قواه سواء كانت مادية أو عقلية أو روحية .

يحسب بعض الناس أن فى تقديس النجاح ظلمًا وقسوة وغبنًا ، وأنك لا تجد أحداً يقول بذلك إلا إذا خشى الفشل . أما إذا كان من الرجال الذين لا يطغيهم النجاح ولا يكرثهم الفشل ، فإنه يجد من ثقته بنفسه وبعمله ما يعينه على استجلاب النجاح ، وتحمل الفشل . ومن أجل ذلك تجد الأمم التى تقدس النجاح ، أكثر جرأة من الأمم الضعيفة التى تخشى أن تحكم على أعمالها بنتائجها لا بالدوافع التي دفعت إليها .

غير أنه قد يخشى على الأمة الضعيفة ، إذا جعل أفرادها يقدسون النجاح أن يتعلقوا بمظاهر النجاح ، دون النجاح ، والتعلق بمظاهر النجاح ، ليس دليلا على القوة ، بل على الضعف .

غير أن التظاهر بالنجاح الكاذب يكون فى الجماعات التى تحكم على الأفعال بالدوافع التى دفعت إليها ، كما يكون فى الجماعات التى تحكم على الأفعال بنتائجها . غير أن الجماعات التى تقدس النجاح ، يُعَلِّمها تقديس النجاح التمييز بين النجاح الصحيح الذى يتخذ له المرء عدته من القوى المختلفة ، وبين النجاح الكاذب الذى ليس له نفع ولا بقاء .

إن أجَلّ ما تمتاز به الجماعات الغربية على الجماعات الشرقية ، أن الأمم الغربية أكثر تقديسًا للنجاح ، وهذا جعلهم أكثر تعلقًا بالفضائل الشخصية ، مثل الاعتماد على النفس والعزيمة والصبر والشجاعة وغيرها من الفضائل الشخصية ، التى هى أهم من الفضائل المدنية والتى هى وسائل النجاح وعدته .

خليق بنا أن نعترف بالأثر الذى للدوافع والنيات فى تمييز الأعمال ، ولكن ينبغى أن نذكر أن القضاء والمقادير ، لا يهمها الدوافع ولا تعترف بها ، بل يهمها النتائج وتعترف بها ، نحن نغاير المقادير وتختلف عنها فى شئ ، وهو أن النيات والدوافع تهمنا فينبغى أن لا نغالط أنفسنا ، ونخفى عنا قيمتها ، ولكن ينبغى أيضًا أن لا نغالط أنفسنا ونخفى عنها أن النتائج قيمتها هى القيمة الكبرى . وإذا كانت المقادير والوجود كله يقدس النجاح فى كل مظهر من مظاهر الحياة فلم لا نقدس النجاح فى حياتنا وأعمالنا .

الحياة واليأس

الآملون فريقان : فريق أملهم ، غفلة عن ثقل الحياة وعظمها وبلادة وغباء . وفريق يعدون الأمل ، واجبًا عليهم وفرضًا فرضته الطبيعة ، وأنا من الفريق الثانى . ومن أجل ذلك لم يكن أملى مستطيلا مستمراً مستأنفًا ، لأن النفوس تعجز عن أن تجعل الفرض كذلك .

يحسب كثير من الناس أنهم يعدون الأمل واجبًا ، وهم مخطئون ، فإن أمل الجمهور غفلة . وهم غافلون عن أن أملهم غفلة ، لأنهم غافلون عن غفلتهم . ومن أجل ذلك لايفهمون سبب شكوى الأديب من عظم الحياة . ويحسبون أن ذلك ضعف فيه . ولو أنهم أفاقوا من غفلتهم ورأوا عظم الحياة ، كانوا كمن أقام طويلا فى حجرة مظلمة ثم خرج منها ونظر فى عين الشمس. فتأذت عينه بتلك النظرة . فالأديب يشكو الضياء لأنه ينظر فى عين الشمس . وهم لا يفهمون شكواه لأنهم فى حجرة مظلمة . ولكنهم يقولون له : أنت جنيت علي نفسك ، لم تنظر فى عين الشمس ؟ ويحهم إذاً كيف يعرف سر الحياة إذا بقى فى تلك الحجرة المظلمة ؟ ولكنهم يقولون هذا غرور منك . والغرور مدعاة الأذى إذا كان الطموح إلى منازل العرفان غروراً ، فلا خير فى الحياة .

الحياة مثل حمل ثقيل من الذهب على كتف رجل ضعيف ، إذا وضعت هذا الحمل على ظهر حمار من أهل الغفلة والضمير النائم ، لم يحس عظمه ، ولكنك إذا وضعته على كتف الأديب أحس عظمه وجلالته . إن جلالة الحياة هى التى تفزعنى وتلجؤنى إلى اليأس فى بعض الأحايين : تلجؤنى إلى اليأس لأنى أرى الناس غافلين عنها ، وإنما يلهيهم اهتمامهم بصغيرات الأمور .

ترى الصانع يسيل عرقًا من فرط اجهاده قواه ، فكأنه قصر من الثلج من قصور الشتاء التى يبنيها الروس ، وقد رماها الصيف بلفحات حره . وإنك لتكاد تسمع نبضات عروقه البارزة ، فكأنها تريد أن تفتق جلده ، فتسعد ذلك العرق السيال الذى يشهد بما يعانيه من الجهد والبلاء . وهو تارة يترنم بأغانى الوله وأشعار الغرام ، وتارة يطلق من شفتيه صفيراً ، يحسبه السامع صادراً من قلب ملأ السرور نواحيه ، وتملكته القناعة والرضاء بقسمة المقدور . ولو فتح له صدر ذلك العابث بالأغانى لوجد أحزانًا تنتاب ، وهواجس تعتور ، وعواطف تتواثب ، فما ميدان القتال بأعظم هياجًا من قلب ذلك الصانع .

كذلك الغنى ذو الأبهة والجلال تراه فى عربته الفاخرة ، وعلى لباسه رواء يضارع ذلك البشر الذى يجول فى أنحاء وجهه فيحسده الرائى . ولو علم الرائى أن سكينة ذلك المثرى مكذوبة ، وأن بين جنبيه قلبًا يعانى من آلام المعيشة قدر ما يعانيه الفقير فى كسر بيته المتهدم ، وربما كان الفقير يفضله فى أنه لا يبالى النعيم إذا أدبر مثل مبالاته إياه . لو علم الرائى ذلك لخفض من غلواء بغضه وحسده .

إن خاطراً واحداً يمر على ذهن الإنسان ، قدير على أن يفسد عليه نعيم يومه ، وإن حادثًا من صروف الدهر لكفيل بإتلاف حلاوة المعيشة ، فكيف لا يتمكن اليأس من نفوسنا ، إذا كانت هذه حياتنا .

على أن الإنسان مودع فيه ميل طبيعى إلى الحزن ، تغطى عليه الغفلة عن شؤون الحياة واختلالها ، كما يغطى الرماد وجه النار الكامنة . فإذا صحا من تلك الغفلة هاج به اليأس هياج الأسود فى أقفاصها ، وانتزع منه السكينة والاطمئنان ، وكاد يطفئ مصباح الأمل الذى تستضئ به النفس حتى يرى الحياة عبثًا ، لا مفرقًا بين حالات الغنى والفقر ، ولا بين المساعى المختلفة والأشغال المتنوعة ، لأنه يحسب أن كل ما يقضى الوقت فى معالجته عبث ثم يعتريه الملل والضجر ، راغبًا فى عيشة أرقى من هذه العيشة التى يطوف ما يطوف فى أنحائها ولا يعرف الغاية التى يسعى إليها .

كلما بلغ الإنسان مبلغًا من العرفان الصحيح بأحوال هذه الحياة ، وكانت عواطفه مهيجة من أجل اختلال شؤونها ، كان قريبًا من منازل اليأس .

استعرض النفوس البشرية وارفع عنها ذلك الحجاب الذى وضعه عليها التحفظ والاحتجاز والنفاق والحياء ، تجد فيها من الدناءة والقسوة والقبح ما يجعل الشك فى اليقين ، والقلق فى الاطمئنان ، واليأس فى الأمل .

هذا كارليل ، الفيلسوف الكثير الثقة بالنفس البشرية ، ذو الأمل الضخم الذى أخرج إلينا عقيدة (الأمل والعمل) كان على ذلك ينتفض مذعوراً فى مجلسه ، ثم تثور به السوداء فيقول : لا أدرى كيف عشت هذه السنين وأنا لا أعرف ما أنا)(*) يريد بقوله (أنا) النفس البشرية . ألا ترى أن الإنسان إذا بحث فى دناءة النفس وقسوتها وقبحها ، وكيف أن بعض هذه الأوصاف تأخذها بالوراثة وبعضها بتأثير البيئة الفاسدة ، وبعضها بسبب نظام التربية

---

* هكذا فى الأصل « المحرر »

تأخذها بالوراثة ، وبعضها بتأثير البيئة الفاسدة ، وبعضها بسبب نظام التربية الفاسدة فيعترضه فى بحثه مسائل منها ، معنى الحياة والسبب الذى من أجله خلقنا ، والغاية التى نسعى إليها . كل هذه مسائل لا يقع عليها الإدراك مهما أكثر الناس من القول فيها .

من أجل ذلك كان اليأس قريبًامن نفوس الشعراء ، لأن عواطفهم أبداً مهيجة مشبوبة . وإنك ترى الواحد منهم يطنب فى تقريظ الطلاقة ، والبشر والابتهاج والفرح ، فإذا خلا إلى نفسه ، فأرسل ما يثور فيها ترفيهًا لها ، وجدت ذلك الثائر يأسًا صريحًا ، هذا (وردز ورث.) شاعر الطبيعة الذى جعلها كتابه إذا قرأت شعره حسبته الماء الزلال تحنى عليه الأزهار ، ولكنه إذا أفرغ ما يثور به صدره ، حسبت أن هذا الوجود لا صلاح له .

وهذا بيرنز الشاعر الذى قال فيه كارليل إن المصائب كانت تصب فوقه فينثرها عنه ، كما ينثر الجواد الماء عن شعره - هذا الذى إذا شئت كان لى من أغانيه غذاء يفضل الغذاء تلك الأغانى التي لو كانت معى فى الصحراء ما أحسست بشؤم الحياة - هو بير نز الذى يقول (خلق الإنسان ليحزن) وهذا بيرون الذى يقول فيه كارليل - لا تحسبوا أنكم تقرأون أشعار بيرون وإنما تقرأون أحزانه - كان لا يستقر فى مكان من مللة الحياة ، وكان أعظم لذاته أن ينفرد فى الأرض الخلاء فيصرخ كى يسمع صدى صوته ، إذا رددته الجبال .فهو كما قال الحسن بن هانى :

يرى الناس أعباء على جفن عينه وإن حلَّ فى وادى أخ وحميم
فود بجدع الأنف لو أن ظهرها من الناس أعرى من سراة أديم

فإنه هو الذى يقول فى قصة دون جوان « لا أرى شيئًا يمنعنا من إتيان جريمة التناسل ، غير الجوع والفاقة » ذهب فى هذا القول مذهب أبى العلاء المعرى ، إذ يقول « هذا جناه أبى علىّ». لشدما عانت تلك النفوس العظيمة من اليأس ، إذ كانت ترى فى التناسل جريمة شنعاء ووزراً بليغًا .

قال أحد جبابرة ملوك الرومان : وددت لو أن للناس جسمًا واحداً فأقطع رقبته بضربة واحدة من سيفى . فما أشبه ودادته بودادة أبى نواس ، فإن كليهما يود فناء العالم ، ولكن الأول يخرج من ودادته سليم الأنف ، لا مثل خروج أبى نواس مجدوعها . قلنا إن أصل تهيج اليأس فى نفوس المفكرين الإحساس بدناءة النفوس ، واختلال شؤون الحياة . ولكن أصل اليأس فى

أكثر الأحايين ، وقوع الحوادث بما يزعج النفس المطمئنة. فإذا لم تكن لها إرادة عظيمة تأسر بها عواطفها ، غلبها اليأس . ولليأس أصل آخر يرجع إلى ضعف فى همة المرء ، وتقصيره عن عمل ما تفرضه عليه منزلته فى الحياة . فإذا أحس بخذلان قواه ، وما يكون وراء ذلك من الأضرار بسعادته ، تملكه الحزن ودب إليه اليأس من كل جانب .

• أغلاط الحقائق

كلمة ما سارت فى أذن إلا وخزتها ، غير اذن من عرف أن كل حقيقة ناقصة ، حتى تقرن بأمثالها . ومن أجل ذلك كان فى كل صواب شئ من الخطأ ، وفى كل خطأ شئ من الصواب (قال فيكتور هيجو كل أغلوطة لها جانبان جانب مشرق وهو الخطأ وجانب مظلم وهو الصواب) . وسبب هذا أن الإنسان الفرد ، غير مستقل بذاته . ومن كان هكذا ، كان كل معنى ينتجه ذهنه جزأ من معنى ، وكل حقيقة يقع عليها جزء من حقيقة . ومن أجل ذلك ، كان كل شئ فى الوجود مرآة لكل شئ وتفسيراً له .

كل رأى فى أول أمره يطرق طروق الضيف الغريب . فمن الناس من يستقبله بالإجلال ، وهو الذى يرغب فى حلاوة الجديد ، ومنهم من يستقبله بالإعراض عنه والخوف منه ، خاشيًا أن يكون ضيفه مجرمًا متنكراً . فإذا طال مكث الضيف بيننا لقيناه غير مأخذناه فنعدم إذ عدمنا حلاوة الجدة . ذلك الخوف الذى استحوذ علينا من طلعته ، فإن الضيف يكون قد نبذ من عاداته ما نبغض ، وتلبس بما نحب . وكذلك المعنى إذ طال عليه القدم فارق غرابته بأن يفارق أكثره ... لا شئ أكثر إفساداً لمعنى جديد مثل معنى قديم .

الخطأ يتسرب إلى المعنى الجديد من التناقل ، لأنه إذا أراد امرؤ أن يفهمك شيئًا ، لم تفهم كل ما يريد أن يفهمك . فالتفاهم الكامل لا يوجد بين عقلين متشابهين ، ولكنه يوجد بين عقلين كل منهما هو الآخر . فالتفاهم الكامل من أجل ذلك مستحيل .

كيف يفهم الإنسان ؟ ولم يلق المعنى على اثنين متشابهين فى مقدار ذكائهما فيفهمان فهمًا مختلفًا بعض الاختلاف ؟ أما الفهم فسببه وقوع ما يعرض عليك على معان كنت قد اجتنيتها ، أو معان خرجت من توالد المعانى التى كنت قد اجتنبتها . فإذا تعارف المعروض والمجتبى تعارفًا قليلا أو كثيراً ، فهمت المعروض بمقدار ذلك التعارف . فإذا تناكرا كل التناكر ، لم تقدر أن تفهمه . ومن هذا تعرف سبب اختلاف فهم اثنين لمعنى واحد . فإذا شئت أن تضرب مثلا من الألوان ، فقل إن تعارف المعروض والمجتبى فى ذهن الأول ، مثل تمازج الأصفر والأخضر ، وإن تعارفهما فى ذهن الثانى مثل تمازج الأصفر والأسود . وتستخرج من ذلك ، أن الحقيقة الواحدة ، هى حقائق متشابهة . فالحقيقة الواحدة فى ذهنى ، غيرها فى ذهنك . بل هما حقيقتان متشابهتان . المرء ليس بفاهم كل ما تريد أن تفهمه .

والمعانى التى يخرجها التفكير خارجة بسبب توالد المعانى التى فى ذهن المفكر ، وهى كما علمت ناقصة فيخرج المعنى المولود ناقصًا . والتفكير نوعان : تفكير يقدر المفكر أن يعرف كيف خطا وسار ، وتفكير لا يقدر المفكر أن يتتبع خطواته . وهذا النوع الثانى هو الذى يدعونه الإلهام . فقد يقول المرء كلمة لا يعرف كل معناها ، غير أن يرى نفسه مدفوعًا إلى قولها . فإذا وقعت فى أذن غيره كانت مفتاح لبه ، وربما خطر فى ذهن أحدنا خاطر لايعرف كيف خطر ، فيجتهد فى أن ينساه حتى إذا قرأ فى بعض الكتب وجده مشروحًا . وروى أن بشاراً الشاعر سمع أحد الناس يفسر بيتًا من أبياته فأعجبه تفسيره ، فقال لرواتيه ارو هذا المعنى لهذا البيت فوالله ما عنيته . هذه أشياء بالغة بنا أن نعتقد أن تلك النفس المودعة فى كل فرد هى زى من أزياء روح الوجود ، ومظهر من مظاهرها . ولا يروعك أيها القارئ قائل يقول لو كانت نفوس الأفراد مظاهر من مظاهر روح الوجود ، لكانت كل واحدة أحنى على أختها منها وأحب لها ... أليس فى نفس الإنسان صفات متضادة ، كل واحدة تهم بقتل الأخرى ؟ ... وأضرب مثلا من أمثال ما روى عن بشار فأقول : إنى نظمت منذ سنين هذين البيتين

ما أشبه الحزن بالسرور   وأشبه المكث بالمرور
وما أخال الحياة إلا   كجولة الفكر فى الضمير[1]

أما شبه الحزن بالسرور فكبير . من أجل أن كليهما ميزان للبقاء ومقياس للعمر . لأن تقسيم الزمن من صنعنا نحن ، نقسمه إلى دقائق وساعات ، وليست الدقائق والساعات إلا ضحكات القلب وعبراته ، فطول الزمن وقصره ، غير موقوف على طلوع الشمس وغروبها . ولكنه موقوف على إحساسنا بالحياة التى تنبض فى عروقنا ، وشعورنا بما يملأ صحيفة العمر من الحزن والسرور . قال إدسون : أنكر ملك من ملوك مصر آية الاسراء قائلا إن مسافة ما بين أول الاسراء وآخره شاسعة ، والزمن الذى وقع الإسراء فيه قصير ، فأتاه حكيم من قومه ، وقال له إنى جاعل بينك وبين الشك ستراً من الحجة ، قال ما حجتك قال أئت بأناء كبير فأتى به ، فملأه ماء ، وقال للملك: اخلع عمامتك وادخل رأسك فى الماء ، ففعل الملك ذلك ، فحسب أنه غريق تقاذفته الأمواج حتى رمت به على شاطئ قريب ، فجعل يمشى فى تلك الأرض حتى لقيه أناس فاستجداهم فرحموه فى غربته ، وأخذوه وآووه وزوجوه من قومهم فتاة

---

١ - من الجزء الأول من ديوان المؤلف .

فلبث معها سنين ، وولدت له أبناء حسان الوجوه ، ثم خرج يمشي على شاطئ البحر فتذكر ما كان في من العز والسلطان ، فأسف عى حياته الماضية ، وذكر أن ضياع سلطانه كان من أجل إنكاره آية الإسراء ، فقال : صل لله ركعتين عسى أن يقبل منك التوبة ، ويرجعك إلى ما كنت فيه من جلالة الملك ، فخلع ثيابه ونزل فى البحر ليغتسل ويتوضأ . ولكنه لما رفع رأسه، وجد نفسه فى وسط اتباعه وعساكره والحكيم بجانبه والإناء أمامه ، فسأل الملك أتباعه كم سنة غبت عنكم ، فتعجبوا من قوله وقالوا إنك ما لبثت أن وضعت رأسك فى الإناء حتى رفعته ، ولم تغب عنا. فنظر الملك إلى الحكيم وقال صدقت هذه أبيض الحجج . وإنما ذكرت هذه القصة لتعرف أن طول الزمن وقصره ، غير موقوف على طلوع الشمس وغروبها .

إن الزمن فى عصرنا هذا يعدو عدواً بعد أن كان يمشى برجل عرجاء فى العصور الغابرة ، لأن الحركة الحيوية الآن أسرع منها فى القرون الغابرة . فإذا تفهمنا الصواب ، علمنا أن يوماً من أيامنا أكبر من يوم من أيام آبائنا ، لأننا نعمل في يومنا ما لم يعمله الأولون فى أيامهم . كم خطرة من خطرات النعيم والشقاء تمر علينا لا كما تمر الريح المكسال ، بل كما يمر السهم يشق الهواء شقًا . وكم خطرة دونها خطرات منتجات خواطر أخر . هذه حياتنا حياة كأنها محمومة من أجل أن نبضاتها سريعة . وإذا شئت أيضًا قلت إن يومًا من أيام آبائنا الأولين أكبر من يوم من أيامنا ، لأننا نعمل أكثر مما كانوا يعملون في يومهم . وكثرة العمل تلهى المرء عن أن يحس طول الوقت . فإذا نظرت إلى هذين الرأيين نظراً صادقًا علمت شبه المكث بالمرور .

لم يخطر بذهنى وأنا أكتب هذين البيتين هذه المعانى ، بل كنت أنظمهما ، وفى الذهن معنى أقرب غوراً. وإنما ذكرت هذين البيتين لأقول إن المرء قد يقول قولا غير فاهم منه إلا جانبًا من جوانبه .

ومن دلائل روح الوجود أن المرء قد تتملكه الفكرة فى إظهارها الهلاك فيريد أن يغلب نفسه عليها فلا يقدر .

وما معنى النهضات والاضطرابات واندفاع الناس بدافع عنيف من دوافع الآرا موالعقائد . هذه الحجج ليست أحلامًا ، ولكنها أيضًا ليست بالتفكير الذى جعله الماديون من إفراز الروح .

كلما قرب المعنى إلى الصواب ، بعد عن أذهان الجمهور . فإذا أردت للمعنى أن يكبر بأن يردده الناس صغر بأن يصير لفظًا ميتًا . فإن فى هذا الموت حياته بين الناس . وهذا سبب أن

النظريات والكلمات العامة التى تملأ أفواه الناس أكثرها فاسد ، عليل المعنى وجمهور الناس كالنساء .

فإذا شئت أن ترضى النساء فلا تسمعهن غير مايردن أن يسمعن . فالحقائق عند العامة ، مثل الدنانير إذا مزج عنصرها الكريم بعنصر غير كريم (كالنحاس) كانت أبقى على الزمن ، منها وهى من الذهب المحض . وكذلك الحقيقة إذا مزجت بشئ من الخطأ كانت أبقى على الزمن ، وإن من المفكرين من يذهله خوفه من الناس عن رأيه حتى يدخل عليه وهو لايدرى من الخطأ ما يجانس بينه وبين أفكارهم ... اثنان قد ينظران إلى الحقيقة من وجهين كل يزعم أن أخاه مخطئ ، وهو مخطئ فى زعمه ، مصيب في نظره إلى الحقيقة ، من ذلك الوجه فلا غرو إذا وجدت معنيين متضادين ، وكلاهما مصيب راجح . ومثل ذلك أن يقول قائل إن سبب احتقار المرء الحياة ، أن الحزن من ضياع شئ كان مالكه ، والخوف من ضياع شئ هو مالكه سيان . أى أن الخوف من زوال النعيم ، يفسد النعيم ويذهب به . وقد يناقضه آخر فيقول : إن نعيم الحياة مستجلب من خوف الإنسان من زوال النعيم ، لأن ذلك الخوف يدفعه إلى التذاذ النعيم أكثر من التذاذه إياه لو كان ذلك الخوف من فقدانه غير متملكه . فالأول يقول إن ذلك الخوف يفسد النعيم ، والثانى يقول إنه يزيده ويصلحه . وكلا الرأيين مصيب . وإنما تأثير الخوف يختلف مثل اختلاف طبائع الناس ... إذا تعرفت الصواب علمت أن كل مجادل فى أكثر الأحايين غير فاهم ما يعنيه مجادله ، فيجتهد كل واحد فى أن يبين عن فساد رأى لم يره مناظره. وربما كان صاحب الرأى غير فاهم رأيه فهما كاملا ، وإنى أكاد أقول بأنه يستحيل على المرء أن يفهم رأيه فهمًا كاملا ، فإنه ليس بغريب أن يخفى عنه أكثر جوانبه .

فالحقيقة الواحدة ، لها أزياء كثيرة تختلف مثل اختلاف نظر المرء إلى الحياة . أليس فى الناس عابد الخرافات والأوهام وعابد المحاجة والفهم ؛ أليس في الناس المادى والشاعر عابد الجمال ، أليس فى الناس غير هؤلاء فرق كثيرة ، كل واحدة تنظر إلى الوجود نظرة تصبغ أشعتها صبغة فى النفوس . لا عجب إذا لبست الحقيقة الواحدة من الأزياء المختلفة ما يجعلها حقائق كثيرة ، وإنما ينسج تلك الأزياء أساليب التفهيم والإعراب عما فى النفوس . ومن أسباب اختلاف أزياء الحقيقة أن الإنسان قد يبلغ منتهى الإجادة بأن يضع المعنى فى أسلوب صادق كاذب . ومثل ذلك قول جويتى : إن الإنسان لا يسمع غير ما يفهم . هذا هو الإسلوب الصادق الكاذب . هو فى الحقيقة نوع من أنواع المبالغة . وعلى ذكر المبالغة ، أقول إن أكثر

أمور الحياة مبنى عليها ، ولكنها أنواع بعضها يصلح الحقائق كالذى يعتمد عليه الشاعر فى تفسير الحقائق النائية الغامضة . فوظيفة المبالغة التى يعتمد عليها الشاعر ، مثل وظيفة المنظار المكبر . غير أن المغالاة تلحق بالصواب شيئًا من الخطأ ، وسببها الإلحاح فى الدفاع عن رأى كثر منكروه أو جاهلوه ... خرج جان جاك روسو إلى الحياة فى بيئة كل شئ فيها متكلف، وكان التصنع يجول مجالا عجيبًا فى أحوالها . ونسى الناس قوانين الطبيعة وما ينتجه العقل من تفسيرها ، فكانت حياتهم جريمة كبيرة . قال روسو بوجوب الرجوع إلى العقل فيما يسنه من أوامر الطبيعة . قال بوجوب ترك المرذول الذى تسنه السلطة ، والخضوع لهذه السلطة ، ولكنه دار بعينه فرأى أناسًا بعيدين عن هذه الحقيقة ، وأن صوت المغالاة أقدر على إيقاظهم من صوت الحق ، فكانت المغالاة موقظة لقومه من غفلتهم ، ولكنها كانت مفسدة أكثر مبادئه، غالى روسو فى تقريظ الطبيعة حتى قال إن كل شئ يخرج منها حميد ، ونسى أن آباءنا الذين كانوا أقرب إليها منا قد ضرهم قربهم منها فى كثير من الأحوال . من أين تأتى المرء تلك الدوافع التى تدفعه إلى الشر ؟ أليس من الطبيعة ؟ .

انظر إلى عيشة الأولين ترها قطعة من الدم .....أرأيت كيف أن المغالاة تفسد الحق. انظر إلى بودلير الشاعر الفرنسى تر رأيه نقيض رأى روسو . ولكنه ، مثل روسو ، من أجل أن المغالاة أفسدت رأيه ، وإذا شئت فقل جعلته حقيقة مغلوطة ، قال بودلير انظر إلى الأطفال الصغار تر فيهم من الأنانية والقسوة والزهو ، وما يثبت أن الطبيعة ليست كما قال جان جاك روسو خالصة من الشوائب . ولكن بلغت ببودلير المبالغة مبلغًا بعيداً ، حتى قال إن كل شئ يصدر من الطبيعة خبيث ، وأنه ينبغى أن نعصى كل أمر أو نصيحة لها . زعم أن الطبيعة قبيحة ، فينبغى أن نحيلها بما تمليه علينا الفنون ، واستشهد فى إثبات قبح الطبيعة ، بأن المرأة من نساء المتوحشين ترى من العار أن تخرج إلى الأسواق غير موشومة الجسم ، وأن أهل المدنية كذلك ، قد اتخذوا من الفنون سلاحًا يحاربون به الطبيعة . وقد نسى بودلير أن ذلك السلاح الذى نحارب به قبح الطبيعة مأخوذ من الطبيعة .

من الحقائق التى هى أغلاط أيضًا نظرية فى علم الحساب وهى أن ثلاثة رجال هم أبداًثلاثة رجال . اعطهم عملاً يعملونه ، وسل علماء الاقتصاد ، هل هناك ربح ناتج من اشتراكهم فى العمل ، ومن تفرد كل واحد منهم بفرع من فروع العمل ، فيقول علماء الاقتصاد : نعم هناك ربح فى أن يتقن كل واحد ما يتفرد به من فروع العمل . فثلاثة رجال فى حين انفرادهم

خمسة رجال أو ستة رجال فى حين اشتراكهم في العمل ، وتفرغ كل منهم لفرع منه . ثم واجه بهذا القول علماء الحساب يقولون لك إن ثلاثة رجال هم أبداً ثلاثة رجال .ثم واجه بهذا القول العلامة راسكن يقل لك إن ثلاثة رجال فى حين اشتراكهم وتفرد كل واحد منهم بفرع من فروع العمل أقل من رجل واحد ، لأن مايخسره العامل من ذكائه وملكات عقله بسبب انفراده بفرع واحد من فروع العمل (مثل صنع رأس دبوس) أكثر مما يكسبه المتمول من المال ....

يقول علماء السياسة بصيانة حقوق الفئة الكبرى من الأمة من غير إضاعة حقوق الفئة الصغرى . ولكن إذاتضادت مصالح الفئة الكبرى ومصالح الفئة الصغرى ، ولم يمكن حفظ مصالح الفئتين فهم يقولون بإضاعة الفئة الصغرى ، حفظًا لحقوق الفئة الكبرى . هذا عدل وهو غير عدل . هذا صواب ، وهو غير صواب . هذا خطأ وهو ليس بخطأ .... ماذا تقدر أن تقول غير ذلك ؟ .

الذى دفعنى إلى كتابة هذه المقالة أنه يغيظنى ضيق الفكر الذى يبديه كثير من الناس ، فى النظر إلى الحقائق . هم يظنون أن الشئ إذا كان صوابًا فليس به شئ من الخطأ ، وسبب ذلك صلابة فى الرأى خارجة من قلة اختبارهم أمور الحياة اختبار المفكر الباحث . ومثل هؤلاء أناس يقولون إن الشئ إذا كان شرا فليس به شئ من الخير ، وإنه إذا كان خيراً فليس به شئ من الشر . لكن أمور الحياة ليست كذلك، وكما أن السم ، وهو شر جزء من الدواء وهو خير ، كذلك أمور الحياة تمتزج الأضداد فيها ، هذا مفتاح الحياة ، ومن عرف الحياة كان أكبر من الحياة ، فإن عرفانه الحياة يملأ صدره حزمًا وبصيرته صفاء.

المثل الأعلى

كلما بلغ الإنسان مبلغًا من العلم ، زعم أنه وصل إلى الصميم من دائرة العرفان ، حتى إذا تعداه البحث إلى ماهو ألصق بالحقيقة منه ، زعم فى الثانية ما زعم فى الأولى . ولا يزال يأخذ الجديد من الأمر مأخذ الأشرف ، لأنه مما تكون له مهابة فى النفس وحلاوة تعلو به عن حقيقة قدره . ولئن تكثرنا بما انتهينا إليه ، وانتهى إلينا من صنوف العلم وأبوابه ، فلا نزال نخبط منه فى طريق عذراء ، ونركب مركبًا غير ذلول ، وإنما نعنى ما يرجع منه إلى معنى الحياة وما ينبغى أن تكون عليه .

فاسأل النابغة القدير والحكيم الأديب ، عن مبلغ علمه وما وصل إليه من الحقائق ، ثم اعرضها على غيرها تر أن منها ما يكذب بعضه بعضًا ، فتكاد تحسب أن الحق موصول بضده ومردود إليه ، وأنه يختلف كما تختلف الغرائز ، وتكاد تحسب أن الحق فى الشرق غيره فى الغرب ، وأنه فى الشمال غيره فى الجنوب .

انظر إلى مسألة من تلك المسائل التى لاكها البحث ، ثم نبذها على غير جدوى ، اللهم إلا صيحات تتبعها نزعات ، ونزعات ترددها أفواه الباحثين وقلوبهم ، تجد أنها قد مضى عليها الدهر وتوارثتها الأيام ، وتلقفتها العلماء وهم مختلفون فى أنحائها ، كما كانوا والزمان على غير هذا الوضع .

ثم دع هذه وانظر إلى أخرى استقر الباحثون فى أصولها وأخذوها مأخذ الحقيقة ، وعاشوا بها زمانًا حتى كان أناس غيرهم ، فوجدوا فيها من الباطل مالم يجده الأولون .

وانظر إلى أخرى كانت حقًا معظمًا عند قوم ، فصارت باطلا مخذولا عند آخرين ثم عادت كما كانت فى أول أمرها تجد ما يمكن الشك من قلب الباحث ، ويضع أمر هذا الوجود موضع الريبة ، لولا أننا نتهم أنفسنا بالتشيع إلى ما نتبجح به من مذاهب العلم ووسائل العرفان ، ووسائط التهذيب ، لأن الفساد يكمن فى خلالها ، ثم يسطو على الرأى فيجعل السقيم صحيحًا والصحيح سقيمًا .

وقد أصبح العالم بين الناس من لم ينته إليه من العرفان إلا ما كان نائبًا عن النفس ، وما تحتوي من عواطف وآمال وأغراض .

على أننا لو أنصفنا أنفسنا ، لعلمنا أن الإدراك لم يقع على كثير مما نزعم أننا ندركه ، وأنه موصول بما تمليه النفس من الآمال والرغائب .

ولو أننا تعرفنا الصواب من حيث ينبغي ذلك لحمدنا مغبة البحث بعد هذه الأجيال الطوال، ولكن صرف الناس عن ذلك أنهم أخذوا المادة مأخذ العنصر الأشرف ، فصاروا يتعرفون حالاتها . وسبب ذلك أنهم خرجوا إلى الوجود ، وهم يجهلونه فلفتت أنظارهم المادة ومناظر أعضائها ، فاختطفت بهجتها النواظر ، واجتذبت القلوب فكانوا كلما بحثوا عن شئ أو نظروا إلى أمر أتبعوا خواطرهم ما وراء ذلك ، من الربح المادى والفائدة التى زعموا أنها كفيلة بتهذيب حياتهم وتنظيمها .

ولكن للبحث طريقًا أشرف غاية ، وهو أن ينظر المفكر إلى ماوراء ذلك من الصلة التى تجعل بينه وبين الخلق الحميد سببًا يكون مصدره النفس . ولا يستقيم ذلك إلا إذا نظرنا نظراً صادقًا فى تاريخ النفس ، وأحوالها وأطوارها وما يصدر عنها من الإحساسات التى تملأ صحيفة العمر أقوالاً واعمالاً ، ثم نأخذ من هذه ماهو كفيل بتهذيب نظام الحياة .

فمن تلك العواطف التى يجب أن نعرف تأثيرها فى الحياة ونتنفع بذلك ، عاطفة إجلال العظيم الجليل الحسن من أمور الحياة ، التى تكفل تهذيب نظام الحكومة ، ونظام الأهل ونظام الصداقة ، ونظام الحب ، ونظام العلم ونظام العمل وغيرها مما يتشعب منها ويتصل بها .

ونذكر الآن معانى تلك العاطفة وهيئاتها التى تتلبس بها ، ومنازلها من النفس ومآخذها من القلب ، فإن لها من اللباس وهى فى صدر الشاعر ، غير ما لها وهى فى صدر الحكيم لأن كل واحد ينظر إليها ، ومن وراء ذلك شئ يُعَيِّن وجهة النظر .

إن حب الحسن الطيب آخذ من قلب الشاعر مأخذاً بليغًا لأن ممتزج بيقينه . والنابغة الحكيم لايرى اليقين إلا فيما كان مصدره الرغبة فى الحق ، والعالم المهذب لايرى استقامة الا بما كان مرجعه إلى توقير الحميد من الخلق ، والجليل من الأمر . فإذا أخرجنا هذه المعانى من أزيائها ، ازددنا يقينا فى أن المثل الأعلى جماع تلك المعانى . لأن الحب ،والإجلال والتوقير ، هى المعانى التى تضمرها مراتب العبادة . ولكن العظمة والحق والحسن ، أشياء مقرونة فى قرن . فإذا نظرنا إلى الوجود ، علمنا أن كل أجزائه أزياء لتلك القوى الخفية ، التى ملؤها الحق والحسن والعظمة ، والتى لا نشعر بها إلا من حيث اتصالها بالحواس والإحساسات .

بين الأمر الحسن الجليل وبين القلب صلة ، أصلها تلك النغمة التى يحدثها وقوع القلب على ذلك الأمر ، وهذه الصلة تختلف باختلاف العوامل التى تدفع القلب إليه .

وليست تلك الصلة إلا ذلك الشعور الذى يدعونه حبًا أو توقيراً أو إجلالاً أو عبادة ، وإنما هذه المعاني مراتب من مراتبه ، تختلف باختلاف العوامل التى تميل بالقلب إلى الأمر الجليل . فإذا كانت الصلة شريفة السبب عالية النسب ، كان ذلك الشعور خليقًا بأن يدعى بما هو أكثر دلالة على الفناء فى شخص المعبود .

ولا تحسب أن مظاهر الروح تختفى فى عصر من العصور ، فلم يكتمها أن ذاعت المذاهب التى تفسر الكون تفسيراً ماديًا ، كأنما الكون لعبة فى يد الفلاسفة ، يحلها ويربطها الواحد منهم لابنه ويريه خفاياها ، وسر تركيبها وصنعها . فإن هؤلاء الفلاسفة قد رفعوا شأن المادة ، وبينوا أن لها نظامًا وسننًا وأن العقل البشرى مظهر من مظاهرها ، ونتيجة من نتائجها . وهذا صواب ؛ ولكنه لا ينفى عنها وحدة وروحًا . وقد فاتهم أن العقائد وغيرها من مظاهر الروح التى تغرى المرء بالسمو إلى مراتب المثل الأعلى ، سنة أيضًا من سننها . وأن طموح النفس إلى الجميل والجليل ، وكفاحها فى سبيل ذلك المثل ، مظهر من مظاهر سنة النشوء والرقى . فمن الناس اليوم من يتخذ الاشتراكية عقيدة ، ومنهم من يتخذ التهذيب وتكميل الفرد دينًا . والسبب فى ذلك أن النفس ، لابد ، أن تبلغ الرضا بما يستنبطه العقل من معانى الحياة وأسبابها ، وإن استعصى ذلك ، ولابد أن تصيب مخرجًا لها ومجالاً لقواها فى الحياة .

الصيف

هو برء من العـــشــا وشــفـــاء من الكبـــر[١]

لكأن نفس المرء تعظم فى الصيف حتى تملأ الفضاء ، وتختفى فى الشتاء اختفاء الأزهار . وكما يخيل للمرء أن سماء الصيف اسمًا وأبعد من سماء الشتاء ، كذلك يخيل له أن سماء نفسه فى الصيف أسمى وأبعد شأواً ، ويخيل له أنه إذا مد يده قبس الحياة من الضياء والنسيم، ويحس كأنه ينتشى من حرارة الشمس كما ينتشى الزهر منها ، وكأن المرء يعيش أيامًا كثيرة بالصبر والاحتمال حتى تتاح له ساعة تحسر له الطبيعة فيها عن جمالها ، وإن من عاش السنين ولم يرو من محاسنها كان كأن لم يعش .

نرى الأزهار فى الصيف ناعسة كأنما أنامها طرف الشمس باقتدار لحظاته . إن محاسن الطبيعة تسحر النفس حتى تتضاءل بلاغة الرائى ، وحتى يعرف من نفسه العى والعجز ، فإنها تبيح من جمالها ما يبيع الوارث المسرف من ماله ، وما تبيح الخليعة من محاسنها ، فيحس المرء لذة فى رؤية أشعة الشمس نائمة منطرحة على الأرض ، كلذته فى رؤية الحسناء المنطرحة على فراشها . ويشم النسيم كأن النسيم يحمل نفحات أشعة الشمس المذهبة ، وكأن الشمس زهرة تبيحه عطرها وكأنما حفيف الغصون ذكرى الماضى ، أو كأنما هو صوت ينادى المرء من عالم آخر أو هامس يهمس فى أعماق نفسه ، وكأنما تلك الغصون قلب دائم الخفقان .

فى الصيف يحس المرء كأنه طائر يهم بالطيران فيتشبث بالأشجار خشية أن يطير .

هل فى ضمير ذلك الغدير الذى كان لنا زمنًا ينبوع الحياة ذكرى الأوجه التى تقاربت على وجهه ، وتحابت ونظرت فيه لترى خيالاتها يقبل بعضها بعضًا ؟ هل فى ضمير ذلك الغدير ذكرى تلك الأوجه والأيام ؟ فكم رأينا عنده أشعة الشمس تنفذ من خلال الأشجار كأنها فراش على وجه الغدير ، وكانت تضئ كما تضئ الذكرى فى ليل النسيان فتجلو وجوه السنين الماضية ، وكأن تغريد العصافير تغريد الأمل فى النفس . وفى بعض الأحايين كانت تغرد العصافير وهى مختبئة فى الأشجار كأنها أفواه الأشجار الصادحة .

(فشدو الطير صوت فم الربيع)[٢]

---

١ - من الجزء الرابع للمؤلف من قصيدة (حديقة الصيف) .

٢ - من شعر المؤلف .

إن اعظم لذة يقتبسها المرء من الأزهار والغدران والنسيم ، هى لذة الأحلام . فيحلم بحياة سعيدة كحياة الأزهار ، حياة يشم منها نفحة الزهر ، ويسمع منها تغريد العصافير ، ويرى منها أشعة الشمس . والأزهار هى عيون الطبيعة يذوب أمامها روح الرائى ، كما يذيبه سحر عيون الغيد . وإنما يشجونا الصيف لأن أنفاسه مثل أنفاس العاشق . أما الخريف فإنه يبعث إلى التفكير لأن أزهاره تتناثر كما تتناثر لذاتنا البائدة ، وأيامنا الخالية وأحبابنا الذين طوحت بهم عواصف الأقدار .

فى الصيف أحسب الشمس بابًا يلج المرء منه إلى الفردوس ، وأحسب الروض ثغرة يطل المرء منها على الخلد . وأرى الماء فى الغدير فأحسبه ماء الحياة الذى أسمع عنه فى قصص العجائز ، وكأن الخلد فى جرعة منه ، وكأنما الضوء تبر منثور أو غدران صافية الأديم . والضوء شعر الطبيعة ، موقعه من البصر ، موقع الألحان من القلب . ويعجبنى سطوع الشمس على الوجه الجميل ، لأنه يذكرنى سطوعها على الفاكهة والزهر .

فى الصيف يخيل للمرء أن للدهر صوتًا وفمًا ، وأن لكل شئ منطقًا وكأنما روحه قد ألهمت لغات الكائنات .

الصيف حلم جميل من أحلام الطبيعة . تحسب فى الصيف أن صانعًا صبغ الوجود صبغة جديدة ، فتلمس الزهر ثم تنظر فى يدك لترى أثر طلاء لونه الجديد . ويخيل لك فى الصيف أن الروح بركة صافية ، تنطبع فيها صور الحياة كما تنطبع صور الروض فى غدرانها . وأن ألوان الصيف كؤوس مثل كؤوس الرحيق ، ينتشى المرء منها كما ينتشى من الخمر المعتقة . أما فى الشتاء فإن جفاء الطبيعة وجيع مثل جفاء الأحباب . والجمال ضياء السعادة وزهرها ، فإنه ينسى المرء الشقاء والشر ، حتى يحسبهما حلمًا من أحلام النوم ، فيكاد لايرى للشقاء والشر سبيلا إلى هذه الطبيعة التى يبصر جمالها ، كأنما هى منى النفس التى تنشدها .

وإن المرء لينظر إلى محاسن الطبيعة فى الصيف ، كأنه نقل إلى عالم مسحور كان يحلم بمحاسنه . فالصيف هو شهوات السمع والبصر ، بل هو شهوات النفس والحس ، تصغى الأذن فيه إلى شدو الطيور قبل أن تتغنى ، وتتطلع العين إلى الزهر قبل أن تراه ، وينشق الأنف نفحاته قبل أن يحملها النسيم إليه تلك النفحات التى تكاد تصبغ النسيم بلون الزهر ، وتكاد كل نفحة تكون زهرة تلمسها اليد . وكما أن السماء ترتسم على صفحة البحر ، كذلك تريق

السماء لونها على الزهر . فإذا كانت السماء مشمسة كان الزهر مثلها ، وإذا كانت داجية كان داجيًا ، وإذا كانت مقمرة كان الزهر مقمراً .

تفلت النفس من رق مشاغل الحياة كي تلتذ الصيف ، فهي كالعصفور الذي يفلت من يد الصبي الذي يعذبه ، فلا يفلت من الخيط الذي قيده به ، فإذا طار وقع على قرب ، فلا يلتذ أنه طليق ويخشى في كل طرفة أن يأسره معذبه فآه لو كانت الحياة فرحة وعرسًا أو حُلمًا لذيذاً من أحلام الصيف والسعادة . ولكن مشاغل الحياة ، لها في عنق النفس قيد من خيوطها ، مثل خيط الطفل في عنق الطائر .

ويخيل لك في الصيف أن عصافيره المغردة ، خارجة من صدرك ، وأنها أشجانك وأماني نفسك ، ويخيل لك أنك ترى في أنغام الطيور شيئًا من السماء والماء والأزهار ونفحاتها ، والرياح ونسماتها ، والشمس وأشعتها . وكأن سمو الطيور موقظ في نفسك الرغبة في السمو، فتود النفس لو تسمو كالطيور حتى تسامر النجوم ، التي هي طيور السماء ، ثم تتعداها إلى ما وراءها وتظل النفس تسمو إلى الأبد .

جنة الأدباء

كنت يومًا اقرأ رسالة الغفران التى صنفها المعّرى ، فجلبت لى النوم قراءتها ، فرأيت فى الحلم جنة مثل الجنة التى يصفها ، وفيها الأدباء والشعراء .

رأيت أديبًا لا أعرفه ، يتلو على طلابه درسًا فى خيال الشاعر ، وسنن الطبيعة ، فسمعته يقول : إن التماس معرفة سنن الطبيعة يكسب الشاعر دقة فى التمييز ، ويجلب له حسن الذوق فى اختيار المعانى ، والتفريق بين الخيال السقيم والخيال الصحيح . وهو أيضًا ينمى صحة المنطق فى أشعاره ، ويكون باعثًا لأن يخفض الشاعر من غلواء المغالاة بأن يعلمه جلالة البساطة ، فإن مظاهر الطبيعة تفتح للشاعرَ بابًا من الخيال يغنيه عن تطلب تلك الأوهام التى تسلك فى باب المغالاة ، والتماس معرفة سنن الطبيعة ، ينمى عاطفة تقديس مظاهر الوجود ، وذلك يفيض على القلب طهارة ويجعل فى الروح سعة ، لأن تفهم أسرار الحياة ومعانيها . وهو أيضًا يزيد خيال الشاعر صحة ، فيكون سموه مثل سمو النسر يعلو ، ولكنه إذا رمى الأرض بلحاظه أصابها بها فهو بعيد السمو ، بعيد النظر . فيجمع الشاعر الذى يلتمس عرفان سنن الطبيعة ، بين سعة الخيال وصحة المعنى ويكون خياله مكتسبًا من صدق النظرة ، لا مثل خيال معالج المغالاة فإن خيال هذا مكتسب من كذب النظرة . أليست المغالاة نظرة كاذبة . ولكنه لايسلك فى باب المغالاة المذمومة ما يقوله الشاعر عن لسان من بدهه خطب أو كرثه حزن ، أو ما يقوله أيضًا عن لسان عامى النفس ، فإن هؤلاء يلجؤن إلى المغالاة بحكم الطبيعة للتعبير عن عواطفهم وآرائم .

ثم أبصرت أبا زيد السروجى ، يلقى درسًا فى المترادف . ويقول كلما عظم التفكير بين الأدباء ، قل المترادف . والسبب فى ذلك أن كل مترادف يأخذ معنى لم يكن له قبل ، لأن ذلك من دواعى التدقيق فى البحث وراء المتشابه والمتناكر من المعانى . وخير للمترادف أن يسد حاجة من حاجات التفكير ، بدل أن يعيش مقبوراً فى كتب اللغة ، وسيكون للمترادف نفع جليل ، فيجد ما كان غير محدود من المعانى ، ويلبس المعانى الجديدة ثيابًا جديدة ويزيل ذلك الإبهام ، الذى يجعل المتناكر من المعانى متشابهًا ، والمتغاير متعارفًا ويعوق الأديب عن التفكير الصحيح .

ثم أبصرت صديقًا من الأدباء المعروفين أعهد فيه الشذوذ ، يلقى على الطلاب درسًا فى فلسفة الشذوذ . فسمعته يقول :

الشذوذ عنوان العبقرية ، ودليل على سعة فى الروح ، فإن ضيق الروح لايرى الصواب إلا فيما تسنه العادات . ولكن واسع الروح يرى أن الصواب كثير المنازل ، ويعرف من منازله ما لا يعرف قتيل العادات . والشذوذ أيضًا دليل على شجاعة المرء ، فإن الجبان يخشى أن يرتاد مظان الشذوذ جبنًا ، فلو أنه كان عزيز النفس لرأى أن فى بعض الشذوذ خلاصًا من الضعة ، وانتصاراً لجلالة النفس والضمير الحر ، فإذا رأيت أمة ذليلة كثر بينها أهل الشذوذ الذين يجرؤون ، ويقدمون الذين لا يبيعون جلالة النفس بالخفض والجاه ، الذين ينصرون ضمائرهم بإعزاز أنفسهم الذين يعرفون أن العادات مظاهر الحق والباطل ، ولباس الصدق والكذب ، الذين لايخشون الداء والفقر ، والجوع والسب والاحتقار والخمول فى نصرة الحق ، إذا رأيت أمة ذليلة كثر بينها هؤلاء فاعلم أنها أمة عزيزة .

ثم أخرج من ثيابه رغيفًا فجعل يأكله ، فكدت أبكى فرحًا من جرأة هذا الجرئ ، ثم قلت له أصحيح أنك تحتقر الحياء ، فقال إنى أريد أن أرفع عن النفوس حجابًا من الحياء الكاذب ، فأجلوها مكشوفة الجسم ولكنى أجلوها فى زى طفل صغير . والطفل إذا كشف جسمه ملأنا ضحكًا ولم يملأنا غضبًا ، ثم رفع يديه وقال أيتها الآذان العفيفة إنى لا أتلو عليك غير ما يحدثك به ذلك الهاتف الذى يهتف من أعماق الروح ، فإذا أبت لك اللجاجة أن تنزلنى منزلة الطبيب الذى يصلح سقم المريض فيعطيه من الصحة والعافية ، ويأخذ من دراهمه فانزلينى منزلة الطبيب الذى يأخذ من صحة المريض ويعطيه أجرة إتلاف جثته . أليس هو خيراً من ذلك الطبيب ، الذى يتقاضى المريض أجرة إتلاف جسمه وجعله رمة بالية .

فتركته وجعلت أمشى حتى رأيت فلانًا الشاعر يلقى على تلاميذه درسًا فى مستقبل الشعر ، فسمعته يقول : الشعر عند كثيرين من شعراء اليوم مثل إناء حلية يضعونه فى بيوتهم زينة لها ، أو كفاكهة الجص التى ليس لها نفع ولكنه عند العبقريين إناء منفعة يستعملونه فى الحوائج . أليس إناء الحاجة خيراً من إناء الحلية ، وسكت قليلا ، ثم قال : ألم تسمع فى قصص العجائز أن ساحراً أسر فتاة حسناء وحبسها فى قصره وأعطاها مفاتيحه ، ولكنه حرم عليها أن تقرب غرفة من غرفه وأنها ترقبت غيابه حتى إذا غاب عن القصر ، فتحت تلك الغرفة فرأت فيها من بنات الملوك عدداً كبيراً ، وكان قد أحبهنّ ذلك الساحر

فأسرهن واحدة فواحدة ، ولما ملّهنّ سحرهن وجعلهن فى الغرفة ، فعلمت الفتاة أنها لا محالة سائرة إلى حيث سرن ... إلى آخر هذه القصة ... إنه ليجول فى خاطرى أن تلك الفتاة هى الشعر فى هذا العصر ، وأن ذلك الساحر هو غول التقليد والعجز والجبن الذي حرم على الشعراء أن يقربوا المعانى الكريمة التى سحرها وحبسها . انظر إلى الشعراء كيف يبغضون كل من كان حر الذهن حر الرأى ، فإذا سلك بينهم طريقًا عذراء ، قالوا ما هو إلا خابط ليل قد أضل طريقه ، قلت صدقت قال ولكن الشعر حر يأبى أن لايرى جوانب الحياة ، وينظر فى تلك الغرفة المحرمة ليرى ما بها من المعانى الكريمة الأبكار .

ثم مررت بالسيد عصفور يلقى على سامعيه درسًا فى فن الغناء فسمعته يذكر للغناء تعريفًا بليغًا ، كان بودى أن أذكره ، ولكن منع من ذلك أنه يقال ولا يكتب ، لأن كله صياح .

ثم رأيت على قرب ، تماثيل عارية ، فقربت من بعضها ، وكان تمثال عطارد فقلت له : ما تستحى أن تخرج إلى الناس عارى الجسم ، فقال على رسلك . أما والله لقد كدتم تنسون أن الإنسان خلق عريانًا ، وصرتم تعيشون فى ثيابكم ، بدل أن تعيشوا فى أنفسكم . ولم يبق بينكم غير هذه التماثيل توقظكم رؤيتها من غفلة المدنية ، وذل العادة وتخرج من قلبكم ذلك الجبن ، الذى مكنه الجهل منها ، فكيف تستحون من رؤية أجسامكم وأنتم لا تستحون من مواقعة الرذائل ؟ فقلت : أعوذ بالله هذه بقية من بقايا الوثنية . فقال : يا قتلى المظاهر وأهل الرياء ، إنما الحياء هو إباء المرء أن يعاقر الرذيلة . وأماذلك الحياء الذى يمنع المرء عن التماس ما يفك عنه قيود العادة ، فهو مثل الحمرة التى تصبغ بها الهلوك وجهها لتخفى ما بقى من الحياء الصادق . وكان تمثال الزهرة قريبًا منا ، فلما سمعت حديثنا قالت : ليس الجمال ضعفًا ، ولكنه قوة للأمم تزيدها رغبة فى الحياة ، فتلتمس أسبابها وتستفز قواها رغبة فى التمتع به ، وإنما الضعف يتسرب إلى الأمم من رغبتها عن بعض أنواع الجمال . وليس التعلق بجمال الأجسام وجمال الفنون عائقًا عن الرغبة فى جمال الخلق ، وجمال العلم ، وجمال القوة ، فإن أنواع الجمال مثل أصابع اليد يعين بعضها بعضًا ، وليس جمال المادة وجمال أشكالها بمخفوض الشأن إذا عد أنواع الجمال ، فلولا جمالها لكانت الحياة حملا ثقيلا ، فالجمال أجل نعمة أنزلها الله على الناس ، ثم إن بين جمال الخلق وجمال الجسم صلة ، والدليل على ذلك أن رؤية الجمال تهيج فى القلب عواطف الرحمة والكرم والرفق .

إن لذتنا في الجمال تفك عنا أغلال العادة لنعيش معها . فلذة الجمال هى نشوة الحرية، ولكن جلال الجمال صحو من تلك النشوة . ثم تضاحكت وقالت هيهات أن تأخذوا من الفكر

الحر ولو أفقتم من غفلة العجز لعلمتم أن أغلاط كتاب الشرق التى سببها التقليد والجبن .
كانت تقول ذلك وهى تسخر فغضبت ورفعت هراوتى لأضربها بها فانتبهت من النوم فزعًا من أجل ألم شديد فى قدمى اليمنى فعلمت أنى ضربت بها الحائط وأنها كانت هراوتى التى رفعتها فى الحلم لأضرب بها الزهرة ربة الجمال .

قتلى المظاهر

قال المتنبى :

خيـر الطيـور على القـصـور وشرها ... يأوى الخراب ويسكن الناووسـا

وكذلك الصفات ، أحسنها ما كان حلية النفس العظيمة ، وأقبحها ما تخلقت به النفس الضئيلة . وكما أن الظلام مأوى الذنوب ، كذلك النفس الضئيلة مأوى المظاهر ، لأنها وسيلة العاجز وحيلة الضعيف ، ومن انقطعت دون الفضل أسبابه متّ إليها بأسباب أوهى من حبال الشمس ، وهى خدعة يزيفها الناقد .

بين الفضل الصحيح وذلك الفضل الذى تخلقه المظاهر ، مثل ما بين العين الباصرة ، والعين المصنوعة من الزجاج ، أو مثل ما بين العروس الحسناء وعروس الحلوى التى تصنع فى المواسم. إن الدهان الذى تصبغ به العجوز وجهها لا يخفى قبحه ، كذلك المظاهر لا تخفى حقارة النفس.

فاحذر أن يعرف الناس منك رغبتك فى إلباس نفسك زيًا ليس من أزيائها ، فإن لك إقرار منك بصغر شأنك وضآلة همّتك ، فتصير متهم الفضل محذور القول . إنك إذا لم تكن فاضلا فإن عرفانك الفضل فى غيرك ، غاية الفضل . وإذا كنت فاضلا تنقص من فضلك بأن تزيده من حلى النفاق والرياء .

لـو بُزَّ هذى النفـوس عطاؤها ... لرأيت أقبح ما رآه الناظر

لتضاءلت نفس التقىّ ودونها ... منع الوقار موارد ومصادر

إن النفـاق يسـر كـل رذيلة ... شنعاء يبديها الغوى السادر[1]

يا عجبًا لقتيل المظاهر . هل أبصر أحد بالعمى أم سمع أحد بالصمم أم صلح أحد بالداء ؟ حتى يريد أن يسود بالمظاهر . يا عجبًا لمن يعرف أن المظاهر خدعة ، ثم يجد نفسه لها أهلا . يا عجبًا لمن يفر من النقص إلى المظاهر ، أيفر من النقص إلى النقص ، وهو فى الحالة الأولى أفضل منه فى الثانية إنى ما رأيت أمة ابتليت بأعظم من المظاهر ، فإنها تميت القلب وتقتل الحياء الوازع عن مواقعة الرذيلة وتلهى عن تطلب الفضل الصحيح ضنًا بالسعى وخشية العثار .

---

١ - من شعر المؤلف .

وإن من قتلى المظاهر الفقير الذى يحتذى الغنى فى أساليب معيشته ، والغنى الذى يحتذى الفقير فى مثل ما يحتذيه الفقير ، وبين هذا وذاك رجل ينفق فى غذاء جسمه مالا ينفقه فى غذاء عقله .

وإن من المناظر التى يبكى منها الضاحك أن ترى الرجل يمشى مجيلاً بصره فى أنحاء لباسه، كما تجيل الحسناء فى الحمام طرفها فى أنحاء جسدها العارى ، ثم ينظر فى حذائه وهو يكاد يغسل عنه الغبار بدموعه ، كأنما عرضه فيه فهو يخشى عليه أن يلوث . يمشى ذلك المسكين فرحًا برواء لباسه وهو يكاد يأكل أصبعه من الجوع .

أما مثل الفقير المحتذى الغنى ، فمثل الغراب الذى أراد أن يحتذى الطاووس فاستعار ريشه ، فكان ذلك داعيًا إلى سخر الطواويس منه ، أو مثل الفراش الذى لايزال يتهافت على الضوء حتى يهلك .

ومن قتلى المظاهر ، الرجل الذى ينصح ابنه فيغريه بالفضيلة ، لأنها جالبة تقريظ الناس . ولو عرف هذا الرجل أن نصيحته هذه داعية إلى التلبس بالمظاهر ، وتلمس التقريظ حتى من الرذيلة ، لأشفق على ابنه وقلل من ذكر تقريظ الناس . ومثل هذا الرجل آخر يقول لابنه افعل هذا لأنه يقربك من رضاى ، واجتنب هذا فإنه يدنيك من غضبى ، فيحسب الغلام أن الشئ شر لأنه يغضب أباه أو خير لأنه يرضيه ، فإذا غفل أبوه أو مات وراودت الغلام نفسه ، أن يأتى شراً لم يعتصم منها .

ومن الذين استعبدتهم المظاهر ، الرجل الذى يعلق بطرف لسانه شيئًا من الحكم السائرة ، ثم يبتغى المجالس وهو لا يعرف أهلها فيطلق عليهم من حكمه ، ما ينفخ أوداجه من ثنائهم عليه . وإنما مثل هذا الطفيلى مثل أم العروس الحسناء إذا كمنت تحت سرير بنتها ليلة الزفاف. ولو لم يكن فى ذلك التقصى إلا أنه عدو الحياء ، لكفى ، فكيف به وهو دناءة ولؤم.

وممن ينتظم فى هذا السلك، الرجل الذى آتاه الله بسطة فى العلم أو فى المال فأبغض الإنسان . ولو كان مثل جوناثان سويفت يبغض فرداً ويحب نوعًا لرحمناه، والبغض مظهر من مظاهر حب الذات . وخير البغض ماكان حبًا معكوسًا ، وخير المبغضين من أبغض الرذيلة حبًا فى الفضيلة . وفى مثل ما نعنى قال العلامة صمويل جونسون : إنى أحب الرجل الذى يجيد البغض . وكما أن النحلة لا تضع الحرير ، والدودة لا تمج العسل ، والماء لا يقدح شرراً ، والنار لا ترشح ماء ، كذلك ، ليس من طبع العظيم أن يبغض . فإنه واجد صلة بينه وبين كل

شئ ، لأنه حلقة من حلقات سلسلة الوجود ، بل هو المنزلة التى يهبط إليها السامى ، ويعلو إليها الوضيع ، هو أخو الطفل والغلام واليافع والرجل والشيخ ، وهو صاحب التقى ، والفاجر، واللص والورع ، وهو الذى لا يأنف من أن يحنو على المسئ ويرحم المخطئ .

وليس مدعى الفقر فى باب المظاهر بأحقر من مدعى الغنى ، ولا مدعى الفضل بشر من مدعى النقص ، ولا محب الخمول بخير من محب الشهرة ، وإن من قتلى المظاهر ، من جعل مهنته فتق لحيلة لاجتلاب الشهرة ، ولو علم ذلك الأبله أن الأجراس التى توضع على صدور المعز لاتزيد فى ألبانها ، لما حسب أن الشهرة جالبة للفضل .

وممن يلج هذا الباب ، باب المظاهر ، الرجل الذى إذا حدثك ذم نقيصة من النقائص ، كى يلفتك عما فى نفسه منها ، وإنما مثل هذا الأحمق ، كمثل أخيه الذى يرى فى ثوبه قطعة ملوثة فيغسلها فى المداد ، كى تخفى فيكون ذلك داعية لاظهارها كما يكون التصنع فى كتم السر داعية لإظهاره .

عصور الانتقال

سبيل الإنسان فى الحياة ، مثل سبيل الغلام الصغير إلى المدرسة ، تعترضه فيه الهواجس فيحيد عنه إلى الحارات ويضيع وقته فى اللعب .

وكذلك الإنسان ، قد يحيد عن الغرض الذى خلق ليسعى إليه فى الحياة ، ثم يضيع الحياة عبثًا . وسواء كان الغرض من الحياة جليلا أو حقيراً ، فلا بد للأفراد والجماعات أن تشعر فى الحياة بغرض تسعى إليه ، وقد تكون حياة الأفراد والجماعات ، مثل نهر من الماء تعترضه تيارات متضادة من الميول والآراء والمذاهب المختلفة . من أجل ذلك يضطرب سطحه ، ويصعب على الأفراد والجماعات فى مثل هذه الحال ، أن تعيش حياة سعيدة . وكما أن الإنسان قد يؤدى به سعيه إلى طريق مسدود لا منفذ له . فيضطر أن يرجع إلى طريق آخر كى يصل إلى المكان المقصود ، كذلك الإنسان فى الحياة ، وكذلك الأمم والشعوب والجماعات ، قد يؤدى بها سعيها إلي طريق مسدود من طرق الحياة فتضطر أن نسلك طريقًا آخر يؤدى بها إلى الغاية التى تقصدها من النجاح والقوة .

وإذا كانت أمة فى عصر انتقال وتغير ، كانت حياتها مثل نهر تعترضه تيارات كثيرة متضادة ، فحينئذ تكون حياتها الاجتماعية والفكرية مضطربة متماوجة ، فيقع المفكرون من أفرادها فى حيرة وارتباك ، وفى مثل هذه الحال يصعب عليهم أن يحكموا حكمًا صادقًا على الحقائق ، كما أنه يصعب على من كان فى وسط الزحام ، أن يحكم حكمًا صادقًا عما يحدث فى ذلك الزحام من الشجار واللطام والخصام ، فإذا أراد أن يحكم حكمًا صادقًا ينبغى له أن يبتعد عن الزحام لكى يراه رؤية تامة صحيحة. فنحن نظن أن الحركة الفكرية فى حياتنا سريعة ولكنها فى الحقيقة أبطأ من السلحفاة ، فينبغى لكل منا أن يحرك هذا التفكير الحيوى بما يستطيع .

تمر العصور والقرون على الأمم والجماعات ، كما تمر الأيام والسنون على الأفراد ، ولكن لحوادثها قيوداً تقيد بها تلك الأمم والجماعات ، كما تقيد بها الأفراد . وإن المرء ليحاول أن يفلت من قيود الحوادث الماضية ، كما يحاول الطائر أن يفلت من حبائل الصياد . وكذلك الأمم تحاول أن تتخلص من قيود الحوادث الماضية والقرون الغابرة ، ولكن ذلك لايكون إلا إذا

صادفها من العوامل ما يحرك قواها الكامنة ، فتستخدم تلك القوى كى تصدع عنها قيود الحوادث الماضية . وهذه القوى تختلف مصادرها من أمل أو غضب أو يأس ، فإن لليأس فى بعض الأحايين قوة مثل قوة الأمل .

ونحن من الأمم التى تثقل أعناقها أغلال الحوادث الماضية وقيودها ، فإن القرون الغابرة وما أبقت فى حياتنا من الأثر : مثل ضعف العزيمة والطيش والتقلب والسأم والجهل وضآلة النفوس ، والجبن والتوكل إلا على عزائمنا والاعتماد إلا على أنفسنا ، كل ذلك مثل حمل ثقيل لا ننهض به ، يثقلنا ويكاد يفقدنا بواقى حياتنا ، فكأن هذه الحياة التى نعالجها نوم مضطرب غير هادئ ، وكأن حمل الحوادث الماضة ، وما أبقت من الأثر السيئ الكابوس الذى يضغط على صدر النائم ، وليست هذه الحركة التى فى حياتنا غير حركة النائم الذى أثقله الكابوس ، يتقلب ويتلوى من الألم . فهل رأيت أحداً حسب ذلك التقلب والتلوى نشاطًا وهمة ونهوضًا . نعم إن الكابوس لايزال بالنائم حتى يوقظه . وكذلك الأمة من الأمم فى عصر التغير والانتقال ، تكون كأنها تحلم بالعصور المظلمة السوداء الهائلة التى مرت عليها ، فيورثه الحلم كابوسًا فما يزال يتلوى ويتقلب من ألم الذكرى ، حتى يوقظه التلوى والتقلب ، وكذلك الأمم ولكن الأيام السوداء أيام التعاسة والشقاء ، تبقى فى نفس المرء أثراً تمحوه عوامل الرخاء شيئًا فشيئًا ، ولكنه لا يمحى كله بل يبقى فى النفس شئ منه ما بقيت النفس ، وكذلك يبقى فى الأمم ما بقيت الأمم ، أثر من القرون الماضية ولكن العوامل والمنازع والرغائب والآراء الجديدة تجدد قوى الأفراد ، كما تجدد قوى الأمم وتقلل من ذلك الأثر الذى أبقته القرون الماضية والذى يعوق الأمم عن منازل الرقى والقوة . وهذا الأثر الذى تبقيه القرون الماضية له مصادر كثيرة فهو ناتج من مرور عصور مظلمة على أمة من الأمم بالذل والتعاسة والضعة ، فإن الذل والضعة ينحتان فى العزائم ويمحوان الاعتماد على النفس ويورثان النفس ضآلة والذهن جهلا ويمحوان الفضائل الشخصية التى تؤهل الأفراد والأمم للنجاح فى الحياة .

وهذا الأثر السيئ قد يكون سببه فساد الأنظمة القديمة ، فإن الأنظمة تفسد الأيام والسنون صحتها ، كما تفسد الأيام صحة المرء وشبابه . فينبغى للأمم أن تتهيأ لقبول الأنظمة والآراء والمنازع والرغائب والآمال الجديدة ، وأن لا تيأس من فساد الأنظمة والآراء والرغائب القديمة ، لأن حياة الأمم مثل الماء إذا ركد ولم يحركه ويجدده تيار جديد من الماء عطن وفسد ، ولكن من أين تأتى النفوس الضعيفة تلك العوامل والدوافع التى تدفعها للتعلق بالمنازع والآراء والأنظمة الجديدة التى تجدد حياتها ؟ .

إن النفوس مهما كانت ضعيفة ل، ها أعماق لم يصل إليها باحث ، ولم يبلغها مفكر . وكما أن البحر العميق تنظر إليه فتحسب أنه خلو من الحياة والأحياء وهو ملآن بها ، كذلك النفس تنظر إليها فتحسب أنها خالية من عوامل الحياة وهى ملأى بها . غير أن للنفس قوى تبقى ساكنة راكدة ، حتى يحركها محرك من العوامل الأخرى النفسية ، أو من عوامل هذا الوجود ودوافعه . فكما أن الرياح تهيج قوى البحر وأمواجه . كذلك للحوادث رياح تهيج قوى النفس إلا أن بعض الأمم مثل بعض الأفراد ، لا تصادف تلك الدوافع التى تهيج ما كمن من قواها . نعم إن هذه الأنظمة والآراء والمنازع الجديدة ، قد تغير حياة الأمة كل التغيير حتى تصير كأنها أمة أخرى . ولكن خير للأمة أن تحيا حياة ثانية ، وأن تتغيرأحوالها من أن تنعدم وتفنى . وإذا نظرت إلى التاريخ ، وجدت أن تلك الأمم التى فسدت أنظمتها القديمة ، ومرت عليها عصور مظلمة بالتعاسة والذل والضعة ، يأتى عليها عصر تكون فيه بين عوامل التجدد والحياة ، فلا تخشى من التغير وعوامل المحافظة على القديم ، فتجبن عن الجديد وتحجم عن أن تجدد حياتها باقتباس المنازع والرغائب والآراء الجديدة . فإما أن تحياحياة ثانية وإما أن تنعدم وتفنى فى شخصية غيرها من الأمم .

على ظهر البحر

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء[1]

وتمشت على الأذى مشية الثمل من نشوة الرجاء لا من نشوة الصهباء

فكأنها وهى تناهض البحر ، والبحر يناجزها طالب يناهض صعاب الأمور أو كأنها الزاهد فى نفوره ووحشته وسكونه وعزلته ، أو كأنها الأمل إذا عبّ اليأس وطغى أو كأنها الفرضات العذاب تحوطها الخيبة والهزيمة ، أو كأنها السعى بالغًا بالمرء رغيبته ، أو كأنها المحب هائمًا على وجهه ، سالكًا طريقًا عذراء ، أو كأنها الفكر فى سفرته فإن للفكر سفره مثل سفرة الفلك.

تمشت السفينة فتمشت فى الصدور القلوب ، وتحركت لمشيتها الذكرى فى الخاطر الخرب وجعلنا نرمي المرفأ بلحظات كلها حسرات وزفرات ، كلها آيات بينات تنم عن ود صحيح وحب رجيح . تلك الزفرات مفاتيح القلوب ، وتلك اللحظات حبات القلوب ، وكأنى وأنا على ظهرها قارئ طوى كتابًا وفتح كتابًا ، وبين هذا وذاك مجال للتفكير فيما قرأ قبل استئناف القراءة ، فجعلت أنشر صحف ما مضى من حياتى ، فكأنى مفيق من حلم لذيذ ساءه أن مضى وسره أن لايزال يذكره فينعم بالذكرى ويشقى بها ، لأن فيها رجعة النعيم المسلوب وحسرة على فواته . وبعد أن خلبنا من الذكرى سلوتها ونعيمها ، بعثنا بالفكر واتخذنا منه دليلا على ما سيكون . ولو لحظت حياتك بنظر صادق ، علمت أن ما كان وما هو كائن وما سيكون ، مثل الحب والزرع والمحصود ثلاثة فى واحد ، وواحد فى ثلاثة ، ينثر الزارع الحب فيخرج الزرع خروج الجنين من بطن أمه ، فإذا طاب عاد حصيداً .

أيها البحر ليتنى موجه من أمواجك ، أهيم كما أشاء ، غير مسجون الفضيلة والفؤاد واليد واللسان . إنى أرى الموجة تتسرب فى خلال الموجه ، والريح تعانق الريح ، والضياء يغازل الماء. والسماء تلحظ البحر لحظات تسكن فى قلبه كأنها لحظات الحبيب فى خاطر المحب ، فترى فى السماء نجومًا وفى البحر نجومًا . أيها البحر قد علمتنى معنى الحب والبغض والغضب ، أيها البحر أنا منك وأنت منى ، فإنك مشبوب العواطف وأنا مشبوبها ، فكن علىّ

---

١ - من شعر شوقى .

رفيقًا كما يرفق القرين بالقرين . إنى لأنظر إليك فأرى لكل هائجة جناحاتهم به إلى السماء ، وكأن الأمواج جيشًا وغى ، هازم ومنهرم ، وكأنا من البحر على ظهر فرس جموح ، وقد خانتنا اللجم فصارت تطغى وتدفع بنا كل مدفع .

ثم ارتفعت الشمس وكشف الظلام عن منظر بهج كأنه قطعة من الفردوس فجعلنا نتساءل أى ملك كريم حدا بنا إلى هذا النعيم ، رأينا وما أروع ما رأينا ، حسنات وجنات ومنظراً هو فى العين بهجة ، وفى القلب شجو . هنا يهب المرء نفسه للماء والهواء . هنا يهبط الشعر وتنزل الحكمة . هنا تولد النغمات وتحيا الأشجان وتجرى العبرات ، ويجهد القلب بالخفقان . أيتها السحب ما أهيمنى إلى نواحيك ، وأنت أيتها الأمواج ما أشوقنى إلى حياة مثل حياتك.

هنا يهبط الفكر والخشوع ، وتعظم النفس حتى تصير كالسماء أعاليها وكالبحر أسافلها ، وكالأفق غايتها . والأفق كلما قاربته باعدك ، وكذلك غاية النفس .

هنا يحس الرائى كأنه يحمل فى نفسه بحراً من الآمال والأشجان ، وكأن البحر قلب أمواجه نبضاته ورياحه خطراته ، أو كأنه مخلوق كبير تارة يروعك بزئيره وتارة يشجيك بخريره ، وخرير البحر ذكري سنية الماضية فكأن خريره هاتف يهتف فى أعماق نفسه ، وكأن المرء إذا امتطى البحر امتطى منه مطية الخلد ، فالبحر كالنفس فإن للبحر أمواجًا ، وللنفس أشجان . والبحر كالدهر ، فإن للدهر أمواجًا مثل أمواج البحر . والبحر كالحياة فإن البحر يفزع كما تفزع الحياة . ولكن قلب المرء يحس لذة فيما يهيج فى نفسه الخشوع . والفزع من مظاهر الجلال سواء جلال البحر وجلال الحياة .

وصف البحر

تناءت بك الأمـــواج وهى نوافـــر وجـــاءت بك الأمـــواج وهى ثوائر[١]

كـأن بهـا عـجـز المشيب إذا انثنت وعـزم الشـبـاب الغـرّ وهى بوادر[٢]

فى نومـه الظلّ البطئ مـسـيـره وثب وثبـة اللهـفـان حين يكاشـر[٣]

لنصب حلم خـــامل البطش هادئً ضـمـنت وجـهـل شـرّه مـتطاير

كـــأن لنا من لجّ مـــائك واعظًا بليــــغًـــا لـهُ مما اثرت زواجــــر

لمحـــتك والأمـــواج فى وثبـــاتهـــا عـسـاكر حربٍ قـد تلتـهـا عـسـاكر

فـبـينا يريق الضـوء فـوقك مـاءهُ وتجـرى عليك الريح وهى خـــواطر

ويتلو عليك الصـــائدون غناءهم يرجـــعـــه لحنٌ من الماء مـــائر[٤]

ويســمـعك الملاّح من شجـو قلبـه أحـــاديث قـــد تاقت لهنَّ الحـــرائر[٥]

إذ الجـــو جـــهم والرياح كـــتـــائبٌ وإذ أنت مـقـبـوح السـريرة غـادر[٦]

ورب ســفين يقـرع النجم مـجـدها تقـــاذفـهـــا مـــســتـوفـز اللجّ هامـر

يروعــهـــا فى كل هوجـاءُ مـوعـدٌ ويســعى لهــا قــبــرٌ من الماء ســائر

فليس الغـمـام الغـمـر إلاَّ رياحـهـا وما المرسلات الهـوج إلاَّ الهـوامـر[٧]

ومـا ذلك اللج الذى فى سـمـائهـا بأهدأ مـن لجّ نمتـــه الزواخــــر[٨]

---

١ - تناءت : بعدت .

٢ - أى أن الأمواج إذا ابتدرت الشاطئ كان لها بطش الشباب وعزمه وإذا رجعت كان بها عجز المشيب وضعفه .

٣ - اللهفان هو الغضبان والمكاشرة المشاجرة والمعاركة .

٤ - مائر : أى سائل .

٥ - تاق : اشتاق ، والحرائر : النساء المحجبات .

٦ - كتائب جيوش .

٧ - أى أن الغمام فى صولته مثل الرياح والرياح مثل الأمواج .

٨ - نمته : نسبة إلى نفسها .

إذا ذكـر الملاّح زوجًـا وصـبـيــة طغى سجنٌ فى مرجل الصدر فائر[١]

ينفس عنهُ بالغناء وكـفـفــه تقـيم على جـفن به الدمع حـائر

وتذهل عن مـهـد الوليـد فـتـاته إذا مـا رمتـهـا بالوعـيد الزمـاجر[٢]

ومـا هى إلا دولة طار شـأنهـا فــأوحت إليــهــا (؟)[*]

ومـا هى إلا صـولة ثمت انجلت واكـبـر غـرقـاها المسـاعى البـوائر[٣]

---

١ - المرجل : القدر ، توضع على النار .

٢ - الزماجر : جمع زمجرة أى صوت الرياح والأمواج الذى يشبه زمجرة الأسد .

* - غير واضحة فى الأصل ولعلها المظاهر .

٣ - البوائر : من بار يبور إذا تلف ، هذه القصيدة من الجزء الثانى من ديوان المؤلف .

(٤)

الصحائـــف

الطبعة الأولى : مطبعة غرزوزى بالأسكندرية ، ١٩١٨

الحياة الجليلة

ليس هناك صلة بين الكبر وعزة النفس، فإن الكبر سببه غفلة المرء عن حقارة ما يتيه به من مظاهر الحياة ، وأما عزة النفس فسببها عرفان المرء جلالة النفس فالكبر هو غرور المرء بماله أو جاهه أو ثيابه أو أدبه أو علمه ، وأما عزة النفس، فهي صحو من ذلك الغرور. أليس بين الناس من هو ذليل النفس واسع التيه عريض الكبر ؟ إذا فطن المرء لعظم الحياة، رأى أن له رأيًا وحقًا في شئون هذا الوجود ، أو كأنه يحمل الوجود على كتفيه، فإذا غفل عن عظم ذلك الحمل وجلالته ، كان مثل البهائم يساق إلى حيث يشاء سائقه ، وإنما سائقه هو ذلك العظيم الذى صحا من نشوة العادة وخلص من رق المظاهر ، والذى لايبيع عزة نفسه وحريتها وصحة ضميره بالخفض والجاه، والذى يهزأ بالفقر والجوع. إذا كان الشبع لاينال إلا بإذلال النفس ، ومن أهان نفسه فقد أهان الناس فيها ، فالعظيم هو الذى يسخر من احتقار الناس إذا كان رضاهم لايستجلب إلا بأن يقيد نفسه بقيود العادة القبيحة ، وبأن يتزين بتلك المظاهر البيضاء التى كلها رياء ونفاق ، والتى يستتر بها الناس سواد نفوسهم والضئيل هو الذى يحسب أن جلالة الحياة فى أن يأكل مريئًا وأن يشرب رويا ويتحلى ويتزين ويسمى محترمًا مؤدبًا .

أيها البائعون بالوفر عز الـ   نفس إن النفوس ذخر جليل

المصريون قوم تعوزهم خشونة فى الحق سببها صدق السريرة، وإقامة من غفلة الحياة فإن مر الأيام يجعل الحياة عادة لايهمنا صلحت أم فسدت ، وإن تلك الظواهر البيضاء الناعمة التى تزلق عن نفس صاحبها كما ينزلق الزيت عن قفا الزيات تغرى المرء بأكاذيب الحياة الحقيرة من غرور وخداع ورياء وكذب تيه .

وهذه المظاهر تنسيه عظم الحياة وتشغله عن التماس القوة فى الخلق والرأى واليد، فإذا فطن المرء إلى عظم النفس التى هى جزء من أجزاء روح الوجود لرأى أن يجعل صحته وراحته فى سبيل إعزازها ضحية فإن المرء يعصى الله ويغضبه بأن يهين نفسه ويحتقرها ولاتنهض الأمم إلا إذا أعزت نفوسها ، فكيف تنهض فى مراقى الحياة النبيلة، ونحن نعبد النعيم أكثر من عبادة الجليل ، ونعيش فى ثيابنا وجاهنا بدل أن نعيش فى نفوسنا .

يا عُبَّاد المظاهر لقد ألهتكم عن عظم الحياة حتى صار أكثر الناس يعيش فى آراء الناس، وحتى صار أكثرهم يعيش مقبوراً فى الأحوال التى تحوطه ، أو مدفونًا فى ثيابه، وحتى صار أكثرهم يحسب أنه يستخدم قوى عقله، كى يكسب رزقه ويصون جسمه ويحفظ له صحته وهذا زعم فاسد ، فإن المرء إذا بلغ من التهذيب مبلغًا ، علم أنه يلتمس من الرزق ما يقيم حياته كى يستخدم قوى عقله فهو يعيش ليفكر فالذى يحسبه وسيلة ، وهو التفكير ، إنما هو الغرض الأقصى ، الذى يحسبه غرضًا، وهو الحياة ، إنما هو وسيلة الفكر والعمل .

أول فرض كتب على المرء هو أن يحس عظم الحياة وجلالة النفس ولم يكن ذلك الإحساس أول فرض لأنه أكثر جلبًا للمنفعة من غيره، ولكنه كان أول فرض لأن فى كل نفس شيئًا من الله ، صلاحه فى أن يحس المرء عظم الحياة وجلالة النفس فليس الذى يأتى الخير ويواقع الفضيلة رغبة فيما وراءها من المنفعة ، أو رهبة مما يجلبه الشر على فاعله من الأذى بجليل النفس مثل الذى يأتى الخير، ويزاول الخلق الحميد إحساسًا بعظم النفس، فإن كل نفس لها رأى وحكم نافذ فى شؤون هذه الحياة ، فإذا بلغ المرء من التهذيب منزلة يرى فيها أن على نفسه فرضًا نحو الحياة والوجود فرضه عليها عظمها وجلالتها من أجل أنها عضو من أعضاء تلك الروح الخالدة التى هى سر الحياة ، وقوة من تلك القوى التى تزجيه إلى منازل الرقى، كان أقرب إلى الله من ذلك المختبل الذى به مس من الجنون، الذى يسهر الليل يردد كلمات لاتغنى عنه شيئًا ، كلمات لاتغذى عقله ولاتربى نفسه، ولاتقوى جسمه. والعبادة هى أن يقوى المرء عقله وروحه وجسمه .

يحسب كثير من الناس أن ترديد تلك الكلمات ، يقوى فيه عاطفة التقوى ، وهو لايفعل ذلك. و وليست التقوى أن يعف المرء خوفًا وجبنًا، بل هى عفاف المرء من أجل عرفان عظم الحياة وجلالة النفس.

الإيمان مزيج من ضدين ، الطمأنينة والخوف غير أنه فى روح العظيم أكثره طمأنينه ، وفى روح الحقير أكثره خوف. والطمأنينه هى تلك الثقة بالله التى تبعث المرء إلى العمل، والسعى والقلق رغبة فى صلاح الحياة وإحساسًا بعظمها، فإذا سأل سائل كيف تجتمع الطمأنينه والقلق ، قلت إن الطمأنينة هى أن يثق المرء بالله، وأما ذلك القلق، فهو رغبته فى صلاح شؤون الحياة وطموحه إلى منازل الكمال فيها، وإذا وثق المرء بالله فرغ للاهتمام بأمور الحياة بعد أن كانت قلة وثوقه من الله تدفعه إلى أن يمضى حياته فى تعديد حبات المسابيح .

وليست الطمأنينة أن يكون الضمير نائمًا ، ولكنها أن يكون الضمير يقظان هادئًا ... إذا نظرت أيها القارئ إلى عظم همم المسلمين التى بسطت مدنيتهم بين أسبانيا والصين، ثم نظرت إلى ضعف عزائمنا وخمود هممنا، وسألت نفسك عن سبب ذلك، علمت أن السبب هو إمتلاؤهم من روح الدين، وأننا قد مات روح الدين فى قلوبنا، وصرنا نحسب أن مظاهر الدين، هى روح الدين، فلو سألت شيخًا من مشايخنا أى الناس أقرب إلى الله ، قال لك هو الذى يسهر الليل يقرأ الأوراد، ويعد حبات المسابيح ... إلا أن أقرب الناس إلى الله ، أعظمهم إحساسًا بعظم الحياة، وأكثرهم معرفة لجلالة النفس .

إن روح الدين هى قلق المرء رغبة فى الكمال ، وهى إباؤه أن يكوت قتيل العادات والمظاهر، وهى أن يثير المرء قوى نفسه وعقله .

أكذب الدين ما ينيم قوى المر ء كما يخرس الرياح الركود[1]

قوموا بنا نهدم كل عقيدة بنيت على قلة الوثوق من الله، ونعلى شأن كل عقيدة بنيت على حبه وإجلاله إنك إذا أردت أن تعمل لدينك، فاعمل ما فيه صلاحك وصلاح الناس فى هذه الحياة، وهذا معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم (أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) هذه كلمة من الكلمات التى لاتموت أبداً . أنظر إلى قوله (أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً) أليس معنى هذا القول أن تعمل ما فيه صلاح الكون وانظر إلى قوله (أعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) أليس معناه أنه ينبغى لك أن لاتزدهيك مظاهر الدنيا، فتجهل جلالة النفس ، أليست هذه عقيدة العمل والأمل التى رفع الأوربيين اعتقادهم بها وخفضنا ذهولنا عنها ، جاءنا سيدنا محمد عليه السلام ليعلمنا كيف نعبد الله بأن نعبد القوة والحياة والجمال، لا بأن نعبد المرض والضعف والموت والسل ورضاب المعتوهين. جاءنا رسول الله يعلمنا جلالة النفس وعظم الحياة. جاءنا يعلمنا كيف نعمل لدنيانا كأننا نعيش أبداً ، ما رأيت روح الدين ظاهرة فى كلمة مثل ظهورها فى هذه الكلمة (أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً) فإن فيها حثًا على الوطنية والحضارة والعمران، حثًا على القلق ، رغبة فى انتصار الجليل على الحقير. حثًا على عبادة القوة ، حثًا على الثقة بالله ، حثًا على معرفة عظم الحياة

---

(١) من قصيدة الحياة والعبادة فى الجزء الثانى من ديوان المؤلف .

حثًا على التخلص من رق العادات التى تقتل جلالة النفس ، أليست هذه الكلمة سر تقدم الأمم ورقيها ، ومعنى الحضارة والعمران ، ثم يقول رسول الله (أعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) أليس فى هذه الكلمة حث على التخلص من رق زخارف الحياة ؟ ومانع للمرء أن يكون عبداً للجاه أو المال ، مانع للمرء أن يكون قتيل الكبر وغيره من أكاذيب الحياة الحقيرة مانع للمرء أن يذل نفسه لتلك المظاهر البيضاء التى كلها رياء ونفاق ، مانع للمرء أن يعيش فى آراء الناس، مانع للمرء أن ينيم ضميره بأن يطعمه من الرغبة فى احترام الناس إياه ؟ والرغبة فى احترام الناس ، هى داء النفوس وإذا شئت فقل هى خشخاش الضمائر .

يحسب المرء أنه إذا أخذ من العلم بنصيب صار من الخواص ، وهذا وهم فإن للنفس عامية مثل عامية العقل فمن أراد أن لايكون عامى النفس كان خليقًا به أن يزجيها إلى التماس جلالة الحياة، فإن للحياة جلالة لايفهمها قتلى المظاهر الذين يحقرون أنفسهم بمزاولة الحقير ، تلك المزاولة التى تغطى على عظم الحياة ، وتقتل فى النفس عزة النفس و إنما يحبب الحقير إلى المرء جهله الصلة التى بينه وبين الله من طريق الحياة الخالدة ومكانه فى الحياة فإنه لو عرف أن فى نفسه عزمات ساكنة ، وقوى نائمة لقلق كل القلق، رغبة فى إثارة تلك القوى النائمة فأما ثارها وإما أراق حياته فى سبيلها . وإن من فعل ذلك كان كأنه استدان حياته فرد الدين لدائنه ورد معه ربحًا كبيراً . يقول بعض الحكماء بالتماس السكينة والراحة والطمأنينة التى يدخلها التهذيب على النفس ، وهو لابأس به إلا أن ذلك السلم قد يصير خمولاً ، وتلك السكينة غفلة، وتلك الراحة موتًا لجلالة النفس .

فليست جلالة النفس فى سكونها ولكنها فى هياجها ويقظتها ، فإن النفس لاتكون نبيلة إلا إذا كانت هائجة يقظى وأعنى بهياجها طموحها إلى الكمال والقوة والجمال فإذا هدأت يأسًا وعجزاً أو مللا أو التماسا للراحة كانت مثل الرماد ليست قوة النار فيه ... إن أكثر نفوس هذه الناس موؤدة بين جنوبهم مقبورة فى المظاهر، مدفونة فى الحقائر .

الغفلة واليقظة

يخيل لى أن الناس مثل رجل سكران لايقدر أن يخطو خطوتين إلى الأمام حتى يخطو إلى الوراء ومن أجل ذلك ، كان سيرهم فى سبيل الرقى الخلقى بطيئًا . إن السكر ليخطو خطوة إلى يمينه وهو يحسب أنه سائر إلى أمامه وهكذا الناس فى الحياة. وإنه ليخطو خطوة إلى أمامه ثم يستريح من عنائها، ويحسب أنها كانت سفراً طويلاً. وكذلك الناس فى الحياة ، ولقد زاد فى اعتقادى صحة هذا التشبيه ، ذلك الفخر العريض الذى يملأ أوداج الناس إذا عدوا حسنات الحضارة فإن قولهم مثلاً «قد بلغنا منزلة جليلة من منازل الرقى» ، مثل قول السكران بعد كل خطوة يخطوها «وصلنا بالسلامة» .

لمثل هؤلاء الفاخرين نقول مقال ماثيو أرنولد «إنكم تصفون مراحل التقدم بكلمات ينبغى أن لانصف بها غير مرتبة الكمال».

إن كل ناقد ضحية نقده، وسبب ذلك أنه إذا رأى قومه قد وقفوا لحاظهم على جانب من جوانب معنى الحياة حتى حسبوا أن ذلك الجانب هو معنى الحياة كاملا ، وكان فرضًا عليه أن يلفتهم إلى جوانب أخرى ، ولايزال يلح عليهم فى ذلك حتى يغيب عنه ذلك الجانب فخوف الناقد أن يكون ضحية إلحاحه ، خوف يبعثه الجبن والخوف وهذان باعثان لايليقان بمن نصب نفسه لخدمة قومه ، فلا رأى لمن يلومنا فى الإكثار من ذكر قتلى المظاهر، والإلحاح فى التخلص من العادات التى تقتل عزة النفس وجلالها تغرى المرء بالاهتمام بصغيرات الأمور.

إذا أردت أن تعرف مكان أمة من القوة، فالتمس الناس فى مجالسهم واسمع ما يقولون ، فاذا رأيت أنهم يعنون بالصغائر أو يستقبلون الحق كما يستقبل السيد عبده فاعلم أن سهامهم طائشة . ولست أعنى بالاهتمام بالصغائر التبسط والفكاهة ، فإن المرء قد يجد من وسائل التهذيب فى الفكاهة مالا يجده فى بعض الجد، وإنما أعنى الحديث الذى يسفل بقائله الذى يبين عن غلظ فى كبد قائله وخمود فى شعوره ، وينم عن نفس لاتحس ما حولها من عوامل الخير والشر، أليس من العجيب أن أجلس إلى صديق فأحدثه مثل هذا الحديث ، وحولى من عوامل الشر ما يستنهض الهمم لمناجزته ، ومن أسباب الشقاء ما يستصرخ النفوس الكريمة

لمعالجته ؟ أمم تحيا وأمم تموت وأناس يشقون من شرق بالنعيم والوفر، وآخرون يشقون من ظمأ إليه. كا هذا حولى وأنا أحدث صديقى حديث النفس الضيئلة هذه الغفلة من لؤم الإنسان أليس من لؤم الإنسان أن يجود الناس فى إنارة الحفلات وشراء أعلام الزينة بالمال الجم، وحولهم أناس يعالجون الجهل والفقر ؟ مثل الذين يفخرون بحسنات الحضارة مثل الذين يفخرون بتليد آبائهم ماذا صنع الفاخر بحسنات الحضارة حتى يفخر بها ؟ هذه ليست حسناتنا بل هى حسنات السابقين وفخر المرء بما ليس له دليل على صغر فى همته . كيف تفخر بالآلات والمخترعات إنها ليست من صنعك ، وكيف تفخر بالأنظمة والشرائع التى بسطها سعى العاملين هل أنت وطأت سبيلها ؟ لك أن تفخر بها من أجل أنها من صنع الإنسان، ولكن ليس لك أن تفخر بها لأنك زيد أو عمر . إن الفخر استراحة وترويض للنفس من عناء العمل بعد أن يتم المرء فرائض الحياة، وهو لايتمها إلا ساعة موته .

إن فى هذا الوجود من الشر ما يخجل الفاخر، ولكن اللؤم قد تغلغل فى نفوسنا، حتى صرنا لانخجل من مظاهر الشقاء، وسبب ذلك أننا لانعبد القوة فى الرأى والخلق والجسم، فإن عبادة القوة تلهينا عن الصغائر ، وتغرينا بجليلات الأمور ، فلتهينا عن أن نبذل المال فى غير وجهه؛ فنضن به عن الحفلات والزينة وتجود به فى مناجزة الشر.

لقد منيت مصر فى هذا الزمن بفئة من الكتاب يلومون من يريد أن يلفتهم إلى جليلات الأمور، وأن يلهيم عن صغيراتها بأن يهيج فيهم عواطف نفسه، ولاسكينة نفسه ماحية إحساسه بالشقاء ، وإذا غلبت سكينة النفس إحساس المرء بالشقاء ، كانت مطية له إلى الغفلة ونوم الضمير، وصارفة عن عبادة القوة، وإذا غلب إحساسه بالشقاء سكينة نفسه، خيف عليه اليأس والنظرة السوداء .

الحياة وسيلة

يعجبنى من المرء أن يكون جريئًا على القوة فهو فى جرأته عليها كالطفل يلعب بسيف من الخشب على أنها قد تكون فى يده كسيف قاطع فى يد ذلك الطفل ، وخليق بالمرء أن يناهض القوة ، فإما تملكها وإما أهلكته وعلى ذكر ذلك نقول إن هناك نوعًا من الحزم ، هو حزم التجار والموظفين يزجر أهله عن التماس القوة خشية الفشل ، فيوهمهم أن عظم الحياة فى سلوك السبيل الموطأ ، وإنما عظم الحياة فى سلوك مجاهل الحياة التى لم توطأ ، وأن ينفق المرء منها ، فإن الحياة مثل الدراهم قيمتها فى تصريفها ، وكما أنك تنفق من مالك لتشترى حاجاتك ، كذلك ينبغى أن تنفق من حياتك كى تشترى بها القوة.

إذا نظرت فى أبطال القصص المشهورة رأيت أنهم كانوا ينفقون من حياتهم فإنهم لولا ذلك ما رغب فى قراءة أخبارهم أحد . فإن القراء ليشعرون أن كل إنسان وسيلة فى يد القضاء ، والوسيلة لاتصان عن الاستعمال ، فإنك إذا صنتها عنه لم تعد وسيلة ، وكذلك المرء ، إذا كان حزمه ينأى به عن تعرف المجهول أم مزاولة الجديد ، لم يؤد فريضة الحياة فإنما فريضتها أن تكون وسيلة يرمى بها كل مرمى .

كلما عظمت الحضارة ، كثر استعمال الوسائل ، وحياة الأفراد وسائل منها ، فتصغر حياة الفرد عند المفكر بقدر إكباره حياة النوع ، فحياة الأفراد ضحية لحياة النوع، والعظيم هو الذى ينفق من حياته وهو واسع الأمل مستبشر بذلك الإنفاق ، لأن فيه سر الفرائض ومعنى العبادة ، ولو أن الله لم يأمرنا بشىء غير تلك التضحية ، لكان قد أمرنا بكل خير ونهانا عن كل شر. وإنما العقائد كلها ، تفسير لتلك الفريضة أو حث عليها . فإن المرء ربما ضل إذا قيل له انفق من حياتك فإنك لاتعيش للحياة الفانية ومطالبها، بل أنت الروح الخالدة التى فى الناس قاطبة. ومن أفاق إلى ذلك . لم يجد فى تضحية مطالب الحياة الفانية غبنًا . ومن أجل ذلك ، بعث الله إلينا الأنبياء والحكماء يخبرونا عن السبل التى نسلكها فى تضحية حياتنا، وإنما كانت كلماتهم إرشاداً وتفسيراً لمطالب الحياة الخالدة.

حكى أن جورج الثالث ملك الإنكليز سأل جمس وات المخترع الشهير عما يزاول ، قال المخترع إنى أزاول شيئًا يحتكره الملوك أو المخترعون ، فإنه ينبغى لكل إنسان أن يكون فى

تطلبه القوة ملكا صغيرا أو مخترعًا صغيراً فللكاتب من قلمه شارة من شارات الملك، وللصانع فى آلات عمله شارات من شاراته وهو لايكون كذلك إلا إذا صدقت سريرته ، وأحس عظم الحياة . نحن لانحس عظم الحياة إلا فى دقائق قليلة من عمرنا ، وربما لايحسه أحدنا طول عمره مع أننا فى حاجة إلى أن نحس عظم الحياة فى كل دقيقة من دقائق عمرنا على أن ذلك مستحيل لأن الإحساس بعظم الحياة ، حمل ثقيل لايقدر على حمله إلا قليل من الناس ، فى قليل من ساعات عمرهم. والعظيم من حمل ذلك الحمل حتى يهلكه فينبغى للمرء أن يجعل نفسه فى منزلة ذلك الثور يقول العامة إنه يحمل الدنيا على رأسه كما تحمل فتاة الريف جرتها. وهذا ما عنيت بإنفاق المرء من حياته وتضحيتها فى سبيل تحقيق مطالب الروح الخالدة. وهو مظهر من مظاهرها يشرف بتحقيق مطالبها. ولكن أكثر الناس يفر من حمل ذلك الحمل، أى الإحساس بعظم الحياة . فبعضهم يجد فى الخمر وسيلة تنجيه منه، وبعضهم يجد فى اتباع العادات وإسلام نفسه إلى تيارها نشوة تنجيه منه. وبعضهم يجد فى حزم التاجر أو الموظف ذلك الحزم الذى كله ضئالة نفس وإسفاف خلاصا له من ذلك الإحساس .

يهرب الناس من رؤية الشقاء كما يهرب القاتل من خيال قتيله . وكما أن القاتل يرى فى صورة المقتول عنوان جريمته ، كذلك المرء، يرى فى مناظر الشقاء اتهامًا له ومبينًا عن تقصيره فى أداء فرائض الحياة فإن مناظر الشقاء تهيج فى المرء إحساسه بعظم الحياة وهو لايريد أن يعالج ذلك الإحساس ، فيجتهد فى أن ينيمه بأن يفر من مناظر الشقاء... يرى المرء شيخًا قد أكل الشقاء نضارة وجهه وشرب ماءه ، ثيابه قذرة وريحة خبيثة ، فيفر منه لأنه يعبد الجمال، وهذا منظر من مناظر القبح ، وكان ينبغى أن تغريه عبادته الجمال بمحاربة الشقاء ، لأن الشقاء عدو الجمال.

خليق بالمرء أن يجتهد فى أن يملأ روحه إحساسًا بعظم الحياة ، وأن يملأ عمره من ذلك الإحساس إن منظر الغافل عن عظم الحياة منظر يبعث البكاء واليأس من صلاح الناس.

كل إنسان له ميل إلى العظمة ، ورغبة فى التماسها . وهذا سبب ميله إلى تحقيق مطالب الحياة الخالدة ، فإنه إذا علم أن التماس العظمة فريضة عليه وجد أن حاجته فيما هو واجب عليه وأنه مأمور بما هو حبيب لديه إلا أن يغتر بمظاهر الحقارة وصغيرات الأمور ، فيحسبها من مظاهر الأمور إلا إذا حسبها من جليلاتها أو انتفى لديه كل جليل .

أساس الفرائض

إذا قرأت سيرة الأنبياء رأيت أن أول وعظهم ، كان حضًا على التوحيد والتخلص من عبادة الأوثان ، وقد يحسب القارئ أن ذلك التوحيد أجل من مواقعة الفضائل التى هى أساس المعاش فى هذه الحياة ولكن النبى قد زجر الناس عن عبادة الأوثان ، لأن عبادتها من عبادة صغيرات الأمور وحقيراتها . فهى من أجل ذلك تقتل الفضائل التى هى أساس المعاش فعبادة الأوثان، مظهر من مظاهر اهتمام المرء بحقيرات الأمور . فإذا نظرت فى تاريخ الزمن القديم فى أول الحضارة، رأيت أن عبادة الأوثان ، وعبادة العادات ، وعبادة الملوك أصلها واحد، لأن سيد القبيلة كان حاكمها وحاميها ، فإذا مات صار ربها ومعبودها . وكانت الأوثان رموزاً يرمز بها إليه .

وأصل العادات هو ذلك الإجلال وذلك الخشوع الذى يغمر قلب المرء عند رؤية سيد قبيلة، وتلك العبادة التى تحنى رأسه لإله قبيلته . ولما سلك الناس مسالك التفكير، صارت الأصنام والعادات حلية وزينة ، بعد أن كانت رموز العبادة ولايزال بيننا من يحسب العادات من تعاليم الدين وأوامره ، ومن ينزلها منزلة الدين.

وهذه بقية من بقايا الوثنية ، ولكن لاغرو فقد قال أمرسون «إن الشيء يكون فى أوله حاجة الضرورة . ثم يعود زينة وحلية » إن آفتنا هى أننا قد ننسى أن تلك العادات ، حلية وزينة لاحاجة من حاجات المعاش فيجوز أن نتحلى بها ولكن ينبغى أن لانعبدها .

ولقد كنت أعجب من المصلحين فى زجر الناس عن عبادة الأولياء ، حتى عرفت أن نهى الناس عن عبادة الأولياء ، نهى لهم عن عبادة الأوثان ، ونهى لهم عن عبادة العادات، ونهى عن عبادة الملوك، ونهى عن عبادة صغيرات الأمور ، وترغيب فى جليلاتها . إذا نظرت فى سيرة فولتير الحكيم الفرنسى رأيت أن إلحاحه فى زجر الناس عن عبادة القسس والأولياء ، قد كان زجراً لهم عن عبادة الحكام .

فرض على النبى أن يزجر قومه عن حقيرات الأمور وهذا أشرف الزجر وأحسن الوعظ لأن الذى يزجر الناس عن السرقة أو الغدر أو كفران النعمة وجحد المعروف ، إنما ينهاهم عن نتائج عبادة الحقير من مطالب الحياة الحقيرة، وقد يظن المرء أن اهتمام الناس بالحقير يسليهم عن افتقاد الجليل، ولكن لايغريهم بالرذائل ولو بحث المفكر فى أعماق النفس وعوامل الخير والشر وأسباب الأفعال لرأى أن اهتمام المرء بالصغير دافعه إلى الرذائل ، وكأن الناس يحسبون أن الاهتمام بالصغير شيء حقير ، فينبغى للواعظ أو الناقد أن لايضيع وقته فى زجر الناس عنه

وهم مخطئون فى زعمهم ، لأن فناء الحياة فى صغيرات الأمور ينأى بالمرء عن عظيماتها وينيم ضميره ويلهيه عن مناجزة الشر.

إن الناس يخشون أن يبحثوا علاقة القوة بالحقوق والفروض ، فإنك تسمع أحد الناس يقول إن لى حقًا أن أفعل كذا ،ولكنه لايتساءل كيف عرف أن له ذلك الحق ؟ ومن أين أتاه ؟ ثم تسمع آخر يقول ليس لك حق أن تمنعنى من عمل كذا ، فلايخطر ببالك أن تقول له من أين عرفت ذلك؟ وكيف حكمت أن ليس لى حق؟ ولاعجب إذا كان المشركون قد زعموا أن ليس للنبى أن يزجرهم عن حقيرات الأمور ، وأن يغريهم بجليلاتها ، فالإنسان له من الحقوق أكثر مما يدرى، وعليه من الفروض أكثر مما ينشط له ولكن من الصعب التماس المفكر تعيين حقوق المرء وفروضه على أن تركها غير معينة قد يكون فرصة ينتهزها صاحب الدهاء فيعينها كيف شاء، فإن الأفعال كالعجين فى يد صاحب الدهاء، إذا شاء جعلها حقوقًا وإذا شاء جعلها فروضًا . كذلك العجين تشكله اليد كما تشاء، ترى أن الإسلام قد جعل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرضا على الإنسان . فإذا سألت ، علمت عن سبب ذلك، علمت أن الذى جعل ذلك الأمر والنهى فرضا ، هو ألف الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر أعرف بجليلات الأمور من الأمور بالمعروف المنهى عن المنكر، أى أنه أعرف بوسائل القوة فإنه إذا لم يكن أعرف بها لم يكن أعرف بجليلات الأمور ، وإذا لم يكن أعرف بجليلات الأمور ، لم يكن ذلك الأمر والنهى فرضًا عليه فالقوة هى أصل ذلك الفرض الذى فرض عليه، وذلك الحق الذى له لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض وهو أيضًا حق.

إذا رأيت مجنونًا هاربًا من مستشفى المجاذيب ثم تبعته فرأيته قد وقف على نار ورأيته يريد أن يأكل الجمر يحسبه تمراً ترى من العدل أن تتركه زاعمًا أن ليس لك حق أن تمنعه عن أكل النار.

وإذا أردت أن تمنعه عن أكلها فقال لك ليس لك أن تمنعه أتزعم أن من العدل أن تتركه يفعل ما يشاء ؟ إذا كنت تزعم ذلك ، فأنت مخطئ وإن تركك إياه يأكل النار جريمة كبيرة ، فالعقل مظهر من مظاهر القوة ، والقوة هى التى منحتك حقًا وجعلت منعك إياه من أكل النار فرضًا عليك.

لعل القارئ يتفهم معنى القوة ، ويتخلص من ذلك الفزع الذى يتملك الناس عند ذكرها فإن العقل والفضيلة والعواطف والعدل ، كلها مظاهر من مظاهر القوة ، فالحقوق والفروض نتائج من نتائج القوة ولا أعنى أن القوة تبيح لك الظلم وتجعله حقًا من حقوقك ، وإنما أعنى أن مقدرتك على عمل الخير تجعل عمله حقًا من حقوقك ، فتعمله بالرغم ممن ينكر عليك ذلك الحق . فتمنع

ذلك المجنون من أكل النار ، وتمنع الطفل من أن يرمى نفسه فى البئر حاسبًا أنه باب الجنة فاذا زعم ذلك الطفل أن ليس لك أن تمنعه عن ولوج باب الجنة بأن يرمى نفسه فى البئر فاصفعه صفعة تدمع لها عينه ، إذا كنت لا تقدر أن تمنعه عن البئر إلا بالصفع خذه واذهب به إلى أمه.

إذا سألت ما الذى جعل للقوى من الأمم حقًا فى إرشاد الضعيف منها، قلت هو الذى جعل للعاقل حقًا فى أن يمنع المجنون من أكل النار، أو أن يمنع الطفل من أن يرمى نفسه فى البئر ، أى اقتدار القوى من الأمم على إرشاد الضعيف منها، وعرفانه وسائل القوة.

ولكننى لاأنكر أن ذلك العاقل الذى منع المجنون من أكل النار ربما فعل ذلك دهاء، فقد يكون ذلك المجنون ذا مال وعقار ، وقد يكون إشفاق هذا المشفق عليه خدعة ، يريد أن يغر بها الرائين فيولونه أمره فيضع يده فى ماله ويتحكم فيه وينتفع به، ولكن أتحسب أن فعل ذلك الماكر ، يبيح للشارع أن يسن شريعة يقول فيها كل من منع مجنونًا من أكل النار، عوقب بكذا من قانون العقوبات ، لأنه يعد محتالا أليس هذا من السخف والسفه ؟!

وإنما ضربت هذا المثل لأقول ضعف الأمم، مثل جنون الأفراد داء يبيح للقوى منها، أن يرشد الضعيف ، قد يكون خدعة ماكر، سببها رغبة القوى فى الانتفاع بمال الضعيف ، لأنه لو كان منع القوى الضعيف عما فيه ضره حرامًا ، لجاز للشارع أن يحرم على الناس منع المجنون من أكل النار.

والذى جعلنى أظهر أن للقوى أن يرشد الضعيف إلى وسائل القوة، اعتقادى أن إنكار الضعيف حق القوى فى ذلك يلهيه عن التماس القوة وتطلب أسبابها ، بأن يمد له حبال الآمال فيأمل أن يقنع القوى أن ليس له حق فى إرشاده والتحكم فى أمره وإذا نظرت فى التاريخ ، رأيت ما يؤيد اعتقادى هذا رأيت أممًا ضعيفة تقضى عمرها فى إنكار الحكم فى أمرها على القوى وتصرف أيامها فى الاحتجاج عليه، وكان ينبغى لها أن تصرف تلك الأيام وذلك العمر، فى التماس القوة والتهيىء لها.

ولايفزع من ذلك الحق الذى تسنه القوة للقوى ، أى حق تحكمه فى أمر الضعيف وإرشاده إلى ما فيه خيره ، إلا من كان ضئيل الهمة ، فان جزعه من ذلك الحق، دليل على أنه لايريد أن يكلف نفسه عناء تطلب القوة ومن كان كذلك حكم الله عليه بالفناء.

إن الأمة التى تعيش جازعة من التماس القوة، كما يجزع الطفل من التماس حاجته فى غرفة مظلمة ، هى تلك الأمة التى يقول فيها شكسبير «أمة تخاف أن تعرف نفسها».

فكفى بذلك الحق الذى قد يسىء القوى استعماله واعظًا وزاجراً عن العجز ، وشاحذاً للعزم وهاديًا إلى منازل القوة.

هيبة الحياة وهيبة الموت

إن فى الناس من يهاب الحياة أكثر من هيبته الموت وفيهم من يهاب الموت أكثر من هيبته الحياة وصحيح النفس من كان بين الحياة وهيبة الموت موازنة فى نفسه . إذا رجحت هيبة الموت دل ذلك الرجوح على سقم فى النفس أيضًا . ولكنه فى الحالة الأولى ، عبد ذليل ، وفى الحالة الثانية ، امرؤ طائش السهم طائش الأمل ، وهو فى الحالتين سقيم النفس .

إننا إذا أغرينا الناس بأن لايهابوا الحياة، خفنا أن يغريهم ذلك الإغراء بأن يغالوا فى حب الحياة حتى لايجبنوا وحتى يهابوا الموت ، فنكون قد أغريناهم بالخنوع للذل والظلم ، وإذا نحن أغريناهم بأن لايهابوا الموت، خفنا أن يدفعهم ذلك إلى كره الحياة، والرغبة فى التخلص منها ، فخليق بنا أن نحثهم على أن يجعلوا بين الرهبتين موازنة ، كى لاترجح إحداهما ، ولكن الإنسان لايملك صحة نفسه ، فإن وراء رغبته فى صحة نفسه عوامل لايملك لها دفعا ، مثل الوراثة والتربية والبيئة، فاذا تحالفت هذه الأسباب على إسقام نفسه بأن تجعله جبانًا أمام الحياة أو جبانًا أمام الموت ، كان ضحية لها ولاتغنيه نصيحة الناصحين شيئًا .

إن سقم النفس يؤثر فى العقل بأن يخص المرء بالنظر إلى جانب من جوانب الحق، فيغيب عنه باقى جوانبه ، فيجئ رأيه صحيحًا سقيمًا ، فهو صحيح لأنه نظر إلى جانب من الحق، وهو قيم لأنه قد غاب عنه جوانب كثيرة . إن تعلق الذليل بالحياة سقم فى نفسه ، وكره المنتحر بحياة سقم فى النفس أيضًا . ولكننا لانسمى الجبن أو التذلل جنونا، فلماذا نسمى الانتحار نونا ؟ الجبن سقم فى النفس وكذلك الانتحار ، ولكن إذ سئلت أيهما أخف شراً ؟ قلت الانتحار فإن شر خنوع الذليل وتعلقه بالحياة ضعة أكثر شراً وأوسع ضرراً .

فينبغى لمن يكتب فى مضار الانتحار الذى ينهى قراءه عن أن يجعلوا هيبتهم الحياة أرجح من هيبتهم الموت ، أن ينهاهم عن أن يجعلوا هيبتهم الموت أرجح من هيبتهم الحياة إن أكثر الناس يحبون الحياة لأنهم يهابون الموت، ولافخر لهم فى ذلك . وإنما الفخر لمن يحب الحياة ، وهو لايهاب الموت أرونى رجلا يحب الحياة ولايجبن أمام الموت أريكم ألف رجل يحبون الحياة لأنهم يجبنون عند ذكر الموت.

إننى لست من الجازعين الذين ترتعد فرائصهم عند ذكر خبر انتحار ، لأنى أعلم أن حياة الفرد شىء ضئيل إذا قيس بحياة النوع وليست حياة النوع رهينة بحياة المنتحرين ، فإن الذى

ينتحر ينتحر لأنه غير صالح للحياة كما أنه لايسقط من الغصن غير التمر الذى فسد فلا تحسب أن سقوط التلميذ فى الامتحان هو الذى يدفعه إلى الانتحار، ولاتحسب أن صحيح النفس عابد القوة يأتى الانتحار، ولكن الذى ينتحر ؛ لأنه سقيم النفس ولسقم النفس أسباب منها السوداء أو اليأس الطبيعى ، وبعض الناس يرث نصيبًا وافرًا منها.

على أن فى كل نفس شيئًا منها قد تهيجه التربية أو البيئة إنك إذا جئت بجنود السماء والأرض، وأردت أن تعين أمرأ على سقم نفسه، وأن تنجيه منه لم تفلح ، وإنما مثلك مثل من يأتى بثمرة عفنة ، يريد أن يذهب عنها عفونتها ، ويعيدها صحيحة سليمة . إنه لايجزع من خبر انتحار منتحر إلا من جهل عظم الإنسان وبقدر جهلك عظم حياة النوع ، يكون اغترارك بحياة الفرد.

إذا أردت أيها القارىء أن لاتجزع من كثرة سماع أخبار المنتحرين، فارفع رأسك إلى السماء فى ليلة زهراء ، وانظر إلى النجوم وعوالمها وضئالة عالمنا فإن فى تلك النظرة برأ من الاغترار بحياة الفرد . لست أدعى أنى أصح الناس نفسًا، استغفر الله ، إن فى نفسى لسقما كثيرا وإنى لأدعو الله أن يزيدنى من صحة النفس، ولكنى لو كنت أسقم الناس نفسًا لما منعنى ذلك من أن أقول إن سبب الانتحار ، سقم النفس لقد جعلنى ألح على القارئ أن لا يغتر بحياة الفرد ، عرفانى أن اغترار الأمم بحياة الفرد سبب من أسباب سقوطها.

والمصريون أحوج الناس إلى إجلال حياة النوع أكثر من إجلال حياة الفرد إن الذى يجزع من سماع خبر انتحار يسئ إلى نفسه وإلى أمته بذلك الجزع ، لأنه ليس من عبادة القوة مثل الناس فى هذه الحياة مثل جيش محارب ، الموت أمامه إذا سقط من صفوف الجند رجل سدوا ثغرة فى صفوفهم فتحها سقوطه فتلتئم الصفوف ، وتسير فوق جثته إلى الموت فهم لايجزعون لسقوطه، فإن جزعهم يوقظ الحيرة والرعب فى قلوبهم .

وهذه حالنا فى الحياة ألسنا نسعى إلى الموت على قبور الماضين؟ ألسنا نسير إلى الموتى على قبور الهالكين؟ نحن نسير على أديم الأرض ، وهو من أجسام الموتى ، كما قال أبو العلاء، فهل أشعل ذلك جزعًا فى قلوبنا ؟ وبعد، فإنى أحاسب أديبًا فى قوله إن الانتحار دناءة ونذالة إن الانتحار جبن أمام الحياة، وسقم فى النفس، وجهل لفروض الحياة ، وضعف فى العزيمة ، وجهل لجلالة الحياة.

أما الدناءة والنذالة ، فهما كلمتان تصدقان فى أكثر المتعلقين بالحياة ولاتصدقان فى كل المنتحرين ، فإن أكثر الناس يتعلقون بالحياة جزعًا من الموت، وإنما شرف الأحياء ، فى أن يكون تعلقهم بالحياة سببه إحساسهم أن ذلك التعلق فرض فرضه عليهم عظم النفس ، وأن يكون سبب رغبتهم فى الحياة، إحساسهم بعظم الحياة وجلالتها وعرفانهم فروضها.

وليس كل من ينتحر جزعًا من ثقل الحياة، فإن من المنتحرين من ينتحر احتقارا للحياة واحتقاره سببه جهله جلالة النفس فيها وقد لايكون هذا المحتقر للحياة هائبًا لها.

إن طموح المرء إلى منازل القوة والكمال لاعيب فيه. وإن فضيلة الأحياء فى ذلك، الطموح ولكن شر الطموح ، ما يغرى المرء باحتقار الحياة ، إن أدب الإنسان أو علمه أو كرم خلقه لايغنى عنه شيئا إذا جهل فروض الحياة، أو لم يكن له من الصبر والعزم ما يعينه على أداء تلك الفروض.

عبادة القـوة

بعض المفكرين ينهانا عن عبادة القوة، وإنما يريد أن يردنا عن عبادة القوة، عبادة مكذوبة ، عبادة العامة، عبادة الجبناء ، ولكنه لايريد أن يردنا عن عبادتها عبادة صادقة فليست عبادة القوة أن تهابها فى غيرك ، ولكنها تطلبك أسبابها ، فإنما يعبد المرء معبوده حق عبادته بالتقرب منه. إنك تزاول الصدق لا بأن تحيه ى غيرك وتتجنبه. أرأيت أحداً عبدّ الصدق بالكذب ؟ فكيف يعبد أحد القوة بالضعف والجبن ؟ كيف يجل امرؤ القوة فى غيره ويتجنب أسبابها، ثم يزعم أنه عبدها ؟ هل عبد الفضيلة عابد إلا بمزاولة الفضيلة؟

ترى أن هذا الناهى لم يرد أن ينهانا عن عبادة القوة فإننا إذا لم نعبد القوة فأى شيء نعبد؟ أنعبد المرض والضعف والموت واليأس والقبح أم نعبد القوة والحياة والأمل والجمال؟ أليست القوة حياة وأملا وجمالا ؟ أى أمة صار لها شأن قبل أن تعبدالقوة ؟ ليس الذليل مستعبداً لأنه عبد القوة فى القوى، ولكنه مستبعد لأنه عبد الخوف والعجز واليأس . فلو أنه عبد القوة فى القوى، لرأى أن من عبادة القوة أن يقرع القوة بالقوة فليست العبادة فى العمل والأمل والتفكير. وكيف يكون المرء عاملاً كبيراً ومفكراً كبيراً إلا إذا عبد القوة. إن عبادتك القوة فى غيرك تدلك على مكان القوة منه وتغريك بالتماسها . فإن عبادتك القوة فى الريح أو الصاعقة أو الشلال أو الكهرباء أو الجسم أو الرأى أو الخلق، دليل على أنك تتوق إلى القوة وأنك عرفت مكانك فى الحياة - دليل على أنك فهمت معنى الحياة. أليست هذه العقيدة هى العقيدة الوحيدة التى تنهض بالأمم ؟ إن الإنسان لايقدر أن يحب الحياة إلا إذا عبد القوة ، وهو لايعرف عظمها وجلالها إلا إذا أحبها . أفهم الذليل أن القوة أعظم من الحياة ؟ فإن ذلك يعلمه عظم الحياة ويعلمه كيف يحبها حبًا صادقًا ، فإن عظم الحياة فى أن تكون القوة أحب إلى المرء منها ، وعظم الحياة فى أن تكون وسيلة إلى القوة فى الرأى والجسم والخلق . فينبغى للمرء أن يحب القوة أكثر من حبه وسائلها . فالمال والجاه والأدب والعلم ، هى وسائل تبلغ بالمرء إلى القوة والقوى وسائل تبلغ بالمرء إلى فرائض الحياة فإذا استعبدته تلك الوسائل وحسب أنها غايته التى يسعى إليها كانت مطية له إلى العجز.

فليست عبادة القوة فى أن تلهيك وسائلها عنها، ولكن عبادة القوة فى أن تستعيد تلك الوسائل . وليست عبادة القوة مغرية لك بالرضا عن طغيان من يسىء استعمالها فانك إذا كنت تعبد القوة من أجل أنها حياة الكون ورقيه أغرتك تلك العبادة الصادقة أن تقرع القوة بالقوة لإصلاح ما أفسده طغيان ذلك الباغى . وإنما الطغيان مبين عن ضعف فى خلق ذلك الباغى، وضعف فى رأيه تصلحه قوة فى خلقك ورأيك إذا كنت قوى الخلق والرأى .

من أجل ذلك كان فى القوة دواء ما تحدث من الشر وذلك الشر إنما أحدثته القوة كى تمهد به سبيل الخير . فهى مثل البانى الذى يهدم بيتًا ضعيف الأركان كى يبنى مكانه أمتن أركانا. اقرأ التاريخ تر أن اليونان والرومان والعرب لم تنهض إلا بعبادة القوة فى الجسم والرأى والخلق، حتى إذا غفلت عن عبادة القوة، وألهتها عبادة المظاهر الكاذبة عن عظم الحياة وجلالة النفس جاءت بعدها أمم أحدث منها عهداً بعبادة القوة، بنت حضارتها على آثار تلك الحضارة الماضية.

هكذا تحيا الأمم وهكذا تموت وإنما حياة الكون ورقيه فى أن يحيا القوى وأن يموت الضعف فخليق بالمصريين أن يعبدوا القوة وأن يتلمسوها فى أنفسهم ، وأن يجلوها فى غيرهم - خليق بهم أن يتلمسوها فى الكتب وفى الزهر . وفى الكهرباء وفى الريح وفى جسم الملاطم أو المروض وفى الحضارات الماضية وأن يجلوها فى حسن أخلاق عيسى وفى عزيمة محمد عليهما الصلاة والسلام وفى طموح نابوليون وفى طهارة البرئ وفى إقدام الجانى.

لقد زادنا غفلة عن عبادة القوة ذلك الرأى السقيم الذى أذاعه مشايخنا فى القرنين الماضيين، وهو زعمهم أنه خير للمرء أن يكون ضعيفًا مظلومًا من أن يكون قويًا ظالمًا من يدرى؛ لعل ذلك القوى الظالم أقرب إلى الله من ذلك الضعيف المظلوم. أليس جبن ذلك الذليل هو الذى خلق ظلم هذا القوى نحن نسب نيرون الظالم ونذم ظلمه ، ولانذكر لؤم نفس من تركه يعيث ظلما، إنما زاد فى غفلتنا عن عبادة القوة قول مشايخنا «المؤمن مصاب» وغير ذلك من الكلمات التى أذلت رقاب الناس للطغاة من أمراء الدولة الأيوبية ودولة المماليك والترك فينبغى لكل امرء أن يكتب على قلبه هذه الكلمات «القوة أعظم من الحياة» فإنه إذا فعل ذلك كانت أمته أمة قوية فى الجسم والعقل والخلق.

العبادة هى تربية العزيمة والحياة فرصة ينبغى للمرء أن ينتهزها فى تربية عزيمته والتماس القوة بها كى يعبد الله عبادة صادقة.

حكى أن زركسيس ملك الفرس كان قد بنى جسراً على البسفور ، كى يمشى عليه جنده إلى أوربا لمحاربة اليونان فهدمه البحر فاستشاط الملك غيظًا ، وأمر الجند أن يضربوا البحر بالسياط عقابًا له ففعلوا . إنى أرى أن هذا العقاب لم يكن من بوادر الجنون .

على أن جنون القوة خير من جنون الجبن . يعجبنى من المرء أن يستطيل على قوى الطبيعة بالعزة والإباء إن فى ضرب زركسيس البحر بالسياط استطالة على قوى الطبعية ورغبة فى تذليلها ونوعا من الشعر وعنوانا للحياة - متى يستطيل المصريون على قوى الطبيعة بالعزة والإباء والإقدام ، نحن نيأس من المجد لأننا نزعم أن ليس فى نفوسنا من القوة ما يعيننا عليه ويدينه منا.

إن القوة كامنة فى نفوسنا فى ناحية من نواحيها فينبغى لنا أن ننشدها فيها وأن نوقظ تلك القوى النائمة بأن نقلق كل القلق ، فإن القلق قوة تفك قوى النفس من أسرها ، وتبعثها من نومها إن القلق هو الذى رقى بأوربا ذلك الرقى . قلق الأوربيون حتى فكوا أرواحهم وأذهانهم من أغلال العجز، فنالوا حرية العقيدة والإيمان ، والتفكير والعمل.

إنى أرى شيخًا قد أكب على الأرض يتمتم ويبصق ويسعل ، وقد قطع السعال صدره ويداه ترتجفان من الضعف، وقلبه يرتجف من الرعب وكل جبان أمام الله جبان أمام الحياة أرى هذا الشيخ ثم أرى فلاحا قد فتل الجد أعصابه يضرب بفأسه الأرض، ويتغنى بما دار بينه وبين حبيبته فى خلواته فاسائل نفسى أيهما أحب إلى الله رجل يحيى الأرض فتحيا بحياتها الناس أم رجل لايرى العبادة إلا فى أن يعذب روحه وجسمه ؟ رجل يرى العبادة فى العمل والقوة أم رجل يراها فى الضعف والجبن والسعال والبصاق والانكباب على التراب يهيله فوق رأسه؟ رجل يرى العبادة فى الثقة بالله أم رجل يراها فى أن يرى ربه فى منزلة ملك مستبد، وأن يجعل نفسه فى مكان عبد ذليل؟ ألا إن بين هذا الشيخ الضعيف وبين العربى من صحابه النبى عليه السلام فرقًا واسعًا ، فقد كان العربى فى صدر الإسلام : يرى أن روح الدين فى عبادة القوة . أليست عبادة القوة هى التى نصرته فى فتوحه وجعلته مالكا بدل أن يكون عبدها ومالكا للقضاء بدل أن يكون عبده ؟

من الأكاذيب الشائعة قولهم لاتطلب عمل شئ تقصر عنه همتك. هذه الكلمة من أسباب ضعفنا ، كأنهم يريدون أن يقولوا إن النجاح الضئيل خير من الفشل الجليل، كأنهم يريدون أن يقولوا إن همة المرء شئ يوزن بميزان البائع . يقولون إن إلتماس السهل والقنوع به أجلب للسكينة والأمن فهم يزعمون أن السكينة ينبغى أن تكون أجل شئ عند المرء وهذه ضئالة فى الافهام فإن المرء إذا عرف عظم نفسه وجلالها ، رأى أن السكينة شئ ضئيل فى جانب عظم النفس ومايرضاه عظمها من القلق والطموح . ليست حياة المرء غاية ولكنها واسطة لأن يكمل المرء نفسه بالتماس القوة ولأن يستطيل على الممتنع من أمور الحياة فليس جزاؤه فى النجاح ولكن جزاءه فى الاجتهاد ، ولا رأى لمن يلوم الناس فى طلب الكمال. رأيت مرة امرأة تعلم طفلها المشى، رأيتها أوقفته ثم ابتعدت عنه قليلاً ، وألاحت له بقطعة من الحلوى فأخذ الطفل يخطو خطوة ثم خطوة حتى إذا قرب من أمه ابتعدت قليلا ، هكذا جعلت تليح له بقطعة الحلوى، وهو يخطو فى طلبها ، حتى علمته المشى فلما أعطته قطعة الحلوى وتركته لتنظر فى أمر لها، جاء أخ له كبير فأخذ منه قطعة الحلوى وتركه يعوى كالكلب إذا حلت بينه وبين قطعة من العظم ، ولكن هذا الطفل ربح فهو قد خسر الحلوى، ولكنه تعلم المشى هذا الطفل مثل الإنسان فى الحياة، يجهد نفسه كى يبلغ أمله حتى إذا كاد يبلغه أتى دونه حائل، فهو إذا لم يبلغ أمله فقد علمه السعى كيف يعيش .

كلما خطا المرء خطوة فى سبيل التهذيب ، خلص من رق الصغائر ولايزال كذلك حتى يعرف أن عظم حياته فى عرفانه مكانه فى الوجود ، وأنه خلق ليحفر للقضاء مجراه ، وليكون جزءاً من القضاء جزءاً من القوة جزءاً من الحياة وإن كثرة اهتمامه بالأشياء الحقيرة ، نزول منه بنفسه عن مرتبتها وجهل لها، فاذا بلغ المرء منزلة يرى أن كل نوع من أنواع قوى الوجود كائن فى أعماق نفسه، مثل قوة الجمال والحياة والاعتقاد والإنكار، وأن الطبيعة لباس لتلك القوى التى مقرها النفس وتفسير لها، وأنه ينبغى له أن لايهتم باللباس أكثر من اهتمامه بالقوة التى تلبسه ... إذا بلغ المرء هذه المنزلة كشف له عن سر الحياة .

ليس الدين غاية ، ولكنه واسطة يعرف بها المرء عظم النفس وعظم الحياة، بأن يعبد القوة كى يؤدى فرائض الحياة، ويحقق مطالب الحياة الخالدة فينبغى للمرء أن لايدين بدين يشغله عن معرفة عظم الحياة . إن أنظمة الحياة مثل نظام الحكومة ونظام الزواج ونظام الأسرة ونظام المودة

ونظام الحب، كلها وسائل إذا صلحت بلغت بالمرء منزلة يطل منها على معانى الحياة ولكن قليلا من الناس لاتزدهيه هذه الوسائل . وإن أكثر الناس يحسبها غايات فيغتر بها، فمن أبى أن يغتر بتلك الأنظمة كان مفكراً عاقلا إلا أن يكون قد جهل عظم هذه الأنظمة الذى تستفيده من أجل أنها وسائل إلى غاية هى عبادة القوة فى الخلق والجسم والرأى ، فإنه إذا جهل أنها وسائل تزجيه إلى معرفة عظم الحياة وأراد أن يخلص من رقها كان مجرما كبيراً . فالعبقرى العاقل يشبه المجرم من حيث إن كليهما يعرف أن أنظمة الحياة وسائل لا غايات ، ولكن العبقرى يجل تلك الأنظمة ويسعى فى توطيدها ما دامت وسائل يلتمس بها صلاح الكون، فاذا فسدت كان أول من يسعى فى هدمها ولكن المجرم يأبى أن يكون عبداً لها، لأنه قوة عمياء من قوى الهدم.

الحق الذى لم يشبه من شوائب الشخصية شائب لانفع له ولاوجود، لأن مزية المعنى فى أن يلمس فلايفقع وأن يكون بينه وبين الإرادة صلة يحرك بها المرء ويحكمه بها. والحق المطلق من قيود الشخصية إذا قاربته بعد عنك، فهو كالسراب خادع للذهن مهلك للنفس، والتماس المرء إياه يكسبه ضعفا فى همته ، ويقعده عن العمل، وينسيه جلالة الحياة ومعنى الفرائض ، فيكون مثل من يدمن النظر إلى طرف أنفه فيخفى عنه كل شئ.

يوجد نوعان مضران من أنواع التفكير ، نوع يختصر الأبد فى نقطة وهذا تفكير ذوى الأذهان المغلقة الضيقة من الأغبياء ، ونوع يمد النقطة حتى يجعلها فى الطول كالأبد ، وهذا تفكير أهل التردد والتفريط من الأذكياء فنفع النوع الثانى من التفكير فى أن يفك عن المرء قيود العادة وأن يوقظه من نشوة المظاهر وضرورة فى أن يجعل بين الذهن والإرادة سدا والنوع الأول أقرب إلى العمل من أجل أنه يجعل الحق محدوداً أو العمل من طبعه التحديد ولكن النوع الثانى قد يدفع المرء إلى العمل أيضًا من أجل أنه يفك المرء من قيود العادة، ولكن طموح المرء إلى أن يحد الأبد بفكره ، داء يجعل حاجته غير محدودة ورغبته غير مقيدة بقيود العزيمة، وذلك يسوق إلى اليأس من الحياة فإذا أحس المرء الحياة إحساسًا صادقًا عرف فرائضها، وإذا عرف فرائض الحياة رأى أن يقيد حاجته بقيود العزيمة الممكنة .

حكم القوة

كثير من الناس يحلمون فى أثناء تفكيرهم ، ثم يزعمون أنهم يفكرون ويسلك فى عقد هؤلاء الذين يتساءلون عن انتهاء حكم القوة ، لو أفاق هؤلاء من حلم التفكير لرأوا أن هذا التساؤل ليس له معنى. إن كل شئ فى الوجود لباس للقوة ، ومظهر من مظاهرها والقوة هى روح الوجود . أنى لست أشفق على القراء من شئ إشفاقى عليهم من كلمات هؤلاء الجازعين من حكم القوة، وإنما تساؤل هؤلاء عن انتهاء حكم القوة مثل تساؤل من يقول متى يلد الحمار أرنبًا ؟ بل هذا المسؤل عنه أقرب إلى الإمكان من انتهاء حكم القوة. إذا شاء هؤلاء الجازعون سمحنا لهم أن يتساءلوا متى يلد الحمار أرنبًا . وأما قولهم متى ينتهى حكم القوة فهو قول أعظم فكاهة وأقل معنى .

إن كثيراً من الناس لايعرفون معنى القوة تمام العرفان ، فإنهم لو عرفوه تمام العرفان لعجبوا من تساؤل من يسأل عن انتهاء حكم القوة كيف ينتهى حكم القوة إذا كان كل شئ فى الوجود مظهراً من مظاهرها مثل الشمس والحيوان والنبات والهواء والخلق الحميد والمعنى السديد والجمال والأمل أليست هذه مظاهر من مظاهر القوة ؟

لعلهم يقولون إننا نعنى بهذا التساؤل قوة المادة ، وهذا الايضاح ليس بأقل غرابة من ذلك الإبهام ، لأن القوة والمادة شيئان لايفترقان حتى قال العلماء إن القوى صفات من صفات المادة. من الذى يقدر أن يفصل القوة والمادة فيقول هذه قوة ليس فيها مادة وهذه مادة ليس فيها قوة.

أليس العدل أيضًا مظهراً من مظاهر القوة؟ أليس العدل انتصار قوة من قوى الخير على قوة من قوى الشر ، كما أن الظلم قوة من قوى الشر، على قوة من قوى الخير ، والحكم فى الحالين للقوة .

كأنى بمن يتساءل عن انتهاء حكم القوة يعنى بالقوة الظلم، وهذا خلط عجيب واضطراب فى التفكير، وجهل لمعانى الكلمات . إذا حدثك محدث بقصة ظلم حدثت فى عهد استبداد ، وقال لك إن هذا كان فى أيام حكم القوة ، فقل له أنت تخطئ فى استعمال هذه الكلمة ، فإننا لانزال فى أيام حكم القوة فالدهر هو أيام حكم القوة ، والأبد هو أيام حكم القوة وإنما أردت أن تقول إن هذه القصة حدثت فى أيام الظلم وأما مجاراتك إياه فى استعمال القوة مكان الظلم، فدليل على إنك لاتكلف نفسك عناء التفكير .

نحن لانزال فى أيام حكم القوة . غير أن قوى الخير التى وراء الشريعة والنظام ، أغلب لقوى الشر التى وراء الظلم، فلماذا تعنى بالقوة قوة الشر، وأنت قد ذكرت اللفظ مطهراً من النعوت ، بريئًا من الإضافة كأنك تعنى أن كلمة القوة لاتطلق إلا على قوى الشر . إنى رأيت

العامة يفزعون عند ذكر القوة كأنها غول من أغوال العجائز، أو حيوان مفترس أو مجرم شهير، ولكن ينبغى للأديب أن لايجاريهم فى ذلك الفزع ، وخليق به أن يفهمهم أن العدل والشريعة والنظام ، مظاهر من مظاهر القوة .

وأما جزع الجازعين من انتصار القوى على الضعيف من الأمم فهو جزع مثل جزع الطفل من رؤية الظلام . إن انتصار القوى على الضعيف هو سبب استئناف الرقى، فإن الضعيف إذا أحس أن القوى غالب له، وعرف أن حياته فى التعلق بأسباب القوة، وأنه إذا لم يتعلق بأسباب القوة مات ، ورأى أمامه قويًا يريد أن يغلبه على أمره ، بذل جهده فى تطلب القوة وارتياد مظانها إلا إذا كانت إرادته قد مرضت مرضًا عضالا ، فإنه إذا كانت إرادته كذلك ، كان ضائعًا لا محالة ولايقول إن ذلك ليس من العدل إلا من جهل معنى العدل فالعدل هو انتصار قوة من قوى الخير، على قوة من قوى الشر وانتصار الإرادة المشلولة ، انتصار للموت والجهل والشر. أليس الضعف هو رأس الشر .

أليس إحساس الشرقى بأن حياته رهينة بالتماس القوة هو الذى جعل يوقظه . أليس عرفانه أن القوى غالب للضعيف هو الذى أزعجه من نومه؟ أليس خوفه من ينعدم أن فى الغرب هو الذى بدأ ينفض عنه غبار القرون.

إننا لانقدر أن نتصور كونًا ليس القوى غالبًا فيه للضعيف ، ولو فرضنا أن من الممكن إبطال سنة انتصار القوى على الضعيف وتعليقها عن العمل كما يقول النحويون ، فى هذا الوجود الذى نعيش فيه لبدأ الوجود يفسد نظامه لأن نظام الكون وأنظمة المعاش ، سببها انتصار القوى فى الجسم والخلق والرأى فلولا هذه السنة ما أيقظ العزائم موقظ، أليست هى التى نبهت المصريين إلى مصالحهم المادية والأدبية والاقتصادية؟

يقول بعض الناس إن الشريعة جعلت أفراد الأمة سواء وهذا قول نصفه حق ونصفه باطل ، فإن الشريعة جعلت الناس فى مرتبة واحدة إذا انتهكوا حرمة حرمها، ولكن الناس ليسوا سواء فى مساعيهم وفى معاملاتهم التى لاتخرج عن دائرة ما حلله القانون فمن كان منهم قوى الجسم والخلق والرأى ، غلبت مساعيه مساعى من هو أضعف منه جسمًا ورأيًا وخلقا وانتصر عليه فى تلك المعاملات فالحكم للقوة ، سواء كانت قوة الشريعة فى معاقبة من خرق سياجها ، أو قوة أجسام الأفراد أو قوة خلقهم أو قوة رأيهم فى مساعيهم ومعاملاتهم أو قوة الأمم فى فتوحها واستعمارها . لو كان أقل ما فى التساؤل عن انتهاء حكم القوة أنه لا معنى له، لما أشفقنا على أنفسنا منه ولكن هذا التساؤل يلهينا عن التماس القوة وإنمائها فى الخلق والجسم والرأى اتكالا على اقتراب عهد انتهاء حكم القوة... خليق بنا أن لا نصغى إلى ما يلهينا عن عبادة القوة، والتماس أسبابها وإننا لأحوج إلى ما يغرينا بعبادتها والتعلق بوسائلها .

وسائل القضاء

المصريون يعوزهم شيئان ، عرفان معنى القدر ، فإن الذى نهض بالعرب هو عرفانهم معناه والذى قعد بهم هو إساءة فهم معناه ، والشيء الآخر هو أن ينفضوا عن أنفسهم غبار القرون الماضية ولكنهم لايمكنهم عرفان معنى القدر، ونفض غبار القرون إلا إذا قلقوا ذلك القلق الذى يدفعهم إلى تعرف سبيل الإصلاح ، والتماس القوة بالتفكير فى الحياة ووسائلها .

وكما أن الانتفاض يطير عن المرء غبار الأرض ، كذلك القلق يطير عن الأمم غبار القرون أى آثار العوامل من الحوادث الماضية .

لاتحسب أنك تعبد القوة بأن تذم صاحب القوة، أو بأن تستغيث وتلهث وتصخب وتصرخ ، وإنما تعبد القوة بأن تتعرف مصادرها ، فتسعى من طرق مختلفة ، فإن صاحب الذراع المفتول لاتخونه الحوادث ولو سدت حوله أبواب الحيل ، والأمة برجالها ، والرجال بأجسامها وعقولها .

نحن نرث الزمن والزمن يرثنا ، وإنما الخلد أن يفيق المرء إلى أنه يحمل روح الحياة الخالدة بين جنبيه فهو من أجل ذلك، معبد من معابدها وبيت من بيوتها ، وإن الروح التى تحس فيه هى الروح الخالدة التى تحس فى غيره، ولولا صدق ذلك ما دفع الجماهير دافع من الجنسية أو الوطنية ، ولاعرفوا للتضحية معنى، ولا أحسوا لها حسيسًا فإنما فقهوها أو أحسوا إغراءها لأن النفوس ليست وحدات متباينة منفصلة ، ولو صح أنها منفصلة ، ما كان هذا التضافر بين أفراد الأقوام وكلما عظم إحساس قوم بهذا الأمر ، كثر ظهور العظماء بينهم ، وكلما قل الإحساس به ، قل ظهورهم ، فإنما إحساسهم به هو الذى يغريهم بإغفال ما ينشده الناس من مطالب المظهر الخاص من مظاهر الحياة العامة، لاعظام العظماء ما يغفل عنه الناس من مطالب الروح التى هم مظاهرها ، لاحق لضعيف ، فلو كان الحق فى كف العاجز لأصبح الحق باطلا مخذولا هذه سنة الله من كان عاجز النفس والرأى واليد، كان صلاح الخلق فى هزيمته وليس الظلم رأس الباطل ، بل رأسه العجز ، فإن الذى يحيى الظلم خنوع العاجز ، فالظلم نتيجة من نتائج الذل ، ولو نظرت فى التاريخ ، لعلمت أن ظلم الطاغية إذا انتفى قبل أن تتهيأ النفوس لمحوه ، نبت مكانه ظلم أشد وهو ظلم الفوضى.

إذا رأيت أوراق الخريف تذبل على أغصانها ، ورأيت أمة تفنى علمت أن كليهما عدل وحق، وأن كل من لاينمو يفنى، وكل مالا يزيد ينقص ، وكل ما لا يتقدم يتأخر ، وإنما فنيت الأمم لأن الدهر سلبها عرفان سبيل استرجاع حياتها وتجديدها .

ليس فى الأمم أو اللغات أو الأنظمة أو العقائد شئ لايعترضه الفناء ، وإنما هذه وسائل من وسائل الحياة لاغايات .

يقول قائل إن فالقوة ليست أبداً سائقة إلى الفضيلة . وهذا القول فى الصميم من الحق ، ولكن القوة فيها دواء ما تحدث من الفساد ، بل ذلك الفساد من سلاسل الحوادث التى تقضى بها القوة أمرها بالقوة هى التى سمت بالرومان إلى منزلة علياء من منازل الملك والشوكة . وكما أحدثت القوة الحضارة ومستلزماتها ، والشرائع الرومانية الشهيرة التى عم نفعها أحدثت تلك الفتوح التى أكثرت الثروة والترف ، وما تبعه من الانهماك فى الرذيلة والطغيان فى الخلق الفاسد ، فاستلزمت هذه الحال ظهور المسيحية وروادعها من ترهب وتعبد ، فلما جهل الناس معنى العقائد وصار أحدهم يرى أن من العقيدة أن يحرق أخاه فى عهد الاضطهاد ، تناهت قوة النفوس إلى الحرية والرغبة فى الملاذ التى ظهرت في عهد إحياء العلوم فى أوروبا ، بعد أن كانت تغرى المرء بأن يضطهد نفسه ، ويحرمها اللذات فالقوة دواؤها فى دائها والشرّ يمحو الشر، إن سعادة أمة وشقاءها أمر ضئيل إذا قيس بالسنة التى قضت بسعادة الأمة أو شقائها وكما أن الفرد وسيلة من وسائل القضاء ، كذلك الأمة وسيلة لا غاية.

هنيئًا للأمة التى ترى فى قوى الطبيعة مرآة حياتها فتعظها قوى الطبيعة فتعظها القوة التى فى الغصن الذاوى تذويه، والتى فى الغصن المورق تكسوه قوى الفناء وقوى الحياة، وليس الفناء إلا مظهراً من مظاهر الحياة وسبيلا إليها.

ولاريب أن يقظة النفس وإحساسها عظمها ليس مما يتهيأ لكل نفس، ولامما يستقيم فى كل حال ، ولكن النفس ليست الحجرة الصغيرة تعرف ما تحويه فليس من الرأي أن حكم على نفس بالقدرة أو العجز ، إذ أن فى كل نفس قدرة كثيرة ، وعجزا كثيرا وصفات متباينة وشمائل غائرة غافلة .

القوة ملأ الحياة والنجاح فى تذليلها ورياضتها كما تروض المطية وهى كالحسناء لاتروضها إلا بأن تكون جريئًا عليها. لايعبد أحد القوة بأحسن من تعرف مكانه فى نظام الوجود وما ينبغى له أن يكون .

إذا نظرت فى الوجود رأيت أن القوة أعظم من الفضيلة لاريب فى أن الفضيلة قوة، ولكن الطبيعة لاتأنف من أن تجعل القوى غالبًا للفاضل إذا كان فى ذلك وسيلة من وسائل الرقى انظر فى التاريخ تر أن صاحب الرذيلة قد يغلب صاحب الفضيلة ، إذا كانت قوى الأول أكبر

من قوى الثانى هذا شئ قد يحزن الباحث ويدفعه إلى اليأس ، ولكنه إذا جد فى بحثه، رأى أن ذلك معين على الأمل وسائق إليه .

إن الطبيعة تخرج الخير من الشر ، وتخرج الشر من الخير وينبغى أن لايجاريها أحد من الناس بأن ينصر القوة على الفضيلة ، لأن ما يحل للقضاء لا يحل للناس فالشئ يعد خيراً أو شراً إذا نسب إلى الإنسان، ولكنه إذا نسب إلى القضاء لم يكن خيراً أو شراًهذه سنة الله، من خالقها بأن يجارى القضاء فى فعل الشر ، خسر بفعله ما كان يربحه إذا لم يفعله ، فيخسر من ضميره وصحة عواطفه وطهارة خلقه وسكينة نفسه فهو وإن كان رابحًا بفعل الشر من مال أو جاه أو منفعة فإن الذى يخسره من سعادة أكثر من الذى يربحه من مظاهرها ، لأن السعادة ليست دائمًا فى المال والجاه والمنفعة ولكنها فى سلامة الضمير وصحة العواطف وسكينة النفس ، فاذا كان المال والجاه والمنفعة سائقة إلى طهارة النفس وسكينتها كانت السعادة فيها ، ولكن من فعل الشر خسر طهارة النفس وسكينتها وسلامة الضمير وهدوءه .

إن وقوع القضاء بما لو فعله الإنسان عد فى الشر ينبغى أن يكون دافعًا إلى اليأس أو الحزن أو باعثًا إلى مجاراة القضاء فى مواقعة الشر، لأن شريعة القضاء غير شريعة الناس وليس كل حلال له حلالا لنا، لأن الإنسان لايقدر أن يخرج من الشر خيراً ، وإنما الاضطهاد فى الدين سببه إنكار أعوان محكمة التفتيش هذه السنة الكبيرة (أى أن الإنسان لايقدر أن يخرج من الشر خيراً) فكان إنكارهم إياها باعثًا إلى مواقعة جرائم كثيرة من قتل وتعذيب، والتخلق بالقسوة وغلظ الإحساس . جهل الجزويت هذه السنة، فكان أحدهم يكذب أو يخون من أئتمنه أو يتجسس على من أضافه ويسعى به عند المضطهدين ثم يزعم أنه إنما أتى الشر كى ينصر الفضيلة والخلق الحميد .

القضاء أوله فى الأزل وآخره فى الأبد فهو من أجل ذلك يأتى بالشر كى يدفع به الشر أما الإنسان فعمره أيام قلائل ، فينبغى له أن يجعل قواه فى جانب الخير ، لأن بقاء الوجود فى ذلك فإذا كان جانحًا إلى الشر بأن تكون الوراثة والبيئة والتربية قد غرست فى نفسه عوامل الشر، كان فعله الشر جالبًا له الشقاء ولا أريد أن أقول إن كل شقاء سببه فعل الشر، ولكنى أقول إن كل شر نتيجته خسران، وإن كان من نتائجه ربح أيضًا.

لايجوز لأحد أن يقول إن العقاب الذى يجلبه فعل الشر على فاعله جزاء لفاعل الشر لأن الجزاء لايكون إلا إذا كان المرء غير مقيد بقيود الوراثة والبيئة والتربية ، فإن هذه أنصار

القضاء والإنسان عبد القضاء وليس الشقاء الذى يجلبه فعل الشر على فاعله جزاء أو العقاب الذى تضعه الحكومة للجانى عقابًا ، وإنما هو نتيجة طبيعية ، فلايجوز لنا أن نسميه جزاء، كما لايصح أن نسمى ذبول الأزهار أو احتراق فتيلة المصباح أو تحول النار إلى رماد عقابًا لها، ولكنه نتيجة طبيعية ، وكما أن القدح إذا رميت به على صخر تكسر ، كذلك الإنسان ، إذا أتى الشر خسر ، إنه من الخطأ أن يزعم زاعم أن عقاب الحكومة للجانى ظلم له، كما أنه من الخطأ أن يزعم آخر أن تكسر القدح أو ذبول الأزهار أو احتراق فتيلة المصباح ظلم لها ، فشقاء الإنسان إذا كان قد أتى شراً ليس بظلم ، بل هو نتيجة طبيعية وكذلك شقاء الإنسان إذا لم يأت شرا بأن يكون ضعيف العزيمة أو مهيج العواطف فكما أن البخار المحبوس إذا عظم كسرّ الإناء ، كذلك العواطف المهيجة القوية ، تحز فى نفس صاحبها وتشقيه فلايصح أن نقول إن صاحب العواطف المهيجة قد ظلمه القضاء، كما لايصح أن نقول إن الإناء الذى حبس فيه البخار مظلوم ، وإنما الفرق بين ذلك الإناء وبين صاحب العواطف المهيجة أن الأول لايتألم وأن الثانى يتألم ولكن القضاء لايعوقه تألم الإنسان لأن ألم الإنسان شئ ضئيل فى سبيل الحياة، ولولا الألم ما ذيقت اللذات.

إذا بلغ الإنسان منزلة من العرفان يعرف فيها حقارة حياته الخاصة، بأن يعرف مقدار جلالة الوجود رأى أن القضاء غير ظالم فى الحكمه ، ولو أن ذلك الرأى لايذهب آلامه ، فقد يعينه على احتمالها ولايعرف المرء مقدار جلال الوجود إلا إذا عبد القوة فى جميع مظاهرها ، فيعبد القوة فى الجسم والخلق والإرادة والفكر .

إن فى نفس المرء عزمات نائمة إذا لقيت من الحوادث ما يثيرها غيرت مجرى القضاء وإن نوم تلك العزمات سببه يقظة عوامل فى النفس تسعى إلى غير ما تسعى إليه تلك العزمات وهذه العوامل تعين مجرى القضاء أيضًا فالقضاء لايقع إلا بما تريده النفوس ولكن قوى المادة لها تأثير فى النفوس ، فإنها تحد قواها وتعين عواملها والنفوس قوى من قوى الطبيعة ، وكذلك قوى المادة ناتج من انتصار قوة على قوة .

قوموا بنا إذاً نتعرف سبيل تذليل القوى وترويضها ولايستقيم لنا ذلك التعرف إلا إذا قلقنا كل القلق لأن اطمئنان المرء وسكينته تفسده كما أن ركود الماء يفسد الماء. الاطمئنان والسكر والغفلة والعجز والنوم إخوة يحزننى أن أرى أكثر المصريين هادئين ناعمين لايتساءلون عن معنى الحياة ، كأن الأحياء منهم رفات الأموات .

أكاذيب الحياة

وجدت لكل أمة داء وداء هذه الأمة أنها ترضى من الغنيمة بما لا يروى ظمأ ولاينقع غلة فهى إن وقعت على المظاهر سكنت إليها ثم لاتلبث أن تجعلها بالمكان الأجل لأنها تضع على سيئاتها حجابًا منوعًا ، وتخلق لها من النفاق والكذب حسنات تخدع ذا البصيرة العمياء والرأى الضئيل . ونفس العاجز تنأى عن الحقائق ذعراً منها وقصوراً عن شأوها الأبعد ومرماها الأشرف ، وهى إن وجدت ما يكسوها مهابة واحترامًا عند قوم يقرنون الفضل إلى ضده ، كانت سريعة التلبس به، رغبة عن النصب واحتمال العثار فهذا نوع من الجبن يقعد بالنفس عن إدراك الفضل الأغر حتى إذا راجعها المرء قالت له أرح خطاك وأبق على قواك فإن فى النفاق فضلا لايعوزك ، وهل رأيت أحداً من أهل الفضل ، ساد بعد خموله من غير أن يجعل النفاق مدرجة الرقى ثم لاتزال به حتى تأسر عزيمته وتخمد همته ، والنفس خلابة .

ولقد زميت باللحظات والفكر إلى سيد ومسود ، فرأيت المظاهر تفعل بهم مالا تفعله الخمر بقتلاها ، ولايلحقه الهوى بأسراه فليس الغنى فى عزه وجاهه بأبعد منها منزلاً من الفقير المتحيل لرزقه ، ولا الفتاة العذراء بأعلق بها حبلاً من العجوز الشمطاء ، ولاالفتى اليافع بأحسن صلة من الرجل الجليد، لا والله ولاينجو من حبالتها التى هى أوسع من حبالة الأمل، العالم الذى يزهى بعلمه وأدبه فما ظنك بالدعى الذى هو أحوج إليها . وهكذا يسلك حبل المظاهر الابن والأب والبنت والأم والسيد والخادم والتلميذ والمعلم والقاضى والمحامى والعصامى والأصيل .

وإنى محدثك عن صديق صحيح الرأى والفضل إلا أن به فرقًا من ذلك الظالم الغصوب الذى يدعونه الرأى العام فكنت إذا عاتبته فى شىء أتاه من تلك المظاهر التى تفسد النفس ، أذرى دمعة يود لو أنها دمعة التوبة ، ثم يقول شر النقائض ما تلبس به المرء عن كره له وأنت تعلم أنى لا آتى من المظاهر إلا ما يدفع عنى غوائل رأى العامة وقولهم فيمن خالف مذاهبهم، والمداراة أحسن حالا ، وأسلم ما يتذرع به المرء فى نفى ما يسوءه، ولو علم ذلك الصديق أن المجاراة لاتكون إلا فى الفضائل ، وأن الناس لم يفسدهم إلا نوع من تلك المجاراة حتى أصبحوا مثل الأنعام ، يفعل أحدهم السيئة فيتهافتون عليها لمحا تلك الدمعة اللئيمة التى هى

شفيع النفاق واستبدالها بأصفى منها عنصراً وأكرم نسبًا وكيف نطبق ذلك الحمل الثقيل الذى يضعه علينا رأى العامة إذا وضع السنن والعادات وهو رأى الجهلاء فى عهد يلقاك أحد أبنائه بوجه وقاح كأنه قدّ من أديم النعال فيقول بملء فيه أنا كذا ويعزو إلى نفسه من الفضائل وأصناف العلوم حتى لكأنه ارتضعها من ثدى أمه.

ولقد جعلت من بعض همى أن أنقب عن نقائض أهل المظاهر ، وأن أعرضها على هذه الصحف لعلها تكون مرآة ينظرون فيها مالا يبصرونه فى أنفسهم والمرء عمى عن عيب نفسه خبير بعيب غيره ، فمن هؤلاء الداهية اللئيم، فى ثياب الحر الكريم، ينصب حباله ويبرى نصاله ويشحذ آماله وهو يقول : (يا ليت لى نعلين من جلد الضبع)

ومنهم الصاحب الذى يطوى قلبه على دخل ، تسره سيئاتك وتسوءه حسناتك ومنهم الداعى إلى الدعوات الاجتماعية الذى يدور مع الزمان كما أراد ، ولابغية له إلا أن يعتلى على رقاب الناس ، فهو فى تنقله مثل خيام العرب (يومًا بحزوى ويومًا بالخليصاء) .

أو مثل قلب الوارث إذا سئم من هلوك، رده صاحبه إلى هلوك، ومنهم الشيخ الذى يكيد بصلواته ويعصى الله فى خلواته ثم يقول قول الشريف الرضى.

كم عرضوا لى بالدنيا وزخرفها   لمع الهلوك فلم أرفع لها رأسا
وكيف يقبل رفد الناس محتملاً   ذل المطامع من لايحمد الناسا

ومنهم ذو الثراء الذى لايرى المجد إلا فى وسام يجله العيان ويحمده البيان. ومنهم الفتى اليافع الذى ينفق فى شراء ملابسه ما لاتنفقه العروس ومنهم قتيل السياسة الذى يطوف ما يطوف حتى إذا انهك بدنه فى نهاره ، رجع إلى بيته بصوت قد بح ، وارتمى على فراشه ثم تجئ العجائز هذه تصب الماء والملح فى أذنه وتلك تصب الخل فى أنفه وهو بينهن ينشد قول بشار،

سترى حول سريرى   حسراً يلطمن لطما

ومنهم الوارث الذى يضيع ماله المورث بين الحان والحسان، ثم يتطلع إلى أموال الفتيات الوارثات ، فلايزال يخدعهن بزى غض ودمع غزير، فتهيم الفتاة بين ماله وجماله حتى إذا كانت ليلة الزفاف، وعلمت أنه خالى الوفاض أخذت بأذنه وبرجله ، وجعلت تقول .

وغررتنى وزعمت أنـ   ـك لابن فى الصيف تامر

وإن خليقًا بنا أن نعرف أن لاحياة لقوم يهتمون بالمظاهر ، وأن نتخلص من تلك السنن والعادات التى تسنها المظاهر، والتى تنزع الفضائل من النفس وتضع مكانها حياء مكذوبًا ، وترفعًا عن غير ريبة وتأدبًا ظاهره صدق وباطنه نفاق ، وقد ورد فى قصة نوترام للشاعر الفرنسى الشهير فكتور هيجو أن فرنسا أرادت مرة أن تتغلب على بلاد فلندر فجاء سفراء هذه البلاد إلى باريس عاصمة فرنسا رجاء فى نزع الغل من صدور المعادين، والتماسًا للسلم الذى تقوم به المعيشة الطيبة، فكانوا على جلالة قدرهم وعظم تراثهم يجالسون الفقراء والمساكين، ويبرون أبناء السبيل، ثم إذا جاء وقت الغذاء افترشوا الأرض وبسطوا أمامهم الخبز والجبن، وجعلوا يأكلون هنيئًا مريئًا لايبالون قولة لائم ، وكان أعاظم الفرنسيس يزدرونهم وينفرون منهم، نفار المعمود من طعامه فقال لأعاظم الفرنسيس رجل محنك منهم، والله إن هؤلاء لقوم خشن عند الحفيظة إذا لان غيرهم صلبوا ، وإنهم والله لأعظم منا وحمية أكثر التماسًا للحقائق، وأقل اهتمامًا بالمظاهر وهم على صغر مملكتهم وقلة عددهم أقوى من أن نهتضمهم لأنهم لم تأسرهم المحاكاة .

انظروا إلى فعل هؤلاء يا قومنا ، عفا الله عنكم فإنا لنعهد منكم أن كلمات الفخر والإدعاء أقرب إلى أفواهكم من قول الحق فكأنها ، كما قال البحترى (كالخيل خارجة من حبل مجريها) .

أى والله ، لكأنها خيل فى حلبة السباق استعارت سرعة للبراق ودبيب الترياق . ثم إذا نبغ فيهم الرجل العظيم نبحوه ، كما ينبح الكلب ضوء القمر. وإنما مثل هؤلاء الذين يرضون بحالتنا الاجتماعية وبتلك الأصوات الجانحة فى طلب الإصلاح، مثل الطفل الصغير الذى إذا نظر إلى الماء ورآه ساكنًا زعم أنه قريب الغور ، وإذا رآه هائجًا مائجًا زعم أنه بعيد الغور ، وهذا خطأ لأن قرب الغور ليس من لوازم سكون الماء وكذلك بعده ، ليس من لوازم هياج الماء.

الرغبة فى الإصلاح هى سخاء المرء عن ماله وجهده وقوته وجاهه وقدرته وسلطانه ، فى سبيل نفع وطنه وإن أحسن ما يخدم به وطنه، إحياء العلم وإنماء التربية التى تنعش النفوس ، فتسرى بها مسرى الرائحة الطيبة فى أنف الناشق التعب، أو كأنها نفثات المسيح التى كان يحيى بها الموتى وإنما مثلنا مثل الرجل الذى أخذه تيار الماء، ولكن لم يتوغل به. ثم هو لايزال قادراً على تخليص نفسه بإجهاد قواه إجهاداً شديداً ولكنه إما أن يتهم قواه بالعجز ، وإما أن

يتراخى عن إجهادها زعمًا منه أنه إذا استنجد برجل على الشاطئ أسعفه الرجل ووفر عليه قواه .

إذا ظل رأى العامة هكذا قائداً للداعين للإصلاح مرشداً لهم، وهم منه هيابون عيافون لمراجعته ، صرنا فى غمرة وأية غمرة.

ثم إذا ظللنا هكذا نعتمد على غيرنا ، كنا كالمتوكئ على الماء أو الهواء أو المتخذ من الخيط عصا أو الذى يميل على جسم من مال .

إن فى بردىّ جسما ناحلا لو توكأت عليه لانهدم

بين الرغبة فى الإصلاح وبين ما يأتى قبلها من دور القول، مثل ما بين صوت المدفع وصوت القربة، كلاهما عظيم ، ولكن وراء صوت المدفع من القوة ما يحط الصخور من شماريخ الجبل الأشم ، وليس وراء صوت فرقعة القربة إلا هواء يدخل فى فراغ .

الأمة أغنى من الحكومة وأقدر منها على إصلاح أمرها ، وأعرف منها بأماكن الفساد ، وأعلم منها بطرق إصلاحه ، ولاينقصها إلا أناس يناصبونها العتاب والعذل والنقد حتى يوقظوها من نومة العجز .

إذا أخذت شيئًا من الطين ورميت به الحائط . بقى بعضه عليها ، فاذا فعلت ذلك مراراً كثر ما يبقى على الحائط من الطين وكذلك الرجل المصلح فى اجتذاب رأى العامة الذى ، إذا جعله العلماء قائداً لهم ظغى عليهم وازدراهم .

يغيظنى أن أرى الناس قد شملهم الادعاء وأباحوا لأنفسهم أن يجهروا بأفكارهم ، وهى لم تنضج بعد ، فلا يقرأون من الكتب إلا ما كانت آراؤهم تتطلع من سطورها ولو أنصفوا لأخذوا بقول الفيلسوف الأديب رسكين ، إذا لم تجد فى الذى نقرأه سوى ما يجول فى فكرك من المعانى ، كان خليقًا بك أن تهجره إلى ما تتطلع منه غرابة المعانى ، فتنظر فيها نظر الباحث فى المنظار المكبر، ثم هو إذا لم يحسن النظر إليها كان خليقًا أن لايعرف صحتها.

مثل الكتاب اليوم مع القراء مثل الطاهى الذى يتعرف ذوق مولاه، فى طعامه وشرابه طمعًا فى أن يرضيه ، وهم يرمقون رأى القارئ ، كما يرمق المنافق مولاه المستبد ، ويقرظونه بأحسن من مدح الشعراء فى الخليفة هارون الرشيد.

ولقد فاتهم أن الأصل فى النقد رغبة الناقد فى أن يسل النقص من الفضل فيدعو الفاضل بذلك إلى اَستئناف رقيه فى منازل الفضل ، والناقص إلى الخروج عما تلبس به من الضعة فهو أصل من أصول العمران ، وعامل من تلك العوامل التى تسعى فى تهذيب أمور الحياة، وتنظيم شؤونها واصلة الرغبة فى الحميد الحسن.

إن هذه الحياة منازل يعمرها الناس ، فمنهم الفاضل ومنهم المفضول ، فاذا وقع النقد على امرئ فى إحدى هذه المنازل كان ذلك داعية إلى طموحه، والطموح سبب من أسباب التعلق بالرغبة والوصول إليها. قال الاستاذ محمد عبده كل نقد فحشوه لوم حتى ما كان منه قاصراً عند بث المحمدة والإقرار بالفضيلة ، فإن حمد الكامل عدل للناقص على التقصير وإزعاج للمحمود وزجر له عن ملابسة الإعياء فالنقد كما قال الأستاذ لوم لمن وقع عليه وهو أيضًا تنبيه لمن لم يقع عليه فاذا كان وقوع النقد على من هو أرفع منك منزلة فى الفضل، كان فى ذلك إظهار لما أنت فيه من الضعة فتأبى نفسك أن تعمرها بعد ذلك ، وترغب فيما هو أقرب إلى الكمال ، وإذا كان وقوع النقد على من هو فى منزلة من الفضل، مثل منزلتك خفت أن يتعداه إليك فيلحقك منه مالا ترضاه.

على أن النقد إذا كان آلة فى يد من لايعرف كنهه أو فى يد من لايريد أن يقوم به بحيث لايتعدى معانيه التى وضعت له ومبانيه التى أقيم عليها، سهل على المضللين أن يخادعوا الناس عن معانى العظمة والحقارة ، خذلانًا للحق وانتصاراً لأهوائهم .

وإذا تقصينا مواقع النقد وعددنا نتائجه، عرفنا أن خيره قريب من شره، وهما يسلكان مسلكًا واحداً ، فخيره فى عدائه للغرور الذى يحدثه كثير من الثقة بالنفس ، وشره فى عدائه للأمل والإطمئنان الذى يحدثه قليل من تلك الثقة.

وإذا نظرنا فى شؤون الحياة وجدنا أن النقد تختلف أزياؤه ومذاهبه والقائمون به فإن العالم الذى له فى البحث عن أصول الأشياء مجئ ومذهب ، والخطيب الذى يقلب فى فمه مقولا كشقشقة الجمل، والشاعر الذى بين قلبه وقوله صلة ، مثل التى بين أليفين متحابين ، سواسية فى استعمال النقد وتتبع فضائله ثم إذا نظرنا فى أمور الناس ، وجدنا أن كل إنسان ناقد منقود وأن العمران لم يستقر إلا بما وراء ذلك من التوفيق إلى منازل الكمال .

ولقد قال النابغون ما أملته عليهم عقولهم من الآراء التى يريدون أن يصلحوا بها نظام المعيشة ، ولكنهم يودون أن يصلوا بالناس إلى غاية الكمال ومنتهى الفضل، فيأخذون بأسباب تقصر عن آمالهم.

على أن رأيى فى هذا لا يقع على رأيهم ، لأن تلك الحياة التى ينشدونها ليست حياتنا التى ننعم بما صلح، ونسعى فى تلطيف ما اضطرب من أمورها، لأن منزلة الكمال ينتفى عندها التفكير والعمل والإقدام ، وغير ذلك من الصفات الحميدة التى لاتكون إلا إذا وجدت مجالاً لها وغاية تسعى إليها.

وربما قيل إذا أراد مصلح أن يصل بفاسد إلى درجة من الإصلاح ، فإنه بدفعه فى هذا السبيل إلى منزلة أبعد ، لأن السعى يعود بأقل منها فإذا زاد عن القدر المطلوب ، كان وقوعه عليه بسبب اعتراض العقبات ويكون المصلح فى هذه الحال ، مثل الذى يرمى بسهم إلى جهة تهب منها الريح ، فإذا أعطى الريح ما تتطلبه من إجهاده نفسه فى إرسال السهم، كان موقع السهم موقع آماله فيه، وإنى أقول ، هكذا يجب أن تكون عزائمهم التى تدفعهم إلى الإصلاح ينبغى أن تكون موصولة بأبعد مما يريدون منه، ولكن الوسائل التى يتخذونها فى هذا السبيل يجب أن تكون موافقة لحال الفاسد الذى يريدون إصلاحه ثم إن للإصلاح طريقين أحدهما أن يبتدع المفكر نظرية يحسبها تكفل بتنظيم أحوال المعيشة ، ثم يحمل الأحوال على أن تتحول حتى تشابه هذه النظرية، والطريق الثانى أن ينظر المفكر فى أحوال ما يريد إصلاحه وتاريخها وأسباب اجتماعها ثم يستخرج لكل حال وسيلة لإصلاحها مشاكله لها.

ضحايا الحياة

قد يحسب المرء أنه يؤثر نفعه بما يسعى إليه فى مساعيه ، وهو يسعى فى غير علم إلى نفع غيره، كالعظيم العبقرى الذى يُرضى عواطفه ولايفهم غاية قوله ولا يدرك تأثيره ولقد يكون قول المفكر كالنهر الذى يختفى فى باطن الأرض فى مكان ، ليظهر فى مكان آخر يجهل أهله مصدره ، وكالماء الذى تشربه ولاتفطن عند شربه إلى أنه من ماء المحيط وكل امرئ فى الحياة يضحى كثيراً من حياته لنفع غيره من غير أن يفطن إلى ذلك وقد زعم شوبنهور أن قاعدة التناسل ، هى هذه التضحية إذ أن العاشق يحب من الغوانى من يختار ويصطفى ، فيظن أن ذلك الاختيار من مشيئته ، وهو من إرادة الحياة العامة التى قد تغرى المرء بأن يحب نقيضه لما تستقيم به أغراضها ولاتستقيم به سعادته فى كثير من الأحايين.

والناس كالماء ، فمن خاف من الناس أن يمتزج نفعه بنفع غيره أو أن ينعدم فيه ، كان كالماء لايختلط فيركد فيوبى. فلا رأى لمن يقول إن أساس الحياة حب النفس لا أساس غيره فليس للحياة قاعدة واحدة ، بل إن أساس الحياة جانبان نقيضان فى كل معنى من معانيها، وفى كل قاعدة من قواعدها وفى الآراء والأخلاق.

وكما أن حب النفس أساس للحياة ، كذلك التضحية أساس آخر، ولاتستقيم الحياة إلا بهذه القاعدة المزدوجة انظر إلى الأخلاق تر أنها توسط بين نقيضين ، كالحزم الذى أساسه الخوف والشجاعة ، والكرم الذى أساسه الاقتصاد والتبذير .

إن الرجل العظيم فى الأمة كالمحرك أعماق الماء، قد يؤدى بصفاء الركود ويهيج القذى كما يهيج الدر والعظيم يخلط بين حب النفس والتضحية فى نفوس الناس، حتى ينتفى العداء بينهما كى تستقيم أغراض الحياة ويخرج بالناس من النظر الأقرب إلى النظر الأبعد ، ومن المعيشة فى حقيرات الأمور إلى المعيشة فى الحياة العامة . أتحسب أن أفراد الجماهير التى تقاتل فى حروب أوروبا تبغى باقتحامها أتون الحرب الزبون ربحًا يناله كل فرد يسوقهم تغالب لجنسيات الذى هو مظهر من مظاهر روح الحياة ووسيلة من وسائلها ، وليست التضحية قاصرة على ما أتى المرء عفواً من غير فطنة إليه، بل إن أجل التضحية ما أتى بعد الفكر ، والتألم

فى مغالبة النفس وزجرها ، ولاينفى هذا الألم لذة يجدها من يختار سبيل التضحية ولانقول إن كل امرء قادر على أداء مطالب روح الحياة ، أو أنه قادر على أن يريد أداء ذلك وأمثال هذا يخدمون روح الحياة بالتناسل ، والمحافظة على القديم من الأنظمة وبالأعمال اليومية ولاتنكر عليهم منزلتهم ولكن تنبيه النفوس ، يوقظ فى بعضها من القوى ما لم نفطن إليه. هل كان الأنبياء والمفكرون والمصلحون لايفكرون إلا فى سلامة لحمهم وجلدهم وشهوة بطونهم ؟ وليس أعظم الناس خدمة لمطالب الحياة الخالدة العامة أكثرهم رغبة فى خدمتها ، بل إن كثيراً من العظماء ، كانوا ينقمون من روح الحياة قهرها إياهم على العمل فيما فيه عداء الجماهير لهم، ولكن ينبغى أن لانظن أن وجود الرغبة أمر لافائدة فيه، فإن الرغبة تفتق الحيلة . ومن لايقدر على الكثير، قد يمكنه القليل .

وللرغبة على أى حال أثر فى عمل المرء وخلقه ولامراء أن بعض العظماء كانوا غافلين عن نفعهم للنوع البشرى ، وتحققهم مطالب الروح العامة فيه، ولكنى قدمت أن سبب صدق السريرة والتضحية ، والتضافر ، إحساس المرء أن شخصيته الفانية ليست هى روح الحياة التى تحس فيه، فلايحس غبنًا إذا أغرته روح الحياة بتفضيل مطالبها وتحقيقها ولاننكر على الناس غريزة التوقى وحب النفس ، ولكنا نوضح أنها ليست الأساس الذى لا أساس غيره للحياة وكل رقى فى العلوم والآداب والحضارة أساسه التضحية والتضحية لها وقت لاتتعداه ، فإن تعدته كانت أسلوبًا من أساليب الندم، ولاتكون التضحية ما دام الفرد مقدسًا ومن نفع الثورة الفرنسية أنها أبانت مزايا تقديس الفرد من الناس، ونصرته على الحكومات الطاغية التى كانت قبل عهدها، ولكن بعض فلاسفة القرن التاسع عشر بلغ بالفردية إلى منزلة جعل فيها أفراد الأمة الواحدة كأن كل فرد منهم دولة مستقلة وكأن الحكومة مجلس سفراء بين هذه الدول الصغيرة وعلى هذا القياس ، يصير لكل فرد حقًا فى أن يكون جاهلا أو غبيًا أو ضعيفًا وأن له حقًا فى أن يموت جوعًا ، كى لاتأخذ الحكومة من فرديته وحريته بالنظر فى أمره ، والتدخل فى كل صغيرة من صغائر أموره.

إن فكرة التضحية فكرة راسخة فى أذهان الناس من القدم إلا أنهم لم يعرفوا كيف يستخدمونها ، فكانوا يتقربون إلى آلهتهم بالضحايا البشرية ونحن نعبد الله أيضًا بالضحايا البشرية حق عبادته بأن نضحى من أموالنا ومساعينا وأيامنا ولياليناا ومن مجهودنا كل عزيز

فى سبيل تحقيق مطالب الروح الخالدة، التى إنما تحقق بما تؤدى إليه المنافسة بين عناصر الحياة والأجناس من تجديد الحضارة ونشرها وبث الفكر وإثارة إحساس الناس بالحياة فالدين أن يهيئ المرء أمته قدر استطاعته ، كى تؤدي نصيبها من الجهاد فى سبيل الحياة والعمل لها ومن أجل ذلك كانت الآداب والعلوم والمخترعات واللغات والحضارة، من مظاهر جهاد الأجناس ومنافستها واعتلائها كما يتضح لك من حضارة المصريين واليهود والإغريق والرومان والعرب والتوتون .

ولما كان أساس التضحية صدق السريرة الذى سببه إحساس المرء بحياته العامة ، صار من يختار سبيلها ينتصر على الهزيمة ، لأنه يصير أسمى من الهزيمة منزلة، فانما تعترض الهزيمة مطالب الحياة الخاصة، ولاتعترض روح الحياة العامة التى تنبه إليها فوجدها فى نفسه والسعادة هى اعتقاد المرء أنه أعظم من النجاح والفشل ، وأنه أعظم من أن يجد لذته فى أن يكافأ ، فإن لذة النفس العظيمة فى أن تعطى الناس من عظمتها أكثر من لذتها فى أن تكافأ على ذلك الإعطاء ، فإن النجاح هو إحكام العمل ، لا مديح الناس، وصدق السريرة يشعر المرء كأن نوراً عليه ، فيسعد بنور الله .

على أن حب المكافأة على العمل قد يكون ضربًا من ضروب اللؤم ، وكما أن الزهر لا يتطلب جزاء على نفحته ، ولا المطر على مطرته ولا الشجر على ثمرته ؛ كذلك النفس العظيمة، لاتتطلب جزاء على عظمتها، وحسبها أن صدق السريرة ينبت الشجاعة فى النفوس، فيبرز منها الشهداء الذين يلتذون آلام الشهادة ، والذين يعلمون أن الحياة ثمن الموت ، وأنهم ليسوا خليقين بأن ينالوا راحة الموت إلا بالجهاد .

إن من أمكنه أن يعتقد أن غاية الحياة المأكل والمشرب ولم يحتقر نفسه من أجل هذه العقيدة ، فهو حقير ، ومن كان لايعمل إلا رغبة فى الجزاء وكان يحترم نفسه بالرغم من هذه الخلة فهو حقير، ولاتغبط أمثال هذا فإن وراء لذاته أعظم وأجل هيهات أن يلتذها .

أكاذيب العشرة

لا مراء أن أكثر أعمال المرء وأقواله يرجع إلى حب النفس ، وإن كان لها فى بعض الأحايين مرجع ثان، فان الدوافع المتغايرة قد تشترك فى الاغراء بعمل واحد ومن أجل ذلك كانت مودات النفوس ممزوجة بشئ من الأذى يبعثه حب المرء نفسه ، ورغبته فى أن ينتفع بصاحبه فكل امرىٍ يضمر لجليسه شيئًا من الكيد والكره، لأن نال منه جليسه فيما ينفثه له فى كلامه ممزوجا بشئ من المحبة ، لأن نوله جليسه من نفسه بأن سمع ما دسه هو لجليسه من كلامه ، هكذا عشرة الناس، وأكثرهم غافل عن بعض نفسه، وبعض نفس جليسه، وبعضهم يفطن إلى ما شرحناه وكلهم يحس أن ما شرحناه عدلا، وإذا فطن أحدهم إلى لؤم هذه العشرة انكروه وابغضوه وحاولوا إخفاء الحق الذى فطن إليه فانه لايتهم بها أفرادهم حتى يغفر له ذلك بعض الناس ولكنه يتهم كل الناس فلايغفر له أحد .

إن لؤم الخلق فى عشرتهم ، كالملح فى طعامهم ولامراء ، فإن الحياة تخرج من الشر خيراً ولولا الخلق فى العشيرين لنبذوا العشرة، كما ينبذون الطعام الذى لاملح فيه، فإن المرء لايغفر من لؤم عشيره إلا مشاكلته له واقترانه به. وإن المرء ليحس أنه إذا آلم جليسه ، كان أحسن منه حالا وهذا الإحساس يرضى المرء عن نفسه ، ومن أجل ذلك ، يجلس الناس بعضهم إلى بعض، كى يجسد كل منهم لذة لنفسه فى إيلام جليسه . فهم يجتمعون كى يسر كل امرء منهم بجليسه ، ولكنه سرور معكوس فهو إنما يسر به أنه فرضه لإرضاء نفسه وإشعارها أنها أسعد حالا من جليسه، بمحاولته خفضه ليرفع من نفسه بحفضه ، فينشأ من هذه العاطفة المزح السهل البسيط فى البيئات المهذبة ، وينشأ اللؤم والمكر والكيد والإسفاف فى البيئات المسفة فى الشر المتدلية إلى الحضيض منه.

فبعض الناس يتصيد الناس فى مجالسهم ، ليسد مجرى كلامهم بهجائك، يحسب أن ذلك الهجاء يرفع من شأنه ، وبعضهم يتلطف إليك حتى إذا أنست به وسكنت إليه، ذهب يشيع فى الناس أنك تتقرب إليه وتتودد له، وإنما يفعل ذلك كى يزيد عظما فى أعين الناس، ومنهم من يتواضع لك لكى تؤاخيه . حتى إذا جالسته انتهز مشهد أكابر الناس فيرفع عقيرته، كى يوهم الناس إن له دالة عليك، وأنه أعظم منك منزلة ومنهم من إذا رأى لك حسنة كتمها أو مدحها بما يشعر الذم تعريضًا أوتصريحًا ثم إذا وجد خسة لغيرك ذكرها وأعاد ذكرها، كى تتبرم بما يعنى ويقد إليه من الرغبة فى تحقيرك ، ثم تراه يلوم أهل الحسد، موهمًا أنك منهم ويذم أهل

الخبث ويدعى صفاء السريرة و وصدقها ويدعى أنه مخلص لك.

وادعاؤه الإخلاص بعد انتقاصك ، والكيد لك ضرب من المكر والسب، إذ لو عرف بين الناس بعداوتك ، ما نال منك قدر نيله منك بادعاء الإخلاص. فإنه لو عد عدوك خشى أن يحمل الناس تعريضه بك على عداوته ، فيدعى الإخلاص لك كيما يقول الناس إذا نبهتهم إلى مغامزه أنك لاتبغى منه الحق، وإنما تبغى منه مدح المتحيز لك. ولو أنك شرحت للناس ما شرحناه هنا من لؤمه كى تتقيه، لرأى مجالا للتخلص منه بأن يمدحك فى بعض المجالس مدح المفرط، ثم يصفك بسوء الظن كى لايلومه الناس على مغامزه وكى لايصدقوك إذا ألحت لهم بها وكثير من الناس يخلط فى سوء الظن، فيعده كله مغالاة ووهمًا ، وقد يكون منظاراً .

ومن الناس من إذا عرض بك أمامه معرض أو ذمك قادح ، جعل يمدح أمامك قادحك وهاجيك كى يؤلمك ، كأنما يقول لك فى تضاعيف كلامه إن قادحك من أهل الصدق والفضل ، إذا وصفت له خلق ذلك الخبيث عارضك ، وكأنما يخشى أن يصيبك البطر إذا لم يؤلمك وإن من أهل الخبث من يحسب أن الناس لا يفطنون إلى خبثه وهذا قصر فى النظر لايتفق مع ما يوصفون به من العقل، ويعدون من العقل أن يحاول المرء أن يكون خبيثًا من غير أن يفطن الناس إلى خبثه، ويظنون أن الناس لايتعاشرون إلا ليبرز كل منهم فى إساءة عشيره، تصريحًا أو تعريضًا حسب ما توطئه لهم الظروف وهذا مثل ما يحكى من القصص ، فقد زعموا أن بين الحشرات حشرات إذا ازدحم مكان بها بالت كل حشرة على أختها ، كى تخلى لها الطريق وكذلك هذه النفوس الحقيرة، فإن كل مودة من موداتها ، دنس ترمى به غيرها كى يقال أنها أطهر منها فتنتفع بهذا القول وتتكسب به. ومن الناس من لا هم له فى معاشرتك إلا مدح نفسه أمامك فيتطلب منك أن تصغى إليه كأنما يلقى عليك علما وحكمة ، وهو إنما يلقى عليك ما يلقى الطبيب على تلاميذه من أوصاف الرمة البالية ومنهم من لا هم له من معاشرتك إلا أن يجد منك مادحا له، فإذا قصرت فى مدحه حقد عليك وأضمر لك السوء ومنهم من يضمر لك البغض إذا لم توطئ له السبيل لانتقاصك ، فاذا فطنت إلى بغضه وكيده ، عد فطنتك جناية عليه وهذه حقيقة لاخيال فيها، وعاطفة تطفو على تلك النفوس لمن كان صحيح البصر، كما يطفو القذى على وجه الماء ومن الناس من لا هم لهم إلا إخفاء قول مادحك وإذاعة قول هاجيك ، وإنما مثلهم مثل الكلب الذى كان إذا غنى صاحبه وأطرب طرب الناس

وتصايحوا فيظل الكلب صامتًا حتى إذا أخطأ المغنى ولم يفطن الناس ، فطن الكلب فيملأ الأرض نباحا .

يظن أهل الخبث أن المرء منهم لايصح أن يعد خبيثا إلا إذا أحس خبثه وهذا من الغفلة فى الصميم، فان المرء لايقدر أن يحصى أو أن يفطن إلى كل ما يغريه به حبه نفسه، وإيثارها من أصناف اللؤم وحيله وطرقه وقد يكون من لوازم وإتيان الخبث استحالة إحساسه أنه خبث ،

ومن الناس من يمدحك مرة، ثم يؤلمه مدحه إياك لأنه يعد كل مدح لغيره ذمًا لنفسه ، فيحقد عليك ويكيد لك ، كى يمحو أثر مدحه ومنهم من إذا جلس إلى عدو لك ينكر فضلك ، وكان أعرف به أنكره مع عدوك وشايعه على ذمك حتى ينشرح صدر عدوك له فيطرى نفسه، لعدوك ، كى يكافئه على مشايعته له فى ذمك بتصديقه فى اطرائه نفسه وفى بعض الأحايين يجلس عدوك إلى صديق لك حتى يسكره من لذة الثناء عليه، فينشرح صدر صديقك لعدوك فيملأه ضغينة عليك وكرهًا لك وقدحًا فيك، فلايجد عند صديقك همة فى المكافحة عنك، بل تصح عزيمة صديقك فى انتقاصك كى ينال ثناء عدوك ومن الناس من إذا عرفت خبث عشرته تلطف إليك ، فتحسب أنه يواليك فتسهو عن خبثه فيكيد لك فى الخفاء .

ومن الناس من إذا ذهب إلى مرقده ، جعل يعد ما له وما عليه ، كالتاجر فيقول أسأت إلى فلان مرة وأساء إلى فلان ثلاث مرات فأكون قد خسرت إساءتين فلابد أن أستعيضها من فلان لاغرو أن فى الناس البله والأغرار، ولكن فيهم ذوى الخبث الذين يبيتون يعدون إساءاتهم إلى الناس ، كما يعد الشحيح درهمه ، ويسهرون يحرسونها خشية اللص ، كما يحرس الشحيح ماله فاحذر أن تتجاهل هذا الأمر ، وتعد تجاهلك لؤم النفوس إنصافا وعقلا واعتدالاً ، فتكون كالنعامة التى تدفن رأسها فى الأرض ، كى لاترى قانصها ثم تحسب أنه لايراها لأنها لاتراه .

ومن الناس من يتغذى بآلام من تراءت حسناته، فإن الناس يعدون حسناته جرائم وقد بعثهم الله رسلاً كى يأخذوا صاحبها على التكفير عنها بما يبثون له من الآلام والمكايد فى مشهد ومغيب وبعض الناس يشكو لؤم الناس وكيدهم وخبثهم كى يعد من الأبرار المظلومين لامن الأشرار الظالمين وإنما همه أن يلبس لباس الأبرار ومن الناس من يأتى إليك فتحسن إليه وتكرمه ، فيعد اكرامك إياه تخفيضًا لنفسه، وإحسانك ضعة فيه ، فيمقتك من أجل إحسانك إليه ومثل هذا مثل الرجل الذى أضاف خبيثًا وأحسن إليه ، وبينما هو بين اليقظة والإعفاء سمع ضيفه يتحرك فرآه قد استل مديته واقترب منه وهم أن يطعنه فقام ذلك المحسن فزعًا ،

وقبض على ضيفه الشرير ، وسأله عن خبره فبكى وقال إنى ما أحسن إلى محسن إلا أبغضته وأغرتنى نفسى بأن أصيبه بأذى وبعض الأغرار ينكر هذه الخلة، ولو كان عنده شئ من علم النفس، لعلم أن كثيراً من النفوس لاتمقت شيئًا ، مثل مقتها إحسان محسن ، إذ إن إحسانه إقرار بأنه أعظم منها فى الأمر الذى أحسن إليه فيه .

ومن الناس من تذكر له معنى حسنًا أو فكرة حكيمة ، فيأتى أمام الناس يذكرها لك، ويسألك عن رأيك فيها ، فيتوهم الناس أن له فضل ابتداعها ومنهم من يحاول أن يقنعك أن لافضل لك ، كأن أمثال هذا يخشى أن لا تعزه إذا فطنت إلى فضلك وبعض أهل الخبث إذا جلس إليك، وكان يخشى منك أمراً جعل يدس لك فى كلامه من الوعيد ما يوهمك أنه لايخشى مهاجمتك إياه ، ويستطيل فى اتخاذ هذه الوسائل التى هى ادعى لمهاجمتك إياه ، وإنما يفعل ذلك أملاً أن يشعرك الخوف منه، فيقول فى كلامه أنى أكره رجلاً ولو تمكنت منه لوجأته بسكين ، ثم ينظر إليك ليرى أثر كلمته فى نفسك.

والسبب فى أن كثيراً من الناس لايفطن إلى حروب اللحظ واللسان التى ميدانها العشرة، أن كل رجل منهم مشغول بسلاح لحظه ولسانه الذى يقاتل به ومن رحمة الله أن انشغاله به يلهيه عن جرح لسان غيره فى كثير من الأحايين ، ومن الناس من إذا خلا بك، جعل يغلو فى مدحك حتى تثق به، فإذا كنت أمام الناس جعل ينظر إليك نظرات بغض ، وأنت حائر لاتعرف أتتهمه فى إخائه وتعده عامداً أم تعده غير عامد، ولكنه لايلبث حتى يخلو لك، فيمجدك تمجيداً يمحو أثر ما وقر فى نفسك منه، ولكن الناس لم يسمعوا مدحه إياك فى خلواتك فلايشكون فى أنه عامد .

ومن الناس من إذا سلم عليك صديق امتعض لأن أحد الناس التفت إليك ولم يتلفت إليه وإذا أكرمك خادم ارتعدت فرائصه وأبغضك كل البغض ، وعد إكرام الخادم إياك إهانة له، فإذا جالسته فى ناد وطلب قهوة بقرش واحد وطلبت قازوزة بأربعة قروش ، عد طلبك كيداً منك كى تكبر فى عين الخادم وتصغر من شأنه ، فإذا ناديت ماسح الحذاء كى يمسح نعليك ، ولم يشأ هو أن يمسح نعليه ، عد مسح النعال من الطيش والخبث ومنهم من يلقاك عابسًا كى تسأل عن سبب تغاضيه ، فيعظم بسعيك إليه وسؤالك عنه وتشبثك به ومن الناس من يذمك كى تداريه وتحاسنه وتسعى فى ملاطفته، ولابد أن يكون هذا خسيس النفس، وكيف يعتز بنفسه من

لايفهم أن اعتزازك بنفسك ينأى بك عن ملاطفة هاجيك ، ويغريك بكرهه وابعاده ، وينفى عنك كل مودة ورغبة له فى الخير .

ومن الناس الخبيث الذى يبرر نفسلا بذمك ، أليس من إنصافه نفسه أن تذم لأن عرفته ، ولولا معرفتك إياه ما ذمت، ومن الناس من إذا سألك سؤالا فافدته ، عد علمك به نقصا فيه فيكافئك بالعداوة عليه، فإن لم تفده عد سكوتك لؤما ونفاقا ، ومنهم من إذا واجهته بالمودة ، عدها منك عداوة وإهانة له، فيضمر لك العداء، ومنهم من أفنت خلاعته حياءه يحاول أن يغض منك، فينسب إليك سوأته ، كى يبرر نفسه فتشاركه فى سوء الفكر ، وإن لم تشاركه فى سوء خلقه فينتقم لنفسه من الفضيلة فيك حتى تيأس من الفضيلة ، ومنهم من يتلطف إليك حتى تقرن اسمك إلى اسمه وتشيد بمدحه فيختلف إلى الناس ، يسبك فى كلامه كى يقول الناس إنك حقيق بالسب إذ ذمك من ترضاه وتمدحه ولو أن من ذمك كان متهما لديك فى مودته مذموما عندك ، لخالج الناس شك فى ذمه إياك ، ولكنك مادحه ومصطفيه ومرتضيه فكيف يعد قوله كذبا، وأعلم أن الناس يكفرون عن سيئاتهم بعزوها إليك ، فيحولون توبيخ ضمائرهم منهم إليك كى يعيشوا عيشة راضية فنصرة الفضيلة بعزو الرذيلة إليك ، تكفير عن خذلان الفضيلة فى أنفسهم فاجعل فضيلتك فى نفسك لا فى ألسنتهم ، كى لاتنقم على الفضيلة خذلانها إياك واعلم أن الخوف سبب إسراع كثير من الناس إلى انتقاصك ، فإنهم يخشون أن يعد إحجامهم عن انتقاصك حبًا للرذيلة ومن الناس من يدور فى النوادى يذكر الآراء السخيفة ويعزوها إليك، ويفندها كى ينال إطراء الناس بالنيل منك .

واحذر من أسأت إليه أقل من حذرك ممن أساء إليك ، فإن من أسأت إليه ، قد يغفر لك إساءتك . وأما من أساء إليك ، فإنه يذكر أبداً أنه أجرم إليك ، فإذا أكرمك ، عد إكرامه إياك اعترافا منه بجرمه فيمقتك من أجل إكرامه إياك .

ومن الناس من يرى فطنة جلسائه إلى كذبه وادعائه ونفاقه، فلاينزجر عن هذه الخصال ، لأنه يعرف أن القول يؤثر فى الناس أثره وإن عرفوا كذبه، وأن الادعاء ينال بعض الإعجاب مهما كان واضحًا بالرغم مما ينال أيضًا من السخر والاحتقار وأن النفاق فى بعض الأحايين يخدع الناس بالرغم من عرفانهم أنه نفاق .

(٥)

نظرات فى النفس والحياة

(١)

لاروشفو كولد - ليوباردى - شوبنهور [١]

إن علم النفس من العلوم الحديثة ، ولكن وصف النفس الإنسانية ومحاولة كشف مجاهلها ومخبآتها أمر قديم عالجه الشعراء والكتاب فى كل قوم ، ولكن لعلهم لم يبلغوا من الصراحة مبلغ النظريات التى بلغها سيجموند فرويد وأمثاله ، وإن كان لكل مفكر نصيب وطابع خاص فى الصراحة . ولا نظن أن أديبًا أو مفكراً أعفى النفس الإنسانية من تطلعه إلى غرائب أمورها ، أو الأمور المألوفة التى هى فى منزلة الغرائب لانزوائها فى ظلمات النسيان كلما رأت النفس فى ذلك النسيان مأربًا لها . ولكن نفعها بتذكيرها علم وفهم . ولعل بعض ذوى الفهم والزكانة ، يرى فى فهم النفس ،[*] نزعاتها وخواطرها ، سبيل رقيها وتخلصها من شوائبها ، وربما غالوا فى أثر الفهم فى العاطفة والنزعة والطبع وأملوا منه أكثر مما يستطاع جنيه من ثمرات أثر لطف الفهم فى لطافة الحس والنفس ورقتهما . ولكن مما لاريب فيه أن جهل النفس صفاتها وطبائعها هو العمى الروحانى ، وهو مصدر شر فى ذاته بما يؤدى إليه من بلادة الطبع والإمعان فى قسوته والاسترسال فى حمقه . ومن الأدباء المفكرين الذين لهم نصيب من بحث النفس - على سبيل التفكير والتأمل لا على طريقة القصص فى التصوير - لاروشفو كولد النبيل الفرنسى ، وليو باردى النبيل الإيطالى وشوبنهور الفيلسوف الألمانى ولكل منهم نظرات صائبة وكانت فى حياة كل منهم عوامل أدت إلى التفكير فى النفس والصراحة فى القول وإلى الإلمام بمكنونات النفوس ومعروضاتها من غرائز ونزعات وصفات . فقد سخط الأول على حكومة أمته وضرب بسهم فى حرب الفروند وجرح فى حصار باريس ونفى إلى الريف . فكان عائشًا بين المؤتمرين ، وخالط أناسًا من طبائع مختلفة ودرس أطماعهم وأطماع نفسه ولعل نفيه إلى الريف أعطاه فرصة وفراغا كي يعيد على فكره ماوعاه من طبائع الناس فى حياته العملية وما وصل إلى علمه من حيل رجال القصر الملكى ونسائه ودسائسهم وحبهم وبغضهم

---

١ - المقتطف ، سنة ١٩٤٧م ، الجزء الثالث ، المجلد ١١١ ، أغسطس سنة ١٩٤٨م ، ص ١٨٥ - ١٩٣.

* - (فى) ليستقيم المعني « المحرر » .

وحبهن وبغضهن . وكل ذلك كان مادة يستمد منها نظراته . أمَّا الثانى وهو ليوباردى فقد كان معاصراً لشوبنهور ومات قبله ولو أنه كان أصغر منه سنًا ، وكان من أسرة نبيلة فقيرة . وقد أنهك نفسه وجنى علي صحته بالإسراف فى القراءة والإطلاع حتى صار يعد حجة فى الأدب على حداثة سنه . وقد سمح له أبوه بعد تمنع شديد وتأبٍ كثير ، أن يرحل إلى المدن الإيطالية الكبيرة وأن يعاشر الناس ولم تكن إيطاليا قد وجدت بعد بل كانت تتحكم فى دويلاتها حكومات رجعية تشجع التجسس والدسائس والتلفيق فبدا له مايبدو للرجل المفرط فى الفطانة من طبائع الناس لأنه درس نفوس الناس فى كتب الأدب حتى اعتل وصار لايستطيع لاعتلاله أن يجاريهم ، ولا أن يماشيهم لأنه لم يتعود من صغره أن يألف تلك الطبائع كى يهون عليه بعض المكروه منها ؛ إذ أنه كان كالمحجوز فى بيت أبيه . وكل هذه الأسباب مهدت وسائل كشفه مكاره النفس وصفاتها التى تغالط فيها .

وأمَّا شوبنهور ، فقد رحل أجداده من هولانده إلى ألمانيا وصاروا من أهلها . وكان أبوه من التجار وقد أراد أن يكون ابنه تاجراً مثله ، وأرسله فى رحلة إلى فرنسا ثم إلى انجلترا . وقد قارن الفتى بين حرية الفرنسيين فى حياتهم الاجتماعية ومغالاة الإنجليز فى ذلك الزمن فى مراعاة العرف والتقاليد . ولعَّل هذه المقارنة هيأت للفتى دراسة طبائع النفوس فى حالى تبذلها واحتشامها . وقد ورث عن أبيه حدة فى الطبع كما ورث عن أمه الميل إلى دراسة النفوس ؛ إذ كانت أمه أديبة قصصية مفكرة . وهذا بالرغم من أنه لم يكن على وفاق معها ، وقد شجعه ته كبير شعراء وأدباء الألمان ، كما شجعه فاجنر الموسيقى وغيرهما . وكان غزير الإطلاع لم ـتف بالآداب الأوروبية بل درس الفلسفة الشرقية ، ولاسيما الهندية كما درس عقائد ـنود. وكان لايحجم عن البحث فى دخائل نفسه كما يبحث دخائل نفوس الناس . وفيما يلى ـعض نظرات هؤلاء المفكرين مع التعقيب عليها :

من نظرات لاروشفو كولد :

١ - بعض الناس إذا مات كان إحساس الناس بافتقاده أعظم من احساسهم بالحزن عليه ، وبعضهم إذا مات كان إحساس الناس بالحزن عليه أعظم من احساسهم بافتقاده .(ويريد افتقاده للانتفاع به). والحزن على هالك لايكون على قدر الانتفاع به ، بل على قدر الائتناس به والراحة فى مخالطته . وفى هذا الباب استثناء ولا كالاستثناء . مثل ذلك حزن من لا عائل له غير المفقود ومن انقطعت عنه الأسباب والحيل ووسائل كسب الرزق ، وحزن أمثال هذا إنما يكون حزنًا على أنفسهم لا على المفقود إلا إذا كان مما يرجى للائتناس بعشرته ولطف أساليبه فى الحياة .

٢ - أكثر الناس لهم فضائل خفية لا تظهر إلا بالتجربة وفى حالات مرتبة لتلك الفضائل. فهم مثل الأعشاب الطبية ، التى تظهر فضائل طبها بالتجربة وفى حالات خاصة - وهذا صحيح، ويجوز أن يقال فى كل إنسان ، فإنك قد تعرف إنساناً لا خير فيه ولا فضل له فإذا عرضت له حالات غير منظورة رأيت له شيئاً من الفضل يدهشك فتلح فى إنكاره ، لأنه لايتفق وما تعرف من طباعة التى جبل عليها ، وما ذلك الإنكار إلا لأن المفكر ينسى أن النفس الإنسانية مستقر كل فضل وإن غاب ، وقرارة كل نقص وإن رسب ، وإنما يلبيها من هذا وذاك فى أكثر الأحايين ما اعتادته وسهل عليها إيراده وعمله .

٣ - قد يفخر الناس بعيوبهم ويجهرون بالمباهاة بها ك، ما يفخر شارب الخمر بقدرته على شرب الكثير منها ، أو كما قد يفخر مواقع الشهوات بقدرته عليها وبما ظفر منها ، أو كما قد يفخر الآخذ بالثأر أو الذى يدفع الشر بشر أعظم ، وقد يفخر غير هؤلاء بعيوبهم إلا الحسود فإنه يخجل أن يفتخر بلؤم الحسد ، فإذا افتخر حمل ما ظهر منه على سبب آخر غير الحسد فيحمله على الغضب للحق والغيرة على الصدق والصواب أو الانتصار للعدل الخ .

٤ - الاعتراف بالجميل المصنوع معك هو الدين الذى تدفعه لكى تعود فتستدين فتجد من يقرضك . وليس ذلك الاعتراف من أجل أنك تراه فرضاً واجب الأداء ، وفضيلة تحبها لذاتها من غير مأرب آخر . وهذا من السخر الكثير الذى نجده فى نظرات هذا المفكر . ولك أن ترفض هذا الرأى فى حالات ، ولكن ينبغى لك الاعتراف بأنه يصدق فى أكثر الناس : لأن النفس طبعت على الأثرة ، وهى تتخلى عن أثرتها إذا تخلت ؛ لأنها تجد أو تأمل أن تجد مسرة ونفعاً والمسرة نفع أيضاً . ولعله يعنى أداء ما يتطلبه الاعتراف بالجميل: إذ أن بعض الناس قد يعترف بجميل لم يُصنَع معه رغبة فى الحث عليه واستعجاله وتَصَيُّداً لأوجه الخير من الناس .

٥ - بعض فضل أهل الفضل ممجوج ثقيل ، كما أن عيوب بعض الناس ونقائصهم قد تستلمح وتستلطف فتغتفر ؛ وما ذلك إلا لأن ظاهر المرء مفضل لدى الناس على حقيقته، وأسلوبه فى ملاطفتهم ومعاشرتهم مُقَدَّم على فضله .

٦ - لولا مخادعة الناس بعضهم بعضاً ما استطاع الناس أن يعاشر بعشهم بعضاً . وهذا صحيح . ومن أجل ذلك قد يكره الناس من لاينخدع لهم بلباقة أو يدعى الانخداع فى أمور كثيرة . هذا إلا إذا كان انخداعه دليلا على البلاهة ، فيرون أنه لافضل له فى ذلك الانخداع وأنه خليق بالهزء والاحتقار .

٧ - بعض الناس لا تظهر مهارتهم ولا يظهر فضلهم إلا إذا اقتصروا على قول الأقوال التافهة بأسلوب لبق ، وإلا إذا اقتصروا على عمل من الأعمال الهينة بلباقة محبوبة تغنى عن مطالبهم بما هو فوق ذلك . ومن أجل صحة هذا الرأى قد تتعجب لنجاح أناس فى الحياة نجاحًا لايتفق مع عظم قدره وقلة مايعرفون . أما قول الناس أن الخيبة فى الأمر العظيم أعظم من النجاح فى الأمر الهين ، فقد يكون صحيحًا مشجعًا على محاولة عظائم الأمور ، ولكن أكثر الناس يهمهم النجاح فى الحياة ولا يستطيعون أن يسيغوا الخيبة .

٨ - قد يفعل الناس الخير .رغبة فى التستر وراءه كي يعملوا الشر آمنين . فليس عملهم الخير في هذه الحالات من حبهم للخير . وهذا سخر لاذع ، ولكنه حقيقة مشهودة .

٩ - الكسل والكِبْر يحملان أكثر الناس على الميل إلى اعتقاد النقص فى غيرهم من غير بحث أو دليل - وهناك أسباب أخرى لهذا الميل منها أن الناس ترى أن ماينتقص من قدر غيرهم يزيد فى قدرهم . ومنها معرفتهم أن النقص شامل للنفوس البشرية كلها محتمل فيها ، وبين الاحتمال والحقيقة وبين الجواز والوقوع خطوة فى نظرهم لا تكلفهم تعباً ولا نصباً . ومن الأسباب أيضًا أن الناس من قديم الزمن كانت خطتهم نقل نقصهم إلى نفوس غيرهم بل إلى حيوان أو جماد إذا لم يكن إنسانًا . وكانت لهذا النقل شعائر ورسوم عند البدائيين ، وقد وصفها سيجموند فرويد فى كتاب الطوطم والطابو أو المقدّس والمحرَّم .

١٠ - إذا اعترف إنسان بخطئه فكثيراً مايكون ذلك رغبة فى إصلاح ضرر أصابه من ذلك الخطأ ونيل إعجاب الناس ، لاحبًا للصواب واقتناعًا به أو قد تقنعه المنفعة المرجوة . وإلا بقى على عماه لايدرك وجه الخطأ ، ولا يستطيع أن يقنعه دليل منطقى . ومما يسهل هذه الغفلة عن الخطأ النفسى أن النفس كما قال سيجموند فرويد فى كتاب العلل النفسية فى الحياة اليومية تستطيع أن تنسى ماترى نسيانه من أمرها زينًا ، فإذا لم يكن سبيل إلى ذلك النسيان ورأت فى الاعتراف بالخطأ فضلا ونفعًا لدى الناس وإعجابًا ، أقدمت على الاعتراف بالخطأ مطمئنة .

١١ - بعض العظماء ليس من المستطاع الاعجاب بعظمتهم إلا على بعد ،كالصور الفنية قد لايستطاع إدراك جمالها الفنى إلا إذا ابتعدت عنها . وهذا تشبيه بديع ؛ لأن دقائق الألوان والخطوط وتفاصيلها قد تعوق عن إدراك القدرة الفنية التى بها استطاع الراسم رسمها . ومن جهة أخرى يستطاع تشبيه جمال هذه العظمة على بعد بجمال المناظر الطبيعية ، فإنك قد ترى وأنت على ظهر سفينة جزيرة كأنها جنة غناء فيحاء ، فإذا نزلت إلى البر وجدت الذباب والأقذار والوحل وماهو أشد على النفس من ذلك . والظاهر أن مؤلفى كتب سير

العظماء والمشهورين فى هذا العصر يخالفون هذا الرأى ، ويرون أنه يستعصى إدراك عمل العظيم وتمام فهمه إلا إذا عرض فى مباذلة أو نقائصه عرضاً تاماً . فهم يحاولون الوصول إلى أعماق نفسه ووعيه الباطن . متناسين وصف سيجموند فرويد للوعى الباطن . ولعل فى عملهم هذا أيضاً شيئاً من الحسد والانتقام من غير أن يشعروا به كحسد القبائل البدائية التى فى كتاب الطوطم والطابو والأقوام الذين كانوا فى محفل تقديس مليكهم الجديد يربأون به أن يمس بأيديهم لأنه مقدس فكانوا يمسونه بأطراف قضبان ، لكن هذا المسَّ المقدس كأن يتحول من غير أن يفطنوا إلى ضرب قد يؤدى بحياة الملك حسداً له على منزلته وما بلغ من جلالة الملك .

ومن نظرات ليوباردى ما يلى :

١ - المخادع الماهر هو الذى لايظن أن كل الناس يسهل خداعهم على كل حال ، بل يعرف أن من الناس من يتظاهر بالانخداع حتى يعرف غاية المخادع ويكشف أمره . أما المخادع غير اللبق فإنه يستسهل خداع الناس فلا يتخذ أهبته لاتقان الخداع ، ومن أجل ذلك كثيراً مايكون المخادع مخدوعًا . وهذا صحيح ومن أجل ذلك قد يكون خداع الرجل الأبله مضحكًا وخداع الساذج مكشوفًا لجميع الناس إلا لصاحبه ، فهو وحده المخدوع به . على أن للمسألة وجهًا آخر وهو أن نجاح المخادع غير موقوف على مهارته وسذاجة الناس فحسب ، بل على رغبة الناس فى أن ينخدعوا . وهذه الرغبة تكون لأسباب متعددة . فالغرور قد يؤدى بصاحبه إلى احتقار كفاية المخادع فلا يراه ينهض له بخداع متقن . واعتقاد الصدق وسلامة النية فى المخادع قد يعمى عن خداعه . والرغبة فى الائتناس بالمخادع قد تسهل له اتقان خداعه . والفائدة المرجوة منه قد تذهب بحذر المحاذر منه . ومن أجل هذه الأسباب وغيرها قد يخدع المرء من هو أذكى منه وقد يخيب الذكى اللبق فى خداع من هو أقل منه فطنة .

٢ - كثير من الناس يسيئون إليك ، ثم يأبون أن تقبل الاساءة بمثلها . وهذا شائع حتى إن بعضهم ينسى إساءته إليك ، ويرى من اللؤم أن تتذكرها ومن النذالة أن تتألم بسببها ومن الحقد أن لا تقبلها بصدر رحب . فإذا لم تفعل عد المسئ نفسه مساء إليه ، وهذا الطبع من وسائل الناس ومغالطتهم فى أمور الحياة حتى يظفروا بما يشاءون .

٣ - بعض الناس يعيشون طول حياتهم وهم معرفون بالنبل والكرم والشرف ، وذلك لأنهم لم يقابلهم فى حياتهم ما يضطرهم إلى أن يتخلوا عن نبلهم وكرمهم وشرفهم ، ولكنهم لو أحرجوا وأحْوِجوا إلى ذلك التخلى لاستطاعوا أن يبذوا الأوغاد واللؤماء فى لؤمهم . فهؤلاء نبلاء النفوس . لأنهم ليسوا فى حاجة لأن يكونوا لؤماء وهذا الرأى يذكرنا قول البحترى :

إذا أحـــرجت ذا كـــرم تخطى إليـك ببـــعض أخـــلاق اللئـــام

٤ - عرفت طفلا كان يقول إذا لم تجب أمه طلبه ، وإذا منعته من شئ : آه ماما الآن تحب الخبث والعناد . أو ماما مولعة بالشر .، ولو فطن الناس إلى أحكامهم التى يحكمون بها على جيرانهم وأصدقائهم وأعدائهم لوجدوا أنها من هذا القبيل ، فإذا مَدَحْنَا إنسان واسترضانا وكنا نعده قبل ذلك وغداً ، عدنا نقول إنه ليس بوغد إلى الحد الذى كنا نظن ، أو أنه عرف الحق فرجع إليه ، والرجوع إلى الحق فضيلة فهو من أهل الفضيلة . إلى آخر ما يكون من أمثال ذلك .

٥ - إن صاحب النقص لايكون خليقًا بسخر الناس منه والزراية عليه ومبالغتهم فى ذلك إلا إذا بالغ فى تكلف ضده ، كالشيخ الذى يتكلف أخلاق الغلمان وطباعهم وعاداتهم وهيئتهم أو كالفقير الذى يحاكى الأغنياء ، أو كالجاهل الذى يظهر بمظهر العالم المتكلم ، أو كالريفى الذى يحاول أن يقنع مجالسه أنه متقن عادات أهل الحضر وأنه منهم حذوك النعل بالنعل . وهذا يصدق أيضًا فى تكلف إخفاء العيوب الجثمانية بما لايخفيها بل يزيدها وضوحًا وينم عنها .

٦ - كثير من الناس يريدون أن يكسبوا الشهرة بعمل الخير من غير كلفة أو مؤونة ، ومن أجل ذلك قد يعرضون أن يصنعوا الخير لإنسان اعتماداً على أن تعففه أو زهده أو حياءه أو قناعته أو شيئًا من أمثال كل ذلك يمنعه من قبول ما يعرضون عليه من المعونة ، فيكتفى بشكرهم ويمدحهم لدى الناس وأن يذيع أنهم من أهل الخير . فإذا خيب ظنهم وقبل معونتهم وورطهم بذلك القبول ، تغير لونهم وتلجلجوا فى الحديث ، وقد يضمرون له المقت والضغينة ثم يغيرون موضوع الحديث ، وإنما مثل هؤلاء مثل من يدعون الناس إلى وليمة ولم يعدوا وليمة وليست عندهم مادتها ، وإنما يختلفون عن أصحاب الوليمة الموهومة ، فى أن ذاك سعى إلى الخير وهذا إلى طعام .

٧ - من الغريب أنه فى أكثر لغات العالم يطلق الناس اللفظ الذى يدل على الفضيلة لما يدل على البلاهة ف، تراهم يضحكون ويقولون : فلان رجل طيب - على نياته - وهم يريدون أنه أبله - أليس هذا ما يدل على اعتقادهم أن الطيبة وحب الخير سلامة النية أدلة على البله ، وأن عكس ذلك دليل على الفطنة ، فهم يكشفون عن سريرتهم وسريرة الناس من حيث لايشعرون .

٨ - أفراد الناس فى الهيئة الاجتماعية مثل ذرات المادة فى الكون : كل ذرة تقاوم وتضغط على مايليها من الذرات ، فتؤثر بهذا الضغط المتسلسل فى الذرات البعيدة ، وهذه

تؤثر فيها بضغطها المتنقل المتسلسل ، فإذا بطلت مقاومة ذرة فى مكان ما انجذبت جميع الذرات من كل ناحية إلى ذلك المكان ، فتسحق الذرة التى بطلت مقاومتها وتحل غيرها مكانها وهكذا الناس فى الحياة .

٩ - إن من عاشر الناس واشترك فى حوادث حياتهم كثيراً مايرى فيها ما لو كتب قصة عده القارئ مبالغة من نسج الخيال الجامح وأبى أن يصدق أنها من حوادث حياتهم ، ولذلك قيل أن الحياة قد تكون أغرب من الخيال ، وقارئ تلك القصة قد عدها نابية عن أصول الفن الذى يرخص فى الخيال المهذب القريب من المعقول ، ويقول إنها تعدت الخيال القريب المعقول وما هى إلا قطعة من الحياة . وهذا يدل على أن تناقض أخلاق النفس أكثر فى الواقع مما نظن. ومن أجل ذلك قال كاتب حديث ، وهو سمرست موم : إن مهارة القصصى فى تقليم الحقيقة وتنسيقها ونفى المبالغة فيها والتأليف بين المتناقضين تأليفًا يزيل وحشة الخلاف وشك الغرابة، ويفسر اجتماعهما ويلطف من حماقات النفوس وفجاءتها غير المألوفة .

ومن نظرات شوبنهور ما يلى :

١ - كثيراً ما ينطق الإنسان بأقوال قد تضره معرفة الناس لها . ولكن قلما ينطق بما يجعله أهلا للهزء والسخر وهذا صحيح لأن الإنسان بطبعه حيوان معجب بنفسه . ولكنه قد يكون مغرمًا بالظهور بين الناس - وهذا نوع آخر من الإعجاب بالنفس - فيؤدى به حب الظهور إلى أن يجعل نفسه أضحوكة ، إذا لم يجد سبيلا آخر إلى الظهور .

٢ - قد يتألم المرء من ظلم وقع به أو إهانة صغيرة مقصودة كانت أم غير مقصودة أكثر من تألمه من مصائب القضاء والقدر ، لأن مصائب القضاء والقدر عامة ولا إهانة فيها ولا استعلاء إنسان على إنسان . أما الظلم أو الإهانة فإنها دليل على ظهور إنسان على إنسان باللسان وحده أو بالقوة أو بالمكر والحيلة فتشعر بالمذلة والنقص وتدعو إلى التفكير فى الانتقام وتزيد حقيقة الإهانة والظلم فى الذهن حتى لا تطاق وقد يقدم المرء على الانتقام حتى ولو كان فيه أضعاف ما فى ذلك الظلم أو الإهانة من المضرة . وقد يؤدى انتقامه إلى ضياع حياته وهو يردد قول شمشون « علىَّ وعلى أعدائى يا رب » ثم هو قد لا يلتذ الانتقام وإن فاز به ، بل قد يجد له مرارة وحسرة .

٣ - كثيراً ما يكون تجسس إنسان على إنسان لمعرفة أسراره سببه الحسد أو الملل والسأم . فهو قد يحسد إذ يعتقد أن إنسانا نال من أطايب الحياة وملذاتها أو ما يعده المتجسس ملذات

وأطايب أكثر مما ناله ذلك المتجسس ، فيلاحقه ويأخذ عليه نظراته وكلماته وأعماله فى خلواته وجلواته ، وكثيراً ما تكون الضجة التي يدعى فيها الأشرار نصرة الفضيلة من نوع هذا الحسد.

٤ - فى بعض الأحايين نود أن يحدث أمر ، نود أن لا يحدث وأن لا يكون فتجتمع فى النفس رغبتان متناقضتان فى وقت واحد ، فمثلا إذا كان لابد أن نؤدى اختباراً فى أمر من أمور الحياة كى نصير ظافرين مسرورين فإن الرغبة فى الظفر والمسرة تغرينا بأن نود اقتراب موعد ذلك الاختبار ، ولكن الخوف من الخيبة يغرينا أن نود لو تأخر موعد الاختبار ، فإذا اتفق حدوث ما يؤخر ميعاده كأننا نحس بحسرة وأسف . فحسرة لتجنب احتمال الخيبة مدة من الزمن ، وأسف لتأخر ميعاد النجاح والفوز بما نريد وكثيراً ما يتوهم الناس أن اجتماع الضدين فى النفس فى وقت واحد أمر محال وهو ليس كذلك وقد فسر سيجموند فرويد هذه الأحاسيس الثنائية المزدوجة فى كتاب الطوطم والطابو أى المقدَّس والمحرَّم ، ووصفها عند الأقوام البدائيين.

٥ - لايستطيع الإنسان أن يعرف مقدار ما فى نفسه من الصبر والجلد على تحمل الألم ومن القدرة على العمل العظيم أو على مكافحة الخطوب ، إلا إذا اتيحت له فرصة لاختبار نفسه . وقد تظهر فى بعض النفوس قوى كانت كامنة ، وكانت لا يعترف أحد لها بها حتى صاحب النفس قد تدهشه قواه الخفيفة إذا ظهرت ، وإنما مثل الإنسان أمام نفسه مثل الناظر إلى بحيرة هادئة مصقولة كالمرآة ليس بها موج ، فلا يستطيع الرائى أن يدرس عظم أمواجها التى تحاول أن تهشم الصخور ، وذلك إذا هبت عليها الأعاصير . وبعض من يخاف وقع الخطوب قادر على مجادلتها ومناهضتها ، وقد يعجز بعض من يخافها كما قد يعجز بعض من يبدى شجاعة فى الأمور اليومية الصغيرة ولا تتعب حنجرته من وصف شجاعته . فإذا اختبرته الخطوب والمصائب ذل وضعف .

٦ - فى أكثر لغات العالم اصطلح على أن الصفات الشائعة بينهم صفات احتقار ، فيقولون هذا أمر شائع وعمومى ومبتذل ومشترك ومطروق ومألوف ومعروف ، ويقولون فلان من العامة من الدهماء إلى آخر ما هناك من المترادفات . وهذا الاصطلاح فى اللغات دليل واعتراف على أن الفضل غير شائع بينهم ، بل يشذ به الآحاد وأنهم إنما يشتركون فى النقص .

٧ - بُعْدُ مكان الشئ يصغّر من حجمه ويخفى معايبه . وهذا مثل العدسة التى تصغر أحجام الأشياء .أما العدسة التي تكبر الأحجام فإنها تكبر ما خفى من العيوب . وماضى

الحياة يتأثر ببعده حتى تصغر متاعبه وحتى تألف الذكرى حسناته وتتغاضى عن سيئاته .، أما الذهن الحاضر فلا ميزة له من هذه الناحية لأن الشئ الصغير يبدو كبيراً إذا كان قريباً حتى أنه قد يحجب عن النظر ما هو أكبر منه حجمًا وأبعد مكانًا . ومن أجل ذلك تبدو متاعب الحياة اليومية شاقة عظيمة خطيرة فتشغلنا وتثير قلقنا وأحاسيسنا المختلفة إلى أعظم حد ودرجة . ولكن إذا حملها الزمن فى تياره وابتعدت عنا صارت حقيرة صغيرة وقد ينساها الإنسان بعد أن شغلته وشقت عليه .

٨ – الإنسان يَتَّبِع ما دُرِّب عليه من الصغر ويعتقده ويسير على نهجه . وكثير من الناس يدربون على لون واحد من ألوان فضيلة من الفضائل وينزهون أنفسهم عما يقابلها من الرذيلة فى شكل واحد دون جميع أشكالها ومعارضيها . فإن التجار من أصحاب الدكاكين ينزهون أنفسهم عن قطع الطريق وعن التلصص ليلا والسطو على المنازل للسرقة ، ثم يحسبون أنهم قد جمعوا جميع أصناف النزاهة . فإذا اتهمت أحدهم بالسرقة شق عليه ذلك مع أنه قد يغش المشترى فى الثمن أو صنف البضاعة فيكون سارقًا من غير شك . ولكنه لايعد نفسه سارقًا بل يرى أنه منزه عن السرقة . وقس على ذلك فضائل الناس ورذائلهم فى أحوال الحياة المختلفة . وشبيه بذلك أن الرجل الموصوف بالشجاعة قد تكون شجاعته مقصورة على أمور دون أمور ، وكذلك الجبن .

٩ – الأمل هو تحول الرغبة فى حدوث شئ إلى توقع حدوثه ، حتى لقد يكون التوقع قريبًا منظوراً بالرغم من أن فرص احتمال الحدوث فرصة فى الألف أو فى مئات الآلاف كما فى توقع الكسب من أوراق اليانصيب .

١٠ – قد نرى أشجاراً على بعد فنعجب لجمالها فإذا اقتربنا منها وجدناها شيئًا مألوفًا لا كما صورت لنا . وهذا مثل سعادة أكثر الناس فإنا نرى سعادة السعداء على بعد ونغبطهم عليها ، فإذا اقتربنا منها وبحثناها زالت روعتها أو أكثر بهجتها ؛ لما فى حياتهم من آلام ومتاعب وأمراض ومشكلات ، فإن السعداء غير معفيين من هذه الأمور بل يشاركون الناس فيها.

١١ – من أسباب خطئنا فى الحكم على الناس أننا نفرض وجود الصفات المتجانسة فمثلا نرى الكرم : فننسب إليهم النزاهة والشرف والنبل وننسى أنها قد تجتمع وقد لا تجتمع ، ونرى الكذب : فننسب إليهم المكر والغش والاختلاس والسرقة ، وقد لا تجتمع .

(٢)

من نظرات لاروشفو كولد [١]

١ - ما كانت الفضائل تستطيع أن تغزو لها مكانًا فى العالم كما غزت ، لولا أنها كثيراً ما تكون ممزوجة فى أنفس أصحابها بشئ من الإعجاب بالنفس يذيع دعوتها ويعلن عن شأنها ويكافح من أجلها وأجل أصحابها - وقد يختلط الاعجاب بالنفس بالإعجاب بتلك الفضائل ، فهو وإن كان يهئ لها جنداً وأعوانًا ، إلا أنه كثيراً ما ينقض من طهارتها وكمال نبلها ، أو يقضى عليها بما يدعو إليه الاعجاب بالنفس من شرور الأثرة . فإن المرء قد يرتكب الجرائم ويؤذى من خالفه لأنه يعد مخالفه أو عدوه مخالفًا وعدواً للفضيلة ومناصره مناصراً لها ، وإن قل حظه منها .

٢ - إذا أسفنا لنبوةِ مَنْ نَبا عنًا فإننا قلما نأسف لافتقاد المتعة بعقله وأدبه بل كثيراً ما نأسف لأننا فقدنا بفقده رمزاً يدل الناس على ثقة بعض الناس بنا وحسن رأيهم فى عشرتنا ورغبتهم فى أن يكونوا معنا - فنعتز بالأصدقاء فى أعين الناس ونزيد بهم قدراً وجاهًا : أى أن الأسف لنبوة صديق أساسها الأثرة وحب النفس - ولكن هذا الأساس لايمنع من أن تكون الفضيلة فضيلة ، فكثيراً ما يختلط الإيثار بالأثرة فى النفس حتى عُدَّ مظهراً من مظاهرها إذ أن النفس تنشد فى الإيثار شيئًا يرضيها ويريحها بالرغم مما تتكلفه بسببه ، ومايرضيها ويريحها منفعة لها وإن كانت مطلبا نبيلا .

٣ - فى بعض الحالات يخالف المرء منهاج حياته ونفسه كما يخالف غيره من الناس ، وذلك لتعدد نزعات النفس المتغايرة الخفية ، ولكن الناس كثيراًما يحكمون على المرءأنه يسير على وتيرة واحدة وطبع لا يخالفه طبع ، وصفة لا تغايرها صفة ، وقلما يدركون تغيره وخلافه لنفسه ، إلا إذا تغيروا له وكان لهم مأرب فى تغيير حكمهم عليه فإذا حدث ذلك ربما اتهموه بمخادعتهم ، وربما كانوا هم الذين خدعوا أنفسهم به . وسواء أفطنوا إلى أنهم هم الذين خدعوا أم لم يفطنوا فإنهم قد يحملونه جريرة قصر نظرهم أو خداعهم لأنفسهم طوعًا فإنهم قد يحملونه جريرة قصر نظرهم أو خداعهم لأنفسهم طوعًا فيتضاعف ذنبه لديهم . وقد يكونون

---

١ - المقتطف ، سنة ١٩٤٧ م ، الجزء الخامس من المجلد ١١١ ، ١ ديسمبر ، سنة ١٩٤٧ ، ص ٢٦٧ ، ص ٢٧٣ .

معذورين فى انخداعهم ، لأن الحياة تفرض التجانس فى صفات النفس الواحدة كى يسهل فهمها ومعاشرتها . حتى أن الصفات المتناضة قد يكون بينها شئ من التشابه والانسجام والتجانس ومادامت فى النفس الواحدة .

٤ - فى بعض الأحايين يفضل المرء أن يُحْرَمَ من أن ينسب إليه خير صنعه عن أن يعرف الناس الأسباب الحقيقية التى دعته إلى عمل ذلك الخير ، فيظهر من الأسباب غير ما يبطن .

٥ - لعل أعظم النجاح فى المهارة التى بها يقنع الماهر الناس أنهم لايستطيعون ضرره من غير أن يصيبهم ضرر فيهابونه ويتجنبون أذاه ، وقد يسعون فيما ينفعه هيبة واتقاءً لشره - ولكن لا يستطيع كل إنسان إقناع الناس على هذه الطريقة ، بل إنها قد تكون عاقبتها خيمة لمن لا يتقنها ومن لايعرف أساليبها ودهاءها ومستلزماتها : لأنه إذا خاب ولم يقنعهم أو إذا رأوا أنهم يستطيعون أن يقضوا عليه وعلى وسائله بأن يبادروه بالعداء بادروه به وحاولوا القضاء عليه ، وقد يفعلون ؛ فإذاً ليس من الكياسة أن يحسب المرء إظهاره العداء للناس أو تهديدهم كافيًا لنيل احترامهم وهيبتهم إياه .

٦ - من العيوب ما يمتزج بفضائل بعض الناس كما تمتزج العقاقير السامة فى الأدوية بمقادير لا تسم ، على أنه لو حاول المرء وتعمد مزج فضله بعيوبه السامة قضى على فضله وفضيلته إلا أن الحياة نفسها قد تخرج من الشر خيراً ، كما أن بعض الخير قد يكون من عواقبه الشر .

٧ - من الصعب أن يحب إنسان إنسانًا تجرد من كل دواعى الاحترام . ومن الصعب أن يحب إنسان إنسانًا بذَّه وشآهُ . فالنفس تأبى فى أكثر الأحايين أن تحب من تجرد من كل دواعى الاحترام ومؤهلاته . ولكن أثرتها تأبى أن تحب من تستصغر أمرها وتزدرى شأنها عند استجلاء عظمته وعلو شأنه ، وإن كانت تحترمه سراً أو علانية ، ولكن الحالات الشاذة قد توجد فى الأمرين .

٨ - من الصعب أن تحترم النفس من لاخير له ولا شر .

٩ - كثير من الناس عُدواً من العظماء بالرغم من شرهم الكثير ، وهذا يذكرنا قول هنرى[٢] هين الشاعر الألمانى « إن شجرة الإنسانية قلما تذكر بالزارع الذى سقاها ورعاها وإنما تذكّر بالعادى الذى حفر اسمه على جذعها بمديته » - نعم إن سير العظماء الذين شكلوا حوادث التاريخ والأمم ونشروا الحضارات كان يمازجها شر كثير مسرف ، وهذا مشاهد فى حياة أمثال الإسكندر المقدونى ويوليوس قيصر ونابليون بونابرت . ولكن إذا كان الناس فى بعض البيئات يرفعون المجرمين الذين يعيثون بالأمن إلى مراتب البطولة ، فلا غرو أن يفعل الناس

ذلك مع من صهروا الناس بنار حروبهم ، وأنزلوا بهم شراً كثيراً إذا كانت عاقبة ذلك نشر الحضارات والآراء .

١٠ - إن العظماء لا يمتازون عن غيرهم من الناس بعظم فضائلهم ، وإنما يمتازون عنهم بعظم ما يعملون وما يقولون - وهذه النظرة تفسر السابقة . وليس معناها أن العظماء أقل فضائل ، وإنما يعنى أن الناس تتوقع خلوهم من النقص خلوا تامًا بسبب ما يبهرهم من آيات عظمتهم ، أو أنهم يريدون توريطهم بمطالبتهم بتلك العصمة ، أو أن بروزهم مما يبرز نقصهم أو أن ما يزاولون من عمل الخير وبما جر شراً ونقصاً .

من نظرات ليوباردي :

١ - المكر - وهو من جهود العقل والذكاء - قد يلجأ إليه الماكر كي يخفي نقص عقله وذكائه . وذكاء المكر هذا : ثيراً ما يلجأ إليه الناس في البيئات التى حال فساد الحكام فيها دهراً طويلا دون تعهد العقل بالتربية والتثقيف ، فترى فيهم الجهل وقلة النمو الفكرى والسذاجة وشيئًا من الغباء ، ومع ذلك ترى أيضًا نوع من ذكاء المكر تعوضهم به الحياة عما فقدوه .

٢ - فى بعض البيئات التى بين الحضارة والهمجية إذا كان الرجل فقيراً جداً احتقره فى سريرتهم من هم أحسن منه حالا من الناس ، حتى يكاد يسقط وينزل فى نظرهم عن مرتبة الإنسان . وإذا كان غنيًا لم يكن آمنًا على حياته بسبب الحسد والرغبة فيما عنده - وهذا صحيح فى البيئات التى يثرى فيها المرء باستخدام قوته أو احتياله أو سلاحه ويفاخر باستخدامها جميعًا . وفى هذه البيئات يحتقر الناس من يجبن عن استخدام القوة أو السلاح أو الحيلة لدفع عادية الفقر الشديد ، وكما يحتقرون مثل هذا الفقير فإنهم يجلون المجرم العابث بالأمن حتى أنهم قد يلبسونه صفات البطولة والعظمة ، وكثيراً ما تتم هذه الصفات حيث لايجد المرء فرصة لنيل ما يستحق بسبب المحاباة والظلم والرشوة واحتيال الحكام لتسخير أداة الحكم فى أغراضهم . وقد تكون هذه الصفات بسبب آثار حكم مضى ، وعهد سابق وأحوال فى الحكم انقضت . وقد يكون العهد السابق والحكم الغابر قد خلف فى نفوس الحكام والمحكومين خصالا مستعصية باقية .

٣ - فى بعض الأحايين يمدحنا مادح بسبب أعمال أو صفات طالما ذممناها فى غيرنا فنسرع إلى مدح تلك الأعمال والصفات - ويحجم المرء عن المآثم والنقائص إذا خاف لوم الناس أو

بغضهم أو ذمهم أو عقابهم ، فإذا وجدهم يمدحون المآثم والنقائص ويحبذونها ويزينونها أقدم عليها غير هياب ولا وجل . وهذا لايمنعه من مؤاخذة غيره على مايفعل مثله إذا وجد لنفسه فائدة ولكنه يحاول أن يفرق بين عمله وغيره وإن لم يكن بينهما فرق .

٤ - أكثر ذوى الفضل كانوا على بساطة فى السلوك والعادات ، ولكن من الغريب أن الناس تعد تلك البساطة دليلا على قلة الفضل والعقل - وذلك إما لأن تلك البساطة تشابه فى أذهانهم صفات الطفولة أو البلاهة ، وإما لأن البساطة تنافى التكلف لهم الذى يغرى بالظهور بالمظهر الذى يرضى رغباتهم وفوائدهم . وهذا التكلف لهم ، منبعه مكر اللباقة الذى يعدونه أعظم مظاهر العقل ومزاياه ، لأنه يحوطهم بما يشاءون ، وكل هذا التكلف قد يخالف بساطة العظماء ، ومن أجل ذلك يعدها الناس نقصًا فى الفضل والعقل .

٥ - مهما بلغ المرء من اشمئزازه من الدنيا وأحوالها بعد اختبارها فإنها لو أومضت له وابتسمت ودعته إليها لبَّاها وصالحها وابتسم لها بعد العبوس ورجع إلى الائتناس بها ولو بعض الرجوع . وكذلك حاله مع من يتودد إليه ، ممن اختبرهم وساء رأيه فيهم ، فإذا لم يعد لعشرتهم إذا توددوا له قل سوء رأيه فيهم .

٦ - يحسب المرء أنه إذا خاب ، حزن أصدقاؤه ومعاشروه لخيبته ، وإذا نجح فرحوا بنجاحه. ولو كشف له عن مكنون سرهم لوجد فيه عكس ذلك فى كثير من الأحايين - أو على الأقل يجد بجانب الأسف لخيبته شعوراً بالامتعاض والاستخذاء يناقضه ، ولكنه يخالطه ، وقد يجد ذلك حتى عند أقاربه وعند من ينتفع بنجاحه ويخسر بخيبته من الناس . لأن النفس لا تستطيع أن تتغلب على أثرتها كل التغلب وإن تغلبت على بعضها .

٧ - أكثر الناس لايخجلون من الأذى الذى يصنعونه للناس ، وإنما يخجلون من الأذى الذى يصنعه بهم غيرهم ، لأنه ينقص من أقدارهم لدى أنفسهم - أما إذا خشى المرء أن يخجل إذا ظلم غيره فإنه يعمل على أن يشرك الناس فى ظلم المظلوم ، فإذا نجح فى حمل الناس على مشاركته فى ظلم المظلوم أمِن من الخجل ومن تأنيب الضمير . ولقد كان الطغاة قديمًا تخذون من الناس رجلا يكون أداة لتنفيذ ظلمهم ، حتى إذا لم يعد صالحًا لتنفيذه قضوا عليه وأتخذوا غيره ، وبذلك ينالون أغراضهم كما ينالون حمد الناس إذا بطشوا بأداة ظلمهم .

٨ - الدنيا كالمرأة الجميلة المعشوقة لاينال الفتى لديها حظوة بالخجل والحياء ، فمن أراد أن يعلوا حظه ، وجب عليه أن يودع الحياء ، وأن يكون لسانه بوقًا يدعو الناس إلى الاعتراف

بمزاياه الحقيقية والمزعومة ، أو أن يجد أناسًا لهم رغبة وفائدة فى أن يكونوا أبواقًا له . أما إذا انتظر حتى يسرع الناس للبحث عن فضله وإعلانه فإنه لن يرى إلا من يسرع إلى اخفائه .

٩ - لو حُوسب كل إنسان على ما يقوله فى غيبة أصدقائه لما رضى أن يقولوا فيه مثل ما قال فيهم - فإنه مهما كان مخلصًا لهم لا يسلم لسانه من سقطات فى غيبتهم لا ترضيهم ، وهو بالرغم من ذلك يدهش إذا بلغه أن أحدهم قال فيه مثل ما قال فيهم ، ويعد نفسه مظلومًا لا يجد جزاء إخلاصه وسلامته لهم فى غيبتهم .

١٠ - قبما يكون البعيد عن الناس القليل الاختلاط بهم مسيئًا الظن بهم ، إلا إذا كانت العزلة بعد المخالطة . فليس أسوأ رأى فى الناس مما يرسخ فى النفس بقراءة الكتب التى تعلم سوء الظن بالناس ، وإنما يكون هذا المقتبس من الكتب كلامًا غير راسخ فى النفس لأن العشرة هى التى تُفَطِّن إلى سوء الرأى فى الناس بسبب مرارة اختبارهم - وليس أشد الناس سوء ظن بهم المعجب بنفسه وليس من الحتم اجتماع الاعجاب بالنفس وسوء الظن بالناس فإننا قد نرى الرجل الشديد الاعجاب بنفسه عظيم الثقة بها ، ثقته بنفسه قد تدعوه إلى حسن الظن والرأى، فيحسب أن الناس يعجبون بنفسه ، كما يعجب فينشرح صدره للعطف عليهم ولا سيما أن ذلك العطف يتفق وما فى نفسه من العظمة المزعومة التى تقضى أن يشمل الناس ببركات خيرها . وإذا ظهر منه غير ذلك من سوء الرأى فى الناس كان سحابة صيف عن قليل تنقشع .

من نظرات شوبنهور :

١ - مما يجعل الإنسان غير مبال تعاسة التعساء ولا آبه لها ، أنه يعتقد فى نفسه العجز عن تحمل متاعب أكثر من متاعبه . ومن أجل ذلك إذا حسن حال إنسان بعد ضيق وبؤس فقد يعطف على أهل البؤس إما سرورًا بنجاته من مثل حالهم وإما خشية أن يعاوده البؤس فهو يرحم نفسه إذ يرحمهم . وأما الذين لم يصادفوا فى حياتهم بؤسًا ، فإنهم كثيرًا ما ينصرفون عن العطف على أهل البؤس ؛ لأنهم يرون أنفسهم بمأمن من غوائله ، فلايستطيعون أن يضعوا أنفسهم مكانهم - على أنهم لو حاولوا وضع أنفسهم مكان أهل البؤس لنفروا من هذه المحاولة وتأففوا وامتعضوا . ومن الجائز أن النعيم يضعفهم فيريدون أن يتجاهلوا ما يؤذى سمعهم وبصرهم من مناظر البؤس . على أن الكفاح للخروج من الضيق ، إذا نجح قد يُعَوِّد بعض الناس برودة الطبع والقسوة ، إذ يعد كل معاملة للناس قتالا كالذى تعوده فى الكفاح ويرى

أن الحياة معركة لا يظفر بالنصر فيها من يترك القتال كى يضمد جروح الجرحى : فينسيه هذا الرأى فائدة التعاون .

٢ - قد يكون سبب سعادة الإنسان ونجاحه فى الحياة أنه له ابتسامة سارة يبتهج الرائى عند رؤيتها وينشرح صدره ، فيعطف على صاحبها ويصنع له كل خير يريده . وقد يحسب الرائى بهجة هذه الابتسامة وحلاوتها من طيبة قلب صاحبها ، واستقامته وسلامة صدره من الشر والأذى والأحقاد ، وهى قد تكون كذلك ، وقد لاتكون - إذ ربما كانت من تكوين الوجه وشكل خلقته ، من غير حقيقة خلقية خلف ذلك التكوين ، أو قد تكون من لباقة المخادع الماهر فى اخفاء سريرته - فينبغى لمن يغتر كل الاغترار بمثل هذه الابتسامة أن يتذكر قول شكسبير فى قصة هامليت « قد يكثر المرء من الابتسام وهو وغد » ... ولكن من ذا الذى لايغبط صاحب هذه الابتسامة التى هى مفتاح القلوب والخير .

٣ - بعض ذوى الكفاية العظيمة فى أمور الحياة أو العبقرية لا يحاولون إخفاء عيوبهم ولا سيما إذا كانت من الأخطاء أو العيوب التى يعدها الناس بالحق أو الباطل من لوازم تلك الكفاية العظيمة ودليلا عليها . وهم لايحاولون إخفاء عيوبهم أو أخطائهم لأنهم يرون أنهم قد أدوا ثمنها من كفايتهم . وبالعكس نرى بعض من عدموا الكفاية النادرة وإن كان لابأس بهم ، يحاولون الظهور بمظهر العصمة ويتألمون ويتملكهم الغيظ إذا ظهرت أخطاؤهم ، ويحاولون أن يقنعوا الناس أنهم معصومون . وما ذلك إلا لأنهم ليس لهم فضل عظيم نادر من أجله تغتفر سيئاتهم - بالرغم من ميل الناس إلى التشفى من أهل الفضل بنسبة النقص إليهم - فمزية من لا فضل له لا تتحقق لدى الناس ، إلا إذا خلا من الأخطاء . وقد تبالغ كل طائفة فى خطتها : فالطائفة الأولى فى رفع الكلفة ، والطائفة الثانية فى استخدام كل وسيلة مهما كانت ظالمة لإثبات خلوها من العيوب ونقلها إلى غيرها ، هناك طائفة ثالثة هى من أهل العجز يحاكى آحادها ما يحسبون أنه من عيوب ذوى الكفاية كى يسلكوا فى زمرتهم ويُعدُّوا منهم .

٤ - من الجائز أن يحزن إنسان لموت خصم أو منافس أو عدو حزنًا كثيراً إذا افتقد ذلك الإنسان خصمه الميت عند النجاح والظفر ، فيود لو كان حيًا كى يرى كيف ظفر فى الحياة بعده بالنجاح والسعادة ولم يظفر الميت . وهذا نوع من الحقد والتشفى من الميت يكون عند ذوى النفوس الدنيئة .

٥ - رغبة الإنسان فى أن يظل شهيراً بعد موته إنما هى مظهر من مظاهر حب هذه الحياة الدنيا .

٦ - إذا غالى الناس فى اعتناق رأى أو مبدأ أو مذهب فلابد أن يعودوا فى المغالاة إلى صده حتى تستقر حياتهم بين الطرفين وإنما مثلهم فى الذبذبة مثل رقاص الساعة .

٧ - كل فضيلة من الفضائل لها رذيلة من نوعها ، وكل رذيلة لها فضيلة من نوعها . ومن أجل لك كثيراً ما نخطئ فى الحكم على الناس ، فقد ننسب إلى إنسان الفضيلة التى هى من نوع رذيلته أو الرذيلة التى هى من نوع فضيلته ، فيظن الحازم المتأنى جباناً ، والمقتصد المدبر بخيلا ، والمبذر المتلاف سخياً كريماً ، وسئ الأدب صريحًا مستقيمًا ، والأحمق متحلياً بفضيلة الثقة بالنفس ... الخ .

٨ - كثير ممن يجعلون عظم منزلة الإنسان فى العالم بسبب فضائله وعقله يشتطون فى القسوة فى الحكم إذا حكموا فى معاملة آحاد الناس إذا يطالبونهم بما يناسب عظم منزلة الإنسان التى أساسها الفضائل والعقل . ولكن الفضائل كثيراً ما تخذل الإنسان ولا تؤاتيه، والعقل كثيراً ما يسخف أو يخطئ أو يسهو فعظم منزلة الإنسان فى الكون بسبب ما هو معرض له فى حياته من آلام ومصائب وعذاب ، وجهازه العصبى أرق من جهاز غيره من الحيوانات فهو مرهف الحس وله خيال يصور له آلامه وعقل يشغل بها . فإذا عاشرت إنسانا فلا تنظر إلى ما فى إرادته من شر وما فى عقله من قصور ، وما فى آرائه من سخف أو هوى، فإنك إن فعلت ذلك كرهته أو احتقرته بل أنظر إلى آلامه من واقع ومنظور ، وإلى حاجاته وتعبه فى الحصول عليها وإلى بواعث القلق فى حياته ، فإن من يتحمل كل ذلك خليق بالعطف والمحبة والإعظام .

٩ - قصور العقل وسوء الخلق أمران مختلفان قد يجتمعان وقد لايجتمعان . ولكن قصور العقل قد يساعد على إفشاء رذائل صاحبه فتحسب أنها ناشئة منه . فالغباء كثيراً ما يظهر دناءة صاحبه وشره ، بينما العاقل الحازم قد يدرك وسائل اخفاء شره ويستطيعها ، فيحسب أنه خال من الرذائل وأن العقل وحسن الخلق متلازمان أبداً . كذلك سوء الطبع قد يستهوى صاحبه فيمنعه من إدراك الحقائق التى لولا سوء خلقه وطبعه لاتضحت لعقله ، وقد تتضح فى حالات دون حالات .

١٠ - كل حيوان لايقسو إلا ليأكل أو للدفاع عن نفسه . أما الإنسان فإنه قد يقسو من غير داع إلا التلذذ بالقسوة ، فهو كما سماه العلامة جوبينو صاحب كتاب «الأجناس البشرية»

«الحيوان الذى بذ كل الحيوانات فى خبث طبعه وشره » وإذا وجد حيوان يقتل أكثر مما يأكل فما ذلك إلا كما يقول الفرنسيون فى أمثالهم : « عينه أكبر من معدته » - فالإنسان قد يقسو من غير فائدة لنفسه إلا التلذذ بالقسوة ، وقد يبلغ هذا التلذذ مرتبة الجنون ، وكثيراً ما نسمع عن حوادث تعذيب ترتكبه حتى بعض الأسر المحترمة فى عهد الحضارة والثقافة . وكأن شهوة القسوة تفرز فى جسم الإنسان سمًا زعافًا يتجمع كسم الأفعوان وينتهز أقل سبب وأصغر فرصة كى يؤذى به بعض الناس أو الحيوانات . ولعل التلذذ بقسوة الألفاظ المؤلمة والنظرات التى تنم عن القسوة وبالدسائس والمكائد كلها أنواع من التلذذ بالقسوة هى عوض سيكولوجى عما كان يصنعه الإنسان فى أيام الهمجية بأعدائه وأسراه وعبيده تلذذاً بالقسوة لأجل القسوة سراً وعلانية من غير رادع . ومن العجيب أن بعض المرضى بمرض نفسى أو عقلى يلتذون ألم قسوة غيرهم بهم ، ومادام الإنسان يقتتل على الحياة وهو رقيق الجهاز العصبى وذو خيال وعقل فلا سبيل إلى محو طبع التلذذ بالقسوة كل المحو - إلا إذا أسعف طب الغدد الحديث - وربما كان تلذذ الإنسان بالقسوة لشدة فرحه بأن الألم نال غيره ولم ينله ، فهى نوع من الجبن أو وسيلة للنجاة من الخوف على النفس .

(٣)

خاتمة آراء لاروشفو كولد مع الشرح [١]

قبل أن ننتقل إلى غير من ذكرنا من المفكرين ، وقبل أن نستعرض طرفًا من أخبار حياتهم وأن نتأمل فى المختار من أفكارهم ، يحسن أن نذكر هذه الطائفة الأخيرة من نظرات لاروشفو كولد ، فعنه أخذ كثير من المفكرين والقصصيين . وهو يمتاز عن كتاب هذا العصر والذين سبقوهم إذ أنه لا يتصنع الابتكار فى الرأى تصنعًا ولا يخلط الفكاهة بالجد خلطًا تضيع معه معالم الحقيقة . فإنك تقرأ كتب برنارد شو أو أوسكار وايلد فلا تعرف فى بعض الأحايين أين تنتهى الفكاهة وأين يبدأ الجد . أما لاروشفو كولد فإن فكاهته تفسر الحقيقة ولا تخفيها ولا تبعث مثل تلك الحيرة .كما اتضح مما ذكر فى المقالين السابقين وكما هو ظاهر فى هذا المقال:-

١ - إن تصنع القدرة والكفاية فى أمور الحياة قد يعوق عن القدرة والكفاية ، وهذا صحيح، إذ أن ما تلاقيه مظاهر التصنع من النجاح فى خداع الناس والانتفاع بهذا الخداع والتكسب به أمور قد تقنع صاحب التصنع فيقنع بالادعاء دون الحقيقة ، ويستريح إليه فلا يعانى الشدائد فى معالجة نفسه ، أو ما يحسبها شدائد تعظم فى نظره وتهوله إذا حاول التهدى إلى صفات القدرة الحقيقية والتماس أسبابها .

٢ - إن حسن النصيحة لايكفى لمعرفة الانتفاع بها ورجاحتها لاترشد إلى القدرة على ذلك الانتفاع ولا تفيدها ، إذ أن المرء محتاج إلى مقدرة على اتقان العمل والاهتداء إلى طرقه وأوقاته المناسبة كى يعمل حسب النصيحة الراجحة قدر احتياجه لما يحتاج إليه من المقدرة ، إذا عمل من غير نصيحة وبإرشاد نفسه .

٣ - إن فى المصائب نفاقًا كثيراً مختلف الأسباب والأنواع : فمن الناس من يبكى ادعاء للحنان والرحمة ، ومنهم من يبكى كى ينال عطف الناس ورحمتهم واشفاقهم عليه ، وإن لم يكن متأثراً فى سريرته بمصابه ، ومنهم من يبكي إذا فقد قريبًا أو صديقًا كى لايلومه الناس إذا لم يبك ، ولولا خشية الملامة ما بكى .

٤ - إن خداعنا لأنفسنا من غير أن نفطن إلى مخادعتنا أنفسنا أسهل من خداعنا للناس من خداعنا للناس من غير أن يفطنوا إلى مخادعتنا لهم ، ولكننا نظن عكس ذلك حقًا .

---

١ - المقتطف ، سنة ١٩٤٨ م ، الجزء الأول من المجلد ١١٢ ، ١ يناير ، سنة ١٩٤٨ ، ص ٣٥ - ٤١ .

٥ - لايرتاع من احتقار بعض الناس له ، ولا يبيت مغيظًا محنقًا إلا من رأى نفسه جديراً بالاحتقار ، أو من كان عنده ما يسميه علماء هذا العصر مركب النقص أو عقدة نفسية أو الشعور بالنقص ، سواء أكان ذلك بسبب نقص نفسي أم نقص جثماني ، فإن ضعف الأعصاب قد يحل محل النقص النفسي في إثارة هذا الغيظ . وإذا وثق المرء من نفسه فإنه قد يرجى منه التسامح في الإهانة إذا لحقته أكثر كما يرجى التسامح ممن فقد الثقة بالنفس ، إلا إذا صار الانتقام لكل إهانة شريعة الشرف والعرف ، كما يكون في البقاع التي يشيع فيها الثأر وتشيع فيها المبارزة فيضطر المرء إلى الانتقام من خوف الذم والاضطهاد بسوء الرأى فيه ، إلا إذا علا شأنه ولم يشك أحد في مقدرته ، ولم يقدر على تتبعه بالتعيير فصفحه صفح القادر الذي حظى بإقرار الناس بقدرته وكرمه ، وفي البقاع التي اختل فيها الأمن لفساد الحكومات ترى كل إنسان يدفع عن نفسه خشية أن يتسامح في الاعتداء القليل فيناله الكثير من شر الناس وظلمهم وتهجمهم إذ يتهم بالعجز . واستبداد الحاكم يولد الشعور بالنقص في نفوس المحكومين ، فيسرع كل منهم إلى الانتقام من جاره إذا حسب أن إهانة لحقته ، إلا إذا حال الاستبداد بينهم وبين الانتقام ، وكثيراً ما يسرع الحقير إلى إهانة غيره . كي يلفت نفسه ويلفت الناس عن حقارة نفسه ، وكي ينقل في زعمه وخياله تلك الحقارة إلى غيره .

٦ - إننا في بعض الأحايين نفضل أن يخدعنا من نحب ونود عن أن يزول عنا ذلك الخداع، فإننا به نعيش في نعمة المحبة والاخلاص اللذين نتخيلهما في نفس من نحب ، فرذا زال عنا الخداع كان زواله نقمة وتعاسة . وقد يعرف المخدوع منا بنصف انتباهة أنه مخدوع فيتغافل حتى يغفل فيعيش في نعيم الانخداع .

٧ - لو كـ ، المرء نفسه من الجهد كي يصير إلى ما ينبغي ويحب أن يكون قدر ما يكلف نفسه من الجهد كي تخفي ماهو عليه مما يريد اخفاءه لما احتاجإلى نفاق ، إذ أن الجهد في سبيل الرياء قد يكون فيه من العناء والمشقة قدر ما في الجهد الذي يصير به إلى ما ينبغي ويحسن .

٨ - إن مغالطة المرء الناس كي يخفي حقيقته عنهم مما يساعده على اخفاء حقيقته عن نفسه سواء كان نجاحها شافعًا يشفع لنفه عند نفسه كي تخفي حقيقتها عن ذاتها ، وكان نجاحها برهانًا على ما يريد المرء أن يقنع به نفسه دليلا على ما يوهمها من أمرها ، وإذا خابت مغالطته الناس ، احتاج إلى الإمعان في اخفاء حقيقته عن نفسه كي يتقن بذلك أساليب مغالطة الناس ، وكي يعرف كيف يتجنب الخيبة في مخادعتهم .

٩ - إننا نرتاح إلى رؤية من نتفضل عليهم ونساعدهم ونبرهم أكثر من ارتياحنا إلى رؤية من يجودن علينا وينعمون إلا إذا خشينا أن يورطنا الأولون حتى نجود بما لانود أن نجود به، وإذا خشينا أن تفلت من يدنا نعمة نرجوها عند الآخرين إذا ابتعدنا عنهم فينقلب الحال . أما إذا لم يكن هذا ولا ذاك فقول لاروشفو كولد ، هو الصواب لأن رؤية من نجود عليهم تدعو إلى الزهو والارتياح والخيلاء والثقة بالنفس ، ورؤية من يجودون علينا تدعو إلى استضعاف النفس والاستخذاء والشعور بالنقص والعجز .

١٠ - كثيراً ما يبقى الحسد حتى بعد زوال النعمة المحسودة - ولعلّ سبب ذلك أن شدة الإحساس بالحسد لايستطاع إيقافها وانتهاؤها كما لا يستطاع ايقاف المندفع فى سيره إذا بطل الدفع ، فيظل سائراً بعد الدفع مدة ، أو لعل السبب أن الحسود لا يغتفر لمن زالت نعمته تمتعه قديمًا بالنعيم الزائل ، فيريد أن ينتقم منه كأنما بانتقامه بعد زوال النعيم يستخلص تلك المتعة الماضية واللذة الغابرة والسعادة الزائلة من لحمه ودمه حتى تكون كأن لم تكن ، وحتى يندم المحسود على ابتهاجه بها ، وقد يزداد الحاسد غيظًا إذا عجز عن أن يجعل ذلك النعيم الزائل كأن لم يكن .

١١ - القدوة عدوى وما من خير أو شر إلا وله قدوة وعدوى ، فالاقتداء بالخير إنما يكون للمنافسة ونيل الثواب أو للزهو ونيل إعجاب الناس ، والاقتداء بالشر لأن النفس إنما يعوقها عن الشر فى كثير من الأحايين الخوف والحذر وتجنب الملامة والعقاب ، فإذا لم تجد النفس ملامة ولا عقابًا بل وجدت مشجعًا ومحسنًا ورأت أن مواقعة الشر أمر شائع غير ملوم أقبلت على عمل الشر ومواقعته اقتداء بمن يعمله ، ومن أجل ذلك كثيراً ما تنقلب المقاييس فى الأماكن والأزمنة المختلفة لاسيما فى عصور الثورات والانقلاب والتغيير . ومع ذلك فهذه حقيقة مشاهدة فى الحياة اليومية ، إذ يقبل الناس على الشر لأنهم يجدون من يمدحه ويعده محمدة وخيراً لا شراً ، قد يتباهون به من أجل ذلك .

١٢ - كثيراً ما يفخر الإنسان بعيوب ليست من عيوبه وبصفات ليست من نقائصه لأنها بعيدة كل البعد عن عيوبه فهى وإياها فى طرفى نقيض وهى لبعدها عنه تلفت الناس عن عيوبه وتعميهم عن نقائصه . ومن أمثال ذلك أن ذوى التردد والعجز والجبن كثيراً مايدعون التهور والخرق والحمق والتسرع فى الاندفاع من غير ترو ستراً لترددهم واحجامهم ، والذين يسهل انقيادهم يدعون العناد والتصلب والإصرار علي رأيهم ويفتخرون بذلك إخفاء لسهولة انقيادهم .

١٣ - من السهل أن يغتفر المرء لأصدقائه العيوب التي يرى أنها لاتضره ولا تصيبه بسوء وإن أصابت غيره من الناس ، وهذا الغفران يكون مادام المرء ناظراً إلى أصدقائه بعين الرضا ، وكثيراً ما يغتفر لهم خيانتهم أصدقاءهم مادام الغافر يرى أنه بمأمن من أن يخونوه لأنه بزعمه عندهم في منزلة أعز وأرفع - وقد يسخر ويضحك من المغدور به ويلتمس العذر لمن غدر به . أما إذا حاق به الغدر دونه بعد اطمئنان إلى الوفاء واستنامة إلى عزته ومنعته فإنه لا يصفح للغادر كما فعل قديمًا بل يسخط أشد السخط . ومصاحبة الرجل صاحب الشر على مافي ذلك من خطر ، إنما تكون لأسباب متعددة فبعض الناس يلازمه كي يعرف شره ونيته وما يبيت فيتجنب بذلك مايتوقع من شره . وبعضهم يلازمه ويجاريه تزلفًا إليه واتقاء لشره بالتزلف والتقرب ، وبعضهم يتابعه كي ينتفع بشره وبعضهم يزامله لأنه يتمنى لنفسه في سريرته جرأة على الشر ليست له ، فمزاملته له إعجاب مستتر وهذا لايمنع من أن ينقلب عليه إذا انقلب الناس .

١٤ - يقول التعساء المحرومون أن الحظ أعمى ، ويقول السعداء أن الحظ مبصر ، إذ كل من الطائفتين تدعي الفضل ، فالطائفة الأولى تعتقد أن الحظ لايستطيع لعماه رؤية فضلهم ، والطائفة الثانية ترى أنه رأى فضلهم فكافأهم بما هم جديرون به من الخيرات والسعادة .

١٥ - في بعض الأحايين يشكو المرء من نقص بعض ملكات عقله كي يدفع عن نفسه التهمة في ملكات أعز وأرفع ، ومثل ذلك أنه قد يشكو من ضعف الذاكرة ولكنه لايشكو أبداً من ضعف ملكته في الحكم على الحقائق مع أن الملكة الثانية قد تتأثر بضعف الذاكرة وهذا لاينفي صدق قول مونتاني الفرنسي صاحب الرسائل المعروفة إذ قال إن ملكة الحفظ والاستذكار قد تكون قادرة ولكنها مقرونة إلى ملكة ضعيفة في الحكم على الحقائق .

١٦ - كثيراً ما تنفذ أمور باسم الحب وتعمل أعمال وتقال أقوال ، ولا شأن للحب في كل ذلك ومثله مثل الدول التي كفت يد الحاكم - مثل دوق جمهورية البندقية - وغلت سلطته ومع ذلك تجري كل أمور الدولة باسمه .

١٧ - من الغريب أن المرء قد تكون له ذاكرة قوية فيتذكر بها حوادث حياته الصغيرة التافهة ، ولكن ذاكرته على قوتها لا تستطيع أن تعينه على أن يتذكر أنه حدث جليسه مرات عديدة بهذه الحوادث التافهة حتى صار الحديث مملولا مكروهًا - وقد فسر فرويد هذا النسيان في كتاب العلل النفسية في الحياة اليومية وأوضح أن النفس تستطيع أن تنسى عمداً ما تريد نسيانه وأن تدفع به إلى الوعي الباطن .

١٨ - لو استطاع مستطيع أن يمنع رجلا من أن يملق نفسه وأن يمدحها سراً أو جهراً ومباشرة أو غير مباشرة وبالقول أو بالعمل وبالخاطر الذى خطر فى النفس أو فى الظاهر وفى الحقيقة أو فى الخيال لكان هذا الإنسان الممنوع من تمليق نفسه وسيلة أشقى الناس وأتعسهم وأكثرهم مللا من الحياة .

١٩ - يعترف الناس أن الميول والنزعات النفسية لها أثر فى تكوين آرائهم ولكنهم قلما يدركون عظم هذا الأثر - وكثيراً ما ينسونه إذا كانت لهم فائدة فى نسيانه ، بل قد ينكرونه .

٢٠ - الأحاسيس والميول النفسية والصفات التى تتصف بها قد تولد أضدادها ومن أمثال ذلك أن الجبان قد يشجع من الخوف فيقبل مندفعًا بدل أن يفر ، إذا أحست نفسه أن فى الفرار ضرراً أشد ، أو إذا حسبت ذلك ، أو إذا جن جنونها من الخوف فاندفعت من غير ترو والخوف يُسَبِّبُ الثبات أيضًا ، والثبات من مظاهر الشجاعة والقدرة والعزيمة ، ولكن المرء قد يخشى أن يتزحزح عن رأى أو مسلك أو مكان من الخوف فيظل ثابتًا عليه .

٢١ - أشد ما ينبغى أن يكون حذرنا من الأحاسيس والنزعات النفسية أن تغطى على الصواب ، إذا لبست لباس العقل والحكمة واتخذت منه أسبابًا وحججًا وأدلة ، لأن العقل كثير الافتنان فى استنباط الحجج وتمويهها تعزيزاً للميول النفسية والشهوات ، وتسويغًا لما قد لايسوغ .

٢٢ - كما أن للفضل ثمرة فإن له موسمًا ، والفضل الذى يكون فى غير موسمه كالفاكهة التى قد تأتى فى غير موسمها وموضعها ، فإذا بعدت كل البعد عما يناسب مزاج ذلك الموسم الغريب عنها كانت مستهجنة غير مقبولة فالبطيخ المبرد فى برد الشتاء لا يستحب ، وكذلك الفضل إذا جاء فى غير أوانه ومكانه وكان عند من لايَقْدُرُهُ يُسْتَهْجَن ويبرد .

٢٣ - الإعجاب بالنفس موجود فى كل نفس ولكنه يختلف فى الطرق والوسائل التى يظهر بها ويشبع بها نهمته ، وقد يختفى زمنًا كى يتمكن ويحتال وهو إذا لم يظهر بالقوة ظهر بالمكر والحيلة ، وقد يظهر ويفوز بِطَلِبَتِه حتى بالتمليق والتواضع فهو كما قال لاروشفو كولد دائما يُعَوِّض نفسه ويتخذ كل أهبة ووسيلة كى لايخسر شيئًا ، وإن أدعى الخسارة والتخلى عن الغرور والكبر ، وكما الإنسان قد وهب من ملكات الجسم ما يناسب مطالبه وأعماله فقد وهب من الكبر مايخفى به نقائصه عن نفسه ، والأصل فى ذلك أن يكسبه ثقة بنفسه كى يستطيع أن يعيش ، فإذا زاد عن حد الصلاح كان مفسداً .

٢٤ - أن بعض صفات الحمد مثل الحواس فمن لم يجربها ولم يعرفها فى حياته وولد خاليًا منها لا يستطيع إدراك كنهها كالذى ولد أعمى يصعب عليه إدراك معانى البصر كلها ، وكذلك من خلا من بعض صفات الحمد لايستطيع أن يفهمها وقد ينكرها أو يحار فيها ويتهم أصحابها بالكذب والادعاء - والمراد بالخلو منها أنه لم يتعودها ولم يعود نفسه ارتياد مواردها واتباع أحكامها .

٢٥ - إن الغريزة تعوض بعض التعويض ما يفقده المرء بسبب نقص حظه فهى تعلم الفقير أن يستفيد من المال القليل أكثر من استفادة من هو أغنى منه ، وتجعل له المكر عوضًا من نقص العقل أو ضعف الجسم .

٢٦ - إن رغبتنا فيما نطلبه بالعقل رغبة ضعيفة إذا قيست برغبتنا فيما نطلبه بالنزعات النفسية ، إلا إذا كان العقل وهو يدعى الاستقلال خادمًا للميل النفسى ومحتالا له بذلك الادعاء كى لايفطن الناس إلى أنها رغبة الشهوات النفسية ، لا رغبة المنطق المستقل والعقل المسيطر عليها .

٢٧ - كثيراً مايكون الاغتياب باعثه الغرور أكثر من خبث النفس فلا تأمن الرجل الموصوف بطيبة القلب أن يغتابك إذا كان مغروراً ، وأى الناس يخلو من الغرور ، ولكننا كثيراً مايدهشنا الاغتياب إذا كان من رجل موصوف بطيبة القلب وباعثه الغرور .

٢٨ - إن السرور الذى نجده فى التحدث عن أنفسنا نبغى أن يفطننا إلى أنه يسبب الامتعاض لغيرنا ، فإن غرور كل إنسان يجعل غرور غيره أمراً يكاد لايطاق - ومن الغريب أن كل إنسان يضجر من كثرة تحدث غيره عن نفسه ، ولا يفطن إلى ضجر غيره من تحدثه عن نفسه .

٢٩ - أمراض النفس لها نكسة كأمراض الجسم وقد نظن شفاءها فيما قد يكون هدنة نفسية أو فيما قد يكون مرضًا آخر ، فالحب أو الطمع أو البغض إذا كان أحدها أو شئ من أمثالها مرضًا نفسيًا وانتهى ، فكثيراً ماينتهى إلى اختفاء كاختفاء النار فى الرماد ، أو إلى خمود كخمود البركان الذى ربما ثار بعد خموده - وهو إذا اختفى فقد يُسَبب للنفس عقدة نفسية كالشعور بالنقص . ولعل هذا مايعنيه بقوله : « إن النفس قد تنتقل من مرض إلى مرض » .

٣٠ - إن الغرور كثيراً مايساعد المرء على تحمل آلام كثيرة ولكنه قد لايساعد على تحمل آلام الغيرة والحسدوالإحساس بالعار لأنها آلام إذا استشرت أنقصت من ذلك الغرور الذى يراد

للاستعانة به على تحملها أو أضعفته أو قضت عليه فتقضى على العماد الذى يعتمد عليه لتحملها .

٣١ - إن الغرور كثيراً ما يحمل المرء على عمل ما يخالف طبع نفس صاحبة وميلها . أما العقل فقلما يستطيع بالمحاجة أن يحمله على ذلك - ومن أجل لك كثيراً ما يعمل المرء أعمالا فاضلة والحامل عليها غرور صاحبها لا طبعه وميل نفسه .

٣٢ - إن الخجل الذى ينشأ بسبب مدح لانستحقه قد يحملنا على عمل أعمال ممدوحه وماكنا نعملها لولا ذلك الخجل - أوالميل إلى الخجل أو ما سببه الحذر من معرفة الناس . فيظن الناس أن هذه الأعمال صادرة عن طبع دائم ، ويحسبون أنها وتيرة فى الخلق وهى ليست كذلك .

لقد انتهينا مما اخترناه من آراء ليوباردى وشوبنهور ولارشفور كولد . والقارئ يرى أن لارشفو كولد إنما استنبط ما استخرج من آراء فى النفس بأن جعل رائده أثرة النفس فتتبع الأثرة فى مظاهرها من خير أو شر ومن مدح أو ذم ورد ماخفى أو بعد عنها إلى أساسها ولم ينكر للأثرة مظاهرها الفاضلة فى حياة الناس .

ع . ش

(٤)

من نظرات تشستر فيلد [١]

فيليب دورمر ستانهوب لورد تشسترفيلد من نبلاء الإنجليز . وأهم مؤلفاته رسائله إلى ابنه، وقد ضمنها نصائحه التى اكتسبها من خبرته فى مخالطة الناس ، فقد شغل مناصب مختلفة وعاشر أناسًا كثيرين من طبقات مختلفة ؛ إذ كان أولا عضواً فى مجلس النواب ثم فى مجلس اللوردات ، ثم سفيراً فى هولاندة ، ثم حاكما لأرلندة ثم وزيراً ، ورسائله ذخر مملوء خبرة بالنفوس وكنز من تجارب الحياة . وقد أسرف الدكتور صمويل جونسون الأديب الإنجليزى فى ذمها ولكنه اعترف فى ثنايا ذمه بما فيها من فطنة وخبرة إذ قال لوسل منها ما لايجمل التخلق به لصلحت كي يقرأها كل فتى ، وأوجه الاختلاف بينهما كثيرة : منها أن جونسون كان ينمق الرسائل فى الأخلاق النظرية ويحتذى ما درسه فى الكتب ، وشستر فيلد كان يسترسل فى وصف النفوس كما خبرها بأسلوب سهل موجز حتى عُدَّ آية فى بلاغة الإيجاز . ومنها أن جونسون فى أيام فقره تطلع إلى أن يمده النبيل الغنى بمعونة تعينه على نشر مُصَنَّفاته، فلم يفعل اللورد أو أنه تباطأ أو أهمله مدة . فأرسل إليه الدكتور جونسون رسالته التى كانت كصوت بوق يؤذن بعصر جديد ، وباعتماد الأدباء على كسبهم بدل الاعماد على معونة النبلاء . ومؤرخو الأدب يقولون : إن ابن تشسترفيلد الذى كتبت له الرسائل لم ينتفع بها انتفاعًا كبيراً ولم يفده ذكاء ولا خبرة . ولا غرابة فالكتب لاتخلق عقلا ولا تنشئ ذكاء غير موجود وإنما تفطن وتربى ما هو موجود ، والخبرة قلما تفيد إلا إذا عالجها المرء بنفسه. وكثير من الناس يعالجون التجارب ولا ينتفعون بها فكيف بها إذا كانت تلقينا وقولا يقوله غيرهم ، وإنما يكون نفع التجارب إذا صادفت النفوس توفيقًا واستعداداً . وكل مايقال فى ابن تشستر فيلد أنه لم يظهر فضلا كبيراً ولا نقصًا خطيراً ، وإنما كان من غمار الناس . وأمل المؤرخ الذى كان يأمل نبوغه بسبب الرسائل ، إنما هو نوع من الاعتراف بكياستها وفطنتها .

وقد أوردت نتفًا على سبيل الاقتباس منها ، والتفكير فيها ، لا على سبيل الترجمة الحرفية ، وربما أدمجت بعضها فى بعض :

١ - بعض الناس يمدح نفسه بصيغة الذم فيكسو الفضائل لباس النقيصة والعيب ، ثم ينتقص نفسه بتلك الفضائل ، ويعيبها بتلك المحامد التى كساها كساء العيب ، كى يجعل

مدح نفسه سائغًا لدى الناس . فيقول مثلا : من عيوبى التى لا أستطيع أن أغالبها أنى أقول الحق فى غير موضعه ، وآتى بالصدق فى غير مكانه ... أو يقول : من عيوبى أنى ما رأيت إنسانا مصابًا إلا وددت أن أشاركه فى مصابه ، كأنى أحمل الدنيا أو كأنى موكل بها . وتنزل بى تلك الوداءة حتى أقاسمه المصاب وأشاطره وأعينه على ما حل به وأهيئ له من أمره ترفيهًا ورشداً ... أو يقول : من نقائصى المذمومة أنى كلما رأيت مظلومًا نصرته ، وإن كان فى نصره ضرر لى . ومن مقابحى التى لا أستطيع الخلاص منها أنى كلما رأيت ضعيفًا أعنته على أمره ... والعاقل حقيق بالنصراف عن هذه الوسيلة التى توهمه أنها تحمل الناس على اغتفارهم له مدح نفسه ، إذ هى لاتحملهم على الاغتفار بل تزيد الناس سخرية به وازراء عليه - ومن الناس من يتخذ لنفسه شعاراً فى أمر من الأمور ويوهم الناس أنه وحده كفيل به لاشريك له ويردده فى كل فرصة حتى يمل الناس أمره ولا تنفعه طلاقته ولا أنه ذرب اللسان ذلقه ، وللناس افتنان فى هذه الأساليب المتغايرة . وفى الحالتين المذكورتين ، المدح المراد للنفس ، مدح لم يقصده صاحبه إلا بطريقة ملتوية ولكنها حيلة مكشوفة .

٢ - إذا أكثر رجل من القسم ولجَّ فى الحلف كى يحملك على أن تصدقه وكى يقنعك بحلفه فى أمر لا يستدعى تصديقه كل هذا الحلف فهو فى أكثر الأحايين كاذب فيما يقول وإلا ما تكلف جهد الحلف كى يخفى به كذبه ، وكى يداوى شكه فى تصديقك كلامه ، وكى يعالج خوفه من رفضك قوله - هذا يذكرنى قصة رجل من أهل المدينة كان يقول للناس : أنا والله من قُرَيْش والحمد لله . فقال له سامع : الحلف والتحميد هنا أمران مريبان . أى يدعوان إلى الشك والريبة فى صدقه . على أن الرجل قد يكون صادقًا فى كلمته وإنما يعالج بالحلف اشتهاره لدى نفسه ولدى الناس بالكذب فى أمور أخرى غيرها . قد يكون الحلف عادة عودها ، ولكنها توقفه موقف الرجل الظنين المتهم فى صدقه .

٣ - كثير من الناس يكرهون أن يُتَّهموا بالحماقة أو الغباء ، أو السخف ، أو الحقارة ، أو ما شابه ذلك من أوجه النقص والعيب أكثر من كرهم أن يتهموا بالآثام والخطايا والجرائم والشر- ولكن قلما يفطن المعاشر إلى سبب هذا التفضيل ووجوبه ؛ إذ أن الرجل يكره ما يلحق به الاحتقار أكثر من كرهه ما يلصق به خوف الناس منه . وهو يعرف أن الناس قد يعجبون بالشر والخطايا ويزيد صاحبها عظمًا وقدراً فى نفوسهم ويفخرون بها . ولكن الناس لا يستعظمون السخف ، ولا يجلون الحماقة والغباء ، ولا يفخرون بهذه الصفات التى تزيد صاحبها احتقاراً فى نظرهم . فلا يستهين العاقل بنسبتها إلى الناس اعتماداً على أنه لم

يجعلهم من الأشرار ولم يقل إنهم من المجرمين فقد نسب إليهم ما هو أقبح فى نظرهم وأكثر مجلبة للذم . على أنك قد ترى ساذجًا ينسبها إلى صديق ، فإذا غضب صديقه دهش وقال من غير تعمد للسخرية أنا لم أقل إنه مجرم شرير ولم أقل إلا أنه سخيف !! .

٤ - كل إنسان يفضل أن يمدحه مادح بالصفة التى يدعيها لنفسه ، وليست فيه أو ليست غالبة عليه ، على أن يمدحه بالصفات الممدوحة التى يقر له بها الناس ، ويعترفون بفضله فيها لأنه فى الحالة الأولى يكسب محمدة جديدة ولا يكشب شيئًا فى الحالة الثانية إلا اعتراف بعض الناس بما لايشك فيه أكثر الناس ولايمارون . وهذا يذكرنا أن الكاردينال ريشليو السياسى الشهير ماكان يبتهج إذا مدحه مادح بحنكته السياسية وخبرته وبراعته ، وإنما كان يسره أن يمدحه مادح بإجادة فن من الفنون الجميلة لم يجده ولا برع فيه ولا أتقنه . وهكذا أكثر الناس كأنهم ما سمعوا قول الإمام على رضى الله عنه « قيمة كل امرئ ما يحسن » .

٥ - مَهِّدْ لنفسك منفذاً إلى عقول الناس من طريق قلوبهم وما تشتهى نفوسهم فإن عقول أكثر الناس وعرة صعبة المسلك ملتوية ، وعندى أن هذه النصيحة تنفع أيضًا مع من كان الطريق إلى عقله موطأ سهلا ممهداً فإذا لجأت إليه من طريق قلبه وجدت عقله ازداد سهولة وصار أخف مؤونة ، وقد لايكلفك طريق قلوبهم إلا البشاشة والملاينة وطيب الذكر وحسن القول .

٦ - كما أن النقود الصغيرة من العملة القليلة القيمة لاغنى عنها فى معاملات الناس اليومية الصغيرة ، فنقود الفكر القليلة القيمة لاغنى عنها فى مجالس الناس ومحادثاتهم ومفاكهاتهم . ومن أراد أن يستبعدها وأن لايتعامل معهم فى أمثال تلك المجالس إلا بالفكر العويص والرأى العميق والفلسفة البعيدة والألفاظ الفخمة والتقعر فى الكلام كان مثله مثل الرجل الذى لايريد أن يتعامل فى المعاملات اليومية الصغيرة إلا بقضبان الذهب الثقيلة الكبيرة فتمتنع المعاملة . وهذا يذكرنى قصة رجل كان له ابن هذه صفاته وكان الرجل فى مرض الموت وأبى أن يرى ابنه إلا إذا ترك هذه الصفات فوعد ابنه بتركها فى زيارته لأبيه ولكنه لم يستطع مغالبة طبعه فكان الموت أحب إلى أبيه من زيارته .

٧ - بعض الناس مولعون بالأحكام العامة والجمل المألوفة والأمثال السائرة يرددونها كلما أتيحت لهم فرصة ويوهمون أنفسهم أنها تصدق فى كل حالة . والعاقل من تجنب الأحكام العامة والجمل المألوفة ، فليست حالة إلا وفيها اختلاف قلَّ ، أو كثر عما يشابهها من الحالات. وكذلك الأمم والطوائف والجماعات تختلف آحادها فليس من الصواب أن يحكم المرء

على أمة أو طائفة أو جماعة من الناس حكمًا عامًا - وكثرة التشادق بالأمثال والجمل المألوفة التى سارت مسير الأمثال لا يلجأ إليها إلا من لا يميز دقائق الفكر . وبعض الناس لا ينتهى من مثل إلا ليبدأ مثلا آخر أو حكمة معروفة ، كأنه آلة الحاكي تردد من غير تمييز .

٨ - من العلم ما يكسب صاحبه رجاحة فى عيون الناس وقلوبهم ، ومنه ما يكسبه زينة ، والأول لاغنى عنه ، ولكن ينبغى أن يذكر العاقل أن كثيراً من الناس لايستطيعون وزن الأمور ومعرفة رجاحتها ، وإنما يحكمون بما هو رونق يرونه - وإذا كان حكم الناس بالنظر أكثر من حكمهم بالفكر ، فقلما يصيب أحد النجاح إلا إذا كان له نصيب من النوع الثانى من العلم .

٩ - إن المكارم الكبيرة والنعم السابغة قد يصنعها المرء بسفهٍ ويفعلها بخرق ويهجم بها على من يجود عليه بخطأ أو طيش وحماقة فتسئ مكارمه ونعمه التى يصطنعها عنده فتصير أُسوأ من الإساءة إليه إذا جاءت بلطف يثلم حدها ويفل غربها ويقلل ألمها . فرب نعمة قد تجلب عدواً ، وإساءة قد لا تنفر صديقًا .

١٠ - المشاكسة فى الأمور الصغيرة من علامات ضؤولة النفس وكثيراً ماتكون مصحوبة بالشعور بالنقص يداويه صاحبه بمشاكسة أو مهاترة أو مغاضبة ، فتكون أظهر لنقصه عند من درس طبائع النفوس .

١١ - من أسباب النجاح الصبر على مضض الحديث الغث الممل أو على سماع رغبات الرجل المشاكس أو الملح ، وهو إصغاء لايلزمك عملاً تعمله - أو خطة ترسمها وتتكلفها وتنفذها - وقد تجد شيئًا من الفكاهة إذا عودت نفسك هذا الصبر ، وقد تجمع إلى الفكاهة فائدة أخرى ، وهى دراسة نفس محدثك ، وفى دراسة النفوس لذّة بالرغم من ألم ذلك الصبر ومضضه وبعض من اشتهر باللباقة من الساسة ، وبالحُنْكة فيها ، أكثر بضاعتهم الإصغاء والابتسام .

١٢ - إذا هششت الناس وتبسّطت وتسّهلت ظن من ينصب الحبائل للناس ويدبر الوسائل لاقتناص الكسب منهم أنك لست ممن يَنْصب الشرك أو الشباك فلا يُعُد لك عدة ، ولايتخذ لك أهبة ، ولا يلجأ إلى الحذر معك ، كما أن ذوى السذاجة يركنون إلى طيب قلبك ، ويستنيمون إلى سلامة طوّيتك فتربح فى الحالتين .

١٣ - الأغرار من الشبان ومن لم ينتفع بتجاربه من الرجال يرون أنهم يكسبون بالعنف والشدة فى كل معاملة أو معاشرة أكثر مما يكسبون بدهاء الخبرة ولباقتها وتأنيها فى معالجة الأمور ، ويعدون كل هذه الصفات ضعفًا عجزاً وجبنًا ورياء ، وأنها صفات لا تليق ، وهم فى

عنفهم وشدتهم يَدَّعون لأنفسهم الحكمة كما يدعى السكران بأنه غير مخمور - وقد يكون ادعاؤه مضحكًا يدل على أنه سكران ، وأن أنكر ذلك إذ يتّرنح ويتلعثم ويتلجلج ويخلط ولا يبين فى كلامه ، ويتكلف الاتزان ويتغاضب تارة ويعاتب تارة ، وهذا أيضًا شأن الأغرار الذين ليس لهم إلا سبيل العنف .

١٤ - إذا كان لك فضل فليس السبيل إلى اعتراف العقلاء المبصرين والدهاة ، ولا إلى اعتراف من يغمط الناس حق فضلهم وهم كثيرون ، أن تكبد الناس بمباهاتهم به فى الأحاديث والمجالس وبأن تظهر لهم أنك تعرف من فضلك أكثر مما يعرفون فإن الناس قلما يغتفرون لك ذلك ويعدون فضلك إساءة إليهم وإن اعترفوا به سراً أو جهراً . وهم يحاولون انتزاع اليقين والثقة به من نفسك بأساليب مختلفة ، ولكنك قد تحملهم بالملاطفة وسياسة التأنى وأساليبها على اغتفار الفضل لك - وكذلك إذا كان لك فضل على إنسان بأن صفحت عن ذنب له أو إساءة أو زلة أو كنت قد انتشلته من وهدة سقطة كاد يتردى فيها وأزرت به ، فليكن همك أن تنسيه فضلك عليه واطلاعك على سيئاته وموضع النقص منه . فإن كثيراً من الناس يحقدون على من اطلع على زلاتهم ونقائصهم وإن كان اطلاعه عليها من ناحية انتشاله إياهم من وهدة زلتهم ومعونته لهم وانقاذهم من عواقبها ، فإن تلك المعونة وذلك الانقاذ لا يشفعان لاغتفارهم اطلاعك على نقصهم . وفضلك فى ذلك لايشفع لك بل يزيد حزازة حقد من تفضلت عليه ، إلا إذا كانت لك لباقة تنسيه فضلك عليه واطلاعك على نقصه ، وقد يكون مثلهم مثل المرأة التى لطمت سائق الترام الذى رآها قد زلت قدمها وكادت تسقط تحت الترام فجذبها إلي نفسه وأنقذها من الموت .

١٥ - الناس قلما يغتفرون ذنب من إذا شرعوا يحدثونه أسرع إلى إظهار معرفته للحديث. وبعض الأغرار ومن لم ينتفع بتجاربه لهم ولع عجيب بهذا التسرع إلى إظهار معرفتهم حديث المحدث - كأنهم يخشون أن يحسب الناس أنهم قد فاتهم شئ من أمور العلم والدنيا لم يدركوه ولم يطلعوا عليه قبل حديث المحدث ، وهو اطلاع لا يزيدهم فضلا بل نقصًا فى نفس المحدث الذى لايهمه أن يزن قدر علم من سبقه واستلب حديثه وإنما يهمه أن لايسلب منه جليسه كرامة نفسه وأن لايشعره الاستخذاء .

١٦ - ينبغى للعاقل أن لايظهر الامتعاض والغضب إذا ظهر عليه إنسان بالحجة أو بذّه شأواً وشأنًا أو مزح معه مزحًا مستكرها ، بل الكرامة والربح فى أن يكظم غيظه وأن يسرى عن نفسه وأن ينظر إلى هذه الأمور كأنه يشاهد مشهداً فى عالم آخر من غير تصنع للكبر المضحك المغالى فيه والذى يجعله كالممثل الهازل ، ومن غير شجار أو مهاترة ؛ لأنه بهما

يضيع كرامته ، ومن غير أن يأذن لفكره وذاكرته فى معاودة هذه الأمور فيتعب ، ومن غير أن يلجأ إلى التعريض فى ثنايا كلامه بالسخر المعمى أو الواضح . وهذه أمور قد تسبب عداوات وثارات قد يشترك فيها أصدقاء خصمك وأقاربه ، فكأنك أثرت حول نفسك النحل من خليته، وأقل مافى هذه الأمور من الضرر إذا لم يتخذ خطة متسعة النواحي لاغتيابك أن يأذن ويبتسم صامتًا لمن يغتابك كما قال الشاعر :

فسامع الذم مقر به وقابل الغيبة كالقائل

١٧ - كثير من الناس لايميزون بين التسامح والتسهل فى المعاشرة وبين التملق والنفاق فيأبون التسامح ويرفضون التسهل ، ويضحون بحسن المودة وطيب العشرة بأن يراجعوا كل إنسان فيما يصف به نفسه أو ينسبه إليها أو يغلطوه أو يكذبوه أو يكثروا من مخالفته مع أن بعض الناس يُعدُّ القليل من مخالفته تكذيبًا - ويفعل المغلط المراجع المقاطع ذلك بدعوى نصرة الحق والانصراف عن التملق والنفاق ، وإنما يفعل ذلك خشية أن يظهر إنسان بفضل يدعيه أو رأى يرتئيه أو حجة يدلى بها . وتوهم المغلط المقاطع نفسه أنه إذا لم يفعل ذلك أضاع كرامته ولم ينصر الحق وأعان على الباطل بسكوته ، وكأنما تنهد الأرض وتسقط السماء إذا لم يفعل ذلك فلا يميز الكبائر من الصغائر ، وإنما يكون الباطل الذى يحارب ما تختل به أمور الناس لا ما يتسهل ويتسامح فيه العشير فى العشرة .

١٨ - أحسن ماتكون الفضيلة إذا أرادها المرء كما يريد نظافة جسمه للراحة والصحة والعافية لا للمباهاة ، وكما أن المرء لا يطلع الناس على نظافته ولا يلفتهم إليها ولا يحدثهم بها ، كذلك الحازم العاقل لايحدث الناس عن فضيلته .

١٩ - فى أكثر الأحايين إذا قال الإنسان قولة مزح بريئة جر إليها حديث محدثه وكانت صلتها بالحديث أو بإنسان مذكور فيه تفسرها فإنها تنقل إلى إنسان آخر له صلة أيضًا بالحديث مبتورة ويخفى ناقلها صلتها بحديثه فتخرج عن معناها وتصير إهانة ، ولو أن ناقلها ذكر حديثه وصلته به ما كانت إهانة . فيحسن تجنب المزح البرئ اعتماداً على صدق الناقل إذ كيف تكفل صدقه ؟ .

٢٠ - الحازم لا يشارك المغتاب بالكلام ولا يشاركه بالإصغاء والسكوت ، فقابل الغيبة كقائلها ، وإنما يجب أن يقول إنه لايعرف من أمر الغيبة شيئًا وهو إذا لج فى إنكارها جنى فوائد منها أن الناس تبرئه من الغيبة وتعده غير متتبع أخبارهم فيقل حذرهم منه ، وكلما أمعن فى إظهار الجهل والإنكار أكثروا من تعريفه مايدعون معرفته من أخبار غيرهم ، إذ أن

الناس منهومون بادعاء معرفة أخبار الناس وأسرارهم ، وكلما قلت معرفتهم زادت تهمهم باطلاع معاشريهم على مايدعون معرفته ، ومنهم من يستطيلُ بادعاء صداقة الناس بالباطل؛ كي يستطيل بادعاء معرفة اخبارهم وأسرارهم بالباطل أيضًا .

٢١ – في الناس أصناف يجمل أن لايشركهم العاقل فى خاصة شؤونه ، ولا أن يطلعهم على بواطن أمره وأخباره وأسراره . ومن هؤلاء الغرير الجاهل فإنه يذيعها كى يعرف أنه عالم بالناس ، والخائن كى يوهم الأغرار أن غيرهم قد ائتمنه ، والماكر الداهية كى يفيد من إذاعته ما يستطيع ، والخبيث إذ أنه يحولها مادة صالحة للأذى يؤذى بها من أشركه فى أمره ، والزميل الذى ربما جعلته الحياة منافسًا فيتخذ منها مادة لمنافسة زميله وتنقصه كى يفوز فى موضوع المنافسة بدلا منه . والمنافس مهماكان شهمًا ذا مروءة لا يؤتمن على سر أو خبر أو شأن خاص ، إذ أن المنافسة قد تحمل الناس على الانصراف عن سبيل المروءة حتى يفوزوا فى المنافسة ، ثم يعودون إلى مروءتهم وشهامتهم بعدها .

(٥)

نظرات أناتول فرانس (*)

أناتول فرانس هو الاسم الذى اشتهر به كاتب من كتاب القرن العشرين وهو فرنسى كان أبوه يبيع الكتب فنشأ مولعًا بالاطلاع ولكنه كان يخالط الناس ويتقصّى أخبارهم وقد جمع فى كتبه بين السخر والحنان والتسامح والرأفة بالضعفاء والفقراء ، ولكن عقله لم يكن من العقول التى تَتَشبَّثُ بمبدأ من مبادئ الفكر لايتعداه ولا ينظر إلى غيره ، بل كان ينظر إلى جوانب كل أمر حتى أنه قد ينطق بعض أشخاص قصصه بآراء مختلفة إذا اختلفت حالات نفوسهم ، ثم يكون أول من يلفت إلى هذا الاختلاف وقد برع فى القصص الطويلة كما برع فى القصص القصيرة .

ومن قصصه الشهيرة قصة « تاييس » وهى - كما قال استاذ كبير - تشبه قصة «هايبشيا » للقصصى الإنجليزى شارلز كنجزلى ولكن الشبه جاء من ناحية تقارب عصرى القصتين ، وعند التمحيص يختلف أشخاص القصتين ، وأناتول فرانس قلما يجارى فى تذوقه لفنه . ومن كتبه قصة (كتاب صديقى) وفيها انتشى من نفحات الطفولة والصبا ، وجمع إلى ذلك دقة الملاحظة ونضج الذهن ، وله قصة الثورة الفرنسية الكبرى واسمها « الآلهة ظمآى » وليس فيها عنف فلوبير فى قصة سلامبو عن قرطاجة . ولكن تحت هدوء فنه يحس القارئ مرجل الثورة يفور وكان همه أن يفسر روحها . ومن كتبه الشهيرة (حديقة أبيقور) وهو نظرات فى النفس والحياة ، وكتاب (الحياة الأدبية) وهو مقالات فى النقد والأدب ، و (طموح جان سرفان) و (قصة ممثل) و (سلفستر بونار) و (آراء الأب كوانيار) و (الحجر الأبيض) و (ثورة الملائكة) وفى الكتاب الأخير يميل إلى الروح الأغريقية القديمة . ومن كتبه المؤثرة (حياة جان دارك) و (جوكاستا) وله قصص أخرى متعددة بعضها يغلب عليه السخر وبعضها يغلب عليه النقاش الفكرى أو وصف تاريخ فرنسا وحياتها فى عهده . ويتردد أشخاص بعضها فى أكثر من كتاب . وبالرغم من عداء رجال الكنيسة له فقد أنصفهم فى وصف بعض أشخاص الكنيسة فى كتبه . قد اعتنق المذهب الاشتراكى فى أواخر أيامه .

---

* - المقتطف سنة ١٩٤٨م ، المجلد ١١٢ ، الجزء الثالث ، ١ مارس سنة ١٩٤٨ م ، ص ١٦٩ ، ١٧٧ .

ويمكن أن يقال باختصار أنه بالرغم من سخره كثير التسامح كثير الحنان .

ومن نظراته ما يأتى : -

١ - كنت وأنا طفل صغير أقرأ كتب الزهاد المترهبين من ذوى التقشف فأحدث ذلك عندى رغبة فى أن أكون راهبًا زاهداً متقشفًا وامتنعت عن الطعام وحاكيت حياتهم فقال ، أبى يصفنى « إنه مجنون » فعزيت نفسى وقلت إن أبى فى الحياة الأخرى سوف لاينال ما سأنال من جزاء على الزهد فلا يقاسمنى مجده ولا يشاركنى فيه فأختص به دونه ، فلم يؤلمنى تَنَقُّصُهُ لى واتهامه إياى بالجنون وانشرح صدرى وسُرَّت نفسى ، وهذا احساس يشترك فيه الصغار والكبار فإن الرجال قد يودون صديقًا ويرجون له كل خير فإذا خالفهم فى أمر سُرُّوا بحرمانه المأمول من خيره المنظور وعزوا أنفسهم بالاختصاص به دونه ، وإن كانوا صادقين فى مودته ... وكذلك الحال بين الأحبَّاء .... وقد يزداد هذا السرور بحرمان المخالف حتى يصير تشفيًا وانتقامًا كريهين .

٢ - كان الدرس فى حصة الآنسة لافورت المعلمة فوضى من الاضطراب وكان عندها شئ من الذهول وقلة المبالاة . فإذا لج الصخب فى تنبيهها هجمت على أى تلميذ وضربته ثم تعود إلى تبلدها وذهولها ... وهكذا الدنيا قد تعاقب من ليس أحق بالعقاب ، والعاقل من حاول أن يطامن نفسه على تلقى ضرباتها كما كان يصنع تلاميذ المعلمة لافورت .

٣ - أهم ما فى التضحية هى التضحية ذاتها . أما أنها فى أمر غير حقيقى . وأنها لاتعود بفائدة ولا عائدة فهذا لايقلل من قيمتها مادام صاحبها الذى يؤدى ما تفرضه عليه التضحية يجد إليها اطمئنانا ويحس فيها راحة ويراها أمراً واجبًا وأنها عائدة من غير شك بالخير ، وهذا هو الذى يسوِّغها .

٤ - كنت إذا غَـايظْتُ تلميذاً صغيراً مثلى يُهَـوِّنُ على ذنبى إليه شعورى بعظم ذنبى ، وهكذا الكبار أيضًا يهون عليهم ذنوبهم احساسهم بالذنب ويشعرون كأنما قد كفروا عن ذنوبهم به حتى صار كأن لم يكن - وهذا قد يدعوهم إلى الاطمئنان وإلى معاودة تلك الذنوب .

٥ - كنت قد اعتزمت وأنا صغير أن أكتب تاريخ فرنسا فى خمسين مجلداً ولكن منعنى أنى لم استطع معرفة تاريخ أول مَلِك . ومن ذلك الحين أحمد للصعوبات فى الحياة فضلها وأشكر صنيعها ، فكم أنقذت من ورطة وكم أسعفت بخيبة فى طيها نعمة . أما صديقى فونتانيه فإنه يمرق بين أرجل الصعوبات « أن كانت لها أرجل » ... كما يمرق أطفال الشوارع بين السيارات المسرعة .

٦ - عندما طلب منى القس فى الكنيسة أن أعترف (وهذا أمر يؤديه الكاثوليك) أدركتنى الحيرة إذ كنت صغيراً لا أميز صفات أعمالى ولا أعرف أيها أعد ذنبًا ، فحاولت أن أتذكر ذنبًا جنيته كى أعترف به للقس فلم استطع ، فاعترانى الخجل والأسف إذ لم أجد ذنبًا . ثم تذكرت إتلافى قُبَّعة صديقى فونتانيه فارتاحت نفسى وتعاظمت لدى ، وقلت الآن أستطيع أن أعترف بذنبى من غير خجل أو شعور بالنقص ... وهذا قديفسر لنا فخر الكبار بذنوبهم فى بعض الأحايين ومباهاتهم الناس بها .

٧ - مما علمنى حب الصغار المحافظة على التقاليد والعرف المألوف بالرغم من طيشهم وثورتهم عليه فى بعض الأحايين . إن عمى كان قد صنع لى حقيبة كتب جديدة من شئ لم يكن حقيبة كتب ولا كانت حقيبتى كحقيبة التلاميذ فجعلوا يسخرون ويضحكون ويبتكرون الفكاهات إزراء بها ، ولكنهم لم يفكروا فى السخر من حقيبة كتب صديقى فونتانيه وكانت قديمة ممزقة مُرَعْبَلة ولكنها كانت على شكل حقائب الكتب فكان لاشك فيها . وهذا يذكرنى قول وردزورث الشاعر الإنجليزى « إن الطفل أبو الرجل » فهذه الغرائز والطباع موجودة أيضًا فى الكبار . وهم يسخرون من كل جديد لأنه يخالف المألوف .

٨ - كنت وأنا غلام صغير أذهب إلى حلاق كى يقص شعرى وكان يحكى لى أثناء الحلاقة « كما هى عادة الحلاقين » كيف أنه كان فى سفينة عرض البحر تحطمت واضطر ركابها أن يأكلوا إنسانًا منهم . وكان يهش ويبتسم وهو يحكى لى كيف أكلوا اللحم البشرى وكأنما كانت هشاشته هشاشة المتفائلين بالحياة ، المؤمنين بالإنسان ، ولا يرون إلا جانب الأمل فى حياته ... ولا غرابة فى اطمئنان ذلك الحلاق . فإن الناس كثيراً ما يأكلون اللحوم البشرية على سبيل المجاز والاستعارة كما يصنعون فى استغلال الضعفاء المحرومين والنساء والاقتتال على النظريات ، وكما يصنعون فى الغيبة والنميمة فى حياتهم اليومية ، وفى إهمال المُشَرَّدين من الأطفال وغيرهم.

٩ - كانت حياتى فى الطفولة حياة صغيرة ، ولكنها كانت « حياة » أى أنها كانت عندى قطب الدنيا ومركز الكون ومحور العالم . وكل حى حتى ولو كان كلبًا صغيراً يحس كأنما هو مركز الكون ومحور العالم .

١٠ - كنت فى صغرى مُدَلَّلاً مُنعمًا على قدر ما يستطيع أهلى من التدليل والتنعيم ، وكنت أجد لذة فى حياتى المنزلية كما يحك العصفور الصغير جانبه بريش عشه الناعم لذة وسروراً واطمئنانًا . ومع ذلك فقد كنت أحسد غلامًا مشرداً وكنت أراه من نافذة منزلى وكان أبواى يمنعانى من مخالطة أبناء الشوارع . وكانت أم ذلك الغلام تتركه حراً طليقًا قذراً ممزق

الثياب كى تكسب قوتها بأن تغسل ثياب الناس فلم تكن تقيده تكاليف الحياة ، وكان يخيل لى أنه كان ينظر إلىّ كما ينظر العصفور الطليق إلى العصفور الحبيس ... وهذه الفكرة تذكرنى قصة من تصنيف ستاسى أومونييه القصصى الإنجليزى الذى تتبع فيه دائرة الحسد ، فوجد كل إنسان يحسد من هو أحسن منه حالا حتى إذا بلغ أكبر محسود وجده وقد سئم تكاليف حياته وقيودها وهمومها يحسد أحقر حاسد ولو كان صعلوكًا متشرداً حسبه حراً طليقًا غير مقيد بتكاليف الحياة .

١١ - عندما نبحث عن الحق كثيراً مانجده أمراً مألوفًا وإن كان غريبًا قبل معرفته ولكن تلك الغرابة تُحَبِّبُهُ إلينا ولو لم نشعر بالغرابة لللناه وضجرنا به . والمراد حقائق النفس والحياة التى نشاهدها ونغفل عنها ، كأنما قد غُطِّيت عنا ولُبِّستْ علينا .

١٢ - كانت عندنا خادمة ريفية سمحنا لها مرة أن تذهب إلى باريس وبعد عودتها سألناها ماذا رأيت فى باريس ؟ وماذا أعجبك منها ؟قالت الفجل ! رأيت فجلاً كبيراً . إنها رأت كل ما يستطاع رؤيته من حضارة باريس ومبانيها ومافى نوافذها وشوارعها ومتنزهاتها ولكن لم يعجبها إلا أنها رأت فجلا كبيراً ... وهكذا بعض الناس فى الحياة يرون ماتعرضه عليهم ثم لايعجبهم منها إلا ماهو شبيه بالفجل فى نظر الريفية .

١٣ - إننا نرى الأطفال لايستطيعون أسهل الأمور والأعمال إلا بعد الدربة والمزاولة وننسى حقيقة أولية وهى أن هذا يصدق أيضًا فى الكبار كما يصدق فى الصغار . فإن كل عمل مهما هان يصعب حتى يتعوده من لم يتعوده من قبل .

١٤ - إذا كان لبعض الأمهات ابن ذكى وسألتها جارة عن سنه أصغرت عمره وقللت منه كى تظهر على جارتها وتنتصر وتعلو إذ أنها تعرف أنه من المحال أن يكون لجارتها ابن صغير ذكى فى مثل السن التى ادعتها لابنها وهى إذ تستثير اعجاب جارتها وتستثير حسدها ، ومن الأمور المتناقضة فى النفس أن الذى يباهى الناس ويستفز حسدهم بالمباهاة لايمنعه ذلك من محاولة اخفاء كل ما يمكن أن يحسد عليه فى حالات نفسية أخرى إذا أزعجته عاقبة الحسد . وبعض الأمهات وغير الأمهات يخشين صولة القدر المفاجئة وضربته المباغتة إذا كن فى سعادة وغبطة وحبور وهن فى ذلك مثل الأمهات الأثينيات قديمًا اللواتى كن يضعن أطفالهن عند قدمى تمثال نميسيس « ربة الحسد » ويتضرعن إليها أن تغتفر لهن سعادتهن بأطفالهن خشية الوثنيين قد خيل لهم ربة ربة للحسد فإن للناس افتتانًا عجيبًا باستثارة إعجاب الناس واستفزاز حسدهم وهم يخشون هذا الحسد ويعلمون أنه كثيراً مايحيق بهم السوء

منه من غير استثارة واستفزاز ، لميل كثير من الناس إلى إلحاق الأذى بمن يحسدون . والحسد وإن عم ، من الغرائز الموروثة بسبب هذا النظام الاجتماعى .

١٥ - سأل أندريه الصغير أمه وقد مات أبوه : هل مات أبى وذهب عنا ولايعود ؟ قالت نعم . فصمت قليلا . ثم قال : هذا شئ حسن لأنى أحبك كأنى أحب اثنين وإذا عاد أبى إلينا لا أجد فى قلبى شيئًا من الحب أخصه به وهذا ما أخشاه . وإحساس أندريه الصغير هو الإحساس الذى بنى عليه فرويد نظريته فى حب الابن للأم وغالى فيه حتى جعله مثل حب « أوديب » لأمه وهو لايعرف أنها أمه وهذا قياس محال وقصة الملك أوديب قصة معروفة من قصص قدماء الإغريق .

١٦ - المراهقة وأحلامها قد تسبب للمراهق حزنًا ولكنه حزن مملوء بالسعادة فتلتقى التعاسة والسعادة فى وقت واحد . ولا غرابة ، فإن من الناس من يأنس إلى الحزن ولو سلب منه أحس فراغًا فى نفسه وحياته .

١٧ - من الخطأ المضحك أن يحزن إنسان أو يتملكه الغيظ إذا ابتكر نظرية فوجد ما يثلمها ويهدمها ، إذ أن النظريات ما خلقت إلا كى تكون هدفًا للرماة ، وكى تصاب حتى تزول كما تزول الفقاقيع ، وإحساس المرء بالغيظ إذا عورضت نظريته حماقة وضيق ذهن واثرة ونقص .

١٨ - وجد الباحثون بعد البحث والتقصى أن القصص الخرافية والأساطير الشعبية موجودة أمثالها عند شعوب لا تتصل فى ماضى تاريخها - وهذا قد يجعل المفكر يرى أن اعتقاد بعض المؤرخين أن الحضارة نشأت فى بقعة من الأرض انتقلت منها إلى باقى البقاع فيه غلو إذ أن عقل الإنسان أساسه مشترك ومهيئات الحضارة كثيرة متنوعة ، والمعروف أنها تنمو بتبادل الآراء على طرق المواصلة فليس أشحذ للذهن منها . وأما قول بعض المؤرخين أن جمهور الناس لو ترك وميله ، حدثت له رجعة ونكسة وأنه أميل إلى التخريب . وأن سطح الأرض مكسو بالحضارات التى هدمت وخرجت فلا ينفى ماذكر . والحقيقة أن الخلاف خلاف لفظى محصور فى تفسير معنى نشأة الحضارة فعند أية مرحلة يعترف بالنشأة ؟ نعم قد تسبق بعض الأمم غيرها فى نمو الحضارة ، ولكن النمو غير النشأة .

١٩ - كان معلمنا المسيو شوتار جبانًا يخشى الكلاب واللصوص والرعد والعربات فى الطريق ، وكان يخشى كل ما قد يؤذى الإنسان . ولكنه كان إذا وصف الحروب والوقائع فى دروس التاريخ وما قاساه الأبطال فيها من آلام وجروح ومشاق وما لاقوه من العذاب والموت ،

برع كل البراعة . وكان يخيل له أنه يقاسيها معهم ويقاسمهم مجدهم ، وكان يجد لذة في إهلاك الجيوش الكثيرة بحيل قديمة ، أو مبتكرة يتخيلها ، وهكذا شأن كل جبان يحاول أن يعوض نفسه عما فقد من الشجاعة إما بادعاء الشجاعة وإما بوصف أعمال الشجعان والأبطال ويجد في ذلك مايعينه لاحترام نفسه . ولذته في وصف إهلاك الجيوش الكبيرة بوسائل مبتكرة ، من القسوة التي كثيراً ماتلازم الجبان . وأكثر الناس بهم شئ من الجبن حتى ولو كانوا شجعانًا . وقد قال أحد الأبطال « من زعم أنه لم يخف قط ولم يجبن قط فهو أكبر كاذب » وإنما العبرة بما تؤول إليه النفس بعد التغلب على الخوف عند مفاجأة الخطر وبعد أول وهلة . ومن المعروف أيضًا في الاختلاف بين الطبع والقول إن بعض الكتاب المتزمتين في حياتهم يولعون بتصنيف كتب المجون كأن أنفسهم تريد أن تأخذ حظها مما فاتها منه في الأعمال بتنميق الأقوال فيه والافتنان في أساليبه بالكتابة ، وقد تكون صفتهم العجز عنه لا التزمت ، فيلجؤون إلى مايلجأ إليه هؤلاء من زخرف القول .

٢٠ - شغف بعض الناس بالمعرفة ناشئ من البغض أو الحسد ، ولكن شغفي بالمعرفة كان شغف من يود أن يألف الأشياء والحيوان والإنسان ، لاشغف من يتخذ المعرفة أداة للأذى . وكل ما رأيته أو سمعته كان يهيئ لي وسائل هذا الشغف ويعينني على الإحساس بعناصر الحياة وأسسها .

٢١ - كان دوسيل رجلا فاضلاً محبًا للحرية ولكن الثوار المتطرفين حبسوه في أثناء الثورة الفرنسية الكبرى فصرخ متعصًا قائلا : أهذا جزاء خمسين سنة قضيتها في مناصرة الفضيلة والحرية ؟ وهذا يذكرنا غيظ بارناف عندما ساقوه إلى المقصلة « الجيولوتين » كي يعدم وكان من الذين ناصروا الثورة من أول نشأتها ونشأته فدق الأرض بقدمه من الغيظ وقال : أهذا جزاء مناصرتي للحرية وعملي على تحقيقها . ويذكرنا أيضًا غيظ كاميل ديمولن وهو من أوائل المنتصرين للحرية عندما ساقوه إلى الإعدام فمزّق ثيابه من الغيظ وقال للجمهور : ألست أول من دعاكم إلى الثورة على الاستبداد ؟ وكان الجمهور يهزأ به ويضحك ويسخر منه . وكم من إنسان في هذه الدنيا يفعل كل مافعل هؤلاء ويحس كماأحسوا إذا غمط حقه ووكس حظه ووجد جزاء الخير شراً ، وجزاء العمل تثبيطًا لتضارب الآراء وتنازع المصالح . والعاقل من لا يجعل جزاءه بإظهاره الغيظ سخر الجماهير اللاهية عنه في أثناء اقتتالها على الحياة وتنازعها المنافع كما فعل هؤلاء .

٢٢ - قد علمتنى المدرسة أن التلميذ الصغيركثيراً مايعجب بما يقرأ أو بما يلقى إليه من غير فهم أو إدراك للمعنى . وإنما هو يلتذ بإحساسه وخياله . أو بالإحاء أو قدوة من يقول أنه فاهم أو يدعى الفهم أو يخشى أن يتهم فى عقله .

٢٣ - ماتت جدتى وأنا صغير وبالرغم من خيبة أملى عندما سمعت العصافير تغنى وكل شئ فى الدنيا كان كأن لم تمت جدتى . فإنى كنت أحس إحساسا غامضًا أن جمال الأشجار وبهاء السماء وأصوات الأحياء أمور كلها متصلة بما يسمونه الموت وبه يتجدد .

٢٤ - لابد أن نتخلى عن كثير من أمور ماضى العالم ولكن ينبغى أن لانتخلى عنها كلها وأن نكون فارغى القلوب والعقول منها . لأننا لانستطيع بناء المستقبل إلا بمادة الماضى .

٢٥ - من أهم أسباب سعادتى أنى كنت دائمًا إذا رغبت فى شئ وأعوزنى الحصول عليه واستعصى علىّ ، لا أكيد نفسى بالحزن والغيظ لفواته بل استعيض عن ذلك بأن أتخيل أنى حصلت عليه وحزته وتمتعت به . وقد أكسبت هذه العادة تخيل التمتع به شدة فى الوضوح وأثراً بالغًا فى الاحساس ومسرة كمسرتى بالحقيقة . فكان الخيال يغنى عن الحقيقة ، ونعمة الخيال هذه لاشك فيها ، إلا أنها قد توهن قدرة المرء على العمل ولاسيما إذا كان بطبعه يميل إلى الكسل ويجنح إلى الراحة فتسبب خيبة الكسالى .

٢٦ - كنت فى صغرى عظيم الثقة بالحياة شديد الإيمان بها بالرغم مما كانت تلحقه من الشقاء والتعاسة والمصائب . ولكل إنسان نصيب من هذه الثقة بالحياة حتى بالرغم مما تلحقه بذاته من الآلام والشقاء وإن كان يرى أنه أحق من غيره بالسعادة وبالعصمة من الشقاء - والآن صرت أفرق من كلمة الغد وأخشى المقبل من الأمور والحوادث ، وقد فقدت ثقتى بها تلك التى كنت أعتز بها فى الشباب . ولكنى لا أزال أحب الحياة كما يحب العاشق عشيقته التى فقد ثقته بها .

٢٧ - كانت أمى تعظنى وتمنعنى من مخالطة الصغار المشردين فى الشوارع وتقول يا بنى لاتحسب أنّ ذلك من جناية جنوها ، وإنما جنت عليهم الحياة فصرت أرحمهم بدل من أن أحسدهم على نعمة الحرية التى فى التشرُّد . حقًا لقد علمتنى أمى من صغرى بقولها هذا أن لا أغتر وأن لا أُخْدع بقول الأثرياء السعداء أن الأشقياء إنما كانوا أشقياء بسبب ماجنوه على أنفسهم وهم إنما يقولون ذلك كى يسوغوا إغفالهم إصلاح مساوئ الحياة .

٢٨ - حبّبَ إليَّ الخيال وقراءة الكتب حياة الترهب والتقشف وامتنعت عن الطعام ، فسألتنى أمى عن سبب ذلك وقد راعها أن ترى طفلها الصغير تبدر منه بادرة الرغبة فى الزهد، فقلت إذ سألتنى يا أماه أنى أفعل ذلك كى أكون شهيراً ذائع الصيت وأطبع بطاقة أكتب فيها اسمى وأكتب تحتة « الزاهد الشهير فى الدنيا » فصرخت أمى : لقد فقد ابنى رشده قبل سن الرشد ، فقال أبى : لا تزعجى نفسك إن الدنيا ستعلمه الزهد فى الشهرة قبل أن يزهد فى الحياة ... وقد فعلت . لقد علمتنى الدنيا الزهد فى الشهرة قبل الزهد فى الحياة وما من مرة عاودتنى فيها الرغبة فى الترهب إلا جددت الحياة فى نفسى الرغبة فى مقاسمة الناس أعمالهم وأن أجد السعادة فى ذلك .

٢٩ - لو عاشت أمى لَسرَّها أن تجد أكبر فضيلة لى فى التسمُّح مع الناس ولوجدت أن أكبر نقص لى فى الشعور بهذا التسمح لأن التسمح لا تتم فضيلته إلاَّ إذا كان أمراً طبيعيا يصدر عن المرء من غير شعور بأنه يتسمح ومن غير اعتداد به .

٣٠ - إن للأطفال منطقًا عجيبًا ولكنه مستقيم - لقد قالت جيسى الصغيرة لخالها : إنك لابدأن تحبنى يا خال ؟ قال متفهمًا : ولماذا أحبك ؟ قالت لأنى صغيرة . وكأنها تقول إن الصغير الضعيف أحق بالرعاية وإن الضعيف أحق بأن ينال مايحتاج إليه ، ووجه الخلاف فى هذا المنطق أن الإنسان لاينال دائما فى هذه الدنيا ما يحتاج إليه . ولكنه خطأ طبعى من جيسى الصغيرة لأنها لاتعرف الدنيا ونظامها .

لم يتسع هذا المقال إلا لنظرات قليلة من كتاب واحد من كتب أناتول فرانس العديدة وهو القصة المسماة « كتاب صديقى » .

« للبحث بقية »

(٦)

تكملة نظرات أناتول فرانس [١]

١ - كان جان ايلو (السَّماك) قليل الكلام ولكن كلامه كله كان مقصوراً على ذكر المصائب ووصفها كمصائب أقاربه الذين أبتلعهم البحر وهم يصطادون السمك . وعلى كثرة ذكره المصائب ؛ لم أجده إلا وادعًا مطمئنًا كأنما يجد فيها كلها خيراً ؛ لأنها أمرٌ مُقدَّر - وهذا السماك الجاهل يذكرنى حكمه جويتى كبير أدباء الألمان التى وصل إليها بالثقافة ورياضة النفس بعد العهد الذى أسماه عهد العاصفة والشدة وهى قوله : الرجل السعيد هو الذى يطمئن إلى مايريده القضاء كأنما هو الذى يريده ويرغب فيه إذا كان أمراً محتومًا . وقد وصل جان ايلو إلى مثل هذه الحالة بالطبع والغريزة أو العادة .

٢ - وكانت خادمتنا ميلانى تمر كل يوم عى صاحبات الدكاكين ، ويشوقها أن تحادثهن. وكان كل حديثهن مقصوراً على ذكر الأسقام والأمراض وأنواعها ، وآلامها وأوصافها ، كأنما فى وصفها لذة لهن . فإذا انتهين من حديث الأمراض ولجْنَ فى حديث الجرائم التى تقشعر منها الأبدان - وهكذا تُرفِّه الحياة عن بعض الناس حتى بأنواع غريبة مألوفة من أحاديث النكد والفزع والرعب.

٣ - يتَّفقُ فى بعض الأحايين ؛ أن يتنافر زميلان فى كل أمر ،وأن يختلفا فى كل شئ وأن يتشاجرا فى كل خلاف . ومع ذلك ، تكون بينهما رابطة وثيقة ، وصلة متينة ، وألفة دائمة أساسها هذه المشاحنة التى تصير ديدنا لايستغنيان عنه وعادة لا تتم سعادتهما إلا بها ، ودعامتها إذا استراحا فترة من المشاحنة اتفاقهما فى أمر واحد كالسخر بمن عداهما من الناس.

٤ - كان فى طريقنا حانوت على بابه صنمان قد علمتنى أمى أن أراهما يبتسمان إذا أحسنت السلوك ، ويعبسان إذا أسأت وكانت أمى تقول : اعمل خيراً تبتسم لك الدنيا - وتَوهُّمى ابتسام الصنمين وعبوسهما من الإيحاء النفسى ، ولكنه مؤسس على حقيقة ، وهى أن المرء إذا كان راضيًا عن سلوكه وعمله سُرتّ نفسه فتنعكس أشعة سروره على مرآة الدنيا .

---

١ - المقتطف سنة ١٩٤٨م ، المجلد ١١٢ ، الجزء الرابع ، أول أبريل سنة ١٩٤٨ م ، ص ٢٤٩ - ٢٥٦.

٥ - قالت بلقيس : ان سكرة الفزع تسرى فى أوصال جسمى ليلا ، فإن للخوف أو الفزع لذة فى بعض الحالات . وهذا يذكرنى قول لفنجستون الرحالة المستكشف وقد أوقعه أسد على الأرض ووضع قدمه عليه ، وكاد يفترسه ويقضى عليه لولا أو رجلا قتل الأسد : فقال لفنجستون : إنى كنت أشعر بذهول لذيذ من الخوف . ولعل هذه اللذة فى الخوف ، من الأساليب التى تخفف بها الحياة فى بعض الأحايين ويل الآلام والمصائب . وربما يعترى مثل هذا الذهول كثيراً من الحيوانات التى تكون فريسة وطعمة لغيرها . ويذكرنى هذا قول بيرون الشاعر الإنجليزى أن من رحمة الحياة : أن الإنسان لايستطيع أن يتحمل إلا قدراً محدوداً من العذاب ، فإذا زاد العذاب أغمى عليه ، أو هلك . وهو فى الحالتين لايحسه- ومما يذكر عن الجنود أن أشد الجروح قد لاتصحبها آلام فى بعض الحالات ، أو تصحبها آلام أقل من آلام الجروح الخفيفة .

٦ - كان لى صديق اعتزل العالم وعود نفسه أن لايفكر ولايعمل خشية أن يكون لفكره أو عمله عواقب من الشريصيب الناس ولايتوقعه فقلت له : أن امتناعك هذا قد يجلب الشر أيضًا وليس الفكر والعمل والقول مايُقْصر عليه مصير الإنسان والتحكم فى حياته فإن حصاة صغيرة تنسلخ من جبل قد تكون لها عواقب كثيرة غير متوقعة وامتناعك عن العمل قد يتخذه أناسًا طريقًا للخير والهداية فيقاتلون من لايعتنقها . قال صديقى فلابد إذا أن يموت الإنسان حتى يسلم من عمل الشر . قلت : إحذر من قولك هذا فإن موتك أيضًا عمل ، وكل عمل قد تكون له عواقب من الشر غير متوقعة .

٧ - زار جان سرفيان بيت صديقه ادجار ورأى مظاهر الترف والنعيم فشعر بنقص ووضاعة وسألته أم صديقه قائلة : ما صناعة أبيك ؟ قال مستخذيًا أنه مفجَلِّدٌ للكتب وأحسّ بالغيظ والنقمة على أبيه الذى اختصه بكل ما استطاع . وود أن لايراه أبداً من الغيظ والحنق والشعور بالذلة وكل ذلك بسبب زيارة قصيرة لبيت الترف وهى زيارة لاتنفعه كما نفعه أبوه - وهذا يذكرنى اعتراف جويتى كبير أدباء الألمان أنه فى أحلام اليقظة كان يجول فى خاطره أن أباه ليس الرجل الذى رباه بل أن أمه حملت به سفاحًا من أمير جليل الشأن . ويذكرنى أيضًا قصة من قصص جى دى موباسان سمح فيها فلاح فقير لرجل غنى عقيم لزوجه العاقر أن يَتَبَنّيا ابنه وأن يربياه وكان جاره قد رفض ذلك مستعزاً بابنه فلما كبر الغلام الذى ربى فى النعيم وترعرع وزار القرية ، ورآه الغلام الفقير المستعزُّ به حقد على أبويه حرمانه من هذا التبنى فى

كنف النعيم ولعنهما وهجرهما وهما فى حاجة إليه فى كبرهما - وهكذا الإنسان ينسى فضل أقرب الناس إليه إذا غلبته الأثرة والغيظ والحسد والطمع .

٨ - وكان جان مغيظًا محنقًا وأحس برغبة فى أن يرى إنسانًا أو جماداً - أو حيوانًا - يشبع منه نهمة غيظه وكرهه وقسوته - وهكذا الإنسان قد ينكل بمن لم يكن سبب غيظه إذا استشرى الغيظ وتملكه الغضب وفارقه الإنصاف ونزل إلى مرتبة الجنون أو الإجرام أو البهائم أو مادون ذلك .

٩ - قال الأب سرفيان : تعلّم يا بُنى واشتهر ولا تخش عندما تصير وزيراً أن تجلب لك المعرة بوضاعة أصلنا فإننا نختفى أنا وعمتك فى قرية صغيرة فغضبت العمة ، وأبت إلا أن تدبر أمور منزل ابن أختها عندما يتعلم ويشتهر ويصير وزيراً وألحت على أن تدير شؤونه وشاحنت أخاها وشاجرته كأنما كانت تعاركه فى أمر قد حصل أو هو قريب الحدوث وهكذا الناس فى حماقتهم يتطاحنون حتى على الخيال أو المحال .

١٠ - قد يتسامح المرء فى الاختلاف العظيم إذا اطمأنت نفسه إلى عقيدته أو عرف أن خصمه لا يستطيع السموق بفكره والتسامى برأيه إليه كى يلم به ويستوعبه كما كان يصنع الراهب لوبجمار مع من ينتقد دينه وعقيدته ، ولكنه قد يدركه الغيظ إذا خلط مناقشه ووضعه فى طائفة ليس منها وبينهما فى العقيدة والطريقة فرق قليل إذا كانت بين الطائفتين منافسة . وهكذا كان يغضب الراهب لوبجمار إذا نسبه أحد الناس إلى طائفة من الرهبان غير طائفته وكان يقول إن الرجل الذى لايستطيع التمييز بين الطائفتين لايستطيع أن يرى الذبابة فى اللبن وهذا يدل على أن الطوائف المتقاربة قد تكون أشد تباعداً ونفوراً بسبب قلة الخلاف بينهما كما يدل على أن الإنسان غريب الخلاف لنفسه فيتسامح فى الأمر العظيم ويتحامق فى الأمر الصغير فى بعض الأحايين .

١١ - إنك إذا اغتفرت لإنسان ذنبًا وكان اغتفارك ذنبهُ على سبيل الاحتقار له والزراية عليه والإزراء به والإصغار لشأنه والتهوين من أمره ، فإنه قد لايغتفر لك صفحك عفوك وكرمك إذا كان باعثك على ذلك الازدراء والاحتقار ، وإذا عرف أن هذا كان باعثك . وهذا بالرغم من استفادته من اغتفارك ذنبه والصفح عنه .

١٢ - قد يثير وقار المعاتب الذى لايقبل الجدل من الغيظ أكثر مما تثيره ضجة المخالف الصاخب الذى يقبل الجدل ويقابل الصخب فيهبصخب مثله : لأن الأمر قد ينتهى عند ذلك ولا

يختلف كبتًا ولا قهراً فى النفس مادامت ضجة المخالف تقابل بضجة مثلها أو قد تكون معاودة بعد مثل هذا الخصام إلى الألفة والعشرة . أما وقارُ المخالف الهادئ الذى لايقبل جدلا ولا صخبًا فلا حيلة فيه ولا سبيل لدفع لومه وقد يسبب القطيعة والوحشة طول العمر .

١٣ - إذا ثار ثائر وخاب وهزم عُدَّ مجرمًا عاصيًا . أما إذا ظفر ونجح عد حاكمًا شرعيًا - قوله الشريعة والقانون وأعداؤه هم المجرمون - فلو أن يوليوس قيصر هزم بعد عبوره نهر روبيكون فى زحفه عى روما ، ولو أن نابليون بونابرت خاب وقتل يوم انقلاب بروميير عندما ثار على الجمهورية الفرنسية الأولى ، لعُدَّا الآن من المجرمين ولم تعرف شرائع وقوانين باسمهما .

١٤ - فى بعض الأحايين تستغل حكومة السلطة فى الحكم فيخاف الناس أن تسقط إذا تعوّدوا تتابع الحكومات المستغلة فتأتى بعدها حكومة شر منها . وهذا يذكرنى قصة أمرأة عجوز كانت تذهب كل يوم إلى بيت العبادة كى تدعو ربها أن يطيل حياة الطاغية الذى كان يحكم بلدتها سرقوزة ، فعلم بها وأرسل فى طلبها فلما مثلت بين يديه سألها لأى أمر تدعو له كل يوم بطول العمر . فقالت أخشى إذا مت أن يخلفك من هو شر منك . ويذكر هذا بقصة الجريح الذى سقط الذباب على جروحه وامتص دمه فأشفق عليه رجل وأراد أن يبعد الذباب عنه فرجاه أن يتركه ؛ لأن الذباب الواقع على جروحه كان قد شبع من دمه فإذا أزاحه عنها حل محله ذباب لم يرتو من دمه بعد فيكون هو الخاسر .

١٥ - كانت فلسفة روسو مؤسسة على أن الإنسان بطبعه مخلوق خير طيب فاضل ، وهى عقيدة لايعتنقها إلا من لايستطيع الضحك ولا الابتسام . وقد ظهر تناقضها عندما اعتنقها ساسة الثورة الفرنسية الأولى وحاولوا تطبيقها فقد كان روبسبيير يحسب أنه من المستطاع أن يبلغ الإنسان كمال الفضيلة ، فاشترك فى حكم الإرهاب كى يبلغ به حد الفضيلة ، فاضطر إلى الإكثار من استخدام القتل عقوبة . وهكذا كل سياسى عظيم التفاؤل بهذه العقيدة يبدأ بقتل بعض الناس ، ولو تُركَ يصنع مايشاء لقضى علي الناس جميعًا أو على أكثرهم .

١٦ - من العجيب أن كثيرين يضعون الإنسان فى فصيلة تشبه فصيلة القرود ، ثم يغضبون إذا رأوا خصاله تشبه خصال القرود .

١٧ - إنما كتبت قصة الثورة الفرنسية كى أوضح أن الإنسان لم يبلغ من الكمال حداً يمكنه من أن يكون عادلا إذا عاقب بدعوى مناصرة الفضيلة . فالرحمة إذا أقرب إلى العدل ولن يتم

عدل الإنسان إذا نظر إلى جانب العدل وحده وأهمل جانب الرحمة - ولكن الناس تثور وتقتل وترتكب الموبقات بدعوى مناصرة الرحمة أيضًا وإزهاق مايخالف مبدأها .

١٨ - قرأ لنا معلمنا المسيو كروتو قصة مارسياس الإنسان الحيوانى الذى أراد أن ينافس أبولون رب الفنون الجميلة فقهرها أبولون وقتله وسلخه ، فارتعت ووجمت ولم أعرف كيف أُسَوِّغُ قسوة رب الفنون الجميلة إذ سلخ خصمه ، وأَخْلِقْ بمن كان رب الفنون الجميلة أن ينزه نفسه عن هذه القسوة وأن ينزه الناس عن قدوتها ، وإلا فبأىّ شئ تكون تلك الفنون جميلة إذا لم ينَزِّه نفسه ، ولكن عندما تذكرت أن صورة مارسياس تشبه فى خيالى صورة معلمنا كرتو الذى كنت أمقته ، سهل على أن أغتفر لأبولون قسوته - وهكذا الإنسان يسوغ الشر إذا وقع بشبيه من يكره ولا يرى القسوة قسوة إذا قاساها من يعادى أو شبيه من يعادى.

١٩ - أستطيع أن أقول قول روسو أنى لا أكذب إلا لتأييد الحق - وإذا استرسل المرء فى هذا المنطق استطاع أن يسوغ كل شر بدعوى تأييد الحق أو تأييد ما يخال أنه الحق وإذا لم يتضح له ولم يتحقق بما لا شك فيه أنه الحق .

٢٠ - كان من سوء حظ جان سرفيان وهو عائد إلى منزله أثناء ثورة الكوميون فى باريس أن قابل بعض الثوار تقودهم امرأة ورأى الثوار أن جنود الحكومة يقتربون فأرادوا الفرار فقالت المرأة نقتل هذا أولا وأشارت إلى جان ولم تكن تعرفه ولم يكن له ذنب بل كان من حزبها أو يميل إليه . لكن المرأة استهواها حب سفك الدماء فأطلقت عليه الرصاص ووقفت ترقص على جثته - وعدل هذه المرأة أو ظلمها مثل عدل أو ظلم كثير من الناس وإن ظهرا فى مظاهر أخرى، إذ أن من عادة الناس أنهم يتكلمون أولا ثم يبحثون وقد لايبحثون .

٢١ - كتَّاب الاعترافات يغالطون أنفسهم ويغالطون الناس إذ يزعمون أنهم لم يخفوا عن القراء شيئًا من حياتهم وأفعالهم وخصالهم وخطرات نفوسهم . إذ أن هذا الاعتراف الكامل أمرٌ لن يستطيعه إنسان ، ولم يستطعه جان جاك رسو ، بالرغم من صراحته فى اعترافاته وذم نفسه والإساءة إليها .

٢٢ - أعظم فائدة تفيدها حقائق الحياة أنها أساس يبنى الناس عليها آمالا للحياة ليست فيها .

٢٣ - مما جعلنى أغتفر للحياة آلامها أنى قرأت قصة لكاتب وصف فيها أناسا لايغضبون ولا يحزنون ولا يألمون ولا يشتهون ولا يحبون فرأيت أنه قد محا السرور والسعادة والجمال والشعر والفنون عندما محا آلام الحياة ومكارهها .

٢٤ – كنت فى صغرى أحب أن أتودَّد إلى أقرانى فيعترينى الحياء فلايكون جزائى إلاَّ السخر ، لأن الحياء يبعث على الإحجام عن التودُّد والارتباك والتردد فيه فلا يكون نصيب صاحبه إلا السخرمنه والانصراف عنه – وقد يخال ما به الكبر والصَّلَفَ والزهد فى الناس والتعالى عنهم – وهذا إذا لاقى من هو أكثر منه جرأة ، فإذا قابل من هو فى مثل حيائه كان نصيبه أيضًا الاهمال والانصراف عنه ، فالناس كثيراً مايسيئون الظن بصاحب الاحتجاز والاحجام عن التقرُّب إليهم من حيائه وخشية أن يكون نصيبه فى تقرُّبه منهم النفور منه أو الاهانة أو السخر أو الازدراء ، فكم منع الخوف من هذه الأمور من مودات وألفة وتفاهم . والناس معذورون إذ أن صاحب الحياء يشعر بنقص من أجله وقد يستره بالكبر ، وقد يغالى فيستره بالخشونة والتجهم فى معاملة الناس .

٢٥ – ربما كان أشد الناس اضطهاداً للناس هم الذين قاسوا آلام الاضطهاد وثاروا عليه ولكن معاناتهم له لا تعظِهُم والمعروف أن الذين يريدون أن يغيروا نظم الحياة كما يشاءون يأبون على غيرهم أن يريدوا ما أرادوا ، وقد يغالون فى ذلك .

وقد كان أحد أعضاء مجلس الشيوخ يرتعد إذا رأى شبانًا فى مظاهرة سلمية ، ويود أن يستخدم الشرطة النار والسلاح لمنعها . وهذا الشيخ كان فى شبابه عضواًفى كل جمعية سرية ثورية ، وزعيمًا فى كل ثورة . ومن الأقوال المعروفة : أنك إذا أردت أن يتخلى ثائر عن حدته فاجعله وزيراً فإنه يصبح من المحافظين ، إذ أن مسؤولية الحكم ونظرته إلى الأمور تَدْعُوَانِه إلي أن يرى من الأمر مالم يكن يرى قبل قيامه بأعباء الحكم .

٢٦ – كثيراً مايحدثك محدِّث فيقول سنرى قريبًا تغيراً كبيراً فى نظم الحياة وسننها ولكن الأمور لاتتغير إلا ببطء – ومادام الإنسان إنسانًا فإن طبائعه وغرائزه التى نشأت ونمت ورسخت فى مئات الآلاف من السنين لاتتبدل إذا تبدلت إلا ببطء ، فمثل الإنسان إذا غير نظام حياته وحسب أنه غير طباعه أو نسخها مثل من يغير ثيابه ويحسب أنه قد غير نفسه، وليس معنى ذلك أن نظم الحياة لايحسن أن تتغير فقد قال أناتول فرانس فى مكان آخر أن نظم الإنسان وشرائعه وقوانينه كثيراً ماتكون مؤسسة على القسوة والظلم والمحاباة ، فإذا لم تنظف من حين لآخر كانت كالحجرة المظلمة المهملة تحت الأرض تربى فيها الحشرات وتغزل فيها العناكيب خيوطها وبيوتها فليس لها إلاَّ المكنسة .

٢٧ – الغريزة فى الفن كالغريزة في الحب ، هما الدليل الذى يعتمد عليه : فإذا فارق الإنسان غريزته فى الفن كان كالسمك الذى أخرج من الماء لاتطول حياة فنه بعده .

٢٨ - إن الأفكار الغالبة على الجنود وإن كان بينهم أبطال أفكار بعيدة عن البطولة وكذلك نزعاتهم مثل الإقدام على العدو خوفًا من أن يبيدهم إذا نكصوا وولوا الأدبار أو مثل خوفهم من العار والتعبير إذا أدبروا وجبنوا ، أو مثل اتقاء العواقب المتنوعة غير المعروفة للهزيمة إذا انهزموا خوفًا ، أو مثل الخوف من الحكم بالإعدام على من يفر هربًا أو حتى مثل الخوف من الخوف . فإن الخوف من الخوف قد يؤدى إلى مظاهر الشجاعة والبطولة ، أو لأن الإنسان سريع الاستجابة للإيحاء ، فإذا وضعت فى يديه سلاحًا أحس بميل إلى إدخاله فى بطن ما .

٢٩ - كثيراً ماتصدر عن المرء أعماله وأقواله كأنها آتية إليه من خارج نفسه ، وإنما هى من استجابته لأمور الحياة واندفاعه فى تيارها . ومن أجل ذلك كثيراً مايكون المرء أعظم أو أحقر من نفسه أى من المألوف منها فى حياته .

٣٠ - من فوائد العمل أنه يصرف المرء عن التفكير فى آلام حياته وعن الأفكار التى قد تستحوذ على العقل والنفس وتستعبدها فتكون مثل الجنون وهو يشيع الغرور فى الإنسان وقد يوهمه القدرة على مغالبة القدر ويلفت المرء عن مقدار عجزه فى أمور كثيرة .

٣١ - صديقات عقيلة برجريه أرغمنها على ترك زوجها وكانت قد خانته وقبلت وهى تحتقره فى سرها ، لأنه هو المظلوم ، أن تغتفر له لومه أياها وأن تصالحه وتبقى معه . ولكن صديقاتها أبين إلا أن تترك بيته صيانة لكرامتها بعد أن اتهمها فى شرفها ، وكن يظهرن مؤازرتها ومناصرتها ، وإنما كان مقصدهن الذى أخفينه رغبتهن فى التخلص منها وهى ثقيلة لديهنّ رعناء ، وقد تَفْضَحُهُنّ برعونتها وحماقتها ، فكان كيدهن لها يلبس لباس المناصحة والمؤازرة ، كما أنهنّ كنّ يكرهنَ زوجها لأنه رجلا مفكراً وكن يسئن به الظن من أجل ذلك .

٣٢ - إن خلق عالم جديد ربما كان أسهل على المرء من فهم نفسه فهما كاملاً على سبيل التقصى من غير أن يفوته شئ من حقائقها .

« للبحث بقية »

(٧)

خاتمة نظرات أناتول فرانس [١]

١ - ذهبت إلى أمى وأنا طفل صغير وقلت لها : إن عاشق خادمتنا ، جوستين قد هجرها فنظرت إلىّ وقالت : هل هى التى أخبرتك بذلك ؟ قلت : لا ولكنى لاحظت وعرفت . قالت : إن من التطفل المعيب أن نتحدث عما قد نلاحظ من أمور الناس ، وأشد منه عيبًا أن نحاول معرفة ماليس من شأننا من أمورهم ، أو أن ندعى تلك المعرفة .

٢ - ورأيت قصة تُمثَّل فى دار التمثيل ، وكان أحد الممثلين يمثل الشيطان ، وكان من حوادث القصة أن يقتل بطلها الشيطان ، فلما رأيت الشيطان مقتولا اعترانى الوجوم والذهول وظللت فى مكانى بعد انصراف النَّظّارة المشاهدين حتى جاءت سوزان تبحث عنى فقالت مالى أراك واجمًا حائراً ؟ قلت : لقد قتل الشيطان ياسوزان وإذا قتل الشيطان زالت الشرور ، وإذا زالت الشرور زالت الفضائل التى فى مكافحة الشرور وبها تُعْرفُ ، فماذا يكون مصير الناس عامة والفضلاء خاصة ياسوزان ؟ فضحكت سوزان وطوقتنى بذراعها وقالت لاتقلق فكرك ولا تزعج نفسك فإن الذى رأيته تمثيل لاحقيقة فلا قتل الشيطان ولازالت الشرور لا امحت الفضائل التى فى محاربة الشرور وبها تعرف . وهذا يذكرنا الذين يخشون إذا أمن الإنسان الفقر والجوع والعرى والمرض أن تضعف غرائز المقاومة فيه وعزائمه التى بها ارتقى بسبب الكد كى يأمن الجوع والعرى وبسبب إعمال فكره لتجنب الفقر والمرض ، فيضعف عقله أيضًا ، ولمثل هؤلاء يقال : لاتجزعوا ولاتزعجوا أنفسكم ولاتقلقوا بالكم ، فلازال الفقر ولا المرض امحى ، ولاقضى على الجهل .

٣ - كان اعتمادى فى الهروب من المدرسة وأنا صغير على الفوضى التى تخالط نظام الحياة مهما كان النظام سائداً . وهذه الفوضى المخالطة للنظام قد تلطف من ظلم الحياة وشدة العدل - أو قد تزيد ظلمها - والإحساس بهذا الاختلال الملازم للنظام ، قلما يكون إذا كان المرء راضيًا عن الحياة . والإطمئنان إليه كما فعل أناتول الصغير لذة وسعادة تحجب عنه الخوف من عواقبه ؛ إذ أنه يرى أنه قد يُلطف شدة الحياة . وهذه الفوضى الملازمة للنظام تكثر فى أعقاب دول الأمم التى قاست عصوراً طويلة من الاختلال أو فى أوقات الانقلاب .

---

١ - المقتطف سنة ١٩٤٨م ، المجلد ١١٢ ، الجزء الخامس ، أول مايو ١٩٤٨ م ، ص ٣٢٩- ٣٣٥ .

٤ – ينبغى للإنسان إذا اعتنق رأيًا أن يقبل نتائجه وعواقبه القَصِّيات وإلا كانت مقدِّمات أفكاره تخالف أعقابها واختل منطقة وحاول التوفيق بين المتناقضين وقد يخدع الناس وهو لايشعر بهذا الخداع ، وهذه الفكرة تذكرنى أنى قرأت مقالين للأستاذجوليان هوكسلى فى أولهما يأسف إذ أن شركات الاحتكار وكبار الماليين تتخذ من نتاج العلوم فى الطب والهندسة وغيرهما وسيلة للكسب بدلا من أن ينتفع به الشعب كله إلا فى حالات الأوبئة التى يخشى منها كبار رجال المال على أنفسهم وإلا فى مجهود الجمعيات الخيرية الضئيل ولكنه لم يفسر كيف يستطاع منع احتكار نتاج العلوم للكسب تفسيراً مفصلا مقنعًا إلا بقوله تنشأ لجنة علمية مشرفة . وفى المقال الثانى يقول إن الحروب لاتزول إلا إذا كانت هناك تربية دولية تحاول أن تقضى على غرائز الكره والانتقام والحسد والاقتتال وغيرها ، ولكنه لم يفسر تفسيراً عمليًا مقنعًا كيف يقضى على هذه الغرائز ونظام المنافسة يحييها ويزيدها تمكينًا كلما حاول المعلم محوها بالوعظ ، هل صحيح ماقال نيتشه الفيلسوف الألمانى إن الإنجليز يحجمون عن تتبع أفكارهم إلى نتائجها القصيات أم أن هذه صفة أكثر المفكرين من كل أمة إذا غلب عليهم الفكر وخشوا من غلبته أن تزعزع ثبات حياتهم .

٥ – فى بعض الأحايين يتخذ المرء لنفسه عونًا على المصائب بأن يهزل معها أو يداعبها على سبيل الفكاهة والترويح عن النفس ، كما كان يصنع المسجونون فى سجون الثورة الفرنسية الكبرى وهم علي وشك أن يُعدمُوا فكانوا فى سجنهم يحاكون المحكمة الثورية على طريق الفكاهة والسخر فيحاكمون إنسانًا ويدَّعون اعدامه ، ثم ينتقلون به إلى الحياة الأخرى فيحاكمونه فيها . والإنسان إذا لم يستطع إلا مواجهة الأمر المخيف أحس إيحاء بالإقبال عليه، كالفتاة التى تركتها قريناتها فى حجرة مغلقة مع جثة على سبيل المزح فلج بها الذعر وأحست هذا الإيحاء حتى احتضنت الجثة وهى لاتعى ، فلما عادت قريناتها وجدنها جثة لاحراك بها معانقة للجثة . ومن المستطاع أن يفسر عمل المسجونين بأنه كان من محاكاة ميل النبلاء الذين كانوا قبل الثورة يتخذون من كل أمر جل أو حقر مادة للهو ، وشاعت هذه العادة حتى أن الملكة مارى أنطوانيت أحبت أن تعيش فى أكواخ يخيل للرائى أنها مهدمة كأكواخ الفقراء ، وإنما كان مظهر تهدمها زينة وتصنعًا بالفن فاتخذت من الفقر مادة للهو . وقصتها تذكرنا قصة محبوبة ابن عباد ملك الأندلس أو أشبيلية فإنها رغبت فى مثل هذه الرغبة ؛ لأنها اشتاقت حياتها الماضية ، فبنى لها ابن عباد كوخًا إذا رأيته حسبت أن أرضه من الطين كأرض أكواخ الفقراء ، وإنما كانت أرضه من العنبر الغالى وأمثال هذا اللهو بكل شئ تكثر

مؤذنة باضمحلال الدول . على أن لهو المسجونين فى سجون الثورة كان دليلا على الشجاعة أو لاستثارة الشجاعة فى نفوسهم وقهر الخوف .

٦ - القط الأليف من فصيلة الأسد المتوحش وكذلك الإنسان المهذب الخير من فصيلة الشرير الأثيم . والوديع المسالم المتحضر من فصيلة الهمجى الساطى ، ولكننا ننسى ذلك حتى تبدر بادرات الغرائز الكامنة ، والرجل الواحد قد يكون فى معاشرة إنسان مهذبًا كاملا خيِّراً وفى اتصاله بإنسان آخر شريراً دنيئًا خبيثًا . وفى الثورات والحروب ينضو المسالم المتحضر الوديع لباس الحضارة والوداعة والمسالمة وقد يبذ المُسَمَّيْنَ بالمتوحشين فى قسوتهم وهمجيتهم . ولكن القسوة والهمجية قد تكونان ظاهرتين حتى فى أثناء السلم فى حياة الرجل المتحضر الذى يألفه أصدقاؤه وكأنهم لايرون شره وخبث طبعه .

٧ - بعض الكتَّاب إذا كتبوا للأطفال كتبًا اقتصروا فيها على لغو القول مدعين فيها أنهم أسفُّوا وهبطوا إلى مستوى عقول الأطفال ، فتكون نتيجة ذلك أن الأطفال - ولاسيما الأذكياء- يضحكون منهم ويهزءون بهم ولا أعنى أنه ينبغى التفكير النظرى ، فهذا لا تستسيغه عقول الأطفال ، ولكن الأطفال يعجبون بكتب الخيال مما ألفه العبقريون مثل كتاب روبنسون كروزو وأجزاء من الأوديسية ، ونستطيع أن نقول أيضًا كتاب ألف ليلة المهذب المنقح وأجزاء من كتاب أسفار جاليفار ودون كيشوت وأسرة روبنسون السويسرية وأمثالها ، وكتاب أليس فى أرض والعجائب يقبله الكبار كما يقبله الصغار بالرغم من سخف العبقرية فيه ؛ لأنه كأنه يعطى العقل أجازة مسلية ، وأما محاولة تلقين الأطفال النظريات العلمية فى كتب يحسب الكاتب أنها تفهمها عقولهم فهى محاولة لا يقبلونها ولايجدون فيها مسرةً إذ هى للتلاميذ الكبار لا للصغار منهم .

٨ - لا شئ أكثر خداعًا للمرء من فطنة الحواس - لأنها إما ناقصة وإما ينتفع بها المرء كى يخفى عن نفسه ما يريد إخفاءه لمنفعة عاجلة أو ميل نفسى - ولو اتضحت الأخطاء أنها أخطاء ماخدع بها أحد ، ولكن فطنة الحواس هى التى تكسوها ثوب الصواب والحقيقة فيتحامق الناس فى نصرتها والاقتتال عليها .

٩ - بالرغم من أنى رجل مسالم أحب السكينة والنظام ، فإنى أحب أن يكون فى نفس كل إنسان شئ ولو قليل من التمرد مهما كان سن ذلك الإنسان . أما الاستسلام التام للحياة فهو ركود وفناء .

١٠ - لو استطاع الإنسان أن يدرس نفسه دراسة تامة وأن يعرفها حق المعرفة لسببت له تنغيصاً وشكّاً ويأساً . ومن أجل ذلك أرى أن رسائل مونتانى الذى كان يدرس فيها نفسه لم تكن إلا لهواً يتسلى به كى ينسى آلام وجع الكلى الذى انتابه ونغصه - ولكن أناتول نسى ماقال مونتانى وهو أنه كان يدرس فى نفسه نفوس الناس ولاسيما من حوله ومن كان يقابلهم. فى مثل هذه الدراسة نجد تعزية لا تنغيصاً مادام يرى غيره شريكاً له فى صفات نفسه بل ربما كان فيها أكبار لنفسه .

١١ - مهما قسمنا العمل قسمة عادلة بين الناس فإنه سيظل عبئاً ثقيلا على أكثر الرجال والنساء ؛ لأنه عبء الحياة ، وهذا لايمنع من إنصاف المثقل بأعباء الحياة والترويح عنه .

١٢ - إنه ليؤلم الإنسان إذا كادت حياته تنصرم أن يفكر فى أن العالم بعد موته يعيش ويعمل ويحس ويفكر كأن حياته لم تكن ، وعندئذ لايكون له رأى أو عمل أو إحساس فيها ولايحاول تنظيمها كما يشاء فهو يحس كأنه غارق فى مد الحوادث وتيار الزمن . وقد عزاه شوبنهور بأنه ماهو إلا مظهر من مظاهر إرادة الحياة وأنه لا حياة له من غيرها ، أى عزاه فى كتبه وهى تعزية لا تعزي .

١٣ - كما أن الطبيعة تحول الإنسان وتشكله وتغيره وتتحكم فيه . فالإنسان كذلك يغير الطبيعة ويشكلها ويحورها وهذا موضوع كبير يرجع إليه فى كتب فون راتزل ، ومس سميل، وفير جريفز وغيرهم . وقد أراد أوسكار وايلد أن يضع هذه الحقيقة فى أسلوب فكاهى فقال : إن الطبيعة تحتذى ألوان الرسامين المصورين الحديثين فى ألوان الضباب الذى يحدث فى لندن . وإننا ما كنا نرى للضباب مثل هذه الألوان قبل احتذاء الطبيعة ألوان الرسامين الحديثين . ومما هو أبلغ فى الفكاهة أن ماكس نورداو الناقد الألمانى الشهير أخذ هذا القول مأخذ الجد فقال إن هذا الرأى يدل على سخافة عقل أوسكار وايلد وانحطاطه وقوله هذا فى كتابه المسمى (الانحطاط) ، ولكن ماكس نورداو معذور إذ أن بعض الكتاب لاتكاد تستطيع أن تميز فكاهته من جده .

١٤ - حقّاً إن للعقل أثراً فى الجسم كما أن للجسم أثراً فى العقل « وهذا شئ يعرفه الأطباء حق المعرفة وهو موضوع كبير أيضًا » وقد كان بيير الصغير يدمن النظر فى صور المزارع فتعاوده ذكرى الأيام التى قضاها فى المزارع وعاد بعدها نضير الوجه بضّ الجسم ظاهر الصحة يقبل على طعامه وينضر وجهه ويعاوده مظهر الصحة إذا أدمن النظر فى صورها وتأملها تَأمُّل المستملى محاسنها فكأنه عائد من نزهة ريفية .

١٥ - إن شغفى بقراءة الكتب من صغرى جعلنى أحسّ من عهد ذلك الصغر بفناء العالم: إذ كم من فكرة جاءت ثم زالت وكم من رأى ولد كى يموت ، وكم من نظرية استحدثت كى تنمحى كما تنمحى الفقاقيع وكم من مذهب ساد ثم باد ، وبعد أن كان مقبولا صار مرفوضًا ، فصرت أحس برحلة عقل الإنسان فى فيافى الزمن .

١٦ - كان لى كلب كنت أتأمله وهو نائم يحلم كأنه فأراه ، وتارة يئن كما يئن المتوجع المهموم ، وتارة يبسم وكأنه يضحك وتارة يبكى فكأن له نفسًا يقظى ووعيًا باطنًا كما للإنسان - وهذا يذكرنى تورجنيف القصصى الروسى فى قصصه القصيرة التى تشبه الشعر المنثور ، إذ كان يدمن النظر فى عينى كلبه فيرى فيها عواطف الإنسانية جميعها فناداه بالأخوة وهى على الأقل أخوةٌ فى الحياة .

١٧ - قال لى أنطون فورنيه الرحالة متفكهًا : أحذر أن تكسر البيضة من الجانب المُحَدَّب الأصغر ، اكسرها دائمًا من الجانب المنبعج الكبير ؛ لأن قومنا يكسرونها من ذلك الجانب . قد طفت العالم فوجدت أن الناس المعروفين بالخير هم الذين يصنعون كما يصنع غيرهم حتى فى الأمور الصغيرة التافهة ، وإذا خشيت أن تنسى نصيحتى فعليك بالعزلة ، اعتزل الناس كى لايروا سهوك وكسرك البيضة من الجانب الصغير . وقد احتذى أناتول فى هذه الفكاهة سخر يونوثان سويفت الكاتب الإنجليزى فى كتاب أسفار جاليفار ، فإنه أيضًا تخَيَّل في دولة الأقزام ليليبوت حزب جانب البيضة المنبعج ، وحزب جانب البيضة المحدب وأقام بينهما حروبًا ومؤامرات وعداوات ، والموعظة فى هذه الفكاهة هى أن الناس كثيراً ما يتعادون ويتقاتلون لأسباب تافهة .

١٨ - تذكر أنك لا تستطيع أن تهب أحداً السعادة ، بأن تقهره على أن يرى السعادة فيما تراه أنت سعادة . فلكل إنسان رأى فى السعادة ، وكان يستطيع أناتول أن يقول أيضًا : إن هذا الرأى كثيراً مايتغير فتارة يرى الإنسان السعادة فى شئ وتارة فى ضده . وفى بعض الأحايين يرى السعادة فيما فيه شقاؤه وهو لايدرى .

١٩ - لابد لكل جيل أن يختبر الحياة بنفسه ؛ لأن الحياة كأنها تنشأ من جديد بنشأة كل جيل إذ أن التجارب لا تُعَلَّم وإنما يكسبها الإنسان بمزاولة الحياة ، وقد لا ينتفع بها بالرغم من ذلك ، ولعلّ ضرورة اختبار تجارب الحياة فى نشأة كل جيل من أسباب قلة تغيرها أو تغيرها ببطء .

٢٠ - بعض الناس إذا أصابه أمرٌ محزن ونفَّس عن نفسه بمظاهر الحزن احتقر نفسه من الكبر ، ولو تذكر أنه ليس أعظم من الأمر الذى أحزنه لما زاد على نفسه المصائب بهذا الكبر ، لأن احتقاره لنفسه بسبب حزنه أو المخالط لحزنه يزيد المصيبة أو الأمر الذى حزن من أجله .

٢١ - بعض حقائق الحياة قد تكون غريبة على قربها وألفتنا لها حتى أنها لغرابتها قد نعدها فكاهة لا حقيقة - وهذا يذكرنى قصة من قصص سمرست موام اشتهرت فيها امرأة بفطنة الفكاهة وذكائها وما كان ذلك إلا لأنها كانت ساذجة فكانت لا تستطيع لسذاجتها أن تتجنب ذكر الحقائق المألوفة التى يحاول الناس نسيانها ويحرجون من ذكرها .

٢٢ - المال له دولة عالمية حقيقية كبيرة قوية كدولة البابوية والكنيسة الكاثوليكية فى القرون الوسطى وهى دولة مستقلة ذات سيطرة ، ولكن كثيراً ما ننسى أن نعدها بين الدول العظمى .

٢٣ - كثيراً ما تسرف الحكومات إسرافًا كبيراً فى مظاهر الأبهة والعظمة ومناصب السياسة النائية أو غيرها ، وتحاول أن تقتصد فلا تستطيع فتوهم نفسها أن كل ذلك أمر ضرورى لهيبتها وصيانة مصالحها ، ثم هى تشكو من قلة المال الذى تحتاج إليه لإصلاح حال الناس فترهقهم بالضرائب .

٢٤ - ذوو العقائد المختلفة فى البقعة الواحدة قد يكونون أقرب أخلاقًا من ذوى العقائد المتفقة فى البقاع المتباعدة فكان الإمبراطور جوليان الوثنى يصوم ويزهد فى لذات الجسم ويعتقد التكفير عن الخطايا ؛ ويرى أن الألم مطهر للنفوس ، كما كان يصنع المسيحيون فى عهده ، ولو قارنت بين المسيحية فى أوروبا وبينها عند الزنوج لوجدت اختلافا كبيرا واختلافا فى أخلاق الفريقين .

٢٥ - بعض الناس يكره العلم من شدة عشقه له كما يكره العاشق محبوبته إذا وجد أنها بالرغم من جمالها وحسن أخلاقها لم تستطع أن تجلب له كل أحلامه وأمانيه ، وكذلك بعض الناس يكرهون العلم لأنه لا يستطيع أن يفسر كل شئ وما ادَّعى أنه يستطيع ذلك . وبعضهم يكره العلم لأن الغرائز الإنسانية الموروثة قد تستخدمه فى الشر ، والعيب عيب الإنسان لا عيب العلم .

٢٦ - الأفكار كثيراً ماتكون وليدة النزعات النفسية المتناقضة ؛ فتتناقض أفكار الإنسان كثيراً . وهو يحسب أنها غير متناقضة وقد يغضب إذ نبهته إلى ذلك ويلج فى إنكاره .

٢٧ - حسن الذوق ضرورى لأنه ينفر حتى من ليس عنده حسن ذوق فكثيراً ماترى إنسانًا قبيح الذوق يقول : فلان « ليس عنده حسن ذوق » . وهو من ضرورات الحاكم والسياسى ؛ لأنه يشمل صفات أخرى كثيرة مثل عدل المرء فى قوله وعمله وخلقه .

٢٨ - ما استطاع الإنسان أن يؤسس الحكومات إلا أنه يأمل أن يكون حاله فى غده أحسن من حاله فى يومه . وهذا الأمل يتجدد بالرغم من خيبته .

٢٩ - ليس انتشار ثورة أو نجاحها دليلا على مقدار الظلم الذى ابتعثها ، فإنه إذا كانت جماعة من الناس جائعة متبلدة العقول والإحساس من التعاسة هزيلة الأجسام لا سلاح لها إلا الغيظ والمقت كانت أضعف وأعجز من أن تزيل الظلم بثورة ناجحة . وهذا أمر معروف فى التاريخ ؛ فإن بعض الحكام كان يتعمد إيجاد مثل هذه الحالة أو المحافظة عليها كى يظل هو وأنصاره مستأثرين بخيرات الحياة والحكم . ومن المعروف أيضًا أن الثورة الفرنسية ما أستفحل أمرها لأن الفرنسيين كانوا أتعس حالا ، بل لأن تعاستهم كانت قد قلت نسبيًا عن تعاسة غيرهم من شعوب القارة الأوروبية وتعاستهم فى أزمان غابرة .

٣٠ - ربما كانت القسوة جُمَّاع الرذائل . وربما كان العنف ضعفًا لايغتفر إذ هو على الأقل ضعف الإنسان عن أن يملك نفسه وأن يحكمها .

٣١ - يصح أن نختصر وصف أسباب الخصومات فى كلمة واحدة فنقول : إننا نلوم من لايفكر كَمَنْ يفكر ، ومن لايشعر كَمَنْ يشعر .

(٨)

نظرات مارسيل بروست [١]

ينتمى مارسيل بروست إلى أسرة يهودية فرنسية نشأت نشأة مسيحية كاثوليكية . وله صلة قرابة بالفيلسوف الفرنسى المشهور هنرى برجسون ، وكتب مارسيل بروست على صعوبة قراءتها لايستغنى عنها الباحث في النفس ، وقد وجد نقاداً ومعجبين به ، فمن نقاده من ذكر أنه ينظر إلى الحياة بالمكرسكوب ، أى العدسة التى ينظر بها إلى الأمور الصغيرة . فقال بروست : إنه ينظر بالتلسكوب - أى العدسة التى ترى بها الأمور البعيدة - والواقع أنه ينظر بالأثنين معًا بالمكرسكوب والتلسكوب . ومنهم من سماه على سبيل الفكاهة مس جين أوستن الفرنسية ، يعنى القصصية الإنجليزية المعروفة ، وهذا الوصف لايشابه الحقيقة إلا كما تشابه الحقيقة الصورة الكاريكاتورية المبالغ فى بعض ملامحها على سبيل الفكاهة ، وصحيح أنه يتفق وجين أوستن فى ولوعهما بأحاديث المجتمعات والمجالس فى القصص وأن لكل منهما بصيرة سيكولوجية وأنهما قد يهتمان بالأمور الصغيرة ولكن بوست يتوغل فى الأمور السيكولوجية - أى النفسية - توغلا لا مثيل له . وقد نشأ مريضًا معتلا وقضى الثلث الأخير من حياته فيبيته لمرضه . واتهمه ناقد آخر بأنه كان فى أكثر قصصه مولعًا بحياة النبلاء والأغنياء ومن أتصل بهم من الخدم وأنه لم ير الحياة كاملة من كل وجه كما رآها شكسبير أو بلزاك أو أناتول فرانس ، ولكن ولولعه بحياة هؤلاء القوم كان ولوع الباحث لا ولوع المعجب المأخوذ بما يرى ، وإذا وصل فى بحثه إلى حقيقة سيكولوجية فإنها حقيقة فى كل النفوس بلا تمييز بين الطبقات ، وقد نشأ لاعتلاله بين النساء ، ولعل ذلك أكسبه شيئًا من أسلوب النساء فى التحدث عن جيرانهن والاهتمام بأحاديث المجتمعات مهما كانت تلك الأحاديث صغيرة وإعطاء تلك الأحاديث فى بعض الأحايين قيمة نفسية أكبر من قيمتها ، ولكن القارئ إذا صبر على قراءتها عاد بفائدة ما قد تحتويه فى بعض الأحايين من الدراسات النفسية التى تتخللها وبالرغم مما قد يعترض القارئ فيها من الملل فإن فى بعض كتبه قطعًا لا يمل القارئ معاودة قراءتها ، وقد يستطرد فى تتبع البحث النفسى استطراداً بعيداً ، وله

---

١ - المقتطف سنة ١٩٤٨م ، المجلد ١١٣ ، الجزء الأول ، ١ يونيو ١٩٤٨ م ، ص ٩ - ١٧ .

أسلوب شائق فى وصف مناظر الطبيعة والناس . وقد اعترف سمرست موام القصصى فى كتابه المسمى بـ « الخلاصة » ، أنه شعر بملل شديد فى قراءته كتاب « طريقة جرمانتيس » من كتب بروست ، وقد شعرت بمثل هذا الملل ، ولعل من أسباب الملل أيضًا أن القارئ يود أن يقرأ عن حوادث هامة ، وقصصه ليست قصص حوادث بل قصص زيارات أو أحاديث أو بحث نفسى ، أو يود أن يقرأ شيئًا من مثل فكاهة أو سخر أناتول فرانس الحيوى . وقد ذكر هافلوك إيليس فى كتابه المسمى « رقصة الحياة » وهو اسم رمزى مدحًا كثيراً لطريقة بروست فى البحث النفسى ولاسيما فى كتابه المسمى « فى الأجمة المزهرة »وأحسب أن هافلوك إيليس كان مصيبًا فى اختيار هذا الكتاب من كتب بروست ولو أن بعض المعجبين به يفضلون كتابه المسمى « طريقة سوان » ولكنى أفضل ما اختاره هافلوك ايليس وأراه أملا لنفس القارئ . إلا أنى أرى أن كاتبًا مثل بروست لاينال الإنصاف التام ولايعرف مقدار بحثه فى النفس إلا بقراء كتبه كلها إذا كان ذلك من المستطاع . وبروست يذكر أن حياة الأثرياء التى يصفها حياة تبعث الملل بالرغم من وجاهتها وزينتها . فإذا كان ذلك حقًا فهو يزيد فى براعة فنه الذى به استخلص منها الحقائق النفسية العديدة .

من نظراته النفسية ما يلى :

١ - كثير من الناس يرددون آراء معاشريهم بشغف واهتمام خاص إذ كانوا لم يعرفوها من قبل ولا يستطيعون الحكم عليها أصواب هى أم خطأ ، وإنما يولعون بترديدها وإظهار اللهفة فى ذكرها ، وقد يقنعون السامع أنها آراؤهم وأنهم قادرون على فهمها والحكم عليها .

٢ - قد يسوء رأى المتحدث فى سامعه ولكنه مع ذلك يشركه فى سماع ذم إنسان آخر غائب ، كأنما السامع خال من صفات الذم التى ذكرها ، فيسرع سامعه إلى التصديق والموافقة بشغف ولهفة وبضحك ومسرة ، كى يبعد عن نفسه احتمال الوصف بالصفات المذمومة المذكورة وهو قد يعرف أن محدثه يغتابه كما أغتاب الغائب ، ويذمه فى غيبته كما ذم الآخر . ولكن ذلك لايمنعه من مشاركته فى ذم المذموم ظنًا منه أن موافقته قد تبعد الريبة عن نفسه وتمنع محدثه عن اغتيابه فى المستقبل . وهذه منه محاولة خائبة ، ولكنها تتجدد وتبعث الأكمل والزهو والارتياح .

٣ - فى بعض الأحايين تبدر من إنسان شرير بادرة حنان وعطف أو يؤدى معروفًا غير متوقع ، فنشعر بارتياح نحوه وشكر له أكثر من ارتياحنا وشكرنا إذا كان غير شرير . لعلّ

شكرنا وارتياحنا تلهفًا إلى الاطمئنان من شره وارتياحًا لزوال توقع الشر منه أو سروراً وتعاظمًا باختياره إيانًا لعطفه وخيره وأن اختار غيرنا شره ؛ وهذا بالرغم من أننا قد نسئ الظن بالباعث الذى بعثه على الخير وهو شرير . ولعلنا لانشعر بهذه اللهفة والارتياح إذا كان العطف أو المعروف من رجل من أهل الخير ، لأن العطف أمر مفروض ومتوقع من مثله .

٤ - من طبيعة الكذب أن الكاذب مهما أتقن كذبه ، تبدر منه فلتة صغيرة فى أثناء أحكام الكذب وحبكه ، وهو يظن أن سامعه لايهتم بالتأكد من صدقها والبحث عن حقيقتها لصغر شأنها ، ولكن سامعه قد يتتبعها بالبحث ويتأكد من كذبها فتكون سببًا فى كشف كل كذبه ، وتدعو إلى سوء الظن به وسوء الرأى فيه ، وقد تطلع هذه الفلتة الصغيرة سامعه بغتة على كذبه فيفاجأ الكاذب مفاجأة غير سارة ويحاول تفسيرها وتلافيها فلا يستطيع ، وهذا كما يقال فى المجرم الذى يفكر ويتخذ كل أهبة لمنع نسبة الجريمة إليه ، ثم و بالرغم من كل تفكيره واحتياطه يترك أمراً صغيراً يدل عليه لايفطن له ويكون السبب فى كشف جرمه .

٥ - متى أقنع الإنسان نفسه أنه ذو أخلاق سامية ثم حقد على إنسان أو غضب عليه فإنه ربما استطاع أن يحمل نفسه على ارتكاب أى عمل دنئ لإشباع حقده وإرضاء غضبه إذ أى شئ لايكون مباحًا حلالا للقديس الفاضل والملك الطاهر الذى يراه فى نفسه .

٦ - بعض المهذبين المثقفين إذا أدوا خدمة أو أهدوا هدية قللوا من قيمتها وأصغروا من شأنها مجاملة وتأدبًا وتلطفًا فى العشرة ، ولكن بعض من تهدى إليه الهدية أو تؤدى له الخدمة يأخذ قوله مأخذ الجد ف، يوافقهم عليه بطريق مباشر أو غير مباشر ، أما من قبح الذوق أو قلة العقل أو حبًا للتعاظم فتكون موافقته لمن أدوا له الخدمة باعثة للامتعاض أو الغيظ ، فيمتنعون من التلطف والتجمل معه أو من أداء أى خدمة أو صنع أى معروف .

٧ - قد يمدح المادح إنسانًا ولا رغبة فى مدحه إلا للتعريض بسامعه كأن المادح يريد أن يقول لسامعه أنه ليس على صفات المدح التى ذكرها فى الممدوح ، وقد يفتن فى اظهار قصده المستتر بلباقة تمنع من صراحة المؤاخذة فيحار السامع ويرتبك ، وقد يجارى المادح فى مدح الممدوح لا رغبة فى مدحه ولا لأنه يعتقد أن الممدوح يستحق كل هذا المدح وإنما يجارى المادح خشية - إذا لم يجاره - أن يقال إنه يكره صفات المدح المذكورة فى الحديث وإنه خال منها وأنه فطن إلى التعريض به وإنه يستحق ذلك التعريض به .

٨ - كانت السيدة فيردوران لا تدعو إلى منزلها من الضيف إلاّ من يوافقها على كل رأى مهما كان سخيفًا ، على كل قول مهما كان باطلاً محالاً ، فلم يبق لها من الزوار غير المستذلين المستضعفين ، وكانت تقول لهم إن فلانة النبيلة الثرية لا يزورها الضيوف والزوار إلا لأنها تدفع أجراً كبيراً لمن يزورها على زيارته لها ، وبالرغم من أنهم كانوا يعرفون أن الناس يتلهفون ويتوقون إلى زيارة تلك النبيلة الثرية وأن قصة دفعها أجراً لمن يزورها قصة ملفقة باطلة ، فإن أمثالهم من المحرومين الذين تستذلهم السيدة فيردوران لآرائها وأقوالها كانوا يستطيعون أن يحملوا نفوسهم على نسيان الحقيقة وإنكارها ، ويستطيعون أن يصدقوا قولها على تلك النبيلة الثرية . وكان يحلو لهم ادعاء الترفع عن زيارة نبيلة تدفع أجراً لمن يزورها على زيارته كما أوهموا أنفسهم وصدقوا ، وهكذا تستطيع النفس أن تقبل المحال الباطل الذى لايخفى بطلانه ، إذا كان فيه مايرضى زهوها أو حسدها أو حقدها أو حتى مايرضى ريحاء الموحى الباطل إذا رجت من ذلك الموحى بالباطل عطفًا أو خيراً أو مايرضى أهواءها وخواطرها السانحة التى تستعز بها .

٩ - لعل من أسباب نسبة المحَدِّث عيوب نفسه إلى غيره من الناس ، التلذذ بالتحدث عن نفسه بطريقة غير صريحة ، وهى طريقة تطهره من تلك العيوب فى نظر بعض الناس كما يظن، وتعطيه لذة المعترف اعترافًا غير صريح وغير محسوس وكأنه يجد لذة فى مباشرة عيوبه التى ينسبها إلى الناس من غير أن يؤاخذه الناس على تلك اللذة ومن غير أن يفطنوا إليها ، وكل إنسان مشغول منهوم بصفات نفسه وميولها ، فتلفته تلك الصفات الى مثلها فى غيره أو يتوهم أنها لفتته ، ويقنع نفسه ويخادعها فى تلك اللفتات وهو يحسب أنه يرى الناس مرآة لنفسه فينسب إليهم مالا يزينه ، وعلاة على ذلك فإن كل سيئة فى نفس المحدث كأنها مهنة يعرف أسرارها وكل عيب كأنه حرفة يدرك خفاياها ، وكل صاحب مهنة أو حرفة مولع بالتحدث عن حرفته أو مهنته ، لأنه يعرفها أكثر مما يعرف أى شئ آخر ، كما يحلو للطبيب أن يتحدث عن الطب ، وللمعلم أن يتحدث عن التعليم ، وللمحامى والقاضى أن يتحدثا عن القضاء والقوانين ، وللنجار أن يتحدث عن النجارة ، وللمزارع أن يتحدث عن الزراعة . وكذلك صاحب السيئة والعيب ، يتحدث عنهما كأنهما مهنة أو حرفة الكلام فيهما غالب على لسانه ، ولكنه ينسبهما إلى الناس بقصد التجمل والترفع .

١٠ - بالرغم من شرور الناس وقسوتهم وتحاسدهم . فإن كل نفس بها جانب من الخير والحنان والكرم والرقة ، وقد تجده غريبًا فى النفس بين صفات تخالفه كما قد تجد الزهرة

النادرة النفيسة غريبة فى وادٍ موحش قفر مجدب . وإذا منعت الأثرة ومنع حب النفس من ظهور جانب الخير من النفس ، فإن تلك الرقة وذلك الحنان والكرم صفات موجودة مستترة فهى موجودة بالرغم من خفائها . وقد تجد الرجل الفظ الغليظ الطبع القاسى إذا قرأ قصة مؤثرة يبكى لما حَلَّ بالضعفاء والأبرياء فيها من الآلام والظلم حتى تفيض دموعه وتبلل وجهه وهو قد لايتورع فى أعمال الحياة عن أن يفعل مثل ذلك الظلم الذى أثار عطفه وأراق دموعه عندما قرأ القصة ، ولكن الإنسان إذا قسا أو ظلم سَوَّغ عمله ، فإنه يعد نفسه دائمًا عادلا مهما كان قاسيًا ظالمًا ، ويقول أن القسوة قد تكون نوعًا من الرحمة ، بمثل هذا القول يسوغ المرء اتيان مايجلب له منفعته أو يرضى نهمه غضبه بالرغم من جانب الرقة والعطف فى نفسه.

١١ - كثيراً مايقول إنسان لآخر يسرنى أن أفعل كذا كى أسرك ثم يحسب أنه قد أدى له خدمة ، أو صنع معه معروفًا ، وما يهم السامع ليس ما يدعى القائل أنه يود عمله ليسره ، بل ما يستطيع أن يعمله كى يسره . ولكن القائل يستطيع أن ينسى ذلك وأن ينسى أنه لم يعمل مايدعى أنه يود أن يعمله كى يسر السامع ويكاد يقنع نفسه أنه فى الواقع قد صنع معروفًا وأدى خدمة . والمجاملة فى الكلام محمودة ولاشك ، ولكن من غير المحمود أن يغالط المجامل القائل نفسه حتى يظن أن المجاملة تقوم مقام الحقيقة وحتى يحسب أن سامعه مدين له بالمعروف الذى يكاد يقنع نفسه أنه أداه .

١٢ - إذا وصف إنسان إنسانًا آخر أمامك بمدح أو شر ، فإنك قد لاتصدق القائل ومع ذلك تتأثر بقوله المرفوض بالرغم منك أو قد تتأثر كلما رأيت ذلك الإنسان الموصوف أو كلما فكرت فيه ، أو سمعت به أو اتصلت به أى اتصال . ولعل ذلك من طرق الإيحاء ولعل هذا التأثريكون فى الوصف بالشر أكثر مما يكون فى الوصف بالخير لأن أثرة النفس تجعلها أميل إلى التأثر بالشر إلا إذا كانت لها عند الموصوف حاجة ورأت أن الحصول عليها بأن تتأثر بوصف الواصف له إذا كان خيراً .

١٣ - إن الإنسان إذا حدثه محدث مغرم بأن يطبق على نفسه كل حديث بالخير أو الشر ، إذ أنه يفكر فى نفسه حتى ولو كان محلقًا فى سماء التفكير النظرى العام . وبعض الناس يستطيعون إخفاء هذا التطبيق إذا كان الحديث كريهًا يخفض من قدر أنفسهم ويظهرون أنهم لم يطبقوا الحديث على أنفسهم ولا صلة لهم بموضوعه وبعضهم ترى فى عينيه شيئًا من الشك والقلق وسوء الظن خشية أن يكون المحدث يريد بحديثه النظرى العام الإشارة إلى شئ فى أنفسهم لايستلمح .

١٤ - ليس الإفحام فى المجادلة والمحاجة دليلا دائمًا على رجاحة رأى المناظر الذى أفحمك. فقد يفحمك المجادل فلا تستطيع الرد والقول ، وإذا كانت آراؤه لا اتصال لها بنفسك وعقلك أو لا حقيقة لها على الإطلاق . أما المناظر اللبق فهو إذا أدلى بحجة ورأى راجح قديستطيع أن يجد جانبًا من عقلك يألف ذلك الرأى وإن خالفته فيستطيع أن يتصل بأفكارك ويلقحها كما تلقح الأشجار ومن أجل ذلك كان « برجوت » إذا ناظرنى أستطيع أن أرد عليه القول ولكن رأيه كان يلقح رأيى ويتداخل فى نفسى وكانت طريقته فى المناظرة أن يرد على قولى بما يخالف رأيى وكأنه لايخالفه إلا فى بعض الأمور دون بعضها وموضع الاختلاف وأسباب الاختلاف ، فتكون مقبولة أكثر مما تكون لو فصل بين رأيى ورأيه فصلا تامًا .

١٥ - إن سرور المرء إذا فهمه وقدره رجل ذو عقل راجح ، أقل من غيظه أو حزنهإذا لم تفهمه ولم تقدره امرأة ، كأنها لا عقل لها ولا ذكاء ، لغباوتها ، إذا كان يحبها ، فالإنسان يغتبط إذا فهمه من يحبه أكثر من اغتباطه إذا فهمه من لا يحبه .

١٦ - أن اتفاق الآراء والنظريات لايؤدى إلى تدانى المثقفين قدر مايؤدى إلى تدانيهم إئتلاف الأرواح والأذواق والأمزجة وقد يظهر المرء امتعاضًا وغيظًا إذا وافقه على رأى يستعذ به إنسان يعتقد أنه فاسد الذوق جامد الروح ثقيل الظل حتى ليكاد من امتعاضه وغيظه أن يتهم الرأى الذى شاكله فيه ووافقه عليه من يستثقل من الناس ، إلا إذا كان صاحب الرأى سياسيًا فيخفى غير ما يظهر ، لأن هم السياسى كسب الأنصار وإن كان يستثقلهم ، أو إذا كان صاحب الرأى فيه ذلك الشعور بالنقص الذى يدفعه إلى العطف على كل من يردد رأيه ويوافقه عليه ، وإن كان يخالف ذوقه ومزاجه . ومع ذلك فإن الرغبة فى احتكار الرأى لنفسه ولمن وافق مزاجه وذوقه نوع من الأثرة وحب الذات .

١٧ - كثيراً مايدعى المرء عاطفة أو يتصنع شعوراً أو يهيئ فكرة باطلة وهو يعرف بطلان كل ذلك . فإذا لج به هذا الإدعاء وألح عليه التصنع انقلبت هذه الأمور فى نفسه حقائق ومثله مثل الإنسان إذا أوحى إلى نفسه أنه مريض فلا يزال به الإيحاء النفسى حتى يكون مريضًا معتلا ، وكذلك إذا ادعى على إنسان دعوى، تستوجب الملامة والمؤاخذة وهويعرف أنها دعوى باطلة ، فإنه لايلبث أن يصير ادعاؤه حقيقة فى نفسه ، إذا لم يراجع مراجعة تؤدى إلى التفاهم.

١٨ - مما كنت أتعجب له أن « بلوش » كان كثيراً مايذم من لايستحق بعض ذمه أو كله حبًا للذم لا لسبب آخر . كما أنه كان يمدح من لايستحق كل مدحه أو بعضه وقد يختلف

تفسير هذه الظاهرة منه فلعله كان يتخذ من مدح الممدوح وسيلة يخدع بها السامع كى يقبل ذم من يذمه ، إذ أن مدحه الناس قد يبعد عن الأذهان أنه حقود سيئ الرأى فى الناس ، فإذا ذم بعضهم تلمسوا له وعذراً أ لعل التفسير أنه كان يرى فى مدح الممدوح تكفيراً عن ذم المذموم ، أو لعل الدافعين كانا يمتزجان فى نفسه أوقد يكون المدح والذم استجابة منه للحالة الغالبة على نفسه من راحة أو تعب أو حزن أو سرور أو غيظ عام يحيله على إنسان معين أو ارتياح عام يشمل به نفس إنسان آخر فيصير مدحًا وهذه الصفات كلها تشاهد فى الناس .

١٩ - كان « بلوش » يقسم ويحلف لا أملاً فى إقناع الناس بصدق الكذب الذى كان ينمقه بالقسم ، فما أظن أنه كان يأمل ذلك ، وإنما كان يقسم بدافع أشبه بالهيستريا وانسياقًا مع الشعور المتغلب على نفسه وجسمه . وذلك الدافع إلى الحلف والقسم كان يمنحه لذة شديدة فى تزيين الكذب بالحلف وتجميله بالقسم . وكان وهو يحلف يخيل لمن يراه أنه يفيض حنانًا ورقة ويذوب لطافة وإن كان موضوع الحلف يخالف كل ذلك وكأنما كان ينتشى من عذوبة الإحساس الغالب عليه والذى دفعه إلى الحلف كذبًا - وبعضهم إذا حلف كذبًا يخالف عذوبة حلف « بلوش » بالكذب فإن بعض الناس من إحساسه أنه كاذب ومن غيظه وخوفه أن يعرف السامع ذلك يحلف كذبًا وكأنه يلتهم سامعه ويقسم كذبًا وكأنه يكاد يبتلع ذلك السامع كأنه بالعنف يريد أن يخيفه فيصدقه .

٢٠ - إن بعض الناس قد يريدون أن يسمعوا من جليسهم قولا يسرهم ويرضيهم لكنهم مع ذلك يريدون أن يوهموا أنفسهم أنهم لم يحثوه على قوله ولم يغروه به ولم يلحوا عليه فى طلبه ولم يلجُّوا معه فى الحديث حتى يذكر القول الذى يريدون أن يسمعوه منه . وهكذا فعل دوق «جرمانتس » مع « سوان » عندما أراد أن يسمع منه أن صورة جده من رسم كبار الرسامين المصورين فجعل يقول له لا تملقنى أذكر الحقيقة ما رأيك فى الصورة ؟ فلما ضاق « سوان » ذرعًا قال : إنها كالنكهة الباردة والفكاهة الغثة . فلم يستطع الدوق أن يخفى إشارة تدل على الغيظ لأنه لم يظفر بالقول الذى كان يحب أن يسمعه ، بل ظفر بعكس ذلك . والحقيقة هى أن هذا الالحاح كثيراً مايشاهد فى الناس .

٢١ - قد تكون خشيتنا فقد ما نود أن نملك ولم نملكه بعد ، ولكنا نأمل ذلك فى المستقبل، أعظم من خشيتنا فقد ما قد ملكناه وتمتعنا به . ولعل هذا من أهم أسباب غيظ المرء واضطغانه إذا نال أحد الناس شيئًا لايملكه المضطغن وقد لايملكه ولكنه قد يوهم نفسه أنه ربما حاز بعضه أو كله فى المستقبل فيخيل له الوهم كأن الذى فاز به المحال أن يملكه حتى فى

المستقبل البعيد ، فاضطغانه وغيظه مؤسس على وهم الأماني الباطلة التي تجعل ما لايمكن أن يملكه كأنه قد ملكه وسلبه منه الفائز به .

٢٢ - عندما نتكلم ونسمع كلامنا ، كثيراً ما ننسى أن وقع كلامنا فى أذاننا وعقولنا ونفوسنا قد يختلف اختلافًا كبيراً عن وقع كلامنا فى آذان غيرنا وفى عقول السامعين ونفوسهم، فالأثر الذى نظنه لكلامنا فى آذان غيرنا يكون فى هذه الحالات أثر كلامنا فى آذاننا وفى عقولنا ونفوسنا ، وننسى أن السامع قد لايصله كلامنا إلا من وراء حجاب نفسى وعقلى أو جثمانى كما يسمع المرء كلام من يحدثه من وراء مسقط مائى لجب صاخب ، فيصله مختلف المخرج ، وقد يختلف معناه فى ذهنه أو يفهم بعضه أو كله على غير ما أراد المتكلم . وهذه حقيقة ينبغى أن لا يغفل عنها المتكلمون ولا سيما من كان معلمًا منهم .

٢٣ - إننا إذا قابلنا إنسانًا يحدثنا واتجه عقلنا لسماع كلامه لفهمه ، لا نشعر بسرور كالسرور الذى نشعر به إذا أتجه عقلنا إلى أنفسنا . هذا إلا إذا كان اتجاه عقلنا لسمالع المحدث لا يشغلنا عن التفكير فى أنفسنا أو كان قصير الأمد أو كان داعيًا إلى التفكير فى أنفسنا وفيما يهمنا .

٢٤ - بعض المثقفين من ذوى الأدب والحياء يخجلون ويتحاشون أن يعرف جليسهم عشيرتهم أنهم قد اطلعوا منه أو أن الناس قد أطلعوا منه على زلة بدرت منه أو نقص ظهر فيه . فإذا بدرت من الجليس بادرة سقطة ، استحيوا له خشية أن يتأثر بظهور تلك السقطة وهم قد لايهولون من أمر هذه الزلة ، وقد لايعيرونها اهتمامًا ولكنهم يخشون أن يهتم ويتأثر صاحبها لظهورها منه ويستحيون له أن يجرح ظهورها إحساسه ، وهذا منهم من فرط لطافة الحس التى قد تخشى أن يتألم الجليس إذا علم أن الناس قد فطنوا إلى زلته أو سقطته - ومن العجيب أن استحياء لطافة الحس هذه قد يُفطن الجليس صاحب الإحساس والشك والفطنة إلى أن زلته قد كُشفَ أمرها ، وقد يحقد على من استحيى له ، ويعد استحياءه نفوراً من زلته ويغيظه اطلاع صاحب الحياء على سقطته ، وقد يكون هذا التحاشى والاستحياء عناء لاطائل تحته إذا كان صاحب الزلة ممن لايهتم باطلاع الناس عليها ، ولكنه على أى حال يدل على أن صاحب الاستحياء ليس ممن قلت ثقافة نفسه ، فيتتبع سقطات جليسه كى يظهرها ويكيده بها أو يسخر منه بسببها .

(٩)

تكملة نظرات مارسيل بروست

من مؤلفاته

التي تسمى "ذكرى الأمور الماضية"[١]

١ - بعض المزايا التافهة التي نجدها في أنفسنا قد لانقيم لها وزنًا ولا نأبه لها ، ولكنها قد تزداد منزلة وتكتسب قيمة كبيرة في نظرنا إذا أحببنا من يهتم لها ويقدرها ويرى لها فضلا كبيراً .

٢ - بالرغم من ميل النفس إلى التخلص من سيطرة المسيطر عليها فإنها تشعر بخشوع واحترام وإعظام لمن يستطيع ضرها والتحكم فيها « فإذا استطاعت التخلص من ذلك التحكم بطل سحر الخشوع والخوف وحل محله العداء والسخر . وقد يزداد العداء بمقدار قديم خشوعها وبمقدار خوفها أو حذرها من عودة ذلك التحكم إلا إذا كان تحكمًا محبوبًا كتحكم المحبوب وأقربائه ومن يلوذ به ويقرب إليه . ومع ذلك فقد يخالط الحب العداء بسبب بين الخشوع والخضوع والذل » وقد يبقى أثر الخشوع بعد السيطرة .

٣ - من المألوف أن التفكير في شئ أو الرغبة في الحديث والتفكير في معاني ماسيقال قد يمنعان المرء من سماع مايقال له - بل أن كل ذلك قد يمنع من أكثر من ذلك فيمنع من رؤية الأشياء وتدبرها كأن ماقيل لم يقل وما رُئي غير موجود . وهذا يذكرني قول المستر تشرشل في كتابه في حرب الدراويش في السودان : أنه في إحدى المواقع كان مشغول الفكر يتدبر الموقعة حتى إنه لم يسمع قصف المدافع وأصوات طلقات رصاص البنادق وغيرها من الأصوات فكأنما كان ينظر إلى صورة معركة - أو إلى السينما الصامتة . ويتفق أن يمر بالمرء صديق يحييه فيغفل عنه وعن تحيته سواء رآه أو لم يره وما تلك الغفلة إلا من إنشغال البال وأعمال الفكر .

٤ - إذا حسد الإنسان غيره فإنه يستطيع أن يقنع نفسه أنه لايحسده ، بل يحتقره ويزدريه أو يكرهه لعيب فيه - كثيراً ما يخفى مظهر هذا الحسد عن صاحبه وعن الناس لأنه يتقن

---

١ - المقتطف سنة ١٩٤٨م ، المجلد ١١٣ ، الجزء الثاني ، ١ يوليو ١٩٤٨ م ، ص ٩٧- ١٠٥ .

التخفى ويتخذ لباسًا من الأمور الممدوحة . والواقع أن المرء يستطيع أن يقنع نفسه بهذه الوسيلة أنه لايحسد بل يحتقر . وكلما أوغل فى اقناع نفسه استطاع أن يقنع الناس أيضًا . ومن أجل ذلك قد لا يفطن المرء أن حسده لغيره كما يفطن الناس إليه إذا أقنعهم بما أقنع به نفسه.

٥ - كنت أرى فى أسرة « جرمانتس » ذلك التحول الذى ذاع فى عهد لويس الرابع عشر، أي تحول الاحساسات والأخلاق والفضائل إلى مظاهر من مظاهر اللطافة فى المقابلة والحديث والحركات وهى تخفى تحتها خشونة فى الأخلاق والاحساسات أو القسوة وقلة الاهتمام بما يعترى الناس من آلام الحياة - ولا أحسب أن بروست يريد أن يقصر هذه الظاهرة على أسرة أو طائفة أو عصر من عصور الإنسانية ، وإن كانت أكثر ذيوعًا فيه وفى طبقة خاصة فإن الأثرة إذا اقترنت بحب ادعاء الفضائل ولدت مثل هذه اللطافة الكاذبة إذا وجد المرء فيها اخفاء لحقيقة نفسه . ومن الغريب أن طائفة أخرى من الناس تحاول أن تخفى قسوة أخلاقها واحساسها بادعاء الصراحة التامة والتهجم بهذه الصراحة الكاذبة فى خشونة تشبع نهمة الأثرة فى النفس ثم تدعى أن كل ذلك من فضيلة الصراحة .

٦ - بعض الناس إذا أدّيت له معروفًا أو أهديت إليه هدية محبوبة يتملكه السرور حتى يعجز عن النطق بالشكر فإذا رآه المُهْدى المؤدى للمعروف وكان مثقفًا فطنًا حاضر الذهن بصيراً بالنفوس وجد فى عجزه عن الشكر وحيائه فى مغالبة الفرح ما هو أجل من الشكر . أما إذا كان على نقيض هذه الصفات لم يفطن إلى ذلك الاعتراف الصامت بما أدى من معروف فيحسب أن من نال المعروف جاحد للنعمة . ومن أجل ذلك كثيراً ما ينشأ سوء الظن وسوء الفهم والفهم بين الناس .

٧ - قد يسمع المرء كلمة يرى فيها تعريضًا به أو اساءة إليه . ولا يظهر أثر ذلك إلا بعد مضى زمن قد يطول . وقد يظن قائلها أو صانع الاساءة أنها قد نسيت وإنما يظن ذلك لأن من مصلحة المسئ أو مايراه مصلحة أن ينسى اساءته ولكنها تختمر فى نفس من أسئ إليه وبعض الناس كان لهم ملكة ينسون بها ويحسبون أن من أساءوا إليهم يحبونهم ويودونهم وقد يظهرون لهم الود ويتحينون فرصة للانتقام والغدر - وقد يدهش هذا الذى ينسى اساءته ويتعجب لأنه مخدوع بنفسه وبالناس من كثرة نسيانه اساءاته .

٨ - الجمال الذى لا تلمحه غير لمحة عارضة مرة واحدة ويغيب عنك قد يكون له أثر فى النفس أكثر من الجمال المألوف ، وقد يكون التفكير فيه أكثر والشغف به أعظم وأتم . ومن

الغريب أنه قد لا يشغف النفس إلا بعد غيابه وقد لايكون له غير أثر ضئيل فى نشأة الدافع النفسى الملح الذى يدفع إلى التعلق به وإلى استعادة ذكراه والحنين إليه . والواقع هو أن أكثر أحاسيس الحب وصور المحبوب من العاشق نفسه لا من المعشوق .

٩ - إن عقولنا دائمًا تنسى من أحوال من نعرفهم ومن صفاتهم وأمورهم مالا يتفق وحاجاتنا الحاضرة التى نباشرها ثم ننسى ما يتفق ورغباتنا ونزعاتنا الجديدة وهذا مظهر من مظاهر القاعدة السيكلوجية العامة التى ذكرها فرويد فى كتاب - العلل النفسية فى الحياة اليومية - أى أن النفس تستطيع أن تنسى عمداً ماترى فى نسيانه نفعًا أو زينة ، وقد كان فرويد يتحدث عما تنساه من أمورها وبروست يتحدث عما تنساه من أمور الناس .

١٠ - إذا وجدنا فى أول عهدنا بمعاشرة بعض الناس شيئًا مما نكره ونبغض فإننا بعد أن نألفهم وتزول الوحشة وبعد أن يخفى عنا بسبب ذلك ماكرهنا فى أول لقاء وعشرة لا نزال نشعر فى صميم النفس بشئ من القلق توقعًا لعودة ظهور ذلك الأمر القديم المكروه فيكون سرورنا بلقياهم ممزوجًا بخشية رجوع مالانود منهم - وهذا يصدق أكثر مما يصدق فى ذوى الاحساس والخيال والذاكرة القوية أو فى ذوى الحذر الذين يبالغون فى الحيطة من الناس . ولكن الواقع هو أن المرء يحاول أن ينسى عن أصدقائه مالا يتفق ونزعاته الحاضرة كما قال بروست فى النظرة السابقة .

١١ - بعض السرور لايلتذه المرء وقت حدوثه ، وإنما يلتذه بذكراه وكأن صورة السرور التى حصل عليها عند حدوثه هى الصورة الفوتوغرافية السوداء التى تؤخذ إلى حجرة مظلمة وتستخرج منها الصرة الواضحة . وكذلك بعض السرور يحتاج إلى حجرة النفس المظلمة أو وعيها الباطن كى تستخرج منه صورته الواضحة - وقد يصدق هذا أيضًا فى أسباب الحزن والإساءة .

١٢ - كنت فى سذاجة الطفولة والصغر أحسب أن المتحابين المتآلفين تخطر فى نفوسهم خطرات متجانسة واحساسات متشابهة فى وقت واحد من صفاء الألفة والمحبة وتختلج فى نفوسهم النزعات المتقاربة والرغبات المتفقة فى قت واحد . ولكن الحياة علمتنى أن هذا قلما يكون وأن أكثره من وهم المحبة وخيال الألفة وأن الواقع يخالفه فإنى عندما كنت أذكر أبوى بحنان وعطف يتضح لى أنهما كانا يتذكران ذنبًا لى نسيته ، وأنهما يريدان أن يؤنبانى أو يعاقبانى . وعندما كنت أحس بالحاجة إلى الإئتناس بمحادثة صديق عزيز أرى به مللا من المحادثة .

١٣ - العاقل المثقف ينتقد الرجل الذى يظهر مايعرف من غير ضرورة البحث العلمى ، بل على سبيل المباهاة والمفاخرة . ولكن للنفس حالات تغرى ذلك المهذب المثقف أن يباهى بعلمه فيصنع الشئ الذى ينتقده . ولعل امتعاض النفس من الذى يباهى بعلمه من مظاهر الأثرة فيها فى أكثر الأحايين . وإن كانت المباهاة بما يعرف المرء منتقده فى كل إنسان إذا لم تكن هناك ضرورة البحث العلمى .

١٤ - إن من لهم منزلة اجتماعية كبيرة لايتكلفون غير طبعهم وعاداتهم إلا مع من هم دونهم ، وبالعكس ترى من هم دونهم لايتكلفون إلا مع من هم فوقهم منزلة .

١٥ - كنت فى غرارة الصبا ينطبع فى عقلى حديث الناس وادعاؤهم المودة . وكنت أرى كل ذلك حقيقة لاريب فيها ، فما كان يخطر ببالى أن إنسانًا يكذب ويقول إنه يودنى وهو لايودنى فكنت فى هذا الأمر كخادمتى فرنسواز التى كانت كلما رأت إعلانا عن دواء يشفى كل الأمراض أو أكثرها آمنت به وما كان يخطر ببالها أن التاجر الذى يبيع الدواء دجال يريد الكسب . وكان ينبغى أن أعرف أن الناس لايقولون الحق دائمًا وأن ملامح الناس وحركاتهم وسكناتهم وهيئة تقاسيم أوجههم أدلُّ على الحق من كلامهم « ولا أذكر هل كان فولتير أم تاليران هو الذى قال : إن الإنسان خلق له النطق كى يخفى به الحق . ولعل ذلك القول من فكاهات الأول منهما » . ومما كان أدعى إلى تعريفى كذب الناس أنى كنت مثلهم أقول غير ما أخفى . ولكن كيف كنت أنتفع بالمثل الذى أعرضه بنفسى على نفسى إلا إذا اعترفت أنى أنافق وأكذب . والإنسان كثيراً ما ينافق ويكذب من غير إدراك لهذه الصفات ومن غير تنبه إليها ، أما دفاعًا عن النفس ، وإما لنيل غرض عارض وإما لإشباع عاطفة ، وهو يفعل ذلك وذهنه منصرف إلى أمور أخرى ، فيسمح لأخلاقه التى فى حضيض نفسه بالتخلق بها من غير رادع أو بصيرة متنبهة تبصره بها .

١٦ - كانت خادمتى فرانسواز تحبنى ومع ذلك فقد علمت أنها قالت إننى لا استحق ثمن الحبل الذى يجب أن أشنق به ، فراعنى قولها ولاسيما أنها هى التى كانت تلفتنى وتفطننى إلى نفاق أصدقائى ، فقولها هذا جعلنى أشك فى حقائق الأشياء كلها . وقلت إن الأشجار والشمس والسماء لعلها ليست كما نراها . أو ربما يراها على أشكال أخرى من يراها بعينين غير عينى الإنسان ، إو من يراها بجهاز طبيعى غير العينين : فقد يرى هذا ماهو عوض عنها وبدأت أشك فى أننا نعرف الناس معرفة واضحة ، بل بدأ يخيل لى مايقول كل إنسان أو يعمله إنما هو ظل نرى خلفه شعاع الحب أو لهيب الكره ، ولنا مسوغ إذا رأينا هذا أو ذاك .

وفطنت إلى أن مزايا الإنسان وعيوبه واحساساته ومقاصده ليس لكل منها مظهر واحد ثابت محدود - والإنسان بالرغم من ذلك يحاول أن يبسط الحياة والنفوس فيلبسها لباسًا واحداً ذا لون واحد كما فعل رتشارد الدنجتون فى قصة - الناس كلهم أعداء - فإنهم حتى لو صح حكمه لابدَّ أن يأتدموا بشئٍ من المودة كى يسيغوا خبز . الأحقاد والتحاسد .

١٧ - ومهما كان للإنسان من شخصية مستقلة فإنه جزء من جماعة أكبر يتأثر بها فى أسلوبه وصوته وحركاته وعاداته وعباراته وآرائه . وشخصيته مكتسبة من شخصيات كثيرة ومتصلة بها اتصال عجلات الساعة ومختلطة بها اختلاط مواد الكيمياء .

١٨ - إن الإنسان ينمو نمو النبات لانمو البناء ، والنبات ينمو من داخل نفسه والبناء ينمو من خارجه بأن تضاف طبقة على طبقة ولبنة فوق لبنة . نعم أن النبات يستمد الماء والضياء والهواء ، ولكن ما يستمده منها لابد أن يمتزج بكيانه ، أما الذى يحاول أن ينمو نمو البناء فلايزداد بما يضاف إليه ، لأنه لم يمتزج بكيانه كما يمتزج الماء والضياء بكيان النبات .

١٩ - مباهج غضارة الصبا ومحاسن نضارته تكون قبل أن يتحجر وجه المرء ، أى يكون شبيه المتحجر بسبب مكافحة الحياة وأثقالها وعاداتها ، فنرى وجه الصبا يتغير ويعطى الرائى مناظر مختلفة تتغير مثل تغير مناظر الطبيعة ، فإذا فارقه الصبا قلما يكون إلا متحجراً فتمل رؤيته . « ويختلف تغير مناظر الوجه حتى فى الصبا فإن بعض الوجوه تسجل على تقاسيمها ما يجول فى خاطر أصحابها من أفكار وخواطر وإحساسات تسجيلا واضحًا عظيمًا. فإذا جمع الوجه إلى هذه القدرة على التسجيل الجمال كان لاتمل رؤيته . وقد أدهشتنى مرة قدرة وجه الإنسان على تسجيل الخواطر حتى كأن وجهه يعرض صور تختلف فى كل لمحة ولحظة حتى خيل لى أن وجهه يسجل مافى وعيه الباطن كأنه يدركه بالوعى الظاهر . وخُيِّل لى أنه أناس كثيرون لا إنسان واحد . وهذه القدرة على تسجيل الوجه لخواطر النفس تلاحظ حيث يكون الذكاء والإحساس المرهف » .

٢٠ - كما أن القائد يحاول معرفة أماكن الضعف فى جيش عدوه كى ينتصر عليه من نواحيها ، يتعرَّف الخدم أماكن الضعف فى صفات المخدوم كى يعززوا مراكزهم من نواحيها ، ومن أجل ذلك كنت أعرف وأدرس أوجه النقص فى صفاتى بدراسة سلوك خدمى نحوى : ترى هل من المستطاع تطبيق هذه القاعدة فى قصة المأمون الخليفة العباسى الذى أكثر من مناداة غلام خادم والغلام غير آبه . ثم لما ضجر بمناداة الخليفة له قال : أفى كل حين يا غلام يا غلام؟ أما ينبغى للغلام أن يستريح ؟ فتعجب أحد ندمائه . فقال المأمون : إذا حسنت أخلاق

المخدوم ساءت أخلاق الخادم ، وإذا ساءت أخلاق المخدوم حسنت أخلاق الخادم ، ونحن لا نرضى أن تسوء أخلاقنا كى تحسن أخلاق خادمنا .

٢١ - للخدم ماهو شبيه ببريد سرى تنتقل به الأخبار من أسرة إلى أسرة بسرعة البرق ، كما تنتقل الأخبار فى مجاهل أفريقيا بسرعة البرق من قبيلة إلى قبيلة « إما بدقات الطبول وإما باشارة النار » . ولقد كانت دهشتى عظيمة من معرفة خدمى صلاتى بأصدقائى وإحساسهم نحوى قبل أن أعرفه وأستوضحه . وما كان ذلك إلا لأن الخدم يلتقطون الكلام أو يسترقون السمع خلسة . ومن كلمات قليلة ولمحات أوجه المخدومين يستطيعون أن يعرفوا مايريدون كما يستطيع العالم بعلم الحيوان أن يعرف من فحص عظام قليلة كيف يكون الهيكل العظمى للحيوان وهو تام كامل . « ومما يساعد الخدم أن بعض المخدومين ينزلونهم فى نفوسهم عن مرتبة الإنسان ، فلا يتحرجون من الكلام أمامهم كما لايتحرجون من الكلام أمام الخيل والقطط أو الكلاب » إلا إذا تعمدوا إسماعهم مايريدون إذاعته لنكاية غير مباشرة .

٢٢ - يخيل للمرء أولا إذا سمع العصافير أن صوتها كلها صوت واحد لايتغير . ولكن الذى يحب العصافير ويكثر من سماعها فى الغابات يستطيع تمييز أصواتها فيعرف صوت البلبل ويميزه من صوت القنبرة أو غيرها ، وكذلك لايستطيع أن يميز اختلاف دقائق محاسن الجمال ومباهجه إلا من أحبه وألفه . « وهذا أيضًا مشاهد فى اكتساب القدرة على تمييز اختلاف الوجوه أو الصفات وإن كانت الصفات النفسية زئبقية متقلبة . وقد ينزل المرء فى أمة نائية فيخيل له أن أكثر أهلها يتشابهون تشابهًا تامًا إذا كان لم يألف وجوههم من قبل كما يخيل للمرء هذا التشابه التام فى أوجه الصينيين أو اليابانيين فإذا ألفهم استطاع أن يميز الصفات المختلفة » .

٢٣ - قد تنبع من الوعى الباطن ذكرى مباغتة فلا يعرف المرء لماذا ظهرت وتغلبت على باقى الذكريات المنسية التى رسبت بسبب ضغط عدم المبالاة بها الموزع عليها جميعًا على السواء . وكذلك قد يتذكر المرء صورة من يود بغتة ، ولايعرف سبب تذكرها ولا يستطيع أن يصل هذه الذكرى بذكرى أمور أخرى تبعثها ، فلا تعليل لذلك إلا أن للوعى الباطن حياة مستقلة توحى بأمثال هذه الذكريات ، على أن بعض ما يتذكر قد يكون تذكره لأسباب تافهة موصولة بها كأن يشم المرء رائحة ، أو يرى أو يلمس شيئًا تافهًا كان قد طرده المرء من وعيه الظاهر لتفاهته فلم يستهلك مجهوداً من نفسه فيعود إذا عاد قوى الأثر . وكثيراً مايخطئ

المرء فيخيل له أن تذكره صورة من يود ناشئ من أن ذلك الذى يود تذكره فى تلك اللحظة فيحدث الاتصال الروحى « وليس معنى هذا أن الاتصال الروحى عن بعد محال باطل » .

٢٤ - كثيراً ما يتغير شكل الإنسان وتتغير صورته فى نظرنا بسبب عوامل فى نفسه وننسى أن هذا التغير قد يكون أيضًا بسبب اختلاف احساسنا نحوه ، فنتعجب من تغير صورته ، ونحن ننسب التغير أو قد يكون السبب النظر إليه من جهات مختلفة أو فى بيئات متغايرة كما تختلف مظاهر المبانى إذا نظرت إليها من جهات مختلفة .

٢٥ - أنا بين طائفتين من المعاشرين : طائفة أمنت اغتيابهم لى ، لا من سلامة طويتهم وصدق إخلاصهم ، بل لقلة مبالاتهم واهتمامهم بأمرى . وقلة اهتمامهم تظهر حتى فى أحاديث مجالسهم فى حضورى ، وفى نظراتهم وفى أصواتهم وملامحهم . والطائفة الثانية يتلقانى آحادها بالمودة والحنان والعطف ، ثم إذا غِبت يأخذون أجراً على ذلك باغتيابى إذا غبت ومجالسة الطائفة الثانية أكثر راحة . « وإن كانت راحة قد تكون محاطة بالقلق إذا فطن جليسهم إلى عواقب إئتناسه بهم من اغتيابهم إياه إذا غاب . والواقع أن آحاد الطائفة الثانية يتقنون مظاهر المودة اتقانًا عجيبًا حتى ليدهش المرء الغريب إذا رآهم يغتابون جليسا انصرف عنهم أشنع اغتياب ، بعد أن تلقوه بالترحيب والعطف والثناء والإخاء » .

٢٦ - قال لى برجوت : لاداعى لأن يحزنك؛ مرضك فإنه لايمنعك من لذات الفكر . قلت: بل يمنعنى ، فنظر إلىّ وقال أنا واثق أنه لايمنعك فأحسست بسرور بالرغم من أنى لم أقتنع . ولهذا السرور أسباب كثيرة منها لذة الإيحاء وقبول النفس له بالرغم من مظاهر عدم الاقتناع ، والشعور بعظمة من يتمتع بلذات الفكر ، وفى هذا الشعور لذة . ولذة التمتُّع من قبول رأى سار يريد أن يصدقه ؛ فإن فى هذا التأبى والتمنع لذة ورغبة فى أن يُرَدَّد له . ولذة المغالطة إذ ما من شك أن بروست كان يتمتع بلذات الفكر وإنما عدم اقتناعه مغالطة منه. ولذة فى مباشرة أمر سار أو متعة بريئة يخفيها كى يحتال الناس لمعرفة مايخفى . ولذة فى الرثاء لنفسه من عدم القدرة على التمتع بلذات الفكر كما يدعى ... الخ .

٢٧ - إن احساسات المرء وخواطر نفسه لاتتبع دائمًا نظام تاريخ حياته ، فهو وإن كان عائشًا بظاهر حسه فى الزمن الحاضر ، إلا أنه قد يكون عائشًا فى الحقيقة بإحساسه وخواطر نفسه فى عهد قديم مضى من حياته قبل حوادث أمس واليوم .

٢٨ - قد يبدى المرء شيئًا من السخر ممزوجًا بالاحترام إذا واجه نوعًا من العظمة يرى أنه من قلة الذوق وقبحه أن يزدريه ، ومن الحماقة أن يحتقره ، ومن حسن الذوق والفطنة الإشارة

إليه بشئ من الدعابة الممزوجة بالاحترام . وبذلك يرضى أثرته كما يرضى ما يحب أن يعرف به من حسن الذوق والتميز والفطنة .

٢٩ - قد يدعو المرء إنسانًا لزيارته على سبيل المجاملة وهو يسر لو أن المدعو لايقبل الدعوة ، ويفرح لو أغفلها ، فتأتى فاترة ممزوجة بما يشير إلى رفضها وهكذا دعا سنت لوب بلوش لزيارته قائلا : « ولكنى قلما أكون موجوداً » كى يظهر أنه غير جاد فى دعوته ولكن بلوش بالرغم من هذا التنبيط الظاهر صار يمدح تلطف سنت لوب ويقول « بعد هذا التلطف منه ينبغى أن نزوره عاجلا وإلا كان امتناعنا عن زيارته أو تأخيرها خارجًا عن حدود اللياقة » . وغضب منى لأنى لم أوافقه ولم أحدد ميعاداً لتلك الزيارة وما كان يمكننى أن ألفته إلى أن صيغة الدعوة دليل على الرغبة فى رفضها .

٣٠ - للجفاء أسباب عديدة منها خشية المحب أن يظهر حبه فيتغاضب ويدعى الجفاء (ومن الناس من يتغاضب ويدعى الجفاء أمام الناس كى يعرفوا أنه يستطيع أن يعامل إنسانًا يفوقه بمظاهر الغضب أو الجفاء أو بلهجة الأمر) .

٣١ - أعز الحكمة وأثمنها التى نقتبسها بأن نعيش ونتغلب على زلاتنا ، وليست هى التى تلقن بالتعليم أو الأمر ، وإنما صاحب الثانية كالعبد الذى يعمل الصواب كما أمر ولا فضل له فى صوابه .

٣٢ - كان « لجراند » عندما يكون فى صحبة مدام ف . يتحرك كأنه لعبة تحركها السعادة كما يحرك الأطفال لعبهم التى لا حياة فيها . وبعض الناس إذا استسلموا للسعادة العارضة كانوا أشبه الأشياء بتلك اللعب ، لأنهم لاسيطرة لهم على حركاتهم وأعضائهم .

٣٣ - مما يدل على أن آراء الناس وفق رغباتهم وميولهم أن المرأة من العامة إذا تلطفت معها امرأة نبيلة غبية قبيحة الوجه الشكل تنسى غباوة المتطفلة وقبح وجهها ولا تفتأ تذكر ذكاءها وفطنتها وحسنها . وكذلك قد يتلطف الرجل مع من هو أقل منه منزلة تلطفًا ممزوجًا بالزهو والخيلاء الكامنين فينسى هذا عيوب الرجل المتلطف معه وقد يصفه باضدادها من المحاسن .

٣٤ - فى بعض الأحايين إذا توقع المرء حادثًا فى حياته مستقبلا يخيل له أن حياته كالمسرح الذى يمثل عليه فصل من القصة ، بينما تعد معدات الفصل التالى وراء ستار خلفى .

ع . ش

(١٠)

نظرات ميشيل مونتانى [١]

ميشيل مونتانى هو الأديب الفرنسى صاحب الرسائل المشهورة وكان ثمرة من ثمرات عصر إحياء العلوم فى أوروبا . كان من أسرة نبيلة وولى القضاء وصار حاكمًا لإحدى المدن فترة من الزمن ، ولكنه قضى أكثر حياته فى قصر أجداده بين الكتب ، وكانت القراءة وكان التفكير والتأمل فى صفات النفوس ، أحب شئ إليه فى الحياة مع أنه أخذ نصيبًا من كل مباهجها ، فإنه كان يحب الحياة شأنه فى ذلك شأن أدباء عصر إحياء الآداب والعلوم . ولكنه كان يفضل القصد فى كل الأمور ويرى أن الخطة الوسطى هى مفتاح السعادة فلم يكن متهالكا على اللذات كما تهالك عليها كثير من الأدباء بعد عصر الترهب والتقشف ورفض الدنيا والخشية من متعها . وكان يقول بتحكيم العقل ، ولكنه كان يحذر الاغترار بأحكامه . وكان يعرف قصوره وأنه داعية إلى البر والغرور ورسائله تدل على اطلاع كبير على أدب القدماء وعملهم ، ولاغرابة فى ذلك فإن أباه كان قد قضى عليه أن يتعلم اللاتينية فى سن الطفولة . وله آراء كثيرة كآراء المعاصرين لنا ، مثل رأيه فى اجتماع الشخصيات العديدة فى النفس الواحدة ورأيه فى أن الغريزة فى الحيوانات هى فى الحقيقة نوع من العقل ومظهر من مظاهره ورأيه فى أن التفكير المؤسس على التجربة أصدق من التفكير المؤسس على النظريات العامة التى تعتنق أولا ثم يحاول صاحبها إثباتها بعد ذلك بما يشاهد . وهو على اعتزازه بحكمة القدماء يرى أن المشاهدة والملاحظة والتجارب أهم منها . ولكن مما لاشك فيه أن دراسته لكتب القدماء كانت رياضة صالحة لعقله مكنته من الانتفاع بالتجارب والملاحظة . وكا يرى أن الاقتناع بالآراء والعقائد لايكون بالقهر والقسر ، ولذلك كان ينعى على الطوائف الدينية فى عصره حرق بعضهم بعضًا وقتال بعضهم بعضًا . ولذلك كان يقول لهم إن آكلى اللحوم البشرية أرأف منهم وأكثر إنسانية . وقد كان معتدلا فى نقد الآراء المقررة . وكان على اعتداله وتحفظه صريحًا فى بعض رسائله . وكانت لمونتانى آراء جديدة فى التربية مؤسسة على تجاربه ومشاهدته وربما كانت كما يقال « رد فعل » بسبب ما ألزمه أبوه فى صغره . وكانت دراسته النفس البشرية فى رسائله وسيلة من وسائل التربية ، كما كانت ذريعة إلى السعادة ولذات الفكر . وكان ذا

---

١ - المقتطف سنة ١٩٤٨م ، المجلد ١١٣ ، الجزء الثالث ، أول أغسطس ١٩٤٨ م ، ص ١٧٥- ١٨٥ .

رأفة كبيرة بالحيوانات والطيور . ولا غرابة فى ذلك بعد أن رأيناه ينسب إليها العقل . وكان يرى أنها أكثر شبهًا بالإنسان فى إحساسه وعقله مما يظن الإنسان . وقد ترجمت رسائله عقب نشرها إلى لغات كثيرة . وكان الأدباء مولعين بقراءتها وتدبر أوصاف النفس فيها فكانت لشكسبير الشاعر الإنجليزى نسخة منها - وقد ذكر مونتانى فى بعضها أنه يفضل من الكتب تلك التى لايرتبط فى قراءتها بإتمامها دفعة واحدة بل يفضل من الكتب تلك التى لايرتبط فى قراءتها باتمامها دفعة واحدة بل ينتقل فيها ويغادر القراءة متى شاء ويعاودها متى أراد . وهذه كانت خطته فى كتابه أكثرها فإنه فى الرسالة الواحدة ينتقل من موضوع إلى موضوع يتصل بالأول ويوحى به ذلك الموضوع الأول

ومن نظراته مايلى :

١ - إذا كان المرء أقدر على الفكر وأدق فيه نظراً وأبصر بمسالكه وحيله وعرف الناس منه ذلك فإنهم يكونون أسرع إلى كرهه وأعجل إلى بغضه : خوفًا من قدرة عقله أن تصيبهم بسوء وأن تعالجهم بشر ، لاسيما إذا ظنوا فيه نقصًا فى الأمانة والنزاهة . أما إذا كان غير قادر على الفكر فإنهم قلما يختصونه بمثل هذا البغض حتى ولو كان سئ الخلق . فالناس يخشون أن يستخدم المرء فكره فيما يسوءهم ويضرهم سواء أكان أمينًا أم كان غير أمين . وهذا سبب من أسباب كره جُمهور الناس لذوى الفكر - وهم فى هذه الحالة ينسون أن الغبى الماكر قد يبلغ بمكره من أذاهم مالا يبلغه المفكر .

٢ - بعض الناس يتعلم المنطق كى يخالف به أصول المنطق والحق ، وكى يقنع الناس بالباطل . وهو كالذى يتعلم القوانين كى لا يتقيد بها وكى ينجو من قصاص خرق سياجها ؛ لأنه بتعلمها يعرف منافذها ومخارجها وأبواب نقصها وحيل التهرب منها . وكذلك نرى أناسًا يتعلمون المنطق لمثل هذه الغاية فى تلبيس الحق على الناس . على أن أكثر من يتعلم المنطق كى يطبقوه على الحياة بحسن نية ، يعجزون عن تطبيقه تطبيقًا صحيحًا بسبب غلبة الطباع والنزعات النفسية والشهوات والرغائب والمطامع . فالمنطق الصحيح كثيراً ما يكون مهجوراً منبوذاً فى الحياة سهواً أو جهلا أو عمداً أو مخادعة من الطبع للعقل . ولولا هذه الموانع لكان نفعه للناس فى الحياة أعظم وفائدته أتم . ولكن المرء كثيراً مايعتنق الرأى أولا ثم يتخذ من المنطق ما يسوِّغه .

٣ - قد تكون للإنسان ميول نفسية مستترة وصفات لا يفطن لها . ولكن جسمه قد يدل عليها . فقد كان شيشرون الخطيب الرومانى به ميل شديد إلى السخرية يظهر منه وإن أخفاه بدلالة تجعد أنفه وتقلُّصه . وكان الاسكندر المقدونى والكيباديس الأثينى معجبين بجمالهما وكانت دلالة هذا الإعجاب فى جسم الأول أنه يميل برأسه زهواً ، ودلالته فى جسم الثانى لثغة بها أنوثة فى كلامه . وقس على ذلك باقى الصفات المستترة . وقد يحاول المرء أن يخفى الحسد أو الحب أو البغض فينم عليه جسمه ، ثم يتعجب إذا نسبت إليه هذه الصفات.

٤ - قد يظن بعض الناس أن الكذب صفة مقصورة على الأراذل والأوغاد والأنذال . ولكن الحقيقة هى أنها صفة عامة شاملة . فإنا نجد كثيراً من الأخيار الأفاضل الذين تكاد لاتجد فيهم عيبًا آخر بارزاً لايتورعون من الكذب . أما على سبيل العمد أو المغالطة للنفس .

٥ - بعض الناس قد يتعوَّد الكذب حتى لايستطيع أن يصدق وإن كان الصدق منجيه من ضرر أو تلف . وهذا من غرائب تحكم العادة إذ توهم المرء أن الكذب هو الذى ينجيه كما تعود أن ينجو بالكذب فى حالات ، فيحسب أنها قاعدة مطردة حتى ولو بدا أن الصدق منجيه فإنه يشك فيه ويحذره . وتحكُّم العادة يذكرنى قصة رجل ممن يعرضون أعمال المهارة فى إصابة الهدف كان يوقف امرأته أمام جدار من الخشب ويرسم حول جسمها خطا ثم يقذف بالمُدى من مكان بعيد بعض البعد فتصيب المدى هذا الخط ولا تمس المرأة ولا تجرحها . واتفق أنه نقم على امرأته وأراد أن يقتلها قتلا يظنه الناس خطأ فى اصابة الهدف من غير عمد ، فصار يرمى بالمدية فلا يستطيع أن يصيبها ولكنه يصيب الهدف الذى تعود أن يصيبه . وذلك من حكم العادة . ولعلَّ عاطفة فى صميم نفسه كانت أيضًا تمنعه من قتلها ، وإن كان لم يفطن إلى عاطفة الحب أو الرحمة المستترة وفطن إلى عاطفة حب الانتقام الظاهرة . ولعل اعتزاز نفسه بفن أصابة الهدف ، منعه من أن يتكلف الخطأ بإصابة زوجه مهما حاول ذلك .

٦ - فى بعض الأحايين يدفع الخوف الإنسان إلى الانتحار خوفًا من الأمر الذى يتوقع ضرره ، وإن كان ذلك الضرر أهون من الموت . وقد ينتحر المرء خوفًا من الموت فى أى شكل من أشكاله ، فهو يموت من خوف الموت . وهذا يدل على أن الخوف أشد على النفس من الموت. ولا أخاف من شئ قدر خوفى من الخوف ، فإن للخوف عدوى وأخذاً وبغتًا وإلحاحًا . وقد يخاف المرء حتى مما هو عون له على الخوف ، ومنجاة له منه . وإذا لم يدفع به الخوف إلى التهلكة فقد يدفع به إلى الجنون أو إلى الإقدام على مايخشى ويخاف . وقد يسرى الخوف فى

أهل المدينة الواحدة فيقاتل بعضهم بعضًا من سوء الظن وتوقع الأعداء . وكل منهم يظن أنه يقاتل العدو المخوف الذى بغتهم . وخوف المرء من الألم قد يكون أشد من الألم وخوفه من حوادث تصرف الأقدار وانشغال باله بذلك الخوف قد يكون أشد من تلك الحوادث . وقد تسرى عدوى الخوف فى الجيشين المتقاتلين فيفر كل منهما من الآخر كما حدث فى بعض وقائع الحروب المعروفة فى التاريخ . وهذا يذكرنى بما ذكره هازليت فى إحدى رسائله من أن فتاة تركت فى حجرة مغلقة بها جثة فلج بها الذعر والرعب ، حتى أقدمت على ما تخشاه ، فعانقت الجثة وماتت من الهلع والذعر . ويذكرنى بقصة أظن أنها فى كتاب من كتب أناتول فرانس عن رجل من أهل مدينة ذهب إلى الريف ونزل فى نزل صغير ولأمر ما ذاع بين الريفيين أنه فوضوى جاء من المدينة كى ينسفهم بالقنابل ، فصدقوا الإذاعة الشائعة وتسللوا إليه فى خفوت وسكون فى جنح الليل كى يقبضوا عليه مباغتة قبل أن ينسفهم بالقنابل وكانوا يرتعدون وهم يتقدمون خلسة نحو حجرته ويفرون عائدين كلما ظنوا أنهم سمعوا صوتًا وكان الرجل قد أحس بهم فظن أنهم لصوص جاءوا يلقتلوه ، فسرى الرعب فى نفسه . وفى أوصال جسمه وجعل يرتعد من الخوف وعندما فتحوا الحجرة وجدوا أنه مات من الرعب . ويذكرنى قصة « الجبان » لجى دى موباسان وهى قصة رجل صفع آخر فدعاه المصفوع إلى المبارزة فاشترط الصافع أن لاتقف المبارزة إلا بعد جرح أو موت أحدهما . ولكنه عندما خلا بنفسه فى بيته ، وجد جسمه يرتعد ويرتعش وخاف أن يغمى عليه أمام أصدقائه وخصومه إغماءة الخوف فيفتضح ويعرف بالجبن ويلحقه العار فانتحر خوفًا من ظهور خوفه ودلالاته أمام الناس . وأتذكر أيضًا مايسمى بالفزع الأكبر أيام الثورة الفرنسية إذ أن الفزع قد يعم فى عهد الثورات، وقد يكون معينًا عليها فكثيراً ما يقسو المرء من الخوف ، ومن عجائب الخوف خوف عبد الله بن الزبير وهو من الشجعان . ولكنه لما رأى أن الغلبة ستكون لجند بنى أمية استشار أمه أسماء بنت أبى بكر الصديق ذات الطبيين فى أن يستسلم فقالت له عش كريمًا أو مت كريمًا وحثته على القتال . فقال إنه يخشى أن يمثل به أعداه بعد موته . فقالت لايضر الشاة سلخها بعد موتها . والواقع أن الإنسان كثيراً ما يغم نفسه بأمور وحوادث مختلفة قد تحدث بعد موته ومن الشجاعة حقًا قول الأستاذ " هالدين " الإنجليزى فى كتابه « تفاوت الناس »أنه اتفق وزوجه أن تهدى جثتاهما بعد موتهما للمستشفى للتشريح كى يستفيد البحث العلمى وتستفيد الإنسانية . وهذا يذكرنى قصة إهداء الشَّنْفَرى الشاعر جثته بعد موته للوحش كى تنعم بأكلها وذلك فى قوله :

إذا قطعـوا رأسى وفى الرأس أكـثـرى وغُـودر عند الملتَـقى ثم سـائرى

فـــــلا تدفننى إن دفنى مُـحَـــــرَّمٌ عليكم ولكنْ أبشْـرِى أمَّ عـامـر

ويعنى بأم عامر الضبع - ومن فكاهات الخوف قصة الجبان الذى يدعى الشجاعة مثل قصة ترتَرَنْ التَرَسْكونى لمؤلفها ألفونس دوديه . وكان ترتَرَنْ يدعى مغالبة الليوث والوحوش مع أنه كان يخشى حتى الأسفار وركوب البحر . ولكن من الأغاليط المألوفة أن يحسب الناس كل من يدعى الشجاعة ويتوعد كى يخيف ، جبانًا . حقيقة إن بعض الناس يخفى جبنه وخوفه بادعاء الشجاعة ، ولكن المفاخرة بها قد تكون مفاخرة بحق كما أثبت شارلز لامب فى رسائل «الأغاليط المشهورة » ولأمبروز بيرس فى قصص الخوف من الجثث والأفاعى المحنطة خوفًا أدى إلى الهلاك .

٧ - قد يكون قبول المرء للأكاذيب من السذاجة الفطرية التى تفترض الصدق فى نفس محدثها . وقد يكون ذلك القبول من الجهل وهو عيب العامة . أما عيبى فهو عيب المتعلمين . فقد أبالغ فى تكذيب مالم يقم دليل حسى على صدقه ولا أكتفى بأن أقول إنه لم يقم دليل حسى على صدقه ، بل أقطع ببطلانه واستحالة كونه ، كأن الكون يقاس بملكات الإنسان وهو غير محدود بحدود فكره ونفسه . وقد فطنتنى الخبرة إلى أن العادة لا المعرفة هى التى تزيل غرابة الأمور . ولولا اعتياد الإنسان الحقائق المألوفة لقطع ببطلان مالم يتعود منها . وهذا يذكرنى الدكتور صمويل جونسون وهو أديب أريب ولكنه كان يكذب البحارة بعنف إذا حدثوه عن بعض الظاهرات الطبيعية التى تحدث فى البحار مثل ارتفاع مياه البحر فى شكل نافورة فى بعض مناطق الضغط الجوى المنخفض . وكان يقطع ببطلان قولهم ويعده من الأساطير والخرافات التى أولع بها أهل الرحلات من قديم الزمن . ولكن من غرائب خصال النفوس أنه كان يسرع إلى تصديق أمور أخرى مما يصعب إثباته . وقد يكون للخداع فيه سبيل وقال مونتانى : « ينبغى للإنسان أن يعرف أن الحياة والعالم كتاب لا آخر له » أى لا يستطيع تقصيهما بالمعرفة .

٨ - قد تتبدل وتتغير صفات النفوس الغالبة حسب أحوال الحياة ودوافعها . فإن نيرون الإمبراطور الرومانى الذى اشتهر بالطغيان وسفك الدماء كان فى أيام شبابه قد طلب منه إمضاء حكم الإعدام على أحد الأشقياء . فقال آسفًا : وددت لو أنى لم أتعلم الكتابة - وهذا يذكرنى روبسبيير زعيم الثورة الفرنسية الكبرى فإنه كان فى صباه قاضيًا فى محكمة أراس

ولكنه استقال من منصبه كى لايمضى حكم الإعدام فى رجل . وبعد ذلك كان خطيب حكم الإرهاب وأرغم النواب على إقرار قانون يجيز للمحكمة الثورية أن تحكم بالإعدام من غير سماع أقوال المتهم أو شهوده أو دفاع عنه ومن غير مناقشته ، وهو الذى كان فى صباه يرفض الحكم بالإعدام ، حتى إعدام المعترف بجرمه أو الذى فحصت الأدلة وثبت جرمه بعد البحث ومع ضمانة العدالة فى المحاكمة .

٩ - اختلاف الميول النفسية والنزعات فى النفس الواحدة ، حمل بعض المفكرين على أن يروا فى كل إنسان أكثر من نفس واحدة . ولكن المفكرين الحديثين يقولون شخصيات لا نفوسًا. وقد لوحظ انفصال الشخصيات فى النفس الواحدة فى أوقات مختلفة بسبب حوادث أو أمراض . وعلى هذه الحقيقة أسس ستيفنسون القصصى البريطانى قصته المسماة « الدكتور جيكل والمستر هايد » والأول من أهل الخير والثانى من أهل الشر والإجرام .

١٠ - من أصعب الصعاب أن نقطع بأننا قد عرفنا الحق الذى لاشك فيه مادامت حواسنا وملكاتنا ، وما دام غيرنا من الناس كل يمدنا عمداً أو سهواً أو جهلا أو عجزاً بما هو أساس حكمنا مما قد يجافى الصواب . ومن أجل ذلك ينبغى للمرء أن لايتشبث برأى كل التشبث . وعلى ذكر هذا القول أذكر كلمة لأوليفر كرومويل معناها أن من رحمة الإيمان وصحته ، أن يؤمن المرء بأنه قد يخطئ ، ولكن حتى هذا الإيمان بالخطأ لايعصم المرء من الخطأ والتشبث به إذ أن صاحبه لايراه خطأ .

١١ - إذا كان تنوع حجج التفكير النظرى يدعو إلى الحيرة والإرتباك ، فإن تنوع تجارب الخبرة قد يدعو إلى حيرة مثلها ، لأن الأمور والأحوال المتشابهة مهما عظم أوجه الشبه بينها ، لابد من أن يكون بينها من الاختلاف مايتطلب نوعًا خاصًا من أحكام الخبرة فلا يصح الاعتماد كل الاعتماد على حكم الخبرة والتجربة فى أمر من الأمور لأنه مشابه مشابهة قليلة أو كبيرة لأمر آخر خبرناه . فقد يقتضى الاختلاف القليل مسلكًا آخر من مسالك العمل وحكمًا آخر من أحكام العقل . ولكن الناس كثيراً ما يكتفون بالمشابهة ويتخذونها نبراسًا وهاديًا ودليلا فيخطئون من حيث لايفطنون ، على أن أحكام الخبرة قابلة للزلل الذى ينشأ بسبب أهواء النفس فشأنها فى ذلك شأن التفكير النظرى . وهم يحسبون أن الخبرة عاصمة منه لأنها أمر عملى - وهذا يذكرنى قول أحد المفكرين الذى قال إن خطأ الخبرة بسبب الأهواء قد يكون حتى فى تجارب معامل البحث الكيميائى .

١٢ - قلما يتفق اثنان فى الحكم على أمر من الأمور اتفاقًا تامًا مهما تشابه رأياهما - ولو أن حادثًا حدث فى الطريق ورآه كثير من الناس ثم طلب منهم وصفه لاختلفوا فى تفاصيل المرئيات حتى ليظن المرء أن بعضهم يكذب عمداً ولكن الاختلاف قد يكون من غير كذب متعمد . لأن نظر كل إنسان إلى الأمور يختلف عن نظر غيره بعض الاختلاف إلا إذا كان هناك ايحاء ورغبة فى الاتفاق لأربٍ ما .

١٣ - اتفق أن رجلا اتهم بالقتل وشبهت بعض القرائن ولبست الحقيقة ، فحكمت المحكمة عليه بالإعدام . ثم ضبط رجل آخر واعترف أنه جنى تلك الجناية وظهرت أدلة ذلك . فأبت المحكمة أن تعيد النظر فى الحكم على الرجل الأول احترامًا لقداسة القوانين والشرائع . وهذه سنة لاتزال بعض الدول المتحضرة تأخذ بها . وكثيراً مايفعل الناس ذلك ويعملون بهذه السنة فى حياتهم الخاصة - وهذا يذكرنى قصة تحكى عن كاليجولا الإمبراطور الرومانى إذ حكم على رجل بالإعدام . ثم ظهر أنه لم يجن مانسب إليه . فقال إنه إنسان فإذا لم يكن قد جنى هذه الجناية فلابد أن يكون قد جنى جناية أخرى . فاقتلوه وهذا من عنف القضاء وجنون الحاكم ولكن للناس ما يشابه هذه القصة .

١٤ - إدعاء المرء أنه يعرف نفسه ؛ دليل على أنه يجهلها . فإن المرء يسبر غور النفس ويجد بعد طول ممارسته للبحث فيها ، أن الذى يعرفه من أمورها وأحوالها قليل جداً إذا قيس بما لايعرف .

١٥ - الناس يكرهون النقد وهذا بالرغم من ادعائهم ضد ذلك وقد يلح إنسان على صديق ويدعوه إلى نقد نفسه أو أعماله أو أقواله ويدعى أنه يحب الصراحة ويكرم التملق فإذا خدع صديقه بهذا الادعاء ونقد أعماله أو أقواله أو صفاته وجد منه نفوراً أو عداءً أو حقداً أو غيظًا ، وكلّ منا يلوم الحكام لحبهم ويكره التملق ، وكل منا يود أن يحاط بالمتملقين - إلا إذا خشينا من تملقهم أن يراد به الاحتيال لنيل مالا نريد أن نجود به .

١٦ - ينبغى للإنسان أن يزداد قوة بمعرفة سقطات عقله ونفسه وأن يكون مثل الجنى فى أساطير الإغريق الذى قيل أن أمُّه الأرض وأنه كان كلما صُرِع وغلب ومس جسمه الأرض ازداد قوة ونشاطًا وقدرة على الكفاح .

١٧ - ينبغى لكل إنسان أن لايحكم على أعماله بظاهر ما يؤيدها به من حجج . وأن يُعَوِّد نفسه على أن يبحث عما وراء ذلك من أسباب مستترة ولايطمئن حتى يصير ذلك البحث عادة

تؤاتيه من تلقاء نفسها . ولكن ينبغى مع ذلك أن يعرف أن هذا البحث مطلب عسير ، إذ أن النفس كثيراً ما تضلل صاحبها فيه بوسائل مختلفة .

١٨ - إن الإنسان الذى يتطلع إلى بلوغ منزلة كمال الملائكة قد تتدلى به غرائزه فى سبيل هذا المطلب وتهوى به طبائعه فى العمل للوصول إلى منزلة الأبرار حتى يصير فى حضيض الشياطين أو فى مرتبة البهائم أو الوحوش وهو لايدرى بل يخيل له أنه يعمل للخير . فينبغى أن يحذر المرء ذلك .

١٩ - العادة تشكل الحياة كما تهوى ، فكأنما هى خمرة الساحرة سيرسيه التى يحكى عنها فى أساطير الإغريق والتى كانت تسقى من تستهويهم خمرة تحيلهم قردة أو خنازير أو وحوشًا ضارية أو حيوانات مُسْتَذَلّة . فليحذر المرء العادة إذا استطاع الحذر منها والتحكم فيها بدل تحكمها فيه ، وهى فى أول أمرها أسلس قيادة للمرء وأضعف ، فإذا تأملت ركبته وغلبته على نفسه . وقد يكون تأصلها إما بسبب أن صاحبها يجهل عواقبها ويستلذ مواقعتها ومؤاتاتها ، وإما من كسل الرأى والجسم . واليأس من التغلب عليها يؤدى إلى تحكمها وإلى ازدياد سوء عواقبها .

٢٠ - الموسيقى على لذتها إنما هى إئتلاف نغمات مختلفة الأصوات والمخارج والوقع ، ومع ذلك يستطيع صاحبها أن يؤلف منها أنغامًا عذبة مقبولة إذا كان ممن يجيد فن الموسيقى . وكذلك من يجيد فن الحياة يستطيع أن يستخدم أحوالها المختلفة من سرور وحزن ونعمة وشقاء وغنى وفقر ، كى يؤلف منها فنًا مؤتلف النغمات عذبًا مقبولا .

٢١ - مقاساة الآلام والخطوب هى فى الخوف من مقاساة الآلام والخطوب . فإن المرء بهذا الخوف يُقْبِلُ على مايخاف كبعض الحيوانات الضعيفة التى يقال إنها إذا تملكها الذعر كل التملك تُقْبِلُ على الوحوش التى تفترسها .

٢٢ - كما أن علم الطب مؤسس على التجارب فعلم الحياة أيضًا مؤسس على التجارب ولا صلاح لها إلا بها - ولكن بعض الناس خلقت لهم غرائز وطبائع يعرفون بها طرق النجاح والصواب وإن قلّتْ تجاربهم ، كما أن بعضهم لا ينتفع بكثرة تجاربه كالملاح الذى يطوف العالم فتحسب أن أسفاره قد جعلته خبيراً حكيمًا عاقلا عالمًا ، ولكنه قد يرجع من أسفاره ، وهو جاهل غبى كما كان قبلها ، ولم تفده تجاربه ومشاهداته عقلا أو علمًا .

٢٣ - لايمتاز الحق على الباطل بأن الحق من حقه أن يقال فى كل زمان ومكان فقد يكون قول الحق مؤذيًا للناس مضراً بالعدل أو قد يكون قوله لا طائل تحته ولا فائدة إلا العناد الذى يجر إلى خبث النفس والحقد والمهاترة ، أو قد يكون قول الحق كأنه لم يقل من صمم السامع . ولكن متى وجد الإنسان فرصة مؤاتية وزمانًا موافقا واعتزم أن يتكلم وجب عليه أن لايتعدي الحق وأن لايتخطى الصدق إذا وجد أن قوله غير مضر بالعدل والخير . فلو أن رجلا فر من مجرم حتى غاب عنه ورأيت الطريق التى سلكها وسألك المجرم أن تدله عليها كى يقتله ، ماكان من العدل والخير أن تخبره ، ولهذا المثل أشباه فى الحياة كثيرة .

٢٤ - كثيراً مايحكم الناس ويتخذون رأيًا فى أمر من الأمور قبل تمام المعرفة وقبل اتخاذ الأهبة للحكم وقبل الاستعداد حتى لايفوتهم شئ من صواب أمره . وهذه عادة شائعة لها أسباب كثيرة مثل الكسل أو قلة الاكتراث والاهتمام بالحق أو الخوف من إرهاق النفس وكدها بالتقصى والتمحيص أو الاكتفاء برأى الغير وحكمه اعتماداً على أنه قد كلف نفسه مؤونة البحث وربما لم يكن قد فعل ، كما لم يفعل من اعتمد على رأيه إلى آخر ما هناك من الأسباب العديدة .

٢٥ - إن الإنسان يخلق لنفسه ضرورات . فإن كثيراً من الأشياء والأمور لاتصير ضرورية إلا لأن الإنسان ألفها فاحتاج إليها ، ألا ترى أن الثياب ماكانت ضرورية قبل أن اتخذها الإنسان ورقت بشرته وأعصابه واحساسه ، فإذا حاول أن يستغنى عنها بعد ذلك هلك . ولكن قد يستغنى عنها من لم يتعودها من القبائل . وقد ذكر هيردوت المؤرخ أن جماجم قدماء المصريين كانت أكثر صلابة من جماجم الفرس لأن قدماء المصريين تعودا الإقلال من غطاء الرأس أو الاستغناء عنه ، وتعود الفرس غطاء الرأس الثقيل ، فالعادة تشكل الجسم وتتحكم فيه كما تتحكم العادة أيضًا فى النفوس والأمور النفسية . والمؤرخون يقولون إن اتخاذ الإنسان الثياب كان بسبب عصر الثلج الذى زحف فيه الثلج جنوبًا وبرد فيه الجو فإذا صح لك كانت الضرورة هى التى دعت إلى الحاجة للثياب واتخاذها من جلود الحيوانات وفروها قبل أن يتعلم الإنسان الغزل والنسج ، ولكن بعض القبائل حتى فى الأقاليم الباردة لاتزال تعيش شبه عارية أو كان ذلك إلى عهد قريب .

٢٦ - ليست عظمة الأمور وقيمتها هى التى تدعو إلى البحث عن أسبابها بل جدتها أو مفاجأتها أو غرابتها هى التى تدعو إلى ذلك وتغرى النفس بالتعلق والشغف بها وباستطلاع

أمرها . وهذا يصدق فى أكثر الناس إلا من خصص حياته لدراسة أمر هام . ومن أجل ذلك جاءت المخترعات والمستكشفات القديمة عفواً كالنار مثلا - ويقال إن البنسلين فى عصرنا كشف عفواً على أن غرابة الأمور لاتمنع من أن تكون لها قيمة وعظمة .

٢٧ - من الخطأ وقلة الإنصاف أن تحتقر بعض الأعمال الضرورية لأنها ممضة متعبة كريهة مع أن الحياة لاتستقيم إلا بها فضرورة العمل من مقاييس قيمته ، والسعيد من تطاوعه نفسه على أن يستنبط سروراً في كل عمل ضروري يعمله مهما كان كريهًا .

٢٨ - العقل يعرف بملكاته فحيث توجد يوجد العقل . ومن ملكات العقل الحافظة والذاكرة وقياس الأمور والتهدى به إلى الصواب وإلى الرجوع عن الخطأ ، وهذه ملكات نجدها فى الحيوانات والطيور . ومن بحث فى حياتها وعرف صفاتها من وفاء وتذكر للجميل وحفظ ماتستوعبه حواسها ومن التأنى للانتقام ممن أساء إليها ومن شهامة أو خبث تعد لهما الوسائل وتدبر الأمور ومن حزن أو سرور ومن ندم أو توبة ومن مكر أو دعابة ومن تهد إلى الصواب بعد الخطأ ومن نظر إلى ماتستطيع أن تعمله إما بتدريب أو بغير تدريب - لايستطيع أن ينكر أنها عندها قوة الإدراك وحفظ ماتدركه وعندها التذكر والاستنتاج . وقد أطال مونتانى فى ذكر شواهد ذلك وقصصه . وذكر أنها ماكانت تستطيع كل ذلك لولا ملكات العقل المذكورة التى نسبها إليها . وللرحالة هانز كودنوف حجج وقصص مثلها فى كتاب « جيرانى الأفريقيون » . ولجاك لندن القصصى الأمريكى أيضًا .

٢٩ - لو كان للكذب وجه واحد فرد؛ استطاع الإنسان معرفته ، ولكن الأكاذيب تختلط وتتفاعل فتنشأ عنها أكاذيب أخرى مختلفة الوجوه والأنواع والأشكال . فلا تستطاع معرفة الباطن بسبب هذا التفاعل . وقد يكون الكذب شبيهًا بالحق فيخدع المرء وجه الشبه أو قد يكون فى الكذب شئ من الحق ولكن ما أضيف إليه من الكذب والباطل يخرجه عن حد الحق وقد يجعله أبلغ فى باب الكذب .

٣٠ - من الخطأ أن يحتقر المتعلق بأمور الروح أو صفات أو صفات العقل جسمه إكرامًا لنفسه . لا كرامة للنفس من غير كرامة الجسم والاهتمام بأموره .

(١١)

نظرات لابروبير [١]

لاتتم النظرات التى اقتبسناها من الأدب الفرنسى من غير اقتباس بعض نظرات لابروبير والتعليق عليها بما يناسبها من الآراء . قد ترجم حياته ونقده الكاتب المطلع جورج نيقولاوس فى عدد ماض من أعداد المقتطف ، ولكنه لم يكثر من الاقتباس منه . وكنت قد اطلعت على إعلان عن ترجمة كتابه الأخلاق لوكنى لم أره . وفى بعض التعليق الذى نضيفه إلى نظراته مايجلوها بذكر ما يوافقها أو يخالفها من آراء المفكرين . وقد كان لابروبير معاصراً للاروشفو كولد وهو ينحو نحوه وتارة يرتفع إلى مستواه ، وتاره ينخفض عنه . ونجده فى بعض نظراته يتردد فى رد فضائل الإنسان كلها وعيوبه إلى الأثرة وحب الذات كما ردها لاروشفو كولد . والمفكرون مختلفون فى هذا الرد كما سيتضح . وقد درس لابروبير القضاء وزاول منصبًا إداريًا فى نورماندیا . ثم عين مربيًا ومعلمًا لدوق بوربون حفيد أمير كوندى ، وانتخب عضواً فى المعهد العلمى الفرنسى . وعندما أدركته المنية كان قد ألف من هذه النظرات ألفا مئة . فلعل اكثاره سبب تفاوته فيها . وقد وصف الفلاح الفرنسى وصفًا ينذر بالثورة الفرنسية قبل أوانها .

وهذه بعض نظراته وأفكاره :

١ - إذا صح مايقولون من أننا نشفق على التعساء أشفاقًا على إنفسنا أن نصير يومًا مثلهم تعساء ، فلماذا لانعطف عليهم ولانحسن إليهم ولا نشاركهم فيما ننال من النعمة إلا بهذا القدر الزهيد التافه ؟؟ ولهذا أسباب منها : أنه إذا كان جانب من النفس يعطف ويحسن خشية أن تصير مثل من تحسن إليه ، فإن للأثرة جوانب أخرى تدفعها إلى الاستئثار بخيرات الحياة . ثم إن الإحسان الزهيد التافه قد يرضى ضمير المحسن فلا يحس ألمًا ، بل إن الرحمة من غير إحسان ومعونة قد يعدها من يشعر بها تكفيراً عن كثير من وسائل الاستئثار بالخير ، وإن لم يصحب الرحمة بر فتعيد إلى نفس صاحبها الاطمئنان ، وتدعوه إلى استئناف الكفاح ، والمنافسة فى خيرات الحياة . ومن عوامل الزهد فى البر والإحسان الخوف إذا بذل المرء ماعنده أن يصير مثل من يحسن إليه . وكل هذا لاينافى أن المرء قد يحسن إحسانًا زهيداً تافهًا خشية أن يصير مثل من أحسن إليه . وإن الإحسان هنا من الأثرة وباعثه حب الذات . والتكفير عن وسائل الاستئثار أو عن السعادة .

---

١ - المقتطف سنة ١٩٤٩م ، المجلد ١١٤ ، الجزء الأول ، ١ يناير سنة ١٩٤٩م ، ص ٥ ، ١١ .

على أن كثيراً من المفكرين ينكرون أن تكون كل دوافع النفس أساسها واحد وينكرون أن تكون كلها مردودة إلى عامل الأثرة وحب الذات . قال هازليت إن أحاسيس النفس المتضاربة وأهواءها المتباينة وهواجسها المتنافرة تُبطل أن يكون للنفس أساس واحد وهو حب الذات ، إذ كثيراً مايتعس المرء نفسه لأسباب تافهة لاتفيده بل تضره . على أن هذا لايمنع أن يكون مرد كثير من الأمور التى تتعس المرء إلى الأثرة الخرقاء الحمقاء التى تتعس المرء وهو يظن أنها تسعده ، كما لايمنع أن يكون الإيثار نوعًا من الأثرة كأن ترجو به النفس العلاء والحمد وطيب الذكر والظفر بالإيثار ، فهى تتجنب الأثرة وتختار الإيثار لأوجه من النفع . وإذا أخذ الإنسان برأى شوبنهور فى وحدة الحياة وأنه مظهر من مظاهرها فحسب ، وأن اعتبار نفسه وحدة مستقلة من خطأ الحواس والاحساس استطاع أن يتخلص من بعض أثرته إلا إذا عد نفسه الممثل الأعظم لوحدة الحياة وإرادتها ، وأنه من أجل ذلك أحق بالخيرات والاستئثار بها وكان «كانت » الفيلسوف الألمانى يعد الواجب المفروض فكرة أولية فى النفس . وقال ينبغى أن يعمل الإنسان بحيث يصح أن يكون عمله وخلقه مبدءاً عامًا . وهذا مشتق من قول جان جاك روسو : إن كل إنسان ينبغى أن تكون إرادته الخاصة مطابقة للإرادة العامة للأمة . وأعتقد أن كل هذه الآراء مشتقة من الفكرة القديمة التى توجد فى كتب الأدب العربية كما توجد فى الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام وهى : ينبغى للمرء أن يعامل الناس كما يود أن يعامله الناس ، أى حب للناس ماتحب لنفسك . ومن الغريب أن الأستاذ هوكسلى « أى هوكسلى الكبير » فى مجموعة رسائلة يرفض هذا المبدأ بدعوى أن كل إنسان يود أن يغتفر الناس قسوته وجرائمه وآثامه ، فلو اغتفرت كل الآثام والجرائم أصبح العالم فوضى وانتشر الشر . وبديهى أن هوكسلى فسرها على غير معناها ، إذ أن معناها : عامل الناس بمثل ماتود أن يعاملوك به من التعاون التام والامتناع عن القسوة والآثام فى معاملتهم لك . على أن أداء الواجب ليس فكرة أولية كما زعم « كانت » بل هى فكرة مكتسبة ولا هى راسخة فى النفوس، بل كثيراً ما تنتفى فى النفس وتحل محلها الأثرة الجامحة القاسية .

ولكن مما لاشك فيه أن الإنسان قد تتأصل فيه روح التضحية حتى يكون عمله بباعث نفسى عكس قوله ورأيه ، كما فى قصة روبرت جرانت الكاتب الأمريكى المسماة « عمله ضد رأيه » وهى قصة رجل مفكر أبى أن يحبذ عمل إنسان أودى بحياته فى إنقاذه طفلا صغيراً؛ لأن هذا المضحى الذى أنقذ الطفل ومات فى أثناء إنقاذه قد خلف زوجة وسبعة أطفال وهو

كاسب رزقهم وتحمل المنكر عليه عمله اشمئزاز أصدقائه من رأيه ، ولكنه بعد زمن فعل مثل الفعل الذى أنكر تحبيذه بدافع خفى من نفسه فأنقذ طفلا من الهلاك وهلك بسبب ذلك ، وهذا يذكرنى قصة « على الحدود » لموريس لى بلان وبها مفكر يرى أن الحروب لاتبطل إلا إذا امتنع كل إنسان عن القتال حتى لو غزيت أمته فى عقر دارها . ولكنه لما رأى الألمان أغاروا على الحدود حمل سلاحه بدافع غريزى من نفسه وذهب ليقاتلهم وليدافع عنها . وهذا غير ما فعل رومان رولان الكاتب الفرنسى الذى أبى الحرب وأبى القتال ورفض حمل السلاح وترك فرنسا وذهب إلى سويسرا فسقط فى نظر كثير من الفرنسيين . وقد قال « كانط » إن المرء لايستطيع أن يحكم أن الواجب هو الذى يدفعه إلى عمل من الأعمال إلا إذا كان هذا العمل يخالف رغباته المحبوبة السارة ، وليس معنى ذلك أن الواجب لايكون واجبًا إلا إذا كان كريها بغيضًا مخيفًا ، وإنما هذه فكاهة من شيلر الشاعر الألمانى يداعب بها « كانط » وقد كان معجبًا به . وبعد كل هذه الجولة فى التفكير فإننا لم نقطع برأى بات فى تساؤل لابروبير .

٢ - قلما يلتذ المرء أن يرى نفسه مكلفًا بمعاونة إنسان فى حاجة إليه . ولكن من الغريب أن الحظ السعيد إذا جعل هذا الإنسان فى غنى عنه وعن مساعدته فإنه قد يسر لرفع العبء عنه ، ولكن سروره لايكون تامًا بل قد يمازجه شئ من الامتعاض كأنما ذلك الحظ السعيد الذى أغنى ذلك الإنسان عنه قد انتقص من قدره ، لأن احتياج المحتاج إليه يشبع غروره وزهوه بالرغم من عبئه . وإشباع زهوه يدعو إلى اطمئنانه إلى قدر نفسه وعظمتها ، أو قل إن الأثرة فى باطن نفسه كانت تفضل أن يزاد سعداً على سعد بأن ينال الحظ السعيد الذى ناله المحتاج إليه ، ثم يظل ذلك المحتاج إليه محتاجًا إليه . وكذلك إذا نال صديق نعمة أو منزلة أو جاهًا فإن المرء يبتهج بما نال صديقه ويُسَرّ له ، لكن سروره كثيراً مايمازجه أمتعاض خفى ، فالسرور بنعمة الصديق لاينفى وجود عكسه من حسد أو تنغيص أو ألم ، لأنه لم يزد حظًا على حظ بدل أن ينال الحظ صديقه . وهذا من اجتماع الأضداد فى النفس وقد تجتمع .

٣ - إن الذى يستطيع أن يصبر صبراً طويلا قبل نيل ما يريد لا ييأس كل اليأس إذا لم ينله . أما الذى يترقب نيله بشغف ولهفة لا صبر فيهما فإنه أكثر تعرضًا لليأس . ثم هو إذا نال ما يريد لا يرى ما ناله بعد آلام اللهفة كفاء لما قاسى فى سبيل توقع نيله وارتقابه من عنت الشغف واللهفة ، فكأنه لم ينله كله أو بعضه .

وهذا إذا كان الشغف به لايزال فى نفسه كله أو بعضه ، أما إذا كان قد زال أكثره فإن مارسيل بروست صادق فى قوله إنه إذا تحققت الرغائب بعد زوال الشغف بها قنعنا منها بأقل ما كنا نقنع من قبل : إذ الشغف لايزال قاهراً حاداً .

٤ - الإنسان يزداد مع الزمن ألفة لمن صنع معهم جميلا وأحسن إليهم ، ولكنه يزداد نفوراً ممن أساء إليهم . وذلك لأن رؤية الطائفة الأولى تزيد حسن رأيه فى نفسه . أما الطائفة الثانية فإن رؤيتها تُذَكِّرُه إساءته إليهم فتقلل من حسن رأيه فى نفسه حتى ولو كان جانب من نفسه يباهى بقدرته على الإساءة فإن جانبًا آخر من نفسه يبصره بعيوب نفسه ولو كان ذلك عن طريق الوعى الباطن الخفى .

٥ - الناس يذمون الإسراف فى كل الأمور إلا الاسراف فى شكر نعمتهم عليهم ، فإنهم قلما يذمون الإسراف فى شكر نعمتهم - إلا إذا فطنوا إلى أنه يراد به المزيد من النعم التى لايريدون أن يجودوا بها - ولكن الناس فى أكثر الأحوال يطلبون المزيد من شكر نعمتهم مهما بالغ الشاكر فى شكرها ، ولايرون شكره كفاء لما أولوه من النعمة ، بل يرون أنه دائمًا مدين لهم بالشكر .

٦ - الحديث المحبوب لدى القلب أطيب من الحديث المقنع للعقل بحججه . ومن أجل ذلك تُصغى النفس إلى ماتود أن تسمعه أكثر من إصغائها إلى ما يقنعها - بل هى تصنع أكثر من ذلك فتستنبط للحديث الذى تود أن تسمعه براهين وأدلة كى تقنع نفسها أنه أقنعها ، وأنها لم تصغ إليه لأنه محبوب تود سماعه ، بل أصغت إليه لأنه يدلى بالمنطق الحق والبرهان الصادق ، وأحيانًا لا تكلف نفسها مئونة ذلك وتكتفى بأنه حديث شائق محبوب تود سماعه .

٧ - الرجل يصعب عليه ، لاسيما إذا كان على شئ من الكبر ، أن يغتفر لآخر إطلاعه على سقطة أو زلة أو سيئة بدرت منه ، وخاصة إن كان عند المطلع على زلته أسباب وجيهة تدعوه إلى مؤاخذته أو لومه ، ولا يهدأ غضب صاحب السقطة أو الزلة أو السيئة إلا إذا ألزم الآخر مثلها وأظهره فى مظهر شبيه بها فكأنه بذلك يمحو أو يخفى أو يهون من أمر زلته أو عيبه ويزداد قدراً لدى نفسه . ولما كانت العيوب والسيئات شائعة بين الناس كثيراً ما يتعاونون لتهوين زلاتهم بإلزام غيرهم سيئات مثلها .

٨ - كثيراً ما تصدر من المرء أعمال عظيمة وإحساسات نبيلة فتنسب إلى حب الخير الغريزى فى النفس البشرية والحقيقة أنها بسبب ما اكتسبه بالعادة والمراس والمحاكاة للخلق السائد الممدوح لدى الناس ، فإن هذه الأمور تكسب المرء قوة خلقية ، أما غريزة الخير فإنها تضعف لولا العادة والقدرة وهما يزيدانها تمكنًا .

٩ - كثيراً مايكون ضعف المرء وعجزه باعثين له على البغض والكره والمقت ، إذ لو كان قادراً غير عاجز للجأ إلى وسائل أخرى . والرغبة فى الانتقام وطول التفكير فيه هما بسبب هذا الضعف لأنه لم تتم له بعد أسباب القدرة عليه ، فضعف المرء يدعوه إلى كره الناس . ولكن كسله وحبه الراحة والدعة والاطمئنان والسكينة أمور قد تدعوه إلى التخلى عن كرهه وعن محاولة التشفى . ومن أجل ذلك كان من الصعب أن يقهر المرء غضبه فى أول الأمر إذ اغضب على إنسان ، ولكن إذا تراخى به الزمن كان من الصعب أن يعانى شعور الغضب والبغض على الدوام ، لأنه يقلل من راحته وهناءته ، إلا إذا جعل للسخط والرضا ، تداولا وتعاقبًا على نفسه.

١٠ - من الصعب محاولة إغراء المرء باتباع رأيك فى الأمور الكبيرة قبل أن تتمكن من أن تعوّده على اتباعه فى الأمور الصغيرة التافهة . فإن المرء يأنف أن يعمل حسب مايوحى به غيره - حتى ولو كان صوابًا - إلا إذا كان الموحى المغرى صاحب لباقة تمنع الموحى إليه من الشعور بالأنفة لرأى غيره ، فإذا لم ين المغرى بالرأى الموحى به صاحب لباقة كهذه اللباقة دفع المرء الاستحياء أو الكبر أو هوى النفس إلى رفض ذلك الاغراء والتحكم ، ولكنه إذا تعود أن ينقاد فى الأمور الصغيرة التى لايرى أنفة فى الموافقة عليها بسبب زهادتها وتفاهتها ، انزلق واسترسل به التعود فينقاد فى الأمور الكبيرة . وهذه حقيقة يعرفها الناجحون فى الحياة الذين يحملون الناس على قضاء مايريدون وقد يحملون من هم أكبر عقلا منهم ، ومن تظن أنهم لاينقادون لأمثالهم وإنما يفعلون ذلك باتباع هذه الحقيقة النفسية السيكولوجية . وكثيراً مايكون الضعف سبب انقياد المرء لرأى غيره . ولكن الكسل وحب الراحة من أسباب هذا الانقياد . وهى حقيقة يستغلها ويستثمرها ذوو الإلحاح لنيل مطالبهم ، وكأنهم ينتهزون فرص استرخاء الكسل والدعة ومحبة الراحة ويعرفون صفاتها وأوقاتها فيهجمون فى حالاتها على من يريدون الالحاح معه باللباقة كتلك التى وصفت .

١١ - قد يكون من الدهاء أن نعامل أعداءنا على أمل أن يكونوا يومًا أصدقاءنا ، وأن نعيش مع أصدقائنا على حذر من أن يصيروا يومًا أعداءنا . ولكن هذا يجافى أصول المودة والعداوة . وقد يدعو إلى أخلاق غير فاضلة وإلى تكلف ماليس من الصدق والنبل ، وإلى استخدام الكذب والرياء . وأفضل من ذلك أن لايصاحب المرء إلا ذوى العقل والأمانة والشهامة الذين إذا صاروا أعداءه عادوا من غير أن يتعدوا حدود العقل والأمانة والشهامة - ولكن هل يستطيع دائمًا أن يميز من لايتعدون حدود العقل والأمانة والشهامة فى عداوتهم ؟. فى بعض الأحايين يستطيع تمييزهم بأن يفحص معاملتهم لأعدائهم قبل أن يصادقم . فإذا وجد أنهم يعاملون أعداءهم بالخيانة وقلة الشهامة والرعونة ، استطاع أن يعرف أنهم لو صاحبوه ثم عادوه أو عاملوه بمثل تلك المعاملة التى تدل علي لؤم العداوة وخستها وغدرها وحماقتها .

١٢ - لو أننا لم نسر وتأنينا فلم نضحك إلا بعد زوال جميع منغصات حياتنا ، وبعد كمال سعادتنا لكان من المخوف أن نموت قبل أن نضحك . والحقيقة أن الضحك أو حتى تكلف الضحك ، قد يقلل من متاعب الحياة . ولكن كثيراً من الناس يتشبثون بمنغصات حياتهم ومتاعبها ، بأن لايبيحوا لأنفسهم الضحك إلا بعد زوالها ، فيكون تشبثهم بها بحرمان أنفسهم من الضحك باعثًا على بقاء متاعبهم وثقل عبئها .

١٣ - أحب الرغبات إلى الإنسان التى لاتتحقق ، لأنها متى تحققت وفاز بها ألفها واعتادها ووجد بعض الملل فى نفسه إليها سبيلا فى بعض الأحايين فتقل قيمتها . وكثيراً ماترى الرغبات التى تتحقق ويفوز بها الراغب تواتيه فى غير أوانها الذى يسعد بها فيه أو توافيه فى حالات من حالات نفسه . وفى ظروف من الحياة تقلل من المتعة بها . ولهذه الأسباب كلها تقل قيمة الرغبات إذا تحققت مهما كانت عزيزة محبوبة قبل الوصول إليها . فلا تقنع الفائز بها ، ولا ترتاح نفسه ، ولاتهدأ ، وهو كذلك لاترتاح نفسه ، ولا تهدأ ، إذا لم تتحقق الرغبات بسبب ألم اللهفة . فالإنسان قلما يرضى سواء تحققت رغباته أو لم تتحقق . وفى هذا عظة له وعبرة لو يعتبر .

١٤ - إن ألم الحزن لفقد من نحب أقل ثقلا على النفس من نكد العيش مع من نكره . ومن منغصات الحياة مع من نبغض ، لأن ألم الحزن على الفقيد المحبوب يقلله مرور الأيام ، ويكتسى وشيا من الذكريات الجميلة التى تكسب الحزن شيئًا من مباهج الجمال . أما العيش مع البغيض المكروه فإنه يزداد ثقلا على النفس فتزداد به غما مادام دائمًا لم يزل .

١٥ - المودة المستكملة الصادقة فى كل بواطنها ومظاهرها ، أندر وأقل حدوثا من العشق الشديد . وفى المودة نأتمن الصديق على أسرارنا بمحض إرادتنا . أما فى الحب فلا إرادة ، بل قد نذيع أسرارنا بالرغم منا ، وقلما تزول الصداقة إلا لأسباب تدعو إلى نقضها كالغدر أو الإساءة التى لاتقبل ، أو الجفاء الذى يدل على الفلظة . أما الحب فقد يوجد كأشد مايكون بالرغم من هذه الأسباب . فإذا زال فقد يزول من غير سبب ، بل يفيق المحب إلى أنه صار لايحب حبيبه وهو هو لم يتغير . وقد يولد الحب بغتة من غير إرادة أو تفكير . أما المودة فإنها فى حاجة إلى العشرة والألفة والزمن كى تنضج ثمراتها . وقد يكون أشد الحب المباغت من أول نظرة . ورب نظرة إلى وجه جميل أو يد رشيقة قد تصنع بالقلب فى طرفة عين ، مالا تصنعه أعوام طويلة زاخرة بالعطف والمودة وأداء المعروف .

ع . ش

(١٢)

نظرات لورد بيكون (*)

من الغريب أن لورد بيكون من المفكرين الإنجليز الذين أولع أهل الخيال والأهواء بهم فتارة يزعمون - كما قرأت في مقال - أنه إدوارد السادس مع أن بين ميلاديهما فرقًا يقرب من الجيل ، ومات إدوارد السادس بعد ضعف ومرض وحضر موته الأطباء وكان فرنسيس بيكون وهو غلام يصطحبه أبوه السير نيكولاس بيكون إلى قصر الملكة اليصابات وكان من أعوانها وكانت الملكة تداعبه فتسمية كاتبها أو وزيرها الصغير وأسرته معروفة والبيت الذى ولد فيه غير مجهول وكل حوادث حياته حقائق معلومة فليس فى حياته أي غموض . وبعض أهل الخيال والأهواء يدعون أنه كتب قصص شكسبير الشاعر العالمى ، ولكن شكسبير كان مكثراً من العمل . وبيكون كان مكثراً من العمل . ويستحيل أن يقوم إنسان واحد بالعملين معًا مهما كانت قدرته . وبالرغم من أن بيكون كان أديبًا فإنه كان يعد البحث العلمى أهم من الأدب وقد مات بسبب أنه خرج فى يوم بارد كثير الثلج ليجرب تجربة عملية نافعة ، وهى حفظ اللحوم بالثلج ومنعها من التعفن . وقد كان ينعى على القدماء تفضيل الفلسفة النظرية والأدبية على البحث العملى العلمى ، وله مؤلفات كثيرة فله كتاب الرسائل وكتاب حكمة القدماء فى أساطيرهم وكتاب أقوال مشاهير الرجال ، وكتاب أطلنطيس الجديدة وكتاب تاريخ حياة هنرى السابع وكتاب « نوفام أرجانوم » أى الأداة الجديدة فى العلم والتعليم وكتاب تقدم العرفان ، وعلاوة على ذلك فقد كان له عمله فى البرلمان وفى المحاكم فى سماع القضايا والحكم فيها وكتابة أسباب حكمه بعد التفكير فيها وكان مستشاراً لبعض وزراء الملك جيمس الأول يكتب لهم التقارير ولم يشتهر بشئ من الشعر مع أن بعض الأشراف لم يعدوا كتابة الشعر فى عهده حطة لهم ، فكيف كان يستطيع مع كل هذه الأعمال أن يؤلف قصص شكسبير العديدة ؟ على أن فى قصص شكسبير من الأغاليط التاريخية ما لا تقلل من عظمة عبقريته كشاعر ، ولكنها هى والأغلاط الجغرافية ما كان يقع فيها مؤرخ مثل بيكون ، وشكسبير فى بعض قصصه يشكو حظ الممثل أو الأديب أو نكاية زملائه وهذا لاينطبق علي بيكون ، كما أن

---

* - المقتطف سنة ١٩٤٩ م ، المجلد ١١٤ ، الجزء الثانى ، أول فبراير سنة ١٩٤٩م ، ص ٨٩ . ٩٨ .

شكسبير كان فى بعض قصصه يداعب أو يسخر من قول بعض الشعراء . وهذا أيضًا يستبعد من بيكون الذى كما يزعم أهل الأهواء أنه قد ترفع عن طبقة الشعراء وإن كان أكبرهم قصصه فنسب إلى غيره . أما بحوثه العلمية التى كان يقضى بها وقت فراغه وآراؤه فيها فليست كلها مقبولة لدى علماء هذا العصر ولا غرابة فى ذلك . ولم يكن مبتكراً فكرة تقديم الخبرة والتجربة فى العلم والوصول من الشواهد الخاصة إلى القاعدة العامة ولكنه أذاعها وجعل هذه الفكرة مبدأ عامًا واشترطها فى البحث العلمى العملى فى كتابه عن العلم والتعليم . ولاشك أن عقله كان أكبر من قلبه ولاداعى للخوض فيما اتهم به من العيوب إلا أنه من الضرورى أن نقول إنه حوكم لقبوله الرشوة فى القضاء واعترف بذلك قائلا إن أحكامه بالرغم من ذلك كانت وفق العدل . قد ندم على ما فعل. وقد عومل بالرفق فى محاكمته ثم مالبث أن أطلق صراحة وأسقطت عنه الغرامة التى فرضت عليه .

وهذه النظرات من رسائله تدل على كبر عقله وخبرته بالنفوس البشرية .

١ - الحق كضوء النهار لايزين قناع زخارف الحياة المموهة أباطيلها وبهارجها وآمال الناس فيها وأعمالهم ونزعات نفوسهم إذا كان الحق خالصًا من شائبة الخداع للنفس ، كما يزينها إذا كان مشوبًا بشئ من الخداع للنفس بالباطل خداعًا قد يكون غير مدرك وضوء هذا الحق ، الحق المشوب بخداع النفس ، قد يكون أشبه الأشياء بضوء الشموع فى المراقص المقنعة ليلا يخفى نقائض ألوانها وبهارجها وحقيقتها ويكسبها شيئًا من الجمال المصطنع ويزين لباسها المستعار ويخفى بعض مابها من ادعاء . ومن أجل ذلك كثيراً ما يخالط الحق حتى من غير تعمد للخلط شئ من الباطل كى يقلل من نور الحق فلا ينم على أكاذيب الحياة وهى كثيرة ، وهل من شك فى أنك إذا سلبت من إنسان كل ما فى عقله من آراء لا أساس لها من الحق ، ونزعت عنه كل آماله الباطلة التى تملقه وتزين له أمره وعيشه وتحثه على استئنافه والاطمئنان إليه وحرمته من مقاييس عقلية باطلة ومن أحكام وموازين يتشبث بها ومن أحلام فى الحياة جميلة لا حقيقة لها ولكنها تريحه وتسعفه ويتعلل ويتسلى بها ، إذا نزعت من عقله ونفسه كل ذلك لم يبق له غير عقل ضامر هزيل ونفس ضئيلة حائرة خائبة . فالباطل قد يمازج الحق كما يمازج المعدن الخسيس الأشد صلابة الذهب الأبريز كى يزيده صلابة ويجعله أصلح ، كنقود فى المعاملات وإن كان ينقص من قيمة عنصر الخليط .

٢ - جلال الموت ومايحاط به أشد رهبة من الموت . وبعض المفكرين يخيف الناس من الموت بأن يقيس مافى الموت وهو تلف الجسم كله بما فى تهشم أصبع وهو جزء صغير من الجسم. هو قياس غير صحيح لأن الأعضاء الحيوية أقل تأثراً بالألم والألم فيها أسرع مفعولا . فكثيراً مايموت الناس من غير احساس كبير بالألم . وليس فى النفس إحساس قوى يعجز عن التغلب على الخوف من الموت . فالغيظ وطلب الثأر والحب وطلب المجد والإحساس بدافع الدفاع عن الشرف والحزن والخوف والشجاعة وحتى الاشفاق والرحمة وهى أرق الطباع ، كلها أمور تستطيع التغلب على الخوف من الموت ، وحتى الملل من الأمر المعتاد والمكرر قد يتغلب على الخوف من الموت ، فالموت إذاً أقل شدة بأسًا وهولاً مما يصوره بعض القائلين .

٣ - من الحماقة والغفلة أن يريد المرء بغيظه وحنقه وكرهه قسوته أن يحقق إرادة الله ، فيؤدى ذلك إلى الإجرام وإلى مثل مذابح سان برثولوميو . لقد كان من الكفر والإجرام قول إبليس إنى أريد أن أصعد إلى عرش الله . أليس مما هو أشد كفراً وإجرامًا أن يريد المرء إنزال الله من على عرشه كى يشركه فى قسوة الإنسان إذ يتوهم أنه يخدم الله بقسوة مثل قسوة قرصان البحر .

٤ - إن من أعظم العظمة التى هى منزلة عظمة المعجزات أن يحكم المرء نفسه كل الحكم فيما ينوبه من حوادث الدهر . ويعجبنى قول سنكا الفيلسوف الرومانى فى هذا الموضوع «أسمى ما يكون عجز المربوب إذا اقتدى باطمئنان الرب » .

٥ - إن الحزن الذى تزينه أسباب الأمل والإطمئنان والإيمان كالثوب القاتم اللون المطرز بالخيوط الزاهية البهجة . فهو أملأ للعين وأشرح للصدر من السعادة التى تحيط بها المكاره والمخاوف المقلقة والتى تكون كالثوب الأبيض المطرز بالسواد .

٦ - مهما كان الرياء لازمًا فهو مظهر من مظاهر العجز فى الأمر الذى لجأ إليه المرائى ، إذ لولا العجز فيه ما لجأ إلى الرياء .

٧ - من الناس من يتقنون الصراحة ويتخذونها خطة حتى يعرفوا بها ، فإذا لجأوا إلى وسائل المكر والنفاق لم يصدق أحد أنهم من أهل المكر لما عهد من صراحتهم فكأنهم بهذه الوسيلة يختفون فى مكرهم عن أبصار الناس . وهذا يذكرنى قول أبى تمام الطائى :

سكن الكيد فيهم أن من أعـ ـظم إربٍ ألا تسمى أريبا

٨ - الرجل الذى يقول كل مايعرف كثيراً مايسوقه طبع الكلام وعادته حتى يقول مالايعرف ويدعى أنه شاهد مالم يشاهد وحضر مالم يحضر . والناس يأتمنون الرجل الكثير الصمت على أسرارهم والثرثار مكشوف العورة كالرجل العريان . وكما أن الثياب تزيد المرء وقاراً فالكتمان يزيده هيبة ووقاراً . وليس الكتمان باللسان وحده بل أبلغ منه الكتمان بضبط المرء تقاسيم وجه وحكم تقاطيعها حتى لا تنم على ما يكتم لأن الناس يصدقون ما تنم عنه ملامح الوجه أكثر من تصديقهم كلامه وإن نمقه وزينه . ومن مزايا الكتمان أنه يدعو إلى استنامة أعدائه وإلى مباغتة مناضليه وأنه يدع لنفسه طريقًا للتراجع إذا أضطره الأمر ، إذ لو أعلن أمره اضطر إلى المضى فيه أو إلى اظهار العجز والخيبة . وهو بكتمانه وسكوته واصغائه بدل الكلام ، يستطلع مايريد أن يعرف من آراء الناس وأغراضهم وخططهم ، لكن المبالغة فى الصمت والكتمان قد تغرى الناس بأن يظنوا به الجبن والوجل . ثم إن صمت مثل هذا المبالغ قد يحير من يريد أن يعاونه وأن يشركه فى أمره فيفقد ثقة بعض الناس ، ولعل هذا من أسباب شك الناس فيمن لايعاشرهم ولايحادثهم .

٩ - يشترك الآباء والمعلمون والحكام والأتباع وأمثال هؤلاء فى تنمية روح المنافسة فينمو التحاسد والتباغض فى نفوس الأطفال الصغار من حيث لايشعر القائمون بأمرهم الذين تسرهم عاقبة المنافسة العاجلة الفانية ولا يفطنون إلى مايكنونه فى النفوس البشرية من عواقب تبقى مدى الأجيال وضررها فى الحياة كثير وهو ضرر غير مقصور على عهد الطفولة . وإنما يلجأون إلى هذه الخطة لأنها فى نظرهم أسهل خطة للحصول على مايريدون أن يكون عليه الأطفال .

١٠ - فى النفوس صفة لؤم ذائعة وهى أن كل من لم يستطع اصلاح حاله يحاول افساد حال غيره ؛ ومن أجل ذلك كان ذوو العاهات والخصيان والشيوخ وأمثال هؤلاء من أشد الناس حسداً إلا إذا صادف نقصهم نفسًا كبيرة تجعل نقصها زائداً فى شرفها وشفيعا لمدحها ، إذ يقال أن صاحبها أتى بالأمر العظيم بالرغم من عاهته أو نقصه . والحسد داء الأمم والدول ومضعفها ولكنه قد يكبح جماح طغيان الحكام والمقربين لديهم إذ خشوا عاقبته. والحسد كالوباء فمن خشى الوباء كثيراً وذعر منه أصابته غائلته من الرعب . وكذلك من يذعره حسد الحاسد فيظهر الاستخذاء والضعف والذعر فينتهز الحاسد فرصة ذعره ويصيبه بسوء . وإذا فشا الحسد فى أمة أصاب السليم الصفات الكريم الأخلاق الفاضل النفس ، كما يصيب الوباء السليم الجسم فيمرضه . وفى أمثال هذه البيئة التي فشا فيها الحسد يصبح الفضل نقصًا والرأى السديد خرقًا والعمل الصادق عملا كاذبًا فى دعوى ذوى الحسد الذين يرون فى انقلاب

الأمور وحقائقها إخفاء لحسدهم ونقصهم وهم مثل الزارع الذى يزرع الشوك والحسك فى الظلام بين الحنطة وغيرها من النبات حتى ينتشر الشوك والحسك ويمنع القمح وغيره من النمو .

١١ - قال ديموستنيس الخطيب الأثينى أول صفات الخطابة وثانيها وثالثها الجرأة فى الحركة والفعل . وكذلك ألزم صفات النجاح فى الحياة المدنية وأولها وثانيها وثالثها الجرأة . مع أن الجرأة تدل على على أن تفكير صاحبها محدود لأنه إذا تشعب منه الفكر تردد فى شعابه وألهاه عن الجرأة وشغله عنها فالجرأة أحط من غيرها من الصفات الفاضلة . ومع ذلك فهى من صفات النجاح أولها وثانيها وثالثها .

١٢ - قد يكون المرء صالحًا جداً حتى أنه من شدة صلاحه لايصلح لمباشرة أى عمل من أعمال الدنيا بنجاح . والحقيقة هى أن النجاح فى الحياة قد يتطلب - إلا إذا جاء عفواً - شيئًا ولو قليلا من المكر والاحتيال يخالط فضله وصلاحه . وقد يخفيه ذلك الفضل ولكنه موجود يخفى حتى على بعض من يتفكه ساخراً بغباوة أغنياء الحرب إما حسداً لهم ، وإما دعابة يخالطها بعض الحسد ولو القليل منه ، وإما جهلا بأن الغباوة لا تجافى المكر والاحتيال . وإن المكر من مظاهر العقل وهو من صفات النجاح وكثيراً ما يلجأ إليه الغبى كى يجعله عوضًا عما حُرِمَهُ من الذكاء والفكر .

١٣ - قد ينسى بعض الناس الذين طبعهم الإسراف « وبعضهم يسرف من غير شعور فى أمور لا حاجة إليها وأن توهم غير ذلك » أن الإسراف فى أمر من الأمور يقتضى الاقتصاد أو التقتير فى أمور أخرى - وهذا يذكرنى قول معاوية فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ : ما رأيت إسرافًا قط إلا وإلى جنبه حق مضيع .

١٤ - سوء الظن يكثر فى ظلام العقل كالخفافيش تكثر فى الظلام وإذا عظم سوء الظن عَطَّلَ العمل وفصم الصلات وعكر العقل ودعا إلى الظلم والغيرة والتردد والحزن وإلى فقد الأصدقاء . وإذا كان سيئ الظن جبانًا هلوعًا يتملكه الذعر والرعب إذا فكر فيما يسئ به الظن فإن رعبه قد يدفعه إلى عدم التشبث ظنًا أنه إذا تعجل بادر ما يخشاه قبل وقوعه واتقاء مايساء به الظن كأنه أمر حقيقى لاخطر منه ، بل هو لازم إذا لم ينزله المرء فى نفسه منزلة اليقين ويتعجل بالحمق لمعاقبة من يسئ به الظن وكذلك الذى يساء به الظن وهو برئ أو يخشى أن يساء به الظن ينبغى ألا يظهر فى ملامح وجهه وحركات جسمه أنه يخشى أن يساء به الظن وألا أسئ به الظن ريبة وإن كان بريئًا كما قال الطغرائى الشاعر « أن الهَيوُب مُرِيبُ» فى بيته الآتى :

تخـفى بسـالتُـهُ مَطارح هَمِّـهِ ومَـرامُـه أن الهَـيُـوبَ مُـريب

١٥ - إخفاء سوء ظنك بصديقك عنه يزيد من سوء ظنك به ، وقد تمحوه الصراحة وتبطل الوساوس التى تنمو بسبب سوء ظنك به ، ولكن بعض الناس يكره أن تصارحه ويحقد عليك من أجلها ، حتى ولو كانت صراحة بلباقة ولطف فلا يخلص لك بعد مصارحتك أبداً - وهذا يذكرنى قول البحترى .

أدعُ الصـاحب لا أعـذله لايُسـمَّى بعِـقُـوق فـيُـعَق

١٦ - ينبغى لمن وهبه الله قدرة على الفكاهة والسخر أن يتذكر دائمًا أن هذه القدرة تبعث الشك وسوء الظن به وبمقاصده حتى يحمل الناس كل ما يقول أو يعمل على محمل السخر بهم والاحتقار لهم وأن لم يكن يريد ذلك . وقد يذكر المرء قولا بريئًا لا سخر به فيحمل الناس معناه على مابدر منه فى أوقات أخرى من السخر « وهذا يذكرنى قول لورد تشسترفيلد : ينبغى لصاحب الفكاهة والسخر أن يتقلدها مغمدة كما يتقلد السيف ، لا مُصليًا لها وأن يتخذها عدة للدفاع إذا لزم لا للاعتداء » وأبغض الفكاهة فى نظر لورد بيكون ما تناول بالتنادر والسخر الأمور الخليقة بالخشوع والإجلال .

١٧ - كل من كان فى نفسه شئ يدعو إلى احتقاره مزود بدافع نفسى يعمل للنجاة من ذلك الاحتقار بالحيلة أو المكر أو الشجاعة أو العمل العظيم الذى يدعو إلى الاعجاب أو بالظهور بين الناس إما بالفضل وأما بالشر كى يخيفهم بشره وينال الهيبة والخوف منهم إذا لم يستطع نيل الاعجاب بفضله . فكم من عاهة أو نقيصه فى حياة المرء حثت على العظمة أو على الاجرام وإذا كان صاحب النقيصة عاجزاً كان شديد الحسد .

١٨ - المظاهر المألوفة الصغيرة من مظاهر الفضل أجلب لرضا الناس ومدحهم من مظاهر الفضل العويصة العظيمة النادرة ؛ لأن الحياة اليومية أحوج إلى الأولى كما أنها أحوج إلى النقود القليلة القيمة فى التعامل اليومى - ولأنها أقرب إلى فهم جمهور الناس وأقل هدفًا للحسد .

١٩ - أكثر الناس تغاضبًا الأطفال والشيوخ والنساء والمرضى والمدللون الذين هم أشبه بهؤلاء . ومن أجل ذلك ينبغى أن يستحى العاقل من أن ينزل نفسه منزلتهم بالتغاضب ظنًا أن الغضب من مظاهر العظمة وهو ليس من مظاهر العظمة بل من مظاهر الجهل والمرض والضعف والعجز عن حكم النفس فهو اعتراف بالنقص ، لأن كل هذه المسببات من باب النقص وأشكاله.

٢٠ - بعض الناس عقلهم أعظم مما يُخَيِّل للناس فيهم من العقل . وبعض الناس يخال فيهم من العقل أعظم من نصيبهم منه . فملامح الوجه قد لاتدل دلالة قاطعة على مقدار المرء من الفهم والتعقل ، وقد يستر المرء نقص عقله بالوقار والحشمة وبعض الناس له مهارة فى الباس الأفكار التافهة لباس الحكمة وبعض الناس يوهمون غيرهم بالصمت أنهم يعرفون أكثر مما يريدون أن يقولوا ، وبعضهم يوهم ذلك بإشارة وجهه أو يده أو طرف من بدنه أو بالابتسام الماكر أو بالظهور بمظهر المتأمل المفكر وهو لايتأمل ولا يفكر وهؤلاء وأمثالهم على قلة عقلهم يشتهرون بالفضل « وهذا يذكرنى قول شيرير الناقد الفرنسى : إن بعض الناس كالمنازل الضيقة التى تكاد تكون لاعرض لها وطولها كله على الشارع الرئيسى البارز فيحسب الرائى أنها منازل كبيرة وهى صغيرة جداً » .

٢١ - بعض الناس لاخفاء نقص عقولهم يتخذون وسائل أشبه بحيل التاجر المفلس الذى يريد أن يقنع الناس أنه غنى كى يجد من يقرضه مالا ليتلافى أمر إفلاسه وكى يعود إلى الكسب وإلى الارتزاق . وهؤلاء إذا عن موضوع أظهروا عدم الاحتفال له وتهوين أمره أو السخر به بدل فحص فكرته والإدلاء برأى فيه .

٢٢ - قد يكون الرجل ذا أثرة محبًا لنفسه ومع ذلك يكون فى حاجة شديدة إلى صديق، فليست الحاجة إلى المصادقة والمودة من سلامة الطويّة وطيب القلب ، وإنما هى ضرورة كضرورة من يأخذ الدواء كى يجرى به المرارة فى جسمه ويدرها . وأمثال هذا إذا افتقدوا الجليس المصاحب كانوا كمن يأكلون قلوبهم - ولعل هذا هو السبب فى غيظ ذوى الأثرة ممن ينقطع عن مجالسة الناس أو لعله سبب من أسبابه - وبعض الناس لا تتم متعتهم بالسرور إلاّ بإعلانه لصديق أو جليس ولا يسهل تحملهم للشقاء إلا بالشكوى لعشير أو جليس أو صديق ومكاشفته وهذا يذكرنى قول الشاعر العربى :

ولابدّ من شكوى إلى ذى مروءة ... يواسيك أو ينسيك أو يتوجع

٢٣ - تزداد آراء المرء صحة ووضوحًا بالمحادثة لأنه قد يتكلف بحثها ووضع حد لمعناها وأسبابها ، فيزداد المرء دقة وحكمة بالمشافهة أكثر مما يزداد بالتفكير خاليًا بنفسه منفرداً . فهو بالمحادثة يشحذ ذهنه كما يشحذ السلاح على الحجر حتى ولو كان محدثه لا يستطيع أن يجيد مبادلة الرأى ونقده ويستثنى من ذلك الحديث الذى لايراد به هذا الأمر بل تراد به الضجة وتعطيل الفكر والمهاترة .

٢٤ - اختلال الأمن أكثر ما يكون بسبب الحاجة والفقر ولا يداوى ولايكبح إلا بمداواتهما . وقد قال تاسيتوس المؤرخ الرومانى فى وصف أمثال هذه البيئة المختلة : بعض الناس لهم جرأة على عمل الشر ، وبعض من ليست لهم جرأة على عمله يرغبون فى أن يعمل غيرهم الشر وأكثر من هؤلاء وأولئك الذين يسمحون بعمل الشر ولا يعينون ولا يدلون على من يعمله ولا يحاولون منعهم . فإن رأيت امة أجتمعت فيها هذه الطوائف الثلاثة واستفحل أمرها فأنذرها بالتدهور فى نظامها وحياتها التى تحياها ، ولاسيما إذا انتهز الوجهاء والأعيان والأدباء والمفكرون فرصة امتعاض الجمهور من سوء حالهم كى يثيروهم بوسائل ظاهرة أو خفية لمآرب خاصة بهم ، وإذا كثر فى مثل هذه الأمة الذين يسرفون فى الترف أكثر مما ينتجون وازداد فيها عدد المتعلمين الذين يعتمدون على مناصب الدولة ولا عماد لهم غيرها فهى أمة معرضة دائماً للتدهور مهما غرّت ظواهرها .

٢٥ - مظاهر الحزن قد تكون مثل صمامات الأمان ، فالذى يحاول منعها إذا اشتد الحزن قد يكون حاله مثل حال الذى يجعل جروحه تدمى فى داخل جسمه بدل أن تدمى على ظاهره وعلى جلده فيعالجها ، وهى إذا دميت فى داخل جسمه سببت التقيح والتسمم فى بدنه وكذلك من يقهر أحاسيسه الشديدة كل القهر ولاينفس عنها بعض التنفيس بالعمل أو القول أو الكتابة وما شابه ذلك يكون كأنه تسمم بها .

٢٦ - إذا لم تجد النفس منفذاً إلى النجاح والتبريز فى الأمور العظيمة فلا تنتعش إلا بالنجاح والتبريز فى الأمور الصغيرة ، وقلما تنتعش وتطمئن إلى السكينة التامة الخالية من أى مظهر من مظاهر النجاح فإنها حينئذ تنطوى على نفسها ويصيبها الملل والحزن إذا لم تجد ما تتلهى به مما يؤدى إلى النجاح والتبريز فى أى أمر من الأمور صغيرها وكبيرها .

٢٧ - أشد الناس أثرة وأنانية لايتورعون من إحراق مدينة كى يقلوا بيضة أى لايتورعون من تسبيب أشد الضرر من أجل منفعة تافهة ومع ذلك لايغتر الناس كما يغترون بذوى الأثرة والأنانية لأن مطالب أثرتهم والرغبة فى الفوز بها قد تدعوهم إلى ملاطفة الناس واسترضائهم فيخال ذلك من سلامة طويتهم وطيب أنفسهم ، فيأنس إليهم الناس إلا إذا كان صاحب الأثرة أحمق لا يعرف كيف يستدنى مأربها بملاطفة الناس وإظهار غير ما يبطن .

٢٨ - خطرات النفوس الخفية تكون حسب ميول النفس ونزعاتهم أما آراؤهم فحسب ما تعلموا ولكن أعمال الناس حسب العادات التى تعودوا ومن أجل ذلك لايصح أن يخدع المرء بالناس وأن يخلط بين هذه الأمور الثلاثة كما لايصح أن يعتمد على طبع واحد من طباع نفس إنسان يعرفه ف؛ فى النفوس طباع متناقضة ولايصح أن يعتمد كل الاعتماد على آرائه وأقواله وأحاديثه إلا إذا صدقتها ووافقتها عاداته وإلا كان عمله ضد رأيه فى بعض الأحايين فكثيراً ما تسمع الرجل يفصح عن رأى أو عقيدة ويعطى المواثيق على أن يعمل وفقها ثم لا يفعل ، بل يفعل ما تقتضيه عاداته فكأنما الإنسان آلة مسيرة يديرها لولب العادة كما تدار الآلة فى المصنع .

٢٩ - للإنسان مزايا ظاهره تجلب المدح ولاينال صاحبها غير المدح وقد يكون ممدوحًا خائبًا فكأنه مدح عقيم وللإنسان مزايا أقل ظهوراً : من نالها جلبت له السعادة وأعانه الحظ ، ومثل هذا الإنسان الذى نالها كأنما محركات عقله ونفسه متفقة ومحركات الحظوظ كما تتفق عجلات الساعة فى سيرها أو عجلات الآلة . ومثل هذا الرجل قلما يخطئه الناس أو يذمونه أو يسببون له الخيبة ، ومثل هذا لايشترط فيه تمام الفهم وكمال الفضل بل قد يكون نقصه فيهما معينًا له على النجاح وبعكس ذلك تجد أناسًا لا يستطيعون تجنب مؤاخذة الناس ولومهم وانتقادهم مهما أجادوا وأحسنوا فى القول والعمل .

٣٠ - المتملق الساذج يمدح كل إنسان بكلام يعده لكل من يريد مدحه وهو على وتيرة واحدة والمتملق الماهر يمدح كل إنسان بما يود ذلك الإنسان أن يمدح به وبما يمدح به نفسه والشرير هو الذى يمدح إنسانًا بما يضره ويؤذيه وإذا مدحت من كان فى مثل فضلك أوجبت لنفسك المدح وإذا لم تمدح من هو أكثر منك فضلا أنكر الناس فضلك بالقياس .

٣١ - بعض من يود معرفة أسرار الناس يبادرهم بالحديث بالأمر الذى يريده على غفلة منهم واستئناس كمن ينادى إنسانًا أخفى وغيَّر اسمه فيناديه باسمه على حين غفلة منه أو يعرض له بما يريد معرفته ويتأمل وجهه خلسة . وقد يصلح رأى هذا الباحث إلا إذا كان جليسه هيوبًا فيصدق فيه قول الطغرائى « إنَّ الهيوب مريب » .

٣٢ - ينبغى للقاضى أن يذكر دائمًا أن الشرائع والقوانين لم تنشأ كى تكون أحبولة صيد وفخاخًا وشباكًا يصاد بها الناس كيفما كانوا وبأية طريقة .

(١٣)

نظرات جونوثان سويفت [١]

كان سويفت إنجليزيا ولد فى أرلندة وعاش بها فى صباه ثم عاد إليها فى أواخر أيامه ومات بها وقد كان فقيراً فأكسبه الفقر غيظًا وشعوراً بالنقص كان يخفيه بالكبرياء عندما نبغ وعاشر العظماء والوزراء . وقد عاش مدة فى انجلترا أشبه بكاتب للسير وليام تمبل السياسى الإنجليزى وقد استشهد ثاكرى فى رسالته عنه برسائل سويفت التى تذلل فيها للسير وليام وأظهر أن ضرورة هذا التذلل كانت تحز فى نفسه وقلبه وتزيد من شعوره بالنقص . ولكن ماكولى فى رسالته عن السير وليام تمبل وصف كيف أن سويفت قد استفاد علمًا من مكتبة متبوعه كما استفاد خبرة عملية من معاشرته رجلا تقلب فى مناصب مختلفة واكتسب خبرة بالحياة والناس . وقارن ماكولى بين الدكتور صمويل جونسون الأديب الإنجليزى والكاتب الشهير وبين سويفت فقال إن آراء الأول مكتسبة من الكتب أما آراء سويفت فهى مؤسسة على الخبرة بالحياة . وقد خدم سويفت وزراء حزب المحافظين أولا بقلمه وكان يأمل أن يُنصَّب أسقفًا فى الكنيسة ولكن الملكة رفضت ذلك لأنه فى بعض كتبه يسخر برجال الدين وطوائف الكنيسة وينتقد حزازاتهم واختلافهم فى أمور تافهة . وأشهر مؤلفات سويفت كتاب أسفار جاليفار يطالعه الصغار لغرابة قصته والكبار لما فيه من نقد لحياة الناس . وقد خولط فى عقله فى أواخر أيامه وقلما سلم منه صديق لحدة طبعه وبالرغم من تلك الحدة أحبته امرأتان وهما اللتان رمز للأولى باسم ستيلا وللثانية باسم فانيسا . وقد قال ثاكرى إن انهيار عقله فى آخر حياته كان مثل انهيار دولة كبيرة . ويقول سير والتر سكوت أن فانيسا ماتت غما بسبب زواجه سراً من ستيلا ولو أنه من المعروف أن فانيسا ماتت من السل . وقال ناقد أن سخر فولتير كان مثل وخز سلاح المبارزة ، أما وخز سخر سويفت فكان أشبه بوقع فأس القاتل . وقد اتخذ من سخر عبقريته وشدته فى القول وسلاطة لسانه سلاحًا فى السياسة لم يسبق له مثيل، فجعل المقالة السياسية مقالة أدبية مرهوبة لأنه أكسبها رائع الأسلوب كما أكسبها الخيال والأدب والفكر والسخر والشدة ، ولكن شدة سخره كما تظهر فى المقالات السياسية كمقالات دربير التى يقترح فيها على سبيل السخر بخصومه من الوزراء طهى أطفال الأرلنديين وأكلهم

---

١ - المقتطف سنة ١٩٤٩ م ، المجلد ١١٤ ، الجزء الثالث ، ١ مارس سنة ١٩٤٩م ، ص ١٥٣ - ١٦٢.

وَيْفتَنّ فى وصف طهيهم . كذلك تظهر شدة سخره فى وصف ياهو المخلوق القذر فى كتاب أسفار جاليفار وقد رمز به إلى الإنسان فوى مواضع أخرى كثيرة ، وقد قارن فولتير بين رابليه الساخر الفرنسي وبين سويفت فقال إن كليهما ذو بصيرة فطنة ولكن رابليه كان يحب الحياة والناس . أما سويفت فكان يكره الحياة ويحتقر الناس .

وحب رابليه للحياة سواء أكان حبًا للذات الجسم أم كان حبًا للذات الفكر ، أمر مشهور تفيض به كتبه . وكان يحارب به الرهبنة فى المسيحية ونظرها إلى الحياة والفكر . ويمتاز سويفت بأنك لا تجد حرفًا أو كلمة يصح حذفها فى قوله . أما رابليه فقد كان أسلوبه غزير المترادفات وأشباهها فكأنه فى غزارته السيل المتدفق أو النمو النباتى الغزير . وكما أن كليهما قد يعوق السير فكذلك قد يعوق اتمام قراءة رابليه ما به من غزارة الكلام وكثرة الإشارات إلى أمور غامضة كانت معروفة فى ذلك العهد البعيد . إلا أن قراءة كتبه تحبب الحياة وتدعو إلى الأمل وإلى الرغبة فيها أما كتب سويفت فقد تدعو إلى احتقار النفس البشرية واليأس من الناس . ولكن هذا لايقلل من رصانة تفكيره كما يتضح فى النظرات الآتية التى نوردها مع التعقيب عليها .

١ - قد يكثر الناس من الأعذار والأسباب حتى ينتحلوا الزائفة منها فيضيفونها إلى الوجيهة ظنًا منهم أن كثرتها تزيد الراجحة والوجيهة رجاحة ووجاهة . وهم قلما يفطنون إلى أن زيف الزائفة ينتقص من رجاحة الراجحة ، ويدعو إلى الشك فيها ، وهذا أمر شائع يضيع الناس به حجتهم ويبطلون حقهم ، وإن كانوا على حق وكذلك الضعيفة من الحجج تضعف ما أضيفت إليه من الحجج القوية ، ويحسبون أن كثرتها تقنع المفكر فيها ، ولكنه إذا فطن إلى ضعف الضعيفة ربما خالجه الشك فى غيرها ، وقد يحسب الناس قوة الأخيرة من بلاغة صاحبها أو مكره واحتياله فإذا وثق السامع من بطلان بعض الأسباب أو ضعفها أبى الاقتناع بالسليمة وتحرز من قبولها كل التحرز . وهذا مثل أن يتضح للسامع كذب بعض القول فيشك فيه كله أو يرفضه أو يحكم ببطلان الصدق لجناية الكذب الذى أضيف إليه .

٢ - مهما عظمت المنافع التى استفادها المرء منك فإنه قد يحقد عليك إذا كانت له شهوة ظلم أو حقد أو بغض لإنسان ولم تعنه على ظلم ذلك الإنسان أو على إيذائه أو انتقاصه ولم تساعده على التشفى منه ، فإنه يعدك ممالئًا له وإن لم تكن ممالئًا ويراك خاذلا لنفسه كأنك خذلته فى الخير والعدل . فإن الشهوات لاتنصف ولا تتذكر خيراً استفاد منك صاحبها ولا تأبه

لما يفرضه عليك العدل من الامتناع عن ظلم الناس وإيذائهم . فكأن ما أسديت إليه كان نفعًا زائفًا ، أمراً مَدلسًا - ويدهش الناس لو فطنوا إلى حد ينقادون إلى مثل هذا الإغراء بالشر والإلحاح فى الحث عليه وهم ينقادون إما خوفًا أو طمعًا أو كسلا أو استهواء أو شهوة أو جهلا أو ماشابه ذلك . وبعضهم يحسب الانقياد إلى الشر ضرورة لامناص منها مع هذا الالحاح وإن كرهها أو ادّعى لدى نفسه أنه يكرهها أو كان يهاب عاقبتها ، وربما ينقاد إليها وهو لايسوغها فأقنع نفسه بالباطل ، أنه إنما انقاد إلى ضرورة من ضرورات الحياة التى لامناص منها وربما غالط نفسه وعد انقياده إلى الإلحاح على عمل الشر والأذى من ضرورات الحياة التى لامخرج منها ولا مناص كى يطلق لنفسه العنان لاشباع نهمتها الغريزية فى عمل الشر ولتسترسل فيما هو حبيب إليها منه . والإنسان قلما يتجنى أو يعمل الشر بالحاح مغر أو بغير اغراء وإلحاح إلا وهو يعد لنفسه الأعذار كى يستريح إما من تأنيب الناس وإما من وخز الضمير .

٣ - أكثر الناس عندهم من الإيمان والدين القدر الذى يغريهم بكره الناس لمخالفتهم إياهم فى أمر من الأمور وليس عندهم القدر الأعظم من الإيمان الذى يغريهم بحب الناس - فترى الناس يضطهد بعضهم بعضًا وقد يكون هذا الاضطهاد خشية عدوى آرائهم وأعمالهم أو قد يدعون أنهم يضطهدونهم لأنهم يحبون لهم الخير ويخشون عليهم الشر أو الأذى . وهذا يذكرنا بقصة « العذاب بالأمل » لمؤلفها فيليبر ده ليل آدم الفرنسى ، وفيها أحد رجال الكنيسة من أعوان محكمة التفتيش يعذب الناس وتكاد تذوب نفسه اشفاقًا عليهم ورحمة لهم إذا لم يعذبهم كى يطهرهم بالعذاب ولم يكتف بالعذاب المادى بل كان يعذب السجين بالأمل ، فيترك له باب سجنه غير موصود كى يطمعه فى الهرب ، فإذا أوشك الرجل أن يهرب وينجو من العذاب دلف إليه واعتنقه واحتضنه رحمة له وعاتبه برفق لرغبته فى الهرب من التطهير بالعذاب والألم وقلبه يكاد يذوب اشفاقًا عليه من تلك النجاة . وهذا يذكرنى قول الشاعر :

فكنتِ كذبّاح العصافير جاهداً   وعيناه من وجد عليهنّ تهمل

وهذه القسوة الموصوفة فى القصة قسوة ممزوجة بهستريا الرحمة ولكن أكثر النفوس فى قسوتها فى الحياة لاتحتاج إلى مزيج من هستريا الرحمة الكاذبة .

٤ - كثيراً ما يخطئ ويخيب ذوو الفكر فى أمور الحياة العامة حيث يصيب النجاح من قل عقله وفكره فإنّ شدّة قصُور ذوى الفكر وإدراكهم جوانبَ الأمور واحتمالَ مايكون وحدة ذهنهم

في بحث تفاصيل الأمر صفات قد تدعو إلى الحيرة والإرتباك والتوانى وإلى الشطط عن القصد فى أثناء تلمسهم جوانب الفكر فى الأمر بينما يمضى الرجل الذى لايفكر كثيراً إلى ما يكلّف عمله فيعمله عملا متقنًا ويصل إليه من أسهل الطرق وأقربها وأكثرها وُرُاداً وإنما مَثَل ذلك مثل المدية إذا شحذت شحذاً شديداً وأردت أن تقطع بها أطراف أوراق الكتاب ربما حادت وجنحت من حدتها فلا تقطع أوراق الكتاب قطعًا منتظمًا بل قد تتلفها بينما لاتحيد المدية التى هى أقل منها شحذاً . ولعل سعة الفكر تدعو إلى أن يعد صاحبها من الممكن عمليا ما هو من المحال ، وقد رأينا نابليون بونابرت ينجح فى تنظيم إدارة فرنسا وفى تنظيم معاركه بينما كان خياله وفكره يدعوانه أحيانًا إلى طلب المحال ، ولقد عرفت من الشبان الأذكياء من أصابوا نجاحًا كبيراً فى الحياة وكان يتنازعهم العاملان عامل الإرادة الواقعية العملية وعامل الخيال والفكر اللذين كانا يؤديان إلى فشلهم لو استسلموا إليهما كل الاستسلام .

٥ - يلوم الناس الإنسان لأنه لايعرف حدود مقدرته ومقدار عجزه ونقصه ، ولكنهم قلما يعترفون أنه قد يجهل قدرته وكفايته وملكات نفسه وقد يبخسها وينتقص نصيب نفسه منها لأنها تكون كامنة خافية عنه لاتظهرها إلاَّ الحوادث المواتية المناسبة وإنما اختفاؤها عنه كاختفاء منجم الذهب ومعدنه فى بطن الأرض فإنه يخفى على من هم على سطح الأرض . ومثل هذا الإنسان الذى يخفى عنه مقدار ملكاته كأنما يعيش على سطح نفسه كما يعيش الغافلون عن المعدن الذى فى بطن الأرض ممن هم على سطحها - وقد يستنبط هذه الملكات الإيحاءُ أو الحب أو المنافسة أو الضرورة ، والضرورة التى تستنبط الحيلة والقدرة والملكة فى بعض النفوس إذا صحبها مايدعو إلى الارتباك أو كان فى جهاز جسم صاحبها مايدعو إلى الحيرة أخلّ بملكاته ولم ينتفع بها كل الانتفاع كالذى لاتظهر كنوز نفسه إلا إذا ابتعد عن الضوضاء . فإن ضوضاء الحياة قد تشردها كما يشرد لب المرء وكما تشرد أفكاره إذا سمع جلبة وأصواتًا صاخبة ولكن بعض الناس لاتظهر كل مقدرته وملكاته وكنوز نفسه إلا إذا خاض غمار الحياة وعالج الناس وعشرتهم واحتكت نفسه بالنفوس كما يحتك حجر الصوان بالصوان . قد يفاجأ المرء ببروز ملكاته وقدرته كما يفاجأ غيره مباغتة ، وقد كان لايظن أن عنده تلك القدرة كما كان الناس لايرونها فى نفسه وبغتات النفوس متنوعة .

٦ - دعانا بعض الفلاسفة إلى نبذ أكثر رغباتنا حتى إذا بلغت أقل حد مستطاع أمكننا أن نحصل عليها من غير مشقة كبيرة ومن غير أن نشقى فى الحياة . وهذه الدعوة مثل دعوة

من هو فى حاجة إلى النعل أن يقطع رجليه قد يستغنى عن النعل فلا يشقى بطلبه ولكن ما تقدم إلا بالطلب كما لا يتقدم من هو فى حاجة إلى النعل إلا بقدميه . ومن قديم الزمن ما شحذ ذهن الإنسان ونما عقله ومرن بدنه إلا لأنه خالف هذه الدعوة إلى انتقاص الرغبات والحاجات واسْتَنَّ لنفسه سُنَّةَ الإقبال على طلب الدنيا .

٧ - لو أن إنسانًا كتب جميع آرائه فى أمور الحياة المختلفة منذ صغره إلى أن صار شيخًا لوجد اختلافا وتناقضًا كبيراً فى آرائه فى كل أمر من الأمور فى مراحل العمر المختلفة ، ومع ذلك فإن الناس كثيراً مايلومون المرء لأنه غير وبدل فى آرائه وهم لايفطنون إلى أنهم يغيرون ثيابهم وأزياءهم ومطالبهم . ولو أن إنسانا لم يتغير رأيه فى الأمور من عهد طفولته إلى مماته لدل ذلك على أن عقله لم يكبر وأنه أشبه بالحفريات المتحجرة وإن كانت هذه يصيبها التغير أيضًا - ولعل السبب فى ذلك أن الناس يخلطون بين تغير النفاق الذى سببه الأهواء وتغير النمو ، وهم يميلون إلى سوء الظن فينسبون كل تغير إلى النفاق الذى يجعل المرء شبيها بالآلة التى توضع فى مهب الرياح فتعرف بها الجهة التى تهب منها . فتغير الرأى قد يكون تهدّيًا إلى الصواب ونمواً في العقل وقد يكون طيشًا وعبثًا فيمن لا رأى له . قد يكون مكراً واحتيالا للكسب . وبالرغم من أن الناس يلومون من غيَّر رأيه فإنهم إذا وجدوا أربًا أو نيلا منه أو قدحًا فيه تناسوا رأيه الجديد وألزموه رأيه القديم وهو يتبرأ منه .

٨ - عرفت أناسًا كانوا ذوى مواهب كبيرة نفعت غيرهم ولم تفدهم فهم كساعة الظل التى كان الناس يضعونها أمام بيوتهم فينتفع بها المارة ويعرفون بها مرور الزمن ولا ينتفع بها أهل البيوت الذين نصبوها . وتلك المواهب النفيسة قد لاتنفع أهلها فحسب ، بل قد تضرهم ، فإن الفائدة المرجوَّة للمرء فى الحياة لا تكون على قدر مواهبه وإنما تكون على قدر ما يستطيع الاحتيال له من المكاسب والمزايا . فإذا لم تسعفها تلك المواهب على ذلك الاحتيال أخطأت تلك المزايا ولو أن نفوسًا أخرى غير نفس ذلك الإنسان لم تنل ما تريد مما يعدل مواهبها ويناسبها ويوازيها ما بالت نفسه ، وقلما تسخَّطت أو حاولت عبثًا أن تغير سنة الحياة إلاَّ فى حالتها .

٩ - رغبة بعض المفكرين فى إبطال مطامع الناس التافهة ورغباتهم التى لاقيمة لها فى ذاتها ، وإنما تكتسب قيمتها من تكالب الناس وتهالكهم عليها ، خطة تدل على نقص فى الحكمة والخبرة بأمور الحياة : إذ أن كثيراً من أمثال تلك المطامع إذا جعلت جزاءً للعامل

ومكافأة للمَجدِ ، ترغبه فى الكدح والعمل وفى ارتياد سبل الفضائل والفضل . أما أن يقال إن الفضائل ينبغى أن تطلب لمحبتها والرغبة فيها لا لجزاءٍ عليها فنظرة حسنة ، ولكن طباع الناس فى الحياة تخالفها وتتطلب جزاء عليها ، ولا مناص مما تتطلبه الحياة ، فالشهرة والرتب والأوسمة وما شابهها أمور لا قيمة لها فى نفسها ، ولكن قيمتها فيما يؤدى إليه من العمل والجد . ولقد ترى الرجل الفقير الجاهل يكدح طول حياته ويتخلق بخصال الحمد ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ؛ كى ينال رثاءً حسنًا إذا مات ، وكى يكتب بعضه علي قبره - وهذا يذكرنا كلمة لنابليون بونابرت فى هذا المعنى وفي فائدة الرتب والأوسمة عندما ليم على إحيائها بعد أن محتها الثورة الفرنسية . ولكن سويفت بالرغم من فطنته إلى أنها وأمثالها مدعاة إلى العمل ومن محركات الحياة فإنه يسخر بالمتهالكين عليها فى كتاب أسفار جاليفار . إذ اتخذوا الائتمار والكيد والتملق وسائل إليها وأمعنوا فى عمل الشر بسببها .

١٠ - بالرغم من أنه لم يكن بين الناس من استطاع أن يجعل آراء الناس ذات طول وعرض ونظام ومقصد واحد فإن كل مفكر يود أن يحمل الناس على اعتناق آرائه أو يأمل كما أمل أبيقور أن يصير الناس يومًا إلى زمن مقبل تتشابه فيه الآراء والأنظمة بعد أن يُشذِّب بعضها بعضًا كما يشذِّب الحَصا باحتكاكه ، فتتحول الحصوة الثقيلة والخفيفة والمستديرة والمستطيلة إلى شكل واحد ووزن واحد أو كما أمل كارتيزيوس أن تجذب فلسفته الآراء الفلسفية المتناقضة إليها فتدور حولها كما تجذب الكواكب غيرها من الكواكب . ومن هذا السبب نشأ اضطهاد الفكر للفكر . فلو تقصينا التاريخ لوجدنا كل طائفة تدعو إلى حرية الفكر مادامت تضطهدها غيرها ، فإذا تخلصت من الاضطهاد وصارت لها السيطرة حاولت أن تقيد أفكار غيرها ؛ ومن أجل ذلك كانت محاولات تحرير الفكر مصحوبة بالرغبة فى تقييده أو يعقبها اضطهاد من نوع آخر - وقد تتبع « فان لون» فى كتابه (تحرير الإنسانية) خطوات هذا الاضطهاد من عهد الكهوف إلى عهد الجيلوتين . ولو كان الفكر غير باعث على العمل ربما استطاعت الفئة الغالبة إهماله . وما صنعه « فان لون » صنعه فى صيغة أخرى برتران ده جوفنيل في كتاب (القوة) وقد قال جوفنيل : إن كل من يستبد بالقوة إنما يفعل ذلك بدعوى أنه ينوب عن الشعب والواقع كما أوضح أن فى استسلام الشعب ما قد يسوغ هذا القول إنما كان ينذر الشعوب من عواقب المستقبل . ومن الغريب أن جوفنيل - وكان مندوب فرنسا فى سوريا - يقول فى القوة قولا قاله قبله شيلى الشاعر الإنجليزى فى صيغة أخرى فقد قال فى بعض قصائده « إن القوة كالوباء الذى يتفشى فيصيب كل مايقربه والخنوع لها عدو

للذكاء والفضيلة والحرية والحق ويحيل الناس أرقاء ويجعل أجسامهم آلات مسيرة » ولكن كف يستطيع الإنسان أن يكونْ فى غنى عن القوة أو أن يقيدها ؟؟ .

فالثوة الفرنسية التى كانت ثورة على القوة وأعطت فى أول الأمر كل مدينة أو إقليم حق انتخاب حكامه كلهم ، حتى ضعفت سلطة الوزراء فضعفت الدولة بسبب ذلك ، ما لبثت أن صارت فى عهد مجلس أو لجنة السلامة مركزية شبه توتاليتارية . وبالرغم من أن جان جاك روسو فى كتابه (العقد الاجتماعى) كان بشير الحريات الفردية فإن به نزعات توتاليتارية تظهر فى أمور كثيرة منها تقديس الدولة والقول بانعدام حق كل إرادة فى الإرادة العامة . ومنها إباحة حكم الحاكم الدكتاتورى الفرد الذى ينوب عن الديقمراطية فى بعض الأحايين . ومنها القول بنفى أو قهر من له إرادة لم تنعدم فى الإرادة العامة . ولما كانت الإرادة العامة كالديمقراطية أمراً تقريبياً فهى إرادة الكثرة أو ما يسمى الكثرة ، وإن كانت كثرة ظاهرية . وبعض اليعقوبيين الديمقراطيين قالوا - عندما كانوا قلة - أنهم كثرة لأنهم يمثلون مرافق الشعب الحقيقة وإرادة أجيال الشعب فى العصور الطويلة المقبلة عندما يتعلم كل آحاده أن يعدم إرادته فى الإرادة العامة . فالعالم لاتزال تتنازع فيه القوة الطوائف والأحزاب المختلفة وكل يريد أن يسود رأيه وأن يقهر رأى غيره . ومن الطريف أن نابليون بونابرت وقف يومًا على قبر جان جاك روسو وقال - وقد كان فى صغره يردد آراءه - لقد كان من الصالح العام لو أن هذا الرجل لم يولد فقال له جيراردين أن آراءه أفسحت لك الطريق يعنى بأثرها فى الثورة الفرنسية فقال نابليون : ربما كان من الصالح العام لو أنا كلينا لم نولد .

١١ - ربما خيل لنا أن الكلام المواتى الكثير من المحدث أو الخطيب دليل على غزارة مادته من اللغة والرأى وهو كثيراً مايكون دليلا على أن مادته محدودة فيستطيع اختيار مايختار من الكلام من غير مشقة . فإذا غزرت مادة الإنسان من لغة أو علم أو رأى قد يطول تردده قبل الكلام - ولعل فى هذا بعض العزاء لذوى العى إذ غاية ماتصل إليه غزارة المادة أن يكون المرء أشبه بالعَيِىّ فى تردُّده قبل الكلام من وفرة المادة كما قال الشاعر :

تكاثرت الظباء على خراش ... فلايدرى خراش مايصيد

وكثرة الكلام مع قلة المادة أمر معروف . ولعل أفكه مثل لهذه الثرثرة وإن كانت ثرثرة كسبت من بلاغة الأديب مؤلفها كتاب (محاضرات الكِلّة) أو الناموسية والسرير وهى محاضرات تعظ فيها مسز كودل زوجها وتؤنبه بعد ذهابهما إلى الفراش وهى من تأليف

دوجلاس جيرولد . وقلة المادة لا تعوق تأثير الكلام الكثير فى السامع فإن الكلام يؤثر بترداده كما هو مشاهد فى السياسة وفى غيرها من مظاهر الحياة المختلفة . بل لعل قلة المادة تدعو إلى أن يفضله كثير من الناس لقلة العنت فى فهم مادته القليلة .

١٢ - قد يتحدث الرجل صاحب الفطنة والذكاء فيخالط بعض كلامه شئ من الفكاهة العامة البريئة فيحسبها السامع انتقاصًا له وهى ليست انتقاصًا وإنما يفعل ذلك إذ يقول فى نفسه أن هذا الرجل المفكر لابد أن يكون وراء كلامه معنى مستتراً غير ظاهر معناه - ومثل هذا الشك غير مقصور على المحدِّث الفطن أو من كان من أهل الفكر من الناس وإن كان يساء الظن بهم أكثر من غيرهم . فإن السامع إذا صادف كلام القائل صفة يخشى أن يظنها الناس فى نفسه عد كلامه تعريضًا به ، وربما تسرع بالإساءة إلى قائلها ومن أجل ذلك يفرض على مؤلفى القصص أن يقولوا أنهم لايعنون أحداً بأناس قصصهم وأنهم من صنع الخيال . والواقع هو أن صاحب الفن يستمد من الأمور المشاهدة العامة مادة لفنه فيجعلها فنًا عامًا ولكن الناس كثيراً ما يحيلون الفن العام إلى شخصيات معينة وذلك فى قول المفكر أو القصصى أو الشاعر . وأكثر هذه الاحالة ترجع إلى العقد النفسية وإحساس الناس بصدق قول فرويد فى كتاب « العلل النفسية » أن كل نفس انسانية تجمع فى وعيها الباطن ونزعاته وصفاته الكامنة كل ما هو إنسانى فى جميع النفوس بل كل ما هو حيوانى فى الحيوانات كلها فيجعلون كل ما فى الوعى حقيقة كائنة فى الحياة متى أرادوا . وانتقالهم بالفن أو الفكر من التعميم إلى التخصيص يكون بالرغم من ميل الناس إذا كان لهم أرب أو شهوة إلى التعميم فى أحكامهم المخطئة . كتعميمهم فى الحكم على الأمم أو الأحزاب أو الطوائف الكبيرة .

١٣ - فى أثناء طلب أمر من الأمور ومحاولة نيله والسعى والعمل له يفكر المرء فى محاسنه وأطايبه ومسراته وفضائله ، فإذا ناله بدأ يفكر فى أوجه النقص فيه وفيما قد يكون فيه من المساوئ والعيوب ؛ وإنما ركبت النفس على هذا الوجه وجبلت على هذا الطبع كى تستأنف مطالب الحياة وكى تطمع فى المزيد من محاسن الأمور فتعمل وتكد ، وربما بخست الأمر الذى نالته كى تستطيع تحقيق هذه السنة الحيوية التى هى قوام الحياة .

١٤ - إذا هاج البحر ورأى أهل سفينة أن تُخَفِّفَ أحمالها وأثقالها كى تنجو وينجوا من الغرق بأن يقذفوا بعض أحمالها فى البحر ، ربما حاول كل منهم أن يخفى متاعه ويعظ غيره كى يلقى متاعه فى البحر وهذا مثل الذين يفضلون نفع أنفسهم على نفع الجماعة ونجاتها ،

فتضيع أنفسهم وتضيع الجماعة التى هم منها وهذا التواكل يكثر عادة فى الأمم التى فقد أحادها الثقة بعدل حكومات بائدة وحكومة كائنة .

١٥ - إذا أراد الإنسان أن يتسلق ويعلو فلابد أن يتسلق كما تفعل القردة على قدميه ورجليه . والطمع فى مناصب الجاه والسلطة قد يتطلب من المرء ماهو شبيه بالزحف على اليدين والرجلين ويعني التقرب بوسائل التملق والخنوع ومعاونة من يرجى نفعه على شهوات غضبه أو حسده أو محاباته إلى آخر هذه الأمور فقد شبهها بالزحف على القدمين واليدين أو بالتسلق بهما كما تفعل القرود .

١٦ - السبب فى خيبة كثير من الأزواج أن نساءهم بدل أن يتخذن من الزواج أقفاصًا لأزواجهن كأقفاص العصافير المدللة البيتية التى تزين أقفاصها كى تأنس إليها ، يتخذن من الزواج مايراه الرجال أشبه بالفخاخ والشباك التى تصاد بها الحيوانات .

١٧ - كثيراً مايذكر أهل التعاسة حكم الدهر ومشيئة القدر الغالبة النافذة . أما السعداء فقلما يذكرون هذه الأمور ولاسيما الذين يثقون أن الجاه والثروة والسعادة لن تزول عنهم إذ أن هؤلاء ينسون حتى أثر الأقدار فى توزيع الصحة والمرض والذكاء والغباوة والأحوال المساعدة للنجاح . وهذا يذكرنا قصة رجل أصاب غنيمة من مال كثير اختلسه من غير تعب ، فكان إذا طلب منه إنسان صدقة يقف ويلقى عليه محاضرة فى فوائد الاجتهاد والجد فى العمل ويقول له لو كنت اجتهدت لصرت مثلى .

١٨ - كثيراً ما يعلل المرء نفسه بأن العصور المقبلة ستقبل على ما انصرف عنه أهل عصره وستشغل بما كان أهل دهره عنه فى شغل. فينصفون عمله أو قوله كما أراد وينسى أن أهل العصور المقبلة تَستَجِدُّ لهم فيها أقوال وأمور هم بها فى شغل . وهذا الوهم هو مايزيد إقبال الناس على العمل والفكر والتضحية وإن كان قلما يتحقق ، ولكنه من سنة الحياة التى تزيد ثمرة أعمال الناس حتى بالوهم .

(١٤)

نظرات جورج إليوت سويفت [١]

جورج إليوت هو الاسم الذى اشتهرت به مارى ايفانز الكاتبة الإنجليزية الشهيرة . وقد اشتهر من الكاتبات الأوروبيات كثيرات وربما كانت لبعضهن شهرة عالمية أكثر من شهرتها ، ولكن الفحص والتمحيص يدل على أنها من غير شك أعمق بصيرة وأغزر فكراً وأرجح رأياً وأعظم خيالا من مدام ده سافينى ، أو مدام ده ستايل ، أو جورج ساند . أو جين أوستن أو غيرهن . ويمكن تقسيم مؤلفاتها الهامة إلى أربعة أقسام : القسم الأول يشمل القصص التى تشرح فيها صفات نفوس من حولها من الناس ، وهذه الكتب مثل أموس بارتون وآدام بيد وسيلاس مارنر وغيرها هى أكثر رواجًا بين القراء الإنجليز لأن موضوع كل منها أقرب إلى أذهانهم ولأنها أسهل أسلوبًا . والقسم الثانى من مؤلفاتها يشمل قصة رومولا التاريخية التى تصف فيها عهد إحياء العلوم فى إيطاليا بمحامده ومكارهه ، والقصة التاريخية أشق وأصعب فى تأليفها لأنها تحتاج إلى دراسة ذلك العهد ونقد مايذكر عنه وتصوره ببصيرة نافذة . وقصة (رومولا) من القصص التاريخية الكبيرة التى يصح أن تحتل مكانًا ما بين أزموند لثاكرى ، وسان انطوان وسلامبو لفلوبير وتاييس ، والآلهة ظمأى لاناتول فرانس وبعض القصص التاريخية الشهيرة الأخرى . والقسم الثالث من مؤلفاتها قصة مدلمارش وقصة دانيال ديروان‍دا وهى لاتقل فيهما بصيرة ولكنها تبعد عن النفوس المألوفة حولها التى وصفتها فى القسم الأول ، كما أن عادة الاسترسال فى الفكر تغلب عليها ويغلب عليها الأسلوب الفكرى . والقسم الرابع من مؤلفاتها رسائل ثيوفراست دعتها باسم فيلسوف أغريقى قديم وهى وصف لخصائص أخلاق الناس على نمط لابروبير . وهذه الكاتبة - فضلا عن أنها درست ثقافات الأمم المختلفة كما يتضح من قراءة مؤلفاتها - فإنها وارثة بصيرة شكسبير وهنري فيلدنج القصصى الإنجليزى على اختلاف ما بينها وبينهما . وكثيراً ما تذكرنا مقدمات فصول توم جونز لهنري فيلدنج - وهى على شكل رسائل وبحوث فى النفوس بآثار هذه الكاتبة ويصح جمع كلمات عديدة من مؤلفاتها لاتقل عن كلمات عظماء المفكرين من الرجال كما يتضح من نظراتها الآتية :

---

١ - المقتطف سنة ١٩٤٩ م ، المجلد ١١٤ ، الجزء الرابع ، أول أبريل سنة ١٩٤٩م ، ص ٢٤٩ - ٢٥٧.

١ - إذا أساء إلينا إنسان ثم خاب فى أمر لاصلة له باساءته أو خاب فى أمور حياته عامة أحسسنا كأن خيبته فى أمور حياته بسبب اساءته إلينا . كأن نظام الحياة لايستقيم مادام قد أساء إلينا إلا بخيبته ، وكأن تلك الخيبة نتيجة طبيعية للأساءة إلينا . وهذا الاحساس يشتد أعظم ما يشتد فى نفوس ذوى الأثرة والجهل . ولعل سببه أن المساء إليه من غيظه يريد الانتقام فيتخيل أنه قد أصابت المسئ مصيبة فإذا حلت به مصيبة سهل عليه أن يحس أنها نتيجة اساءته إليه . وكل إنسان كما قال أناتول فرانس يحس كأنه قطب الدنيا ومحور العالم وكل من يسئ إليه إذاً يكون كأنه خارج على نظام العالم فلا غرو إذا خاب وفشل !! .

٢ - قد يكون الإنسان فظًا قاسيًا فى نقد الناس وأعمالهم ، ومع ذلك قد يكون رقيق الحاشية والطبع مع أسرته . وبعض الكُتّاب كان بيده اليمنى يصول بقلم يقطر سمًا وهلاكًا فى نقد إنسان آخر ، وبيده اليسرى يهز أرجوحة طفله الصغير بحنان ورفق ... وهذا يذكرنا هيبير مندوب المجلس البلدى بباريس أيام حكم الإرهاب . وهذا الفارق يعظم أيام الاضطراب والثورات . وقد وصف الدكتور كابانيه فى كتابه لنفروس رفليوسنير كيف أن الإنسان الرقيق الطبع الوديع الأخلاق قد ينقلب ويصير وحشًا ضاريًا إذا كان فى جماعة تحبذ أقواله وأعماله القاسية . وفى هذا مصداق النظرة التالية لجورج أليوت وهى :

٣ - عندما نخدع الناس أو نسئ إليهم ونحن وحدنا قد نتردد ونتحرج من بعض أساليب الخداع أو الشر ونأنف منها ونخشى اللوم ولانريدها إلا للضرورة القاهرة فإذا اجتمعنا والناس واتفقنا معهم فى تلك الأساليب ووجدنا منهم تحبيذاً لها تسلطت أساليب الخداع أو المكر أو الشر والإجرام علينا ، ولم نشعر بصعوبة فى ارتيادها مادام الناس معنا . وهذا ما وصفه وضرب له الأمثال الدكتور كابانيه فى كتابه عن الاضطراب الثورى وأثره فى النفس والجسم .

٤ - إن الإنسان قد تكون نظرياته ومبادئه مخطئة ولكن إحساساته وأعماله نبيلة كما يصدق العكس فقد تكون نظريات المرء ومبادئه وعقائده سامية نبيلة بينما تكون أعماله بالضد من ذلك . ومن أجل هذا الخلاف ينصح النقاد للمؤرخ أن يميز بين مبادئ رجال التاريخ وبين أعمالهم . وهذه نصيحة واجبة لكل إنسان فى الحياة اليومية أيضًا ، إذ كثيراً ما يخطئ فيظن أن مبادئ المرء واحساساته وأعماله كلها من طراز واحد وهى أصناف مختلفة .

٥ - إن ذوى النقص والعاهات فى حاجة إلى فضائل ومزايا تزينهم ، لأنهم يشعرون بقلق إذا لم تكن لهم إلا عاهاتهم ، أو كان لهم نقصهم وحده . ولكن الفكرة التى تجعل الفضائل أو

الفضل بدلا لهم ووقاية كما تقى الطبيعة الحيوانات فى الشتاء البارد بفرو كثيف - فكرة مبالغ فيها مبالغة كثيرة ، إذ كم من أناس من ذوى النقص أو العاهات لافضل لهم ولا فضيلة إلا أن يكون الفضل ومزايا النبوغ كامنة فى النفس تظهرها الحوادث سواء أكانت عاهات أم لم يكن نقص - فمن الذى يستطيع أن يقطع بأن ذكاء زياد بن أبيه وفصاحته وقدرته فى تصريف الأمور كلها كانت بسبب مطعن أو مغمز فى نسبه ولم تكن هبات طبيعية فى نفسه . ومن أجل ذلك يخطئ بعض العامة خطأ أوليًا فى علم المنطق فيقبلون هذه الفكرة ويجعلون الفضل على عاهة أو نقص . وهذا يذكرنا بعض الشواهد التى تصف هذا الخطأ فى علم المنطق كمن يقول مثلا كل القِططة حيوانات . فإذا كل الحيوانات قططة وقلب الفكرة لا يجوز فى علم المنطق .

٦ - من الغريب أن الناس كثيراً ما يتعجبون لحدوث شئ هم الذين عملوا لإحداثه ، كما يتعجبون إذا لم يحدث أمر لم يصنعوا شيئًا لاحداثه ، كالآباء الذين يتعجبون من جهل أبنائهم وقلة تربيتهم ، وهم السبب إذ لم يحزموا أمرهم لتربيتهم ، والأزواج يتعجبون لفقدانهم المحبة وانقطاع أواصرها بين الزوج وزوجه ولم يعملا لتهيئة سبيل بقائها ، والجيران يتعجبون من نفور جيرانهم منهم ولم يعقدوا أواصر المودة معهم .

٧ - ما أشد اعتماد الناس على ما قد يأتى عفواً ، فإذا عمل المرء عملا يحط من كرامته تعلق باحتمال عدم ظهوره ، وإذا أسرف تشبث باحتمال الكسب من وجه آخر غير منظور ولا محتمل ، وإذا أساء تنظيم عمله تمسك باحتمال أن اساءته تنظيم عمله ليست هامة لنجاحه فيه، وإذا خان صديقه اعتمد على أن الصديق قد لايعرف خيانته له وعاقبة ما نزرع من بذور تلك الأوهام الباطلة فى الاعتماد على الأمر المرغوب فيه الذى هو غير محتمل الحدوث إنما تنتج محصولا باطلا ومحالا من نوعها . وليس الجهلاء وحدهم هم الذين يتشبثون بالمحال المرغوب فيه فقد قال مارمونت وغيره أن نابليون بونابرت فى أواخر أيام مجده كان مهما صححت له الحقائق يعود إلى ما حسبها قبل تصحيحها .

٨ - ما أشد إلحاح الرغبات الإنسانية فإذا تملكت النفس رغبة لا يغنيه أن تقدم له ماهو عوض عنها من أمر آخر ولو كان مثلها أو خيراً منها . وهذا مشاهد فى تشبث الأطفال بالأمر المرغوب فيه كما هو مشاهد فى تشبث الكبار .

٩ - الشعور بالأمن يكون ناشئًا من العادة أكثر مما يكون ناشئًا من الأدلة والاعتقاد . ومن أجل ذلك كثيراً ما يوجد الشعور بالأمن إذا اعتاده الإنسان حتى بعد زوال الأحوال التى

جعلته عادة وصيرت الإنسان يسكن إليه ويطمئن ، فإن منطق العادة يغلب على ذهنه ، ويرى أن الخطر محال حدوثه مع أن مرور الزمن قد يكون السبب فى حدوثه . ومثل ذلك مثل الرجل الذى يكون سقف بيته آيلا إلى السقوط فإذا لم يسقط وتعود الأمان حرمته تلك العادة من أن يرى فى مرور الزمن ماهو كفيل بإيهانه وإضعافه وسقوطه . وقس على ذلك كل أمور الحياة.

١٠ - إنها قاعدة عامة وهى أنه لابد للنفس من أمر خفى غير موثوق به كى يُغَذِّى أملها وشكها وعملها فلو انكشفت لنا أمور المستقبل لما علقت النفس بها ولأسرعت بأملها وعملها وشكها وشعورها إلى غير المستقبل المشكوف المعروف ... وهذا الرأى أصح حجة من تعجب كعب بن زهير من سعى الإنسان وعمله مع أن القدر مخبوء عنه . وذلك في قوله :

لو كنت أعجب من شئ لأعجبنى سَعْىُ الفتى وهو مخبوءٌ له القَدَر

١١ - إذا تحمل أحد الناس غضبنا بسكوت وطيبة قلب وعطف ، فإننا إذا سكن غضبنا قد نشك بسبب مسلكه معنا وهدوئه فى مداراة غضبنا فى أننا كنا على حق ، وتشك فى أن معاملتنا له كانت معاملة لائقة ويزداد هذا الشك والأسف إذا مات من تحمل غضبنا بسكوت وطيبة قلب وذهب ، إلى عالم الصمت الأكبر .

١٢ - قال بوليسس فى قصة سوفوكليس : دعنا مرة واحدة نرتاد سبيل المكر والكذب والاحتيال والشر ... الخ . ثم نعود بعدها دائمًا أبداً إلى سبيل الصدق والشرف فى العمل والفكر والوسيلة . وهذا كثيراً ماتقوله النفس فى باطن نفسها استدراجًا لها ومخادعة ، فتستمر فى الكذب المكر والشر أكثر حياتها بعد أن كانت توهم نفسها أنها مرة واحدة صغيرة ثم بعدها مرة أخرى صغيرة ... الخ .

١٣ - كل عمل مذموم يستدرج صانعه إلي أعمال وأقوال عديدة مذمومة كى يزكيه ويسوغه ، وكى يزكى ويُسَوِّغ الأعمال المذمومة التى يزكيه بها . وتستمر تلك العدوى فى نزعات النفس ورغباتها فإذا أثم المرء لم ينته إثمه بعمله ، ولا تنقطع سلسلة آثامة ، إلا إذا اعترف بخطأه أو أثمه ، فلا يحتاج إذاً إلى شرور كى يزكيه . وإذا ظلم إنسانًا لايقنع حتى يزكيه بظلم آخر . وهذا يذكرنى ما صنعه أحد الكرادلة الذى نقم على رجل نقده فاتهمه بالكفر بالمسيحية فى عهد كان جزاء من يتهم به الحرق . ولم يكتف بذلك بل إنه صهر فى النار صليبًا من الحديد وقدمه إليه كى يتوب ويقبّله وكان الرجل موثقًا فنفر من ألم حرارة انصهار الصليب

وزوى وجهه عنه وإنما فعل عدوه ذلك كى يقال إنه نفر من الصليب لكفره بالمسيحية ، إذ كان الناس لايعرفون أنه وضع الصليب الحديدى فى النار . وهكذا زكى هذا الكردنال إثمه الأول بإثم ثان - على أن تزكية العمل المذموم أو القول المذموم بعمل أو قول آخر مذموم أمر مألوف كثير الحدوث فى الحياة اليومية .

١٤ - كثيراً ما نخدع أنفسنا حتى نصدق أن أثرتها فى معاملة الناس قد تكون أقل قسوة وأكثر إنصافًا وأبر بهم وأعدل لو أننا عرفنا حقيقة حالتهم ولكن ايثارنا الرفق لايقوى إلا بعد فوز أثرتنا ونيل أنفسنا ما تريد لا قبل الفوز به . وقد تعرف النفس حالة من تعاملهم ، ولكنها تتناساها حتى تنساها . وتتجاهلها ، حتى تجهلها مغالطة من النفس للنفس ، كى تدعى أنها كانت تكون أرفق وأبر وأعدل ، على أنه بالرغم من هذه المغالطة فإن الفوز قد يزيدها أثرة وعنفًا وقسوة وظلمًا .

١٥ - بعض الأخيلة التى نخدع بها إنما نخدع بها ونحن نشعر بذلك الخداع واللذة فيه كاللذة التى نجدها فى رؤية مجموعات الألوان التى تصنع من قطع الزجاج الملون فتتخذ أشكالا بديعة فى الفانوس السحرى . وكما أن الطفل يلذ له أن يلعب لعبة أساسها خداع النفس بالأمور وحقائقها حتى يصير لعبه جداً ، كذلك العاشق يلذ له أن يخدع نفسه وهو يعرف أنه يخدعها . وهذا يذكرنا قول أبى نواس :

صار جداً ما مزحتُ به رب جِد ساقه اللعب

١٦ - لعل السبب فى أننا كثيراً ما نخيب فى أن نعزى معاشرينا فى مصاب أصابهم ونسليهم عنه أنهم يشعرون ونحن نعزيهم بحبنا لأنفسنا ، وأننا إنما نفكر فى كل ما يهمنا من مطالب أثرتنا وهذا لايمنع أن تكون ممزوجة بشئ من العطف على الناس فى مصابهم وإن كانت هى الغالبة . وبالرغم من أن كل إنسان يعرف ذلك فى نفسه ، فإنه إذا أصابه خطب أو مصاب أمل أكثر من ذلك من غيره وتوقع مشاركة أعظم منه فى مصابه أو خطبه .

١٧ - الحياة اليومية هى محاولة كل إنسان أن يخفى نفسه عن معاشريه وراء كلمات وأعمال مزيفة ، وهؤلاء المعاشرون أشد بعداً عن المرء من نفسه وخواطرها وما بها من شرور لا تنطق بها ، ولا تبين عنها ، وقد لا تعملها ، ومن خير كثير قد لاتصنعه . وكثيراً ما نفكر فى عمل آثام لا نستطيع أن نعملها كما نفكر فى صنع أعمال من أعمال الخير أو اللباقة والمهارة

لا نستطيع عملها ، فخواطرنا قد تكون أسوأ أو أفضل منا . وقد علل سمرست موام القصصى اتهام الأتقاء الأبرار الأخيار أنفسهم أو توقعهم العقوبة فى الآخرة بخواطر السوء التى تتردد فى النفس ولا تصنع صنعًا ، كما أن بعض الناس قد يمدح نفسه بسبب خواطر الخير التى تتردد فى نفسه ولايعمل شيئًا لتحقيقها .

١٨ - كما أن الشاب المملوء صحة وحياة ونشاطًا يصعب عليه أن يدرك الموت كل الإدراك، وأن يحس وطأته مهما رأى من مظاهره . كذلك يصعب عليه أن يدرك الشقاء الكارث وأن يحس وطأته . وهو يؤمن فى سريرة نفسه أن المقادير لابد أن تنجى شبابه وصحته ونشاطه وحياته منه حتى ولو كان ذلك آخر لحظة قبل أن يكرثه . ولعل هذا الاحساس هو سبب استهتار الشباب أو شجاعة واستهانته بمعضلات الحياة .

١٩ - مما يساعدنا على أن نعمل فى الحياة عملا قليلا طيبًا أننا لا نعرف ما فى سرائر أصدقائنا ومعاشرينا عنا مما يثبطنا ، ليس فى الحياة مرآة تعرفنا حقيقة أنفسنا فنطمئن . وهذا الاطمئنان يجعلنا نظن أننا نعمل عملا كبيراً عظيمًا ، فنستطيع بذلك أن نعمل ولو عملا صغيراً طيبا . وكما أن الطفل الصغير الذى لم يتعود نظره الصغير بعد قياس المسافات ، كثيراً ما يصطدم بالأشياء ، كذلك الإنسان الذى لم يختبر أمور الحياة بفطنة يحسب أن مكانته فى الحياة مكانة كبيرة وهى صغيرة جداً ويصطدم بالعراقيل كما يصطدم الطفل الصغير بالأشياء إذ لم يتعود بعد قياس المسافات بنظره .

٢٠ - كثيراً ما يسوغ المرء أموراً غير سائغة ولا جائزة بتغيير أسمائها ، فيسمى اضطهاده الناس مقاومة ، أو الخرق والهوج إصلاحًا وتجديداً . وقس على ذلك جميع أمور الحياة التى لا تسوغ ، فبتغيير أسماء الأمور يستطيع المرء أن يعمل ما هو حبيب إلى نفسه وإن كان شراً مكروهًا .

٢١ - ليتذكر المرء إذا أقدم على عمل أن الحياة كعملية حسابية لايستطاع عملها مرة ثانية لتصحيحها وتلافى أغلاطها ، كما لا يستطاع تصحيح عمل الطرح بأن يعمل عمل الجمع فى الحساب صحيحًا .

٢٢ - أن الناس قد يرحمون الميت وقد يزكونه . وطلما كانوا يرون من الواجب المفروض ، سحق قلبه ، مادام ينبض وقهر عقله مادام يفكر ، فإذا سكنا سكون الموت فلا بأس من الإحسان إليه بكلمات مزيفة وإحساس بالرفق مصطنع .

٢٣ - إن تخدير النفس بتجاهل الحقائق حتى تجهلها ، حالة نفسية تختلف كل الاختلاف عن حالة السكينة والاطمئنان مع معرفة الحقائق معرفة تامة . ولكنا كثيراً ما نخلط بين الحالتين .

٢٤ - أول ما يصيب المرء الخطب أو الضيق قد تستفزه الإصابة المفاجئة فتكسبه قوة مؤقتة لا تزول حتى يصير الحزن والخطب عادة ونيراً .

٢٥ - بعض الناس لا يستطيعون تحمل حتى القليل من الإهانة إلا إذا استطاعوا أن يغمضوا أعينهم عنها ، أو أن يتمكنوا من الامتناع عن تصديقها ومعرفتها والإقرار بها والفطنة إليها ومغالطة أنفسهم فيها . فإذا لم يستطيعوا إلا مواجهتها ومعرفتها كانت حياتهم عبئًا ثقيلا لا يقدرون على حمله مع أن كل إنسان لا يخلو من أمثالها فى الحياة .

٢٦ - إن بعض ذوى النجاح وإن كانوا معروفين بسلامة الطوية والنية قد يجدون لذة فى إيقاع الشر ببعض الناس إذا كان عمله سهلا ولا يعوق أعمالهم الناجحة . وكأنما يصنعونه على سبيل اللهو أو الفكاهة أو التنفيس عن خطرات كامنة فى نفوسهم أو لإثبات قدرتهم . وهذا الرأى يذكرنى بقصة لسمرست موام عن تاجر إنجليزى فى اليابان كان ناجحًا وكان معروفًا بين أهله ومعاشريه بطيبة القلب ، فطلب منه أحد الخيَّاب من بنى جنسه أن يجد له عملا يرتزق منه . ولكن الرجل هلك أثناء سباحته ، وعندما سأل سائل التاجر عن سبب اشتراط هذا الشرط قال مبتسمًا الحقيقة هى أنى لم يكن عندى له عمل أى أنه كان يعرف أنه هالك لا محالة . وأنواع هذا الشر من أهل النجاح وأمثاله كثيرة الوسائل ... وإذا أصاب النجاح خائبًا عفواً من غير جهد كبير منه حقد عليه أهل النجاح الذين كدُّوا واحتالوا للنجاح وعدُّوها قسمة ضيزى ، مع أن نجاحه قد لايؤثر فى نجاحهم ولا يقلل منه إذا كان هذا الحقد والحسد شأن ذوى النجاح فكيف بما يعانيه التعساء المحرومون .

٢٧ - من السعادة أن يعود المرء نفسه أن يعيش معها بدل أن يشرئب دائمًا إلى اعتبار الحياة سوقًا يرتاده الناس للتفريج عن أنفسهم برؤية المعروضات ، وبعض لم يعود نفسه أن يعيش معها لا يطيق عشرة نفسه . وهذا من أسباب الحاجة إلى المصادقة والمصاحبة .

٢٨ - كثيراً ما نعمل عملا فلا نرى من الناس ارتياحًا إليه أو اقتناعًا به أو إعجابًا ولا يثبطنا ذلك ، ولا يصرفنا عن عمله ، بل نحسب أن سبب عدم ارتياحهم واقتناعهم قلة ما

صنعنا منه ، فنثابر على عمله توقعًا لظهور ارتياح الناس إليه واقتناعهم به وإن كان غير مقنع .

٢٩ - قد يتوقع المرء حدوث الأمر المحال وهو يؤمن إيمانًا تامًا أنه سيحدث ولا فرق بين هذا وبين الجنون إلا أن الحوادث قد تبدد ذلك التوقع والإيمان ، ولا تبدد الجنون .

٣٠ - إن الطبع الذى يميل دائمًا إلى السيطرة والتحكم حتى فى الأمور التافهة الصغيرة لابد أن يكون به جانب من الضعة والحقارة ويخفيهما بذلك التحكم .

٣١ - بعض اللغات قد تكون فيها طلاوة وحلاوة لايشعر بها من يقرؤها ، كذلك بعض الوجوه قد تعبر للرائى عن أكثر مما فى أنفس أصحابها من معان .

٣٢ - عندما يريد الناس تصديق الأكاذيب أو إذاعتها حتى يصدقها غيرهم يقولون : لا دخان من غير نار ، ومثلهم مثل الذى يعكر الهواء بدخان « بيته » أو نرجيلته أو لفافة تبغه ثم يحسب أن الدخان والنار من عند غيره ، وهى من عنده ، والأكاذيب أو النقائص التى يراد تصديقها فى نفسه .

٣٣ - المصلحون يشعرون بسرور فى كل اصلاح ، ولا يعطفون على النفوس التى تأسف مع ذلك لما يصيب كثيراً من الناس فى كل اصلاح من ضرر وألم وشقاء بسبب انتقال الأمور من حال إلى حال عند الإصلاح . والمصلحون لايقتصرون على حرمان تلك النفوس من العطف ، بل إنهم قد يعدون أسفها على من نالهم الشقاء بسبب الاصلاح ، خلافًا لهم فى الرأى والمبدأ ، أو خيانة لعهد الإصلاح فيشركونها فى الشقاء أو الإعدام .

٣٤ - لايستطيع العامل صنع عمل جليل شبه معجز إلا بايمانه بنفسه ، وأكثر إيمان العامل بنفسه مستمد من إيمان الناس به أو إيمان طائفة كبيرة منهم ، ولكنه إذا فقد إيمان الناس به ، لا يلبث إيمانه بنفسه أن يزعزع مهما كان عظيمًا . إلا إذا كان قليل الإحساس لا يلتفت إلى حقائق العالم . على أن العالم قد يكون هو الذى خلق إيمان الناس به فى أول الأمر .

(١٥)

تكملة نظرات جورج إليوت سويفت [١]

١ - بين النساء من يدفعها طبعها إلى الحماقة حينًا بعد حين وتستنفد جهد شراستها فى وقت قليل ولا تستعيده إلا بعد مدة من الزمن فيستريح أهلها . ولكن بين النساء من تعد من أهل الخير والتضحية ومحبة ذويها وهى لا ترفع صوتها فى شراسة ، ولكنها لا تفتأ طول يومها تنكد حياتهم بصوت منخفض باللوم والشكوى والتأنيب والمخالفة بتذكيرهم أحزان أمس وما قد يتوقع من أحزان غدهم ، وتبكى إذا سمعت خبراً ساراً ، كما تبكى إذا سمعت خبراً محزنًا ، فهى دائمًا بين بكاء السرور وبكاء الحزن . هذان الضيفان مشاهدان فى الرجال أيضًا ، وإن كان البكاء أغلب على النساء فأى الصنفين أثقل على القلب ؟ المشاهد أن الناس يفضلون الصنف الأول مهما كانت شراسته لأنه يعطى معاشريه فترات راحة . ومن أجل ذلك قد يمدح معاشر الرجل الشرس هذا الشرس فيقول (قلبه طيب - أو قلبه أبيض) وربما كان السبب أن صاحب الوقاحة والشراسة إذا هدأت حدة طبعه شعر باعتدائه على الناس بهما ، فيلين ويلطف، وملاطفته لشدة اختلافها عن شراسته ولأنها غير متوقعة تكون ذا أثر أعظم فى النفس من ملاطفته الناس أمر معتاد مألوف . أما الملاطفة الممنوعة النادرة فهى تفاجئ النفس مفاجأة سارة كما قال الشاعر (أحب شئ إلى الإنسان ما مُنِعا) .

أما الرجل والمرأة من الصنف الثانى فإنهما لدأبهما على الشكوى والتململ واللوم والتذكير بالأحزان يكادان يبلغان بأهلهما إلى درجة الجنون . وأشد من هذين الصنفين الرجل والمرأة اللذان يجمعان صفات الصنفين : شراسة متقطعة وتململا دائمًا .

٢ - للطبيعة لغة وهى لغة صدق لا تكذب ، ولكنا لا نعرف قواعدها فنخطئ إذا حاولنا معرفة معناها ، نحسب أن العين الفاترة الفاتنة الساحرة ذات الأهداب الجميلة الطويلة دليل على الصدق والأمانة ، ولكن صاحبتها قد تكون ورثت عينيها عن جدتها ، وورثت أخلاقها وطباعها عن مصدر وراثى آخر ، فتجمع بين العين الفاترة التى تدعو إلى الاطمئنان ، وبين الغش والمكر والخداع والشر . وهذه الفكرة أصدق من قول الفيلسوف الألمانى نيتشه فى وصف سقراط الحكيم الأغريقى القديم الذى كان ذا وجه شنيع وكان مشهوراً بالحكمة والعفة والفهم

---

١ - المقتطف سنة ١٩٤٩ م ، المجلد ١١٤ ، الجزء الخامس ، ١ مايو سنة ١٩٤٩م ، ص ٣٤٠ - ٣٤٨.

والأمانة والصدق . ولكن نيتشه الفيلسوف الألماني يقول : إن من نظر إلى صورة سقراط يستطيع أن يستدل منها على أنه كان مجرمًا بطبعه . وهذه مبالغة لامُسَوِّغ لها فإن خواطر الإجرام تتردد في كل نفس كما قال فرويد . وقد يكون المجرم شنيع الوجه وقد لايكون . فقد رأيت في كتاب عن المجرمين صوراً كثيرة لبعضهم جمعت بين الجمال والسماحة والطلاقة ، فالقبح أو الجمال ليس دليلا قاطعًا على الصفات النفسية الغالبة .

٣ - الصانع الماهر الذى يحفزه ضميره الطاهر يحجم عن صنع آلة غير محكمة الصنع لأنها قد تضر من يقربها أو يستعملها ولا يعرف الصانع مقدار الإضرار المتتابعة التى تسببها سببا عن سبب . وكذلك كل إنسان ينبغى أن يتذكر أن عمله قد يكون له نتائج بعيدة غير منظورة . وكذلك أقوال المرء يصدق فيها ما يصدق فى أعماله وربما استحال عليه أن يتحاشى كل عواقب أعماله وأقواله كما أوضح أناتول فرانس فيما اقتُبِس من نظراته . ولكن استحالة معرفة نتائج الأعمال والأقوال (أى النتائج والعواقب المتتابعة القصيِّات) لا تمنع من محاولة التبصر قبل القول والعمل - ولا أظن أن مفكراً فى العصور الحديثة كانت لآرائه عواقب ونتائج ومذاهب غير منظورة كما كانت لآراء جان جاك روسو - ولقد قال هنرى فردريك أمييل : كل المذاهب الحديثة المختلفة فى نواحى الحياة يمكن إرجاعها إلى روسو . ومن الغريب أن روسو كان حييا يحب العزلة وينفر من الاجتماع بالناس . ويسئ بهم الظن . وكان يخشى وينفر من الثورة التى كان يتوقعها ويحاول منعها بالاصلاح . وكان يقدس حريات الفرد إلى أقصى حد كما فى رسالته « أسباب تفاوت الناس » ومع ذلك فقد تشعبت مذاهب وعواقب أفكاره ومذاهب معتنقيها أيام الثورة الفرنسية وهو فى كتاب « العقد الاجتماعى » يذكر آراءً يستطاع بها تقييد حريات الفرد إلى حد كبير ، وهذا التناقض أيضًا ظاهر فى كتابه المسمى «إميل » فى التربية فهو يريد من المربى أن يترك تلميذه حراً يستنتج عواقب ونتائج أعماله بنفسه . ومع ذلك فالمربى الذى وصفه أراده كان أحيانا يتجسس على تلميذه ويهئ له النتائج التى يريدها - ومن أجل ما وصفت من الفرق بين طبع روسو وبين آرائه يخيل لى أنه لو كان عائشًا فى باريس أيام حكم الإرهاب لسيق إلى الجيلوتين وأعدم لتخلف رجل الفكر عن رجل العمل وذلك بالرغم من أن حُكّام الإرهاب كانوا قد اعتنقوا مبادئه .

وبالعكس قد يصاب صاحب الفكرة الجديدة أو المبدأ أو الشريعة لتخلف الناس عنه . وأذكر قصة أظن أنها لدستوفيكسى القصصى الروسى وبها يتخيل أن سيدنا عيسى عليه

السلام قد بعث مرة ثانية فى أوروبا ودعا الناس إلى الأخوة والتعاون والسلم والمحبة فخشى بعض الحكام دعوته وضاقوا به ذرعًا وحاولوا أن يصلبوه مع أنهم على دينه .

٤ - إن أعظم حوادث حياتنا تأتى وتروح كما يأتى الليل والنهار والنوم واليقظة والمطر والصحو والحصاد . ولا نستطيع تعيين أوقاتها لها كما تشاء . وربما جاهدنا وعملنا ، ولكن جهدنا وعملنا قليلا الأثر إذا قيسا بضرورة المقادير التى تعمل عملها وتحدث نتائجها بالرغم منا ومستقلة عن عملنا - ولعلّ هذا من أسباب ما لوحظ فى نظرة المقال السابق من شدة اعتماد الناس على ما قد يأتى عفواً وهو غير مضمون الحدوث . ولو أن من أسباب هذا الاعتماد أيضًا ميل النفس إلى تصديق احتمال حدوث ماتود أن يحدث حتى تكاد من شدة هذا الميل تراه حقيقة واقعة . وكذلك تميل النفس إلى تصديق أن يكون من أحوال غيرها من الناس ، ومن صفاتهم إن خيراً وإن شراً ، وحمداً أو ذمًا. وكما أن النفس تميل إلى تصديق ماتود أن يكون حقيقة فهى وإن كرهت حدوث ما تخشى حدوثه ، وإذا تملكها الخوف والذعر حتى يصير الذعر مرضًا - تميل إلى تصديق حدوث ما نخشى حدوثه حتى كأنه حقيقة واقعة . ولعل بعض الأمراض من هذا النوع من الوهم الذى سببه الخوف . وهذا الميل النفسى إلى تصديق ماتود النفس أن يكون كأنه حقيقة كائنة هو مسألة سيكلوجية ثابتة . وكذلك التأثر بالذعر حتى تعتقد سببه حقيقة كائنة : وأغرب من هذا وذاك أن الإنسان قد يصاب بأمراض لا من الذعر ، ولكن لأنه يود أن يصاب بها ، فيميل إلى تصديق مايود أن يصاب به حتى يصاب بها ، وإنما يود ذلك إما لينال التدليل والإعزاز والعناية والعطف كما هو نصيب المريض، وإما تشفيًا وانتقامًا ممن وكُل إليهم أمره كى يكلفهم عناء فى رعايته أثناء مرضه . وإما لأنه يشعر فى ضميره أنه أراد السوء لمن لم يصبه بضرر فيدفعه ضميره إلى تصديق وقوع السوء بنفسه فيصاب . وكل هذه الأمور تذكرنا قول جويتى الأديب الألمانى إذ قال : كما أن روما القديمة كان بها فضلا عن سكانها من الأحياء ، سكان من التماثيل العديدة المنصوبة فى كل مكان . كذلك هذه الحياة الدنيا يوجد فيها دنيا من الأوهام وعالم من الخيالات وهى أعظم أثراً وأتم قدرةً فى نفوس الناس وحياتهم وأكثر الناس يعيش فى هذه الدنيا الثانية .

٥ - لابد أن يكون فى نفوس الناس شئ من كذب السريرة مهما تخلقوا بالعدل والصدق ، فإن أفضل رجل إذا حادث إنسانًا لايود أن يؤلمه يضطر فى محادثته له أن يميل قليلا إلى رأيه ملاطفة له ، أو لعله غير قادر على التعبير عما فى نفسه ، أو لعله لا رأى له فى موضوع

الحديث فيجتبى رأى غيره يسد به فراغًا فى نفسه . وكل هذه الأحوال كأمواج فى بحر الإنسانية ، ولابد أن يسير المرء بسفينته بينها . فمن الحكمة أن لاتحقد على الناس من أجل ذلك ، وأن لا نيأس من النفس الإنسانية إذا انقادت بعض الانقياد ودلَّ انقيادها على كذب السريرة .

٦ - إذا كانت آلام كفاحنا فى الحياة لا تخلف إلاَّ نفوسنا كما كانت قبلها مع ما فيها من تحيز للباطل ومن أثرة وقلة مبالاة عظائم الأمور فإننا نكون قد تألمنا فى هذا الكفاح ولم نربح فضائل أو صفات سامية . ولكن هذا الألم قد يتحول إلى عطف به نكون أكثر قدرة على فهم الأمور كما تتحول القوة إلى قوة أخرى فى علم الطبيعة .

٧ - خليق بالمرء قبل أن يحاول فهم الكون كله - وييأس إذا لم يستطع فهمه - أن يحاول فهم ما حوله من الحياة أولا ؛ لأن الزمن كالمال إنما يقاس بمقدار حاجتنا إليه . وهذه الكلمة أوسع نطاقًا من قول الفيلسوف الأغريقى القديم « أعرف نفسك » وقد فسر جويتى هذه الكلمة بقوله إن الإنسان لا يستطيع أن يعرف نفسه بالتأمل الفكرى وحده ، بل لابد أن يكون التأمل فى النفس مقرونًا إلى العمل وأداء الواجب ، وفى أداء الواجب اليومى يستطيع المرء أن يختبر نفسه وأن يعرفها بالتأمل وقد أعجب كارليل برأى جويتى وأعاد ذكره مراراً .

٨ - إننا كثيراً ما نعتز بماضى حياتنا حتى ولو تغيرت أفكارنا وتبدل شعورنا ، وصرنا إنسانًا آخر بهذا التغير ولذلك قلما نرضى عن نقد ذلك الإنسان الأول الذى كناه فى الماضى بل نتلمس له ما يزكيه كراهة لتخطئة أنفسنا القديمة كل التخطئة ، وذلك لأنها بالرغم من كل شئ أساس أنفسنا الحديثة .

٩ - قلما تستطيع الأقدار أن تنتقم منا بسلاح من أنفسنا تتخذه ضدنا من تألمنا لما سببنا لغيرنا من الآلام ، إلا إذا وصف الناس عملنا فى إيلام غيرنا بأوصاف شنيعة ، أو إذا خشينا ذلك ، فعندئذ يتيقظ ضميرنا ويتيقظ إحساسنا الخلقى ويؤنبنا وربما كان لايؤنبنا لولا لوم الناس وتأنيبهم .

١٠ - كثير من عيوب الناس وغرائب طباعهم سببها أحزان وأحاسيس وحوادث مثلت بالنفس تمثيلا ، والحياة التافهة غير الثابتة أو الحياة الضالة التى يحياها إنسان والتى نلوم صاحبها عليها قد تكون كحركة الرجل الذى فقد بعض أعضائه وقد تكون نفسه كجزع الشجرة التى قطعت غصونها وأوراقها - وهذا قول مبكر فيما يسميه علماء النفس فى هذا العصر العقد النفسية .

١١ - إننا نستطيع أن نحس روح الله فى كل أمر . ففى الأعمال والمخترعات الكبيرة أو فى أعمال الصناعات الصغيرة نستطيع أن نرضى الله بأعمال أيدينا كما نرضيه بأعمال نفوسنا ، وأن نعمل الخير ونتقرب إلى الله بالأعمال المنزلية والزراعية ، كما نرضيه ونتقرب إليه بالصلاة لأن كل عمل يؤدى بصدق وأمانة إنما هو تقرب إلى الله .

١٢ - ولكن بعض الناس إذا أدوا الصلاة يوم الأحد فى الكنيسة حسبوا أنهم أدوا كل واجبهم نحو الله فتستريح ضمائرهم وتجيز لهم أموراً كثيرة ويعدون الحياة منصبًا مربحًا ، أو متجراً مكسبًا بدل أن يعدوها واجبًا يقتضى الجهد والتضحية والعمل .

١٣ - إن قول شكسبير فى قصة ماكبيث : إن الإنسان لايستطيع أن يكون فى أمور مختلفة فى وقت واحد إنما يراد به الأعمال ولا ينطبق على الإحساسات والخواطر ، فإن لحظة واحدة صغيرة أو أقل من لحظة قد تكون بين خاطرة الميل إلى القتل فى النفس ، وبين خاطرة الرجوع عنه والتوبة والندم . ورب دقيقة واحدة قد تجمع بين النزعة الشريفة والنزعة الدنيئة فى النفس . فالحقيقة هى أن النفس الإنسانية لاتجتمع بين الأضداد فحسب ، بل تجمع بينها فيما يكون أشبه بالموقف الواحد . وهذا مالايفطن إليه الذين يحكمون على النفوس بخطراتها ونزعاتها .

١٤ - فينبغى أن نصحح أحكامنا العامة على الناس تصحيحًا دائمًا مستأنفًا أولا فأولا بالخبرة وضرورات الحياة وبما فى النفوس البشرية من قهر وإلزام مع مراعاة الواجب المفروض وتنوعه فى الحالات المختلفة . فإذا نقدنا إنسانًا نقدناه من غير التجاء إلى الكذب والباطل والمبالغة . وهذه أمور قد تتسرب إلى رأينا . إما عن طريق الشهوات ، وإما عن طريق أحكام عامة مطلقة وضعها من لايميز الأمور بالتجارب والخبرة .

١٥ - كثيراً ما تدهشنا الشدة ونباغت بها من أناس عرفوا باللين . والسبب فى ذلك أن لينهم من اطمئنانهم إلى عودة وقوع الأمور المألوفة المعتادة . فإذا جاء غير المألوف ارتاعوا وظهر ارتياعهم فى شدتهم وعنفهم . ودل ذلك على نقص فى خبرتهم لأمور الحياة ونفس الناس .

١٦ - يخيل لنا أن الناس يجدون لذة فى حماقتهم وشراستهم وغيظهم حتى أنهم يحرمون أنفسهم من مسرات كثيرة ممتعة ، كى يتمتعوا بلذة الحماقة والغيظ .

١٧ - قد تجتمع فى بعض النفوس صفات هى الشدة والشعور بأنها صالحة وحب السيطرة على غيرهم مع ضيق فى الفكر والخيال. فإذا اجتمعت هذه الصفات فى أناس لم يكن سبب

نفورهم من إنسان واضطهادهم إياه تلك المعرفة الممزوجة بالجهل والشك والتى يسمونها الحقيقة. ولكن السبب أنهم فى حاجة إلى أن يملؤا فراغهم من الفكر ، وأن يسدوا ثغرة فى التأمل ، وأن يخفوا خلوهم من الحكمة ، وأن يشبعوا حب سيطرتهم على غيرهم ، وأن يباهوا الناس بصلاحهم ، وأن يقنعوا غيرهم به - وهذا إذا كانوا على شئ من الفضل . وقد يكون السبب شعورهم بنقيصة فى أنفسهم يقتصون لها بالتشفى وبالكيد لغيرهم ، أو يكفرون عنها بانتقاص غيرهم واضطهادها .

١٨ - ثق أنك إذا رأيت إنسانًا يدعى أنه أطيب نفسًا ممن هم حوله ، فهو إما أن له أربًا يخفيه بادعاء ذلك ، وإما أن نفسه قد تغلغل فيها الكبر الروحانى ودنس العجب النفسى . وهذا الكبر والدنس يختلطان بفضله فيفسدانه كما تفسد العفونة المأكولات .

١٩ - تنتقل النفس من الصدق إلى الغش فى معاملتها لنفسها . ثم ترى الغش خطة ضرورية تسوغها بلباقة ، فترى جمال الأعمال وقبحها من نسيج واحد . وكما أن الدول قد تأخذ على دولة عملا عدائيًا ثم تذعن لما يسمى فى عرف السياسة الأمر الواقع . كذلك النفس تذعن للأمر الواقع منها حتى تفاجأ بالقصاص .

٢٠ - إن الرجل الذى ليست له ثقة بنفسه قد يكتسب ثقة بنفسه إذا عاشر رجلا له ثقة بنفسه إذ أن للثقة بالنفس عدوى ، ومثل ذلك مثل الذى أصابه البرد يأنس إلى من لفحه الحر ليدفئ نفسه بحره . فيقل أثر القر فيه - على أن هذه المعاشرة قد تأتى بعكس ذلك إذا خشى الأول أن يقحم نفسه فيما يقحم الثانى فيه نفسه بالإقدام من ثقته بها ، وفى مثل هذه الحال إذا لم يُجَار الأول الثانى فى إقدامه وثقته بنفسه ، يوشك أن تنفصم عرى الصداقة والمعاشرة ، إلا إذا لم يكن ملزمًا بهذا الإقدام . وإذا أقدم وحيل بينه وبين باعث ثقته ولاقى صعوبات أو خصومات كُشِفَ ضعفه . وإنما مثله حينئذ مثل السلك الذى يزوَّد بالكهرباء فإذا فصل عن مصدر الكهرباء فقد قدرته الكهربائية .

٢١ - إن المرأة مهما كانت معجبة بنفسها لا تشعر بجمالها وحلاوة أنوثتها شعوراً تامًا إلا إذا أحبها رجل . فإن حبه يزيدها ثقة بقدرة ملاحة أنوثتها ، فتتيقظ وتحس إحساسات ما كانت تحسها من قبل . وهذا هو سبب قدرة الرجال على خداع النساء . فإن الرجل إذا أتقن تمثيل مظاهر الحب أحست شكراً له وعطفًا عليه ، وهذا ماكان يصنعه لاندور قاتل النساء فى فرنسا ، فإنه كان يقنع المرأة أنها ذات جمال وحلاوة أنوثة ، فتنقاد له وتطيعه طاعة من نُوِّم تنويمًا مغناطيسيًا ، إذ الإيحاء النفسى شبه تنويم .

٢٢ – فى بعض الأحايين ترى سفينة تعجب الرائى وتحسبها محكمة الصنع وتقبل شركات التأمين أن تؤمن عليها ، فإذا صادفتها أول عاصفة شديدة غرقت واتضح أن ذلك كان بسبب عيب خفى فى بنائها ، ونقص مستور فى تركيبها . وكذلك الإنسان يعجب الرائى فإذا صادف أول محنة أو امتحان لنفسه ولقدرته النفسية أو بدهه خطب لم يكن يتوقعه أو أمر من أمور الحياة مفاجئ غير منظور ظهر من طباعه ماكان خفيًا وتغير أو تدهور أو تخبط فيكون حاله كحال تلك السفينة .

٢٣ – يُشبه بعض المؤلفين طبيعة الإنسان بطبيعة الموجودات ويقولون إن الطبيعة تصلح ما أفسدته بالضياء والماء والهواء وبتجديد النمو ولكن الشجرة التى قد اقتلعت أو صعقت لاتعود إلى النمو وإن نمت غيرها والتلال التى بعثرت لا تتجدد وإن نشأت غيرها فليس هناك إصلاح حقيقى تام فى طبيعة الموجودات أو فى طبيعة الإنسان .

٢٤ – يقولون إن الإنسان إنما يجنى فى الحياة ما يزرع ولكن هذا ليس كل الحق فكما أن الإنسان يجنى مايزرع فإنه قد يجنى مالم يزرع ،كما أنه قد يجنى من النبات والزهر والأشجار مالم يزرع وما ينمو بنفسه أو بعمل غيره ، وهذا يصدق فى الخير كما يصدق فى الشر .

٢٥ – إذا عظم إحساسنا إلى حد كبير نما الإحساس إلى درجة يخلو فيها من حب النفس الذى ابتعثه ويصير ناراً تتطلب كل شئ فى النفس وقوداً لها وغذاء للهيبها .وهذا يفسر لماذا ننكر أن إحساسات المرء وأعماله الصادرة عن احساساته والتى تضره ، سببها الأثرة وحب الذات غير مدركين أن الإحساس فى درجاته المختلفة وحالاته المتغايرة يتغير طبعه وتتغير نتائجه .

٢٦ – قد ننسى أن الإنسان تصيبه عواقب ما يجنى غيره وإن لم يكن هذا الإنسان له صلة بالجناية واشتراك فيها . أليس العدل نفسه يعاقب من هم فى حاجة إلى الجانى أو لهم به صلة إذا عاقبه فيعاقب من يعول إذا انقطع عنهم رزقهم بالعقاب أو يعاقب أقاربهم فى سمعتهم وباضطهاد الناس لهم وذمهم بسبب جريمة قريبهم .

٢٧ – فى أوقات الحزن الشديد تكون فترات تتخللها . فى هذه الفترات لايتذكر المرء حزنه بل يتذكر حادثًا تافهًا لا صلة له بحزنه كأنما تعفيه طبيعته فى تلك الفترات من تذكر حزنه والانشغال به كى يستطيع أن يعاود تحمله وهو فى تلك الفترات لانشغاله بالأمر التافه بدل الانشغال بموضوع حزنه يكون كأنه أصابه بلهٌ مؤقت .

٢٨ - أهل الريف إذا كانوا فى بقعة منعزلة وحلَّ بأرضهم غريب أساءوا به الظن ، كأنه أتى إليهم من عالم مظلم مجهول كالعالم الذى تهاجر منه الطيور شتاء إلى أرض الدفء والنور . ومن أجل ذلك يتوقعون من ذلك الغريب أى شئ غريب مهما كان عمله وقوله مطابقًا للمألوف ومهما صدر من نفوسهم مما يخالف العرف المألوف ، فإذا ارتكب إثمًا أو جنى جناية بعد زمن طويل وبعد مزاولة الخلق المألوف زعموا أن ذلك مصداق لما توقعوا منه من أول الأمر. فالذى يولد بينهم يكتسب بولادته شيئًا من الثقة به والألفة له ، أما من لم يولد بينهم فكأنما ولد وجاء إلى هذا العالم فى نظرهم بطريقة غير طبيعية مثل طرق الشعوذة . وحقيقة هذا الحذر من المجهول مشاهدة حتى فى نفوس الناس إذا حذروا ممن ينقطع عن زيارتهم ومعاشرتهم أو مجالستهم . ولعلها ناشئة عما فى النفوس البشرية من أمور مجهولة ومن غريزة تمكنت فى النفوس من قديم الزمن من عهد الكهوف وسكانها ، ومن عهد كان كل إنسان يخشى كل إنسان ويصون حياته بذلك الخوف .

٢٩ - إن بعض ما يسميه الناس خيالا إزراء به قد يكون تعلقًا بحياة أتم وأعظم وبحقيقة متوقعة فى المقبل من الدهر ، فبطولة الواحد الفرد أو الآحاد القليلين التى لا تؤثر أثرًا كبيرًا قد يعدها الناس تعلقًا بالخيال ، ولكننا نخطئ إذ نقسم البطولة الإنسانية وهى متصلة مهما خفى اتصالها وكل منها قدوة وهذا الخطأ كالخطأ فى تقسيم وحدات الجيش إلى آحاد أو الخطأ فى تقسيم أشعة الضوء محاولة لمعرفة قدرة الجيش أو الضوء .

ع . ش

(١٦)

نظرات جوتا أوجيتا[١]

جوهان ولْفْجانج فون جوتا أو جويتى الأديب الشاعر العالم الألمانى - ربما كان بين الناس من بلغوا منزلته ، أو بَذُّوه فى النثر أو الشعر أو العلوم المختلفة أو النقد . ولكن لم يكن بينهم من بلغ شأواً كبيراً فى كل هذه العلوم والآداب كشأوه الكبير ، ومنزلته العظيمة . ومن أجل ذلك كان عجيبة زمانه ، وليس عظم منزلته فى فن أو علم أو أدب واحد ، ولكن عظم منزلته فى تبريزه فيها كلها . وقد كان شعاره تكميل النفس بالثقافة من كل مصدر وباب . وله فى العلوم كشوف لم تكن معروفة من قبله ، ولو أنه أخطأ فى تخطئة نيوتن العالم الإنجليزى . وكانت له رسائل فى النقد فى الفنون المختلفة والآداب ، وقصصه التمثيلية بعثت فن التمثيل فى ألمانيا ، كما أن قصصه غير التمثيلية مهدت السبيل لفن القصص . ومن الغريب أنه اشتهر بيننا بأقل مؤلفاته منزلة عند النقاد ، وأعنى قصة أحزان ورْتر التى ترجمت إلى العربية ، وكان قد ألفها فى شبابه فى العهد الذى أسماه عهد العاصفَة والشدة ، وله محادثاته لأكرمان ومراسلاته لشيلر الشاعر ، وترجمة حياته التى سماها « الحقيقة والخيال » . ولكن القصة الشعرية التى اشتهر بها فى ألمانيا وبين الأدباء والمفكرين هى قصة « فوست » . والجزء الأول أسهل من الثانى . ولم يتم الجزء الثانى إلا بعد أن بلغ الشيخوخة ، وأودعه فكره وفلسفته فى قالب شعرى خيالى . وقد كان جوتا يعيب على شعراء الرمزية جعل الشعر أوهامًا وأضغاث أحلام لا حقيقة تحتها . ومع ذلك فقد لجأ إلى الرمزية للتعبير عن الحقائق التى كما قال لاتُصَوَّر إلا بها ، ولم يكن يعيب الرمزية فحسب ، بل كان يعيب المذهب الخيال «الرومانتيكى » . وقد لفته صديقه شيلر إلى ما فى شعره من هذا المذهب . ولاغرابة فإن من كانت نهمة بحثه وفكره وخياله لا تشبع ، ربما لجأ إلى هذا المذهب . ولعل امرسون الأديب الشاعر الأمريكى قد كان يعنى ذلك فى قوله إن جوتا وصل فى بحث مايمكن عرفانه إلى حدود المجهول ، ثم خطا خطوة وراء تلك الحدود وعاد سليمًا .

وهذه مبالغة طريفة. ولكن من يحاول أن تكون له ثقافة متنوعة كثقافة جوتا لابد أن تَفْدَحَه وتَبْهَظَه ، وله كلمة يعترف فيها أنه ركب الشطط فى طلب هذه الثقافة . وإنما يهمنا فى

---

١ - المقتطف سنة ١٩٤٩ م ، المجلد ١١٥ ، الجزء الأول ، ١ يونيه سنة ١٩٤٩م ، ص ٢٥ - ٣٦.

هذه المقالات نظراته فى النفس الإنسانية ، وهذه النظرات تعطيك فى القراءة الثانية بصيرة ممن كتبوا فى صفات النفوس من أمثال مونتانى ، وباكون أكثر مما تعطيك فى الأولى ، وقد اخترت بعضها لأظهر أنه لم يكن أقل بصيرة من كتبوا فى صفات النفوس من أمثال مونتانى وباكون ولاروشفو كولد ، ولابروبير . ويعجبى مسلك النقاد الذين يريدون الحط من قدر غيره ظنًا أن ذلك يرفع قدره ، ولا مسلك المغالين فى اعظامه ، حتى يكاد الإعظام يبلغ مرتبة التقديس والتنزيه . كما لا يعجبنى مسلك الذين يحطون من قدره لأن له مواقف غرامية كثيرة أو لأنه لم يكتب قصائد ليشعل الحقد والبغض فى نفوس الألمان ، وهم يحاربون الفرنسيين لطردهم من ألمانيا . ومن الغريب أنه جمع بين سهولة الأدب الكلاسيكى القديم والطريقة الفلسفية أو الخيالية الألمانية المعقدة . وقد اعترف بنزعة المفكرين الألمان إلى هذا التعقيد ، فكأن مؤلفاته بناء جمع بين الطريقة الأغريقية التى كانت تنحو نحو السهولة ، وبين طريقة البناء القوطى التى تنحو إلى غير ذلك .

وقد درج بعض الكتاب على انتقاص لارشفو كولد ومدح جوتا ، بدعوى أن الأول يكثر من اتهام النفس الإنسانية بالأثرة ، كأن جوتا لا يفعل مثل فعله ، وسيتضح أنه يفعل ذلك ، ولا بد لباحث النفس أن يفعل .

وهذه بعض نظراته مع التعقيب عليها :

١ - فى النفس قاعدة سيكلوجية ، وهى أنها تحاول أن تحول موضع ضعفها ونقصها إلى مبدأ عام ممدوح . ومن أمثال ذلك : أن بعض الناس يحسبون التأنى الذى سببه الخوف الكامن قوة لا يغلبها غالب ، ولا يقهرها قاهر ، مع أن أحجامهم قد لايكون تبصراً وحزمًا . وكذلك نرى الضعفاء الذين يعتنقون الآراء الثورية يحسبون أنهم يكونون أسعد حالا باعتناقها ، ويكون الناس كلك فى أرغد عيش وحال ، ولايفطنون إلى أن ضعفهم يمنعهم من حكم أنفسهم ومن حكم الناس - وفى هذه النظرة أكثر من ذلك ، فكما أن القاعدة أن النفس تزين موضع ضعفها ، فهى أيضًا تقَبِّحُ وتُصَغِّر ماليس فيها من الصفات التى تستطيع التخلق بها . فإن من لايساعده طبعه على التخلق بآداب السلوك ، يرى أن آداب السلوك ضعف ، ومذلة ، ونقص . وتقبيح ما ليس فى نفسه من صفات الحمد فى بعض الأحايين كى يحسب الناس أنه إنما مدحها لأنها من صفاته ، إذ أن النفس لها وسائل مختلفة متناقضة ، تحاول بها كسب المدح والإعظام .

٢ - مهما عاش الإنسان فى عزلة عن الناس منفصلا عنهم بأفكاره وإحساساته وأعماله ، فإنه لابد أن يكون أما مدينًا وإما دائنًا لغيره فى تلك الأمور كلها أو بعضها . ولكن القاعدة هى أن الناس إذا قابلوا إنسانًا مدينًا لهم بفضل ، تذكروا ماهو مدين لهم به ، وكانوا أسرع إلى التفكير فيما دانوه به من الفضل . أما إذا قابلوا إنسانًا هم مدينون له فإنهم يذكرون فضله عليهم ، أو إذا ذكروه أسرعوا إلى تجاهله ، ويضايقهم ما يلح فى تذكيرهم به .

٣ - إن صفات النفوس تظهر فى أعمالها ومعاملاتها . ومن أجل ذلك يخطئ من يظن أنه يستطيع أن يعرف صفات نفسه بالفكر وحده ، وبالتأمل فى نفسه من غير أن ينظر إلى صفاتها فى أعمالها . والواقع أن النفس تحاول أن تفصل عمداً بين الأمرين ، وهذا الفصل قاعدة سيكلوجية فيها ، لأنها تعرف أن العمل قد يغريها بالتخلق بصفات ذميمة ما كان يتخلق بها المرء لولا اضطراره إلى العمل والمعاملات . فكثيراً ما يتجاهل المرء عمداً صفات نفسه التى يظهرها اضطراره إلى العمل والمعاملات ويكتفى بالحكم بصفات نفسه غير المضطرة وهى صفات أرقى وأطهر ، وقد شبه جوتا نوعى الصفات بالسدى وللحمة فى النسيج أو بالزفير والشهيق فى تنفس الإنسان الحى . وقال أنه لايستطيع معرفة النسيج من السدى فحسب ، أو من اللحمة وحدها ، بل من الاثنين معًا . ومن أجل ذلك يغيظ المرء أن تذكره بصفاته التى تظهرها أعماله ومعاملاته . لأن هذا الفصل بين نوعى الصفات يساعد المرء على التخلق بما يشاء من صفات السوء وهو مطمئن راض عن نفسه .

٤ - لو كان انحياز الإنسان للباطل سببه خطأ الفكر من غير أن يكون الباطل متصلا بميول نفسه ونزعاتها وعواطفها وأخلاقها ، سهل تصحيح الباطل وتلافيه ، ولكن اتصاله بها يجعل تصحيحه وتلافيه أمراً شاقًا أو مستحيلا . ومن أجل ذلك إذا استعصى على الإنسان تصحيح خطأ أو باطل فى نفس إنسان آخر خدع نفسه ، وأوهمها أن ذلك الخطأ وأن ذلك الباطل من ضلال فكر صاحبه ومن أغلاطه العقلية غير المتصلة باحساساته ونزعاته إنما يغالط نفسه هذه المغالطة كى يجعلها تأمل إزالة ذلك الباطل . إذا كان لها خير فى إزالته . إذ أنه يدرك بالفطرة أن مكافحة الخطأ الفكرى الخالص من شوائب النفس أقل مشقة وأيسر مؤونة وكلفة . وهذا يعلل أمل بعض الناس فى التفاهم مع من لايرجى التفاهم معهم واقناعهم بما لا يمكن اقناعهم به ، ولاسيما أن الأمل فى التفاهم إذا ازداد صير توقعه ؛ حدوث التفاهم كأنه قد حدث ، كما هو شأن الأمل فى أى أمر آخر . فإذا استجدت أسباب تغير من نزعات من لايريد

التفاهم ومن ميوله النفسية حتى يرى فى التفاهم نفعًا له لبس الزّهو مجادلة ونسب هذا التغير إلى قدرته على الاقناع بالفكر ولباقته وكياسته فيه .

٥ - أن الفكر قد يصحبه شعور شديد وهذا الشعور له أثر عظيم فى الحياة وهو نافع إذا استطاع المرء أن يمنع نفسه وهو يفكر من الانسياق فى تيار سيله ؛ لأنه إذا لم يستطع حكم شعوره وضبطه لم يستطع أن يصحح رأيه وأن يعالج ميل نفسه إذا حادت عن الصواب وأن يعرف حدود فكره . ولكن من العجيب أن المرء كلما انساق وجرفه تيار سيل الاحساس فى مجادلاته ومناظراته قال الناس إنه صادق السريرة ، إذ لولا اقتناعه بصواب رأيه ما أنساق مع الشعور الشديد فى التعبير عنه وفى مناظراته . ثم يتخذون حكمهم بصدق سريرته حكمًا بصواب رأيه . والشعور المنفعل فى إنسان قد يستنبط مثله فى غيره بالقدوة والإيحاء وقد أوضح شارلز لامب فى رسالة الأغلاط الشائعة بطلان هذا الرأى وهذا الحكم لأن الشعور الشديد قد يكون ناشئًا من النزعات النفسية التى قد تتخذ الفكر مطية لتبلغ به غايتها وإن كانت غاية باطلة ، أو لتتخذه ستارًا يحجب عن صاحبها وعن الناس كنهها وحقيقتها المستترة وراء لافكر . وصدق السريرة إذا فرضنا وجوده فى صاحب الشعور الشديد لا يمنع من الانحياز للباطل كما قال جوتا : أستطيع أن أعد أن أكون صادق السريرة ولكنى لا أستطيع أن أعد بأن لا أنحاز مع صدق السريرة إلى الباطل لأن صادق السريرة يجهل انحياز نفسه إليه بحكم صدق سريرته .

٦ - إن معرفة الصواب لا تمنع من مواقعة الأخطاء التى يصححها ذلك الصواب إذا كانت أخطاء متصلة بميول النفس فتكون حبيبة إلى النفس ، وتأبى العواطف على المرء إلا أن تعود إليها . وكذلك الخطأ فى الأمور النظرية أو العملية التى ليست متصلة اتصالا وثيقًا بعواطفنا تعود إليه بعد معرفة الصواب إذا لم يفسر وجه الخطأ وسببه ومكانه وحدوده تفسيرًا مقنعًا يؤدى إلى رسوخ الصواب ، فإن من يكتفى بشرح الصواب من غير نظر إلى الأخطاء التى يقع فيها الناس ومن غير تفسيرها قد يبذل جهدًا عظيمًا ويتكلف مشقة هائلة ، ولكن قد يكون عمله كله عملا ضائعًا لا أثر له . وقد يتعجب لضياع عمله وجهده ويدهش لأن تعبه فى شرح الصواب لم يثمر وذلك لأنه لا يفطن إلى أن شرح الصواب لا يكفى إذا لم يشرح الخطأ أو الأخطاء إذا تعددت . وهذه قاعدة هامة فى التعليم إذا أهملها المعلم ضاع عمله وحبط كل الحبوط . ومن أجل ذلك قد يظن المناظر ظنًا باطلا أنه فند رأى مجادله أو مناظره إذا شرح

رأى نفسه ولم يلتفت إلى رأى منافسه فى المناظرة ولم يبين أوجه الخطأ فيه . وقبل أن يفعل ذلك ينبغى لكل مناظر أن يذكر رأى خصمه بدقة حتى يثق من أنه يعرفه تمام العرفان فلا يجادل فيما هو خارج عن الموضوع وهو يحسب أنه موضوع رأى مناظره . وجوتا يحتم هذه الطريقة لأن الخروج عن الموضوع أمر كثير الحدوث .

٧ - إن الأفكار الصحيحة والمبادئ العامة المقبولة إذا اقترنت بغرور الإنسان سببت أضراراً مخيفة فهو يحسب أنه يعمل لهذه الأفكار والمبادئ ، ولكنه فى الواقع يعمل حسب ما يوحى إليه غروره ، فتكون عواقب أفكاره وأعماله وخيمة . ولا شئ أضيع من فكرة ناضجة فى ذهن غير ناضج فإنها تكون مهما عظمت وجلت عاقراً أو تنتج غير المنظور منها . وكل فكرة عظيمة عند بدء ظهورها تكون لها سيطرة طاغية . ومن أجل ذلك قد تنقلب مزاياها كلها أو بعضها إلى نقائص . وهذا يسبب اندفاع النفس فى العمل لها من غير فطنة إلى الأفكار الحقائق الأخرى التى تحدها .

٨ - إذا أكثر إنسان من مجالسة غيره وأطال الحديث ولم يتملقه تصريحًا أو تعريضًا بأية وسيلة على أى شكل كان التملق ، حتى ولو كان مجاملة ، ولم يشعره السرور فى نفسه بنفسه بأية واسطة فإن جليسه لايسر بمجالسته ، وقد يظن به الظنون ويشعر بانحراف عنه . ومن أجل ذلك كانت المجاملة بالتملق من أهم أركان المجالسة والمعاشرة ، ولابد أن تكون من الطرفين لا من ناحية واحدة من ناحيتها . ومن حاول أن يستغنى عنها فى معاشرة الناس حتى الذين يذمون التملق وجد نفسه مكروهًا ومجالسه كريهة بغيضة .

٩ - إن الحياء والشجاعة صفتان لا يمكن أن يحاكيهما إنسان إذا خلا منهما ، ولكل منهما مظهر واحد لا كبعض الصفات التى تتخذ مظاهر وألوانا متعددة . ومع ذلك فإن بعض الناس مخدوع بهما فيحسب الحياء جبنًا وذلة ، ويعد الصفاقة والقحة شجاعة . ولولا كثرة المخدوعين فى هذه الصفات مازهد كثيرون فى الحياء . ولا تنافسوا إلى الصفاقة والقحة ، فإن التقاتل على الحياة يدعو الإنسان إلى الفرار مما يعد ذلة كى لا يستذله الناس . ويرغبه فيما يخال شجاعة كى يخيف به الناس . لا شئ يغيظ الناس مثل وجدانهم الشجاعة عند ذوى الحياء إذا اعتدوا عليهم اعتماداً على حلم حيائهم ، وعلى عدهم الحياء ذلة ، فلا يجدون ذلة ولا استكانة ، بل إن بعض ذوى الحياء إذا لم يجد محيصًا عن ذلك يبذ ذوى السلاطة فى سلاطة لسانهم . وقد فطن شعراء العرب إلى اقتران الحياء والشجاعة وعدوا ذلك الاقتران مثلا أعلى كما قال الفرزدق :

يُغْضِي حياءً ويُغْضَى من مهابته ... فلا يكلَّم إلاَّ حين يبتسم

وقالت ليلى الأخيلية فيمن حياؤه يخال سقمًا وهو في الحرب زعيم :

ومخرق عنه القميص تخاله ... بين البيوت من الحياء سقيمًا

حتى إذا رفع اللواء رأيته ... تحت اللواء على الجيوش زعيمًا

وفي رواية « على الخميس » وهو الجيش . ومثل هذا أو أكثر مبالغة قول متمم بن نويرة في رثاء أخيه وكان المرثي سيد قبيلته :

فتى كان أحيا من فتاة حَيِيَّةٍ ... وأشجع من ليث إذا ما تدرَّعا

ومثله قول الآخر :

إذا قيلت العوراء أغضى كأنه ... ذليلٌ بلا ذل ولو شاء لانتقم

١٠ - الحقيقة هي أن أغلاط المرء وأخطاءه وعيوبه هي التي تحببه إلى الناس ماداموا واثقين أنها لاتضرهم ؛ لأنه بها ينخفض إلى مستواهم ولا يرتفع عنه . أما لو كان معصومًا منزهًا من العيوب أنكره الناس أو حسدوه أو كرهوه . ومن أجل ذلك كثيراً ما يلبسون الفضل ثوب العيب كي يكون حجة لكرهه ، أو كثيراً ما يضحون بأناس كي يثبتوا أنهم أنفسهم على غير الصفات البغيضة التي يدعون كرههم من أجلها . وهذا الإسراع إلى إثبات خلوهم منها يريب ، إذ لولا وجودها فيهم ما تسرعوا بخلعها على غيرهم وكرههم بسببها ، مع أن القاعدة السيكلوجية هي أن النفس ترتاح إذا عرفت أخطاء المرء أو عيوبه ، حتى أنها من ارتياحها واطمئنانها تعطف عليه في سريرتها ، وتود لو شكرته لأنه بعث إليها الإطمئنان بنفسها على عيوبها التي تعرفها منها .

١١ - التملق دليل على أن المتملق لايشعر بمحبة أو مودة لمن يتملقه ، فهو بالتملق يستعيض عنهما بدلا كي يبلغ ما يريد ، ومع ذلك فإن الناس تعد كلامه دليلا على المودة والمحبة والإنصاف لأنهم لايرون فيما يمدحهم به باطلا ، بل مدحه لهم حقيقة وإنصاف حتى ولو كانوا بجانب من عقولهم يشكون في بعض قوله ، ويكون أكبر همهم إذا تملقهم إنسان ليس البحث في صدق قوله ، بل التأكد من أنه لايريد السخر بهم بذلك التملق . ولاسيما إذا غالى في عبارات التملق فإن المغالاة في التملق تكون أشبه بالسخر .

١٢ - ينبغى أن لاتتعجب إذا تحولت الصفات الحميدة بالتدرج إلى شر مكروه ، فإن معانى الصفات متصلة متدرجة فى النوع والمقدار ، فقد تتحول الغبطة إلى حسد ، والحسد إلى بغض، والبغض إلى حب الشر ، وحب الشر إلى ارتكاب الآثام والجرائم. وقد يبدأ هذا التدرج بما هو أمر برئ ويصل إلى ماهو شر مكروه . وذلك إذا استسلم المرء إلى النزعات التى تحدث هذا التحول . ومن أجل أن صفات النفوس متدرجة قد لايفطن المرء إلا بعد سنين طوال أنه قد استرسل من الصراحة فى القول إلى الثقة بالنفس ، ومن عظم الثقة بالنفس إلى الهوج فى العمل ، فينزلق انزلاقًا بطيئًا لا يشعر به من الأمر البرئ من العيوب إلى ما يجمع الأضرار الكثيرة .

١٣ - فى طبيعة الإنسان عناد وتناقض فإنه يأبى أن يُرْغَمَ على مافيه خيره وفائدته ، ويرضى مختاراً أن يتقيد بما فيه ضرره . وهو إذا وجد نفسه راضيًا مختاراً للتقييد أكسبته مظاهر حرية الرضا والاختيار اطمئنانًا وتعاظمًا يلفتانه عن قيده وضرره . أما فى حالة الإرغام على ما فيه خيره ، فإن غضاضة الإرغام تحز فى نفسه وتؤلمه فتلفته عما فيه من الخير وتُزَهِّده فيه ، وهذان : العناد والتناقض ، ظاهران فى حياة الأطفال . وقد يعجب منهما الرجال ولو فحصوا عنهما فى حياتهم لوجدوهما فى نفوسهم أيضًا .

١٤ - انظر فى نفوس الناس ثم انظر فى نفسى فلا أجد خطأً من أخطائهم كان من المحال أن أرتكبه . وادعاء العصمة والترفع عن الناس أمر ميسور لايكلف صاحب الادعاء مشقة . ولكن هذا الاعتراف من جوتا يتطلب شجاعة وعظمة نفسية لا تتفق لكل إنسان وقد لام بعض الأدباء جوتا على اعترافه فى كتابه الذى يترجم فيه حياته والمسمى « بين الحقيقة والخيال » إذ قال أنه كان فى عهد صغره يحلم يقظان فى أحلام العظمة أن أمه حملت به سفاحًا من أمير جليل الشأن ، وأن أباه إذاً ليس الرجل الذى ينتسب إليه . وقد زكى هذه الشجاعة الكاتب الإنجليزى سمرست موام فى كتاب « الخلاصة » . على أنه عاد بعد اعترافه الأول فقال : وكل ماحاولت عمله أو عملته وكان بسبب نزعات باطلة قد حاولت أيضًا أن أفهمه . وأن أتعلم منه، وأن أدرس الدواعى إليه وأن أزيلها إذا استطعت .

١٥ - إذا تأمل الإنسان جثمانه ظاهراً وباطنًا فى الأوقات المختلفة لايعدم أن يجد وعكة أو نقصًا أو مرضًا أو ضعفًا ، وكذلك إذا تأمل نفسه فى حالاتها المختلفة . ومن أجل ذلك تدفع النفس نفسها دفعًا عن التأمل فى صفاتها التى تكرهها أو تلبسها لدى نفسها لباس

صفات أخرى ، أو تتخذ لها حججًا وأعذاراً تزكيها . فقلما تفكر النفس فى صفاتها بصدق وجد وإمعان وإنعام .

١٦ - قيل إن العمل ناشئ من الإرادة ، وقيل إنه ناشئ من العرفان ، ولكن الإنسان لايستطيع أن يعمل إذا أراد إلا إذا كان يعرف مايريد عمله . ومن أجل ذلك لا أرى فى الحياة أمراً مخيفًا مثل أمر الرجل الذى يعمل وهو لا يعرف ما يعمل .

١٧ - إذا أرضينا غيرنا عَزَانا ذلك عن عدم إرضائنا لأنفسنا عند محاسبتها فى القول والفكر والعمل فتسر نفوسنا وتنتعش وتنشط - ويكون نشاطها إذا أرضينا غيرنا بالحق . ولكن من الأسف أن هذا قد يصدق أيضًا إذا أرضينا غيرنا بغير الحق وبعمل الباطل لأن ما نلاقيه من العطف والحث يغريها به .

١٨ - فى هذه الدنيا كثيراً ما يقيس الناس الرجل بالمقياس الذى يقيس به نفسه ، على شرط أن يحدد قيمته ويلتزمها ، لأنه يسهل على الناس بالقياس أن يعاشروا رجلا اعترفوا له بقيمة معينة وإن كانوا يكرهون عاداته . ويشق عليهم أن يعاشروا رجلا لم يحدد قيمته ومنزلته ، وجهلهم بما يضايقهم ويبعثهم إلى الشك فتساورهم به الظنون .

١٩ - ليس الغنم فى التفكير فى عيوب الأصدقاء ، ونقائص من نعرف ، لأن التفكير فيها يؤدى إلى القناعة بحالتنا النفسية على ما بها من نقص ، ويؤدى بنا إلى الغرور . أما التأمل فى فضل الخصوم فهو الغنم لأنه يؤدى بنا إلى محاولة التشبه بفضلهم وبفضائلهم .

٢٠ - لابد من أن تكتسب النفس من ضبط النفس بقدر ما تنال من الحرية لأن كل أمر يحرر المرء من غير أن يعطيها قدرة على حكم نفسها يضرها ويدعوها إما إلى الإفراط وإما إلى التفريط .

٢١ - أكثر شرور الحياة ناشئة إما من عجزنا عن أن نضع أنفسنا موضع غيرنا ، وإما من عجزنا أن نضع غيرنا موضع أنفسنا ، والوضع الأول لو أمكن يزيل الحقد والحسد وسوء الظن، والثانى يزيل الغرور والأثرة والكبر وقلة مبالاة ما يعانيه الناس .

٢٢ - إن التجاذب ليست له قاعدة واحدة فبعض الناس يحب ما يشابهه ، وبعضهم يميل إلى ما يخالفه . ومن أجل ذلك نرى تجاذب الأشباه - وربما كان هذا أكثر - كما نرى تجاذب الأضداد . وقد يوجد تجاذب الأضداد بالرغم من تنافر وتخالف وتخاصم .

٢٣ - كثيراً ما يظن المرء إذا استطاع أن يعمل عملا مرة واحدة أنه يستطيع أن يعمله مراراً فتظهر خيبته وعجزه إذا حاول ذلك إلا إذا فقهه وتمرس به ، ولم تتغير نفسه ومقدرته وأعجب من ذلك أن الإنسان قد يظن أنه يستطيع أن يعمل مالم يعمله قط إذا رأى غيره يعمله ، مع أنه لم يجرب قدرته ، ولم يكتسب مرانًا عليه .

٢٤ - ليس بين الناس من لايحسد صاحب المواهب العقلية إلا الأب ، فإن الأب لايحسد ابنه لأنه كان سبب حياته وربما أقنع نفسه أن ابنه استمد مواهبه منه . وقد علل شوبنهور هذا الحسد بأن المرء قد يأمل أن يوفق وأن تساعده الحظوظ فيكسب مثل بعض مال ذوى المال . أما ملكات العقل واستعداده فأمور طبيعية . ومن لم تكن عنده لايطمع فى حيازتها . ومن أجل ذلك كان الفكر مع الفقر محسوداً أكثر من الغباوة مع المال . وهذا عدا أن صاحب المال يطمع الناس فى نيل معونته ويصول بما يهيئه له ماله من النفوذ فيختفى حسد ذوى الحسد ، بينما يكون صاحب الفكر معرضًا لسوء الظن بفكره ونتائجه وليس عنده مطمع لذوى الحسد ولا عنده سلطان المال .

٢٥ - بالرغم من أن شدة تعلق المرء بآماله تجعله يتوقعها حتى يصير فى توقعه كأنها قد حدثت ، فإن حدوثها بالرغم من ذلك يكون مصحوبًا بشى ولو قليل من الدهشة والمباغتة وذلك من الشك الذى يلازم هذا التوقع مهما كان موثوقًا به ولعل أثر رد الفعل فى الإحساس يظهر أيضًا هذا الشك الذى يسبب الدهشة ، فإن كل احساس شديد لابد أن يكون له رد فعل كى تستقر الأمور ، إذ أنه يعرف أنه كان يغالط نفسه فى إنزال أمله منزلة الحقائق .

٢٦ - إن مجالسة النساء تكسب الرجال آداب السلوك لأنهم يتخلقون بما يناسب مجالسهن فيكتسبون رقة وحياء وآدابًا ويترفعون عن سعار المهاترة ورفث القول ، ولكن فى البيئات التى يكون الرجال فيها قدوة للنساء ، لايتورعون فيها من الاسترسال على طباع الخشونة والمجون إذا جالسوا النساء ، تتخلق النساء بهذه الطباع وأشباهها من الطباع التى سماها فلوبير « كانيبرى » أى الطباع الكلبية بدل أن يكسبن الرجال من آدابهن وحيائهن .

٢٧ - غفلة بعض الناس عن الحق قد تكون كالنور الذي يجدد نشاطهم . فإذا استيقظوا ونبهوا إلى خطأ شعروا بنشاط مجدد فى طلب الحق والصواب ولكن غيرهم إذا لفتوا إلى خطأ تتخاذل قوى أنفسهم ويظهرون الاستخذاء والاسترخاء ، والطائفة الأولى هى طائفة الفائزين .

٢٨ - قلما يهم المرء انتصار الحق إلا إذا كان انتصاره يزكى فكره وقوله . أما إذا كان لا يزكى فكره وقوله لم يهتم له ولجأ إلى الباطل يتخذ منه حجة ولا يهمه بعد ذلك لو مات الحق لأن عنده أن الحق مايرى ويقول أو يغالط نفسه وهو يعرف كذب ذلك .

٢٩ - إن الخلق القوى فى إنسان قد يَسْتَنْبِط الخلق القوى فى غيره . وهذه النظرة تذكرنا قول جورج اليوت أن من لا ثقة له بنفسه قد يأنس إلى من له ثقة كبيرة بها ، كما يأنس الذى أصابه البرد إلى من أصابه الحر كى يفيد حرارة ، والخلق له عدوى وإيحاء . ألا ترى أن الجندى يكتسب قدرة على تحمل الآلام وشجاعة برؤية قدرة وشجاعة غيره من الجنود فى الحروب . وكذلك عدوى الخلق فى الحياة اليومية .

٣٠ - يؤلمنى أشد الألم أن أرى الإنسان الذى جعل تاج الحقيقة ورأسها وذروتها كى يحرر نفسه وغيره من حكم الضرورة القاسية بالفكر والعمل ، يفعل ضد ذلك بسبب الانحياز للباطل المحبب إلى النفس فينغمر فى حكم تلك الضرورة القاسية ويغمر غيره فى حكمها ؛ ومن أجل ذلك نرى حياة الإنسان تتقدم بلا تقدم عصراً بعد عصر وترتقى من غير ارتقاء .

٣١ - إذا سمع الناس إنساناً يمدح نفسه قالوا إن مدح النفس له رائحة كريهة ولكن الظاهر أن أنوفهم لا تشعر بالرائحة الكريهة التى فى ذمهم غيرهم وهو مدح معكوس لأنفسهم .

٣٢ - مما يؤدى إلى حيرة الإنسان أنه إذا طلب أمراً واتخذ له وسيلة يركب الشطط فى طلب الوسيلة ويغالى بها حتى يهمل الغاية وينساها فى طلب الوسيلة فيحيد عما يريد ، لأن الوسيلة متى صارت غاية فى نفسها قد يتخذ لها هى أيضًا وسائل مستقلة عن غايتها الأولى وقد تمنعه من بلوغ تلك الغاية الأولى وكذلك من يضع الغاية موضع الوسيلة .

٣٣ - إننا أسرع إلى الاعتراف بأخطاء عملنا وأبطأ فى الاعتراف بأخطاء فكرنا ؛ لأن أخطاء العمل لها عواقب ظاهرة بارزة من الصعب إنكارها ، أما أخطاء الفكر فقد تخفى أو تستطاع المغالطة فيها . ومع ذلك فمن الناس من يمارى فى أخطاء عمله ، وهى ماثلة أمامه ، إذ ينسب تلك الأخطاء إلى غيره ، أو إلى سبب آخر غير سببها .

٣٤ - إن الإنسان مولع بأن يربط كل شئ بحياته وحاجاته . فصاحب الطاحون يشعر بأن القمح إنما نبت ونما كى يعطى له عملا بطحنه ، وكى تظل طاحونه دائرة . قس على ذلك كل أمور الحياة .

٣٥ - إن الإنسان مشغوف بمعرفة المستقبل . وهذا الشغف سببه أنه يميل إلى تصديق حدوث مايود أن يحدث فيه . وهذه صفة يعرفها الدجالون . ويبنون عليها أقوالهم عند ادعائهم كشف المستقبل .

٣٦ - في جميع العصور كانت الآحاد من الناس هي التي تعمل على تقدم العرفان . أما الجماعات والحكومات فإنها تتنازعها عوامل ودوافع مختلفة قد تؤدى بها إلى تقييد العلم حتى فى أثناء نشره « وفى كتاب أسباب تفاوت الناس للأستاذ هالدين فصل ممتع فى هذا الموضوع » . وعلى أى حال فالحكومات والجماعات تعنى بجامعى العلم والحُفَّاظ وأهل المرونة أكثر من عنايتها بذوى الفكر المستقل .

٣٧ - بعض الناس الذين تعبر حياتهم عن مبدأ أو فكرة قد لا يستطيعون فهم ما تعبر عنه حياتهم فيركبون الشطط وينزلقون إلى الخطأ والغلط . وقد كان نابليون يحتقر الأفكار قائلا إنها نظريات قليلة الأثر ، مع أنه كان يعترف (بالعمل إن لم يكن بالقول) إن الحياة الفكرية تبعث الحياة ، والفكر يبعث العمل .

٣٨ - عندما يعمل إنسان لابد له أن يرى أن نفسه أعظم من حقيقتها كى يستطيع أداء عمله ، وهذا أمر مغتفر بسبب ضرورة العمل إلا إذا كان رأيه هذا فى الثقة بنفسه يضر غيره أو يؤلمه أو يقلقه .

٣٩ - إذا عمل الإنسان لخير غيره ونفعه فإنما يعمل كى يشاركه من يعمل لخيره فى السرور بذلك العمل ، ومن لا يستطيع السرور بالعمل لغيره يضر ويؤذى بذلك العمل . والظاهر أن فى هذا القول ما يخالف قول كانط « إن المرء لايستطيع أن يحكم أن الواجب هو دافعه إلى العمل إلا إذا كان العمل يخالف نزعاته السارة وميوله المبتهجة » . ولو أن قول كانط حكم بصعوبة معرفة الدافع إذا وافق العمل نزعاته السارة .

(١٧)

تكملة نظرات جوتا [1]

يحتفى الأدباء هذه السنة بإحياء ذكرى « جوتا الألمانى » ولقد عادت ألمانيا مجزأة كما كانت فى عهده . وكان « جوتا » ينكر الحروب وقسوتها ويندد بفظائعها التى سماها فظائع الأبالسة . وكان فى صباه قد اشترك فى الحملة على الثورة الفرنسية التى تمخضت على الجمهورية الفرنسية الأولى . وكان « جوتا » يرغب فى السلم العالمى الذى ينشده العالم الآن، كما كان راغبًا فى ثقافة عالمية كما يرغب اليونسكو . ولهذه الأسباب كان هذا الوقت أنسب الأوقات للاحتفاء بذكراه . ولم يكن « جوتا » من طبقة الأشراف ، بل أسبغ عليه صديقه أمير ويمار لقد الشرف . وقد ذكرنا فى المقال السابق أنه فى شبابه ألف قصة « أحزان ورتر » التى اشتهرت فى عهدها كاشتهار قصة « كلاريسار هارلو » لرتشاردسون الإنجليزى و « هلواز الجديد » . اروسو وكانت على طريقة « السنتيمنتاليزم » . ولقوة أثرها فى النفوس حاول بعض الشبان التشبه « ببطل » القصة . ومن أجل ذلك لم يكن أثرها حميداً ، اتسع نطاق فكر « جوتا » ونطاق نفسه بعدها ، بالرغم من أن مواقفه الغرامية كانت بها عاطفة غرامية صحيحة ، إلا أنها كانت ممزوجة بالرغبة فى التجربة والخبرة صنع العالم المجرب . وكانت تتنازع نفس (جوتا) العاطفة والرغبة فى الخبرة ، وهذا التنازع كان فى كل الأمور ، ومن أجل ذلك كان أديبًا وكان عالمًا . وقد ذكرنا أنه كان يميل إلى المذهب الكلاسيكى وصفاته من سلاسة وسهولة ووضوح كما فى قصته (هرمان ودوروثيا) ، كما كان يميل أحيانًا إلى الشعر الفلسفى ، أو إلى الخيال الرمزى ، كما فى بعض أجزاء القسم الثانى من (فوست) المسمى (هيلينا) والحقيقة أنه كان يشعر بلذة فنية فى تجربة كل نوع من الثقافة والأدب ، فقد قرأ مرة قصيدة تأبط شراً التي مطلعها :

إن بالشعب الذى دون سلع ... لقتيلا دمه ما يُطَلُّ

وكانت قد ترجمت إلى اللاتينية فترجمها « جوتا » إلى الألمانية لإعجابه بها . وهذا كما ورد فى كتاب « تاريخ العرب الأدبى » للعلامة نيكلسون الإنجليزى . و « لجوتا » ديوان

---

١ - المقتطف سنة ١٩٤٩ م ، المجلد ١١٥ ، الجزء الرابع ، نوفمبر سنة ١٩٤٩م ، ص ٢٣٥ - ٢٤٢.

سماه « ديوان الغرب والشرق » يحاكى فيه بعض الشعر الشرقى ، وسمع مرة أن الإسلام هو الاستسلام لإرادة الله فى كل شئ ، فقال هذا ما ينبغى أن يكون عليه كل إنسان . وألف حكمة فى هذا الموضوع . وقصص « شيلر » التمثيلية على العموم أوقع . إذا قارنا بين قصص « جوتا » أمثال (أجمونت) و (تاسو) و (جوتز) و (افيجنيا) ، بين قصص «شيلر » أمثال (وليام تل) و (مارى ستوارت) و (النستين) و « دون كارلوس » واللصوص ، وقد ترجم (كارليل) قصة « جوتا » النثرية المسماة « ولهلم ما يستر » إلى الإنجليزية ، ولكنه عاد يتململ ويتأفف من بعض حوادثها ، والواقع أن هم (جوتا) وغرضه هو أن يعرض كيف اكتسب بطل القصة ثقافة حتى من الحوادث ،والمخالطة الوضعية ، ولم يقصد بالثقافة الزهد ، فقد كان (جوتا) زاهداً فى الزهد ، بل كان يراه مؤديًا إلى ضيق النفس والفكر ، وإنما كان يعنى بالثقافة استخلاص الحكمة الصائبة من تجارب الحياة .

وكانت روح « جوتا » روحًا عالمية تخطت حدود وطنه واحتضنت العالم ، حتى أنه أبى أن يكره الفرنسيين فى عهد نابليون عندما غزوا ألمانيا . وقال لأكرمان كيف أكره أمة أنا مدين لها بجزء كبير من ثقافتى ، والثقافة هى كل شئ . وقال « أوسكار وايلد » فى رسالة (الناقد صاحب الفن) : كان جوتا أول من جرؤ وجاهر بهذه الفكرة العالمية ، وسيزداد أثرها فى العالم حتى تؤدى إلى ترجيح العالمية ، ويمحو النقد الفروق الخاصة ، ويقرب توحيد العقل البشرى على اختلاف أمكنته ، وقد نقده بعض الأدباء نقداً شديداً كما فعل مينزل ، وبعضهم كان نقده يخالطه الإعجاب به مثل نقد هينى الشاعر الألمانى .

وفيما يلى تكملة لما أختير من كلماته ونظراته مع بعض التعليق :

١ - كل إنسان له أخطاء وصفات نقص أو عيوب لولاها ما وجدت شخصيته وفرديته التى يمتاز بها ، ومن أجل ذلك نأنس فى بعض الآحايين إلى أخطاء وعيوب أصدقائنا القدماء ، إذ لولاها محيت شخصيتهم وصاروا أناسًا آخرين . فإذا تخلص أصدقائنا منها مرة وافتقدناها فيهم أنكرناهم ، وقد نشعر بقلق إذ نشعر بغير المألوف منهم . والواقع أن هذا ليس فى الأصدقاء فحسب ، فإن الحياة كلها مثل حجرة علقت صور على جدرانها ، فإذا أزيلت بعضها من مكانها ربما أحسسنا بقلق هو شبيه بقلق التشاؤم بالأمر غير المألوف ، وكأن إزالتها من مكانها نذير بالموت والفناء .

٢ - إن الإنسان قلما يستطيع أن يدرك مقدار إساءة الناس فهم قول غيرهم ، لأن كلامهم يمر خلال إحساساتهم وخوالج نفوسهم ، ولو استطاع الإنسان أن يدرك مقدار إساءة الناس فهم قول غيرهم وتأويله حسب أهوائهم ، لتجنب كثرة الكلام ، كي يسلم من عنت أو خطب .

٣ - إن الرجل المعجب بنفسه يظهر إعجابه بنفسه بوسائل كثيرة ، وإذا منع من بعضها استحدث أخرى ، فهو يظهره بضحكة أو ابتسامة أو سخره أو غير ذلك من الوسائل المتنوعة . ومهما كان الأمر الذى حركه إلى الضحك أو الابتسام بعيداً عن موضوع اعجابه بنفسه ، فإنه يظهر فى ضحكه أو ابتسامه أنه مسرور بنفسه راض عنها ، معجب بها ، والرجل الذكى قد يرى أموراً كثيرة فى الحياة تستحق الضحك والسخر ، ولكن الحكيم إذا تدبر مآسى الحياة ومشاقها وآلامها وعجز الإنسان فيها مهما كان قادراً . إذا تدبر كل هذه الأمور ، منع نفسه من السخر بقدر ما يستطيع منع نفسه .

٤ - مما يدل على عجز الناس أن كثيراً منهم إذا واجههم الناس بعيوبهم يتحملون العقاب على تلك العيوب ، ولكن إذا حاول محاول أن يرغمهم على مزايلتها ومباعدتها ضاقت صدورهم ، فهم يفضلون أن يعاقبوا ، وأن يظلوا عليها إذا لم يستطيعوا دفع الوصف بها أو دفع العقاب . وهذا يظهر فى حياة الصغار كما يظهر فى حياة الكبار .

٥ - من الغريب أنك تجد فى بعض الآحايين شباناً يتفق أنك لاتكاد ترى فيهم موضع نقص يصلحهم ، ولكن اندفاعهم مع دافع الشباب إلى مجاراة تيار الناس يجعلهم كالسفينة التى تتقاذفها الأمواج ، فهذا الدافع هو أخوف ما يخاف عليهم ، ولا سيما أن الشباب مندفع بطبعه ، وأنه بالرغم من مظاهر ثقته بنفسه كثيراً ما يخفى قلة الثقة ببصيرته التى لم تكتسب بعد من تجارب الحياة ، فينقاد لتيار الناس ولعدوى خصالهم وأعمالهم بسبب ذلك .

٦ - من الناس من لا تتفق طباعه وأية بيئة أو مكانة ، ومن أجل ذلك ينشأ ذلك الصراع المخيف فى النفس الذى يضيع الحياة سدى ، ويقضى على مسراتها ، ولا يقتضى إنفاق المرء والبيئة أن ينقاد ذلك الإنقياد الجارف الذى حُذِّر منه فى النظرة السابقة .

٧ - ليس من السهل أن نصيب العدل فى قدر فضل الساعة التى نحن فيها ، فإذا كانت خيراً أوجبت فرضًا ، وإذا كانت شراً حملتنا ثقلا وهمًا ، وإذا كانت لا خيراً ولا شراً كانت مللا وسأمًا ،والنفس تميل إلى دفع كل هذه الأمور عنها وإبعادها حبًا للراحة، وخلاصًا من المشقة فى الحالات الثلاث إلا من شذ فى النفوس غير المسوقة بمبدأ أو وهم أو إيمان أو إحساس شديد.

٨ - إن الحق والباطل ينبعان من منبع واحد فى النفس ، وكثيراً مايكونان متصلين فيها اتصالا قليلا أو كثيراً . ومن أجل ذلك ينبغى الحذر إذا أردنا محو الباطل من محو الحق معه.

٩ - مما يدعو إلى الأسى أن الناس يزهدون فى الحق لا لأمر إلا لأنه معروف مملول مألوف ، والألفة تبعث الملل ، وهم لا يفطنون إلى أنه بالرغم من أنه معروف ، لايستطيعون تطبيقه فى الحياة وإنجاحه وتحقيقه ، فهو يشق عليهم فى العمل وإن كان لا يشق بعضه فى الفكر، ولعل هذا أيضًا من بواعث الزهد فيه مادام يصعب ويكلف النفس ألمًا ومشقة .

١٠ - إذا بدأ الإنسان يعمل قيد ضميره بالعمل وضروراته ، أما إذا تريث وجعل يفكر فإنه يعطى لضميره فرصة لاستعادة حريته - هذا إلا إذا كان التفكير فى تهيئة الأعذار التى تسوغ عمله ، فمثل هذا التفكير لا يعطى ضميره حريته .

١١ - إذا أصغيت إلى إنسان ، فإنه قد يكون مخطئًا مخدوعًا ، وإذا أصغيت إلى أناس كثيرين ، فإنهم كذلك قد يكونون مخطئين مخدوعين . ومع ذلك فإن كثرتهم قد توهمك أنك أصبت الصواب فى قولهم ، وأكثر الناس يحكمون بضغط حكم من حولهم من الناس من غير فحص وتقدير لذلك الحكم ، بل إنه مهما حاول الإنسان التخلص من أثر قول من حوله وحكمهم يجد مشقة أو استحالة .

١٢ - إذا استحسن الناس مبدأ أو رأيًا فى الحياة واعتنقوه لا تلبث محاسنه مع مضى الزمن أن تزول . وتظهر وتعظم أضراره ومفاسده من سوء الأخذ به ، فإذا استفحل ذلك حاول الناس القضاء عليه ، ولكن عندما يقضون عليه يقضون على النظام الذى لا تستقيم حياتهم إلا به ، فتعم الفوضى حتى يضطروا إلى إعادة النظام على أساس جديد أو على الأساس القديم ممزوجًا بقليل من التجميل والتحسين . وعلى ذلك فالجهد الذى يبذل فى سبيل التغير والإصلاح ، أكثر من التغير والاصلاح إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر لا إلى المسميات .

١٣ - معرفة الخطأ أسهل من الوصول إلى الصواب ، فليس كل معرفة للخطأ تؤدى الصواب ، فإن الخطأ يوجد على سطح الأمور ، أما الصواب المجهول فلا يستطيع كل إنسان البحث عنه . ومع ذلك فإنه بعد تعذر معرفته ، إذا عرفه الإنسان كانت له فجأة الأمر المتوقع، وبغتة الأمر المعروف المنسى ، مع أنه لم يكن معروفًا ولا منسيًا .

١٤ - إن محاولتنا أن نضع أنفسنا موضع الرجل الذى يخدع نفسه بأنصاف الحقائق وأجزائها ، أشقُّ على العقل والنفس من فهم الرجل الذى كل فكره خطأ .

١٥ - إذا كان الفكر والمشاهدة مصحوبين بالرغبة فى اعتقاد السوء ، صرفتهما تلك الرغبة عن تبين أعماق الحياة فلا يصلان إلا إلى سطح الأمور .. وهو أمر صحيح فى العلم ، كما هو صحيح فى الأدب ، فما استطاع الشاعر العالمى « شكسبير » مثلا أن يفصح عن حقائق نفوس من يصف من الناس حتى حقائق صفات الأشرار منهم ، إلا بأن يضع نفسه مكانهم كى ينظر إليهم بالعطف ، فيستطيع أن يستخلص حقائق نفوسهم ، وهو قلما يشذ في ذلك إلا فى قصصه الأقل جودة .

١٦ - إننا نستطيع أن نُغْفِل مناقضة لنا من غيرنا ، أما إذا أتت المناقضة لنا من أنفسنا وألحت ، كان كل ما نستطيع عمله أن نصحح تلك المناقضة أو أن نصحح نفوسنا ، ولما كان تصحيح ميل النفوس أمراً عسيراً ، فإن النفس تحتاط حتى لا تقتحم عليها مناقضة لها من نفسها ، وللنفس وسائل عديدة فى هذا الاحتياط .

١٧ - ربما أصابت المصائب العامة أو الخاصة إنسانًا قويًا ، فلا يكون وقعها أشد ولا أثرها أعظم من وقع المداراة وأثرها فى أعواد حبات الحنطة ، فإنها تنزع الحبات ، ولكن تلك الحبات لا يهمها أتعود فتزرع كى تستبعث محصولا جديداً أم تؤخذ فتطحن فتصير غذء وقوامًا . وكذلك ما تستبعثه المصائب من الرجل القوى العاقل الرشيد من الأعمال والأقوال تكون دائمًا صلاحًا لنفسه ، يستدرك به فارط أمره أو صلاحًا للناس . وبعكس ذلك ما تستبعثه من الرجل الأخرق أو الضعيف ، وهذا مثل أعلى قلما يصيبه إنسان ، ولكنه إذا كان دائمًا نصب عينيه ، وربما أصاب بعضه إذا كانت نفسه مؤاتيه له .

١٨ - إننا نرتاح للأمور الوسطى ، ونقبل على ما كانت ملكاته فى حدودها لأننا نأنس بمخالطة من هو أقرب إلينا منزلة وشبها ، وبمعاشرة من يشاكلنا ولا يكلفنا مشقة الارتفاع فوق الأمور الوسطى وهذا من أسباب رواج شأن أصحابها .

١٩ - إن الكفاح بين القديم الموجود ، وبين الاصلاح والتجديد ، كفاح دائب أبداً وكل نظام إذا اعتوره الفساد دَفَع قهراً إلى ضده . وهذا مشاهد فى الأدب كما هو مشهد فى الحياة عامة. مثل النزاع بين أصحاب نظرية امتلاك الضياع الكبيرة ، وأنصار نظرية تأميم الأرض أو الكفاح بين أنصار نظرية حرية التجارة وأنصار حماية المنتجات المحلية . وهذا الكفاح على تعدد مظاهره كفاح معروف من قديم الزمن .

٢٠ - الحرية المطلقة أمر مرغوب فيه ، فلا عيش ولا صلاح للناس معها لأن الناس إذا

تحرروا من كل القيود تحرروا أيضًا مما يمنعهم من الخطأ ، ومما يردعهم عن الشرور – وهم إذا طلبوا الحرية المطلقة ، إنما يطلبون نظامًا جديداً وقيوداً جديدة ولا يعرفن خطر طلب الحرية المطلقة إلا بعد أن يكووا بنارها ، ويصطلوا الويل منها ، وبعد أن يمعنوا فى الأخطاء الناشئة من الإفراط أو التفريط .

٢١ – السعيد هو الذى يعمل ليخلو من هم الحياة وقلقها . فإذا لم يؤد العمل لجمع المال إلى الهم والقلق كان من عمل السعيد أما إذا أدى إلى الهم والقلق لم يكن العمل لجمع المال طريق السعادة ، بل طريق الشقاء فليست الثروة أن تكون ذا مال كثير ، بل الثروة أن تخلو نفسك من توقع الحاجة ، ومن خشية الفقر ، فمن استطاع أن يخلى نفسه من هذه الخشية لم يكن فقيراً وإذا لم يستطع كان فقيراً .

٢٢ – كل عمل يراه الرجل الضيق الذهن حرفة أو صنعة أو مهنة ، يراه الرجل العظيم فنًا جميلا ، فمهما كان خادمًا لحرفته أو صنعته ملتزمًا لها ، فهو خادم لفن جميل . ومثل هذه الخدمة واجبة على كل إنسان سواء أكان كبيراً أم صغيراً فى مقامه ومرتبته . وإذا عمل الإنسان عملا واحداً بصدق واتقان ، كان عمله مرآة يرى فيها صورة كل ما يمكن عمله بصدق واتقان .

٢٣ – لا شئ يدعو إلى التزام جادة الفهم المشترك فيه بين الناس مثل العيش كما يعيش الناس ، والتزام ما يلتزمون ، ولا شئ أدعى إلى ما يشبه الجنون من الشذوذ عن الحياة العامة التى يحياها الناس ومن الخروج على فروضها ونظمها .

٢٤ – لا شئ يدعو إلى التزام جادة الفهم المشترك فيه بين الناس مثل العيش كما يعيش الناس ، والتزام ما يلتزمون ، ولا شئ أدعى إلى ما يشبه الجنون من الشذوذ عن الحياة العامة التى يحياها الناس ، ومن الخروج على فروضها ونظمها .

٢٥ – التجارب والخبرة لا حد لها ، أما النظريات فإنها محدودة بحدود العقل . ومن أجل ذلك كثيراً ما يعود الناس إلى نظرية بعد نبذها وتركها إذا ازدادوا خبرة وتجارب .

٢٦ – إن أغلاط المرء فى الحياة قد تكلفه عناء كثيراً ، وتوقع به ضرراً بالغًا ، ومع ذلك لا يستطيع أن يثق أنها استنفذت كل عواقبها ، فإنها قد تكون لها عواقب قصيات تطارده بعد أن يظن أنه قد عوقب عليها عقابًا كافيًا – ومع ذلك فالشبان خاصة يندفعون إلى أمثال تلك الأغلاط ، ولايعرفون ما هو مخبأ لهم ، كما قد لايعرف ذلك الكبار .

٢٧ - فى الفكر كما فى العمل ينبغى معرفة حدود ما يستطاع الوصول إليه كى لا تضيع جهود المرء سدى ، ومع ذلك ينبغى أن يثابر المرء على اعتقاد إمكان فهم المجهول الذى لا يستطيع فمه ، وإلا قصر فى أمور كثيرة فى بحثه ، وكان من الجائز أن يصل بذلك البحث إلى كشوف كثيرة ما كان يتوقعها .

٢٨ - إنك إذا أردت من إنسان أداء واجبات ومنعت عنه مزايا يستحقها لأدائها ، فاعلم أنك ستدفع ثمنًا غاليًا لهذه الخطة ، ولا تحسب أنك اقتصدت ، والناس إذا أرادوا الغبن قالوا لا شكر على واجب .

٢٩ - إن الذين عاشروا الأطفال يعرفون أنه إذا زاد التأثير عليهم عن حد معين يخفق هذا التأثير فى إحداث رد فعل يؤدى إلى مخالفة وعناء . ومن أجل ذلك كانت حياة الصغار مملوءة بالتسرع فى الحكم على الأمور بأحكام غير ناضجة . لابد أن يمضى زمن حتى يستطيع المدرس أن يصحح أثر هذا التسرع وهذا العناء - والمدرس الفطن هو الذى يستطيع أن يعرف حد السيطرة الذى يؤدى بعده التأثير إلى المخالفة والعناد . ويعجبنى خطة بعض المدارس الإنجليزية التى تكل أمور التلاميذ أنفسهم ، حتى خصوماتهم وحتى حفظ النظام ، فينشأ التلميذ وهو يشعر بالمسئولية ، كما أنه لا يحس تلك السيطرة القاهرة التى تؤدى إلى العناد .

٣٠ - إذا أراد الإنسان أن يركن إلى خبرة غيره ، ينبغى أن يتذكر أن ذلك الأمر المختبر قد أصبح بينه وبينه حاجزان : حاجز نفسه وحواسه ، وحاجز نفس من يركن إلى اختباره ، وقد تتغير الحقائق من إحدى الناحيتين .

٣١ - إذا فقد الإنسان الفهم الأساسى العام ظن أن كل ما يشتهيه أمر ضرورى وأن كل ما يسره أمر نافع ، فيقيس الأمور بمقياس باطل .

٣٢ - لا يستطيع الإنسان أن يعيش من غير سلطة مسيطرة على حياته ، ومع ذلك فإن هذه السلطة فيها من الخطأ قدر ما فيها من الصواب والحق . فإنها تحافظ على أمور كثيرة ينبغى أن تزول ، وتسمح بزوال أمور كثيرة ينبغى أن تصان ، فهى سبب عدم تقدم الإنسان .

٣٣ - بعض الناس يكونون على جانب كبير من النبل والشرف والصدق لولا أنهم ذكروا مرة أمراً مكذوبًا أو باطلا ، ثم أرادوا أن يسوغوا أنفسهم ويعذروها بأن يعيدوا ذكره مراراً كى يصدقه الناس فتتدلى بهم هذه الغريزة بدل أن تزكيهم وترفع من شأنهم .

٣٤ - لايمتاز الإنسان بالفضل على خصومه ، إذا لم يستطع بالفضل معرفة فضلهم ، والإنسان لا يستطيع أن يشغل نفسه بكل إنسان ، ولا يعيش مع كل إنسان ، فينبغى إذا أن يعز أصدقاءه ، وأن لا يكره وأن لا يضطهد أعداءه ، أو من وضعهم موضع الخصوم .

٤٠١

٣٥ - قبل الثورة كان كل أمر مجهوداً يطلب من الناس أداؤه ، وبعدها عاد كل أمر مطلبًا للناس يطلبونه ، وهذا يذكرنى نقد « مازينى » للثورة الفرنسية إذ قال إنها جعلت الناس تنظر إلى حقوقهم ، وإلى طلب تلك الحقوق ، وصرفت الناس عن واجباتهم - وربما كان فى هذا القول مبالغة ، إلا إذا أريد أن يكون تقديم الواجبات مبدأ عامًا .

٣٦ - المخدوع بقول غيره أو عمله إنما كان مخدوعًا ، لأن فى نفسه صفات مكنت المخادع منه ، فالمخدوع إذا هو الذى خدع نفسه بسبب ذلك .

٣٧ - الحصاد أشق من نثر البذر فى الزراعة ، وكذلك فى الحياة تزداد المشاق كلما قارب الإنسان مقصده الذى يسعى إليه ، وكذلك فى الفنون كلما ألم بها الإنسان وتفقه فيها ، عرف صعوباتها . وأما المبتدئ فيها غير الممارس لها ، فهو أكثر اغتراراً بها وبالقدرة على التبريز فيها .

٣٨ - السعادة هى الاستسلام لإرادة الله ، فنتقبل كل ما يصيبنا كأنه ناشئ من إرادتنا .

٣٩ - مهما حَرَّرَ الفن النفوس ، فإن أساسه عقيدة وإيمان ومهما خالطه من الفكاهة فإن أساسه الجد .

ع . ش

(١٨)

تتمة نظرات جوتا (١)

تنقسم حياة جوهان ولفانج فون جوتا إلى عهود : أولا عهد العاصفة والشدة وهو عهد الاندفاع مع العاطفة والاستسلام للخيال وفيه ألف (جوتز) و (ورتر) . ولو أنه لم يكن مستسلمًا كل الاستسلام كما سيتضح من تفسير (هتنر) بالنون و (دودن) لمعنى مؤلفاته في ذلك العهد . ثم يأتي عهد رحلته إلى إيطاليا ومكثة فيها وقد أكسبته الآثار القديمة ميلاً إلى المذهب الكلاسيكي وزادت الأثر الذي كان قد اقتبسه بقراءة كتب القدماء . وبعد عودته بدأت صداقته لشيلز الشاعر ، وكان شيلر أشد ميلا إلى التعبير عن الجانب الثائر من النفس البشرية كما في قصة (وليام تل) و (اللصوص) و (دون كارلوس) و (عذراء أورليان) وهذا مذهب خلفه جوتا بعد تأليف (جوتز) و (أحزان ورتر) كما أن في قصص شيلر أناسًا وصفهم بصفات الكمال الإنساني بينما أناس قصص جوتا يتعثرون في أخطائهم ويتعلمون منها ومع ذلك كان جوتا متزنًا فلم يحاول اطفاء ثورة النفس على مفاسد الحياة ونظمها . ولكنه مع ذلك كان يدعو إلى تطهير النفس أولا من شوائب الأحقاد والأثرة قبل حمل شعلة الحرية المقدسة . وكذلك كان يفضل العمل المتدرج ويرى أنه أنفع من الطفرة التي تؤدي إلى التراجع والتقاعس والتقهقر والانتكاس .

ولعلّ اتزانه هذا سبب نقد الأحزاب المتطرفة له . وفي كلماته نجده يحاول إبراز الحق الذي في الآراء المتناقضة ويرى أن من الحكمة أن لا يهمل الحق الذي يخالط الباطل . وهذا من شدة إعزازه للحق وصيانته له من الضياع في أي جانب كان بينما كان غيره إذا أراد محو باطل لا يصون الحق الذي يمازجه . ومن أجل هذه الصفة فيه قد يخال أنه يتردد بين النقيضين ولا تردد له . ولعل هتنر (بالنون) هو الناقد الذي فسره أحسن تفسير وتابعه إدوارد دودن . ومن تفسيرهما نرى أن ورتر في قصة (أحزان ورتر) يمثل الشاب الذي يعالج إحساسًا شديداً لا يؤدي إلى عمل نافع ثم هو يطلب المحال ويسوقه الخيال ، وكل هذه صفات مرض ونقص تؤدي إلى الهلاك كما أدت إلى هلاك ورتر . فهو لم يصف ورتر كي يكون بطلا يحتذى بل وصفه للعظة والاعتبار وتجنب صفات نقصه . ولكن كثيراً من الشبان تشبهوا به فهلكوا . ولعل

---

١ - المقتطف سنة ١٩٤٩ م ، المجلد ١١٥ ، الجزء الخامس ، ديسمبر سنة ١٩٤٩م ، ص ٣٦٠ - ٣٦٤.

سبب تشبههم به أن جوتا يكسو أخطاء الشاب ورتر وعيوبه جمال فنه وهو لو لم يكسه لأخطأ، لأن أخطاء الشباب وعيوبها مكسوة بطبيعتها جمال روح الشباب وهو جمال فنى .

وفى قصة (ولهلم مايستر) يتدرج الشاب ولهلم من الانقياد للخيال الكاذب والعاطفة الخرقاء وهما يستهويانه مرة بعد مرة . فيكون عمله وخلقه غير مطابقين لمقاصده فيتدرج بالتعلم من أخطائه وعيوبه إلى العمل الصحيح المنتج وإلى فهم الأمور على حقيقتها بعد تضليل الخيال له تضليلا طويلا قد يضل معه القارئ إذا كان شابًا ، وقد يستهويه ذلك الضلال . ولكن جوتا لايريد للشاب أن يتعلم كما تعلم ولهلم مايستر من عيوبه وأخطائه إذ أن هذا يكلفه من الجهد والوقت ما هو أنفس وأطول من أن يضيع هكذا . ومن أجل ذلك رسم خطة للتعليم تجنب الشبان مثل أخطاء ولهلم .

وكذلك نرى فى قصة (تاسو) الرجل الذى يستعبده الخيال ويكاد يهلكه لولا أن له صديقًا ينجيه . أما فى قصة فوست فنرى فوست الذى استفحلت فيه روح التملك والسيطرة حتى تملك حبيبته وهو غير مالك لنفسه ولا مسيطر عليها وكاد يذهب ضحية الإغواء لولا أنه ارتدع وأتعظ وعلى إبليس (مفستو فيليس) فى اللحظة الأخيرة . وبذلك نجا ولم يرد جوتا للناس أن ينقادوا لحب السيطرة كما انقاد فوست فى أكثر حياته (ولو أنه عرضه عرضًا فنيًا مغريًا) بل هو يرى أن لا نجاة للعالم والأمم إلا بأن يتعلم الآحاد والأمم ضبط النفس والقضاء على عاطفة حب التملك والتحكم .

وهكذا نجد لكل قصة من قصصه درسًا وموعظة . ويخطئ من يستهويه جمال الفن فلا يبحث عن الفكرة الفلسفية والمغزى المراد .

* * *

وبالرغم من هذه الثقافة العالية فقد اختلف النقاد فيه . فمنهم من أسقطه ، ومنهم ، وهم الكثرة ، من رفعه إلى السماء ؛ سماء الفن والثقافة : قال (بورن) : « لقد فضل جوتا الدعة والراحة على البطولة والآلام . ولكن الأبطال لا تردهم الآلام عن نصر الحرية ونقد مفاسد الحكومات والانتصار لشعوبهم كما فعل مونتسكيو وفولتير وروسو التعس الفقير المريض الذى عاش بالرغم من ذلك حر الرأى ، وملتون لم يمنعه قرض الشعر من محاربة الاستبداد » .

وقال منزل : « إن كل مؤلفات جوتا إنما هو عرض لشخصيته فى أحسن وضع فنى . فالرجل مع خصوبة ذهنه وخياله ما كان يهمه غير نفسه واشباعها من كل إحساس بمظاهر

الجمال . وقد كان هم جوتا بدل تحرير العقل الألمانى أن يحمل عقله وعقل قومه نير كل ثقافة، وأن يداعب حضارة كل أمة تحت الشمس مداعبة الممثل الذى همه الترف واللذات والأثرة » .

وقال جان بول رختر : « عندما أردت أن أزور جوتا قيل لى أنه الآن لايعجب بشئ ولا يستحسن شيئًا وحتى نفسه التى كان يعجب بها أصبح لا يعجب بها فسألت صديقًا لى أن يحولنى إلى حفرية متحجرة أقدمها له لعل غرابة شكلها تستدعى تنبهه لها . فى أثناء الحديث ظل ساكتًا إلى أن جاء حديث الفنون فقرأ لنا قصيدة له لم تنشر . وكنت أشعر أن صوته يحاول أن يدفع بحرارة قلبه كى تخترق غشاء الثلج المتجمد فوقه » وهذا الجمود ضد ما وصفه به حليم فى شبابه .

وقال كارليل : « إنه عصر جديد ، ذلك العصر الذى يظهر فيه رجل حكيم عاقل يستوعب ويحمل عيوب عصره ويتغلب عليها ويشق لنفسه طريقًا فى اتجاه وطريق كان لايمكن اختراقهما . وهذا هو ما صنع جوتا ، ومؤلفاته هى مرآة عصره الذى وصفه وأوضحه وفسره ».

وقال نيبوهر : « أن الألمان الآن يسمعون اسم جوتا بخشوع وإعجاب كما كان قدماء الإغريق يسمعون اسم هومر . وجوتا قد بلغ فى قومه منزلة لم يبلغها أحد غيره وبسبب مؤلفاته صارت الأمم الأخرى تهتم للأدب الألمانى وتحترمه » .

وقال أمرسون : « ليسفى العالم شئ لم يهتم جوتا بدراسته وتفهمه . فهو مقرر يسجل كل أمر وظاهرة . وقد وصل فى بحثه إلى حدود المجهول . ثم خطا خطوة وراءها وعاد سليما كما كان قدماء الإغريق يقولون إن الاسكندر المقدونى وصل فى فتحه إلى حدود العالم ثم خطا خطوة وراءها » .

وفيما يلى تتمة لما أختير من كلماته مع بعض التعليق عليها :

١ - مهما كانت حياة الإنسان حياة معتادة مألوفة ومهما كانت النفس راضية بهذه الحياة، فإن فى النفس نزوعًا خفيًا إلى مطالب أسمى ونزعات أرفع وأملا للنفس من تلك الحياة المألوفة المعتادة . والنفس تبحث حولها عن وسائل تدنى بها تلك المطالب وترضى بها تلك النزعات - وقول جوتا هذا يذكرنى بقصة جون بوكان التى عنوانها « ملوك أوريون » وهو يتخيل فيها أن ملوك ذلك العالم الموصوف قد حكم عليهم أن يهبطوا إلى هذا العالم الأرضى، وأن تعيش نفس كل ملك فى نفس إنسان من السوقة : وقد ذكر فى المثل القديم أن نفس كل

إنسان تجمع بين قرد وأسد . وفى قصة جون بوكان ترضى النفس بالحياة المعتادة المألوفة حتى إذا تحركت نفس الملك التى فيها نزعت إلى مطالب عالية وأظهرت وسائل وملكات أسمى مما اعتادته .

٢ - كلما تعلم الإنسان درسًا هامًا فى الحياة عاقه الفقر الروحى عن الاستفادة منه كل فائدة . ولكنه مع ذلك يكتسب ولو شيئًا قليلا من الخبرة به . ولعل هذا الفقر الروحى كما سماه جوتا أو العجز الدائم كما سماه مينكين الناقد الأمريكى - هو سبب تخلف الإنسان عن مسايرة العلم وسبب عدم الاستفادة منه أعظم فائدة كما وصف الأستاذ جوليان هوكسلى ، وسبب اختلال حياة الناس واعتزازهم بذلك الاختلال أو اعتزاز بعض المفكرين زاعمين أنه لو بطل الاختلال توقف نمو الإنسان الفكرى . وهذا من باب جعل الإنسان نقصه وعيبه محمدة وميزة . وهذه الصفة فى الإنسان قاعدة سيكلوجية عامة كما أوضح جوتا فى مقال سابق أى تحويله نقصه إلى مبدأ محمود .

٣ - قد يخطئ من يظن أن شرف النفس يعوق صاحبه لطيبة قلبه عن إدراك مكر الخبثاء . ولكن اعتقاد المرء هذا الظن قد يدعوه إلى الاسترسال وقله الحيطة ، فينكشف أمره لدى شريف النفس ، حتى ولو كانت آراؤه محدودة كما أن مخالفة عمل الماكر لما ألفته نفس الشريف النفس تطلعه أيضًا على احتيال الماكر الخبيث .

٤ - لا يستطيع المرء أن يؤسس مثال كمال إلاَّ على أساس الأمور الواقعة الكائنة ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يصل إلى الكمال غير المحدود إلاَّ عن طريق الأمر المحدود . وأما إذا حاول المرء تأسيس مثال الكمال على خياله غير المحدود لا على الأمور الواقعة المحدودة ضل سعيه وازدهاه الخيال واستعبده الوهم.

٥ - القوة التى تدعو المرء إلى التحكم والأثرة هى القوة نفسها التى لو شاء دعته إلى أن يملأ حياته جمالا وحرية وإخاء فتعم العالم هذه الأمور . ولكن عليه أن يوجه تلك القوة فى نفسه إلى الجمال والحرية والإخاء توجيها مستأنفًا مستمراً مثابراً عليه .

٦ - إن الشعور الشديد فى النفس إذا لم يُتَّخَذْ كقوة لأداء عمل نافع كان مرضًا وأدّى إلى اختلال الحياة .

٧ - إن الخرافات جزء أصيل فى النفس الإنسانية فإذا حاربناها فإنها تختفى حتى نظن أنها قد زالت . ولكنها تكمن فى خبايا النفس حتى تجد فرصة فتظهر(*).

(هذه النظرية لا تطلق على جميع الناس ، فهناك أشخاص قمعوا كل خرافة قمعًا أبديًا فلا يمكن أن تجد فى أنفسهم فرصة لكى تظهر - المقتطف) .

٨ - إن الرجل الذى يتعلم بالفطنة الحدود والقيود التى ينبغى أن يتقيد بها ثم يلتزمها مختاراً غير مقهور ، يستطيع مع ذلك أن يصل إلى الحرية . أما الرجل الذى يقهر على التزام تلك الحدود والقيود قهراً ، فإنه قلما يصل إلى الحرية وهو إن وصل إليها وجد لها مرارة وألمًا.

٩ - لا تنال أمةٌ ملكة الحكم على الحقائق حكمًا صادقًا إلاّ إذا استطاعت أن تحكم على نفسها حكمًا صادقًا . فالأمة التى تَتَهرَّب من الحكم على نفسها لا تستطيع الحكم على الحقائق حكمًا صادقًا . وهى لا تستطيع الحكم على نفسها إلا بعد مراحل من الثقافة والنضج والوعى الصادق .

١٠ - أن مقاومة الحقائق الفكرية مثل تحريك النار إنما تُطير منها ماهو شبيه بالشرر فتشتعل النار فيما لم تشتعل فيه من قبل فالعنف ليس السبيل لمحاربة الرأى لأنه يعد عجزاً عن محاربته بالحجة .

١١ - ليس النجاح فى الحياة فى معرفة النفوس البشرية ، بل فى أن تكون أكبر لباقة ومهارة فى وقت معين من منافسك الذى هو أمامك يواجهك . فربما كنت خبيراً بالنفوس ، ولكن لا تستطيع أن تنتفع بخبرتك .

١٢ - من الصعب أن يعرف الناس بعضهم بعضًا حتى ولو كان داعيهم إلى ذلك العرفان أحسن الميول وأسمى المقاصد فكيف بهم إذا تملكتهم إرادة الشر كما يحدث فى كثير من الأحوال عند الحكم على الناس . وهذا كما قال رومان رولان : « إن كل إنسان لغز يصعب حله سواء أكان يحاول حل لغز نفسه أم لغز نفس غيره ومع ذلك فلا يستطيع الناس أن يمتنعوا عن الحكم على الأنفس والأخلاق ؛ إذ أن هذا الحكم جزء ضرورى من الحياة .

(١٩)

تتمة نظرات جوتا (*)

نشرنا فى العدد السابق جملة من هذه النظرات العميقة . بقيت نظرات حارة فى غرور الإنسان وارتكابه الأغلاط بسبب هذا الغرور .

١٣ - من أشد أغلاط الشبان حمقًا ظنهم أنهم يفقدون أصالة الرأى وميزة الابتكار إذا اعترفوا بحقيقة اعترف بها الناس قبلهم فيحاولون ابتكار شئ جديد حتي ولو كان مناقضًا للحقيقة ومخالفًا لها .

١٤ - الكفر بالنعمة وإنكار المعروف والجميل المصنوع نوع من العجز والضعف وما رأيت قط رجلا قادراً يكفر بالنعمة وينكر الجميل إلا إذا كان فى نفسه جانب ضعف خفى .

١٥ - ليست التقوى غاية وإنما هى وسيلة إلى الثقافة النفسية . والذين يتخذونها غاية لا وسيلة ، ينتهون إما إلى مخادعة أنفسهم وإما إلى مخادعة الناس . ولعله يعنى بالتقوى التى هى غاية مظاهر التقوى التى تخلو من الصفاء الروحى وطيب السجايا .

١٦ - ليس أساس الصداقة الحب بل أساسها الاتفاق فى المقاصد والأغراض مهما كان اختلاف الوسائل وحالات الحياة . قال جوتا ذلك فى الصداقة بينه وبين شيلر وكانا ينشدان الحق والجمال على اختلاف وسائلهما .

١٧ - كما ينبغى للمرء أن يحذر كل الحذر من العناد والإصرار على الأخذ برأى نفسه ونظره إلى الأمور ، كذلك ينبغى أن يحذر من عجزه إذا حاول التخلص من هذه الحالة والأخذ برأى غيره .

١٨ - كل أمر يحدث يحاول أن يشغل مكانًا لنفسه ، ومن أجل ذلك يدفع أمراً آخر عن مكانه ويقلل مدَّة بقائه ، فالأمور بينها تنازع كتنازع الناس البقاء .

١٩ - الرجال والشيوخ أميل إلى استنتاج القاعدة العامة وإلى تفضيلها . أما النساء فهم مثل الشبان أميل إلى الشواهد الشاذة عن القاعدة - على أن كل إنسان يميل أحيانًا إلى تطبيق القاعدة من غير نظر إلى الأحوال الخاصة الاستثنائية ، كما يميل أحيانًا إلى خلق حالة استثنائية لا وجود لها .

---

* - المقتطف سنة ١٩٥٠ م ، المجلد ١١٦ ، الجزء الأول ، ١ يناير سنة ١٩٥٠م ، ص ٣٣ - ٣٦.

٢٠ - لما كان الخطأ يعاد فى العمل ويتردَّد كان من الواجب أن نعيد ذكر الصواب والحق مهما كانا معروفين . ومن الخطأ أن نهمل ذكرهما اعتماداًعلى أنهما معروفان مألوفان وهذا يصدق فى التعليم كما يصدق فى الحياة الخاصة أو العامة .

٢١ - ربما استطاع المرء مقاومة مضايقة الحوادث اليومية بذكر حوادث تاريخ الجماعات الإنسانية فى العصور العالمية وما كان بها من كوارث يتأسى بها .

٢٢ - إن أدب اللغة المكتوب المتوارث هو جزء ضئيل مما قيل وما صنع فى حياة الناس . ومع ذلك نرى فى كتب الأدب أموراً وقصصًا وأقوالا وأحوالا وآراء وأعمالا وأحاسيس معادة مكررة . وهذا يدل على أن عقل الإنسان ومآله محدودان .

٢٣ - أحسن الحكومات هى التى تعلم المحكومين حكم أنفسهم بأنفسهم .

٢٤ - قد يكون خلو المرء من الخطأ سببه أنه لا يعتزم عمل أى أمر معقول فهذا الخلو من الخطأ ليس فضلا له بل هو قصور .

٢٥ - أحسن الجماعات هى التى يكون حديثها تعليمًا وسكوتها تهذيبًا .

٢٦ - إذا أستأنف إنسان حكم أهل عصره ولجأ إلى ما يتوقع من حكم الأجيال القادمة دل ذلك على شعور واضح منه بأن فى حياة الإنسان حقًا خالداً إذا لم يظهر لأول وهلة فإنه سيظهر فى المقبل من الدهر ، ويحول القلة إلى الكثرة - وقول جوتا هذا صحيح ، ولكن هذا الشعور قد يكون مؤسسا على غرور الثقة بنفسه أو غرور الثقة بالناس .

٢٧ - عند المحاجَّة ينبغى الحذر من أن تنقلب إلى كره ومقت كما يصنع بعض العلماء عند تفنيد كل منهم رأى مناظره . فإن شعورهم بكره رأى المناظر يتحول إلى شعور بكره صاحب الرأى حتى كأنه عدو لدود ، قد يكون قول جوتا هذا صحيحًا ، إلا أن هذا التحول أكثر ما يكون بسبب الأثرة وحب الاستعلاء والغرور وطلب الظهور وهى صفات كثيراً ما تكون فى نفوس العلماء وتظهر عند البحث النظرى ، والشعور بكره الرأى إنما كان لأنه يخالف رأى كارهه ، فقد ذكر جوتا فى مقال سابق أن الإنسان قلما يهمه انتصار الحق إلا إذا كان انتصاره يزكى ويعزز رأيه .

٢٨ - كما أن روما القديمة كان بها عدا سكانها من الأحياء سكان من التماثيل المنصوبة فى كل مكان ، كذلك هذه الدنيا ، بها فضلا عن الحقائق دنيا من الأوهام أشد أثرة فى النفوس، وأكثر الناس إنما يعيشون فى دنيا الأوهام التى فى الدنيا وهم يحسبون أنهم يعيشون بنفوسهم وقلوبهم وعقولهم فى عالم الحقائق .

٢٩ - لقد شُبِّه ثوار الثورة الفرنسية بالمجانين ولكن أفواه المجانين قد تنطلق بالحق حين يخشى المستذلون النطق به . وبالرغم من ذلك فقد حَذَّر جوتا الألمان من الاقتداء بالثورة الفرنسية كما نصح الأمراء بالإصلاح .

٣٠ - يكثر شكُّ المرء كلما أتسع نطاق ما يطلق من المعرفة . فلا يصح أن يقال عن رجل أنه يعرف شيئًا إلا إذا كان ما يعرفه أمراً محدوداً معينًا . فإذا انتفى التعيين والتحديد انتفى العرفان .

٣١ - قد ظللت أشغل نفسى وأعَنيِّها بالنظريات العامة حتى فطنت إلى النجاح العظيم الذى يستطيعه أهل الفضل إذا عملوا فى اتجاه واحد وحدود بدل توزيع جهودهم على مطالب متعددة .

٣٢ - كنت من عهد الصغر أشجع بشغف وعبث الملكات المشكوك فيها ، وهذا خطأ لم أستطع التخلص منه إلى الآن . والظاهر أنه يقصد ملكات غيره ولكنه ربما يصدق فى نفسه أيضًا لاتساع مطالب ثقافته وتنوعها تنوعًا باهظًا فادحًا .

٣٣ - لقد عاش الناس فى عهود التاريخ فى بحثهم عن الجمال والحق تحت ظلال الحروب المتكررة . وذلك لأن الإنسان يأبى أن يحكم نفسه وهو مع ذلك يريد أن يحكم غيره ، ولا نجاة للناس والأمم إلا أن يتعلم الإنسان ضبط النفس وحكمها بدل أن يحاول حكم غيره والسيطرة عليه .

وهذه الحكمة هى خلاصة قصة فوست وهى أنه مادام شَرَهُ التحكم والتملك دافعًا للنفس فلا نجاة ولا أمان فى العالم ، بل تعتدى الأمة على الأمة ويعتدى الإنسان على الإنسان .

٣٤ - إن الشغف بالحق يتطلب منا أن نعرف حدود فكرنا ، فإذا انتفى هذا الشغف حل الخطأ ، وهو يتملقنا ويفهمنا أن فكرنا غير محدود بحدود . ومن أجل ذلك كان الخطأ أقرب إلى طبيعة الإنسان من الحق : لأن الإنسان يميل إلى التخلص من الحدود .

٣٥ - ومن أجل أن آراءنا محدودة نعتقد أننا دائمًا على صواب فيما نرى وقد ترى رجلا كبير العقل يخطئ ويجد مسرة فيما يخطئ فيه . وقد يستخدم ملكات عقله العظيمة فى الدفاع عن الخطأ .

٣٦ - المقاصد السامية أجدى على طالبها من المقاصد الأقل سمواً وسموقًا حتى ولو تحققت الثانية ولم تتحقق الأولى .

٣٧ - ينبغى الحذر من أنصاف الحمقى وأنصاف العقلاء أكثر من الحذر من البُلْه ومن الذين كمل عقلهم ، لأن الأصناف الأولى أكثر خطراً . إذ أن البُلْه لبلاهتهم لا يتقنون تدبير الشر ، والذين كمل عقلهم يرون فى مطالب عقلهم وثقافتهم ما قد يترفع بهم عن تدبير الشر . ولا يراد بالبله طبعًا المجانين الذين يدفعهم دافع إجرامى .

٣٨ - حالنا في قراءة الكتب حالنا مع الأصدقاء الجدد ، ففى أول الأمر إذا عرفنا إنسانًا يسرنا أن تكون هناك مشابهة وملاءمة عامة ، وأن يكون هناك تأثير من الناحيتين فى أى جانب من جوانب الحياة . فإذا نضجت المعرفة واتصلت المخالطة ظهرت أوجه الاختلاف بين الصديقين ، والمسلك المعقول لا يكون بأن نسلك مسلك الأطفال فى إحجامهم ونفورهم وخصامهم ، بل يكون بالاستمساك بما نتفق عليه ، ثم نفهم أسباب الاختلاف من غير أحجام ومن غير رغبة فى الموافقة من غير فهم واقتناع .

٣٩ - إننا لا نستطيع معرفة الصفات الغالبة على إنسان بالنظر إليه فى البيئات التى يتكلف فيها العادات والأخلاق ، كما يكون فى زياراته وفى الحفلات ، وإنما نستطيع ذلك بدراسته فى بيئته الخاصة التى يرفع فيها التكلف والاحتجاز .

٤٠ - ليس التسامح هو غاية مايراد من جميل الأخلاق والطباع ، فالتسامح خطوة أولية ينبغى أن تسوق المتسامح إلى فهم ما يتسامح فيه وإلى العطف عليه بالفهم .

٤١ - إننا كلنا نعيش فى الماضى بأفكارنا وإحساساتنا ، وهذا العيش فى الماضى إذا استشرى يؤدى إلى الهلاك . لأننا بهذا الاستشراء نصير عالة على الماضى فنعيش عليه .

(٢٠)

تتمة نظرات جوتا (*)

نلخص الأمور التى أخذها عليه النقاد فنقول إنهم أخذوا عليه - كما يقولون - أن نظرته إلى الجمال كانت نظرة أغريقية قديمة لانظرة مسيحية . وأنه كان فى اكتمال عمره وشيخوخته لا يتبسط مع بعض زواره بل يبدى بعض الجفاء إذا لم يكن زائره ممن يتوقع أن يستفيد منهم ثقافة ، وأنه لم ينظم القصائد ولم يكتب المقالات لحث الألمان على قتال الفرنسيين ، وزاد على ذلك أنه أخطأ فى قدر قوة نابليون ، وأنه لم يمالئ الأحرار الألمان فى موقفهم من أمرائهم . وأن الثقافة كانت دائرة عنده حول تكميل الفرد فكان بها شئ من الأثرة . وتعجبنى صراحة هنرى هينى الشاعر الألمانى الذى نقد جوتا كما شاء ثم اعترف أن شدته فى نقده إنما كانت لأنه حسده عظمته ، وربما ظلم هينى نفسه بعض الظلم فى هذا القول . فإن مزاج هينى الثائر على كل شئ إلى البرودة وجفاء القول فى شعره عاد يقول : أن أغانيه الشعرية أحسن وأعظم الأغانى . وهو فيها أعف قلمًا ولسانًا من غيره . وأما موقفه من الفرنسيين فإنه لم يؤجر لهم قلمه ولسانه ولا أجره لغيرهم من الأحزاب والطوائف . وقد رفض ما اقترحه عليه نابليون أن يجعل باريس مستقره . ولم تكن ألمانيا فى عهده إلا دويلات متنافرة وقد أوشكت بروسيا أن تتفق ونابليون على أن يعطيها هانوفر . ثم علمت أنه يخابر الحكومة الإنجليزية لإرجاعها إلى أسرتها . وكانت بافاريا ، وسكسونيا ، وورتمبرج ، وبادن ، وغيرها مع نابليون ولم ينشق عنه أكثر أنصاره من الألمان إلا بعد انهزامه فى موقعة ليبزك . ويعترف كل الأدباء أن الأديب يستطيع أن يناصر الحرية من غير كتابة شعر أو نثر سياسى .

وأما أن الثقافة عند جوتا كانت تدور حول تكميل الفرد وأن بها من أجل ذلك شيئًا من الأثرة فليس كل الأثرة من نوع واحد ، والأثرة التى هى إيثار للثقافة أمر مثمر منتج لم يستغن عنه مثقف . وأما الذين كانوا يريدون أن يقبل عليهم وهم يضيعون وقته الثمين ثم يشتكون إذا لم يفعل فقد قال جوتا : إن أحمق اللصوص هم اللصوص الذين يسرقون وقتك واطمئنان بالك . ولا نريد تبرئته من كل عيب . وإنما نريد أن نظهر ما فى نقد النقاد له من التحامل والمبالغة التى تغير الحقائق . والحكم له بأقواله أصدق من الحكم عليه بأقوال نقاده ، حتى ولو كان فى أقوالهم بعض الحق .

وفيما يلى تتمة لنظراته مع التعليق القليل على بعضها:

* - المقتطف سنة ١٩٥٠ م ، المجلد ١١٦ ، الجزء الثانى ، ١ فبراير سنة ١٩٥٠م ، ص ٩ - ٩٦.

١ - لا دواء يستطيع أن تعالج به شعورك بامتياز غيرك إلا بالعطف والمودة لمن هو ممتاز عنك فيهما ترتفع إلى مرتبته . أما الحسد والحقد فإنهما لا يعالجان امتيازه عليك ، بل بهما تزداد انحطاطًا ، ولا يستطيع أن يدرك مظاهر العظمة وصفاتها فى الناس إلا من كان على صفة من صفات العظمة .

٢ - أنى أشفق على الذين يصخبون ويحزنون بسبب فناء كل الأمور ويسترسلون فى تأمل يجعل الحياة عبثًا وغرورًا . فإننا ما خلقنا إلا لكى نجعل الأمر الفانى خالدًا بأن نستخلص منه حقيقيته وجماله ، وهذا لا يكون إلا إذا قدرنا الحالتين حق قدرهما . والذى يستطيع أن يستخلص من الأمور الفانية جمالها وحقيقتها يستطيع أن يقول للساعة العابرة تريثى .

٣ - يظن المرء أنه إذا تكلم فإنه دائمًا ما ينطبق تمام الانطباق على ما يحس أو ما يلاحظ أو ما يجرب أو ما يتخيل أو ما يفكر فيه ، ولكنه إذا فحص الأمر وجد أن كلامه قلما ينطبق تمام الانطباق إذ أن الكلمات التى ينطق بها المرء كثيرًا ما تكون الحاضرة التى هى عوض عما لا يؤاتى فهى من قبيل سد خانة . وفهم الإنسان وفكره كثيرًا ما يكونان مما يعبر من الكلام .

٤ - إن الإنسان لا يفعل ما ينبغى أن يثابر عليه من محاولة إزالة ما يعلق بذهنه أو بذهن غيره من الأفكار المخطئة ، أو التى لا محل لها أو المقصرة عن الصواب بعض التقصير فيتركها عالقة بذهنه وهو لا يعرف عاقبتها . والواجب المفروض عليه هو أن يثابر على محاولة محوها بأن يكون مقصده واضحًا صادقًا نبيلاً ، وتركها عالقة يكون إما من الكسل أو قلة الاكتراث أو سوء النية .

٥ - كل مرحلة من مراحل العمر لها نظرة خاصة وفلسفة هى بها أشبه وإليها أحوج، فالطفل لحداثة عهده بالدنيا يتلمس الموجودات ، ويتعرف الحقائق الكائنة ، فنظرته إذًا واقعية « رياليست » فإذا كبر وصار شابًا ازداد عاطفة ، وأملا ونظرًا إلى المستقبل . ومن يزدد من هذه الأمور يكن مثاليًا « ايدياليست » فإذا اكتمل وصار رجلا وجرب أمور الحياة وشك فى وسائله وتساءل هل هى تنجح مقاصده ودبر وحزم أمره لذلك كان عمليًا « براكتيكال » . فإذا شاخ وهرم ورأى كيف أن الأمور كثيرًا ما تأتى عفوًا واتفاقًا وبالمصادفة ، وأن الأحمق قد ينجح والعاقل الحازم يخيب ، وأنه كثيرًا ما يكون الجيد والردئ إلى مصير واحد . فعندئذ يرى الحياة لغزًا وسرًا أى يصير « ميستيك » ولكن ليس معنى ذلك أن هذه النظرات منفصلة فى مراحل العمر انفصالا تامًا . بل كل منها تتعدى مرحلتها ، وقد تجتمع فى مرحلة واحدة من العمر .

٦ - الشك العامل النشط المنتج هو الذى يحاول دائمًا أن يتغلب على نفسه ، وأن يصل بالخبرة والتجارب إلى يقين محدود . وأن يكون هم صاحبه تطبيق ما وصل إليه ببحثه وبرهانه فى الأمور العملية .

٧ - يوجد أناس كثيرون يخيل لهم أنهم يفهمون ما يلاقونه فى الحياة من تجارب ، وإنما هم يقنعون أنفسهم بذلك كى يستريحوا ، إذ الواقع أن فى الحياة - ولاسيما فى اختلاق أعمال الناس وأخلاقهم - ما يحير .

٨ - إن الرجل المغرور المعجب بنفسه يطلب مدح الناس إياه ، ولكنه لايطلب هذا المدح أو الإكرام أو الإعجاب لأعمال أو صفات مجيدة ، وإنما يطلبه لشخصه مهما كانت صفاته وأعماله ، وهذا الطلب ناشئ من شعوره بالنقص فيُجُّب أن يستعيض عما نقص بالمدح والإكرام، ودافع النقص هذا قد يوجد حتى فى ذوى الكفايات والنبوغ الذين يجدون نقصًا فى أنفسهم .

٩ - إن السخاء والأريحية أنواع ولكن أصدقها وأحسنها موقعًا وقبولا السخاء الذى هو عطف التفاهم والتقدير والقدر المنصف .

١٠ - إننا لا نستطيع أن تظل على خلاف مع من يتفق معنا فى الطباع والميول . ومهما طال الخلاف فمآله إلى الاتفاق . أما الذين يخالفوننا فى الطباع والميول فمآل الاتفاق معهم إلى الخلاف ، وهذا يشبه قول مارسل بروست إن التدانى إنما يكون باتفاق الأمزجة والأذواق والميول ، لا باتفاق الآراء والنظريات .

١١ - أكبر خطر على قومنا الألمان مجاراة جيرانهم ومحاكاة الأمم التى سبقتهم إلى الظهور والحضارة من غير اتعاظ بعبر التاريخ وعظاته . وأعظم ما يفيد الألمان أنهم لفتوا العالم إلى أنفسهم فى زمن متأخر بعد أمم كثيرة أى أن الفائدة فى اتعاظهم بما فى حياة من سبقتهم - وما فات جوتا ما لفت النظر إليه في مكان آخر من أن التجارب لا تكتسب بالتلقين ، فكما أن الحياة تبدأ تجاربها من جديد إذا كانت حياة الآحاد من الناس أو الأجيال والقرون ، فكذلك حياة الأمم . وهو يعلم ذلك ، ولكن صنعه فى إرشاد قومه وعظتهم صنع المعلم الذى يحاول أن يجعل المتعلم يكتسب خبرة بالتعليم سواء أأفادته أم لم تفده كل الفائدة.

(٢١)

تتمة نظرات جوتا (١)

١٢ - أشد الصعوبات توجد حيث لا يبحث عنها الإنسان سواء أكان ذلك فى الحياة أو فى الأدب أو فى العلم . فإذا لم يجد الإنسان صعوبات فليس معنى ذلك أنها غير موجودة .

١٣ - لو كان من المستطاع ادخار الوقت ، وخزن الزمن كما يدخر المال ، وكما يخزن الذهب ، لحين الحاجة إلى صرفه وبذله فى عمل ما ، لكان لذوي الكسل بعض العذر فى عدم صرف وقتهم فى العمل المنتج . ولكن حتى لو كان خزن الزمن وادخاره مستطاعًا ليصرفه صاحبه عند الحاجة ، لكان هذا أيضًا من ضعف رأى صاحبه ، إذ يكون كمن يصرف من رأس ماله المدخر بدل الصرف ، مما يربح بالعمل . والذى يصرف من رأس ماله لا من ربحه ، يشك أن يفلس .

١٤ - قيمة كل أمر فى الحياة تكون على قدر معونة المرء على تكميل نفسه وتهذيبها وتثقيفها . ولعل فى هذا بعض ما فى قول هازليت : إن الإنسان إذا تمنى أن يكون إنسانًا آخر فهو فى الحقيقة لا يتمنى إلا أموراً تكمل شخصيته الخاصة ، كأن يتمنى ذكاء هذا ، أوثروة ذلك ، أو سعادة آخر . إذ لو تخلى عن نفسه وعقله وعن ذكرياته وإحساساته وأفكاره لصار إنسانًا آخر ، فلا يفيده تحقق ما يتمناه بل يفيد هذا الشخص الآخر . وإذاً لو خُيِّر أفقر صعلوك وطلب منه أن يتخلى عن نفسه ، وأن يكون ملكًا أو ثريًا أو عالمًا ما تصور إلا أن ينال ملك الأول ، أو ثروة الثانى ، أو علم الآخر ، على شرط أن تبقى له نفسه . وهذا مصداق قول الإسكندر المقدوني : لو لم أكن الاسكندر لتمنيت أن أكون ديوجنيز(أى الفيلسوف المعروف).

١٥ - مهما حاول الإنسان أن يفسر أسباب جودة الأمور الجيدة الممتازة ، فإن فى جودتها صفات لا تفسر : إذ تجلُّ عن التفسير وهذا يذكرنى أحد أصحاب الفن الذى كان مولعًا بالنظر إلى صورة موناليزا التى عنوانها المسرورة « لاجيو كوندا » . فلما كتب والترباتر وأطال فى وصف أسباب جودتها وابتعاثها للسرور ، قال صاحب الفن : إن أقوال والترباتر عن هذه الصورة إنما هى من أدب الخيال وقصصه ، أى ليست أسبابًا حقيقية .

---

١ - المقتطف سنة ١٩٥٠ م ، المجلد ١١٦ ، الجزء الثالث ، ١ مارس سنة ١٩٥٠م ، ص ١٧٤ - ١٧٦.

١٦ - إنه أمر محرج حقًا أن يمدح الرجال الممتاز ، وأن يعجب به الحمقى والأغبياء ، وكأن جوتا ينظر إلى عكس قول المتنبى أو إلى ما يكمل معنى بيته :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

وإذا أتى المدح من أهل النقص كان مدحًا مريبًا ، وربما يخيل للسامع أن الممدوح ناقص مثلهم . وهذا يتفق أن يكون ، وقد لايكون ، دليلا ولكنه محرج كما قال جوتا .

١٧ - كلما كبر الإنسان ازداد تسامحًا إذا لم ينس أخطاءه وأغلاطه فى ماضى حياته ، وإذا عامل الناس بمثل ما عامل نفسه به فى تلك الأخطاء والأغلاط . وهذا شرط قلما يستقيم إذ أن نفس المرء كثيراً ماتدعوه إلى نسيان أغلاطها وأخطائها ، وإلى نسيان تسامحه مع نفسه ، بل إنه كثيراً ما يحسب أنه يكفر عن تسامحه مع نفسه فى ذنوبها ، بل أنه كثيراً ما يحسب أنه يكفر عن تسامحه مع نفسه فى ذنوبها بالتشدد والعنف مع الناس إذا وقعوا فى مثلها ، إلا إذا أراد أن يعذر نفسه بأن يعذر الناس ، ولكن يمنعه من ذلك خوفه أن تظن به محاولة عذر نفسه إذا عذر الناس فيحجم عن عذرهم .

١٨ - إن صاحب الفن أو الصنع قد يجيد الصنع فى فنه ، ولكنه قد يعجز عن أن يفسر سبب جودة صنعه ، كما قد يعجز عن تفسير سبب جودة صنع غيره . والواقع أن صاحب الفن قد يكون غافلا عن جودة صنعه حتى أنه قد يفضل من صُنْعَيْه أقلهما جودة فيحكم له بأنه يمتاز عما هو أحق بالتفضيل .

١٩ - فى كل المقاصد والأغراض الإنسانية إذا فصل المرء بين الأمر الواقع وبين التفكير النظرى أخل بالفن والحياة ، إذ أن كلا منهما متمم ومصحح لأخيه .

٢٠ - عندما علم بعض الفرنسيين أن ميرابو الخطيب كان مدينا إلى حد كبير فى خطبه للمادة التى جمعها له دو مونت ، ظنوا أن هذا أمر ينقص من قدر ميرابو . وقد قال جوتا : كأن أمثال هؤلاء القوم يحسبون أن هيراقليز رب القوة عند الإغريق كان يستطيع أن يستغنى عن الغذاء ، وما كان يستغنى فى تلك الخرافات عنه ليظهر قوته ، وكذلك العبقرى إنما كان عبقريًا لقدرته على الامساك بالأمور يمينًا ويساراً ، ولقدرته على الاستفادة منها مادة لعبقريته وعلى اعطائها حياة خاصة من لبه واحساسه . وقال جوته أيضًا : أن ابتكار العبقرى إنما يكون بذكريات مؤلفة تأليفًا فنيا ومنسقة تنسيقًا مبدعًا .

وقد ألمَّ أبو العلاء المعرى بهذه المعانى وأبدع فى باب التشبيه كل الإبداع فى قوله :

والنحل يجنى المر من نور الربى　　فـيـصـيـر شـهـداً في طريق رضـابه

أى أنه يجنى من الزهر ويعطى بدل ما جنى رضاب النحل ، وكذلك العبقرى .

٢١ - من الصعب أن يظل المرء منفرداً عن المذاهب والجماعات لأنه إذا التحق بطائفة منها فهو حتى فى اخفاقه وخيبته يجد الاطمئنان والسكينة والأمان . ويزداد المرء رغبة فى الخير إذا اتصل بجماعة ترغب فى الخير ، كما يشجع على عمل الشر إذا كان في طائفة ترغب فى الشر. وقول جوتا يذكرنى كلمة لهازليت فى صعوبة بقاء الإنسان مستقلا عن الجماعات والأحزاب. قال : إنه تتضاءل لديه نفسه حتى يتهمها بالباطل ، وحتى يتهم رأيه إذا ألح عليه كل الناس بالخلاف ، ويظل كأن الأرض زالت من تحت قدميه ، وظل معلقًا فى الفضاء - والواقع أن من يدعى الاستقلال عن الاحزاب والجماعات يتصل بها فى أمور كثيرة ، فليس هناك انفصال تام .

٢٢ - كثيراً ما تكون النظريات العامة محاولة من الرجل المتسرع القليل الصبر الذى يحاول التخلص من الظاهرات ومن الجهد المرهق الذى يقتضيه تفسيرها ، فيضع مكانها صورة أو فكرة أو كلمة جوفاء ينخدع بها من لا يجرب بنفسه ، بل يعتمد على الروح الحزبية بين الجماعات .

٢٣ - عندما نفقد الشغف بشئ والرغبة فيه ، نفقد ذكراه كما أن المرء لا يسمع ما لا يود سماعه . وهذه نظرات سيكلوجية من جوتا هى أشبه بأقوال سيجموند فرويد .

٢٤ - لايستطيع المرء أن يكتسب ثقافة من غيره إلا إذا استطاع تثقيف نفسه .

٢٥ - إذا أخطأنا فى المحسوسات ، فليس الخطأ خطأ الحواس ، بل خطأ ملكة الحكم على المحسوسات ، فإنها تخطئ إذا لم تعرف حدود الحواس ، وطرق استخدامها استخدامًا صحيحًا .

٢٦ - كثيراً ما يتقدم من يدافع عن الباطل بلطف وأدب ، بينما يغتر من يرى نفسه على حق بما يراه من الحق فى نفسه فيستغنى عن اللطف والأدب . لأن الأول يريد أن يكون باطله مقبولا ، فيدلف إلى الناس بما تهوى قلوبهم ، والثانى قد يخذل الحق الذى يدافع عنه بالاعتزاز الذى ينأى به عن اللطف والأدب .

وفى الختام نقول إن فى مؤلفات جوتا فكرًا كثيراً يدعو إلى الفكر ، وإن الحكم له بأقواله أصدق من الحكم عليه بأقوال نقاده ، حتى وإن كان فى أقوالهم بعض الحق .

(٢٢)

نظرات جوتا بين الفرد والعالم

الخاتمة [١]

قال مازينى الزعيم الإيطالى المعروف : « يصح أن نُسمّى مؤلفات جوتا دائرة معارف فى أمور بدَدَ لا نظام لها ، وذلك لأنه فقد الشعور بالوحدة التى تؤلف بين الحقائق والأمور ، وكيف يكون هذا الائتلاف فى مؤلفاته ، وهو لا مكان للإنسانية فيها ، ولا شعور بها فى قلبه. لقد حمل « فيخت » الفيلسوف بندقيته بعد محاضرة من محاضراته كى يشجع الدفاع عن الحرية ، وجوتا ساكن لا يتحرك ، بينما كانت الشعوب حوله تناضل عن حقوقها ... وبدل أن يصف مثال الكمال فى آحاد قصصه اعتنق مادية شعرية أدته إلى عدم المبالاة وإلى انتحار جهوده الأدبية » ... وفى مقال آخر يقول « إن فكر جوتا فكر عقيم لأنه لا صلة له بالعمل ».

وقال هنرى هينى : - « إن قصص جوتا ألفاظ ميتة ، لا تؤدى إلى عمل نبيل ، كما تؤدى قصص شيلر » .

وقال هنرى هينى فى مكان آخر « إن الفن الذى يقتضيه وصف آحاد قصص جوتا الذين يتعثرون فى أخطائهم ، أشق وأعظم من الفن الذى يتطلبه وصف آحاد قصص شيلر » .

وقال شتاويل : - « لقد أخطأ الناس فهم جوتا ، وفهم قلبه الكبير ، ونفسه العظيمة ، فإذا أهملنا مؤلفاته أهملنا ما فيه دواء وشفاء لكل حُمّى تنتاب حياتنا الحديثة . ولقد صرح جوتا فى آخر « فوست » أن لا نجاة للعالم والأمم ، إلا إذا تعلم الآحاد والشعوب ضبط النفس والتغلب على شهوة التملك والتحكم » .

وقال الدوس هكسلى : « لقد فطن جوتا إلى الأسباب التى تقتل الميزات الفردية فى الحضارة الحديثة فرجع هو وشيلر إلى الحياة الإغريقية القديمة ، إذ كان الإغريق ينشدون حياة فيها الحرية اللازمة لظهور الطباع والميزات الفردية » .

---

١ - المقتطف سنة ١٩٥٠ م ، المجلد ١١٦ ، الجزء الخامس ، ١ مايو سنة ١٩٥٠م ، ص ٣١٧ - ٣٢٣.

وإشارة الدوس هكسلى تُذكر بمقالة (الحضارة واختلاف الطبائع) التى نشرناها فى المقتطف في عدد مارس سنة ١٩٤٧ وقد اقتبسنا ما وعاه ثيوكيديدس من خطبة بركليز الشهيرة التي يفخر فيها بالحضارة الأثينية ، وأنها تعطى كل إنسان الحرية اللازمة لطباعه وميزاته الشخصية . وذكرنا فى تلك المقالة رأى جيزو المؤرخ السياسى الفرنسى ورأى جون ستوارت ميل الفيلسوف الإنجليزى ، وأنهما كانا يريان أن الحضارة تكون أتم ثمرة وأزهر زهرة، وأعظم فضلا وأثرا إذا صيغت الطباع الفردية .

ومن أجل ذلك يرى الدوس هكسلى أن لجوتا فضلا كبيراً على الحضارة الحديثة .

أما خصوم جوتا الذين أشار مازينى إلى مبالغتهم فى خصومته ، فقالوا أن مؤلفات جوتا فى الأدب الألمانى مثل داء السرطان فى جسم الإنسان ، فيصدق فيهم قول ستاويل إنهم لم يفهموا مقاصده . وأما اتهام مازينى جوتا أنه كان لايشعر بالإنسانية فهل أدلُّ على تواضعه فى الشعور بها من قوله فى نظرة سابقة : أنْظُر فى نفوس الناس ، ثم انظر فى نفسى فلا أرى شيئًا من آثامهم أو عيوبهم أو أخطائهم كأن من المحال أن أرتكبه وأتصف به » فالرجل الذى يرتضى لنفسه الهوان كى يظهر صلته بالإنسانية فى جميع مظاهرها ، لا يقال إنه لا يشعر بالإنسانية إلا على سبيل المبالغة . أما قول مازينى إن جوتا كان يفصل بين الفكر والعمل . ففى آخر قصة « فوست » فى محاورة فوست لنفسه يحتم فى الحياة التّهدى من الفكر إلى العمل دائمًا . وقال جوتا : إن نابليون أخطأ فى احتقاره المفكرين النظريين ، إذ أن الفكر يؤدى إلى العمل ، ولكن مازينى يعنى نوعًا خاصًا من العمل ، وهو العمل الثورى السياسى الذى كان جوتا لا يميل إليه . وكان هم مازينى طول حياته القيام به ، كما أن جوتا يعترف أنه لا يثق بفكر العامة ولا بعلمهم إذا ألقى لهم الحبل على الغارب . فإذا كان كل هذا عيبًا فهو من عيوب جوتا . وأما حمل « فيخت » بندقيته فلو أن نابليون تجنب الشَّرَهَ لاستطاع النيل من ألمانيا بإرضاء أطماع دول ألمانيا المتنافرة . أما قبول جوتا وسام الشرف من نابليون فربما كان متورطًا في ذلك . والواقع أن نابليون كان يعمد إلى إظهار كبار المفكرين الألمان كأنهم ممالئون له توريطًا لهم . وأما خطأ جوتا فى تقدير أماكن الضعف فى دولة نابليون فيكفى فى عذره ما رأى من تخاذل ملوك ألمانيا وقبولهم ألقاب الملك منه ، وعلى أى حال فهو خطأ منه . وقد حذر جوتا الألمان من أن تكون لهم أطماع كأطماع نابليون ، كما حذّرهم من إرتكاب الفظائع فى الحروب حتى ولو كان ارتكابها تشبهًا بالأعداء . وقال : إن النصر الذى لا ينال إلا

بارتكاب الفظائع غر جدير بأن ينال . وكان مازينى يعيب على جوتا اهتمامه بالفردية فى أدبه . ويرى أنه من المستحيل التوفيق بين الفردية والجماعة بينما كانت طريقة جوتا أن يعطى آحاد قصصه الحرية لمحاولة التوفيق بين طباع الفرد وحقوق الجماعة ، فمن استطاع التوفيق تثقف وتعلم ، ومن لم يستطع خاب أو هلك . وإذا قرأنا كتاب « واجبات الإنسان » لمازينى نراه يحث على الواجبات وضبط النفس كما حث جوتا ، وتراه يرى الجماعة الوطنية حلقة من حلقات الإنسانية العالمية ، كما رأى جوتا الذى حذّر العالم من حب السيطرة والتملك . ونحن نرى كتاب غرب أوروبا يعيبون على روسيا أن اتساق النظام الشيعى يقتل الميزات الفردية . وعلى أى حال فإن محاولة جوتا التوفيق بين الغرضين محاولة جليلة . ووسائل اليونسكو التى يقوم بها أخو الدوس هكسلى ووسائل مجلس الأمن فى بث التفاهم بين العالم ونشر السلام هى وسائل جوتا سواء أنجحت أم لم تنجح . وكان الدوس هكسلى يرى أن أسباب ضياع الميزات الفردية بسوق الناس على نمط واحد « ستندر يزيشون » موجودة فى الدول الغربية ، فالمصانع تخرج له ملابسه وآلاته وأزياءه على نمط واحد ، والتخصص فى العمل يقصر فكره على أمر واحد ، والجرائد والمجلات والملاهى تهيئ له أخباره وأفكاره وملاهيه على نمط واحد ، والتعبئات العامة فى الجيوش الحديثة تسوق الناس إلى نمط واحد أيضًا . وربما كان ألدوس هكسلى مبالغًا « كما يبالغ فى بعض الأحايين » فى بيان خطر هذا الاتساق ، ولكن رأيه معقول . والاعتزاز بالميزات الفردية كما أوضح هى خطة جوتا مع التوفيق بينها وبين الجماعة والعالمية .

وفيما يلى بعض آراء جوتا مع التعقيب عليها :

١ - ينبغى أن يتذكر المرء أن فى نفس كل إنسان خواطر لو عبَّر عنها صراحة سببت استياءً واستهجانًا ، والتعبير عنها يكون إما من العجز عن ضبط النفس وإما من قلة التمييز بين ما يليق وما لا يليق ، وإما من التعود على الانسياق فى شرح خطرات النفوس ، كما يفعل الشعراء والكتاب ، وإما بالعدوى فى البيئات غير المثقفة التى يدعو فيها استرسال إنسان فى هذا الأمر إلى استرسال أصدقائه ومعاشريه . وهذه النظرة تذكرنى قصة تمثيلية من تأليف يوجين أونيل الأمريكى فيها يتحدث كل أناسى القصة بحديثين وينطقون بقولين ، أولا القول الذى لا يضير سماعه والذى هُيِّئ للقول ، وثانيًا القول الذى يعبِّر عما فى النفس فتسمع إنسانًا يُظهر لآخر المودة فى حديثه الأول ، ثم يعقبه بصوت منخفض حديث نفسه الذى يدل على كذب

الحديث الأول يَعبّر عن الحقد والذم ، ولو كانت هذه سنة جارية فى الحياة لما استطاع أن يتعاشر الناس . ومن قبيل هذا ما ذكره جوتا نفسه عن حديث نفسه عندما قال إنه من حماقة حب العظمة الباطلة كان يجول بخاطره أن أمه حملت به سفاحًا من أمير جليل الشأن ، ولم يكن جوتا عاجزاً عن ضبط لسانه ، وإنما آثر هوان نفسه ووخزها كى يعظ الناس ويعطيهم درسًا كما فعل جان جاك روسو فى بعض اعترافاته ، ولم يكن روسو فاقد الشعور ، بل كان شديد الإحساس بما يؤلم . وقد اتخذ بورن اعتراف جوتا دليلا على العقوق الفاضح وفقدان الإحساس بالكرامة والتملق للأمراء ، وجعل اعتراف جوتا هذا إظهاراً للطبع الغالب عليه . ولعله قد غلبه طبع صراحة صاحب الفن ، أو غلبه دافع خفى نفسى إلى التفكير عن الخاطرة باعلانها للناس .

٢ – إنما تراد التقوى لتثقيف النفوس أرفع ثقافة ، وللبلوغ إلى الطمأنينة والسكينة . أما الذين يقولون إن التقوى غاية فى نفسها ، فإنهم ينتهون إما إلى مغالطة أنفسهم ، وإما إلى مغالطة الناس – وهذه النظرة هامة لأنها توضح طريقة جوتا فى نظره إلى الأمور ، إذ كان يرى أن قيمة كل أمر حتى التقوى وهى أطهر الأمور إنما هى فيما يُكْسبَ النفس من ثقافة . وقيل إن هذا نوع من الأثرة وحب الذات ، ولكن يستطيع جوتا أن يقول إن الأثرة المكروهة تنافى الثقافة النفسية . وإذا قيل إن التقوى إنما تراد لطاعة الله ، قال جوتا إن طاعة الله فى تثقيف النفس وتهذيبها . وهذه النظرة هامة أيضًا إذ توضح قوله إن من يتخذ الوسيلة غاية فى نفسها قد يضل عن الغاية الأصلية ، وقد يتخذ للغاية الثانية « أى للوسيلة التى صارت غاية » وسائل تنافى الغاية الأصلية . فكم من أناس مع التقوى والتدين يتخذون وسائل تخالف مقاصد التقوى والتدين السامية النبيلة ويُحِسُّون إحساسات تناقض غاياتها السامية .

٣ – إنما يكون الواجب حيث يحب المرء الذى أمرته به نفسه وفرضته عليه وإنما يريد جوتا أن لا يفصل بين الواجب والسرور بعمل الواجب . وما كان يَغْرُب عن باله أن ضبط النفس الذى يحث عليه يقتضى حملها على مالاتود من الخير ، وفطامها عما تحب من الشر ، ولم يخف عليه معنى قول عمرو بن كلثوم :

ولكن فطام النفس أعسر محملا ... من الصخرة الصماء حين ترومها

« أعسر أى أصعب وأشد » ولم يغب عنه معنى قول البوصيرى :

والنفس كالطفل أن تهمله شبَّ على   حب الرضاع وإن تَفْطِمهُ ينفطم

ولم يفُتْه أن النفوس إذا لم تعالج بالضبط يوشك أن يصدق فى كثير منها قول الحصين بن المنذر :

أمَرتْه بالدناءة والخنا   ونهته عن طلب العُلا فأطاعها

ولكن جوتا رأى أن من عمل على تكُّره وبغض لما يعمل غير جدير بأن يُدْعى مؤديًا لواجب، فإن نفسه قد تكون منطوية بسبب هذه التأدية على خبث وحقد وغيظ ومكر وقسوة ونفاق وتضليل وغلظة وكذب وتهيئة السوء وحب الانتقام ، فيضر ويؤذى نفسه كما يضر ويؤذى غيره . وهذه النظرة توضح اهتمام جوتا بالصواب والصدق ، والحق فى جوانب القول المختلفة ، فهو يرى ضبط النفس ويرى مع ذلك ماقد يكون قهرها وإرغامها من شر . ويرى أن صفات الشر المنبعثة من الرغم والتكره فى العمل من غير سرور به قد يزيد شرها على فائدة العمل الذى أداه المرء مكرها ، فهو إذا غير جدير بأن يدعى مؤديًا الواجب .

٤ – ينبغى أن نتذكر أنه كما أن عظماء الرجال يكسبون نسيج الإنسانية متانة فى النسج، ويعينون إلى حد ما طراز ذلك النسيج ، فإن عامة الناس هم الذين يكسبون نسيج الإنسانية سعة وعرضًا وطولا وعظمة بتلك السعة ، فهما مثل السدى واللحمة . ولا يستغنى صنف عن صنف من الناس . وهذه كلمة من الكلمات العديدة التى يظهر جوتا بها شعوره بالإنسانية . ومثلها قوله فى نظرة سابقة ، «كل إنسان مهما كان مستقلا عن الناس ، فى عيشه ، إما مدين وإما دائن للناس فى الأقوال والأعمال والآراء والإحساسات » .

٥ – كما أن التفكير النظرى يؤدى المرء عن طريق المشاهدة والتطبيق إلى فهم الحقائق وإدراكها ، كذلك ينتهى المرء بالمشاهدة والتطبيق إلى الفكر النظرى ، ولا غنى للإنسان عن اتباع الطريقتين . وفى هذه النظرة استدراك على من يريد أن يقصر الطريقة الحديثة فى الفكر والاستنتاج على الوصول عن طريق المشاهدة والتطبيق إلى الفكر النظرى العام ، وهى الطريقة التى عممت واتبعت وقرِّظت بسبب سوء الأخذ بالطريقة الأخرى وقهر الشواهد على أن تؤيد ما بدئ به من التفكير النظرى . ولكن الواقع أن الإنسان من عهد أن كان ساكنًا فى الكهوف إلى عهدنا هذا يستخدم الطريقتين كلا منها فى مكانها ووقتها ومناسبتها .

٦ – إن المقاصد الأكثر سموا ورفعة أعظم أثراً فى النفس وإن لم تتحقق وتنجح من المقاصد التى هى أقل سمواً ورفعة ، لأن المرء عندما يطلب الأولى ويفكر فيها ويعمل لها تنمو جوانب

نفسه وعقله بالتهيوء لطلبها والسعى فى سبيلها . ويكون أثرها فى نفسه أعظم وأتم نفعًا من المقاصد الثانية - وهذه النظرة تدل أولا على حث جوتا الناس على المقصد الأسمى ، وثانيًا على تمييزه بين المقاصد والوسائل : فإنه عندما قال « إن الإنسان لا يستطيع أن يبنى مثال الكمال غير المحدود إلاَّ عن طريق الأمر المحدود ، ولا يستطيع أن يبنى مثال الكمال إلاَّ على الأمور الواقعة » كان يعنى الوسائل التى يتخذها المرء فى سبيله .

٧ - ينبغى للمرء مهما أجاد فى عمله أو فكره ألاَّ يحسب أن الناس كانوا يرقبون مجيئه إلى هذا العالم ، وأنهم ما كانوا يستطيعون أن يعيشوا من غير عمله أو فكره ، فكثيراً ما يخادع المرء نفسه حتى نفس من ليس فيه عناء . إنما هذا مصداق قول أناتول فرانس إن كل حى من الأحياء حتى ولو كان كلبًا صغيراً يرى أنه مركز الكون ، ومحور العالم . ولعلَّ في قوله بعض المبالغة . أما جوتا فإنه لايريد أن يصرف المجدّ عن العمل والفكر ، وإنما يريد منه أن يعرف الأمور على حقيقتها ، وأن عمل المرء مهما كان عظيمًا إنما يكون عظيمًا بالإضافة إلى عمل غيره من الناس ، وهذا من شعوره بتماسك الإنسانية وتضافرها ووحدتها . وعلى ذلك فإن قول كارليل : لو خيرنا بين أن نفقد إمبراطورية الهند وبين أن نفقد مؤلفات سكشبير لاخترنا أن نفقد إمبراطورية الهند ، ليس معناه أن الناس ما كانوا يستطيعون أن يعيشوا من غير شعره ، وما فيه من ثقافة وفكر ووصف للنفوس .

٨ - كان الإنسان دائمًا يعيش تحت ظلال الحروب المتوقعة ، لأنه فى جميع تاريخه كان يحاول أن يسيطر على غيره وهو غير مسيطر على نفسه حتى فى بحثه عن الجمال - ويعنى جوتا بالجمال المعنى الأعم الأشمل ، وفيه معنى الإصلاح والتنظيم والتنسيق . وفى هذا القول إشارة إلى خطة الساسة الذين يفضلون اتساع دولتهم طولا وعرضًا بدل اتساعها عمقًا بالإصلاح الذى فى كل دولة مجال كبير له . وفضلا عن حب السيطرة على غيرهم فقد كان يغريهم بذلك خشية إغضاب الطوائف والآحاد إذا مسَّ الإصلاح مرافقهم الخاصة ، أو الاعتزاز بكرامة قومية مؤسسة على التغافل عن أوجه النقص . ولكن الإصلاح الداخلى يؤدى إلى زيادة عدد السكان ، وهذه الزيادة تبعث على طلب السيطرة على غيرهم ، إلا إذا كان ضبط النفس المنشود يشمل أيضًا ضبط النسل وتحسينه ، هو مايقول به كثيرون الآن .

٩ - إن ملكة التمييز التاريخى هى فى ذلك التمييز العقلى الذى يستطيع به المرء عند قدر المعاصرين وأحوالهم أن يقدر أثر الماضى فى الحاضر ومقدار تغلغله فيه . وهذه الملكة قد

يكتسبها بعض الناس بالقليل من دراسة الماضى ، ولا يكتسبها غيرهم بالكثير من تلك الدراسة ، شأنها شأن التجارب التى قد يهتدى بالقليل منها إنسان ، ولا يهتدى بالكثير منها آخر . إما لأنه خيالى النزعة ، وإما لشرود لبه ، أو استغلاق عقله ، وإما للزهو والثقة بالنفس البالغة فوق حد الاعتدال وإما لأن المرء رهن إحساساته فهو لايملك أمره .

١٠ - إن فطنة الإنسان إلى رجاحة فكرة وإلى فائدتها لاتدلُّ على أنه قادر لا محالة على الاستفادة منها بتطبيقها . وكثيراً ما ابتكر الناس أموراً نافعة وظلت مدة طويلة لا أثر لها فى حياتهم ، اما من نقص فى التطبيق ، وإما من إحجام الناس عن كل جديد . بل ان فى العقل ماهو أغرب من ذلك ، فقد يفطن المرء إلى رجاحة الفكرة ، ومع ذلك تظل هى ونقيضها فى عقله ، كل يحتل مكانًا خاصًا .

١١ - إن كتابة التاريخ قد تكون طريقة من طرق التخلص من الماضى . ولعل هذا مثل أن يكون الشاعر أو الكاتب فى قيد حادث ماض أو شعور قديم فلا يتخلص منه إلا بأن يعبر عنه فتطمئن نفسه وتستأنف فى الحياة أعمالا وإحساسات جديدة .

ع . ش

(٢٣)

نظرات ثاكرى [١]

وليام مكبيس ثاكرى القصصى الإنجليزى الشهير ، قد اتهمه بعض النقاد بسوء الظن بالنفس الإنسانية . والنفوس إذا وصف كاتب سيئاتها اتهمته بسوء الظن والعداء لأن هذا الاتهام أسهل من التخلص من سيئاتها التى سببها الغرائز والشهوات المتمكنة من النفوس .

وقد رأى بعض المفكرين أن هذه الغرائز والشهوات لن تتغير ولن تتبدل وأن النفس إذا استطاعت أن تتخلص منها أو تلطف من حدتها أصابها الضرر والعجز . ومع ذلك فإن المفكرين من قديم الزمن يصفون عيوب النفس البشرية أملا أن تتخلص منها أو تلطف من حدّتها ، ولا أذكر أكان مينكين الأمريكى هو الذى وصف الإنسان فسماه القِرد الأبدى لعجزه عن التخلص من الحماقة والشهوات وحب التدمير والأذى ، ولقصوره عن الأخْذ بأسباب تعميم نتاج العلم وتعميم الاستفادة منه . ولولا أن الكاتب يؤمن فى صميم نفسه أن الإنسان وهب القدرة على تلطيف عيوبه وتهذيبها والتخلص منها كلها أو بعضها ما كلف نفسه مؤونة وصفها . وبالرغم من أن ثاكرى قد يؤلم مبضعه فى شرح صفات النفوس كما يؤلم مبضع الطبيب إذا فصد دمل فإنه كثير الحنان والعطف على النفوس ، فهو يجمع بين السخر والحنان وهو بين الإنجليز من هذه الناحية مثل أناتول فرانس بين القصصين الفرنسيين . وكما اشتد ثاكرى فى نقد سخر سويفت فى كتابه المسمى « كتّاب الفكاهة » اشتد بعض الكتاب فى مؤاخذة ثاكرى . ولكن شتان بين سويفت وثاكرى ، فليس فى سويفت حنان ورقة وعطف كما فى ثاكرى فإن سخر ثاكرى مقرون إلى رقة وسماح وصفح جليل ، ولو أنه قد يشتد فى بعض قصصه ورسائله ويعنف . وبعض قصصه لاترى فيها ما يسمى فى اصطلاح المؤلفين أبطالا . ولا يغيب عنا أن ثاكرى وزميله دكينز من كتاب العصر الفيكتورى ، أى عصر الملكة فكتوريا ، وهو عصر مشبع بمظاهر التزمت والكبر فى التزمت . ولكن ثاكرى لايعفى ذلك العصر من سخره ، ولا يعفى المحتالين والمغامرين والأفاقين الذين خرجوا على سنة العصر الفكتوري . وبعض النقاد يرون أن قصة « سوق الغرور » هى أعظم قصصه . وقد تكون كذلك من الناحية القصصية الفنية . لكن عندى أعظم قصصه هى قصة « هنرى إزموند »

---

١ – المقتطف سنة ١٩٥٠ م ، المجلد ١١٧ ، الجزء الثانى ، ١ مايو سنة ١٩٥٠م ، ص ١١٧ – ١٢٠.

التاريخية . وقد فضلها الناقد الكبير الأستاذ سينتسبرى فإن لها سحراً عجيبًا . والفن الذى يقتضيه وصف بياتركس وأمها من غير زلل فن من أعجب الفنون . ثم إن عظم موضوع القصة إذا أضيف إلى عظم الفن يزيد فى قدر القصة ، ولو أن إجادة صاحب الفن لا تقتضى موضوعاً كبيراً كى يجيد . ومن قصصه الأخرى قصة « بارى لندن» و « الفرجينيين » ... الخ ومن كتبه كتاب « الرسائل الدائرة » وهى أشبه بما يتخلل قصصه من رسائل قصيرة وكلمات فى وصف الناس وكتاب « الأدعياء » .. إلخ إلخ .

وفيما يلى بعض نظراته مع الشرح والتعقيب :

١ - كثيراً ما ينتقص النساء من عقل المرأة وذكائها « أو من أخلاقها » إذا كانت أعظم منهن جمالا وأتم حسنًا ولم يستطعن انتقاص حسنها كأنما يردن بانتقاص عقلها أن لا ترجحهن بمجموع ما وهبت من ذكاء وجمال . وهذا عكس ما يفعله الرجال فإن ذات الوجه الجميل والعينين الفاتنتين تغتفر لها حماقة كثيرة ، وقلة عقلها تكتسب فيها رشاقة وحلاوة تغطيان على قلة عقلها - والوقع أن الإنسان كثيراً ما يخدعه انتظام التقاطيع فيحسب أنه مقرون دائمًا إلى انتظام العقل والعكس بالعكس .

٢ - فى سوق الغرور التى هى الحياة قلما يتألم الإنسان من وخز ضميره إذا عمل شراً ، وإنما هو يتألم لا من الندم على عمل الشر بل من الندم لافتضاح أمره وانكشاف سره وشره فيخلط ضميره عمداً بين نوعى الندم : كى يظهر بمظهر الأبرار ، أو كى يقال أنه كفّر بالندم ووخز الضمير عما ارتكب من الشر . وقد يكون الرجل نفسه مخدوعًا بما يخدع به غيره ، فإن الشعور يُلَبِّسُ على صاحبه حقيقته فيخال من تأنيب الضمير وهو من ألم الأثرة وحب الذات .

٣ - لو فطنًا إلى ما قد يخالط أنبل الأخلاق وأسماها من نقص أو دناءة لتركنا التفاخر والتباهى بالفضائل ووصلنا النفوس بالعطف والرحمة .

٤ - إن الكذب الذى يقوله المرء فى اغتياب الناس أكثر ذيوعًا من الصدق الذى يمدحهم به، فهل ذلك من أجل أن قلوب الناس تربة حجرية لاتنمو فيها بذور أقوال الخير الرقيقة ؟ . ومما لاشك فيه أن اغتياب الناس وذمهم يصادفان من الانشراح والإقبال والائتناس والاشتهاء أكثر مما يصادفه مدحهم بالخير ، كأنك فى الحالة الأولى تطهيهم بتوابل تدعو النفس إلى أكل لحومهم .

٥ - أيُّ الصفات نالت أعظم مدح منذ عهد حرب تروادة إلى اليوم ؟ أليست هى الشجاعة والجرأة والإقدام ؟ فقد طالما أشاد بها الشعراء والكتاب وأغفلوا الصفات الفاضلة الأخرى ، ولم يعبروها اهتمامًا كاهتمامهم بهذه الصفات ، ألا يجوز أن يكون السبب أن الإنسان جبان بطبعه يجنح إلى الخوف والفزع أكثر من جنوحه إلى قلة المبالاة والإقدام صيانة للحياة وإعتزازاً بها ، فيغطى على ذلك بمدح الشجاعة كى يقال إنها صفته الغالبة ويطرى الشجعان كى يقال عنه : إنه منهم . ولعل من أسباب مدحه الشجاعة أيضًا أنه يريد أن يحمل نفسه عليها ، ويغطى عنها مخاوفها ، كما غطاها عن الناس .

٦ - بعض النساء لهن ولع بأن يضعن من يحببن فى مكانة العبادة وهى مكانة تشبه مكانة آلهة الوثنين فى المعبد فتقدم له البخور والمدح والثناء سواء أكان ذلك عن عقيدة فيه أو حيلة ، وهذا يضايق الرجل لأنه يلزمه صفات الكمال دائمًا وهو لا يستطيعها . فيمل كما مل « الدايلى لاما » فى التَّبتِ ويتثاءب من عبادة عباده .

٧ - قلما يهم الناس كبر عقل الرجل أو عظم فضائله قدر ما يَهمُّهُم آدابه المريحة فى معاشرتهم إياه وسلوكه فى إرضائهم لأن كل إنسان يأنس إلى ما يريحه . وأما رجاحة تفكير المعاشر وعظم فضائله فكثيراً ما تضايق عشيره . ولذلك كثيراً ما يحكم الناس على عقل الرجل وفضائله بما يريحهم أو بما لا يريحهم فى سلوكه معهم - أو حتى بما يتخيلون أنه يريحهم أو لا يريحهم .

٨ - إن بعض الناس لاينالون الاطمئنان فى الحياة حتى يغالطوا أنفسهم ويخادعوها ويحملوها على أن تعتقد أن العدل يضْ أ فى الحياة ويعم - فهل يطرد العدل فى حياة الناس؟؟ هل كل راكب فاضل وكل ماش مفضول ؟ وهل الأول عادل والثانى ظالم . وهل الفضل دائمًا مفضّل والنقص دائمًا مؤخر ؟ وهل المرائى المنافق دائمًا مخذول ؟ وهل ينصّرف الناس عن التهافت على ما لاقيمة له من الكتب والأشياء والأمور ؟ وهل هم لا يقبلون على الخطيب المهرج الماهر ؟؟ وهل لايرقى الرجل ولا يُقَدم ولا ينجح إلا بما له من عقل وفضل وهمة وكفاية؟ وقس على ذلك أسئلة أخرى كثيرة . وخليق بالمرء أن يكون أشجع وأقوى من أن يعجز عن تحمل الحياة إلا بالأكاذيب .

٩ - قلما ينال الإنسان خيراً إلا وهو يرى أنه يستحقه ويستحق أكثر منه . ومن أجل ذلك نشأت قلة الشكر وظهر غمط المعروف وجحد الجميل المصنوع ؛ إذا قلما تعد نعمة المتفضل

تفضلا منه ، بل حقًا واجبًا لمن نالها - وفى بعض البيئات المنحطة لا يكتفى نائل المعروف بغمطه وجحده . بل يتعاظم على من صنع المعروف أو يحقد عليه فى سريرته كى يظهر له إنه إما أخذ بعض حقه وإنه أكبر وأعظم من أن يقر لأحد بفضل عليه .

١٠ - لو اختار بعض العلماء المؤرخين أن يتتبع جرائم الفضلاء ، وأن يكتب كتابًا فى تاريخ الشر والضر اللذين صنعهما أهل الفضيلة أو من يرون أنفسهم من أهل الفضيلة لكان كتابًا عجيبًا ممتعًا واعظًا للناس ... فمن الذين أحرقوا البروتستانت ؟ إنهم فضلاء الكاثوليك. ومن هم الذين أحرقوا الكاثوليك ؟ إنهم فضلاء البروتستانت . ومن الذين يضطهدون الناس فى الحياة الإجتماعية وينشرون عنهم أخبار السوء ويصفونهم بصفات السوء ويدعون الناس إلى اضطهادهم وإيذائهم ويجدون لذة في ذلك ؟ هم الذين يرون أنفسهم أو يريدون أن يقنعوا الناس أنهم أفضل من غيرهم . ومن هى التي تتبع جيرانها لاستخراج ما تعتقد من سيئاتهم ، أو مالا تعتقد ، ولتستخرج سيئات أجدادهم إلى الجد الرابع أو أكثر وأبعد من الجد الرابع لكى تؤذيهم بنشر السوء عنهم ؟ إنها السيدة الفاضلة - أو التى تعتقد أو تريد أن يعتقد الناس أنها سيدة فاضلة . وهى إذا عثر الحظ السئ بإنسان وجندله أمامها فى الوحل رفعت أنفها إلى السماء تعاظمًا وتعاليًا وجمعت ثيابها كى لا يلوثها العاثر المسكين - وإن كان من المحال أن يلوثها وهرولت صارخة باشمئزاز من حظه العاثر السئ مبتعدة عنه ... حقًا إننا فى حاجة إلى كتاب فى تاريخ جرائم الفضلاء .

١١ - إن الإحسان طعام عسر فى الهضم . ومن أجل ذلك قد يختلق من ناله مذمة للمفضل إذا لم يجد فيه مذمة كى تكون عذراً له إذا فك عن نفسه ما يعده أغلالا وأصفاداً للمعروف ... ترى هل كان المسافر الذى نجاه السامرى من اللصوص - فى قصة الكتاب المقدس - شاكراً لمن نجاه من اللصوص ؟ أم أنه كان يجد غضاضة فى أن يكون مدينًا لإنسان بفضل عليه ؟ وهل هذه الغضاضة جعلته يتذكر أن كل سامرى عقيدته فيها انحراف فى نظره؟ وهل اتخذ من انحراف عقيدة من نجاه عذراً له كى يجحد كما أداه إليه من معاونة وكى يتقحم عليه بالذم كى يفك عن نفسه أصفاد المعروف وأغلاله ؟ .

(٢٤)

نظرات ثاكرى [١]

١٢ - إن ألفاظ السباب إذا صارت سنة جارية فى البيئة وتعوّدها الإنسان كانت أمراً مألوفًا ، فكل إنسان يشتم غيره ويقبل الشتم من غيره ، فيصير تبادل المزاح بأشد أنواع السباب والشتم فى مثل هذه البيئة نوعًا من السماحة والكرم الحاتمى ودليلا على الألفة والمودة - ولكن من الغريب أن العشيرين فى هذه البيئة قد يتبادلان السباب وأشد أنواع الشتم بالبشاشة والسماحة فى مجلس ، وفى مجلس آخر قد تؤدى الكلمة الهينة أو الكبيرة من السباب إلى إراقة الدماء والقتل .

١٣ - ليس من السهل أن نعرف الحد الذى عنده ينتهى باعث احترام المرء نفسه بإخفاء حقيقة حاله وتجمله صونًا للناس عن الاطلاع على حاجته وسوء حاله ، وهو الحد الذى يبتدئ عنده النفاق المرذول ، فكم من أناس ينفقون فى المظاهر ويبذلون للكماليات ماهو أحق بالإنفاق على الضروريات - ويرون سعادتهم فى هذه الخطة كى يستطيعوا الزهو والكبرياء ، وتعيير من لا يستطيع الإنفاق فى سبيل الكماليات ، وليحسب الناس أنهم إنما ينفقون فى الكماليات عن سعة فى الرزق ، وكى يستطيعوا احتقار غيرهم ممن ضاقت به الحال أو ممن كان أعقل من أن يلتزم هذه الخطة فى الإنفاق على الكماليات ، وهو محتاج إلى الضروريات والناس أولى بأن يعطف كل على أخيه بدل الزهو والمباهاة المؤسسة على الباطل .

١٤ - أن نصف آلام المحب إذا زهد فيه من يحبه وجفاه ناشئ من الغرور والعجب بالنفس، لا من الرقة والحنان وطيب القلب . ولكنه يخلط بين أثرته وطيب قلبه وحنانه . وقد يفعل ذلك مخدوعًا بإحساسه وهو لايدرى ؛ كما يخدع به القصصيون الذين يصفون أمثال هذا العاشق المهجور فيكون فى انخداعهم خداعهم للقارئ شئ من السماحة إذا فطن القارئ .

١٥ - بعض الناس قد تغيظهم سعادة أصدقائهم إذا طالع هؤلاء طالع يمن . ولكنهم بالرغم من ذلك إذا أصاب صديق سوءًا وحلت به كارثة يعطفون عليه ويظهرون الاشفاق عليه من شقائه الذى حل به بعد أن كانوا يحسدونه على سعادته ونجاحه . فالنفس الإنسانية قد تجمع

---

١ - المقتطف سنة ١٩٥٠ م ، المجلد ١١٧ ، الجزء الثالث ،أغسطس سنة ١٩٥٠م ، ص ١٦٩ - ١٧٢.

بين مرارة الحسد وحلاوة العطف ، وبين أحقاد المنافسة والمشاركة فى الحزن والمصاب . فإن أحقاد المنافسة قد تختفى فى نفس المرء عندما يعثر الحظ بمنافسيه ، فيظهر له كرم المشاركة فى الحزن « إما خالصًا وإما ممزوجًا بشئ خفى من التشفى والارتياح » فرأفة الشهامة وخسة الدناءة قد تجتمع فى النفس الواحدة وقد تمتزج فيها .

١٦ - قد تعارف أكثر الناس على أن لكل منهم الحق فى أن يغتاب صديقه ، ثم يتصافحان ويتعاشران ويتزاملان بطلاقة وابتسام وإظهار للود إذا اجتمعا - « وقد يسع كل منهما بأذنه حتى ساعة اللقاء أو قبيله شتم الآخر له ، فيدعى أنه لم يسمع - ومن يحاول من الناس حملهم على تغيير هذا الطبع يلاقى مقتًا وعداء كأنه يريد أن يحرمهم من حق لهم مقرر مفروض معروف ، ألا وهو حقهم فى اغتياب معاشرهم وزميلهم ، وكأنهم يخشون إذا تنازلوا عن حقهم طوعًا أن لا يتنازل غيرهم فتلحقهم الخسارة ، ويحل بهم الغبن ، وينقلبون بالغيظ على من يريد حملهم وحضهم على التنازل عن حقهم المقرر المفروض فى اغتياب معاشريهم وزملائهم ويعدونه ظالمًا لهم أو قليل الانصاف .

١٧ - إن المرء قد يزول حبه أو تفنى مودته لإنسان ، فلا يرى فى زوال حبه ، وفناء مودته، خيانة منه لذلك الإنسان ولا غدراً به ، ولا نقصًا فى نفسه . أما إذا زالت مودة إنسان له فإنه يدهشه زوالها ويعد ذلك الزوال غدراً ونقيصة وخيانة ، حتى أنه قد ييأس من صلاح الناس والحياة ، وقد يبخع نفسه بالحزن والضيق مع أنه كان لايرى فى تغيره للناس مضايقة لهم ويتألم . وكان لايرى فى تبدله للناس أبدالاً ألما لهم ، ولا يفطن إلى أن ذلك الخلق منه من الأثَرة وحب الذات الذى يبيح لنفسه ما لا يبيح للناس ، وينعى ويعيب على الناس مالا ينعى ولا يعيب على نفسه .

١٨ - كثيراً ما نخطئ فنظن أن عهدى الطفولة ،والصبا هما عهدا البراءة والطهارة والخلو من الكذب والخداع . وعندى أن كثيراً من الكبار لايتقنون خداع الناس وتكلف غير الحقيقة لهم كما يتقنه الصغار . وهؤلاء الصغار يخدعون أنفسهم ويخدعون الناس بأمور ينبغى أن لاتجوز عند أحد أو تنطلى أو تختفى أو تُلَبِّس . وكلما كبر الإنسان تعلم كيف يقدر الحق ، وكيف يميل إلى البساطة إلا إذا ظل المرء أشبه بالطفل فى كبره ، وكم من كذبة من صغير السن أججت نار عداء بين الكبار ، والكبار ينسون ماكانوا عليه فى صغرهم من استساغة الكذب وسهولته لديهم ، ولا يصدقون أن صغيرهم الطاهر البرئ كاذب ، فيقبلون قوله على علاته ، ويمعنون فى العداء بسببه . ولعل عجز الصغار أمام إلحاح رغباتهم أو خيالهم أو

أهوائهم وقلة خبرتهم بأمور الحياة أمور تدعوهم إلى عدم المبالاة إذا اعتزموا الكذب وتهيئ لهم وسائل استثمار ثقة الكبار بهم . وأمثال هذه الأمور هى التى تحملهم على سلوك ما ينافى سذاجة الصغر وما يجافى طهارته - ثم هم إذا فوجئوا فى هذا المسلك أنكروا سلوكه بدهشة وحدة . وهذه الدهشة وهذه الحدة يشتبه فيها البرئ وغير البرئ .

١٩ - مما يزيد المرء اعتقاداً فى عظمته ويسهّله لديه ويمكنه منه خضوع من حوله وتملقهم إياه فيلبس لباس العظمة التى يلبسه إياه من حوله ، وهم إذا أقنعوه بعظمته لنيل مأرب من جاهه أو مرتبته أو ماله أقنع نفسه وأقنعوا هم أنفسهم بعظمته على الأقل إلى أن ينالوا مايريدون ، والرجل المتواضع الذى لايرى فى نفسه عظمة إذا عرض لهذا التأثير فإنه قد ينتهى بأن يظن فى نفسه العظمة . والمشاهدون أمثال هذه الحالات ينتهى بهم الحال إلى الاقتناع بعظمة هذا الإنسان من طريق العدوى أو الطمع الأشعبى فى خير يصلهم عن طريق هذه العظمة التى يؤسسونها لغيرهم . ولولا هذا الانخداع الأشعبى ما اشترك أكثر الناس فى الاعتراف بعظمة إنسان أو تأسيس بنيانها .

٢٠ - من الغريب أن اثنين من الناس قد يشعران بميل كل إلى الآخر أو بنفور كل من الآخر من غير سبب ظاهر وجيه معروف ، وكما أن بعض الناس قد ينفر من رائحة يحبها غيره أو يتأذى ويمرض من طعام يصح به غيره . فكذلك قد ينفر إنسان من مودة إنسان آخر ويصيبه مرض إذا ذاق مودة هذا الإنسان ، بينما يذوق غيره تلك المودة ويستطيبها فيلتهمها التهاماً ويصح على ذلك . ولا تدرى سبباً ظاهراً معروفاً لهذا الأمر .

٢١ - كما أن عباد الشيطان يعبدونه ، ولكنهم يحرمون ذكر اسمه . كذلك بعض الناس يتصفون بصفات السوء ، فيطلونها بطلاء يخفيها ، ويرون أنه ليس من الكياسة واللباقة ، والآداب وصف أخلاقهم ، حتى ولو كان وصفاً عاماً ، ولكنه كالحز فى المفصل . ويعدون ذلك من كره الواصف للإنسانية المعذبة ومن قلة الرحمة بالناس ، وهم يأبون هذا الوصف إذا خشوا أن يلحظ الناس فيه تعريضاً بسيئاتهم ... أما إذا كانوا يريدون الأذى لإنسان زال تحريم ماكانوا يحرمونه من وصف السيئات ولا يفطنون إلى أن هذا أيضاً تعريض بسيئات نفوسهم .

٢٢ - إن حكمة الله الخفية قد تقضى أن يقهر أهل الخير والفهم ، وأن يذلهم وأن يرفع أهل الأثرة والحماقة والشر ، ومن أجل ذلك ينبغى أن يتواضع صاحب النجاح والسعادة . وأن يخشع أمام إرادة الله وقسمة الحظوظ التى تقضى بذلك وأن لا يغتر بنصيبه من الحياة فإنه أشبه بما يسمى « اليانصيب » ، فالحياة كثيراً ما تكون كالاقتراع هذا ينال الدمقس والحرير

والقصور المشيدة ، وذاك نصيبه الخرق البالية ، ومعاشرة الكلاب الضالة . ولكن الإنسان قلما يؤمن بذلك ، بل يرى أن كل إنسان نال ما يستحقه من الطيبات ، فمن حرم منها كان حرمانه دليلا على نقص وعيب ، ومن لم يحرم منها بل كان نصيبه من طيبات الدنيا جزيلا دلت جزالة نصيبه على خلوه من النقص والعيب . ولقد رأيت من مظاهر النجاح وعرفت من أسبابه مازهدنى فى الهتاف للناجحين ومن السير فى ركابهم . وسواء أرأيت محافظ المدينة ذاهبًا إلى وليمة فى قصر المحافظة أم رأيت سجينًا يقاد إلى المشنقة فإنى لا أغتر بظواهر الأمور ، بل أنظر فى نفسى ، وأنظر فى نفوس الناس ، فأرى أن محافظ المدينة ليس أعظم منى نفسًا ، ولست أعظم نفسًا من الآثم الذى يسار به إلى الهلاك ، وأن الأول لو ربى كما ربى الثانى لكان مثله .

٢٣ - يقول بعض المتكالبين على النجاح : « النزاهة أحسن وسيلة للنجاح » ولو اطمأن الرجل غير النزيه إلى أن قلة النزاهة أحسن وسيلة للنجاح لما تردد فى أن يكون غير نزيه ، وبعضهم يرددها وهو غير آخذ بسنة للنزاهة كى يظن من يعامله أنه أخذ بها ، ولعله يرددها كى يأخذ الناس بها ، فيربح من نزاهتهم ثم يحرمهم الربح من نزاهته .

٢٤ - ما أعجب رشاقة المرأة إذ تنافق وترائى ، وما أحب وألطف خفتها ولباقتها إذ تداهن وتداجى من غير تعثر أو ارتباك - ذلك لأن الضعيف المغلوب على أمره يحاول أن يتقن هذه الصفات ، وأن يكسبها جمالا ومحبة . وقد مرت المرأة فى عصور طويلة كانت فيها فى حاجة إلى أن تتعلم رشاقة الرياء وجمال المداهنة .

٢٥ - قد يستسيغ المرء الناس وعشرتهم على مضض وألم ، وهو يحاول إخفاء ذلك كمن يشرب الدواء المر للضرورة فى هدوء واستسلام . ولكن تقلص وجهه يدل على ما يعانى من مضض وإن أنكر ذلك ، وقد يستعين بقطعة من السكر ليزيل بها مرارة الدواء كما يستعين الأول بما هو شبيه بقطعة من السكر كى يزيل مضاضة عشرة الناس من نفسه .

ع . ش

(٢٥)

نظرات بلزاك [١]

قال ستيفان زفايج إن الصفة الغالبة على أبطال قصص أونوريه دى بلزاك القصصى الفرنسى الشهير هى صفة الطمع والوصول إلى الغاية حتى ولو أدت إلى الخيبة . وهذه الصفة ربما نمت فى نفس بلزاك لأنه عاش فى شبابه فى عهد إمبراطورية نابليون بونابرت الذى حاول أعظم محاولة وكانت له أطماع تحدوه إلى أقصى غاية ، ثم خسر كل شئ فى سبيل الوصول إليها . ومن الجائز أن يكون الأمر كما ذكر زفايج ، كما يجوز أن يكون بلزاك بطبعه يميل إلى ذلك . وقد حاول أن يصل إلى أقصى غاية فى تأليف القصص واستيعاب العالم والنفوس فى قصصه ، فضحى حتى بالحب فى هذا السبيل . وكان يشتغل فى كثير من الأحايين أكثر ساعات يومه فى تأليفها ، فهو راهب من أجل الفن : وكان يلبس لباس الراهب وقد أحب مدام هنسكا سنين طويلة ثم تزوجها . ولكنه مات بعد زواجه منها بأشهر قليلة .

وبالرغم من ميل بلزاك إلى الإطالة فى الوصف أو فى البحوث القانونية أو العملية فإن له قدرة عجيبة فى قصص المأساة . وقد أجاد فى القصص القصيرة كما أجاد فى القصص الطويلة. ويصح أن يسمى أبا الفن القصصى الحديث ، فمنه أخذ فلوبير ، وعن فلوبير أخذ جى دى موباسان وغيره .

ويصح أن يسمى أبا الفن الواقعى ، وذلك لأن آحاد قصصه كما قال بودلير كانوا مثل المدافع المحشوة بذخيرة المتفجرات ، فهم أيضًا كان حشوهم الحيوية والعزيمة .

وقد يدهش القارئ من كثرة قصصه ومن كثرة إجادته فى الكثير منها ولا نظن أن أحداً صنع مثل ذلك غير شكسبير فى شعر القصص التمثيلية .

ومن قصصه الشهيرة قصة « الأب جوريو » و « قطعة من جلد الحمار الوحشى » و «الأحلام الضائعة » و « البحث عن الحق المطلق » و « سيزار بيروتو » ... الخ .

وكان بلزاك يعيش مع آحاد قصصه كأنهم وكأنهن أحياء ويقاسمهم مسراتهم وأحزانهم ، ومسراتهن وأحزانهن . فقد زاره صديق فوجده مهمومًا وابتدره بلزاك قائلا : لقد قتلت المسكينة نفسها ، فذعر الزائر حتى عرف أنها إحدى بنات الخيال فى قصصه .

---

١ - المقتطف سنة ١٩٥٠ م ، المجلد ١١٧ ، الجزء الرابع ١٠نوفمبر سنة ١٩٥٠م .

وهذا يذكرنا فلوبير فإنه عندما وصف هلاك « مدام بوفارى » بالسم ظهرت عليه أعراض التسمم . وقد خسر بلزاك مالا كثيراً بالرغم من دقة وصفه لطرق التمويل والاغتناء فى قصصه .

عاش بلزاك للفن ، ولا نظن أن أحداً فعل فعله ، إن السير والترسكوت كان يقضى أكثر وقته فى كتابة القصص حتى أوقات المرض والألم ، ولكنه تزوج وخلف خلفًا واتصل بالأمراء وأولم الولائم فلم يعش مترهبًا كما عاش بلزاك . ومع ذلك فإن بلزاك الراهب فى الحب والحياة، والذى قال لجوتييه إن المرأة تلهى صاحب الفن عن فنه ، هو الذى وصف النساء أدق وصف ، كما وصف الرجال من طبقات مختلفة ، ووصف أعمالهم وخواطرهم وأفكارهم .

وفيما يلى بعض نظراته مع قليل من التعقيب :

١ - قد يفقد الإنسان كل إيمان بنجاح أمله ومع ذلك يظل متعلقًا بالأمل متشبثًا به بالرغم من فقدان الإيمان بنجاحه ، وإنما تعلقه بالأمل بعد أن يفقد الثقة به توقع منه لفرصة غير منظورة تجلبها له الحياة وهذا التشبث يعينه على تحمل كثير من مكاره الحياة .

٢ - ليس لكل حادثة أثر واحد وعاقبة لا تتغير مهما تغير الذين تقع بهم الحادثة ، فإن المصيبة التى قد تستبعث قوى العبقرى وملكاته وإن ارهقته قد تقضى على رجل آخر وتردى ذوى العزيمة الضعيفة فى الحضيض ، كما أنها قد تكون فرصة كسب وربح للرجل المستيقظ الذهن لوسائل الكسب وحيل الربح .

٣ - إذا كان نسيان العاجز ضعفًا ونقصًا ، فإن من النسيان ماهو قوة فى النفوس العظيمة المبتكرة فإن نسيانها مثل نسيان الطبيعة التى تنسى كى تستجد الأمور وكى تبتكرها .

٤ - إن من أخطاء الشبان أنهم يشعرون أن كل إنسان مهما كان عمره ينبغى أن يكون عند حيويتهم ونشاطهم وآمالهم وثقتهم بالأمور وهم لا يستطيعون إلا أن يشعروا بهذا الشعور ، لأنهم يرون الحياة ووهج الشباب منعكس عليها .

٥ - إن النساء اللواتى يكتسبن بصيرة بالمستقبل إنما يكتسبنها من وعيهن للحاضر من الأمور وتَنَبُّئهِنَّ ناشئ من دقة جهازهن العصبى التى تمكنهن من بحث وتفسير مظاهر الفكر والإحساس وهن باستدلالهن على المستقبل من الحاضر ، إنما مثلهن مثل الملاح الذى يستطيع برؤية السماء أن يرى ماهو مخبوء عن غيره من مطر أو إعصار أو صحو .

٦ - كل عصر له ميول وكل بيئة نزعات ، ويستطيع الرجال الماهرون الذين عندهم ملكة الربح والتيقظ لوسائل الكسب والإستعداد النفسى له ، أن يتاجروا بميول عصرهم ونزعات بيئتهم مهما كانت نبيلة تستدعى التضحية .

٧ - إذا انحرف حظ الرجل وساءت حالته فإنه قد يصير لعبة لأحقاد الناس وأهوائم ومن الخطأ أن يتعرض لتلك الأعاصير الإنسانية ، وأن يجعلها تدفعه كل مدفع . كما تكون الريشة فى مهب الريح . وإذا أراد السلامة فليقبع كما يقبع المنكب على الأرض كى يتجنب شدة الريح وعصفها حتى تمر الإعصار ، وإذا وقف فإنما ينبغى أن يقف كى يعرف من أية جهة تهب الإعصار ليستطيع تجنبها .

٨ - إننا دائمًا نخيب ونخفق من الجانب الذى أضعفناه من أنفسنا ، أو استرسلنا فى ضعفه ، إن كان خلق معنا الضعف .

٩ - يخطئ من يظن أن الحيوانات لا تشعر بالذعر والألم شعوراً شديداً كالإنسان ، فإن الحيوانات المنزلية قد تصرخ من الفزع صراخًا شديداً إذا أصابها إنسان بألم هين عقوبة لها بينما هى إذا أصابها جرح من حركاتها فقد لا تصرخ ولا تصيح .

١٠ - إن القوة التى تستنفد نفسها بمجهود عنيف مباغت ، تحدث أثراً مؤقتًا أقوى فى نفوس الناس وخيالهم من قوة فى مثل مقدارها تؤثر أثراً بطيئًا طويلا . وهذا يصدق سواء أكانت القوة من قوى الإنسان أم كانت من قوى الطبيعة . ومن أجل ذلك صار الإنسان الذى يبذل مجهوداً عنيفًا يستهلك قوته بسرعة ومباغتة يؤثر فى نفوس الناس تأثيراً مؤقتًا أكثر من تأثير الرجل الذى يبذل مجهوداً مثله بطيئًا طويلا ، أو مجهوداً أطول وأكبر .

١١ - فى بعض الناس نوع من الكبر ، وهو كبر النفوس التى تفضل أن تخوض معارك الحياة وخصوماتها وحدها ، ولا تظهر إلا بعد الظفر والانتصار - وهناك نوع آخر من الكبر وهو كبر النفوس التى توهم الناس أنها تخوض معارك الحياة وحدها ، وتعمل فى خفية عن أكثر الناس في اكتساب من يعينها على الانتصار . وهذا الكبر أكثر شيوعًا ؛ لأن أكثر الناس يجبنون بطبعهم عن خوض معارك الحياة وحدهم ويهمهم الانتصار أكثر مما يهمهم أن يقال إنهم خاضوا معارك الحياة وحدهم .

١٢ - لايدرك أثر الأمور التافهة فى إحداث الحوادث الهامة الكبيرة إلا الذين تعدوا السن التى قبلها يسرفون فى بذل قوتهم الحيوية كيفما اتفق وفى أية غاية ، سواء أكانت كبيرة أم

صغيرة ، ولعلهم يدركون ذلك أكثر من إدراك غيرهم لبعد ما بين هذه الأمور التافهة الصغيرة وبين عظم المجهود الذى بذلوه كى يحدثوا حوادث أقل من تلك الحوادث التى أحدثتها الأمور التافهة الحقيرة .

١٣ - إن المجادلة والمحاجة التى يراد بها توضيح الأمور إذا لجت بها اللجاجة ، فإنها قد تكسب الأمور العظيمة شيئًا من الحقارة .

١٤ - قد يعمر الحزن النفس الإنسانية فيجعلها أشبه ببهو يرن فيه صوت مقدس يستدعى الخشوع .

١٥ - إن الإنسان فى عدله قلما يستطيع التخلص من مخاوفه على نفسه وعلى المجتمع . وقلما يستطيع أن يقدر الإحساسات الخفية والعوامل المستترة . فلا يكون عدله مثل الله الذى يعرف خافية الأنفس وهو مبرأ من المخاوف ف، أحسن مايكون عدل الإنسان كظل لعدل الله قد حّور وغيِّر كى يكون مناسبًا لنفوس الناس ومخاوفها وجهلها .

١٦ - يعتقد الرؤساء دائمًا أنهم يستطيعون أن يخلقوا الكفاية لمن ينحازون إليهم ويرشحونهم للمناصب لإشرافهم على عملهم - وهذا كما قال لويس الرابع عشر لابن لوفوا الصغير عندما جعله وزيراً فى وزارة لا يُدْرك أمورها وطلب الشاب الإعفاء فقال لويس سأخلق لك الدراية والكفاية .

١٧ - كل نفس فى حاجة إلى أن تحرث فى بعض الأحايين كما تحرث الأرض ، والحوادث التى تحرث النفس تفيدها ، وإن قلبتها كما ، تفيد التربة الخصبة الزراعية من حرث الحارث لها.

١٨ - بعض الناس يريدون أن يصنع لهم الفن ما لا تستطيع أن تصنع الطبيعة ، فهم يريدون أزهاراً من غير بزر ، وفواكه من غير ثمر ، وهذا شأن كثير من الناس فإنهم يريدون أن يصلوا إلى الغاية من غير وسائلها .

١٩ - إننا نخطئ إذ نظن أن الندم علي الخطيئة أو الذنب دائمًا معناه التوبة ، وهو كثيراً مالا يكون مصحوبًا بالتوبة ، بل قد يكون ندمًا عقيمًا يؤدى إلى معاودة الذنب . وهذا الندم قد يكون مصحوبًا بلذة فى ذكرى مواقعة الذنب الماضى ، ولذة فى الأسباب التى دعت إلى مواقعته بالرغم مما بالندم من آلام ، وهذا يذكرنا قول الشاعر :

هل الله عـاف عن ذنوب قـديمة　　أم الله إن لم يعفُ عنهـا يعـيـدها

٢٠ - إن السعادة والشقاء والملل والإنشراح ، أمور نسبية ؛ فقد يمل الإنسان الحياة الرتيبة الهادئة ، ويمل تردد الحوادث اليومية الصغيرة يومًا بعد يوم ، حتى يصير شعوره بالملل شقاء ، بينما أولئك الذين أرهقتهم أعاصير الحياة ، وكافحوا عواصفها ، قد يرون كل السعادة والهناءة فى تلك الحياة اليومية والحوادث الصغيرة الرتيبة .

٢١ - كثيراً ما يتسامح الناس فى الحكم على فضل ذوى النقص ، بينما يشتدون فى الحكم على نقائص ذوى الفضل . ولعل ذلك لأن فضل ذوى النقص أمر غير معتاد ، فيفاجئ بالإنشراح ، ويتوقعون من ذوى الفضل التمام فى الفضل ، إن لم تكن شدتهم فى الحكم على نقصهم حسدا لهم . وهذا يذكرنا قول المتنبى :

ولم أر فى عـيـوب الناس نقـصًـا　　كنقص القـادرين على التـمـام

٢٢ - إن احترام الناس نفوسهم باحترام غيرهم ، سواء أكانوا من الأكابر ، أم الأصاغر ، إنما هو مانع وحاجز من الحواجز الاجتماعية التى تحمى العظيم ، كما تحمى الصغير ، فيستطيع كل منهم أن يواجه الآخر باطمئنان .

٢٣ - قلما يستطيع الإنسان أن يحكم على معاشر إلا بإحساس واحد ، إما الاحترام ، وإما الاحتقار ، وإن وجد فى نفسه ما يستدعى كليهما ، فإنه من الصعب أن يحترم الإنسان معاشراً لصفة وأن يحتقره لأخرى . والاحترام هو الضمان الذى به يستطيع الناس أن يتعاشروا ، إذا فقدت حتى مظاهره ما استطاع الناس التعاشر .

٢٤ - بعض النفوس كالماء الضحل القريب الغور ، وهذه النفوس لا تستطيع أن تعرض علينا مآسى الحياة ، وإن كانت آلامها شديدة فى تلك المآسى :

وقد ذكر مثل هذا المعنى ستيفان زفايج فى ترجمة حياة مارى انطوانيت إذ قال : إن الرجل العبقرى قد يتعذب بالمآسى ، فيزداد قدره على التعبير عن الحياة ، ولكن من سخر القدر أن يزج فى المآسى بالرجل الذى ليس عنده قدرة على استنباط ما فيها من عبر ، أو فن ، أو حكمة فيتعذب من غير أن يفيد عذابه ومن غير أن يجد سلوى فى عبقريته أو معينًا منها .

(٦٦)

تكملة نظرات بلزاك [١]

١ - إن المقياس الذى به يقاس ما يستطيع أن يتحمله المرء من الآلام هو مقياس من نفسه، ومن أجل ذلك لا يستطيع المرء تحمل آلام غيره مهما شاركه وعطف عليه وادعى حمل آلامه وعاونه .

٢ - إن نظرة واحدة من نظرات الغضب أو كلمة واحدة من كلمات العداء والنفور قد تمحو سعادة سنين طويلة من سنى الألفة والمحبة ، ولكن بريقًا زائلا مثلها من السرور ووميضًا قصيراً مثل وميض البرق منه ، لا يستطيع أن يمحو تعاسة السنين الطويلة من سنى الشقاء ، وذلك لأننا نتأثر فى سعادتنا بالألم ، أكثر من تأثرنا فى تعاستنا بالسرور الوامض القصير .

٣ - إن السبب فى أن احساساتنا لها حياة مستقلة بما لا نستطيع أن نغيرها أن تلك الإحساسات تتشكل وتنمو بما يناسبها من الظروف والأحوال التى أوجدتها ، والأماكن التى قويت فيها واشتدت ، كما أنها تنمو من نفسها بالأفكار المتصلة بها والتى كانت تشغل فكرنا عندما خلقت ، وتعظم بالخواطر والهواجس التى تناسبها فى النفس .

٤ - ربما نزداد قوة وقدرة برعاية من هو أضعف منا وبحمل أثقاله ومعاونته على متاعب الحياة ، ولعل بعض من يفعل ذلك يدرى هذه الحقيقة ويلتمس الزيادة فى القدرة بهذه الوسيلة.

٥ - قد يحسب بعض الأقوياء أو من يدعى القوة ويطمح إلى مراتبها أن فضيلة القوى وفضله فى حب السيطرة ، ولكن الذين يرون القوة أمراً طبيعيًا فيهم ولا يباهون بها يعرفون أن فضل الأقوياء فى ألا يشغف القوى بالسيطرة التى هى دليل على فقدان الحنان والعظمة .

٦ - إنك لا تستطيع أن تحكم على إنسان بدراسة حوادث حياته فحسب ، كما لا تستطيع أن تدرس التاريخ بمعرفة قوائم الحوادث . بل لابد من دراسة أشجان ذلك الإنسان وأحزانه وعواطفه وأفكاره الخفية ونزعات نفسه وعواملها . أما دراسة الحوادث فهى وسيلة الحمقى .

---

١ - المقتطف سنة ١٩٥٠ م ، المجلد ١١٧ ، الجزء الخامس ، ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٥٠م ، ص ٣٣٦-٣٣٩.

٧ - إذا تحركت الحياة فى المرء واشتعلت نارها بقوة لم يستطع الاقتصاد من ذلك الاشتعال، بل يدعه يشتعل بإسراف فلا يستطيع أن يقيس الغاية التى يسعى إليها ، ولا الوسائل التى يتخذها لها .

٨ - إذا كان الحب لا يغتفر كل شئ فهو لا يغتفر شيئًا ، واغتفار الحب قد يحسب جهلا وغفلة ، وهو ليس بجهل ولا غفلة .

٩ - إن صفات المكر والاحتيال والائتمار صفات كثيرة الفرص والوسائل والموارد ، وقد تعرف النفس الصافية المهذبة ذلك ، ولكنها لاتستطيع أن تتخلق بها حتى ولو حاولت ولا تستطيع أن تنتفع بها وإنما جل اعتمادها على ماقد يسعفها عفواً من السوائل ، وما يكون باتفاق المصادفة ، وليس اعتمادها على ابتكار الوسائل وصنع الحيل الناشئة من الاحتيال .

١٠ - إن أهل الخير قد يساء بهم الظن ، ويحسبون من أهل الشر والكيد إذا كان ينقصهم الذوق السليم ، فيعملون ماهو حسن طيب فى نظرهم من غير اهتمام بمعرفة أثره فى غيرهم .

١١ - إن الشباب يقيس المستقبل بفرجار من عنده ، فإذا كانت قوة إرادة الشباب وعزيمته توافق الزاوية الكبيرة ، التى انفرج عنها الفرجار فى قياسهم المستقبل كانت الدنيا لهم .

١٢ - كما أن فضائل الإنسان تظهر بمظهر أعظم فى البيئة الصالحة لها التى تناسبها ويكون مظهرها منطفئًا أو شبه منطفئ فى البيئة غير الصالحة لها ، كذلك المصائب قد ترخى على فضائل الإنسان حجابًا وستاراً فتخفيها .

١٣ - إن أعظم العظمة وأفخم الفخامة ليست فى المرئيات والظواهر الفخمة العظيمة من أمور الدنيا ، بل أعظم العظمة والفخامة فى أمور النفس .

١٤ - أكثر الناس فى الحياة إذا سقطوا كان سقوطهم إلى مستقر قريب ، وهم فى سقطاتهم كالأطفال الذين يتألمون ويصرخون ثم ينسون .

١٥ - إنما تحيا النفوس بأن تعطى غيرها من نفائسها ، وأن تأخذ من نفائس النفوس الأخرى وهى قد تعطى غيرها ثم تستعيد بعض ما أعطته بعد أن تحوله النفوس الأخرى إلى ذخائر ونفائس من عندها . وهذا التبادل ضرورى للنفس كما أن التنفس ضرورى للجسم .

١٦ - إن المرأة تشعر أنها تكون على أتم جمالها عندما تكون على أعظم سلطة وقدرة ، وقد تنال السلطة بفتنة جمالها - ومن أجل حب المرأة لما يجلو جمالها من السلطة والنفوذ تحب الرجل القوى القادر حتى ولو أدت قدرته إلى ضررها .

١٧ - الحب كالبحر فذوو السذاجة لايرون فى الحب كمن لايرى فى البحر غير شكل ومنظر واحد لايتعداه ، أما صاحب الميزة فى الحب فإنه كالذى يرى أن البحر لايكاد يستقر على شكل واحد من أشكال الجمال . بل يراه أشكالا وألوانًا متعددة من الجمال .

١٨ - إن الحب يخلق للمحب ربحًا ويوهمه كسبًا من كل شئ حتى من الألم والخسارة وما هو أشد منهما ، وينسيه مصائب المستقبل .

١٩ - الإيمان زهرة اليقين والأمل زهرة الرغبة . والأمل خير من الذكرى فإننا نعوم فى بحر من الذكريات ، ولكن حينا لابد أن يغرق فيه ، أما الأمل فإنه يجدد الحب كما يجدد كل نعم الحياة.

٢٠ - دوام رؤية الوجه ألفة قد تمحو صفات النقص فيه لأنه يطلع الرائى على صفات نفس صاحبه .

٢١ - كل اختراع فيه شئ من عفو المصادفة حتى ولو كان متوقعًا .

٢٢ - ليس الحب إحساسا فحسب ، بل هو أيضًا فن به يؤثر المحب فى قلب من يحب من غير أن يذويه ، وهو يحدث أثره بكلمة أو بسكوت أو بتردد بين الكلام والسكوت أو ماشابه ذلك ، ويلهم المحب متى يحسن أن يفعل أى شئ من ذلك .

٢٣ - كلما عظم نبل النفس ازدادت نفوراً من الخيانة والغدر حتى ولو كان فيها ربح لها .

٢٤ - إن المحبة المزوجة بالأنانية والأثرة لا تنال عطفًا من الناقد البصير بها ، إذ أن القلب يكره الحب الأنانى الذى يعد ويحسب ما ربح ، وهذا بالرغم من أن الحب الذى لا يحسب ما ربحه قد يكون ناشئًا فى قلب لا يعرف الحياة ولا يقدر الأمور .

٢٥ - إن معرفة الأوقات التى يحسن فيها الصمت تحتاج إلى خبرة ولباقة كالخبرة واللباقة التى تعرف الأوقات التى يحسن فيها الكلام .

٢٦ - إن العاطفة النبيلة تنمو بما يغذيها من تشجيع وعطف وحنان ومودة ، كما أن العاطفة الذميمة تنمو أيضًا بما يغذيها من حقد وعداوة وشر .

٢٧ - الزمن يعطى الصبر والعزيمة قدرة على عمل أى شئ .

٢٨ - لم تبتكر طريقة ولا وسيلة لرأم جرح اللفظ على صلاح وصفاء تام ، وجرح اللفظ قد يكون أشد من جرح السلاح .

٢٩ - لا يستطيع أن يعرف الأعاصير التى تثور عند قمم الجبال إلا من عاش بينها ، وكذلك لايستطيع أن يعرف النفوس العظيمة إلا من كان من النفوس العظيمة .

٣٠ - بالرغم من الأشياء العديدة التى قد تبعث الحمقى والجهلة والأغنياء إلى التغير والتقلب فإنهم قد يظهرون استمساكًا بمذهب أو حزب أو رأى واحد ، وسبب ذلك أن هذا التغير من حزب أو رأى أو مذهب إلى حزب آخر أو رأى أو مذهب قد يقتضى منهم تفكيراً والتفكير فى عقولهم عملية مؤلمة صعبة مرهقة معقدة مكروهة .

٣١ - إن الرجل الذى فى نفسه جانب نقص لا يستطيع التخلى عنه ، إنما يعطى اعداءه سلاحًا يستعملونه ضده إذا استطاعوا .

٣٢ - إن الصفة أو الفكرة الفنية توقظ النفوس سواء أكانت فى صنع فنى جليل أم فى جسم إنسان حى .

٣٣ - إن الشجاعة لباس يلبسه المرء كى يخفى به نقص نفسه وعوراتها .

ع . ش

(٢٦)

نظرات هازلت [1]

وليام هازلت هو الكاتب الناقد الإجليزى صاحب الرسائل ، وله مؤلفات أهمها رسائله فى موضوعات مختلفة ، ويمتاز بالنظر فى النفوس وخصائصها وفى بعض الأحايين يذكرنا مونتانى الفرنسى صاحب الرسائل ، وله كتاب فى سيرة نابليون بونابرت كتبه من جانب الأحرار كما كتب السير والتر سكوت سيرة نابليون من جانب المحافظين ، وقد بلغ إعجاب هازلت بنابليون حداً لم يبلغ اعجاب جوتا الألمانى فإن جوتا كان يعرف عيوبه وقد كان هازلت مناصراً لنابليون حتى بعد أن تخلى عنه الأحرار الفرنسيون . وبالرغم من أنه أرهق انجلتره بحروبه . وكان هازلت من الأحرار الإنجليز ولكنه كان ينتقد تطرف الأحرار أمثال شيلى الشاعر الإنجليزى فاعتناقه مذهب الأحرار كان مقروناً بالطبيعة العملية وحب الاصلاح العملى وفى حدود مستلزماته ، فهو من هذه الناحية انجليزى بطبعه . والظاهر أنه كان يناصر نابليون لأنه كان يعلم أن سقوطه يؤدى إلى روح رجعية فى فرنسا وغيرها كما حدث فعلا بعد سقوطه . وكان هازلت معجبًا بأدموند بيرك وعبقريته بالرغم من أنه انتقد أعمال أحرار الثورة ومبادئها وكان يقدر وردزورث الشاعر بالرغم من إنكاره انقلابه على مبادئ الأحرار ولم تكن له منفعة شخصية فى مناصرة نابليون والاعجاب به . والذى يهمنا من مؤلفات هازلت نظراته فى النفس والحياة فى رسائله العديدة . ولعل هذا سبب إعجاب سمرست موام القصصى به ، ولو أنه مدحه لطلاوة أسلوبه وله كتاب « رسائل حديث المائدة » و « رسائل المائدة المستديرة » و «رسائل ونتر سلو » وغيرها . وله كتاب فلسفى لاداعى للكلام عنه إلا أن نقول إن شغفه بالفلسفة ربما كان من أسباب عمق بصيرته فى رسائله التى عنى فيها بالنظر إلى خصائص النفوس وكان مولعًا فى صغره بالرسم . ولكن غلب عليه الأدب . وكذلك كان مولعًا بالشعر ، وله رسائل فى نقد الرسامين والشعراء ، وله بحوث فى قصص شكسبير وأشخاصها ، وفى قصص شعراء عصر الملكة اليزابيث التمثيلية . ولعل دراسة هؤلاء كانت أيضًا من أسباب بحث خصائص النفس والحياة . وكان صديقًا لكولريدج الشاعر ولشارلز لامب صاحب الرسائل المعروفة . ولم يكن موفقًا فى حياته الزوجية كما لم يكن موفقًا فى اجتذاب الأصدقاء

---

١ - المقتطف سنة ١٩٥١ م ، المجلد ١١٨ ، الجزء الأول ، ٢٤ يناير سنة ١٩٥١م ، ص ٧٤- ٨٢ .

واستبقائهم ولا فى تجنب الخصوم وتألفهم . وقد أثر أقوال الخصوم فى رأى بعض الكتاب إلى عصرنا هذا . وقد اتهم بمناقضة نفسه إذ يمدح الإنسان ثم ينقدة ، ولكن ذمه أو نقده لمن نقد كان من جانب آخر غير الجانب الذى مدحه به كما رأينا فى نقده لأدموند بيرك الخطيب العبقرى وللشاعر وردزورث ... الخ . ومن قرأ رسائله وجد أنه فى أكثرها أعظم اتزانًا مما يظن خصومه . ولعل كثيراً من الإنجليز لم يغتفروا له ، كما لم يغتفر بعض الألمان لجوتا إعجابه بعبقرية نابليون واصلاحه وتنظيمه ، وذلك لاعتداء نابليون وارهاقه الدول وتعطيله للتجارة فسئمت تكاليف الحياة ،

وفيما يلى بعض نظراته مع تعقيب قليل على بعضها :

١ - إن الذين لم يتعودوا أن يجادلهم مجادل وأن يعارضهم معارض لا يعرفون كيف يقابلون المعارضة والمحاجة فإذا فاجأتهم معارضة تلمسوا طريق الفرار قانعين بالانخذال . ومفاجأة الأمر الذى لم يتعودوه تفت فى عضدهم فتصيبهم الدهشة والخوف من الأمر الغريب ، وربما بعث الأمر الغريب الذعر والقلق والحيرة والارتباك ، فالمعارضة والمجادلة والمحاجة أمور تعود المرء الاعتماد على نفسه وعقله .

٢ - إن حب الإنسان للحياة وتعلقه بها وتشبثه لايكون على قدر هناءتها ودعتها ، وما يلاقى فيها من دواعى السرور ، فإنك قد تجد الرجل المكدود الذى لاينال رزقه إلا بشق النفس أكثر تعلقًا بالحياة من الوارث المنعم الملول الذى يجد كل شئ مستطاعًا . ومع ذلك قد لايلذ له شئ ، وربما بخع نفسه من الملل . وإنما يكون تعلق الإنسان بالحياة علي قدر رغائبه ومطالبه منها التى لم ينلها بعد ولم يحصل عليها . وكثيراً ما تكون العقبات والمطالب حافزاً على التشبث بالحياة والاستمساك بها ، فالذى يريد أن يتخذ من تشبث الإنسان بالحياة دليلا على أن السعادة فيها أغلب وأعم من الشقاء ، وأنها أمر قيم في ذاته ، إنما يتخذ منطقًا غير صحيح كى يثبت به أمراً ربما كان صحيحًا .

٣ - قد تكون شدة عاطفة الإنسان ورغبته سببها العوائق التي تعوق عن الأمر المرغوب فيه ، وليست قيمته ولا عظم فائدته هى السبب . فكم من أمر كنا لا نقيم له وزنًا ولا قيمة ، ولا نأبه له كثيراً وهو فى يدنا ، حتى إذا خرج منها ولم يعد فى حيازتنا ، اشتد طلبنا له وأسفنا على فقدانه إذا كان ليس فى استطاعتنا أن نحوزه .

٤ - كل ماهو خير فى نفس المرء قد يدفعه إلى الشر والإجرام كانتصاره لما يرى أنه حق وفضيلة ، أو كمناصرته لعقيدته ، أو كأخلاصه لوطنه ، وذلك لأنه أصعب على المرء أن يبذ

مخالفة أو خصمه بالفضل ، وأسهل أن يقهره وأن يؤذيه بالاعتداء والبطش وفى كل نفس مع ما فيها من خير ، ميل إلي الشر مكبوت كالكلب المفترس المكمم ، فإذا استطاع المرء أن يخلق عذراً لنفسه بأية وسيلة رفع الكمامة وأطلق ذلك الكلب المفترس والوحش الضارى وأجراه على الناس كى يؤذيهم ، فكل ما ينقص الإنسان كى يصنع الشر هو اختلاف العذر . ومن أجل ذلك ينبغى أن يحذر المرء جانب الخير من نفسه ، وحيز الفضيلة منها بقدر حذره جانب الشر والرذيلة .

٥ - يقول بعض الناس : إن الرذائل إذا زُيِّنت وحُسِّنت فقدت نصف شرها . وعندى أنها تزداد شراً بتلك الزينة التى تكتسب من زينة أصحابها . ومن رشاقة ظاهرهم ، أو من تغييرهم أسماءها ، أو من تحليتها بشئ من الفنون الجميلة يُجَمِّلُها ويُخفى قبحها وشناعتها ، أو من مظاهر الغنى والترف التى تغطى عليها ، فيقبل الناس عليها ، بدل النفور منها ، ويرتادونها بدل الفرار عنها .

٦ - كثيراً ما يلجأ الناس إلى الاضطهاد فى معاملة ذوى الاضطهاد ، وإلى قلة التسامح مع أعداء التسامح ، فلا يزول الاضطهاد ولا تمتنع قلة التسامح . وقد يكون الاضطهاد لغير صد عادية ذوى الاضطهاد بل للذة تجدها النفوس فيه .

٧ - إن تَنبُّه عقل الإنسان للأمور لا يكون على قدر الفائدة والعائد من تلك الأمور ، وإنما يكون على قدر وقعها من نفسه وأهوائها وهواجسها ، وقد لا تتناسب وقعها من نفسه وأثرها فيها مع الفائدة المرجوة منها . بل قد يكون أثر شدة وقعها من نفسه مثل أثر الإشراف من مكان مرتفع على هوة سحيقة فيحس المرء إحساسًا بالاندفاع إلى تلك الهوة ، وذلك الحضيض، ويكاد يرمى بنفسه فيه . وقد يفعل وهو يعرف أنه هالك لا محالة إذا فعل ، وأنه لا فائدة له إذا رمى بنفسه فيه .

٨ - إن بعض الناس لهم قدرة غريبة على ربط أنفسهم بكل موضوع للحديث حتى يصير حديثًا عن أنفسهم بعد أن كان حديثًا عن الموضوعات العامة مثل الكتب أو الحضارة أو الريف أو الشعر أو الفلسفة أو السياسة أو المجالس النيابية أو المبانى أو أى موضوع آخر لا صلة لهم به ، ولكنهم بمهارة سحرية يحولونه إلى حديث عن أنفسهم ، وإلى محاولة لتمجيد خصالهم وصفاتهم وأعمالهم ، حتى أن جليسهم يكاد لايعرف كيف تحول الموضوع .

٩ - ومن الناس من لهم موضوع حديث واحد غالب عليهم ولازم لهم لزوم الظل لصاحبه «فإذا كان الحديث الغالب عليهم هو الحديث عن الحلاقة حولوا كل حديث مهما كان موضوعه

إلى حديث عن الحلاقة » ومثل هؤلاء مثل الآلة الموسيقية التي لاتخرج غير نغمة واحدة ، ويدور بها الشحاذون يستجدون فيطلقون النغمة الواحدة منها فى كل مكان مرة بعد الأخرى . وكذلك أصحاب الفكرة الواحدة أو القصة الواحدة التي لاتفرقهم ولا يفارقونها أبداً ويحكونها ويرددونها فى كل مجلس حتى المجالس التي سبق ترديدهم لها فيها ويجدون لذة فى ذلك ولا يشعرون بما يعانيه جلساؤهم من ألم وملل وامتعاض .

١٠ – ومن الناس من يأبون إلا أن تقتنع بآرائهم فإذا سكت وشعروا أن سكوتك من عدم الاقتناع ، لجوا فى ذكر آرائهم وترديدها وإعادة ذكر حججهم ويأبون تغيير موضوع الحديث إذا حاولت أن تغيره بلطف ، وإذا اعترفت لهم بما يريدون كى تتقى إلحاحهم وشعروا أن اعترافك لهذا السبب وحده دون الاقتناع ، فإنهم ربما أعادوا الكرَّة عليك بآرائهم وحججهم ولا تقنعهم مجاملتك لهم حتى يروا مظاهر الاقتناع منك بادية عليك سواء أكان وراء تلك المظاهر اقتناع حقيقى أم كنت ماهراً فى تزييف مظاهر الاقتناع حتى يخدعوا بها .

١١ – قال الاسكندر المقدونى لو لم أكن الأسكندر لوددت أن أكون ديوجنيز الفيلسوف . وهذا الاستثناء صفة عامة فى النفوس ، فإذا سمعت إنساناً يود أن يكون إنساناً آخر فهو إنما يود أن يظل على شخصيته وأن يزاد عليها ثروة المغبوط أو علمه أو ذكاؤه أو جاهه أو قوته ... إلخ . أما أن يتمنى المرء مع حيازته لهذه الأمور المغبوطة أن يفقد شخصه ونفسه فأمر لا يقبله أحقر صعلوك ، لأنه لو فقد ما يميزه عن غيره من ذكريات وخواطر وصفات وآمال وإحساسات وصار إنساناً آخر لم ينتفع بالأمور المغبوطة التي حازها ، بل المنتفع يكون إنساناً آخر غير نفسه ، وقد خسر نفسه بدل أن يزاد عليها .

١٢ – بالرغم من صغر شأن كل إنسان فى العالم ومعرفته صغر شأنه فإنه قلما يطمئن إلى أن العالم لا يباليه ولا يهتم له كما يبالى نفسه وكما يهتم لشؤونها فيدهش ويرى أن ذلك من قلة الإنصاف كأنه يرى أن من الواجب أن يبالى العالم نفسه وشؤونها كما يباليها هو ، مع أن الأمر عكس ذلك إذ من الأمور الطبيعية أن لا يقيم الناس وزنًا لأموره كما يقيم هو وزنًا لها . وقد يفطن إلى ذلك بعد الغفلة ، ولكن هذه الفطنة لا تلبث أن تزول ، فإذا فوجئ مرة أخرى بالشعور بقلة مبالاة الناس إياه دهش مرة ثانية ، ثم مرة ثالثة وهكذا لا تفاجئه تلك الدهشة كما فوجئ بقلة اهتمام العالم له كما يهتم لنفسه ، وعدم إقامته وزنًا لأموره السابقة وقلقه وقلة اطمئنانه مثلهما فى كل مرة يشعر أن العالم لا يباليه كما يبالى أموره ولا يفيد من المرات السابقة عظة .

١٣ - إن الذين يبالغون فى قدر فضائلهم أو مزاياهم أو آرائهم كأنهم ينظرون بعين من أصابه اليرقان . إذا نظروا إلى آراء غيرهم أو فضائلهم أو مذاهبهم أو مبادئهم ، فتظهر لهم كما تظهر الأشياء مصفرة كريهة فى عين من أصيب بداء اليرقان ، والذين عانوا الاضطهاد من غيرهم كثيراً ما يتعلمون منه كيف يضطهدون غيرهم بدل أن يتعلموا ضرورة التسامح . ومن أجل ذلك يصل الناس إلى قصر صدق النظر والمبدأ والأخلاق والرأى على طائفتهم وحدها مهما تكن تلك الطائفة صغيرة ، وهذا ضيق فى الذهن لايمكن صاحبه من أن يفهم أن عقول الناس تختلف كاختلاف وجوههم ، وأن اختلاف الآراء والمبادئ والمذاهب أمر ضرورى ، وأن أنواع الفضل متعددة ، وينبغى أن نقبلها على اختلافها ، فإن اختلافها دعامة الحياة .

١٤ - إن الناس يقيسون الدنيا وأمورها بأنفسهم لابقدر تلك الأمور ، فما بعد عنهم مكانه فى الأرض أو منزلته من نفوسهم صغر حتى ولو كان كبيراً عظيماً ، وشأنهم فى ذلك شأنهم فى قدر الحوادث والأمور التى يبعد بها الزمان فتقل قيمتها إذا ابتعدت بعد قربها ، فسيان أكان البعد بالمكان والمنزلة أم بالزمان فإنه يصغر قيمة الأمور .

١٥ - من الناس من يلطخون إنساناً بالوحل ، ثم ينادون أنه ينبغى تجنبه لأنه ملطخ بالوحل ، وهى عادة فاشية فى الناس فينسبون إلى خصومهم صفات سيئة ، ثم يتخذونها حجة لاضطهادهم وحث الناس على اضطهادهم ، وهذا أمر قلب مقاييس العدل فى الأمور ، إذ يصير الجانى المجرم حكماً ينال الثناء ويصير المجنى عليه آثماً نصيبه العقاب .

١٦ - إن الشباب يشعر بالقوى الحيوية أكثر من الشيوخ . ومن أجل ذلك قلما يدرك الشباب معنى الفناء والموت مهما رأى من مظاهرهما فى غيره فإن ذلك لايكون إلا بعد أن يفقد الروح الحيوية التى فى الشباب . وبعد أن يشعر بالفناء يدب فى جسمه ، وبعد أن يرى آماله ومسراته تذوى كما تذوى الأزهار . أما قبل ذلك فإنه يشعر فى الشباب أن الحياة كنز لا يفنى ، وكأس من الرحيق لايفرغ مهما احتسى منها وأراق ، وذخر لا ينفذ مهما بذل منه لأن روح الخلد فى الشباب . ومن أجل ذلك يسرف الشباب فى بذل ما يفيض به من قوى الشباب وحيويته إسرافاً قلما تنفع معه موعظة ، ويقدم على المهالك بشئ من الاطمئنان ، ولا يغتر أحد بكثرة شكوى الشبان ، فإنها لاتنافى ذلك ، بل هى ناشئة من أنهم قد لايجدون إسعافاً من الدهر بقدر ما فيهم من حيوية وآمال ورغبات .

١٧ - إن الناس مثل آلات تدار أو حيوانات يعلق عليها نير مناصب الحكومة أو الأعمال الحرة أو المهن والحرف فيسيرون فى الطريق التى اختطها من سبقهم ، وينجحون فى تأدية

مايراد منهم ويسعدون بنجاحهم ، فكأنما ذلك النير هو نير السعادة وسرجها ورباطها وكل ما يطلب منهم ألا يدعوا أنهم أحكم وأعرف من غيرهم ممن أدركهم أو سبق عصرهم . فإذا هيأ لهم حب الظهور أن يظهروا ذكائًا وغروراً أو اغتراراً بالحكمة أو أنهم يعرفون من الأمور المنوطة بهم مالا يعرفه غيرهم ، فإن ذلك يكون سبب خيبتهم ، فإنه إذا صرفنا النظر عما يجلبه عليهم هذا المظهر من عداوة وحسد ، فقد يتخبطون فى التجارب والنظريات ولو فرضنا أن إنسانًا منهم مصيب فى بعض آرائه وخططه فإنه قد يغالى بقيمتها شأن أكثر المبتدعين فتفقده المغالاة الاتزان والاعتدال . وعلى العموم أو فى الغالب يكون حذق الجماعة أعظم من حذق الفرد ، ورأيهم أصوب من رأيه ، وخبرتهم أعظم من خبرته إلا من شذ وندر . ولا يصح أن يتخذ كل إنسان الشاذ النادر من الملكات قاعدة ، وأن يعد كل إنسان نفسه من ذوى الملكات النادرة ، وإلا ما كانت كذلك ، وأمور الحياة تقتضى المشاركة والتعاون ، وإذا زوى الإنسان وجهه عن الأمر المألوف المعتاد ، وحاول بتجنبه أن يختط لنفسه خطة جديدة لم يجد مشاركة ولا معاونة من الناس ، وانصرفوا عنه أو اضطهدوه ، وهى سنة وطبع فيهم ، تسبب اعتدال أمور العالم وثباتها ، بدل تقلقلها وتدحرجها وترجحها .

١٨ - قد تختلط فى نظر بعض الناس طيبة القلب وعدم المبالاة فإن ذوى الأثرة وحب الذات لايبالون أخربت الدنيا أم عمرت ، وهل عم الفساد أم لم يعم ، وهل انتشر الشر أو لم ينتشر ، وهل خذل الحق ، أم لم يخذل ، وهل اشتدت القسوة ، أم لم تشتد ، مادام كل ذلك لايمس مصالحهم ، فتحسب قلة مبالاتهم وأخذهم الأمور بالخلق الهين اللين من طيبة قلبهم ، مع أنهم لو مُسَّ أمر من أمورهم ، زالت قلة مبالاتهم وأظهروا عنفًا وشدة .

١٩ - إننا لا نبلغ الحق ولا ننصف الناس إلا إذا عرفنا وقدَّرنا جانب الصواب والحق الذى كثيراً مايكون ممزوجًا بأخطاء الناس وأغلاطهم ، فإذا جافينا أو أخطأنا ذلك الجانب من الصواب والحق ، أو حدنا عن الحق الممزوج بالباطل المنقود ، فإننا قد نخطئ بقدر خطأ من ننقدهم أو نلومهم .

٢٠ - يحسب المرء أن استسلامه للخيال اللذيذ ، وأحلام اليقظة السارة ، أمر برئ لا ضرر منه . والحقيقة هى أن من يتعود ذلك الاستسلام كثيراً ما يضعف عزمه ويفقده الأهبة والاستعداد والنشاط للعمل ، ويدعوه استسلامه للخيال إلى الاستنامة إلى ما قد يأتى عفواً من غير تدبير منه ، أو سعى أو كد وكدح . وكذلك من ينصرف إلى التفكير النظرى كل

الإنصراف ، ولا يتعود التفكير في الأعمال ، فإن ذهنه يشغل بحقائق بعيدة يكون المرء أمامها كالناظر المتنزه بالنظر والتأمل ليس له موارد من همة يجهزها لملاقاة حقائق الحياة القريبة ولا من عزم وعمل وإقدام ينال به خيرها ، ويصد عنه شرها ويحتال لها ، بل قد تدركه الحيرة .

٢١ - ينعى بعض الكتاب على الفقراء دناءة حسدهم للأغنياء ، ولا ينعون على الأغنياء دناءة الإسراف في اللهو ، وهم يرون الفقراء يعصرون في معصرة الشقاء ، ويداسون كما يدوس صناع النبيذ العنب بأقدامهم .

٢٢ - لو كان اعتياد المرء الآراء بسبب قهر المنطق الصحيح لعقله ولنفسه على أن يعمل لرأى أو فكرة ما ، لكان كل الناس شهداء المنطق والفكر ، ولا يستطيعون أن يخففوا عن أنفسهم وعن الناس مما يقتضيه العمل حسب مايوحي به ، ولكن الواقع أن الناس تستطيع أن تعتقد ما يوافق إحساساتهم ، وهذا يمكنهم إذا كان فيه راحة لهم أو منفعة ، وأن يخففوا عن أنفسهم أو عن الناس كما يمكنهم من مناقضة أنفسهم إذا كان فيها تخفيف عن أنفسهم أو عن الناس .

٢٣ - من أسباب قبول الناس للآراء والأخبار والشائعات أن كل إنسان يخشى أن يشذ عن الناس ويخاف أن لايكون مثلهم . ومن أجل ذلك يلتقفون الآراء والشائعات والأخبار بعضهم من بعض ، فهذا الإنسان يصدق أمراً ويقبله لا لأنه أمر يصدق ، بل لأن ذلك الإنسان يصدقه ويقبله . وأغرب من ذلك أن هذا الإنسان يصدق ويقبل الأمر الذى يخيل له أن ذلك الإنسان سيصدقه وسيقبله أو سوف يقبله ، فيسبقه إلى تصديق ذلك الأمر ، وربما كان هذا السبق سببا في أخذ المعاشر المسبوق به . وتصديقه إياه ، ولولا ما أخذ به كما زعم السابق أنه سيأخذ به .

٢٤ - في بعض الأحايين نرى أن شدة الشغف بغاية ما ، وشدة اللهفة للوصول إلى الغاية والمقصد تعوق عن إجادة الوسيلة التى تؤدى إلى الغاية ؛ لأن الوسيلة تحتاج إلى تأن وصبر وجلد وزمن ومران ، فيراها الملهوف طويلة مملة ، وتسبقها لهفته في الوصول إلى الغاية المنشودة ، فيحاول الوصول إلي غايته من أقرب الطرق ، حتى ولو أدى ذلك إلى أن يخطئ طريقها ، ولا يجيد في وسيلته إليها .

٢٥ - إذا رغبنا في أمر زاد اعتقادنا إياه وتصديقنا به ، وصرنا أكثر عنادا في الدفاع عنه ، ولكنا إذا خالفنا الناس جميعًا ربما اعترانا الخجل من إظهار رأى يخالفه الناس جميعًا ، حتى ولو كان عين الصواب ، فإن قدوة الناس تضغط علينا سواء أشعرنا أم لم نشعر بها ،

كما تضغط قوة الجاذبية على جميع الكائنات . والإنسان الذى يستمر فى الدفاع عن رأيه من غير أن يتأثر بمخالفة الناس وسخرهم وكرههم إياه وحرمانه من عطفهم ، وبالرغم من ايذائهم إياه ، يكون ذا عزيمة كعزيمة الهندى الذى ينذر آلهته أن يظل رافعًا يده إلى السماء حتى تتبلد وتجمد وتفقد الإحساس . ولاشك أن عداء الناس المرء محنة قد تبعثه إلى الشك فى بواعث نفسه ونياتها ومقاصدها ، وكأنما قد زحزح جنى مارد الكرة الأرضية من تحت قدميه وظل معلقًا وحده فى الفضاء .

٢٦ – زعم هوبز الفيلسوف أن الناس لا يختلفون فى أن مجموع زوايا المثلث يساوى زاويتين قائمتين ، وأن مجموع الأثنين والأثنين أربعة ، لأنهم لا مصلحة لهم فى هذا الخلاف . ولو كانت للناس شهوة ملحة ، أو منفعة فى إنكار ذلك لأنكروا هذه الحقائق الرياضية . والواقع أنهم عند تطبيقها فى أمور الناس التى تستدعى الشهوات والرغائب والخلاف يختلفون فعلا فى هذا التطبيق .

٢٧ – كثير ممن يدينون بالديمقراطية يدينون بها نظريًا . أما فى الأمور العملية فإن كل إنسان لا يدين بالديمقراطية ولا يأخذ بمبدئها الذى هو مبدأ المساواة . ويود لو يضحى بالناس لاشباع أطماعه ، وأن يخفضهم كى يعلى نفسه .

٢٨ – قلما يوجد بين الناس من عنده شجاعة كافية للدفاع عن إنسان صديقًا كان أو غير صديق إذا ترددت حوله أقوال الناس بالتهم والشتائم فإنه يخشى أن يتهم مثله . وأن يلاقى عداء من الناس . هذا علاوة على أن كل إنسان يميل إلى إعلاء نفسه بشتم غيره وانتقاصه ، فإذا وجد الناس ينتقصون إنسانًا وجد السبيل موطأ إلى هذا الإعلاء نفسه « ولو وكل الخصم كما قال هلبس كمحام بأجر مقنع للدفاع عن خصمه لوجد من أبواب المدح ما يبطل به ذمه لخصمه » .

٢٩ – ينسى الناس فى معاملتهم أنهم لا يتعاملون بالعقل النظرى المحض ، وإنما يغطى على أعينهم فيحسبون هذا الحسبان ، وإنما هم يتعاملون بما هم محكومون به من الشهوات الجامحة والنزعات الشاردة ، وقد يتخاصمون ويسعى كل فى أذى الآخر بسبب الاختلاف فى أتفه الأمور ، فهم كالأطفال المدللين . فحياة الناس كثيراً ما تكون لعبة من لعب التمويه والغش ، فهم يريدون أمراً وسعادتهم فى غيره ، أو أنهم يجدون السعادة فى ذلك اللعب نفسه ولكنهم فى النهاية ربما يجدون سؤر كأس تلك السعادة مراً كريهًا .

(٢٨)

نظرية السير أرثر هلبس [١]

إن بعض نظرات السير هلبس تذكرنا قول جوتا :

« إن الصواب المجهول إذا عرفه الإنسان كانت له فجاءة الأمر المتوقع وبغتة الأمر المعروف المنسى » كما أن بعضها يذكرنا قول جوتا أيضًا :

« إن الناس يزهدون فى الحق لأنه معروف مملول مألوف ، والألفة تبعث الملل وهم لا يستطيعون تطبيقه وإنجاحه وتحقيقه فهو يشق عليهم فى العمل ، وإن كان لايشق عليهم فى الفكر » .

ولقد كان منذ عهد الصغر كثير القراءة والإطلاع وكان يجمع بينهما وبين التفكير فيما يقرأ ، فنشأ عن ذلك أنه نشر نظراته فى عهد الشباب فدلت على حكمة الكهول وعلى أصالة الفكر ، وكان من أصدقائه أرثر هالام وتنيسون وغيرهما من الكتاب والشعراء . وكان مثقفًا ثقافة عامة ، فكان قصصيًا وكان مؤرخًا وكان كاتبًا أدبيًا وكان سياسيًا من الأحرار المعتدلين، وكان ملمًا باللغات وآدابها ، وقد ذكره رسكين فى بعض كتبه وقرنه إلى أفلاطون وكارليل وقال عنه أنه كان ذا بصيرة بالأمور وأصالة فى الرأى .

وقد نسى الناس قصصه وكتبه التاريخية ولم يبق غير نظراته وأفكاره ورسائله . وهذه نظراته ندع القارئ يحكم عليها أو لها . وهو سيجد فيها فكرًا عميقًا وبصيرة بالنفس الإنسانية ، كما سيجد فيها طلاوة الخيال الذى يوضح الحقائق ويفسرها ، وقد تولى منصبًا فى المجلس الخاص فى عهد الملكة فكتوريا ، وكان من المقربين لديها .

وفيما يلى بعض نظراته مع قليل من التعقيب :

١ - إذا أساء الينا مسئ وكانت لنا سلطة وقدرة عليه وتحكم فيه فإننا قد نشعر بالغضب ونظهره أكثر من شعورنا به وإظهاره إذا لم تكن لنا تلك القدرة على المسئ ، وهذا من طغيان الطبيعة البشرية التى قد تسهّل على المرء تحمل الاساءة ممن لا سلطة له عليه ، ثم يقتص لنفسه ممن له سلطة عليه ، بإظهار الغضب والاستسلام والتمادى فيه .

---

١ - المقتطف سنة ١٩٥١ م ، المجلد ١١٨ ، الجزء الثانى ،١٥ فبراير سنة ١٩٥١م ، ص ١٩٢- ١٩٥.

٢ - كثيراً ما ننسى أن من الناس ناسًا يلبسون نفوسهم كمن يلبس ثيابه مقلوبة ، فيظهر الوجه الأقل حسنًا ويخفى الوجه الزاهى الكثير الحسن .

٣ من الخطأ أن يقال إن المرء إذا تعود معرفة عيوب معاشريه ونقائصهم لا يأبه لها ولا يحس بها ، فالواقع هو أننا لنزداد شعوراً بها حتى أننا كثيراً ما نحسب أننا نجدها فى حالات لا توجد فيها ولا ترى وذلك من سوء الظن الذى يلازمنا فى عشرتهم .

٤ - ليكن اغتفارك ما تغتفره وما تصفح عنه أشبه بالنسيان منه بالاغتفار ، لأنه إذا لم يكن كذلك كان الاغتفار أشبه بالمن عليهم والاعتداء الذى يكرهونه ، وقد يمقتونك من أجله .

٥ - لا تتوقع أن تسمع من كل إنسان شرحًا مقنعًا لأسباب سلوكه ، لأنه كثيراً ما يغفل عن أهمها أو يسهو عنها أو ينساها ولو أن أثرها موجود فى نفسه . وكثيراً ما يتقدم المرء للسامع بالأسباب التى يظن أنها راجحة محبوبة عند سامعه وإن لم تكن أسباب سلوكه الحقيقية أو أهمها ، وإنما يفعل ذلك تقربًا إليه ورغبة فى نيل التزكية منه فتتم تلك الأسباب التى يفسر بها سلوكه عن رأيه فى خصال سامعه الذى يزكى نفسه لديه وتفشى رأيه المستتر فيه .

٦ - من الصعب الحكم على أسباب الخصومة ، لأن ظروفها القريبة قد لاتكون ذات صلة بالأسباب الحقيقية ، كما أن مكان المعركة قد لايكون سبب حدوثها ، وكثيراً ماتختفى الخصومة كاختفاء الماء الذى يجرى فى بطن الأرض ويخرج فى مكان سحيق بعد أن تعتوره أحوال عديدة ، ولا يدل مكان ظهوره على نشأته .

٧ - إذا تعودت الاستسلام لمحبى أنفسهم من ذوى الأثرة طلبًا للراحة من عناء إلحاحهم ، فإن ذلك كثيراً ما يؤدى إلى تضييع ما هو أمانة فى عنقك من مصالح الناس عامة ، وليس بعد تضييع الأمانة إلا إنكارها وانكار تضييعها والإمعان فى الظلم وما يجره من الفساد والشرور وسخط الناس .

٨ - لا تجعل غضبك وامتعاضك مقياسًا لخطأ أحد الناس ، فإن الغضب والامتعاض قد لايعادلان إساءته أو خطأه ، وإذا تعودت ذلك تعودت الظلم وقلة الانصاف ، لأن للنفس حالات تغضب فيها من الخطأ القليل ، غضبًا أشد من غضبها من الخطأ الكثير فى حالات أخرى أو مع إناس آخرين .

٩ - كثيراً ما يهوى الناس مناقضة الصفات المعروفة فى نفوسهم ومخالفتها ، فترى الرجل الكثير التغاضب والشراسة يجنح فى بعض الأحايين إلى اللطف والدعة والتسمح لكى يضلل الناس إذا أحس أنهم فطنوا إلى شراسة طبعه .

١٠ - لو أعطى الإنسان القدرة على أن يتحول بالتمني وأن يكتسب به جمالا لما تمنى إلا ما يجعله نسخة جميلة لشخصه قبل التمنى ، وكذلك لو استطاع أن يحول نفسه بالتمنى فإنه لايتمنى لها إلا أن تكون نسخة جميلة من صورتها الأولى قبل التمنى .

١١ - لو بحثنا ما يسميه الناس الثبات فإننا نجده فى كثير من الأحوال الإلحاح الناشئ من حب الذات والإصرار الناتج منه فيتزيًا ، فى رأى الناس بزى الثبات على المبدأ ويسمى باسمه .

١٢ - لو استطاع الساخط على إنسان أن يحس كأنه محام يدافع عن المغضوب عليه بأجر يرضيه ، لدهش لكثرة الحجج التى يستطيع أن يدلى بها لصالحه ، كى يثبت براءته أو عذره وكى يثبت إساءة نفسه فى سخطه .

١٣ - إن سرورنا بمن نستطيع أن نغير رأيه أعظم من سرورنا بمن يوافقنا قبل الحاجة ، وقد يعرف الماكر هذا الأمر فيختلف معنا اختلافًا قليلا ثم يعود فيظهر الاقتناع برأينا كى يسرنا سروراً يدفعنا إلى قضاء حوائجه .

١٤ - إذا استسلمت إلى سوء الظن وجدت غذاء كافيًا لسوء ظنك يزكيه ، كما أن أذن المؤرق اليقظان يسترعى انتباهها فى سكون الليل كل صوت خافت .

١٥ - إن الناس يلجأون إلى الغش ويعدونه أسهل الوسائل وأقربها ، مع أن صاحب الغش لابد أن يكون ذا نفس يقظى وعينين متنبهتين وأذنين سامعتين لكل أمر ، كى لا ينكشف غشه فهو فى أشق الأمور ، وأسهل منه الصدق فى المعاملة فلا يحتاج الصادق إلى تنبه جوارحه لتغطية كذبه .

١٦ - إن الناس يعتدون النصيحة التى ينصحهم بها غيرهم كالضرائب المباشرة المفروضة عليهم كلما ازدادت مقت الناس لها . وقلما يلتجئ المرء إلى طلب النصيحة من غيره إلا إذا أراد تزكية ومدحًا منه لعمله أو قوله أو فكره . وإذا فطن أن فى النصيحة من غيره فائدة لغيره شك فيها وتجنبها حتى ولو كانت فيها فائدة لنفسه ، وأضيع النصح أن تنصح إنسانًا يعمل ما لا يستطيعه .

١٧ - إن ذا الحاجة إذا طلب منك طلبًا وكانت فى قولك له كلمة يصح أن تحمل على محمل الوعد وأن تُؤوَّل إليه وأن تفسر به فإنها تكبر فى ذهنه بالأمل حتى تصير كالجنى المارد الذى خرج من القمقم فى قصة ألف ليلة ، ويقاضيك إياها ويعدك حانثًا كاذبًا قليل الوفاء كثير الغدر .

١٨ - من الأمور المضحكة المعتادة أن نرى إنسانًا يلح على آخر كى يقبل منه عطاء أو هدية أو معروفًا ، وصاحب العطاء أو المعروف فى سريرة نفسه لا يريد من الآخر أن يقبل معروفه أو هديته أو عطاءه ، بينما نرى الآخر يقبل العطاء متضايقًا من إلحاح الأول ويخشى أن يجرح إحساس ذلك الملح إذا رفض عطاءه أو معروفه ، وهو بقبوله المعروف يزداد مقتًا فى سريرة الأول .

١٩ - قد يكون غضب إنسان منك ناشئًا من غضبه على نفسه بسبب استسلامه إلى هذا الغضب وعدم قدرته على كبحه وقلة تقديرك لهذه الحالات النفسية منه .

٢٠ - إن الأمور النبيلة الجليلة إذا تأملها المرء طويلا بإنعام ولم يتأمل غيرها فإنها قد تجعله غير قادر على تبين الأمور والحكم عليها حكمًا صحيحًا ، ومثله مثل من ينظر إلى الشمس المتوهجة مدة طويلة حتى لا يستطيع أن يميز الأشياء .

٢١ - كما أنه من الصحيح فى العلوم الرياضية أن يقال إن النقطة الواحدة لا تعين اتجاه خط مستقيم وهى أحرى أن لا تعين اتجاه الخط المعوج . كذلك لا تستطيع أن تحكم بعمل واحد يعمله المرء على خلقه بوجه عام ، فإن خلق الإنسان حتى من كان ساذجًا كثير الاعوجاج . ومع ذلك يسرع الناس إلى الحكم على أخلاق إنسان بعمل واحد من أعماله .

٢٢ - إن من اتقان النفاق والخداع أن يكون صاحبهما عادلا مستقيمًا صريحًا شريفًا فى الأمور التى لاتعنيه ولا تعوقه عن مطالبه ، ومن أجل ذلك صار المخادع الماهر لا يستخدم خداعه ونفاقه فى كل أمر .

٢٣ - يقال فى علم الطبيعة أن اعتراض نوعين خاصين من الأشعة ، قد يحدث ظلاما فى نظرك وكذلك اجتماع الحجج المتخالفة فى المحاجة للأمر ، وضده ، قد يحدث ارتباكًا وظلاما فلا تستبين الأمور إلا إذا بحثت كلا منها على حدة .

٢٤ - كثيراً ما ينسب إلى الرجل الجاهل أكثر الرزائل أو الفضائل ، لأن الجهل يبعثه إلى سوء الظن وإلى القسوة وحب الأذى وكره الفكر والمفكرين ، كما أنه قد يتبع قدوة الناس من غير فكر فيضل إذا ضلوا ويصيب إذا أصابوا فى عمل الخير ، وهو فى هذه الحالة الثانية يكون محسوبًا من ذوى الفضل والفضائل .

(٢٩)

تابع نظرات السير أرثر هلبس [١]

٢٥ - إنك قلما ترضى رجليك إذا مدحت كلا منهما مدحًا مساويًا لمدحك الآخر بلا فرق ولا تمييز لأن طالب المدح إنما يريده كى تكون له ميزة على غيره .

٢٦ - كما أن بعض الناس يرغب فى الرذائل لأن سبيلها سهل موطأ فكذلك يرغب آخرون فيها بسبب العوائق التى تعرض سبيلهم فتشهيهم مكافحة العوائق وتجعلها محبوبة لديهم .

٢٧ - قد يحترم الناس الرجل الذى يدوس عواطفهم ويؤلم إحساساتهم إذا وجدوا أنه لا يتحرج من أن يدوس عواطف نفسه وأن يؤلم إحساساتها . أما الرجل الذى يؤلم احساسات غيره كى يرضى إحساسات نفسه وعجبها ، فإنه لا ينال إلا المقت والاحتقار فى صميم نفوس الناس ، ولو أن بعض المعجبين يستهون الناس بعجبهم وغرورهم ، فيخضع لهم الناس فترة طالت أم قصرت .

٢٨ - كثيراً ما يكون احترام المحب للمحبوب من رماد الحب بعد فنائه ، وكثيراً ما يلتجئ إليه المحب الذى فنى حبه كى يخفى به فناء الحب ، فيحسب الناس دليلا عليه لما قد يجدون منه فى الحب ، ولكنه قد يكون من ندم المحب إذا فنى حبه .

٢٩ - من الخطأ أن يقال إن الإنسان لا يستطيع أن يعرف نقائص نفسه فإنه كثيراً ما يعرفها ولكنه يسميها أسماء أخرى خداعًا للناس وتضليلا لهم ولنفسه ، وهو يعوضهم عن ذلك الخداع المضلل بأن يبادر بتسميتها بأسمائها الحقيقية إذا لاحت له فى غيره ، أو إذا حسب أنها لاحت له . أو إذا اتهم بها غيره بحق أو بغير حق .

٣٠ - لا تحسب أن المصيبة تمحق كبر الرجل المتكبر إذا حلت به بل إن كبره لا يزال به موجوداً وقد يتخذ أشكالا وألوانًا أخرى وينتهز فرصة لاستعادة شكله الأول .

٣١ - لقد صدق باسكال العالم الرياضى الفرنسي إذ قال إننا نعطف على من كان به اعوجاج فى قدمه بسبب عاهة ولكننا لا نعطف على من كان به اعوجاج من فكره ، لأن الأول

---

١ - المقتطف سنة ١٩٥١ م ، المجلد ١١٨ ، الجزء الثالث ، مارس سنة ١٩٥١م ، ص ٢٥٣ - ٢٥٥.

لابد أن يعترف إذا مشى باعوجاج قدمه أما الثانى فإنه ينكر اعوجاج فكره ويحاول أن يثبت أننا على اعوجاج فى الفكر -ومع صحة رأى باسكال ينبغى أن لا نعنف مع صاحب الرأى المعوج وأن نعطف عليه وأن نعتقد أن ذلك من آفة فى عقله كآفة القدم المعوجة أو كآفة الصمم أو البكم وأن نتذكر أننا أيضًا كثيراً ما يدفعنا التحيز والتشيع إلى الحكم بالباطل فيظهر اعوجاج فكرنا بالتحيز أو العاطفة وإن كنا نأبه له .

٣٢ - إن للفكر أخذة ومن أجل ذلك صار العلماء حتى الأفاضل منهم لا يتحرجون من تضليل قرائهم وتضليل نفوسهم ؛ كى يثبتوا صواب فكرهم فى أثناء بحثهم إما من شغفهم بإثباته وإما لنيل المدح من الناس ولكن سوء استعمال القوة الفكرية مكروه مثل سوء استعمال القوة البدنية وهم إذا وصلوا بعد ذلك إلي الصواب فهذا الصواب يكون مثل الممالك التى نزورها فى الأحلام . وقد نعرف أننا فى أحلام إذا فكرنا فى طريق الرحلة إليها (وهذا كما فى قصة الباحثين عن المكروب) وإذا كان هذا شأن العلماء الأفاضل فى البحث العلمى فهو أحري أن يكون شأن الناس عامة فى حياتهم اليومية .

٣٣ - إن أهل الاستكانة تعوزهم الجرأة على طلب حقهم فإذا لم تقم أنت لهم بكل حقهم ركبت الشطط فى معاملتهم وسهل عليك الظلم واغتصاب حقوق الناس والرغبة فى استثمار جهودهم بأقل مما يقتضيه العدل إذ قد تعد استكانتهم دليلا على نيل أهل الاستكانة ، ولا أمر يتلف صحة رأي المرء فى العدل مثل العيش بين أهل الاستكانة فإذا عاش بين غيرهم بعد ذلك ظهر ظلمه ودهش لظهور ظلم لم يكن يعتده ظلمًا .

٣٤ - يقولون إن الكذب لا يصدق ولا يقبل لأنه لا أساس له ولا قوة فيه ، ولكن لكل كذبة وقت وميعاد وهوى فى النفوس ، ولا يمنع من تصديقها أنها لا أساس لها . وقد تكون لها قوة كبيرة مستمدة من قوة من يؤمن بها . (وهذا يذكرنا قول ثاكرى إن الكذب قد يكون أصغر من النقطة ولكنها مع ذلك كالنقطة السائرة التى تحتل مكانًا كبيراً وترسم خطًا طويلا) .

٣٥ - قد يكون اليأس كالنوم يجدد قوى النفس والفكر ولكنه إذا صار عادة ونيراً أصبح شللا لهما .

٣٦ - كثيراً ما يؤدى الندم إلى اليأس من أداء الخير مع أن المفروض أنه ينبغي أن يؤدى إلى معاودته والتزامه ، وإنما يؤدى إلى اليأس من أداء الخير ، لأنه يحسب أن ما جناه من الشر دليل على حياته كلها ، فيكون مثله مثل من يدع النقطة من السائل الأسود تغطى على

جميع ثوبه بدلا من تلافيها من أول سقوطها ، أو كمن يجد صخرة فى النهر أو عكارة فى نقطة فى جزء من الماء فيحسب أنها تدل على الماء كله .

٣٧ - إذا أردت أن تفهم عصرك فاقرأ ما يكتب فيه من القصص فإن المرء كثيراً ما يريد أن يخفى نفسه فى نفس القاص كى يتمادى فى وصف الرذائل وصفًا مغريًا يحببها إلى الناس وهو يزعم أنه ينهاهم عنها .

٣٨ - قد توضح حياة المرء ما التبس فى قوله ، فهوبز الفيلسوف الإنجليزى الذى زعم أن الدولة هى كل شئ وأن الناس إذا أنشأوا الحكومات أسلموا لها كل حق قد اعترف للورد كلارندون أنه أنما فعل ذلك كى يتحبب إلى الحكومة فتسمح له بالعودة من منفاه وريدولفى قد نشر رسائل لميكافيللى يستعطف فيها بعض الأمراء ويشكو إليهم سوء حاله ويقول فيها إن مبادئ الطغيان التى ذكرها فى كتابه (الأمير) إنما ذكرها تزكية لأعمالهم فى الحكم وأنه من أجل ذلك يستحق أن يعان على أمره بالمال كصدقة ، وقد زعم كتاب آخرون أن هؤلاء الكتاب إنما هالهم انقسام الآراء فرأوا أن للأمراء الحق فى توحيدها صيانة للأمن وجلبًا للوحدة بأية وسيلة حتى الوسائل العنيفة الشديدة (وذلك هو ما زعم ماكولى فى رسالته عن ميكيافيللى) وربما كان الدافعان موجودين فى نفس القائل عند قوله ما ذكر .

٣٩ - إن من قلة العقل أن يرفض المرء كل لطف أو عطف وأن يسئ به الظن لأنه لايعرف سببه والباعث له فإنه يكون كمن يرفض ماء النهر لأنه لايعرف منابعه .

٤٠ - بعض القواعد الأساسية فى الشرائع لايعمل بها الناس في حياتهم ومعاشرتهم بعضهم لبعض ، فالمبدأ الذى ينص على أن كل متهم برئ حتى تثبت ادانته لا يعمل به الناس كذلك المبدأ الذى يشرع أن الشك ينبغى أن يجعل فى مصلحة المتهم لا يأخذ به الناس فى حياتهم الخاصة ، فينشأ عن ذلك قلة التسامح ولو عملوا بهما كانوا أقرب إلى التقوى والعدل والتدين .

٤١ - لقد صدق جوتا إذ قال فى قصة فوست (إن الذى يصمم على أن يعد غير مخطئ إذا كان ذا لسان ذرب محق وذلك لأن الطلاقة والمهارة فى الكلام قد تهزم أقوى ملكات العقل) .

٤٢ - إن عمل الشر لا يتوقف على كبر شأن صاحبه ومع ذلك فإن الناس كثيراً ما يظنون أن الرجل الحقير لا يستطيع عمل شر كثير حتى وهم متأثرون بما يقول أو ما يصنع من الشر .

(٣٠)

تتمة نظرات السير أرثر هلبس [١]

٤٣ - كثيراً ما يكون المرء حتى من كانت عنده شجاعة خلقية كبيرة أداة يحركها غيره أو قربانا وضحية على مذبح الخداع كما يحدث فى عالم السياسة أو فى الحياة اليومية المعتادة . وينبغى للمرء أن يمضى فى عمله وفكره لا يبغى تمجيداً ولا حسن ذكرى ، غير آبه لمدح الناس أو ذمهم فإن طاعة الناس ابتغاء مدحهم قد تكون هزيمة لشجاعته الخلقية .

٤٤ - إن الرجل العملى على كثرة مدحه فى هذا العصر الحديث كثيراً ما يتقدم بفكرة واحدة غالبة عليه ليهدم مبدأ عظيمًا فيكون مثله مثل من يقطع بغيظ وجرأة رباط عقد غير كريم فينقطع العقد وتنتثر حباته وقد تضيع بعض أحجارها الغالية الثمينة .

٤٥ - أن الأسباب التى يتقدم بها إليك إنسان لتفسير سلوكه كثيراً ما تغشى رأيه المستتر فيك ؛ فإنه يتقدم بالأسباب التى يظن أنها توافق أخلاقك وترضيك .

٤٦ - مما يزيد فى تواضعنا تتبعنا سلسلة الحوادث الماضية فى حياتنا حتى نصل إلى السبب الأول فنجد سبب سعادتنا أو تعاستنا سوء تفاهم تافه أو تأخر طرفة صغيرة أو أشباه ذلك من الحوادث التى تدل على سخر الحياة إذ أن السعادة أو التعاسة ليست مؤسسة دائمًا على أسباب هامة كبيرة .

٤٧ - يشعر الناس بنوع من الغرور والإعجاب بالنفس يدعوهم إلى الغرور بشراستهم والاعجاب بقلة أدبهم ؛ إذ يحسبون ذلك فضيلة فيهم تجعل الناس تهابهم فيمعنون فى الشراسة وقلة الأدب ويعتبرونهما ميزة لهم وحقًا .

٤٨ - إن القرد يحاكى لمهارته فى المحاكاة ، والأغنام تحاكى لأنها ليس عندها عزيمة وعقل الإنسان هو المخلوق الذى قد يحاكى الأمر الذى يكرهه وما يعرف أنه خطأ خشية لوم الناس .

٤٩ - مما يدل على جلال الصدق وضرورته ، أن الإنسان إذا كذب مرة تحايل بالكذب مرة أخرى كى يثبت أنه كان صادقًا فى المرة الأولى فيمعن فى الباطل كى يخفى كذبه ويكون

---

١ - المقتطف سنة ١٩٥١ م ، المجلد ١١٨ ، الجزء الرابع ، أبريل سنة ١٩٥١م ، ص ٣٤٢ - ٣٤٤.

كالحيوان الذى يحفر حجراً عميقًا كى يختفى فيه عن الناس ، وعمل الإنسان هذا قد يكون سببه الرغبة فى الظهور بالكمال ، أو قد يكون مؤسسا على اعتباره أن الكذب مكروه متساو فى شناعته فإذا كذب كذبة صغيرة شفعها بأخرى كى يخفيها ، والعاقل من يعرف أن كل إنسان به شئ من الباطل فلا يجد داعيًا لأن يتورط فى الباطل ، فيكون شبيهًا بمن يريق الحبر على ثيابه كى يخفى بقعة منه عليها .

٥٠ - إنك إذا أكرمت إنسانًا وكان اكرامك إياه يجلب لك منفعة ومسرة ، فإنك لا تستطيع أن تنال دائمًا اعترافه بجميل ما صنعت ، لأنه قد يحمله على محمل إرادتك المنفعة والمسرة لك ، لا نفعه واكرامه بالجميل الذى صنعت معه .

٥١ - إن الناس كثيراً ما ينفرون ممن لا يخطئ أبداً ويسيئون به الظن ، كما ينفر الناس ممن عنده ذلاقة يستطيع أن يثبت بها أنه دائمًا على حق .

٥٢ - إذا خدعك من حولك كثيراً فاعلم أنك خليق بأن تخدع ، إما لضعفك وتصديقك كل ما يقال لك ، وأما لطغيانك وعدم السماح لهم أن يسمعوك ما تكره سماعه .

٥٣ - إن من الضعف أن تخفى عمن تستشيره فيه خشية أن تطلعه على أسرارك التى تود أن تبقى خافية ، وأضعف من ذلك أن تأخذ برأيه ونصيحته عند ذلك ، لأن رأيه يكون مؤسسا على ما أبديت له دون ما أخفيت عنه .

٥٤ - لا تطلع أحداً على سر قد يضره كتمانه إذا عرف أنه كان يعرفه ، فإن الحذر كثيراً مايدعو إلي افشائه تجنبًا للضرر ، ولا تحسب أن طلب العطف والمعاونة يسوغ اطلاعك إياه عليه ، ولا تطلع أحداً على سر يزداد عظمة وربحًا بإفشائه، فإن حب العظمة أو الربح كثيراً ما يغليان الأمانة .

٥٥ - كثيراً ما يأخذ المرء بالفكرة الشائعة من غير تمحيص أو بحث ، ثم يجادل ويدافع عنها بكبر وازدراء كأنه أفنى عمره فى تمحيصها وبحثها .

٥٦ - قد يصر الرجل بعدغضبه على صدق كلمات قالها فى حالة فورة غضبه ولم يكن يريد الأخذ بها لولا ذلك الغضب ، فيكون مثله مثل من انتقل من حالة هذيان مؤقت إلى حالة جنون دائم .

٥٧ - من الغريب أن الناس لا يتقاتلون ولا يتعادلون كما يفعلون ذلك فى الأمور العويصة الغامضة التى لاتدركها عقولهم ، مثل أمور ما وراء الطبيعة ، مع أن عدم فهمهم إياها كان ينبغى أن يعلمهم التسامح .

٥٨ - ليس فى الناس مخدوع مثل من يخدع نفسه بمعرفة نصف خداع المخادع وهو يظن أنه يعرف كل نواياه ومقاصده .

٥٩ - إن كلمة « الناس » كثيراً ما يقصرها المرء على طائفة قليلة حوله أو على إنسان أكثر منه دراية ومنطقًا ، وهذا ما يصنعه إذا فعل شيئًا أو قال قولا يريد تأييده ، فيقول إن الناس يريدون ذلك أو، يفعلونه - وهذا مثل كلمة « الشعب » التى كان المتطرفون فى عهد الثورة الفرنسية الأولى يطلقونها على حثالة الرعاع من الباريسيين .

٦٠ - إن عبد العادة القديمة قد يسخر من عبد الأمور المستطرفة الحديثة السارية وكلا الأمرين رق مادام عقل المرء مغلولا بما يتبع .

٦١ - كثيراً ما يمقت الناس من يدعى الفضل ويخافون ممن يحاول الظهور به ويحسبون أن ذلك اساءة إليهم وتحقير لهم ، مع أنه قد يحاول بما يظهر به التقريب إليهم وإيناسهم وطلب العطف ونيل الرضا . وقد ننسى أن كثيراً من الناس مختلفون عنا فليس عندنا وسيلة للحكم عليهم .

٦٢ - لكى يمنع الإنسان كبح نفسه عن الرذائل من أن يبعث فيه الغرور وما يجره الغرور من الآثام ينبغى أن يتأمل الهاوية التى كان على وشك أن يقع فيها لو أنه لم يكبح نفسه عن الرذائل بدل الشعور بالكبر والغرور واضطهاد الناس .

٦٣ - الصدق هو أعم مظهر من مظاهر إنكار الذات وأكثرها تنوعًا ؛ لأنه كثيراً ما يتعرض بين المرء وبين ما يحب ، ولو أن المرء كثيراً ما يخفى بعض الحق حتى ولو كان صريحًا ببعضه ، إذ يرى أن إخفاء القليل الذى يعده تافهًا قد يؤدى إلى كسب محقق أو يتفادى بإخفائه خسارة يرى أنها محققة فيخفيه استهانة بتفاهته ، حتى ولو أدي ذلك إلى سوء فهم للأمور ، وقول الحق لا يكون إلا بعقل متزن ؛ لأن التضليل قد يكون سببه المبالغة التى تكون طبعًا فى النفس . أما الاندفاع فى القول فهو تضليل غير مقصود ، ولكن ذلك لا ينقص من ضرره . وقول الحق ينبغى أن يؤدى إلى أن يزداد المرء معرفة بنفسه كما ينبغى أن يؤدى إلى قدره غيره قدراً صحيحًا . ولو عرف الناس نفوسهم لتسامح بعضهم مع بعض وبطل الاضطهاد .

٦٤ - إن الطبع الذى يجمع بين الصراحة فى القول والحذر والاحتياط من أن يفهم السامع أكثر مما يعنى بقوله لا يتهيأ إلا لمن كان سليم المقاصد والأعمال ، وكان يقدر قدراً لطيفًا دقيقًا إحساسات غيره ، وهذه صفات تدله على ما يجوز أو يحكى عن أمور نفسه وما يجوز أن يتحدث به عن أمور غيره بصراحة مقرونة إلى الحذر والاحتياط .

(٣١)

نظرات ابن المقفع (١)

قال الأمير شكيب أرسلان فى مقدمة « كتاب الدرة اليتيمة » لابن المقفع - وهو الكتاب الذى طبع فى مصر وسمى « الأدب الكبير » - " فاخترت طبعها لأنها مع صغر حجمها قد جمعت بين أعلى طبقات البلاغة وأسمى درجات الحكمة وتضمنت من الحكم البوالغ والحجج الدوامغ ما لم يتضمنه كتاب قبلها ولا بعدها " - والأمير شكيب أرسلان أديب مطلع على كتب الآداب العربية فهو لا يرسل القول من غير تمحيص ، بعد أن قرأ كتب الجاحظ والماوردى وابن مسكويه وابن حزم وابن عبد ربه وغيرهم ، ومن المستطاع العثور على حكمة وبلاغة فى كتبهم ولكنها إما مقتبسة من الخطب والأقوال ، وإما أنها ، مع بلاغتها ، لا تصل إلى ما تصل إليه حكمة ابن المقفع من الإلمام بعادات الناس وطباعهم وأخلاقهم ونزعات نفوسهم وسلوكهم فى الحياة مع بلاغة الإيجاز . ولعل الأمير أرسلان لاينحو فى قوله منحى المقرظين الذين اعتادوا المبالغة والتعميم فى كل مدحه ، ولعله قارن ووازن وخلص إلى هذا الرأى . وقد فطن الكتاب إلى تلك الحكمة التى يطربها الأمير شكيب فكان الكتاب فى عهد الجاحظ يحاكونها وينسبون مؤلفاتهم إلى ابن المقفع كى تروج ، كما اعترف الجاحظ نفسه وإلا كان نصيبها الكساد والبوار . أما ترجمة ابن المقفع لكتاب كليلة ودمنة من الفارسية فهى تذكرنا قول جوته : " إن المترجم كالخاطبة فى البلاد الشرقية تنقل محاسن العروس المحجوبة إلى الفتى الذى يريد أن يتزوجها فتشوقه تلك المحاسن " - فالمترجم شريك المؤلف يعرض بضاعته أحسن عرض بما يناسبها فى اللغة التى يترجم إليها وإلا ما أجاز ابن المقفع لنفسه أن يضم إلى كتابيه الأدب الكبير والأدب الصغير أقوالا ذكرها فى كتاب كليلة ودمنة ومعانى كأنها من معانيه ، ومن أجل ذلك يقول فى كتاب الأدب الصغير : " إذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل أصيل وأن يقولوا قولا بديعًا فليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم وإن أحسن وأبدع ليس زائدًا على أن يكون كصاحب فصوص ، وجد ياقوتًا وزبرجدًا ومرجانًا فنظمه قلائد وسموطًا وأكاليل ووضع كل فص موضعه وجمع إلى كل لون شبهه مما يزيده بذلك ، وكالنحل وجدت ثمرات أخرجها الله طيبة وسلكت سبلا جعلها الله ذللا فصار ذلك شفاء وطعامًا وشرابًا

---

١ - المقتطف سنة ١٩٥١ م ، المجلد ١١٨ ، الجزء الخامس ، مايو سنة ١٩٥١م ، ص ٤١٤ - ٤١٧.

منسوباً إليها مذكوراً به أمرها وصنعتها - ويبقى بعد ذلك ما بين الصانع الصَّناع والألمعى النجيب وبين الساطى الذى يسرق الكلام كما هو أو يذهب بمحاسنه فهمه " .

وابن المقفع على ما فى قوله من حكمة وإدراك للأمور لم يعصم فى معاملة السلطان الأكبر وهو الخليفة المنصور ، ولا فى معاملة عامله على البصرة وهو سيفان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبى صفرة من هنات تخالف ما رسم لمعاشر السلطان ومخالط الوالى وجليسه من حكمة وأدب فلم ينتفع بحكمته ، ونسى قوله إن على من يريد أن يكون إماماً أن يعظ نفسه ويتعظ قبل محاولته وعظ الناس . وقوله أن العالم يبدأ بنفسه فيؤدبها بعلمه ولا تكون غايته اقتناءه العلم لمعاونة غيره فحسب ، فكان مثله مثل فرنسيس باكون الإنجليزى (اللورد باكون) فإنه يقول : " إن على القاضى أن لا يتخذ القضاء شباكًا وحبائل يقتنص بها الناس " ثم يكون من أواخر القضاة الإنجليز إن لم يكن آخرهم - الذين استخدموا التعذيب وسيلة لانتزاع الاعتراف من نفوس المتهمين ويعظ الناس بالنزاهة ثم يأخذ الرشوة من المتقاضين وينصح المفكرين بالاستنتاج المؤسس على المشاهدة الصحيحة ، دون التعلق بالأمور النظرية من غير بحث ، ثم يرفض كثيراً من الحقائق العلمية الحديثة التى وصل إليها الباحثون بالطريقة التى حث عليها فكانت حكمة باكون فى كل هذه الأمور لغيره لا لنفسه كما كانت حكمة ابن المقفع ، وعلى من يعيبه أن يبحث أولا فى قوله وعمله ، فإن حكمة أكثر الناس لغيرهم لا لنفوسهم فى كثير من الأمور ، ويذكرنا ابن المقفع باكون فيما يولع به كلاهما من التشبيهات والأمثال والقصص التى يجلو بها حكمته ، وكانت هذه الطريقة محبوبة شائعة فى الأدب الإنجليزى فى عهد الملكة اليصابات وجيمس الأول ، ومن أوجه الشبه بينهما أن كليهما مولع بالأساطير التى فيها حكمة ومغزى .

فألف باكون كتابه فى أساطير الأغريق وسماه « حكمة القدماء » وأوضح فيه ما خلف أساطيرهم من حكمة بارعة ، كما ترجم عبد الله بن المقفع عن الفارسية أساطير الهند وحكمتهم فى كتاب « كليلة ودمنة » وكل من ابن المقفع وباكون ماهر فى بلاغة الايجاز . وقد يذكرنا ابن المقفع فى وصف آداب السلوك أديبًا إنجليزيًا آخر وهو لورد تشسترفيلد ، فإن هذا كان همه وصف آداب السلوك كى يهذب ابنه ويصقله . أما أدباء اللغة العربية فلعله لا يقاربه ويقرن به إلا الجاحظ على ما فى الجاحظ من مدح للشئ ومدح لضده ، وكتب الجاحظ عالم فى الموضوعات المتنوعة ، فلا غرابة إذا اختلف أسلوبه فى كتاب عما هو فى كتاب آخر. فنرى أسلوب الجاحظ فى كتاب « مناظرة الربيع والخريف » أكثره سجع ومزاوجة وموازنة

ومقابلة ومرادفة ، بينما هو فى كتاب « الدلائل والاعتبار » يكاد يخلو من هذه الأمور ويصدق فيه قول بديع الزمان الهمذاني أنه منقاد لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله » أما عبد الله بن المقفع فأسلوبه على وتيرة واحدة حتى قيل إنه السهل الممتنع وفى بعض الأحيان يستعمل المزاوجة والموازنة ، ولكن لا كاستعمال الجاحظ لها فإن الجاحظ يطيل فيها ويكثر ، وهى فى أسلوب الجاحظ لها وقع السجع فى الأذهان حتى أن من لا يلتفت قد يظنها سجعًا . والذى يمتاز به ابن المقفع بلاغة الإيجاز ولا تعنى أن الجاحظ ليس له من الحكم الجوامع ولكن أكثر أقوال ابن المقفع ولاسيما فى كتابى « الأدب الكبير » و « الأدب الصغير » من جوامع الكلم التى تجمع الحكمة فى بلاغة وايجاز مع استيفاء المعنى ، أو ما يكاد يكون استيفاء . وينبغى أن نتذكر أن ابن المقفع كان منكوبًا ، والمنكوب مخذول فى دعاوى الناس مغبون فى أقوالهم ومصاب بأكاذيبهم وأباطيلهم ، فلا تستطيع الأجيال التى بعد عهده أن تميز الحق من الباطل فى كثير مما ينحل من القول وما ينسب إليه من الفعل ، إذ هو مهتضم بعد النكبة لا يجد من ينافح عنه بتمييز الصواب فيما ينسب إليه حتى ولو كان مشهوراً محسوداً يحتذى الناس قوله . ولا مناص لنا على هذا الأساس من القول إن حكمته لم تعصمه من الزلل والهلاك ، ولا نحسب أن كاتبًا قديراً مثله كان يستعصى عليه أن يجمع بين شدة المواثيق ولين اللفظ والتحايل ، لذلك فى كتابه الذى طلب فيه الأمان لهم المنصور الذى ثار عليه وهزم ، ولا نظن أنه كان يجهل ما فى بعض أقواله من عبارات يتأذى بها الخليفة ولا يتسامح فيها ، حتى ولو كتبها على لسان أعمامه مثل قوله إذا غدر بعمه « فنساؤه طوالق والمسلمون فى حل من بيعته » ولكن المرء قد يجمع إلى الحكمة والمعرفة رعونة الطبع ، وهذا كان داءه إذا صح كل ما ينسب إليه مثل تطوعه بالسخر والسفه على حاكم البصرة . فكان إذا دخل عليه وسلم قال السلام عليكما يعنى هو وأنفه ، فأنزل أنفه منزلة الإنسان لأنه كان كبيراً ، وإذا قال حاكم البصرة : ما ندمت على سكوت قط : قال ابن المقفع : « الخرس زين لك فكيف تندم عليه » يعنى أنه كان عيبًا . وإنه لأمر يدعو إلى الحيرة أن يكون الحاكم مهزلة لرجل مثل ابن المقفع مهما يكن أثيراً عند أعمام الخليفة . وعندما أمر المنصور بقتله قتله هذا الحاكم شر قتلة . ومن الدليل على رعونة طبعه فيما يحكى عنه أنه لما اعتزم الاسلام ، وكان مجوسى الأصل وحضر طعام الأمير جعل يزمزم على الطعام على عادة المجوس فليم فى ذلك ، فقال : أحببت أن لا أبيت على غير دين وهو إما أنه اقتنع بالإسلام حتى أراد أن يشهر إسلامه فى غده فهو

مسلم بعقله وقلبه فلا معنى لقوله . وإما أنه كان غير مقتنع وكان اسلامه نفاقًا ، وقد اتهم بذلك واتهم بالزندقة . ومن رأيى أن من حماقة الطبع أيضًا الجملة المشهورة التى يرويها عنه الكتّاب أى قوله « شربت الخُطَب ريًا ولم أضبط لها رويًا ففاضت ثم فاضت فلا هى نظام وليس غيرها كلامًا » . وهذا سجع شبيه بسجع الكهان . ثم لماذا قصر شربه على الخطب دون غيرها من سائر أنواع النثر . نعم إن للبلاغة نشوة ولكنه فى بعض قوله ينهى القارئ عن جميع أنواع السكر ، سكر الشباب وسكر العلم وسكر الذكاء وسكر الجاه وسكر القدرة وسكر المال وهو فى بعض قوله يوضح ما فى مدح النفس من سماحة . ومما يروى بصدد ذلك أن الخليل بن أحمد الفراهيدى واضع العروض سُئل عن ابن المقفع فقال : علمه أكثر من عقله ، وسئل ابن المقفع عن الخليل فقال عقله أكثر من علمه . ومن الغريب أن المرء عندما يقرأ كتبه ينسى رعونة طبعه أو يكاد يشك فيما ينسب إليه من القصص التى تدل على ذلك ، ويعترف أنه أكبر كتاب العربية فى جوامع وبلاغة الإيجاز والحكمة المؤسسة على ما يشاهد من عادات الناس وطباعهم وأخلاقهم التى تخبر عنها أعمالهم فى إيجاز واستيفاء للمعنى أو شبه استيفاء ، وهذا هو معنى تقريظ الأمير شكيب أرسلان الذى ذكرناه .

وفيما يلى بعض نظراته مع شئ من التعليق على بعضها :-

١ - لا يمنعك صغر شأن امرئ من اجتناء ما رأيت من رأيه صوابًا والاصطفاء لما رأيت من أخلاقه كريمًا فإن اللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائصها الذى استخرجها .

٢ - إذا كنت لا تعمل من الخير إلا ما اشتهيته ولا تترك من الشر إلا ما كرهته فقد أطلعت الشيطان على عورتك وأمكنته من أزمتك . فأوشك أن يقتحم عليك فيما تحب من عمل الخير فيكرهه إليك وفيما تكره من عمل الشر فيحببه إليك ، ولكن ينبغى لك فى حب ما تحب من الخير التحامل والصبر على ما يستثقل منه ، وينبغى لك فى كراهة ما تكره من الشر التجنب لما يحب منه .

٣ - إنه تكاد تكون لكل رجل غالية حديث إما عن بلد من البلدان أو ضرب من ضروب العلم أو صنف من صنوف الناس أو وجه من وجوه الرأى أو ما هو شبيه بذلك ، وعندما يعزم به الرجل من ذلك يبدو منه السخف ويعرف منه الهوى فاجتنب ذلك في كل موطن .

(٣٢)

تتمة نظرات ابن المقفع [١]

٤ - لا يوقعنك بلاء خلصت منه فى آخر لعلك لا تخلص منه - وقد يخلص الناس من بلاء بوسائل توقعهم فى بلاء آخر ويوهمون أنفسهم أنهم ربما وجدوا خلاصًا سهلا من هذا البلاء الآخر متى شاءوا بعد اتخاذه وسيلة للخلاص من البلاء الأول ، وأقرب مثل لذلك الكاذب الذى يخلص من بلاء بكذبه موبقة وادعاء يوقعانه فى مؤاخذة لو عرف بطلان كذبه وادعائه ، أو مثل الذى يتجنى على آخر ثم يحاول أن يخلص من عاقبة تجنيه بجناية أخرى .

٥ - لو أن رجلا كان عالمًا بطريق مخوف ثم سلكه على علم به سمى جاهلا ، ولعله إن حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواء هجمت بها فيما هو أعرف بضررها فيه وأذاها من ذلك السالك الطريق المخوف ، ومن ركب هواه ورفض ما ينبغى أن يعمل بما جربه هو أو أعلمه به غيره . فكان كالمريض العالم بردئ الطعام والشراب وجيده وخفيفه وثقيله ، ثم يحمله الشره على أكل رديئه وترك ما هو أقرب إلى النجاة والتخلص من علته ، وأقل الناس عذراً فى اجتناب محمود أفعال وارتكاب مذمومها من أبصر ذلك وميزه وعرف فضل بعضه على بعضه، كما أنه لو أن رجلين أحدهما بصير والآخر أعمى ساقهما الأجل إلى حفرة فوقعا فيها ، كانا إذا صارا فى قاعها بمنزلة واحدة ، غير أن البصير أقل عذراً عند الناس من الشرير إذ كانت للأول عينان يبصر بهما وهذا بما صار إليه جاهل - « وللفيلسوف سقراط رأى فى موضوع الخير والشر فهو يقول كما روى أفلاطون عنه أن المرء لا يرتكب الشر ويختاره وهو يعلم أنه شر ، ولا يتجنب الخير وهو يعلم أنه خير ، ولعله يعنى أن الأهواء تغطى على بصيرته، فيصير علمه جهلا ، فتوهمه أن فى عمل الشر خيراً أكبر ، وفى تجنب بعض الخير خيراً أعظم ، وهذا كما وصف المأمون به العلم ، كما رواه الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين : العلم بصر فى خلافه العمى ، والاستبانة للشر ناهية عنه والاستبانة للخير آمرة به » .

٦ - إن فى الناس ناسًا كثيراً يبلغ من أحدهم الغضب - إذا غضب - أن يحمله ذلك على الكلوح والتقطيب فى وجه غير من أغضبه وسوء اللفظ لمن لا ذنب له والعقوبة لمن لم يكن يهم بعقوبته ، وسوء المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك . ثم يبلغ به الرضا -

---

١ - المقتطف سنة ١٩٥١ م ، المجلد ١١٩ ، الجزء الثانى ، سبتمبر سنة ١٩٥١م ، ص ٧٦ - ٧٩.

إذا رضى - أن يتبرع بالأمر ذى الخطر لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ، ويعطى من لم يكن أعطاه ويكرم من لاحق له ولا مودة . فاحذر هذا الباب كله فإنه ليس أسوأ حالا من أهل القدرة الذين يفرطون باقتدارهم فى غضبهم وسرعة رضاهم ، فإنه لو وصف بصفة من يتلبس بعقله ويتخبطه ألمس من يعاقب فى غير من أغضبه ، ويحبو عند رضاه غير من أرضاه ، لكان جائزاً فى صفته - « وهذا يذكرنا الأمراء الذين كانوا يعاقبون بالقتل رسلهم الذين يبلغونهم خبراً سيئًا كفرعون فى قصة ثيوفيل جوتييه ، كما يذكرنا أيضًا دانتريو الشاعر الإيطالى الذى كان يمنح من خدمه ومن لم يخدمه من خدم النزل والمطعم مالا كثيراً لا تسمو إليه همتهم خشية احتقارهم إياه ؛ لأنه كان به الشعور بالنقص » .

٧ - أعلم أن بعض شدة الحذر عون عليك فيما تحذر ، وأن شدة الاتقاء قد تدعو إليك ما تتقى « وتولع بك ما تخالف ممن تخاف ، لأن الإفراط فى الحذر قد يؤدى إلى الحيرة والارتباك والقلق والتخلق بمظاهر الريبة ، والمريب متهم ، والريبة تجذب عداوة الناس إلى صاحبها كما يجذب المغناطيس الحديد » .

٨ - قارب عدوك بعض المقاربة تنل حاجتك ، ولا تقاربه كل المقاربة فيجترئ عليك عدوك، وتذل نفسك ، ويرغب عنك ناصرك ، ومثل ذلك مثل العود المنصوب فى الشمس إن أملته قليلا زاد ظله وإن جاوزت الحد فى إمالته نقص الظل - « وفى التذلل للعدو ويقول إبراهيم بن العباس صاحب المقطعات الجامعة :

يصبح أعداؤه على ثقة	منه وخلانه على وجل
تذللا للعدو عن ضعة	وصولة بالصديق عن دخل

٩ - إياك أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية ، وأن يعرف الناس ذلك منك فيكون ثلمة من الثلم يتقحمون عليك منها ، وبابا يفتتحونك منه ، وعيبه يغتابونك بها ويضحكون منها . وأعلم أن قابل المدح كمادح نفسه ، والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذى يحمله على رده ، فإن الراد له محمود ، والقابل له معيب - « أين هذا الأدب من هراء سجع الكهان فى القول المنسوب إليه : شربت الخطب ريًا ، ولم أضبط لها رويًا ، ففاضت ثم فاضت، فلا هى نظامًا وليس غيرها من الكلام » .

١٠ - أمور لاتصلح إلا بقرائنها : لا ينفع العقل بغير ورع ، ولا الحفظ بغير عقل ولا شدة البطش بغير شدة القلب ، ولا الجمال بغير حلاوة ، ولا الحسب بغير أدب ولا السرور بغير أمن ولا الغنى بغير جود ولا المروءة بغير تواضع ولا الخفض « أى اليسر » بغير كفاية ، ولا

الاجتهاد بغير توفيق - « وإلا أدى العقل إلى الفساد ، والحفظ إلى الخطأ والبطش إلى الانكشاف والانخذال ، وكان الجمال سمجًا ، وكان ما تحت الحسب دناءة وشراسة ، ووراء السرور هما وقلقًا ، وكان الغنى بطراً ولؤمًا ، والمروءة منا والخفض عسراً لا يغنى والاجتهاد عناء وخيبة » .

١١ - إن صحبة الأشرار ربما أورثت صاحبها سوء الظن بالأخيار وحملته تجربته فى صحبتهم على الخطأ - وأقل ما يكون من ذلك أن الأخيار إذا عاملوه بالكرم والخير واللين حسب كل ذلك منهم فخًا وشركًا يريدون أن يوقعوه فيه - وقد يغالى فيحسب كل برئ متهمًا حتى تظهر براءته ، بدل أن يحسب كل متهم بريئًا حتى تظهر إدانته ، وبطبيعة عملهم ومقابلتهم للأشرار ، يميل رجال الشرطة ومن شابههم إلى سوء الظن بالناس .

١٢ - إذا أردت السلامة فأشعر قلبك الهيبة للأمور من غير أن تظهر منك الهيبة فيفطن الناس لهيبتك ، ويجرئهم عليك ظهورها ، يدعو إليك منهم كل ما تهاب . فأشحذ طائفة من رأيك لمداراة ذلك من كتمان المهابة وإظهار الجرأة والتهاون ، وعليك بالحذر فى أمرك والجرأة فى قلبك ، حتى تملأ قلبك جرأة ، ويستفرغ الحذر عملك - « وإنما يريد بالهيبة ذلك الحذر الذى يصون عمله من الخطأ » .

١٣ - ليجتمع فى قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم ، فيكون افتقارك إليهم فى لين كلمتك ، وحسن بشرك ، ويكون استغناؤك عنهم فى نزاهة عرضك ، وبقاء عزك : « وليس لين الكلمة وحسن البشر نقصًا ومذلة كما يعدهما ذو النقص . قال المأمون كما روى الثعالبى : ما تكبر أحد إلا لنقص وجده فى نفسه ، ولا تطاول إلا لوهن أحسه منها » .

١٤ - إذا نابت أخاك نائبه من النوائب ، من زوال نعمة ، أو نزول بلية ، فاعلم أنك قد ابتليت معه أما بالمؤاساة فتشاركه فى البلية ، وإما بالخذلان فتحتمل العار ، فالتمس المخرج عند اشتباه ذلك ، وآثر مروءتك على ما سواها ، فإن نزلت الجائحة التى تأبى نفسك مشاركة أخيك فيها فأجمل « أى فى معاملته وعند ذكره ولقياه » فلعل الإجمال يسعك لقلته فى الناس « إذ أن أكثرهم ينقلب فيصير عدوا كى لا يقال أنه خذل صديقًا » .

١٥ - أعرف عورتك وإياك أن تُعَرِّضُ بأحد فيما شاركها ، وأعلم أن الناس يخدعون أنفسهم بالتعريض والتوقيع بالرجال فى التماس مثالبهم ومساويهم ونقيصتهم ، وكل ذلك أبين عند سماعه من وضح الصبح ، فلا تكونن من ذلك فى غرور ولا تجعلن نفسك من أهله .

١٦ – من الدليل على سخافة المتكلم أن يكون ما يرى من ضحكه ليس على حسب ما عنده من القول ، أو الرجل يكلم صاحبه فيجاذبه الكلام ليكون هو المتكلم ، أو يتمنى أن يكون صاحبه قد فرغ وأنصت ، فإذا أنصت لم يحسن الكلام .

١٧ – وقّر من فوقك ومن دونك ، وأحسن مؤاتاتك الأكفاء ، وليكن آثر ذلك عندك مؤاتاة الإخوان ، فإن ذلك هو الذى يشهد لك بأن إجلالك من فوقك ليس بخنوع لهم ، وإن لينك لمن دونك ليس لالتماس خدمتهم .

١٨ – إن أمور الدنيا ليس شئ منها بثقة ، وليس شئ من أمرها يدركه الحازم إلا قد يدركه العاجز ، بل ربما أعيا الحزمة ما أمكن العجزة ، فإذا أشار عليك صاحبك برأى فلم تجد عاقبته على ما كنت تأمل ، فلا تجعل ذلك عليه لوما وعذلا ، تقول أنت فعلت هذا بى وأنت أمرتنى ، ولولا أنت ولا جرم لا أطيعك ، فإن هذا كله ضجر ولؤم وخفة ، وإن كنت أنت المشير فعمل برأيك أو ترك فبدأ صوابك فلا تمتن ولا تكثرن ذكره ، ولا تلم عليه إن كان استبان في ترك نصحك ضرراً ، تقول ألم أقل لك ؟ ألم أفعل فإن هذا مجانب لأدب الحكماء .

١٩ – العجب آفة العقل ، واللجاج عقيد الهوى ، والبخل لقاح الحرص ، والمراء فساد اللسان ، والحمية سبب الجهل ، والأنف توأم السفه ، والمنافسة أخت العداوة . « فالمعجب بنفسه يزين له عجبه الخطأ فلا يراه خطأ ، والكثير اللجاج كثير العناد فى الدفاع عن هواه ، والبخل يربيه الحرص وينميه حتى يستفحل ويحرم نفسه وغيره مما وهبه الله ، والمراء يستدرج إلى بذاءة اللسان ، والحمية إذا استشرت كانت من دلالات الحمق ، والأنف من التسهل فى معاشرة الناس يؤدى إلى السفه ، والمنافسة فى حطام الدنيا كثيراً ما تؤدى إلى العداوة بين الآحاد والأمم » .

محتويات المجلد الأول

صفحة

٣ - كتاب الثمرات :

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٠٤٥٤ / ١٩٩٨

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 305 - 044 - 0)